kitabweb-2013.forumaroc.net

احمد بوشرب

دكالة

والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور

(- قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)

الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

دكالة
والاستعمار البرتغالي
إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور

(- قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)

احمد بوشرب
كلية الآداب - فاس - المغرب

الشركة الجديدة
دار الثقافة
34-32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26.53.46 — 26.23.75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

الطبعة الأولى 1404 – 1984
جميع حقوق الطبع محفوظة

الإهداء

إلى أم سهيل

وإلى خالي

كانت هذه الدراسة موضوع رسالة نوقشت بمدرج ابن خلدون بكلية الآداب الرباط يوم 2 ماي 1980 ونالت دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بميزة حسن جدا .

وبالمناسبة أقدم شكري إلى كل الذين ساعدوني على انجاز هذا العمل ، وأخص بالذكر أستاذي محمد زنيبر الذي تفضل بالاشراف عليه ، وبعض الأساتذة والزملاء الذين ساعدوني في الترجمة أو في توضيح ومناقشة بعض جوانبه ، كالأستاذ Rosenberger

Abréviations

-خ. ع= الخزانة العامة بالرباط

-خ. م= الخزانة الملكية بالرباط

A.E.S.C.	Annales, économies, Sociétès, Civilisations.
A.I.E.O.	Annales de l'institut des études orientales.
Arch. Hist. Port.	Archivo histórico português
B.E.P.	Bulletin des études portugaises.
doc...	document...
Hesp.	Hesperis.
Hèsp – Tam.	Hesperis – Tamuda.
Rev.	Revue.
S.I.H.M.	Sources inédites de l'histoire du Maroc.
S.I.H.M. Port	Sources inédites de l'histoire du Maroc. série portugaise
Sq.	et suivantes.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـة

موضوع الدراسة: منهجه ومصادره

1 ـ الموضوع والمنهج

يتعلق موضوع هذه الدراسة بدكالة داخل الحدود التي كانت تشملها في بداية القرن السادس عشر، اي المنطقة الممتدة ما بين نهري ام الربيع والتانسيفت من جهة، والمحيط ونجد الكنتور من جهة ثانية.

أما الفترة التي اخترتها، فتمتد من بداية اهتمام البرتغاليين بدكالة الذي انتهى بدخول آسفي وأزمور تحت الحماية البرتغالية قبل سنة 1481 بالنسبة للأولى، وفي سنة 1486 بالنسبة للثانية، الى حين إخلاء المدينتين في نهاية سنة 1541.

وكان وراء اختياري لموضوع يتعلق بتاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب السببان الرئيسيان التاليان:

١ ـ لم يكن ذلك الغزو حدثا بسيطا وعابرا سرعان ما جعلت ردود الفعل المغربية العنيفة والفورية حدا له. بل على العكس من ذلك، كان بمثابة منعرج في تاريخ بلادنا، تولدت عنه نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وديموغرافية جد خطيرة، وسبب هزات عنيفة داخل المجتمع المغربي، وخلف بلبلة في الافكار والمعتقدات. ولم يستطع لا انتصار وادي المخازن، ولا القرون التالية محو كل مخلفات ذلك الغزو التي بقي بعضها قائما الى يومنا هذا.

٢ ـ ورغم هذه الخطورة، لم يهتم المغاربة، قدماء ومحدثين، الاهتمام الكافي بتاريخ

الغزو الايبيري عموما، والبرتغالي على وجه الخصوص. فالمعلومات المتعلقة به، والتي زودتنا بها مصادرنا جد قليلة، لا تتعدى الاشارات السريعة الى تاريخ سقوط بعض المدن في ايدي الاسبان والبرتغاليين، وتاريخ تنظيم بعض الحركات الرسمية. وكان جل تلك التواريخ اما مفتقرا الى الدقة، أو خاطئا.

ولم يكن تجاهل مؤرخينا المعاصرين أقل من سابقيهم. فرغم توفر مجموعة من المصادر والدراسات الاجنبية التي طلعت علينا منذ بداية هذا القرن، لم يلتفت أي مغربي، ولا أي عربي - فيما أعلم - إلى هذه الحقبة، وذلك رغم أن مؤرخي الاستعمار الفرنسي سمحوا لأنفسهم بعدد من أحكام القيمة والتأويلات التي كانت الغاية منها تشويه موقف المغاربة من البرتغاليين والطعن في وطنيتهم وديانتهم وأخلاقهم. واقتصرت المحاولات المغربية التي بذلت في هذا الصدد على المقالة السريعة والسطحية التي تكتفي بسرد تواريخ احتلال المدن. وكان نصيب معركة وادي المخازن من هذا المجهود القليل كبيراً. وبذلك بقيت عدة جوانب من تاريخ الغزو مجهولة لدى المغاربة.

وعلى العكس منا، أولى المؤرخون الأجانب الغزو البرتغالي اهتماما كبيراً نظرا لتمكنهم من اللغة والبليوغرافيا البرتغاليتين. وهكذا تم البحث عن مئات الوثائق التي نشرت إلى جانب عدد من المصادر البرتغالية والدراسات التي تناولت جانبا من جوانب الغزو البرتغالي، مقدمين بذلك خدمة كبرى لتاريخ المغرب. ولكن استغلال اولئك المؤرخين وتوظيفهم لتلك الوثائق والمصادر لم يكن دائما سليما، وسقط في عدد من الهفوات، أهمها تمجيد التوسع البرتغالي، وصبغ مكتسباته بصبغة العظمة والمثالية، ودراسة ذلك الغزو من وجهة نظر المستعمر دون أخذ مواقف المغاربة منه بعين الاعتبار، وتوظيف بعض استنتاجات تلك الدراسات لفائدة المستعمر الفرنسي، كما يتجلى ذلك مثلا من خلال ما كتبه (روبير ريكار R. Ricard) و(كولفن J. Goulven) حوالي سنتي 1930 و 1953. ومن هذه الهفوات كذلك، تسليط عدد من أحكام القيمة على المغاربة.

ونظرا لهذه الهفوات، ولفقر الخزانة العربية الى عمل يتعلق بهذا الموضوع، آثرت الاهتمام بتاريخ الغزو على غيره من المواضيع. ولكن اتساع الرقعة الجغرافية التي شملها، والفترة الزمنية الطويلة التي تم فيها، جعلاني أفضل دراسة غزو منطقة محددة، واخترت دكالة من بين باقي المناطق المغربية للأسباب التالية:

١ ـ لأن تعامل البرتغاليين معها كان شديد الاختلاف في بداية اهتمامهم بها، وعلى مستوى الادارة المركزية على الاقل ـ مع تعاملهم مع باقي المناطق المغربية التي تحكموا فيها. فاذا تم احتلال مدن الشمال اعتمادا على العنف وعلى وسائل عسكرية جد ضخمة، فإن ملوك البرتغال تحكموا في بداية الامر في موانئ دكالة اعتمادا على التوغل السلمي والوعود والرشاوي واعترافهم بسلطة حكام أهم الحواضر مقابل دخولهم تحت الحماية البرتغالية. ولعب التجار البرتغاليون ووكلاء الملك على الخصوص دورا طلائعيا في تحقيق هذا التوغل، وفي استقطاب الاعيان، الى حد أن عددا من هؤلاء أصبح تحت «حرمتهم» أي حمايتهم الشخصية. واعتمادا على هذا النوع من التوغل السلمي، اعترفت آسفي وأزمور بسلطة التاج البرتغالي عليهما، وكادت المدينة الغربية ومراكش أن تعرفا نفس المصير. ولم يفكر لا الملك الفونصو الخامس، ولا خلفه يوحنا الثاني، ولا حتى (امنويل) في التخلي عن هذه السياسة، والانتقال من الحكم غير المباشر الى الاحتلال الفعلي، وذلك رغم ضعف المدينتين وكثرة الفرص التي توفرت لهم بهما، بل أكثر من هذا واجهوا عصيان قواد آسفي بسياسة يمكن تسميتها بسياسة البوارج والانقلابات، ولم يقرر الملك امنويل احتلال آسفي سنة 1508 الا وهو شبه مرغم، وتحت ضغط التجار الآسفيين والبرتغاليين الذين كانوا يتوخون من ذلك التدخل العسكري إعادة الأمن الى المدينة بعد أن أضرت الفتن بمصالحهم، وأسقطت آسفي في ركود تجاري تام. وكان مشروع الهجوم على أزمور في نفس السنة، ومشروع إعطاء السلطة بها للأمير زيان بعد دخول الجيوش البرتغالية اليها دليلا آخر على تفضيل الملك البرتغالي سياسة الحكم غير المباشر على الاحتلال. وبما انني كنت اهدف الى تتبع خصائص ومراحل ونتائج تلك التجربة السياسية البرتغالية بدكالة التي انتهت بتحرير آسفي وأزمور، فإنني لم

أدرس تاريخ احتلال مازيغن بعد 1541 لأنـه خارج عن نطـاق تلك التجربـة السياسية.

٢ ـ وكان السبب الثاني الذي أملى علي اختيار هذا الموضوع يتمثل في كون دكالـة كانت المنطقة الوحيدة التي استطاع البرتغاليون الحصول فيها على مكتسبات لم يستطيعوا تحقيقها في أية منطقة مغربية أخرى. فلقد تعدى نفوذهم حدود دكالة ليشمل قسما من الحوز والشياظمة والشاوية. فاذا كان التوسع قد انطلق منذ بداية 1511 ، فإن برتغاليي الثغور الدكالية وصلوا بعد أربع سنـوات الى شرق مراكش، وعرضوا هذه المدينة الى غارة خطيرة، ووصلوا الى جنوب حاحة والى ضواحي الرباط.

٣ ـ وكان السبب الثالث يتمثل في كون منطقة الدراسة عرفت عملاء لعبـوا أدوارا طلائعية في نشر النفوذ البرتغالي على المناطق الداخلية، وفي إكراه القبائـل على الرضوخ لمشيئة البرتغاليين، والمساهمة في مجهودهم العسكري، ومنع الهنتاتيين والوطاسيين والشرفاء السعديين من إلحاق الضرر بتلك المكتسبات.

٤ ـ وكان السبب الرابع يتمثل في كون دكالة كانت المنطقة المغربية التي سمحـت لمؤرخي الاستعمار بأكثر التأويلات وأحكام القيمة الاستعمارية، الشيء الذي يفرض إعادة النظر في كل ما كتبه الاجانب في هذا الموضوع.

ولإنجاز هذه الدراسة اخترت منهجا أملاه علي الإهتمام الكبير الذي أوليته لثلاث نقط رئيسية:

ـ غنى دكالة وتوفرها على طاقات إنتاجية واستهلاكية حيوية بالنسبـة للبرتغـال وامبراطوريته التجارية.

ـ دور ذلك الغنى في توجيه السياسة البرتغالية بها.

ـ مدى استفادة البرتغال من خيرات المنطقة، وأثر ذلك على أوضاع دكالة.

وبما أن البحث فرض الاهتمام بمراحل تعامل البرتغاليين مع منطقة الدراسة منذ بداية اهتمامهم بها الى تاريخ الجلاء عن آسفي وأزمور، فإن ذلك فرض علي منهجا

حاولت بواسطته تحديد خصائص كل مرحلة من مراحل تحكم البرتغاليين في دكالة، مع الحرص على تفادي الاقتصار على تتبع الأحداث السياسية.

وقسمت البحث الى خمسة أبواب. اهتم الباب الأول منها بأوضاع المنطقة قبل تعرضها للغزو البرتغالي. وكان هذا الباب ضروريا للتعريف بالمنطقة ومواردها وكذلك للتمكن في آخر هذا البحث من تحديد النتائج التي تولد عنها الغزو البرتغالي. ويتكون هذا الباب من أربعة فصول.

درست في الأول منها أوصاف المنطقة وخصائصها الطبيعية. وتم الاهتمام على الخصوص بمفهوم كلمة «دكالة»، وتطور استعمالها، وحدود منطقة الدراسة وتضاريسها ومناخها وغطائها النباتي خلال فترة البحث. ولم تكن دراسة هذه المعطيات الطبيعية غاية في حد ذاتها، بل كانت وسيلة لأخذ فكرة عن إمكانات المنطقة الإقتصادية، وما يمكن أن تُوفره من إمكانات الصمود أو العكس.

وكان موضوع الفصل الثاني يتعلق بأوضاع المنطقة الديموغرافية، وبمراحل تعميرها. فبعد تحديد أسماء القبائل البربرية، وتحديد أماكن انتشارها اعتمادا على ما وصلنا من إشارات، أكدت الدراسة على نتائج دخول القبائل العربية الهلالية الى دكالة خلال القرن الثالث عشر. واهتم البحث بعد ذلك بالقبائل المتواجدة بدكالة قبل تعرضها للغزو البرتغالي مع تحديد أسماء ومواقع العناصر العربية والبربرية، وأهم فروع كل واحدة منها، وأعدادها التقريبية، ونمط عيشها. . . وكان آخر موضوع تعرض له الفصل هو نسبة التمدن بدكالة وأسبابها وعلاقة الحواضر بالبوادي خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وما طرأ عليها. وختم الفصل بوصف لحواضر دكالة وأكبر قراها مع التأكيد على أهم أنشطتها.

ويتعلق موضوع الفصل الثالث بأوضاع دكالة الإقتصادية قبل تعرضها للغزو البرتغالي. فبعد مقارنة أقتصادياتها مع ما يحيط بها من مناطق، وبعد مناقشة بعض استنتاجات «ليون الإفريقي»، تم التأكيد على مكانة دكالة كأكبر منطقة مصدرة للحبوب، بالاضافة الى كونها منطقة كثيرة المواشي والشابل والجلود والشمع والأنسجة الصوفية، والى كونها كذلك نهاية إحدى طرق التبر بالمغرب، مما جعلها

تتوفر على مواد كان البرتغاليون في حاجة ماسة اليها. وتم التأكيد على دور إغلاق موانئ المغرب الشمالية وتشييد المراكز التجارية بغرب إفريقيا في تنشيط المبادلات بموانئ دكالة.

ويتعلق موضوع الفصل الرابع بالمجتمع الدكالي وتطوره الى حدود بداية تحكم البرتغاليين في المنطقة. وكانت أول نقطة تناولها هي تحسن مستوى معيشة سكان دكالة من حضريين وقرويين، وذلك بسبب تزايد عدد التجار الأوروبيين. ودفعتنا هذه النقطة الى الحديث عن مأكل وملبس ومسكن الدكاليين، وعن أثر هذا التحسن على قيمهم وأخلاقهم ومعتقداتهم.

وتناول الفصل كذلك بالدراسة أهم الفئات الإجتماعية الدكالية، ومواردها، وظروف عيشها، وعلاقاتها مع بعضها. وبما أن موضوع الدراسة يتعلق بالغزو البرتغالي، فإنها أكدت على ارتباط مصالح عدد من سكان المنطقة، وخصوصا أعيان المدن وبعض يهودها بوجود تجار أجانب بموانئ المنطقة.

وكان موضوع الباب الثاني يتعلق بمراحل تحكم البرتغاليين في مدن وبوادي دكالة. وهو من ثلاثة فصول:

كان الفصل الاول خاصا بالأسباب التي دفعت بالبرتغاليين الى غزو المغرب، ومناقشة كل سبب من تلك الأسباب، ووضعه في مكانه الحقيقي حسب موقع المدينة المهاجمة والتاريخ الذي تم فيه الهجوم. وأكد هذا الفصل على اختلاف الدوافع على مستويين: على مستوى الفئات المهتمة بالغزو، تلك الفئات التي اختلفت دوافعها وأغراضها وتضاربت أحيانا مصالحها؛ وعلى مستوى المرحلتين اللتين مر منهما الغزو، ليس فقط من الناحية الجغرافية والزمنية، ولكن كذلك من ناحية الوسائل المسخرة والدوافع والغايات المتوخاة منها في كل مرحلة. وبين الفصل سيطرة الدوافع الدينية والاستراتيجية في المرحلة الشمالية في حين لعبت العوامل الاقتصادية دورا أساسيا في تعامل البرتغاليين مع دكالة. ونتج عن هذا الاختلاف انتهاج سياسة وتسخير وسائل جديدة للتحكم في تلك المنطقة.

وخصص الفصل الثاني لدراسة فترة ولاء آسفي وأزمور للملك البرتغالي. فبعد

دراسة أوضاع المدينتين السياسية ومقارنتهـا مع الأنظمة السياسية التـي انتهجتهـا حواضر تجارية أخرى، تم التأكيد على التقاء مصالح حكام المدينتـين مع مصالـح البرتغاليين، وعلى العوامل التي دفعت بالبرتغال الى الاكتفاء بولاء إسمي لم يسبق أن اكتفى به من قبل. وتم التـأكيد كذلك على خصـائص المعاهدتـين الموقعتـين بـين الطرفين، ومقارنة نصيهما، والتأكيد على واجبات وحقوق الطرفين. وسمحت لنـا هذه النقطة الأخيرة بتتبع موقف حكام المدينتين من بنود المعاهدتين، وأهم أسباب فشل هذه التجربة السياسية التي انتهجها البرتغاليون.

ويتعلق موضوع الفصل الثالث بالمحاولات التي بذلها البرتغاليون للتحكم في المناطق الداخلية بعد أن تمكنوا من المدن الساحلية. وأكدنا على الأسباب التي دفعت بالمسؤولـين البرتغـاليين الى بذل هذا المجهـود العسـكري، وعلى الاوضـاع التـي استغلوها في ذلك، والوسائل التي سخروها، والمراحل التـي قطعوهـا. وحاولـت الدراسة بعد ذلك تحـديد المكتسبـات السياسية التـي حققوهـا بدكالـة وبالمناطـق المجاورة. وتم في الاخير تقويم نتائج هذا التوسع بداخل دكالة، مع التأكيد على ما امتازت به تلك المكتسبات البرتغالية.

واهتم الباب الثالث بالتنظيمات التي استحدثها البرتغاليون بدكالة وقت تحكمهم المؤقت فيها.

ودرست في أول فصل منه «التنظيم الاداري والجبائي».

ففيما يخص النقطة الأولى ، أكد البحـث على منصب القبطـان واختصاصاته واختصاصات مساعديه من برتغاليين ويهود ومسلمين، وحدد سلطهم. وأولى اهتماما خاصا للسياسة التي كان القباطنة ينهجونها بدكالة، وقارنها مع السياسة التـي كان الملك ينوي تطبيقها بالمنطقة. وتعرض البحث بعد ذلك لنوع التنظيم الذي فرضه البرتغاليون على دكالة، وتسـاءل عما إذا كان من الصـواب مقارنتـه بنظـام الحماية الفرنسية على المغرب. وتعرضت الدراسة بعد ذلك للتقسيم الاداري الذي استحدثه البرتغاليون بدكالة وبينت أسبابه وخلفياته السياسية، وتتبعت مدى تطبيقه.

وكان الشطر الثاني من هذا الفصل خاصا بالتنظيم الجبائي وبالضرائب التي كان

على الدكاليين أداؤ ها، وذلك اعتمادا على سجل برتغالي يعود الى تلك الحقبة كان هذا البحث أول عمل يستفيد منه. وأشار البحث في نهاية هذا الفصل الى موقف الدكاليين من هذه الضرائب والى مدى استفادة البرتغاليين منها.

وخصصت الفصل الثاني لتنظيم استغلال طاقات دكالة الانتاجية والاستهلاكية، وللوسائل التي استعملوها، والتنظيمات التي استحدثوها. وكانت أول نقطة تناولها هذا الفصل تتعلق بموقف البرتغاليين من منتجات المنطقة الزراعية والحيوانية: اهتمامهم بالانتاج والشراء. كما أكد على نتائج بداية اهتمام الوطاسيين بدكالة على أوضاع المنطقة الاقتصادية وعلى مدى استفادة البرتغاليين من خيراتها. واهتم البحث بالكميات المصدرة والمستوردة وبتطور الاثمان، وحدد علاقته بالطلب والانتاج والاوضاع السياسية.

وبما أن التجارة كانت تحظى باهتمام ملكي كبير، فان قسما مهما من هذا الفصل خصص لهذا النشاط. وكان من الضروري القيام بدراسة تتعلق بالمناصب المالية والتجارية، وبهوية التجار، والاطار الذي كانت تتمّ فيه المبادلات، والعملات ووسائل الكيل والقياس والوزن... كما تناول البحث بتفصيل كل أنواع السلع التي كانت تروّج بموانئ دكالة، وصنفها حسب نوعها ومصدرها، وتتبع تطور الطلب عليها، وتطور أثمان أهمها. كما اهتم البحث بأوضاع الصناعات الدكالية خلال تحكم البرتغاليين في المنطقة. وختم الفصل بمجموعة من الملاحظات تتعلق بهذا التنظيم وتلك السلع، وبمدى استفادة كل من البرتغال ودكالة من تلك المبادلات التجارية.

وكان الفصل الثالث خاصا «بالتنظيم الديني وبأوضاع المسلمين واليهود». وتعرض الفصل في البداية لانشاء وتنظيم أسقفية آسفي، ثم انتقل للحديث عن أوضاع اليهود والمسلمين تحت السيطرة البرتغالية، وعن الموقف الديني المتخذ معهم. وتعرض البحث بعد ذلك لمشكل الرده على إثر احتكاك وتصادم الديانات الثلاث، وتم إرجاع الردة الى أسبابها الحقيقية، والتأكيد على مدى صدق المرتدين.

وخصص الباب الرابع لموقف الدكاليين بمختلف فئاتهم، وموقف الأنظمة

القائمة آنذاك بالمغرب من التوسع البرتغالي بدكالة. وقسمناه الى ثلاثة أقسام.

يتعلق الفصل الاول بموقف الفئات الاجتماعية الدكالية من الغزو. فبعد تحديد نوع صمود السكان المحليين، تعرض البحث إلى موقف الشيوخ والأعيان من الاستعمار وميز ما بين طائفة قليلة العدد تطوعت لخدمة الاستعمار دفاعا عن مصالحها، وأخرى أرغمت على الرضوخ. ثم تناول البحث بعد ذلك موقف الجالية اليهودية الحقيقي من البرتغاليين وفند تعميا مقصودا روّجه عدد من المؤرخين الاجانب. وتناول الفصل بعد ذلك موقف رجال الزوايا والفقهاء من الغزو، وتم حصر عدد من أسماء الفقهاء الذين لعبوا دورا طلائعيا في مقاومة البرتغاليين. وأوليت عناية خاصة لموقف القبائل من الغزو، ولأسبابه ومراحله، وذلك لمناقشة فكرة روجّها عدد من مؤرخي الاستعمار البرتغالي والفرنسي، مفادها أن قبائل دكالة تقبلت الاستعمار بصدر رحب، وسهلت مهمته.

وكان الفصل الثاني خاصا بردود الفعل الرسمية. وتم التأكيد على الأسباب التي شغلت الهنتانيين والوطاسيين والسعديين عن معاكسة التوسع البرتغالي بدكالة، وعلى الأسباب التي أرغمتهم بعد ذلك على التحرك، والوسائل التي سخروها،وأوقات «الحركات» والغايات المتوخاة منها. وتمت دراسة نتائج هذه الحركات على مكتسبات البرتغاليين بدكالة، وعلى المنطقة وسكانها، وعلى هذه الأنظمة نفسها. وختم الفصل بتحديد نتائج الصراع الوطاسي السعدي على الجهاد بدكالة.

واهتم الفصل الثالث والأخير من هذا الباب بالأوضاع الصعبة التي أصبح البرتغاليون يعانون منها بسبب ردود الفعل السابقة الذكر. وبينت كيف أن تناقضات النظام المفروض على دكالة، وتضارب مصالح الفئات المهتمة بالغزو زادت هذه الصعوبات حدة. وحصرت أنواع تلك الصعوبات وبينت ما أصبحت تكلف الدولة البرتغالية من مجهودات عسكرية ومالية جعلت الملك البرتغالي يفكر في إخلاء آسفي وأزمور قبل غيرهما. وناقشت بعد ذلك أطروحة الملك البرتغالي وموقف النبلاء منها.

وكان الباب الخامس والأخير خاصا بنتائج الغزو البرتغالي على دكالة، وقسمته الى قسمين:

كانت النتائج العمرانية والاقتصادية هي موضوع الفصل الاول. وكانت أول نقطة اهتم بها البحث تتعلق بتحديد نوع العلاقة الجديدة التي أصبحت تربط المدن المحتلة بما يحيط بها من مناطق. وخصصت فقرة أخرى للحديث عن حالة الخراب الخطير التي أصبحت عليها كل مدن وقرى دكالة، وذلك قبل إخلاء آسفي وأزمور بعدة سنوات.

وكان الشطر الثاني من هذا الفصل خاصا بالأوضاع الاقتصادية التي أصبحت عليها دكالة بعد تعرضها للغزو البرتغالي، وما نتج عنه من ردود فعل مغربية، وتم تحديد تلك النتائج على الانتاج الزراعي وعلى أعداد المواشي. وأكدت الدراسة على خطورة تلك النتائج على تطور المنطقة اللاحق وعلى وزنها الاقتصادي بالمقارنة مع المناطق المجاورة، وذلك بالنسبة لما كانت عليه قبل الغزو.

وكان موضوع الفصل الثاني هو: «النتائج الاجتماعية والفكرية والدينية للغزو». وتناول الفصل في البداية مدى استفادة المغاربة عموما والدكاليين على الخصوص، من تفوق البرتغاليين في بعض القطاعات، كالملاحة والطب وصناعة الأسلحة وغيرها، وتتبعت بعد ذلك نتائج الغزو الخطيرة على أعداد السكان وعلى المؤسسات التعليمية، وعلى مستوى المنطقة الثقافي. وختم الفصل بفقرة تتعلق بنتائج الغزو على التشكيل الاجتماعي داخل المنطقة، وعلى علاقات فئات المجتمع الدكالي مع بعضها. وتمت الاشارة الى نتائج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها الغزو على عقيدة المغربي - والدكالي - وعلى تصوره للحياة.

ولانجاز هذا البحث، اعتمدت على مادة استقيتها من ثلاثة أنواع من المصادر.

1 - من عدد كبير من الوثائق التي كانت مادة هذا البحث الاساسية. وهي نوعان: النوع الأول منشور، وعرف استغلالا جزئيا، كالوثائق البرتغالية المنشورة ضمن سلسلة «المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب»، التي سنعود إليها أو الايصالات التي نشرت في مطلع هذا القرن.

وكان النوع الثاني مكونا من وثائق كان هذا البحث أول عمل يستغلها كسجل الضرائب وبعض الرسائل التي وقفنا عليها بدار الوثائق (Torre do tombo)

بلشبونة. وتكتسي كل هذه الوثائق أهمية كبرى نظرا لكثرتها من جهة، وتنوع مواضيعها من جهة ثانية. فاذا كان الطابع السياسي يطغى على سلسلة الوثائق البرتغالية السابقة الذكر، (S.I.H.M.Port) فان عددا مهما منها يهتم بالجوانب الاقتصادية (أوضاع الانتاج الزراعي، الاثمان، أنواع السلع، . . .) والاجتماعية (موقف الاعيان والقبائل من الغزو مثلا. . .) والدينية. . . وتهتم الايصالات بالمبادلات التجارية التي كانت تعرفها موانىء دكالة، وبأنواع السلع، والكميات المروّجة . . . وكان موضوع سجل الضرائب خاصا بالتنظيم الجبائي للمنطقة بالاضافة الى كونه يسمح بتحديد مراحل التوسع البرتغالي بدكالة بالاضافة الى مزايا أخرى سأعود إليها في محلها. واعتمدت كذلك على وثائق محلية، ولكنها مع الأسف لا تسمح الا بتحديد نتائج الغزو على المنطقة دون الاهتمام بفترة الغزو البرتغالي لدكالة.

2 ـ وبالاضافة الى الوثائق، اعتمدت على مصادر برتغالية معاصرة اهتمت إما بوصف المنطقة ومدنها وخيراتها والسلع التي كانت تروجها، وإما بتعامل البرتغاليين معها من الناحية السياسية. وكان اعتمادي كبيرا فيما يخص هذه النقطة الاخيرة على مؤلف كل من (كويش Gòis) و(دوسوزا De Sousa) لكونهما متكاملين من الناحية الزمنية، اذ يغطي الاول الفترة الممتدة ما بين 1494 و 1521، في حين ينطلق عمل (دوسوزا) من التاريخ الثاني الى سنة 1550 تقريبا، الشيء الذي يغطي فترة الدراسة.

3 ـ واعتمدت كذلك على عدد كبير من الدراسات التي أرخت للغزو البرتغالي ككل، أو سلطت بعض الأضواء على جانب من جوانب الدراسة. وكان من هذه الدراسات ما تم على يد مؤرخين كبار وثّقوا أعمالهم بمجموعة مهمة من الوثائق والمصادر التي أشرفوا بأنفسهم على التنقيب عنها، وعلى نشرها. وكان على رأس هؤلاء المؤرخين المؤرخان الفرنسيان (سنيفال P. Cenival)، وريكار R. Ricard، والمؤرخ البرتغالي (د. لوبش D. Lopes). وبذلت محاولات على يد مؤرخين آخرين كان منهم البرتغالي (ليما D. Pires de Lima) الذي كان أكثرهم اهتماما بدكالة كما سنرى، ومن أول المؤرخين الاجانب اهتماما بالفترة والمنطقة.

ولكن هذه الدراسات اهتمت على الخصوص بالجانب السياسي للغزو البرتغالي للمغرب، والى حد ما بدكالة التي بقيت عدة جوانب من تعاملها مع البرتغاليين إما دون دراسة، وإما دون أن تعطاها الأهمية التي تستحقها. ومن هذه الجوانب، الجوانب التنظيمية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وردود الفعل المحلية، ونتائج الغزو على المنطقة.

وفيما يلي أهم مصادر ومراجع هذه الدراسة:

1 ـ الوثائق

أ ـ Sources Inédites de l'histoire du Maroc (S. I. H. M.) Série saâdieenne. Archives et bibliothèques de Portugal.5 Volumes.

كانت هذه المجموعة عمدتنا الاولى نظرا لاحتوائها على عدد ضخم من الوثائق التي كان نصيب دكالة منها جد كبير.

وتضم هذه السلسلة خمسة أجزاء نشرت ما بين 1934 و 1953، وهي مرتبة حسب تسلسل الوثائق الزمني، واعتمد في تقسيم تلك الأجزاء على بعض التواريخ المهمة. وكانت هذه التواريخ تتعلق بدكالة في الاجزاء الثلاثة الاولى التي تغطي الفترة الزمنية التي يهتم بها البحث.

ونشر الجزء الاول من هذه السلسلة سنة 1934، تحت إشراف المؤرخ الفرنسي (سينفال P. Cenival) (1888-1937). وضم 782 صفحة، بالاضافة الى المقدمة والى تسع لوحات منها واحدة تتعلق بآسفي في نهاية القرن الخامس عشر وأخرى تتعلق بأزمور في نفس الفترة.

ويبدأ هذا الجزء عند سنة 1486 التي تناسب سنة دخول أزمور تحت حماية التاج البرتغالي، وينتهي عند سنة 1515 التي تمثل منعرجا بالنسبة لمكتسبات البرتغاليين، وذلك بعد فاجعة المعمورة، وبداية اهتمام الوطاسيين بدكالة.

واحتوى هذا الجزء على 146 وثيقة برتغالية و 12 وثيقة عربية تتعلق بولاء آسفي وأزمور للملك البرتغالي، وبيحيي أوتعفوفت. . . وأرفقت هذه الوثائق البرتغالية والعربية بمقدمة باللغة الفرنسية تلخص محتواها، وبتعاليق وهوامش جد قيمة.

ويطغى على هذه الوثائق الطابع السياسي، وتتعلق على الخصوص بولاء آسفي وأزمور، وبالحروب التي خاضها البرتغاليون بالداخل ضد القبائل وضد كل من السعديين والوطاسيين والهنتاتيين. وتوجد ضمن هذه الوثائق مجموعة مهمة تتعلق بدور يحيى او تعفوفت في التوسع البرتغالي وبخلافه مع قبطان آسفي. ورغم أن حظ الاسد من هذه الوثائق عاد الى الاحداث السياسية، فان هذا الجزء احتوى على مجموعة لا بأس بها من الوثائق المتعلقة بالمبادلات التجارية وبالسلع والأثمان والجمارك والانتاج الزراعي والاوضاع الدينية. . . . وقدم (سينفال) لبعض ملفات الأحداث المهمة بمقدمة لخص فيها ما ورد في وثائق تلك الملفات، وأضاف اليها ما ورد من إشارات في باقي المصادر المتعلقة بتلك الأحداث.

وهكذا افتتح هذا الجزء بعرض تاريخي لمراحل الغزو البرتغالي أكد فيه على الخصوص على مرحلة الشمال (ص ص 7 - 16 من المقدمة). وقدم بمقدمة قصيرة (ص 1 - 3) لدخول أزمور تحت حماية التاج البرتغالي، وأرجعه الى خوف السكان من احتلال الاسبان لمدينتهم. وخصص مقالتين قصيرتين لظروف تحكم البرتغاليين في كل من مازيغن ومغدور (ص ص 103 - 107 ص ص 120 - 126). كما درس مراحل تقسيم مناطق النفوذ ما بين اسبانيا والبرتغال من بداية الغزو الى معاهدة سنترا (1509) . (ص ص 203 - 212) . وخصص مقالة لهجوم البرتغاليين على مراكش ربيع 1515! (ص ص 692 - 696) ، ولتحصينهم للمعمورة وللهزيمة التي تكبدوها بعد ذلك (ص ص 695 - 701) . واستفدنا كثيرا من مقالتين تعرض فيهما لظروف احتلال كل من آسفي وأزمور.

عنوان الاولى كالتالي:

La Conquête de Safi par les portugais, 1508;

«احتلال آسفي من طرف البرتغاليين، 1508 (ص ص 151 - 161) .

وعنوان الثانية كالتالي :

La conquête d'Azemmour, 3 septembre; 1513.

«احتلال أزمور يوم 3 شتنبر من سنة 1513 (ص ص 394-402).

وأكد في المقالتين على انقسام الأعيان بالمدينتين واستغلال البرتغاليين لذلك الانقسام للتحكم فيهما. وأكد على تشابه السياسة المتبعة بالمدينتين: التمسك بفكرة الحكم غير المباشر والاعتماد في ذلك بآسفي على الانقلابات لتعويض كل من حاول معاكسة مصالح البرتغال من الحكام، والاعتماد على الامير زيان بأزمور. كما بين اضطرار البرتغاليين الى الاحتلال العسكري: لجعل حد للحرب الاهلية بآسفي ولتعزيز المكتسبات البرتغالية بدكالة بالنسبة لأزمور.

وسمح لنا تتبع (سنيفال) لهذه الأحداث بالقيام بعمل من نوع آخر وذلك بتحديد دوافع الفئات المتصارعة على السلطة والمتعاملة مع البرتغاليين، وتحديد انتماءاتها الطبقية، ومعدل أعمارها ونواياها الحقيقية من البرتغاليين والاسبان، كما سمح لنا بتحديد التيارات السياسية المتواجدة داخل آسفي.. الخ.

وصدر الجزء الثاني من هذه السلسلة تحت إشراف المؤرخ الفرنسي (ريكار) والمؤرخ البرتغالي (د. لوبش D. Lopes). وهو من 711 ص صدر القسم الاول منه سنة 1939، ويقع في 388 ص، احتوت على 82 وثيقة برتغالية، و 14 وثيقة عربية بعث بها الى البرتغال يحيى أو تعفوفت وأحمد الاعرج السعدي وبعض شيوخ المنطقة. وتبدأ وثائق هذا المجلد عند سنة 1516 لتنتهي عند سنة 1526. وهي تغطي الفترة الممتدة ما بين تاريخ قتل القبطان (أتايد) ودخول الشرفاء السعديين لمراكش. وتتعلق مواضيع هذه الوثائق بمحاولات البرتغاليين بمساعدة يحيى أو تعفوفت إرجاع القبائل الى حالة الخضوع السابقة بعد عصيانها الجماعي سنة 1516. كما تتعلق بعض هذه الوثائق بخلاف يحيى مع القبطان من جهة، ومع أعيان الجالية اليهودية بآسفي من جهة أخرى. ويضم كذلك وثائق تتعلق بردود الفعل الرسمية بدكالة. وكان القسم الأخير من هذا المجلد يحتوي على مراسلات تبادلها الشرفاء السعديون مع

قبطان آسفي ومع الملك البرتغالي حول شروط الهدنة ومدتها، ويحتوي كذلك على عدد من الرسائل تبادلها القائد العطار، عامل السلطان الوطاسي على تادلة ،مع قبطان آسفي حول التحالف العسكري ضد السعديين.

ونشر المجلد الثاني من الجزء الثاني سنة 1946 ، في 322 ص، تحت إشراف (ريكار). ويبدأ هذا المجلد من بداية 1527 ، وينتهي عند سنة 1534 . ويشمل 59 وثيقة برتغالية ،وست وثائق عربية بعث جلها السلطان أحمد الاعرج. وتتعلق وثائق المجلد بأوضاع البرتغاليين السيئة داخل الثغور الدكالية، وبطيش سياسة القباطنة وما ألحقوه من أضرار بالنصارى واليهود والمسلمين على حد سواء. كما تتعلق وثائق أخرى بالسعديين والوطاسيين وببعض الحركات التي نظمها الاعرج. وكان القسم الاخير من هذه الوثائق يتعلق بحصار الاعرج لاسفي سنة 1534 ، وبما توصلت به المدينة من مساعدات، وباستشارة الملك المتعلقة بالجلاء عن آسفي وأزمور، وأجوبة النبلاء عن هذه الاستشارة.

وأشرف ريكار كذلك على نشر الجزء الثالث سنة 1948 . وهو من 572 ص ضمت 149 وثيقة برتغالية تغطي الفترة الممتدة ما بين 1535 ونهاية 1541 . وتتعلق جل هذه الوثائق بالمصاريف التي أصبحت تكلفها الثغور الدكالية، وبعلاقة البرتغاليين مع كل من السعديين والوطاسيين. وحرر عددا كبيرا من هذه الوثائق وكيل الملك البرتغالي التجاري بفاس وسفيره لدى الوطاسي. وهي تتعلق بالمفاوضات حول مشروع الحلف العسكري ضد السعديين.

واحتوى هذا الجزء على عدد من المقالات تتعلق بعلاقة البرتغال «بمملكة فاس» وعلاقة الثغور المحتلة بالجزر الاطلنطيكية البرتغالية، وبمدن الاندلس التجارية. وكل هذه المقالات بقلم (ريكار). وكانت المقالة الوحيدة التي تغطي جانبا من دراستنا خاصة بأسقفية آسفي: وعنوانها كالتالي:

«أسقفية آسفي» L'Evêché de Safi . والجدير بالملاحظة أن هذا المقال نشر كذلك في مؤلفه الذي جمع فيه عددا كبيرا من مقالاته المتعلقة بالغزو البرتغالي للمغرب، والذي سماه:

Etudes sur l'Histoire des portugais au Maroc.

«دراسات عن تاريخ البرتغاليين بالمغرب»

بدأ (ريكار) دراسته بتحديد تاريخ إنشاء الاسقفية، ثم تعرض بعد ذلك للمناطق التابعة لها، والمعاهد الموجودة بكل من آسفي وأزمور ومازيغن وأكوز. وخصص الفقرة الاخيرة للحديث عن الاساقفة الذين تعاقبوا على رأس هذه الاسقفية.

ب)

Livro dos tributos reais com os Mouros e Alarves da cidade de Almydina, com toda a Duquela e terra de Xiatima com seus castelos, Contribuyam aos reys deste reyno; os quaes começaram a pagar nos annos de 1510 e 1512.

«سجل الضرائب الملكية المتعلقة ببرابرة وأعراب المدينة (الغربية)، وكل دكالة وبلاد الشياظمة مع حصونها، والتي كانت تؤدى لملوك هذه المملكة ما بين سنتي 1510 و 1512».

ويوجد هذا السجل بدار الوثائق بلشبونة (Torre do Tombo). وهو تحت عدد N.A 869، عدد صفحاته 84. والنسخة الموجودة بدار الوثائق المذكورة هي النسخة الاصلية، لأن بعض الاتفاقيات تضم سطورا مشطب عليها. وهي مغلفة بغلاف من الجلد المدبوغ ربط طرفاه بخيط جلدي كذلك. ويضم السجل أربعة وعشرين (24) اتفاقية عقدها قبطان آسفي مع أعيان قبائل وقرى دكالة والشياظمة ومشارف الحوز ما بين 1510 – 1512. ولقد احترم في تحرير الاتفاقيات نفس التصميم: فهي تبدأ دائما بذكر تاريخ وصول الاعيان الى آسفي، ثم تذكر أسماء الحاضرين من الجانب البرتغالي (القبطان والمحاسب أو الكنتدور والضباط، ويحيى أو تعفوفت بعد 1511)، وأسماء المتعاقدين من الجانب المغربي، ثم تذكر بعد ذلك قيمة الضريبة من القمح والشعير والخيول، ووقت أدائها. ويسرد السجل بعد ذلك أسماء مالكي الدور اذا كان الامر يتعلق بقرية وأسماء الدواوير اذا كان الامر يتعلق بقبيلة. ويُسجّل بالهامش في نهاية الاتفاقية مجموع الكميات التي تسمح بها الاتفاقية، وذلك اعتمادا على الارقام الرومانية.

وتختلف هذه المعاهدات من ناحية الطول باختلاف أهمية وأعداد المتعاقدين مع

البرتغاليين. ومن الاكيد أن الاتفاقيات التي يحتوي عليها السجل لم تكتب بيد واحدة ذلك أن الاسماء التي تكرر ذكرها عدة مرات، كاسم القبطان واسم يحيى أو تعفوفت كتبت بهجاء مختلف. ولم ترتب اتفاقيات السجل حسب تسلسلها الزمني. فلقد وردت الاتفاقية الممضاة مع قرية المصمودة (15- 12- 1511) قبل التي تمت مع قرى بني ماكر (13- 5 - 1511)، وجاءت الاتفاقيتان قبل اللتين تمتا مع قرية أكوز (28-10-1510)، وقريتي نامير وأيير (1-11-1510). وهذا ما يسمح بالقول بأن الاتفاقيات كتبت على اوراق منفصلة تم جمعها بعد ذلك بواسطة الخيط الجلدي السابق الذكر، ولكن دون أن يحترم المكلف بذلك التسلسل الزمني.

ويمكننا هذا السجل من سد عدة ثغرات فيما وصلنا من معلومات تتعلق بتاريخ الغزو البرتغالي لدكالة. فلقد كان مؤلف (دوكويش De Góis)، مصدرنا الوحيد، فيما يخص كميات الضرائب المفروضة على قبائل دكالة. ولكنه سقط في تعميم مبالغ فيه، ولم يذكر قبائل المنطقة البربرية (مشنزاية، بني ماكر). ولكن السجل مكننا من تفادي التعميم السابق الذكر، وزودنا بإحصاء شمل كل قبائل المنطقة. كما قدم هذا السجل حقائق تاريخية سكتت عنها المصادر الاخرى، منها مثلا أنه يعطي فكرة جد دقيقة عن مراحل التوسع البرتغالي بالداخل الى نهاية 1512، تلك المراحل التي لم تكن المصادر البرتغالية الاخرى تسمح بتتبعها بدقة. ومن جهة أخرى، زودنا هذا السجل بأسماء القبائل وفروعها، وبأسماء عدد كبير من قرى دكالة والشياظمة والحوز، مما سمح برفع عدد من الالتباسات مثل الذي سقط فيه (سنيفال .Cénival) بشأن قريتي (كرندو و «تاكرانت») اذ اعتقد أنهما قرية واحدة عرفت بإسمين مختلفين، بينما ذكرهما السجل كقريتين مختلفتين توجدان بنجد الكنتور. كما اهتم هذا السجل كثيرا بعدد سكان القرى وذلك لحرص المسؤ ولين البرتغاليين على التوصل بأسماء كل السكان قبل تحرير الاتفاقية، وكانوا يلزمون أحيانا الاعيان بالعودة الى قراهم للاتيان باحصاء دقيق للسكان. وأعطى هذا السجل كذلك معلومات عن المكاييل، ومكننا من العلاقة ما بين «الكير» البرتغالي و «حمل الجمل»، ومكننا كذلك من معلومات عن مكاييل لم تصلنا عنها أية اشارة كالصاع المراكشي، و «التليس» وعلاقتهما مع «الكير» البرتغالي. وهكذا استفدنا من هذا السجل استفادة كبرى

خصوصا فيما يخص مراحل التوسع البرتغالي بدكالة والتنظيم الجبائي.

ج. Cartas de quitação.

«الايصالات» أو «وثائق ابراء الذمة»

نشر (ب. فرير Braamcap de Freire) هذه الوثائق النفيسة في مجلة (الوثائق التاريخية البرتغالية Archivo Histórico Português) ضمن الاعداد العشرة التي صدرت ما بين 1903 - 1910 . ونشر (سينفال) واحدة منها بالجزء الاول من سلسلة الوثائق البرتغالية السابقة الذكر. واستطعنا الحصول على 23 إيصالا يتعلق بدكالة منها:

- 16 إيصالا متعلقا بآسفي تغطي الفترة 1491 - 1524 .
- 6 ايصالات عن أزمور تغطي الفترة 1486 - 1516 .
- 1 ايصال يتعلق بشراء القمح بمازيغن مؤرخ في سنة 1504 .

وكانت الايصالات تسلم لثلاثة أنواع من الموظفين: لوكيل الملك التجاري (الفيطور)، أو للمسؤول عن التموين بالمدينة المحتلة (المشرف Almoxarife) ، وأخيرا للمحاسب (الكنتدور Contador) . ولهذا تختلف هذه الوثائق من ناحية نوعية الاشياء المذكورة فيها. فاذا كان الايصال يبرىء ذمة «مشرف»، طغت عليه المواد الغذائية والعتاد والسلاح. واذا كان مسلما للفيطور، طغى عليه الطابع التجاري، أما إذا كان مسلما الى (كنتدور) طغت عليه المصاريف المتعلقة بترميم الاسوار وبتسيير المدن المحتلة. . . ورغم أن هذه الايصالات تختلف من ناحية الطول، ومن ناحية غزارة المادة التي تزودنا بها، فانها تخضع كلها لنفس التصميم. فهي تبدأ بذكر الامر الملكي القاضي بمحاسبة المعني بالامر، واسم الشخص الذي كلف بذلك، ثم تذكر نوع المهمة التي كان يقوم بها الشخص المعني بالامر، وتاريخ بداية تلك المهمة ونهايتها، والمكان الذي عمل به. ثم تسرد هذه الوثائق كل الاموال والسلع والاشياء الاخرى التي توصل بها خلال المدة المذكورة، وأسماء الاشخاص والمؤسسات التي سلمت المعني بالامر نوعا من السلع أو مبلغا ماليا. وتنتهي كل الايصالات بتبرئة ذمة المعني بالامر، وبذكر تاريخ ومكان تحرير الايصال واسم الشخص الذي حرره.

وتسمح هذه الايصالات بأخذ فكرة عن المبادلات التي كانت تعرفها الموانىء الدكالية، وعن السلع المتبادلة، وعن تطور الطلب عليها، الشيء الذي يسمح بتتبع تطور الظرفية الاقتصادية داخل المدن الدكالية، وخصوصا داخل آسفي. ومكنتنا ايصالات تتعلق بثغور المغرب الشمالية من مقارنة أوضاعها التجارية بما كانت تعرفه آسفي وأزمور من رواج تجاري، كما مكنتنا من تحديد المكانة التي كانت لآسفي داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية. والجدير بالذكر ان الوثائق الاخرى المتعلقة بالغزو لم تكن تسمح بالقيام بمثل هذا العمل. وبالاضافة الى هذا مكنتنا هذه الايصالات من انواع كل السلع التي كانت تروج بموانىء دكالة، ومن معرفة مدى الرواج التجاري وعلاقته بأوضاع المنطقة السياسية. كما مكنتنا من تحديد ما اذا كانت دكالة قد استفادت من هذه المبادلات التجارية.

وامتازت هذه الايصالات بدقة كبيرة جدا. فهي تذكر أسماء كل الاشخاص وكل المؤسسات التي سلمت للمسؤول البرتغالي شيئا ما. كما تذكر أوزان ومكاييل وطول السلع بدقة كبيرة، وتحدد بكل تفصيل نوع ومصدر السلع كما هو الشأن بالنسبة للانسجة مثلا.

ولكن يلاحظ على هذه الايصالات سكوتها أحياناً عن مصدر بعض السلع بحيث لا ندري بعد قراءتها ما اذا كانت تصديرا أم استيرادا. ويطرح هذا المشكل على الخصوص بالنسبة للقمح والشعير اللذين كانا يصدران في الحالات العادية ويستوردان في فترات عصيان القبائل. كما أن هذه الايصالات تغطي أحياناً فترة طويلة (15 سنة بالنسبة للايصال الاول المتعلق بأزمور) مما يجعلها تفتقر الى الدقة، بحيث لا ندري متى تم جلب أو شراء السلع الواردة بالايصال. وهذا لا يسمح بالطبع بتتبع الاوضاع الاقتصادية وتطور الطلب على السلع بدقة. ومن حسن الحظ لا يحتوي الا القليل من هذه الوثائق على هذا العيب. ومن جهة أخرى تسكت هذه الايصالات عن ذكر بعض السلع ولا تخبرنا بنوعيتها وتكتفي بالاشارة الى أنها وردت مسجلة في سجل حسابات المعني بالامر. كما أن هذه الايصالات لا تهتم الا بالمبادلات التي كانت تتم لفائدة الملك، ولا تشير قط الى أنشطة التجار الاحرار، والى

نوع السلع التي كانوا يقبلون عليها، أو التي كانوا يعرضونها. وكان هذا السكوت سبب حرماننا من معلومات مهمة عن المبادلات التي كانت تعرفها كل من أزمور ومازيغن وتيط لأن الايصالات التي وصلتنا تتعلق على الخصوص بآسفي التي كانت مصالح الملك بها مهمة.

ورغم كل هذا، تعتبر الايصالات مادة أساسية لمعرفة أنشطة الموانىء الدكالية في عهد الاحتلال البرتغالي لكونها توفر معلومات لم تهتم بها المصادر الاخرى. وكانت هذه الايصالات عمدتنا الكبرى في الفصل المتعلق بالأوضاع الاقتصادية التي كانت عليها موانىء دكالة في فترة الدراسة.

د ـ وثائق تتعلق بمحاكم التفتيش الدينية:

واعتمدنا كذلك على سبعة محاضر تبليغات لدى محاكم التفتيش الدينية البرتغالية تتعلق ببعض مرتدي دكالة، كان على رأسهم يوسف الديب، أخ حاخام أزمور الكبير. وتتعلق هذه المحاضر بالفترة الممتدة ما بين 1537 - 1541. وهي منشورة اما بمجلة «الوثائق التاريخية البرتغالية Arch. Hist. Port.» أو بالجزء الخامس من سلسلة الوثائق البرتغالية (S.I.H.M.).

وهي وثائق قصيرة، يذكر فيها تاريخ التبليغ لدى المحكمة، ومكانها بالبرتغال، واسم القاضي ومساعديه، واسم المبلغ ومحل سكناه، واسم المبلغ به ودينه الاصلي، ومحل اقامته. ثم تذكر في الاخير التهمة المنسوبة اليه، والتي تكون في الغالب اخفاء الدين الاصلي أو الرجوع اليه. وكان من بين المبلغين بهم قبطانا أزمور ومازيغن اللذان اتهما بالتواطؤ مع المرتدين القليلي التمسك بالدين الجديد. وتسمح هذه الوثائق بتسليط الاضواء على مشكل الردة بالثغور الدكالية، وعلى مكانة المرتدين الاجتماعية، وعلى مدى تمسكهم بدينهم الجديد. ووقفنا بالارشيف البرتغالي خلال سنتي 1980 - 1981 على ما يقرب من ثلاثمائة من محاضر محاكمات المغاربة المقيمين بالبرتغال (راجع مقالينا بالمجلة التاريخية المغربية عدد 25 - 26 (جوان 1982) ومجلة المناهل (الرباط) ع 21.

هـ. Documentos do corpo cronológico relativos a Marroccos. (1488 – 1514). Coimbra. 1925.

أشرف على نشر هذه المجموعة المهمة من الوثائق المؤ رخ البرتغالي A. Baiâo) سنة 1925 . وهي مجموعة مهمة من الوثائق المختلفة المواضيع والاهمية، والمتعلقة بكل الثغور المحتلة. وأعاد (سنيفال) نشر جل الوثائق المتعلقة بدكالة في الجزء الاول من سلسلة الوثائق البرتغالية السابقة الذكر. ولهذا لم نحل على هذا المؤلف الا في الحالات التي كانت الوثيقة التي اعتمدنا عليها منشورة بهذا المجموع وحده. ولا تغطي وثائق هذا الكتاب كل فترة الدراسة اذ تبدأ من سنة 1488 وتقف عند سنة 1514 .

و ـ Documentos Arábicos para história portuguésa. Lisboa; 1790.

جمع (لويش دو سوزا L. De SOUSA) في هذا المؤلف الذي نشره بلشبونة سنة 1790 عددا كبيرا من الوثائق العربية المتعلقة بالغزو البرتغالي للمغرب والخليج العربي والشرق الاقصى. وكان من هذه الوثائق قسم مهم يتعلق بآسفي وأزمور والبوادي الدكالية. وأعاد (سينفال) نشر هذه الوثائق بالجزء الاول والثاني من سلسلة الوثائق البرتغالية السابقة الذكر بعد تصحيح اهم الاخطاء التي سقط فيها (دو سوزا) والمتمثلة في عدم صحة التواريخ المنسوبة للوثائق، وفي تحريف أسماء الاشخاص وسوء قراءة النصوص.

* * *

2 - المصادر المتعلقة بالغزو البرتغالي لمدن وبوادي دكالة.

أ ـ Crónica do Fêlicissimo Rêi dom Manoel.

ألف هذا الكتاب (دامياو دو كويش Damiao De Góis) المولود بالبرتغال سنة 1501 أو 1502 والمتوفي سنة 1574 . ويؤ رخ (كويش) لفترة حكم أمنويل السعيد (1494 - 1521) كما يدل على ذلك عنوان الكتاب. واعتمد في تحريره على وثائق الارشيف الملكي الذي كان بقصر (Torre do Tombo) ، والذي كان يشرف على ادارته. واعتمد كذلك على بعض المعلومات التي أوردها الحسن الوزان.

والكتاب مقسم الى أربعة أبواب كبيرة تتفرع عن كل واحد منها مجموعة كبيرة من الفصول. وشرع في تحريره سنة 1558 ، أي أن الفارق الزمني الذي يفصله عن الاحداث التي يدونها قصير.

وأخرج المؤ رخ الفرنسي (ريكار) ترجمة ملخصة لهذا الكتاب لا تشمل الا الفصول المتعلقة بالمغرب تحت عنوان (Les Portugais au Maroc) ، «البرتغاليون بالمغرب» في 268 صفحة نشرت بالرباط سنة 1937 .

ولعل أهم ما يميز عمل (كويش) هو كونه اعتمد أساسا على الوثائق الاصلية الى حد أنه احتفظ لنا بمحتوى عدد كبير من المراسلات التي ضاعت أصولها. وأخذت الاحداث التي عرفتها دكالة نصيبا مهما من تاريخ(كويش). فلقد أولى اهتماما كبيرا للاوضاع السياسية التي كانت عليها دكالة خلال الفترة التي يؤ رخ لها.وهكذاحرر فصولا غزيرة بالمعلومات حول ظروف احتلال كل من آسفي وأزمور، وحول حصار آسفي سنة 1510 ، وحول الغارات البرتغالية بداخل دكالة والشياظمة والحوز وضد كل من الهنتاتيين والوطاسيين والشرفاء السعديين (بحاحة). والى جانب هذا أورد معلومات قيمة عن القبائل الدكالية، اسمائها، مواقعها، اعداد محاربيها ودواويرها. وكان المصدر الوحيد الذي أولى أهمية كبرى للتنظيم الجبائي البرتغالي. وأمدنا (كويش) بالاضافة الى كل هذا بعدد من الاشارات المتعلقة بأعيان المنطقة وعلى رأسهم يحيي أو تعفوفت، والمتعلقة كذلك بعقلية نبلاء الثغور وتصرفاتهم وبتنافس القباطنة ... وكان (كويش) من المؤرخين القلائل الذين سلطوا الأضواء على مجاعة 1520 — 1521 الكبيرة .

وبهذا يعتبر تاريخ (كويش) مصدرا ضروريا لدراسة الغزو البرتغالي لدكالة وذلك لكونه يكمل الوثائق البرتغالية ، ويساعد على سد بعض الثغرات التي تركتها . ولكن استغلال معلوماته يتطلب الحذر ، لأنه يبالغ في وصف الانتصارات البرتغالية ويبالغ في ذكر أعداد الأسرى المغاربة ، وأعداد الغنائم ، ويسكت عن الانتصارات المغربية أو يقلل من شأنها .

ب ـ **Anais del Rei Dom João Terceiro.**

ألف هذا الكتـاب(فرنسيشكو لويش دو سوزا F. Luis de Sousa) المزداد سنة 1555 ، والمتوفي سنة 1632 . ويغطي التاريخ فترة حكم الملك (جوا الثالث 1521-1557). وألفه بأمر من (فليب الرابع)، ملك اسبانيا والبرتغال. وانتهى منـه سنـة 1627 . ومعنى هذا أن الفارق الزمني الذي يفصل تاريخ التـأليف عن الاحـداث المدونة كبير جدا. وبخلاف تاريخ (كويش) لم يعتمد (دو سوزا) اساسـا الا على «حـوليات أصيلا» Anais d'Arzila ، التـي ألفهـا أحـد سكان هذه المدينة. (ب. رودريغاش B. Rodriguêz) ولهذا طغت على مؤلفـه احداث المغرب الشمالي. ورغم أن (دو سوزا) لم يهتم كثيرا بالعمليات العسكرية التـي عرفتهـا دكالـة بعد 1521 فان أهمية تاريخـه تكمن في تأريخه للصعوبات التي أصبحت تعاني منها مدن دكالة المحتلة بعد بداية العشرينات من القرن السـادس عشر، وفي ذكره لقيمـة ما أصبح البرتغاليون يصرفونه في الدفاع عن تلك المدن وتزويدها بما هي في حاجة اليه من اقوات وعتاد.

وأخرج (ريكار) ترجمة ملخصة لهذا المؤلف سماها:

Les Portugais et L'Afrique du Nord.

«البرتغاليون وافريقيا الشمالية» نشرها سنة 1940 . (208 ص).

وتكمن أهمية مؤلفـي (كويش) و (دوسـوزا) في كونهما متكاملـين من النـاحية الزمنية، يغطيان فترة تمتد ما بين 1494 و 1550 تقريبا، كما تكمن في كونهما يؤرخان لمرحلتـين مختلفتـين، ذلك أن الاول يؤرخ لمرحلـة سطـوة البرتغـالـين بينما يغطـي (دو سوزا) مرحلة الصعوبات المختلفة المظاهر التي أصبحوا يعانون منها.

ج) **Relation de l'origine et succeś des cheŕifs et l'Etat des Royaumes de Maroc; Feś et Tarudant. Traduction. Françaíse. Paris. 1636.**

ألف هذا الكتاب، ديبغـو دو وطـريس (D. de Torrès) القشتالي الأصل الذي كان على إطلاع بأوضاع المغرب الذي أقام به ما بين 1640 و 1650 بقصد تحـرير

الأسرى المسيحيين. والتاريخ كما يبدو من عنوانه خاص بنشأة الدولة السعدية، وبمراحل توحيدها للبلاد. ولهذا اهتم في بداية مؤلفه بحروبهم مع البرتغاليين بالشياظمة أولا، ثم بدكالة بعد ذلك (أكثر من 90 صفحة). ولكنه اعتمد في هذا العمل اعتماداً كبيرا على ما ورد في مؤلفي (مارمول) و (كويش) اللذين نقل عنهما حرفيا ما يتعلق بالغارات البرتغالية وأهدافها، ونتائجها، وما يتعلق بقبائل المنطقة وموقفها من البرتغاليين. وبالاضافة إلى هذا، أورد (دييغو) بعض الأحداث التي لم ترد عند المؤلفين السابقي الذكر. وأولى إهتماماً كبيراً لموقف السعديين من كل من البرتغاليين والوطاسيين.

ولكن تاريخ (دييغو) رغم أهميته، لا يدعو إلى كثير من الأطمئنان. فبالإضافة إلى كونه أخطأ في تحديد تواريخ بعض الأحداث(ص ص30 ,120 مثلا)، فإنه قلب بعض الحقائق أو ذكر أخرى تتنافى وواقع الأحداث آنذاك، كقصة اليهودي الذي جند إخوانه في الدين بأزمور خلال ربيع 1534 ، وذلك لنصرة آسفي المحاصرة، والتي لم يرد بشأنها ولو مجرد إشارة في النصوص الكثيرة المتعلقة بذلك الحصار. كما أن مؤلفه مشحون بالحقد والكراهية على الشرفاء السعديين، وعلى المغاربة عموماً. ورغم كل هذا، فإن الرجوع إلى هذا التاريخ ضروري للاطلاع على أوضاع المغرب قبل إعادة توحيده سياسيا على يد السعديين.

* * *

3 ـ كتب الرحلات والاوصاف.

(أ)ـ **العربية**: تغطي هذه المؤلفات الفترة السابقة للغزو البرتغالي.

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. للسان الدين بن الخطيب.

حقق ونشر هذا الكتاب أحمد مختار العبادي في 516 صفحة. ودون ابن الخطيب في هذا الكتاب مشاهداته وقت تجوله عبر بعض المناطق المغربية. وحظيت دكالة باهتمام ابن الخطيب الذي وصف منطقة بني ماكر، والمؤسسات الدينية والتعليمية

بآسفي، وأولى إهتماماً خاصاً للمنطقة الممتدة ما بين آسفي وأزمور التي وصف كثافة سكانها واستغلالها وكثرة مواشيها، وأشار إلى تضررها من سطوة الأعراب.

معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لنفس المؤلف.

حققه الاستاذ محمد كمال شبانة ونشره سنة 1977. والكتاب عبارة عن مقامة خاصة بالمدن، اهتم فيها ابن الخطيب بثلاثة مراكز دكالية: أزمور وتيط وآسفي. ففيما يخص الاولى أكد على طابعها البربري، وعلى غناها، وعلى بروز طبقة تجارية مهمة بها. وأشار كذلك إلى ركود تيط وتفشي الفوضى حولها. وأثار انتباهه بآسفي شهرة صناعات الصوف وتمسك السكان بدينهم، ومعاناة المدينة من تعسفات وغارات الاعراب.

أنس الفقير وعز الحقير: لابن قنفد.

عمل أحمد بن قنفد قاضياً بدكالة التي وصلها سنة 1370 م. واهتم في وصفه لدكالة بالجانب الديني، وبرجالات التصوف، وبأهم الزوايا بالمنطقة. كما اهتم بتضاريس دكالة، وأكد على غناها وكثرة سكانها ومواشيها.

بهجة الناظرين وأنس العارفين ووسيلة رب العالمين، في مناقب رجال أمغار الصالحين.

خصص ابن عبد العظيم الأزموري (توفي في بداية القرن 15 م) هذا الكتاب لمناقب وكرامات أمغاريي تيط الذين ينتمي اليهم. ورغم أن الكتاب خاص بالمناقب والكرامات، فإنه زاخر بالاشارات السياسية والإقتصادية وخصوصاً بالإشارات المتعلقة بالغطاء النباتي ووحوش المنطقة، واستغلال «الولجة» التي تحيط بالقرية - . . .

«التشوف إلى رجال التصوف»: لابن الزيات التادلي.

رغم أن الكتاب خاص بالتراجم، فإنه احتوى على معلومات قيمة تتعلق بقرى دكالة، وقبائلها البربرية، وبالملكية العقارية بالمنطقة، وطرق الإستغلال، وأنواع المزروعات، وبعض المجاعات. . . هذا بالإضافة إلى ما يتعلق برجالات التصوف الدكاليين.

(ب) ـ كتب الرحلات المحررة بلغة أوربية.

«وصف افريقيا» : Déscription de L'Afrique الحسن بن محمد الوزان أو «ليون الافريقي». خصص الوزان 12 صفحة (من ترجمة Epaulard) من مؤلفه لذكر أسماء وأنشطة وأوضاع أهم مدن وقرى دكالة. واولى اهتماما كبيرا لكيفية احتلال البرتغاليين لكل من آسفي وأزمور، ولمعركة (بولعوان) التي انهزمت فيها جيوش الناصر الوطاسي، ولدخول محمد البرتغالي لدكالة خلال صيف 1515 ولمحاولاته الرامية الى ابعاد القبائل عن البرتغاليين. والغريب أنه أشار الى نتائج مجاعة 1520 الخطيرة رغم أنه كان آنذاك بايطاليا.

«من افريقيا». للرحلة الاسباني:

De l'Afrique Carvajal De Marmol. trad. française. Sieur D'Ablancourt. Paris. 1677.

انتهج هذا الراهب الأسباني نفس المخطط الذي اعتمده الوزان، ونقل عنه جل المعلومات التي أوردها مع إضافة ما عاينه في نهاية القرن السادس عشر. ولهذا يكتسي عمل (مارمول) أهمية قصوى، ذلك أنه وصف المنطقة بعد تعرضها للغزو، مما يسمح بتحديد النتائج، وذلك بمقارنة معلوماته بما ورد في مؤلف الوزان. ومن جهة أخرى، نقل مارمول عن المؤرخ البرتغالي (كويش) كل ما يتعلق بالقبائل وبالتنظيم الجبائي البرتغالي.

Deścription de la coîte d'Afrique de Ceuta au Sénégal.

Trad. P. Cénival – TH. Monod. Paris 1938. 214. P;

دوّن الملاح الألماني (فلنتين فرننديش .V. Fèrnandez) الذي كان في خدمة الملك البرتغالي مشاهداته التي تعود إلى بداية القرن السادس عشر (1507) . أشار (فرننديش) إلى أهم منتجات دكالة الزراعية والحيوانية، وأكد على الخصوص على أهم السلع التي كانت الموانىء الدكالية تصدرها إما للبرتغال أو للمراكز التجارية المشيدة بسواحل غرب إفريقيا. ولم يفته أن يشير إلى علاقة آسفي وأزمور بالملك

البرتغالي، ومحاولة حكامها التملص من قبضته. وتكمن أهمية هذا المؤلف في كونه لم يتأثر بسابقيه، وكانت المعلومات التي أوردها وليدة مشاهداته الخاصة.

Esméraldo de Situ Orbis. Durate pachéco péreira; trad. française R. Ricard: la côte atlantique du Maroc au début du XVIe sîècle d'après des instructions nautiques portugaises.

ترجم (ريكار) القسم الخاص بساحل المغرب، ونشره بمجلة (هسبريس Hesperis) سنة1927. واهتم (بريرا) حين وصفه لدكالة بشيئين: بالساحل وظروف الملاحة به، وبوصف حواضر وقرى ذلك الساحل. ففيما يخص النقطة الاولى، أكد الرحالة على اتجاه الساحل، والاماكن الخطيرة به ونقط الماء القريبة منه، ثم انتقل بعد ذلك لوصف نهر أم الربيع وظروف الملاحة به. وبدأ وصفه للمدن والقرى بالحديث عن أزمور التي اهتم فيها على الخصوص بصيد الشابل ووفرة منتجات ضواحيها. وذكر بعد ذلك خراب (مازيغن) وأشار الى جودة مينائها، والى كثرة ما كانت تصدره من حبوب. ووصف بعد ذلك تيط وميناءها الصغير وأشار الى خصوبة ظهيرها. وانتقل اثر ذلك الى ذكر ما كان ميناء (دار الفارس) يصدره من منتجات محلية. وكانت آسفي آخر ما وصفه الرحالة من مدن وقرى دكالة. فبعد أن أشار الى خطورة مينائها، ذكر أهم المنتجات التي كانت تصدرها.

L'Anonyme Portugais. trad. francąise. Comte de Castries. Paris. 1906.

ترجم هذا المؤلف الكونت (دو كاستر)، ونشره مع النص البرتغالي سنة 1906 . ورغم أن البرتغالي المجهول دون مشاهداته خلال فترة حكم المنصور السعدي، فإن ما ذكره بشأن دكالة يهمنا بالدرجة الاولى لأنه أولى اهتماما خاصاً للوحدات الطبغرافية وخصوصا لنقط الماء داخل المنطقة مما سمح لنا بتحديد مدى خطورة مشكل الماء داخل دكالة.

* * *

4 ـ **الدراسات.**

لم يحظ تاريخ الغزو ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ باهتمام المؤرخين المغاربة والعرب. وكانت المحاولات التي بذلت للتأريخ لهذه الحقبة قليلة جداً، ولم تتعد مستوى المقالة السريعة والسطحية. واهتمت هذه المحاولات القليلة بالغزو ككل، ولم يخص الفقية الكانوني، مؤرخ آسفي، الغزو البرتغالي لهذه المدينة إلا بما يقل عن ثلاث صفحات.

وعلى العكس من هذا، اهتم المؤرخون الفرنسيون والبرتغاليون كثيراً بهذه الحقبة من تاريخنا. وكان منهم من سلط الأضواء على بعض جوانب موضوعنا. ولكن أعمال هؤلاء المؤرخين الأجانب، سقطت في مجموعة من الهفوات:

ولعل أهم عيب يطبع دراسة المؤرخين الأجانب لهذه الحقبة هو دراستهم للغزو من وجهة نظر المستعمر، ودون اعتبار المغاربة الذين كان الغزو يهمهم بالدرجة الاولى، وكان مصيره مرتبطا بموقفهم منه. فهم عندما يتعرضون لأسباب فشل البرتغاليين مثلا، يرجعونه إلى مشاكل البرتغال وحدها، كقلة سكانه بالنسبة لاتساع الأمبراطورية، وتزايد المشاكل المالية، وإلى سوء نوعية موانىء المغرب، والى عدم استفادة البرتغاليين من المدن المحتلة، وإلى تفضيل البرتغال للهند والبرازيل على المغرب. وسكت جل هؤلاء المؤرخين عن صمود المغاربة في وجه البرتغاليين. والجدير بالذكر هنا أن المؤرخين البرتغاليين كانوا أكثر موضوعية من المؤرخين الفرنسيين الذين أرخوا للغزو البرتغالي.

ومالت جل هذه الدراسات إلى التعميم المقصود. فإذا كانت قد سكتت عن صمود المغاربة ورفضهم للغزو، فإنها أكدت على بعض الحالات الخاصة وعممتها على قبائل بأكملها، كقولها بتورط قبائل الجنوب المغربي مع الاستعمار.
كما حاولت بعض هذه الأعمال أن تخفف من وحشية الغزو البرتغالي، إن لم تكن سكتت عن نتائجه الخطيرة على تطور المغرب اللاحق، وتفادت دراستها. وكان من هذه الدراسات ما جاء مشحونا بأحكام القيمة التي استهدفت المغاربة في

شعورهم الديني والوطني، أو بالغت في التنويه بأعمال البرتغاليين بالمغرب. ورغم هذه الهفوات، قدمت هذه الدراسات خدمة كبرى لتاريخ المغرب بسبب اهتمامها بالفترة التي لم يكن المغاربة يعلمون عنها إلا الشيء القليل. وكانت المواضيع التي تعرضت لها هذه الأعمال تتعلق على الخصوص بالغزو البرتغالي ككل، وكانت التي تمس جانبا من جوانب بحثنا قليلة بالنسبة لما كتب عن الغزو، وكان أهمها ما يلي:

Azamor, Os précedentes de conquista e a expedicao do Duque dom Jaime. Lisboa. 1930. 54. P. par. D.Pires de lima.

كان هذا المؤرخ أول برتغالي يهتم بتاريخ الغزو البرتغالي لدكالة، إذ نشر سنة 1930 مقالة عن ظروف احتلال أزمور، تعرض فيها لأوصاف المنطقة ولمواردها، وأكد على الخصوص على كثرة الحبوب والشابل، ثم تعرض لأوضاع أزمور السياسية قبل دخولها تحت الحماية البرتغالية. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أسباب الحملتين اللتين نظمهما البرتغاليون ضد المدينة سنة 1508 و 1513 .

ب - História da dominação portuguesa em çafym

Lisboa. 1930. par D. Pirés de Lima

صدر هذا الكتاب بلشبونة سنة 1930 ، في 115 صفحة، وقسمه (ليما) إلى سبعة فصول لم يعنونها. واعتمد في ذلك التقسيم على التسلسل الزمني، وعلى الأحداث التي عرفتها آسفي، وعلى الخصوص على تواريخ تعيين القباطنة. وباستثناء الفصل الاول الذي خصصه لتحقيق اسم المدينة واسم دكالة، ولموارد هذه المنطقة، ولتطور المغرب السياسي من الفتح الاسلامي الى القرن الخامس عشر، وأخيرا لاوضاع آسفي السياسية قبيل احتلالها، كانت كل الفصول التالية تتعلق بظروف احتلال آسفي، وبحروب البرتغاليين ضد القبائل، وضد الهنتاتيين والوطاسيين والشرفاء السعديين، وللاوضاع السيئة التي أصبح البرتغاليون يعانون منها بعد تضييق الخناق عليهم.

وختم بحثه بخاتمة خصصها للتأكيد على أهمية العوامل الاقتصادية في الغزو البرتغالي، ولتحديد موقف المؤ رخين البرتغاليين من قرار الملك القاضي باخلاء آسفي وأزمور، ولاعطاء وجهة نظره في الموضوع.

واعتمد لانجاز هذا العمل على عدد كبير من الوثائق التي نقب عنها بنفسه بأرشيف قصر (Torre do Tombo) ، وعلى عدد كبير من المصادر كان على رأسها (كويش ودو سوزا) السابقي الذكر، وعلى مؤرخ أصيلا (B. Rodriguês) وعلى (ديبغو دو طوريس) . . .

وسبب له الاعتماد على وثائق غير منشورة لا تحمل في غالب الاحيان الا اسم اليوم والشهر بعض الاخطاء المتعلقة بتأريخ الاحداث (ص ص 43 - 44 ;68 ...) وسقط في أخطاء أخرى بسبب سوء قراءة تلك الوثائق. فلقد اعتقد أن «السراق» قبيلة لان اعيان آسفي نعتوا قبيلة بني ماكر بذلك. (ص 28).

وأولى المؤ لف أهمية كبرى للاحداث السياسية، مما شغله عن الاهتمام بالتنظيمات البرتغالية بدكالة، وبنوع النظام المتبع بالمنطقة. كما أنه لم يؤ كد على نتائج الغزو على المنطقة. ورغم كل هذا، فلقد بذل (ليما) مجهودا ضخما اعتمد فيه على الخصوص على المصادر الاصلية.

Os Portugueses em Marrocos In. História de Portugal. T. III, (ج) 1931. IV. 1932.

تمثل هذه الدراسة قسما من الجزء الثالث (ص ص 385 - 544) والجزء الرابع (ص ص 78 - 129) من «تاريخ البرتغال History.de portugal ، الذي أشرف على نشرة D. Pires ، وخصص (د، لوبش) قسما لا بأس به من دراسته لتتبع مراحل تعامل المنطقة مع البرتغاليين. واعتمد في عرضه على التسلسل الزمني، وعرض لتعامل البرتغاليين مع كل مدينة دكالية على حدة. وهكذا خصص الصفحات (463 - 505) لعلاقة آسفي مع البرتغال تناول فيها مرحلة ولائها ثم احتلالها،وبداية انتشارالنفوذ البرتغالي بالداخل الى حدود صيف 1514 ، أي الى أن

عزل يحيي أو تعفوفت من منصبه وأرسل الى البرتغال. وتناول بعد ذلك علاقة أزمور مع البرتغاليين (ص ص 509 - 529) حين ولائها، ثم تعرض لظروف احتلالهـا، وللحروب التي خاضها البرتغاليون بالداخل انطلاقا منهـا. وخصص الصفحـات (529 - 533) لمازيغن. وعاد بعد ذلك الى تناول مرحلة انكماش نفـوذ البرتغـاليين داخل المنطقة، وتزايد مصاعبهـم السياسية والمالية داخـل المدن المغـربية المحتلـة. وتعرض في آخر دراسته الى أهـم أسبـاب فشـل البرتغـاليين، ونـاقش أطروحـات مؤرخين برتغاليين آخرين.

Textos em Aljamia portuguesa. 2é. édit. 1940. 282. p. (د)

خصص (د.لوبش) هذا المؤلف للرسائل الاعجمية (التي كانت حروفها عربية ومحتواها برتغالي)، التي بعث بها أعيان دكالة الى البلاط البرتغالي. ويحتوي الكتاب على 282 ص. وقسم (لوبش) كتابه هذا الى ثلاثة أقسام:

كان القسم الاول خاصا بتلك الرسائل التي نشرهـا (لوبش) بحـروف عربية ثم لاتينية 106 صفحة).

وكان القسم الثاني خاصـا بيحيي أوتعفوفـت، تتبـع فيه المؤلف بكل تفصيل مراحل مغامرة هذا العميل الى جانب البرتغاليين من يوم أن كان قائدا على آسفي سنة 1507 ، الى أن اغتيل سنة 1518 . وأعاد النظر في بعض ما كتبه عن هذا الشخص في مؤلفه السابق الذكر. وقسم هذه الدراسة بدورها الى ثلاث فقرات أعطاها عناوين تعبر عن الدور السياسي الذي كان يقوم به يحيي. كان موضوع الاولى يتعلق بظروف وصول يحيي الى السلطة بآسفي وقت ولائهـا للتـاج البرتغـالي، وباصطداماتـه مع البرتغاليين وتنحيته من السلطة، قبل ارساله الى البرتغال (ص ص 107 - 119).

وعرض في الفقرة الثانية لفترة تعيينه قائدا على عبدة والغربية (1511 - 1514) ونفيه الى البرتغال مرة ثانية (1514 - 1516) (ص ص 119 - 164).

وتناول في الفقرة الاخيرة فترة تعيينه قائدا على كل قبائل دكالة (1516 - 1518) (ص ص 164 - 210).

وكان القسم الثالث والاخير من هذا الكتاب تحت عنوان (دكالة منطقة مسالمة» Duquéla, zona de Mouros de pazes (ص ص 211 - 226) خصصهـا للتعـريف بمنطقة دكالة ومواردها وقبائلها ومدنها اعتمادا على ما ذكر (كويش). وحاول بعد ذلك تتبع التنظيـم الاداري وأشار الى اعتماده على العناصر المحليـة. ولكنه لم يستوف التنظيم الاداري والجبائي حقه وبرر ذلك بقوله « . . . لاننا لا نتوفر على المعلومات الكافية للقيام بدراسة شاملة. . . ». والجدير بالذكر أن أي أحد من المغاربة ـ حسب علمنا ـ لم ينتبه لهذه الدراسة القيمة عن يحيى أوتعفوفت رغم مرور أكثر من أربعة عقود على الطبعة الثانية.

(هـ) **Le Commerce de Berbérie et L'organisation économique de L'Empire portugais aux XV et XVI.** Siècle.

كان (ريكار) أول مؤ رخ أكد على أهمية العوامل التجارية في علاقة دكالة مع البرتغال.وخص هذا الموضوع بمقالة نشرها بالجزائر بمجلة (A. I. E. O.). بدأ دراسته بالتعريف بأنواع الانسجة الصوفية المتبادلة، وأشار الى أن البرتغاليين كانوا يقتنونها في البداية من وهران وتونس قبل أن يشرعوا في شرائها من أزمور وآسفي وفي انتاجها في المدينة الثانية بعد احتلالها. وأكد على أهمية هذه الانسجة في المبادلات التي نظمها البرتغاليو ن بالمراكز التجارية المشيدة على سواحل غرب افريقيا المنتجة للتبر والمصدرة للعبيد. وأشار الى شراء البرتغاليين للخيو ل والحبوب من موانىء دكالة لنفس الغاية. وأكد بعد ذلك على حيوية دكالة بالنسبة لاستمرار استفادة البرتغاليين من تلك المراكز التجـارية. واختتـم مقالتـه بالتـأكيد على أولـوية العوامـل الاقتصـادية في تعامـل البرتغاليين مع المنطقة. ولكن دراسته لهذه المبادلات كانـت سريعـة واقتصرت على المنتجات التي كان البرتغاليو ن يقتنونها لنقلها الى أرغين ولامينا.

(و) **Sur la chronlogie des fortifications portugaises d'Azemmour Mazagan et Safi. Congresso do Mundo portugués Vol. III. T. I. Lisbonne 1940.**

تتبـع (ريكار) في هذه المقالـة القصـيرة تاريخ التحصينـات التـي استحدثهـا

البرتغاليون بكل من آسفي ومازيغن وأزمور، وذلك اعتمادا على الاشارات الواردة في سلسلة الوثائق البرتغالية (.S. I. H. M) . واهتم على الخصوص بمواد البناء ومصدرها والمشرفين عليها، والاقسام التي أضيفت أو التي تم التخلي عنها داخل المدن المذكورة. ولعل ما يثير الانتباه هو أن المؤلف اكتفى بحصر مختلف الاشارات المتعلقة بالمدن الثلاث التي وردت في وثائق السلسلة السابقة الذكر، والتي تتعلق إما بالمشاريع العمرانية البرتغالية، وإما بأوضاع الاسوار والخنادق.

(ز) Safi au vieux temps des portugais. Lisbonne 1938.

الف هذا الكتاب (كولفن. J. Goulven) الذي كان رجل قانون، والذي كان يشغل منصب نائب رئيس مصلحة الاشغال البلدية بمدينة مازيغن(الجديدة). وكان هذا المنصب سبب اهتمامه بتاريخ الغزو البرتغالي لكل من آسفي ومازيغن. واهتم المؤلف بتاريخ آسفي تحت الحكم البرتغالي. وقسم عمله الى عشرة فصول، خصصها إما لاحداث سياسية كبرى كاحتلال آسفي (فصل 2)، وحصارها من طرف القبائل سنة 1510 (فصل 4)، وسلسلة الغارات التي خاضها البرتغاليون انطلاقا من آسفي (فصل 6) . . . الخ. أو لاشخاص لعبوا أدوارا طلائعية في الغزو البرتغالي كالقبطان (أزنبوجا: فصل 3 ، أو خلفه «أتايد» فصل 5) أو يحيى أوتعفوفت (فصل 7). وبذلك طغت الاحداث السياسية على هذا المؤلف اذ أخذت حروب البرتغاليين ضد القبائل والانظمة المغربية من هذا العمل جزءا كبيرا جدا. واعتمد في انجازه على الخصوص على مؤلف (ليا) السابق الذكر، وعلى بعض المصادر كمؤلفات كويش، دوسوزا، ومارمول. . .). ويعتبر مؤلف (كولفن) ضروريا لاخذ فكرة مختصرة عن الاحداث وللتعرف على أسماء الاشخاص والقبائل قبل الرجوع الى المصادر الاصلية. ولكن (كولفن) لم يحترم دائما قواعد الكتابة العلمية، وسقط مؤلفه في مجموعة من الهفوات (انعدام الدقة، تواريخ خاطئة، عدم الاشارة الى المصادر التي استقى منها مادة كتابه. . .). كما جاء عمله مشحونا بأحكام القيمة، ومحررا بأسلوب تغلب عليه الشاعرية.

La politique indigène du Roi D. Emanuél dans le Sud Marocain. (ح)
Congrêsso do Mundo Português Vol. III. T. I. 1940.

كانت هذه المقالة موضوع عرض تدخل به (كولفن) في احدى المؤتمرات التي نظمت بالبرتغال.

درس المؤلف خصائص السياسة البرتغالية المتبعة بالمناطق التي كانت فيها مكتسبات البرتغاليين مهمة في البداية. وأشار الى أن هذه السياسة التي رسم خطوطها العريضة الملك (إمنويل الاول) سمحت للبرتغال بتوفير مجهود عسكري ومالي مهمين. وأكد في آخر بحثه على فشل تلك السياسة لتضارب مصالح الملك والمسؤولين عن الثغور.

واذا كان (كولفن) من المؤرخين القلائل الذين اهتموا باعتماد البرتغاليين على أعوان محليين، وعملوا على تتبع خصائص ذلك التنظيم، فانه صبغ تنظيم البرتغاليين هذا بصبغة مثالية، وجعل منه «. . . نموذجا رائعا وانسانيا، اقتبس منه التصور الاستعماري المعاصر. . .».

Les bulles pontificales et l'expansion portugaise au XV. Siècle. (ط)

نشر الراهب البلجيكي (Ch. M. Witte) هذا المقال الطويل في ستة أعداد من المجلة الدينية البلجيكية: Revue d'histoire écclésiastique صدرت ما بين 1953 و 1958، اهتم فيه بدور البابوية في التوسع البرتغالي اعتمادا على تسعة وستين (69) قرارا بابويا صدر ما بين 14 ابريل 1418 و 18 يونيو 1499. ودرس كل واحد منها حسب تاريخ صدوره بعد أن رتبها داخل مجموعات تتعلق بفترات حكم كل ملك برتغالي. وأعطى فكرة عن محتوى كل قرار بابوي، وما كان يسمح به للملك من امتيازات مالية، وربط محتوى كل قرار باهتمامات كل من الملك البرتغالي والبابوية، وبين كيف أن التوسع العثماني سبب تخوفات كبرى لدى البابوية جعلتها سخية مع

البرتغال الذي عبر عن استعداده لمحاربة المسلمين. ولكنه أكد على خيبة أمل البابوية في ملوك البرتغال.

وطبعا أعطى هذا المؤرخ الراهب الاولوية للعامل الديني، وفسر نزول البرتغاليين على طول سواحل افريقيا بمحاولاتهم الرامية الى الاتصال بالممالك المسيحية لتطويق الاسلام، ونفى أن تكون غاية البرتغاليين من تشييد مراكز تجارية هي البحث عن العبيد. ولعل أهم ما يلاحظ على صاحب هذا المقال هو ايمانه الاعمى بالمصادر البرتغالية. ورغم ذلك، فالمجهود الذي قام به صاحبه ضخم جدا، واعتمد في بحثه على مادة جديدة وقف عليها بنفسه في أرشيف الفاتيكان والارشيف البرتغالي. كما اعتمد على كل الدراسات المتعلقة بالغزو والتوسع البرتغاليين.

الباب الأوّل

أوضاع دكالة قبل تعرضها للغزو البرتغالي

الفصل الأول

الخصائص الطبيعية

كانت منطقة دكالة تشمل الى حدود القرن السادس عشر رقعة أكثر اتساعا مما هي عليه الآن، اذ كانت تمتد من نهر أم الربيع بالشمال الى ما وراء نهر التانسيفت بالجنوب، أي ما يعرف اليوم بمنطقتي عبدة ودكالة. وعرف هذا الاسم استعمالا اختلف كثيرا خلال العصور الوسطى، اذ كان يعني أحياناً مجموع القبائل البربرية التي كانت متواجدة هناك، وأحيانا أخرى قسما من المنطقة نفسها. وقد يستعمل الاسم للدلالة على الشيئين معا.

وتنقسم دكالة الى ثلاث وحدات طبغرافية (الساحل، السهل، والمرتفعات الشرقية). ولم تكن هذه الوحدات متميزة من ناحية الاشكال الطبيعية فقط، ولكن كذلك من ناحية الغطاء النباتي ونوع الاستغلال الزراعي الذي يعرفه كل قسم. ومع ذلك يغلب على دكالة طابع الانبساط مما يجعل منها سهلا من أكبر سهول المغرب، ويسمح بامكانيات زراعية هائلة. ولكنها كانت تعاني من مشكل خطير سببته قلة المياه بالمنطقة التي تنعدم بداخلها الانهار والعيون، والتي لم تستفد من نهري أم الربيع والتانسيفت الموجودين بجوانبها. ولهذا كان اعتماد سكان المنطقة ومواشيهم في شربهم على ما كان يُدَّخَرُ من مياه المطر. وأثر هذا المشكل على نوع الاستغلال الزراعي وعلى نمط عيش السكان.

1 ـ تطور استعمال اسم المنطقة:

قبل الشروع في دراسة العوامل الطبيعية لدكالة، لا بد من التعرف على الاسم ومعانيه. فاذا كان الاجماع على نطقه،(1) فانه يطرح مشكلين: مشكل الدلالة والاصل من جهة، ومشكل توظيفه من جهة أخرى.

لا نعرف للفظ معنى، ولا ندري متى بدأ استعماله. فابن قنفد الذي زار المنطقة سنة 769 هـ واستعمل اللفظ، ذكر أن القليل من سكانها يتكلم العربية. فلعله لفظ بربري عرف تحويرا في النطق كما حصل بالنسبة لعدد من الاسماء (مشنزاية مثلا). وعلى كل حال، لم يكن اسم دكالة يطلق على القبائل قبل الاسلام، ولم يرد بين الاسماء التي ذكرها المؤرخون الاغريق والرومان(2). ولم يذكر البكرى الاسم، وجعل ابن خلدون المنطقة الى حدود آسفي تابعة لبرغواطة(3)، في حين أن البعض جعل امتداد بلاد تامسنا يشمل ما يعرف اليوم بدكالة وعبدة(4). وذكر الادريسي وابن خلدون، أن قبائل المنطقة عرفت انتشارا يفوق بكثير انتشار قبائل دكالة الحالية، مما يناسب الحدود التي كانت للمنطقة إلى بداية القرن السادس عشر.

ومن جهة أخرى، أطلق الاسم على كل من المنطقة وسكانها الى حد أننا نجد عند المؤلف الواحد الاستعمالين معا. ويتجلى ذلك بوضوح عند ابن خلدون الذي يطلق «دكالة» على قبائل مصمودة السهل مرة، وعلى الاقليم مرة أخرى(5). ونفس الخلط نجده عند باقي المؤلفين الذين تعرضوا للمنطقة قبل القرن السادس عشر. الا أن تتبع هذه المؤلفات وقراءتها بامعان، واعتبار ما عرفته المنطقة من تطورات سياسية وبشرية (دخول القبائل العربية مثلا) قد يمكن من تصور مراحل تحول استعمال الاسم.

نقرأ في كتاب «بهجة الناظرين» ان احد الامغاريين بقي بتيط الى أن اندلعت حرب برغواطة فـ «... خرج بأمه الى بلاد دكالة...»(6) ثم في محل آخر أشار الى أن «... أيير بساحل دكالة...»(7) واذا تمعنا في هذا الاستعمال نجده يطرح مشكلا جديدا، هو حدود ما يعني بـ «دكالة»، ذلك انه يعتبر أن قرية (تيط) تنتمي الى «صنهاجة أزمور»، وبذلك يعتبرها شيئا خارج دكالة.

ولقد نحا ابن قنفد نحوه، وعبر عن نفس التقسيم. فحين تكلم عن الامغاريين وصفهم «بالصنهاجيين»، وحين أشار الى «الماجريين»، قال: «. . . وهم طائفة ابي محمد صالح، ومنهم الدكاليون. . .»(8) ومما يؤكد هذا التقسيم الى جزءين عند ابن قنفد انه حين تكلم عن اجتماع الصوفيين والفقهاء باحدى قرى ساحل المحيط قال عن المكان: انه «. . . جوف اقليم دكالة، بين آسفي وبلد تيط نفطر. . .»(9). والسبب في هذا التقسيم ناتج، كما يظهر من هذه المقتطفات، عن الخلاف الموجود بين السكان: «فدكالة» عند المؤرخين، هي ما يناسب مصمودة السهل، وبلاد صنهاجة أزمور، هي ما يناسب هذه القبيلة. وهذا ما نجده عند ابن الزيات(10) الذي يستثني من دكالة قبيلة صنهاجة، ويعني بدكالة ما لاحظناه عند ابن قنفد وابن عبد العظيم الازموري.

وقام ابن خلدون بنفس التمييز مع تناقض واضح. فاذا استثنى من دكالة قبيلة صنهاجة السهل(11)، فانه أدمجها ضمنها في محلات اخرى من «عبره»(12).

والملاحظ أن استعمال الاسم للدلالة على القبائل اختفى تدريجيا ابتداء من القرن 16، وأصبح لايطلق الا على الاقليم. ولقد بدأ هذا الاستعمال مبكراً عند بعض المؤلفين كابن الزيات(13)، وابن قنفد، وابن خلدون، وان كان الغالب استعمال «بلاد دكالة». فهل نتج هذا التحول في الاستعمال عن تخطي لفظ «بلاد» للاكتفاء فقط بدكالة، وغلب بعد ذلك هذا الاستعمال؟ إلا أن ذلك يعود أولا وقبل كل شيء الى تفكك عصبية القبائل المكونة لمجموعة دكالة، وذلك بعد تغلب القبائل العربية الهلالية عليها أولا، ثم بعد اختفاء هذه القبائل البربرية ثانيا، إما نتيجة اندماجها داخل القبائل العربية، وإما نتيجة رحيل قسم كبير منها الى خارج المنطقة (سايس). اذن لم يبق أي مبرر لاطلاق الاسم على قبائل لم يعد لها وجود، وبذلك عوضت المنطقة القبائل في حمل الاسم، خصوصا وأن أسماء قبائل جديدة ظهرت بها: غربية، عبدة، وشرقية بفروعها المتعددة. (سبيطة، أولاد فرج). وهكذا لم يعد في الفترة التي تهمنا الا استعمال واحد لكلمة «دكالة» ويعنى به المنطقة التي سكنتها قبائل دكالة الست. ولهذا لا نجد في المصادر البرتغالية المنشورة الا استعمالين اثنين(14) للدلالة على القبائل فيهما اشارة «لقبيلة دكالة» مع ذكر عبدة، ورجراجة ورتنانة(15).

ولا شك في أن الاستعمال تطور تطورا كبيرا يدل أولا على تفكك عصبية قبائل مصمودة السهل، ثم على تداخل القبائل العربية والبربرية، وأخيرا يدل على بداية احتكار القبائل الموجودة شمال المنطقة لهذا الاسم الذي كان خاصا بقبائل جنوبها.

واستعمل الاسم كل من الوزان ومارمول و(كويش) والبرتغالي المجهول. . . للدلالة على الاقليم. (فكويش) مثلا، ذكر وهو يتكلم عن آسفي أنها توجد «. . . بالاقليم الذي نسميه بطريقة غير دقيقة، اقليم دكالة. . .»(16) .

ولقد أعطى الوزان لهذه المنطقة الحدود التالية: الجنوب: وادي العبيد، الغرب: التانسيفت، الشمال: المحيط(17) ويدفعنا هذا التحديد الى ابداء ملاحظتين: الاولى تتعلق بالاتجاه. (فوادي العبيد)» لا يوجد جنوب المنطقة، كما لا يوجد التانسيفت غربها. . . الخ. بل الصواب كالتالي: الحدود الغربية: المحيط، الجنوبية: التانسيفت، الشمالية: أم الربيع. ولقد نسي الوزان الحدود الشرقية. ولا شك أنه عجز عن تحديدها وخانته ذاكرته مما يفسر اخطاء الاتجاه التي وقع فيها. ويمكن أن نحد دكالة بالمرتفعات الشرقية: الجبل الاخضر وجبال بني ماكر. وبهذا تكون الحدود التاريخية لمنطقتنا مناسبة تقريبا (مع وجود رجراجة جنوب التانسيفت) لانتشار قبائل دكالة الست، باستثناء هزميرة التي اختفت مبكرا. أما الملاحظة الثانية،فتتعلق بوادي العبيد الذي لا يحد المنطقة، ذلك أن هسكورة السهل المحاذية لدكالة لا تدخل ضمن هذه القبائل. والحقيقة أن هذه الحدود الطبيعية ما هي الا للتوضيح فقط، ولم تكن حاجزا بين دكالة والمناطق المجاورة. فرجراجة، إحدى القبائل الدكالية، كانت دوما جنوب التانسيفت، وبقيت مع ذلك الى مطلع القرن 16 مرتبطة بآسفي ، وكانت حسب رسالة سكان هذه المدينة المشار اليها سابقا، إحدى القبائل المكونة «للف» تابع لآسفي. كما كانت قرية (مرامير) الموجودة جنوب التانسيفت، بالشياظمة الحالية، تابعة اداريا واقتصاديا لآسفي » .

وكانت بعض قرى تامسنا وهسكورة كثيرة الارتباط بما يحدث داخل دكالة. فحسب رواية للوزان، تسرب الفزع الى سكان قرية (تمراكشت) الموجودة بتامسنا، على ضفة أم الربيع ، وذلك بعد احتلال أزمور، (1513) وفر سكانها الى (المدينة الغربية)، بقلب دكالة.

وهذا أمر غريب نظرا لما أصاب سكان (المدينة) نفسها من فزع . وان هذا الرحيل - إن كان تم فعلا - يؤكد مدى ارتباط هذه القرى الممتدة على ضفتي أم الربيع باقليم دكالة أكثر من ارتباطها بالشاوية أو هسكورة.

وتكون هذه المنطقة الممتدة من أم الربيع شمالا الى ما وراء التانسفيت جنوبا، ما يعرف اليوم (بدكالة) و (عبدة). وكان تقسيمها الى قسمين قديما، وظهر تحت أسماء مختلفة.

فلقد سبق لنا أن تعرفنا على تقسيمها الى منطقة «صنهاجة أزمور» شمالا، ودكالة جنوبا، ثم في فترة الاستعمار البرتغالي قسمت الى قبائل شرقية وأخرى غربية. . . وابتداء من القرن الثامن عشر قسمت المنطقة الى (دكالة حمراء)، وهي عبدة الحالية، و(دكالة بيضاء)، وهي دكالة الحالية. (19)

وبهذا نفهم التحديد الذي أعطاه القنصل الفرنسي (لويس دوشوني Louis de chênier) للمنطقة اذ كتب «. . . ان هذه المنطقة (دكالة) كانت تمتد قديما من ضفة التانسيفت، الا أن منطقة عبدة اقتطعت منها ليتم التقسيم بين أخوين متنافسين على حكمها. . .». وأضاف «أن دكالة كانت تمتد الى حدود ابواب آسفي. . .» وأن «. . . إقليم عبدة، الذي كان يكون قسما من دكالة يبدأ من آسفي ويمتد الى التانسيفت. . .»(20)

واعتمادا على هذا، حدد (شوني) المنطقة في القرن الثامن عشر على الشكل التالي: من ناحية الشرق: هسكورة والرحامنة، الجنوب: عبدة، الشمال: تامسنا.

وهكذا أصبحت دكالة قسمين، ويلاحظ انه بعد القرن الثامن عشر تقلص انتشار القبائل الدكالية نحو الجنوب لصالح عبدة التي تنتشر اليوم بعيدا شمال آسفي.

ونعني بدكالة خلال هذا البحث المنطقة الممتدة من أم الربيع الى جنوب التانسفيت. وتكون هذه المنطقة حوالي 7700 كلم مربع طولها ما بين 170 الى 180 كلم، وعرضها حوالي 120 . كلم في الشمال و30- 35 كلم بالجنوب.(21) ولقد عبر الرحالة والكتاب القدامى عن هذه المسافات بطريقة أخرى كانت أحيانا قريبة من

الصواب: (فمارمول) يرى أن الفاصل ما بين الشمال والجنوب هو ثلاثون مرحلة(22) أي تقريبا نفس المسافة المشار اليها أعلاه. (23) وذكر الوزان أن هذه المسافة تقطع في أربعة أيام(24) ويفهم من هذا أن رقعة المنطقة ليست كبيرة مما يجعل التحكم فيها والسيطرة عليها سهلا الى حد ما خصوصا اذا أضفنا الى الاتساع عامل التضاريس.

2 ـ التضاريس

تكون دكالة من ناحية التضاريس في جلها منطقة شديدة الانبساط حتى ان اقل ارتفاع بها يبدو كبيرا ويسمى جبلا. ولقد وصف ابن قنفد انبساطها بقوله: «. . . وهي أرض مستوية . . . وليس بها شعاب ولا خنادق ولا جبال، الا البسائط المستوية. . .»(25) ووصفها الرحالة البرتغالي المجهول بقوله «. . . تكون دكالة سهلا جميلا وشديد الانبساط. . .»(26) فهي بذلك تكون ممرا طبيعيا كبيرا نحو الداخل يسهل تقدم الرياح والسحب ولا يعاكس تقدم الجنود، بخلاف ما يوجد عليه الهبط مثلا حيث سرعان ما تكون الجبال حاجزا طبيعيا أمام برتغاليي اصيلا وملجأ بالنسبة للسكان. ونفس الشيء صحيح بالنسبة لسبتة ومليلية. . .
وترتفع دكالة شيئا فشيئا نحو الشرق: 100 م عند الوليدية، 151 م عند زاوية سايس، 233 م عند دار القائد التونسي.

ويمكن ان نقسم المنطقة الى ثلاث وحدات طبيعية: الساحل ومنطقة التلال الرملية، السهل، وأخيرا المرتفعات الهامشية. (انظر الخريطة رقم 1).

أ ـ فالساحل الدكالي صخري يعلو البحر باجراف باستثناء خليج مازيغن.
وهذه الاجراف مكونة إما من تلال تماسكت حبات رمالها أو من الكلس كما هو الحال عند الجرف الاصفر. فاذا كان صخريا ومرتفعا ما بين مازيغن والجرف الاصفر، فانه ينحدر بعد ذلك في اتجاه الجنوب حيث تتوالى الشواطىء وتتقدم احيانا المياه داخل اليابسة كما هو الحال عند سيدي موسى وخصوصا الوليدية. وبعد ذلك يعلو الساحل ويتقدم داخل البحر عند جرف كونتي ورأس القصب قبل آسفي، وجرف اليهودي بعد هذه المدينة. ولقد مكنت الخلجان والرؤوس من وجود أحواض صغيرة كانت

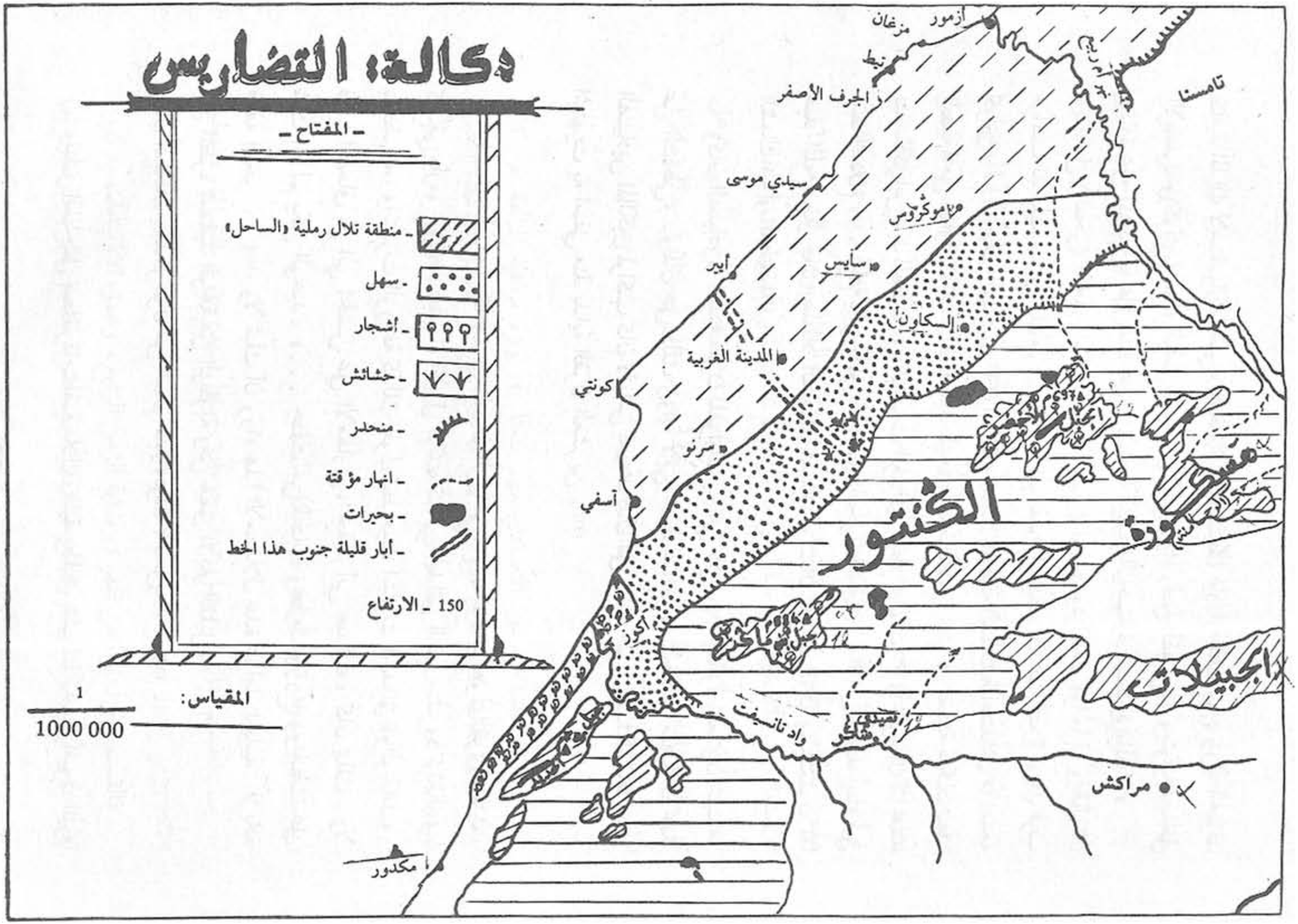
دكالة: التضاريس
- المفتاح -
- منطقة تلال رملية «الساحل»
- سهل
- أشجار
- حشائش
- منحدر
- انهار مؤقتة
- بحيرات
- أبار قليلة جنوب هذا الخط
150 - الارتفاع
المقياس:
1
1000 000
أزمور
مزغان
الجرف الأصفر
تامسنا
سيدي موسى
موكثوس
سايس
أيير
السكاون
المدينة الغربية
كونتي
سرنو
آسفي
الكنتور
الجبيلات
واد تانسيفت
مراكش
مكدور

كافية آنذاك لاستقرار موانيء صغيرة جدا كتيط، و(دار الفارس) وراء الجرف الاصفر، و(كونتي) وراء الرأس نفسه، وآسفي وراء رأس القصب. ويتوفر الساحل زيادة على الموانيء على عدة عيون التجأ اليها البحارة للتزود بالماء. «... ويدخل (البحر) داخل اليابسة (عند أيير) الى حدود ثلاث مراحل، ويقال ان مراكب تدخلها للتزود بالماء...» [27] وذكر نفس المؤلف أن عينا كبيرة توجد قرب كونتي، ثم «بجرف اليهودي» [28] واستطاع سكان المنطقة الساحلية استغلال ما تقدمه الطبيعة من موارد. فلقد كان الصيد البحري يلعب دورا مهما في تغذية سكان تيط. فلقد ذكر ابن عبد العظيم من الوجبات الغذائية بتيط: الحوت [29] وأخبرنا أن أبا محمد عبد السلام «... لم يكن يأكل الا صيد البحر خاصة...» [30] وأن أحد أبناء أبي عبد الله أمغار كان يصطاد السمك بنفسه. وكان الصيادون يستعملون اما الشباك [31] أو القصبة [32]

وكان الصيادون المستعملون للقوارب بآسفي كثيرين، وكانوا يبتعدون شيئا ما عن الشاطيء. وتدل على ذلك رواية لابي محمد صالح يستخلص منها أن عدد الصيادين المالكين لمراكب كان لا بأس به، مما يدل على ماض طويل لهذا النشاط الذي اشتهرت به آسفي منذ بداية القرن العشرين. [33]

واستغل الساحل كذلك في الميدان الزراعي، وخصوصا حول القرى والمدن، كآسفي وأزموز وتيط. فحول الاولى كانت تنتشر الحدائق التي ستزود برتغالييها بالخضر [34] وانتشرت الزراعة كذلك حول تيط حيث انتشرت الحدائق «والولجات». فهذا اسحاق بن ابي الحسن علي الامغاري، حفيد أبي عبدالله، كان يملك - ولا شك أنه لم يكن الوحيد، «... جنات من أعناب ومحارث وزرع وولجات على ضفة البحر...» [35] ولا شك أن وراء هذا الاستغلال عدة عوامل ايجابية: فزيادة على المطر، تستفيد الولجة من الرطوبة ومن عمق الآبار القليل...
وكان السكان يستخرجون من البحر عدة «فواكه» بحرية... [36].

وتتلو الساحل مباشرة منطقة تلال رملية يطلق عليها الجغرافيون اليوم

« الساحل » وهي منطقة قليلة الارتفاع الا أنها غير منبسطة ، تتالى فيها القمم والمنخفضات، ويغلب عليها الطابع الرملي. وهذا القسم يمتد نحو الداخل حوالي 30 - 40كلم في الشمال حتى يتعدى (مكروس) و (أحد أولاد فرج) في حين يضيق كثيرا على مقربة من آسفي.

ولقد ترك لنا الرحالة البرتغالي المجهول وصفا دقيقا وصحيحا للمنطقة الممتدة ما بين مكروس مازيغن : «. . . تكون مكروس سهلا كبيرا محاطا بمرتفعات مكونة من رمال وحجارة صغيرة ومتناثرة. . . ترتفع مرة وتنحدر اخرى. . .»(37) وذلك الى ضواحي مازيغن حيث تختفي التلال ليحل محلها نجد كلسي تغطية تربة حمراء مكنت هذه المدينة من ظهير خصب تعتمد عليه. وفي منطقة التلال توجد التربة القابلة للاستغلال في المنحدرات وأحيانا على بعض قمم التلال التي لم تتماسك رمالها. وفي الغالب اقتصرت أماكن الزراعة على المنحدرات، وخصصت القمم للرعي. وعلى كل حال، فامكانات هذا «الساحل» محدودة مما يفرض على السكان في حالة استقرار دائم أنشطة متكاملة: الزراعة وتربية المواشي.

وكان لهذا الساحل دور اقتصادي مهم يتمثل في وفرة مراعيه الناتجة عن كثرة أراضيه غير القابلة للاستغلال الزراعي. هذا ما حتم على كل القبائل الدكالية انتشارا من الشرق نحو الغرب في امتداد كبير، انتشارا يضمن «ملكية» السهل و«الساحل» في نفس الوقت.

وينطبق هذا بدون استثناء على كل قبائل المنطقة.

ب ـ القسم الثاني: السهل، وهو جزءان ، سهل سيدي بنور بالشمال، وسحيم بالجنوب.

فالقسم الاول تراكمي ظهر في بداية الزمن الرابع، وعمق الارسابات به كبير. الا أنه غير مُسْتَوٍ وتختلف تربته من مكان الى آخر. فشرقه المتصل بالرحامنة فقير، أما

جزؤه المتصل «بالساحل» فيميل الى الطابع الرملي ويصلح لزراعة الاشجار. وتغطي التربة السوداء باقي هذا السهل. وعلى كل حال، يحتوي هذا السهل على إمكانات كبرى، على الاقل فيما يخص التربة. ولهذا كانت الكثافة السكنية ـ الناتجة طبعا عن كثرة الاستغلال ـ كبيرة. فلقد عاشت بهذا الجزء قبائل مشنزاية الكبيرة وبعدها قبائل «الشرقية» التي أجمعت النصوص على أنها كانت أكبر القبائل الدكالية عددا.

أما القسم الجنوبي من السهل، وهو سهل سحيم، فهو أقل اتساعا من القسم السابق لانه يضيق ما بين «الساحل» ومنحدر نجدالكنتور. ويختفي «الترس» وتحل محله تربة سوداء ذات طابع رملي.

(ج) القسم الثالث والاخير، يتكون من المرتفعات الهامشية التي يطلق عليها لفظ «جبال» لوجودها بجوانب مناطق شديدة الانبساط. فالجبل الاخضر (شرق سيديبنور) لا يتعدى علوه 697 م، في حين أن جبال بني ماكر التي سماها مارمول «جبال الشمس» لا تتعدى 584م. ويصل علو جبل الجديد 735 م. ولقد وصف البرتغالي المجهول الجبل الاخضر بقوله: «. . . يقطع الجبل الاخضر في أقل من ساعة، ويبرز وسط سهل دكالة الذي يحاذيه طيلة أربع أو خمس مراحل. وهو مرتفع ومليء بالصخور. . .»(38). ووصف مارمول جبال بني ماكر بكونها مرتفعة ووعرة. ويمتد بين الجبلين نجد الكنتور الذي يعلو السهل بمنحدر واضح. وتقدم هذه المرتفعات منظرا طبيعيا مخالفا لباقي الاقسام: فهي كثيرة الاشجار، (من هنا جاء اسم الجبل الاخضر) والمياه. ونظرا لوعورتها النسبية وارتفاعها لعبت دور الملجأ بالنسبة للقبائل. فلقد التجأت قبائل رجراجة الى جبل الحديد بعد زحف القبائل العربية (الحرث، بني مطاع). كما كانت هذه الجبال ملجأ السكان إثر الاحتلال البرتغالي للسواحل ومحاولة الاستعمار نشر نفوذه نحو الداخل. فسكان آسفي بعد أن تنبهوا لنوايا البرتغاليين، وتأكدوا من أن المدينة ساقطة لا محالة، فروا الى جبال بني ماكر(39). كما أن الاعرج استعمل هذه المرتفعات بالذات للمرابطة ضد برتغاليي آسفي وعين عليها القائد بودبرة(40). والتجأت قبائل «الشرقية» و «الغربية»

عدة مرات الى الجبل الاخضر رغم أنه لم يكن منيعا.

3 - المناخ:

نلاحظ بدكالة كل خصائص المناخ المتوسطي: حرارة وجفاف في الصيف، ورطوبة وبرودة في الشتاء. الا أن عاملين يتدخلان بالطبع: عامل الموقع بالنسبة لخطوط العرض، والبعد أو القرب من البحر. ولهذا، فدرجات الحرارة أعلى من المناطق الشمالية، في حين أن كمية التساقطات أقل. ونلاحظ نفس الشيء بالنسبة لمناطق دكالة نفسها: فدرجات الحرارة تعرف مدى حراريا مرتفعا كلما اتجهنا نحو الشرق. وتقل كمية التساقطات كلما اتجهنا نحو الشرق أو الجنوب. ولهذا تتوصل الوليدية ب392 ملم (الرباط523 ملم) في حين أن كمية التساقطات بآسفي تصل في المعدل الى327 ملم، وفي الداخل تصل هذه الكميات الى 327 ملم بخميس الزمامرة و326 ملم بسيدي بنور.

لا شك أن تتبع خصائص هذا المناخ الى حدود القرن16عمل مفيد يمكننا من تحديد الوجه الطبيعي الذي كانت عليه دكالة خلال تلك الفترة ويسمح لنا أيضاً بمعرفة ما إذا كان المناخ قد عرف تقلبات أدت الى اختفاء بعض الظواهر الطبيعية، كتراجع الغابة مثلا. الا أن النصوص لا تسمح لنا مع الاسف بالقيام بهذا العمل. وان كانت، مع ذلك، لا تبخل ببعض الاشارات السريعة.

ففيما يخص درجات الحرارة، نلاحظ من خلال رسالة لقبطان آسفي الى الملك البرتغالي وصفا دقيقالمدىارتفاع هذه الحرارة صيفا، وعلى مقربة من آسفي. لقد نتج عن مجهود الغارة، ومطاردة جنود أحمد الاعرج للبرتغاليين، فضلاً عن أن درجات الحرارة كانت تزداد ارتفاعا مع مرور الساعات، أن أصبح عدد كبير منهم عاجزا عن المشي. وعانوا كثيرا من العطش؛ وما أن وصلوا الى بئر حتى «... مات البعض بعد أن أفرط في شرب الماء، والبعض الآخر لم يتمكن قط من ذلك (الشرب) وذلك لانهم كانوا على ظهور الخيل شبه أموات بسبب العطش...»(41).

وكانت تصاحب هذه الحرارة الصيفية كما يقول البرتغالي المجهول

«. . . عواصف تعلي التراب بعيدا في غمامة كثيفة جدا الى حد أنها تظلم النهار. . . (42)

نلاحظ اذن نفس الخصائص الحالية. ولا شك أن درجات الحرارة الشتوية كانت شبيهة بالدرجات الحالية.

أما فيما يخص التساقطات، فلقد لاحظنا أن الكميات تسمح في كل أقسام دكالة بزراعة جافة (أكثر من 300 ملم سنويا). ومن المعلوم أن هذه المعدلات في حالة مناخ كمناخ المغرب، لها طابع بيداغوجي، توضيحي فقط. فالمهم كما هو معلوم، ليس هو مجموع ما يسقط من أمطار خلال الفصل الممطر، ولكن كيفية توزيع هذه التساقطات خلال الفترة الزراعية. لقد كان – ولا يزال – سقوط الامطار الخريفية أساسيا لبداية عملية الحرث، وكل تأخر يؤدي الى قلق الفلاح، في حين أنها اذا انعدمت أدت الى جفاف كما حدث سنة 1520 م(43) أو سنة 1541 م(44). وكانت هذه الامطار تسقط في الفترة الممتدة من شهر شتنبر الى شهر دجنبر. وتجمع المصادر البرتغالية على أن عمليات الحرث كانت تتم قبل النصف الاول من دجنبر(45)، وإلا فانها تعتبر متأخرة كما حدث سنة 1517 حيث لم تشرع القبائل الشرقية في الحرث إلا بعد بداية شهر يناير(46).

ولا تحدد هذه الامطار الخريفية وحدها مصير المحاصيل التي تبقى مرتبطة بالامطار الربيعية. ولذلك يبقى بعد نهاية الحرث وإلقاء البذور شبح الجفاف مسيطرا طالما لم تنزل الامطار. (جفاف 1517 مثلا).

وعرفت دكالة بالفعل عدة سنوات جفاف مكنتنا بعض إشارات المصادر من تحديد عدد منها، وكان سبب بعضها انعدام الامطار الخريفية. (47) ومنها ما لم يحدد صاحب التشوف لا تاريخها ولا فترتها(48).

وفي القرن 16، عرفت المنطقة جفافا سنة 1511 و1517، وآخر خلال موسم 1519 – 1520، (49) وكذلك سنة 1540. والجدير بالملاحظة أن هذا الجفاف الاخير كان محليا، ومس المناطق الموجودة جنوب أم الربيع فقط(50). ولا شك أنه كان للجفاف نتائج خطيرة جدا على السكان ومواشيهم لاعتمادهم في شربهم على مياه المطر

كما سنرى بعد قليل خصوصا وأن درجات الحرارة مرتفعة جدا في فصل الصيف.

4 - مشكل الماء:

ان مشكل الماء خطير جدا بدكالة ويرتبط به مصير السكان ومواشيهم لان المنطقة «... ليس بها نهر ولا عين، الا آبار طيبة...»(51) ولان مصدرا برتغاليا وصفها بكونها «جافة»(52). ومما يدل على خطورة هذا المشكل أن البرتغالي المجهول أولى حين وصف دكالة، كبير اهتمامه لأماكن الماء وحاول تحديدها واحصاءها، وذكر كيفية استخراجها، الشيء الذي لم يعره أي اهتمام حين وصف باقي أقاليم المغرب حتى ان القارىءالجاهل لجغرافية المغرب قد يخيل اليه أن المؤلف يصف منطقة صحراوية أو شبه صحراوية. وبهذا يكون سهل دكالة مخالفا لباقي سهول حوض الابيض المتوسط حيث«... كان احتلال السهول يتطلب أولا القضاء على ماء المستنقعات والتحكم في الملريا...»(53) ولا تستفيد دكالة من نهرين كبيرين يمران بجوانبها: أم الربيع والتانسفيت، كما لا تستفيد من العيون التي توجد بالساحل (تيط، أيير، كونتي، رأس القصب...) أو بالمرتفعات (جبل الحديد، الجبل الاخضر...) وأعطت عيون الجبل الاخضر نهرا كان يصل أم الربيع كما أكدت ذلك دراسة قام بها العالم الجيولوجي (برايق)(54) كما أحدثت بحيرة كبيرة عند سفحه كانت دائمة وأصبحت اليوم مؤقتة (ورار). ولقد وقف كل من الوزان ومارمول على هذه البحيرة، وذكرا كثرة سمكها(55). وخيم على مقربة منها محمد البرتغالي سنة 1515. وأشار الوزان ومامول والبرتغالي المجهول الى كثرة عيون جبل الحديد مما يمكن من استغلال الجنات والبساتين.واستغل المشنزائيون كذلك عيون الجبل الاخضر في جناتهم. فحسب التشوف، كانت جنات الكروم تنتشر حول قرية إِلسْكَاوَنْ حيث كان ماء السقي ملكيات فردية، وفي بعض الحالات شركة ما بين عدد من الافراد(56).

وفي باقي مناطق دكالة، أي «الساحل» والسهل وجبال بني ماكر، تكثر النطافي والآبار التي توجد أحيانا جنبا الى جنب، وإن كانت الاولى أكثر انتشارا، وكانت ملكية خاصة بينما يغلب على الآبار طابع العمومية.

ولقد قدر البرتغالي المجهول عدد الآبار بحوالي أربعمائة، ووصفها بكونها عذبة وقليلة العمق(57) . وكان توزيعها غير منتظم . ففي سهل موكرس، حدد عددها في خمسين بئرا(58) وبأربعين بئرا ما بين آسفي ومراكش(59) . هذا زيادة على الآبار المتفرقة التي ذكرها أو التي سكت عنها كآبار المدينة الغربية، وتيط، وسرنو، وغيرهـا. . . وحدّت الصخور الجبسية من عددها بجنوب دكالة. (60)

وذكر البرتغالي المجهـول طريقتـين لاستخـراج المياه من الآبـار نسـتخلص من إحداهما مدى الركود التكنولوجي الذي عرفته المنطقة من ذلك العهد الى يومنا هذا. ونصبت بعض النواعير على الآبار. ولا ندري متى بدأ الاعتماد عليها في ولجة أزمور حيث أشارت الى وجودها هناك مصادر القرن السابع عشر البرتغالية(61) . ولا شك أنها تعود الى ما قبل الغزو البرتغالي الذي لم يعد يسمح بمثل تلك المنشآت.

والى جانب الآبار اعتمد الدكاليون كثيرا على النطـافي التـي عرّفهـا البرتغـالي المجهول مما يدل على أنه لم ير مثلها في مناطق أخرى: «. . . يقال إنه يوجد تحت الارض عدد من الحفر تسمى خزانات حيث يحتفـظ بمياه المطـر. . .» (62) وذكر ابـن الخطيب أن سكان بني ماكر لا يعولون في سقيهم الا عليها «. . . سقيه من نطاف عذبــة تختــزن بهـــا بركات الامطــار فيقــع بهـــا أمنهــم والاجتــزاء الى زمـــن المطر. . .» (63) وكانت مدينة كبيرة كآسفي لا تعتمد في شربها الا عليها. (64)

ولهذا يكتسي الجفاف بدكالة طابع الكارثة. فكلما نفدت المدخرات من مياه المطر وتأخر نزوله او انعدم الا واضطر السكان الى الرحيل نحو المناطق المتوفرة على الآبار والعيون. وفي التشوف صورة واضحة عن مأساة الدكاليين في تلك الحالة، تؤكد بشكل واضح مدى ارتباط نمط عيش السكان بكمية الماء المتوفرة لديهم. فالاستقرار رهين لا بالاوضاع السياسية وحدها، ولكن أيضا بما ينزل من أمطار: فلما لم ينزل المطر في أوانه، ونفد ماء النطافي، «. . . أمر أبو وكيل (أحد الاولياء الدكاليين) قومه بأن يسقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر، فقالت زوجته: ما هذا الذي تفعلـه، أتريد ان يتم الماء فنرحل كما رحل الناس، فاعترض عن قولها. فلما نفد ماؤه أتت

اليه وقالت له: انظر في الرحيل فقد نفد ماؤنا، فجاء الى خيمته لينفضها ويرحل. . . »(65)

وتؤكد المصادر البرتغالية (ق16) بدورها على خطورة مشكل الماء بدكالة وخصوصا خلال السنوات الجافة(66) .

اذن أهم طابع يميز دكالة هو قلة الماء وارتباط وفرة أو قلة هذه المادة بكمية الامطار. ولهذا نجد بدكالة كل الخصائص التي خص (بروديل) بها المناطق الفقيرة «. . . مناطق فقيرة بدون ماء، تنعدم بها العيون والانهار والاشجار. ويحمل غطاء نباتي هزيل اسم «مراعي» ويعتبر الخشب مادة نادرة جدا. . . »(67)

ونظرا لقلة الآبار وانعدام الانهار والعيون في المناطق الاكثر كثافة، يتحتم على السكان ضمان تموين دائم بالماء، وذلك بحفر الآبار أو النطافي الشخصية، ويقتضي هذا الاستقرار، والا أصبح ذلك أمرا مستحيلا ما دامت الدولة لا تتدخل في هذا الميدان. ومن هنا نفهم أن نمط الترحال كان أمرا غير مرغوب فيه من طرف القبائل، وعند ما كان يحدث كان يسبب لا محالة صدامات ما بين القبائل حول الماء. وبهذا تصبح الظروف بدكالة شبيهة بمنطقة صحراوية. فالقلاقل السياسية لا تعاكس الانتاج فحسب، بل تعرض المواشي واصحابها كذلك للموت كلما تأثرت الآبار والنطافي بهذه الاضطرابات.

ألا يمكن أن نتساءل على ضوء هذه الملاحظة عما إذا كان لمشكل الماء أثر على ما يجري بالمنطقة من أحداث سياسية. فمادامت القبائل مرتبطة بالمياه التي جمعتها، والتي تعول عليها إلى غاية نزول الأمطار التالية، فإنها ستسارع إلى الرضوخ لكل من يهدد بتحطيم أو إفساد هذه الآبار والنطافي، كما أن كل من يريد أن ينتقم من القبائل لموقف سياسي كان يسارع إلى نفس التهديد.

وتتجلى لنا أهمية الماء ودوره السياسي في هذا الحدث: فبعد دخول الناصر الوطاسي الى دكالة في ربيع 1514 لمعاقبة القبائل على ولائها للبرتغاليين، تنبه ابن المنطقة، يحيى أوتعفوفت، والواعي بنقط ضعفها، الى أن مقام الوطاسي سيكون قصيرا اذا ما «قطع» عليه الماء. ولهذا بادر الى إغلاق الآبار والنطافي وتسميمها. ويخبرنا

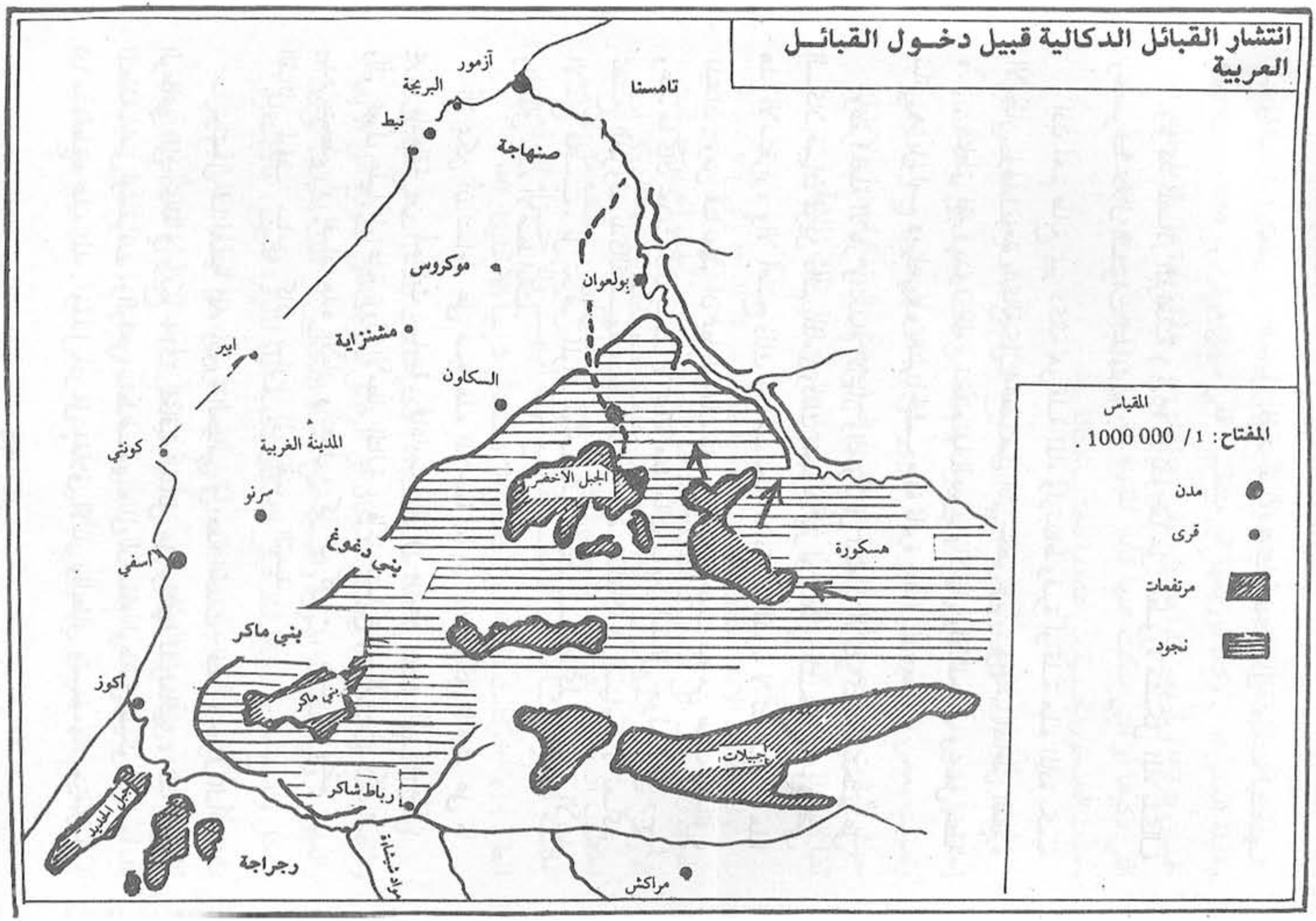
انتشار القبائل الدكالية قبيل دخول القبائل العربية
آزمور
البريجة
تيط
تامسنا
صنهاجة
موكروس
بولعوان
مشتنزاية
ايير
السكاون
كونتي
المدينة الغربية
مرنو
الجبل الأخضر
أسفي
بني دغوغ
هسكورة
بني ماكر
بني ماكر
أكوز
جبيلات
رباط شاكر
الجبل الحديد
وجراجة
مراكش
المقياس
المفتاح: 1 / 1000 000 .
مدن
قرى
مرتفعات
نجود

(كويش) بأن الناصر تضرر كثيرا من هذا العمل رغم حفره لآبار جديدة[68]، وطبعا ما كان يحيى ليقوم بهذا العمل في ناحية أخرى كالسايس أو الغرب أو الهبط. . . ولقد كان لهذا العمل: إغلاق وتسميم نقط الماء أثر كبير على السكان ومواشيهم. ففي رسالة للملك البرتغالي، كتب قبطان آسفي أن عبدة رفضت الرجوع الى اراضيها لقلة الماء بها[69]. ونتج عن جفاف سنة 1540 نقص خطير في الماء الصالح للشرب[70] بالمنطقة المحيطة بالمدينة الغربية. وهل هناك صورة توضح هذا النقص أكثر من الاشارة الى أن سفينة أتت من البرتغال محملة بالماء الصالح للشرب والموجه الى آسفي. وذكر الإخباري (لويش دوسوزا) أن ذلك أحدث فرحا كبيرا لدى الجالية البرتغالية وخصوصا لدى النبلاء: «. . . وسبب ذلك للكونت فييموزو de vimioso فرحا كبيرا الى حد أنه قال انه كاد أن يغرق نفسه في ذلك الماء لأننا اذا كنا هنا (البرتغال) لا نعير أي اهتمام لهذا، (الماء) فإنه كان بآسفي كثير الفائدة. . .»[71]، وذكر الفقيه الكانوني أن يعقوب المنصور الموحدي، وعيا منه بهذا النقص الخطير في الماء، أمر بشق قناة زودت سهل عبدة بالماء من الوادي الاخضر[72].

5 ـ الغطاء النباتي:

لاشك أن للغطاء النباتي علاقة بكمية المياه المتوفرة وبمدى استغلال المنطقة. ويستنتج من النصوص التي وصلتنا أن دكالة كانت الى حدود القرن 16 أوفر غطاء من الآن وان كانت مع ذلك قليلة الأشجار. فكيف ومتى تم هذا التراجع؟ وهل المسؤول هو تحول المناخ نحو الجفاف أم انتشار الزراعة، أم عوامل أخرى؟ قبل الجواب عن هذا السؤال نبدأ بوصف للوحدات الطبغرافية.

ففي السهل المنبسط تكاد تنعدم الاشجار. ولقد أجمعت كل النصوص على ذلك، «. . . دكالة سهل جميل شديد الانبساط بدون أشجار أو أدغال[73]. . .» فهذا القسم اذن، قسم الحشائش والاعشاب كما جاء عند ابن قنفد «. . . رأيتها أنبتت ثاني يوم المطر. . .»[74]. وتعود هذه الحالة الى قلة الماء مما يعطي منظرا طبيعيا

مفتوحا، تلعب فيه الحجارة دور السياج، مما أعطى مصطلحا محليا هو «الحائط»، أي المزرعة أو الحديقة التي تحيط بها الحجارة التي تم اقتلاعها قبل بداية الاستغلال. ويقل الخشب والحطب الى حد جعل السكان يلجأون الى أزبال البقر في الطبخ(75).

أما في «الساحل»، فالوضعية مخالفة. فلقد كانت منطقة ادغال وحشائش كبرى. في حين كانت المنطقة المحيطة بتيط وجنوب آسفي منطقة غابات. الا أن هذا القسم الاول من الغابة تراجع بعد استقرار الامغاريين بتيط وبالتالي بعد انتشار الدور والمزارع. ولقد أشار ابن عبد العظيم الأزموري عدة مرات الى وجود الغابة حول تيط «... وأتى (شيخ صنهاجة) فوجد الشيخ في غابة والسباع دائرة به تحرسه(76)...»

ويعطينا نفس المؤلف صورة عن عملية اقتلاع الغابة بعد استقرار أسرة الامغاريين: فلقد استقر أحد الامغاريين، وهو أبو يعقوب، قرب قبر أبيه «... وكان (المكان) ذا شعرة وسباع...» فشرع «... يقطع الشجرة حتى جعل طريقا الى البحر...»(77) وهناك إشارات اخرى الى هذه العملية.(78) وذكرت وثيقة برتغالية أن ضواحي تيط متوفرة على كثير من الاشجار(79) وبهذا يعود تراجع الغابة في هذا القسم من دكالة الى تدخل الانسان. فماذا حدث في المناطق الاخرى؟

بقيت الغابة مزدهرة جنوب آسفي، وكانت الاشجار تغطي جبل الحديد والتلال المحادية له، وتظهر بهذا القسم أول أشجار أرغان شمال التانسيفت. إلا أن هذه الغابة هزيلة، ذات اشجار متباعدة.

وتنتشر بهذا «الساحل» نفسه الحشائش الكبرى التي قد تكون شاهدا على تراجع الغابة بسبب الاستغلال. فلقد استطاعت بعض الشواهد مقاومة تدخل الانسان والظروف المناخية غير الملائمة (طول الفترة الجافة من السنة) لتبقى قائمة، ولكن في مظاهر متدهورة كما يتجلى ذلك في غابات الزيتون الغير المثمر والذي يطلق عليه «زبوجة» التي كانت في بعض الاماكن كثيفة. فحسب(لويش دو سوزا)لم يستطع

البرتغاليون الحصول الا على عدد قليل من الاسرى بعد غارة نظرا لالتجاء السكان الى أدغال كثيفة كانت قريبة منهم.(80)

وتسيطر بهذا القسم حشائش ذات علو لا بأس به تُعرف «بالرتم» تستعمل في الافران(81). وعلى كل حال، لا تخفى أهمية هذا القسم الاقتصادية لتوفره الدائم على مراعي كثيرة. ولقد سبق لنا أن أشرنا الى كيفية انتشار القبائل الدكالية والسبب في ذلك: البحث عن ضمان مراعي هذا «الساحل» الغير القابل للاستغلال الزراعي في جل أقسامه، والذي كان كبير الاهمية بالنسبة للقبائل. فبعد أن فرت قبائل عبدة من سلطة البرتغاليين في شتنبر سنة1518، بادرت دواويرها الى طلب العفو والاذن بالرجوع، وكان الدافع الى ذلك قلة المراعي في المكان الذي التجأت إليه، مما أدى الى ضياع عدد كبير من مواشيها. ولهذا فضلت ان تضحي بخمسة او ستة رهائن أعطتهم للناصر الوطاسي على أن تبقى في حالة عصيان معرضة20 000 شخص للموت(82).

وأكد القبطان الذي أخبر الملك البرتغالي بالحدث على أنها لن تستفيد من مراعيها الا بعد خضوعها(83). وبهذا يتدخل الماء والمراعي، زيادة على عوامل أخرى، لصالح الاستعمار البرتغالي، ليسهل مهمته.

وطبيعي أن يكون الغطاء وافرا «بالجبال» لعامل الارتفاع. ولكن يلاحظ خلاف بين هذه المرتفعات: ففي بني ماكر تسيطر الاشجار المثمرة ويغلب عليها الزيتون(84) ويعود ذلك الاستغلال الكثيف الى اهتمام السكان بالاقتصاد النقدي(85) وتسيطر الغابة بالجبل الأخضر حيث تتداخل أشجار الارز والعناب والصنوبر(86)... ونتج عن وجود الغابة:

أ ـ كثرة الوحوش والطيور، حتى أن مارمول ذكر في شأن الجبل الاخضر أنه لاتوجد منطقة أحسن منه للصيد بافريقيا.

ب ـ كثرة النساك والزهاد. وهذه ظاهرة توجد كذلك ببني ماكر وجبل الحديد(87).

ويجب أن لا يفهم من هذا أن الغطاء كان كثيفا ومهما يسمح باستغلال كبير. فلقد أكد تقرير أن الخشب والفحم المستوردين من البرتغال أرخص مما ينتج

بالمغرب[88] . وجلبت الى آسفي كميات مهمة من الالواح والركائز[89] . ولقد تراجعت اليوم هذه الغابات تراجعا كبيرا الى حد أن اسم الجبل الأخضر لم يعد يناسب مسماه. فمن المسؤول عن هذه الوضعية؟ هل هو تحول المناخ نحو الجفاف؟ .

لا نملك دلائل على ذلك وان كانت النظرية القائلة بتعاقب فترات الجفاف والرطوبة لم تفرض بعد نفسها،وما يزال معارضو نظرية تقلب المناخ كثيرين[90] .

وإذا أخذنا بهذه النظرية، نجد ما يساعد على الانتشار لا على التراجع ذلك أن القرن السابع عشر كان قرن تساقطات وفيضانات. . . الخ[91] لا شك أن السبب الرئيسي هو الانسان كما لاحظنا ذلك حول تيط. فتراجع الزراعة وانتشار تربية المواشي ونمط الترحال جعل المنطقة تحت رحمة المواشي،فاختفى بذلك التوازن الذي كان قائما بهذه المرتفعات ما بين الماء والنباتات والتربة. وهكذا أدى اختفاء الاشجار الى تزايد عامل التعرية وتزايد عامل الجفاف، وبالتالي الى اختفاء العيون والبحيرة التي كانت قرب الجبل الاخضر.

ولا تخبرنا النصوص بالفترة التي تم فيها هذا التراجع وان كان ذلك من بين نتائج الغزو البرتغالي بالمنطقة، الغزو الذي سبب سيطرة نمط الترحال.

وخلاصة القول، توفر دكالة امكانات كبرى: سهلا شاسعا من اكبر سهول المغرب، تربة غنية وتساقطات كافية في حالة توزيع منتظم، مراعي كثيرة، الشيء الذي يسمح باستغلال كثيف. فكيف كانت المعطيات الديموغرافية بمنطقتنا عند مطلع القرن السادس عشر؟ .

الهوامش والتعاليق

(1) يستثني ياقوت الحموي الذي جاء في المجلد الثالث من معجمه «... دكالة بفتح أوله وتشديد ثانيه». ج 2 ص 459 . ط. بيروت

(2) M. Bellaire: Les doukkala, in villes et tribus du Maroc vol X Paris 1932 P.34.

(3) ابن خلدون... العبر، ج 6 ص 426 بيروت.

(4) Encyclopédie de L'islam II p. 638 (nle édit)

M. Bellaire Les Doukkala... op. Cité p. 35

ابن خلدون... العبر... مصدر سابق. ج 6 ص 426 في الاستعمال الاول وصفحه 201 في الاستعمال الثاني.

(6) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 70.

(7) نفسه ص 71 وكذلك ص 97.

(8) ابن قنفد... أنس الفقير... مصدر سابق ص 63.

(9) نفسه ص 71.

(10) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص ص 164,162 وعن الاستعمال الآخر ص 109

(11) ابن خلدون... العبر... مصدر سابق ج 6 ص 556 مثلا.

(12) نفسه ج 6 ص 426.

(13) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق. ص ص 438,316 مثلا.

(14) S. I. H. M. Port I p 136 n.2.

(15) Ibid I p 186.

(16) Góis... Op. Cité p. 27

(17) Léon... Op. Cité I p117.

(18) Ibid I p 127.

(19) M,Bellaire... Les Doukkala... oop cité p 53.

(20) L.Chênier. Recherches historiques sur les Maures. Paris, 1788 T III pp. 11 – 12..

(21) M. Ferré – J. Ruhaid. Ressources en eau du Maroc. T. II. Plaines et Bassins du Maroc atlantique. Rabat 1975 p. 261.

(22) نعني بالمرحلة Lieue البرتغالية التي قدرها (دوكاستر) ب 5555 م.
راجع: L'Anonyme portugais... op. cité p. 9.

(23) DE Marmol... op. cité II p 77.

(24) Léon... op. cité I p. 117 وذكر ابن قنفد. . . انس الفقير. . . مصدر ص 71 «. . . طولها مسيرة اربعة ايام وكذلك عرضها. . .».

(25) ابن قنفد. انس الفقير. . . مصدر سابق ص 71

(26) L'anonyme portugais... op. cité. p. 89

(27) Ibid. p. 94.

(28) Ibid. p. 95.

(29) ابن عبد العظيم الازموري بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص ص 168, 167

(30) نفسه ص 182

(31) نفسه ص 212

(32) نفسه ص 222

(33) احمد بن ابراهيم. . . الماكري المنهاج الواضح في تحقيق كرامات ابي محمد صالح، القاهرة 1933 ص.295

(34) S. I. H. M. Port. I. pp. 183 - 184, II. p. 10

(35) ابن عبد العظيم الازموري. . . بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص 219

(36) R. Ricard. Un document portugais sur la place de Mazagan au début du XVII siècle. Paris. 1932 p. 10.

(37) L'anonyme portugais... op. cité p. 90

(38) Ibid. p. 89

(39) Léon... op. cité I. p. 127 De Marmol... op. cité. II. p. 115.

(40) De Marmol... op. cité. II p. 116 S. I. H. M. Port. III. p. 98 n. 3 L. De sousa... op. cité pp. 143 - 144.

(41) S. I. H. M. France Ière Série I. p. 128 S. I. H. M. Portugal III, pp. 454 - et sq.

(42) L'Anonyme portugais... op. cité p. 89.

(43) B. Rosenberger - H. Triki, Famines et épidemies au Maroc Hesp - Tam. XIV 1973 pp. 119 - 120.

(44) S. I. H. M. Port III p. 295, 313.

(45) Ibid. I. pp. 336 II p. 47, 270 etc

(46) Ibid II. p. 59 et I. 670 وكانت الاضطرابات السياسية هي المسؤولة.

(47) بالاضافة الى سنتي 1540, 1519 انظر التشوف ص .104

(48) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق. ص ص 277, 252, 218, 120

(49) B. Rosenberger. H, Triki: Famines et épidénies au Maroc. Hesp. T au. XIV 1973. p. 116 - 120 S. I. H. M. Port I. p. 297; II pp. 147; 171.

(50) Ibid. III. p. 315

(5) ابن قنفد. . . انس الفقير. . . مصدر سابق ص 71

(52) Mazagan et le Maroc sous le régne de My. Zidane. Trad. R. Ricard Paris. 1956 p. 73.

(53) F. Braudel: La Mediterranée et le monde mediterranéen à L'époque de philippe II. Paris. 1966 I. p. 57.

(54) E. Doutté Marrakech... Paris 1905 p. 230.

(55) De Marmol... op. cité II. 116 Léon... op. cité I. p. 128.

(56) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق ص 166

(57) L'anonyme portugais... op. cité. p. 90

(58) Ibid. p. 96 وكان زيدان يخيم حول هذه الآبار كلما تحرك نحو دكالة، وكان يغادرها وهو جاقة: R. Ricard: Mazagan et le Maroc... op. cité p. 76

(59) Ibid. p. 96

(60) M. Ferré... op. cité p. 284

(60م) Mazagan... op. cité p. 89

(61) R. Ricard: Mazagan et le Maroc... op. cité. p. 130

(62) L'anonyme portugais... op. cité. p. 89

(63) ابن الخطيب. . . نفاضة الجراب. . . مصدر سابق ص 69

(64) S. I. H. M. Port. I. p. 139 ابن الخطيب. . . معيار الاختيار. . . مصدر سابق ص 76.

(65) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر ص 218

(66) R. Ricard: Mazagan... op. cité. p. 76 S. I. H. M. Port. III p. 441, 450 De Sousa... op. cité. p. 172

(67) Braudel: La Mediterranée... op. cité. I. p. 158

(68) S. I. H. M. Port. I. p. 552 Gois... op. cité. p. 123 – 124

(69) S. I. H. M. Port. I. p. 754

(70) Ibid. III. pp. 441, 450

(71) كان ذلك سنة 1534 : L. De Sousa... op. cité p. 172

(72) الكانوني. . . العبدي. . . آسفي وما إليه قديما وحديثا، القاهرة 1353 هـ ص 167

(73) L'anonyme portugais... op. cité p. 89

(74) ابن قنفد. . . انس الفقير. . . مصدر سابق ص 71

(75) L'anonyme portugais... op. cité p. 89

(76) ابن عبد العظيم الازموري. . . بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص 65

(77) ابن عبد العظيم الازموري. . . بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص 70

(78) نفسه ص 77.

(79) S. I. H. M. Port. I. p. 553

(80) L. De Sousa... op. cité. p. 151

(81) L'anonyme portugais... op. cité p. 96

(82) S. I. H. M. portugal T II p. 214

(83) Ibid. Ibidem

(84) Léon... op. cité. I. p. 127 De Marmol... op. cité. II. p. 115

(85) Léon... op. cité. I. p. 127

(86) Ibid. I. p. 128 Ibid. II. 116

ويدل هذا التداخل على بقاء انواع كانت وليدة مناخ اكثر برودة ورطوبة (الارز، الصنوبر) وظهور انواع تتلاءم والمناخ الجاف (العناب).

Léon... op. cité. I. p. 127 – De Marmol op. cité. II. p. 116

ابن الخطيب. . . نفاضة الجراب. . . مصدر سابق ص 69

(88) S. I. H. M. Portugal II. p. 443

(89) انظر الايصالات 9,8 . . . الخ. المتعلقة بآسفي.

(90) F. Braudel. La mediterranée... op. cité. I. p. 246

(91) توجد عدة اشارات متعلقة بالفيضانات وبغزارة الامطار بالمصادر المغربية المعاصرة منها التقاط الدرر للقادري. ففي النسخة التي حققها الاستاذ مولاى هاشم العلوي (خزانة كليتي الآداب بالرباط وفاس) نذكر على سبيل المثال: ص 59 (1025 هـ) ص 103 (1051 هـ) ص 108 (1052 هـ) ص 130 (1068 هـ) ص 156 (1075 هـ) ص 207 «. . . وتوالى المطر حتى تهدمت الديار (1090 هـ) «ص 215 «وكان في هذا العام (1092) مطر غزير. . .» ص 220 «ونزل مطر كثير ما بين ذي الحجة ومحرم (1094) ومات خلق كثير بوادي ورغة (الذي) قتل نحو 6000 من البادية. . .» وينطبق نفس الشيء على اوربا.

الفصل الثاني

تعمير دكالة وتطورها الديموغرافي إلى بداية القرن السادس عشر

المقدمة:

عرفت دكالة عند بداية الدولة الموحدية تطورات أدت إلى تغيير تركيبها السكاني، وكان السبب في ذلك دخول القبائل العربية اليها. ولقد سهلت الدولة الموحدية إستقرار العناصر العربية بدكالة لوقوفها إزاء هذه المنطقة موقفين مختلفين:

1 ـ موقف صارم سببه عداء برابرة دكالة للدولة الموحدية الناشئة. ومعلوم أن الدكاليين، وبخلاف باقي المصامدة، واجهوا الموحدين بمقاومة عنيدة، وساندوا بحماس الثائرين عليهم. وكان رد فعل الموحدين وحشيا أحدث فراغاً بشرياً كبيراً بالمنطقة.

2 ـموقف فيه اهتمام كبير بالمنطقة ناتج عن هدفين كانت الدولة تسعى إلى تحقيقهما بدكالة.

ـ(أ) الحفاظ على الطاقة الإنتاجية للمنطقة، والعمل على الرفع منها كما يتجلى ذلك في محاولة الدولة التخفيف من مشكل الماء بالمنطقة. وبما أن هذه الغاية لا تتحقق إلا بوجود طاقة بشرية مهمة، فإن السلاطين الموحدين سهلوا إستقرار العناصر العربية بالمنطقة لملء الفراغ الذي أشرنا اليه.

(ب) كما كانت الدولة تهدف من ورائه إلى تكوين حزام وقائي حول العاصمة

يتكون من عناصر أجنبية كان ينتظر منها الولاء، فضلا عن تكوين خزان بشري هائل - إذا أضيف اليه أعراب التادلة وتامسنا - لاستغلاله إذا اقتضى الحال ضد المصموديين المبعدين عن السلطه.

* * * * * *

ونتجت عن استقرار العرب بدكالة تحولات شملت الجوانب البشرية والإقتصادية والإجتماعية. فما هو أثر هذا الدخول والاستقرار على العناصر المحلية؟ وما هو المصير الذي آلت اليه، وما هي نتائجه الديموغرافية؟

إن أول ما تجب الاشارة اليه هو انعدام دراسة شاملة تتعلق بقبائل دكالة، أصلها وفروعها وتطور أعدادها ونمط عيشها... لقد كان من المتوقع أن تفيدنا مخطوطة إبن ابراهيم المشنزائي (1) الى حد كبير لانه كلف نفسهُ بمهمة الكلام عن أجداده الدكاليين. ولكنه لم يستطع التحكم في قلمه، وارتكب أخطاء وتناقضات كثيرة (مِشَنْزَايَة عربية في رأيه رغم أنه عدها كذلك ضمن القبائل المصمودية... الخ) وحاول اخفاء النقص في معلوماته بالاطناب المفرط، بحيث أخذ منه تبرير عمله واظهار مشروعيته والكلام عن هجرة رجال رجراجة الى النبي والتعليق عليه؛ الحيّز الاكبر من مؤلفه. وبهذا كانت استفادتنا من عمله قليلة جدا.

وخص (ميشوبلير M. Bellaire) من جهته دكالة بدراسة شاملة(2) اهتم فيها بالجانب الديمغرافي. ولعل أكبر ثغرة في عمل «بلير» هذا، هو جهله للمصادر العربية وعدم اطلاعه على الوثائق البرتغالية. وحتم علينا هذا النقص في المعلومات الرجوع إلى كل مؤلف يشير إلى منطقتنا والعمل على جمع كل إشارة مهما كانت عابرة.

وبفضل اشارات وردت في كل من «التشوف» و «بهجة الناظرين» و «وانس الفقير» و «العبر» و نفاضة الجراب» سهل علينا تحديد مناطق انتشار القبائل البربرية والعربية، وخرجنا بفكرة عن أعدادها ونمط عيشها... غير أن استفادتنا من المصادر الغربية، كانت أكبر بكثير لأن جلها ألف في الوصف.

ـ عناصر السكان:

تكون دكالة اليوم منطقة تستعمل اللغة العربية وحدها. ولقد كان أصل الدكاليين موضع تساؤ ل من طرف المهتمين بالأنساب إلى يومنا هذا. ومعلوم أن البحث عن الأصل العربي أو البربري في سهل منبسط كدكالة، أمر شديد الصعوبة. فلقد أجمعت النصوص على تداخل العناصر البربرية والعربية منذ بداية القرن 13، الشيء الذي يتجلى في ملامح السكان(3) مما يحتم علينا تتبع مراحل تعمير دكالة.

أ ـ الفترة البربرية:

لا ندري شيئا عن القبائل التي استقرت بالمنطقة قبل أن تهتم النصوص العربية بها. ولا تفيد إشارات المؤ لفات الاغريقية والرومانية في شيء، إذ تكتفي بالإشارة إلى وجود عناصر متفرعة عن «الأُطْلُولْ» تعيش ما بين أم الربيع والتانسيفت(4). ورغم أن النصوص العربية أفادتنا كثيرا، فإنها طرحت مع ذلك مجموعة من المشاكل. فلقد سبق لنا أن أشرنا إلى تناقضات ابن خلدون وغيره فيما يخص قبائل دكالة، وبينا أن البعض يدخل صنهاجة آزمور ضمنها والبعض الآخر يستثنيها.

ويزداد الضباب كثافة حينما نجد ابن خلدون مثلا، يذكر دكالة ضمن قبائل مصمودة السهل ويذكر معها كقبيلتين مستقلتين ركراكة وبني ماكر. ومما يجعل تتبع العناصر البربرية أمرا عسيرا، تناقضات بعض من تكلموا عن قبائلهم وحاولوا التنكر لاصلها البربري واعطاءها أصلا عربياً أو شريفاً. وهكذا رد «مثقفو» بني ماكر نسبهم الى قريش «. . . فشيخنا ـ أبو محمد صالح ـ . . . قرشي على كل وجه وعلى كل تقدير(5) . . .»، وعمل الركراكيون كذلك على محو هذه «الوصمة» بعمليتين، أولاهما أنهم جعلوا أنفسهم نازحين الى المغرب من الاندلس لا متفرعين عن برابرته. «. . . إن ساداتنا رجراجة انتقلوا من بلاد الاندلس، راكبين على سفينتهم في البحر بأربعة رجال، وخرجوا باقليم حاحا، قبل الاسلام، في الجاهلية، ونزلوا بأكوز. . . ومن هنا تفرقوا بذلك الاقليم(6) »وثانيهما أنهم نصبوا أنفسهم دعاة للاسلام قبل دخول الفاتحين، وجعلوا ذلك بتفويض نبوي بعد زيارة «سبعة رجال» له، في بداية دعوته، فكانوا بذلك أول «من أدخل المصامدة في الاسلام وعلمهم علوم الدين

وعلوم الشريعة. . . » وجاهدوا كفار برغواطة في اطار التبشير على وادي التانسيفت. وزادوا على ذلك، ففضلوا أنفسهم على باقي القبائل لكونهم حواريين لم يعرفوا الكفر «. . . وأي شأن أرفع من شأنهم على سواهم من المؤمنين لأنهم لم يدنسوا ايمانهم واسلامهم بكفر من يوم رفع عيسى عليه السلام، لكونهم آمنوا بعيسى عليه السلام وآمنوا بمحمد (ص) قبل بعثه. . . وأنهم ليسوا مثل بني اسرائيل . . . »(7) واضح أنها روايات ملفقة، بها أخطاء تاريخية فادحة: «كفر» برغواطة المبكر، وجعل واسمين الركراكي معاصرا «لملك فاس»(8) الخ. . . ولعل هذه الروايات نسجت بعد دخول القبائل العربية لدكالة لمواجهة افتخارها بأنسابها، أو بعد اندحار البرتغاليين الذي أرجع الفضل فيه إلى رجراجة كما سنرى.

وفي هذا الاطار عرب إسم مشنزاية ولم يرد في المصادر العربية الا تحت اسم مُشْتراية (9) ولقد سبقت الإشارة إلى أن ابن ابراهيم أكد كونهم عرب (10) . ومن منّا سمع يوما أن بني دغوغ برابرة؟ وإذا كان الأمغاريون قد أعطوا لنفسهم نسبا عربياً شريفاً،فاننا لم نطلع على أية محاولة من طرف صنهاجة أزمور في هذا الصدد.

ومهما كان أمر هذه التناقضات المشار اليها أعلاه، وهذه الروايات، ومحاولات ارجاع النسب الى غير البربر، فان النصوص تجمع مع ذلك على أن قبائل دكالة كانت تتكون من ستة عناصر، واحد صنهاجي، يوجد حول أزمور، والباقي مصمودي مكون من: مشنزاية، بني دغوغ، ركراكة، بني ماكر وهزميرة.
ولكن كيف كانت تقتسم هذه القبائل المنطقة؟

كانت صنهاجة «تَسْغِيرْتْ» تنتشر على الضفة الجنوبية لأم الربيع وحول أزمور.

ولقد سبق لنا أن بينا كيف أن دكالة تنقسم إلى وحدات طبغرافية ذات معطيات مختلفة ومتكاملة في نفس الوقت مما حتم امتداداً من الشرق إلى الغرب، أي من المرتفعات الشرقية إلى «الساحل».

وهكذا كانت هذه القبيلة تنتشر جنوبا الى ما بعد قرية تيط وربما الى قرية (أيير) التي كانت بكل تأكيد مصمودية(11) . أما نحو الشرق، فكان الامتداد على طول أم

الربيع حيث بقيت منها مجموعات صغيرة في قرى الى حدود ق 16 [12]. واعتمادا على ابن الزيات نلاحظ أن جل مشنزاية كان حول قرية إلِسْكَاوَن والجبل الاخضر بسهل سيدي بنور[13] . ولا يستبعد أن يكون الامتداد قد وصل الى البحر بدليل أن كل القبائل كانت خاضعة لنفس التوزيع، وأن الزياني نسب المدينة الغربية خطأ الى صنهاجة، في حين أن المصادر البرتغالية أكدت أنها مشنزائية[14] . وعلى كل لجأت بعد دخول القبائل العربية الى هذا الساحل وأصبحت المدينة الغربية حاضرتها به.

ومن حسن الحظ أن النصوص لم تنس أي شيء فيما يتعلق بانتشار قبيلتي بني ماكر وركراكة. ففيما يخص الأولى، نجد أن امتدادها نحو الشرق يصل مرتفعات المويسات التي ستعرف بعد ذلك بجبال بني ماكر، في حين كانت تصل الى البحر غربا بدليل أن ابن خلدون نسب اليها آسفي[15] . وكان امتداد رجراجة شبيهها، فكانت تمتد من وادي شيشاوة شرقا الى قرية اكوز غربا[16] .

ويطرح موقع قبيلة بني دغوغ مشكلا كبيرا. فاذا كان ابن الزيات قد ذكر هذه القبيلة عدة مرات، وأشار الى أعلامها وبعض قراها، فإن هذه الاشارات لا تسمح مع الأسف بتحديد مواقعها. الا أن انتشارها لا يمكن أن يكون الا في الفراغ الذي بقي ما بين بني ماكر ومشنزاية شمال شرق سهل سحيم، أي بالموقع الذي بقيت به الى يومنا هذا ـ مع تقلص كبير ـ بعد اندماجها داخل قبيلة أولاد عمران العربية[17] (انظر الخريطة ص 60) .

ولم نعثر على أية اشارة تثبت وجود هزميرة داخل حدود دكالة في هذه الفترة.

وكانت دكالة في هذه الفترة (قبل 1200) تابعة لمراكش، يشرف عليها عامل، وكانت لركراكة ادارة خاصة، وكانت عاصمتها السياسية هي قرية «اكوز» [18] . وفي عهد المرابطين تقلص نفوذ البرغواطيين، وانتزعت دكالة من ايديهم. واذا خضعت دكالة للمرابطين فإنها، بخلاف باقي المصامدة، واجهت ظهور الموحدين بمعارضة عنيفة، معززة في ذلك بجارتيها حاحة وركراكة، ومحتمية أيضا بكثرة مواردها ووفرة سكانها. وكان رد فعل الموحدين عنيفا[19]، الى حد ان المنطقة فقدت عددا كبيرا من سكانها، ونتج عن ذلك فراغ بشري خطير بالمنطقة دعيت القبائل العربية لملئه.

(ب) دخول القبائل العربية:

لا ندري بالضبط متى تم دخول القبائل العربية لدكالة، وإن كان من المؤكد أن هذا الدخول عرف مرحلتين: فلقد كان الدخول في البداية عبارة عن تسرب أفراد وجماعات صغيرة نحو القسم الشمالي من المنطقة بنية النهب والسرقة[20] . وعرفت المرحلة الثانية التي تمت عند مطلع القرن الثالث عشر زحفا جماعيا بنية الاستيطان والاستقرار، وضم عدة قبائل. وكان الانطلاق من تامسنا. ولكن هذا لا يمنع ان تكون عناصر قد تسربت من مناطق اخرى[21] . وبهذا تكون اغلبية النازحين هلالية، وتنقسم الى قسمين: قسم سفياني، وآخر خلطي. واذا كان لقبائل سفيان السبق في الدخول، فانها اضطرت اثر حروب كثيرة مع الخلط الى هجرة المنطقة بعد ان لم ينفعها تراجعها امام الخلط نحو الجنوب، ولم يبق منها الا قسم احتمى بنهر التانسيفت، مكون من قبيلة الحرث او الحارث التي تتفرع عنها قبيلة أولاد مطاع[22] .

ولقد أثر دخول القبائل العربية على وزن المنطقة السياسي وعلى أعدادها والتوزيع بها وأنماط عيش سكانها... الخ. ونترك مؤقتا باقي الجوانب لنهتم بالجانب السياسي وتوزيع العناصر.

فمن الناحية السياسية، نلاحظ تزايد الاضطرابات داخل دكالة اثر هذا الدخول، وذلك للعداء بين سفيان والخلط من جهة، وموقف كل طرف منهما من الدولة الموحدية المنهارة من جهة ثانية. لقد احتدم الصراع بين سفيان والخلط ولا ندري موقف العناصر الاصلية من هذا الصراع، وان كان صاحب التشوف قد أشار الى أنهم وقفوا يتفرجون على العرب «... وهم يعيثون في الناس يمينا وشمالا...»[23] ، ذلك الصراع الذي لا شك في أنها تضررت منه على كل حال.

وازداد التناحر باستغلاله من طرف الدولة الموحدية، اذ كلما ثار عليها أحد الفريقين أو حلفاؤه الا وضربته بالفريق الآخر.

فاذا ساند الخلط أميرا مطالبا بالعرش، ساند سفيان منافسه، كما حدث حين

تنافس يحيي بن الناصر (المساند من طرف سفيان) والرشيد (المعزز من طرف الخلط). ونتج عن فوز الثاني تطاول أيدي الخلط الى أموال ومواشي سفيان(24).

ودارت الدائرة بعد ذلك على الخلط. ولقد اصبح للقبائل العربية وزن سياسي كبير، الى حد أن عرش السلاطين أصبح تحت رحمة شيوخها الذين أصبح ترفعهم على الخلفاء الموحدين، وتطاولهم أمرا معتادا(25). ومع ذلك، فلقد نتج عن هذه الحروب المستمرة، وانتقام الملوك من القبيلتين بالتـالي، اضعـاف الطرفـين، اذ سرعـان ما سينتقل القسم الاكبر من سفيان الى شمال أم الربيع كمرحلة نحو الشمال. وسيقتفي الخلط أثرهم.

والسؤ ال الذي يفرض نفسه هو التالي: ما هو مدى اهمية هذه الهجـرات وأثـرها على الأعداد والتوزيع؟ ثم ما هي العناصر التي بقيت بالمنطقة؟ فاذا لم تشمل هذه الهجرة كل العرب، واذا بقي قسم مهم جدا بدكالة مع السكان البرابرة الاصليين، فكيف اقتسم العنصران المنطقة؟ وما هو مدى اندماجهما؟.

ان أول ملاحظة تتعلق بهذا التـوزيع داخـل دكالـة هو أن كل عنصر احتفـظ بشخصيته وذلك الى حدود القرن 16، لأن كتب الرحلات والوثائق البرتغالية تشير الى تداخل هذين العنصرين بالمنطقة.

ويلاحظ تراجع أعداد البرابرة نتيجة الاندماج الذي اختلفـت سرعتـه حسـب القبائل؛ فكان سريعا بالنسبة لبني دغـوغ مثـلا، وأكثـر بطئـا بالنسبـة لصنهاجـة أزمور(م25) في حـين احتفظـت قبائـل بنـي ماكر ورجراجة، وخصوصـا مشنزاية، بشخصيتها رغم فقدان أعداد كبيرة منها. وهكذا يلاحظ تعايش العرب والبربر حين وصول البرتغاليين. ونحن حين نقول العنصر العربي أو البربري، فذلك للتوضيح فقط، وذلك اعتمادا على مقياس لغوي، لا عرقي، لان اختلاط العنصرين أدى الى تداخلهما.

2 – توزيع العناصر السكانية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر:

(أ) العنصر العربي:

نبدأ به لأنه أصبح يكون غالبية السكان: لقد سبقت الاشارة الى أن العرب كانوا قسمين: سفياني وخلطي. فاذا كان ابن خلدون قد أشار الى أن القسم الأول كان جنوب المنطقة، حول آسفي، وأنه لم يغادر دكالة بأجمعه، بل بقي منه الحرث وأولاد مطاع جنوب التانسيفت، ما بين هذا النهر والاطلس[26] والحوز، فانه لم يشر الى مواطن استقرار الخلط. ولكن يفهم من كلامه أنهم استحوذوا على كل المنطقة بعد هجرة سفيان. وسرعان ما اضطروا بدورهم الى الهجرة شمال أم الربيع، اذ أثبتت النصوص وجود الفريقين هناك حين دخول الرشيد مراكش[27]. وفي بداية الدولة المرينية كانت جل العناصر الخلطية والسفيانية قد عبرت أم الربيع واستقرت بتامسنا[28].

اذن ما هي العناصر التي بقيت بدكالة والتي أكد ابن الخطيب وبعده الوزان على كثرتها؟ لقد ذكر هذا الاخير أن جل هذه العناصر من الاثبج. وهذا يعني أن الهجرة لم تشمل كل السفيانيين وكل الخلط. فهل شملت فقط العناصر المسلحة التي احترفت الفتن وجندت نفسها باستمرار وراء شيوخها وأمرائها؟. لا شك في أن هذا هو ما حدث. وتسلط اشارة لمارمول أضواء أخرى على هذا المشكل. فهو يرجع اسم «الشرقية» الذي أعطي لمجموعة من القبائل العربية الدكالية الى كون عناصرها «... نزحوا من الشرق الى هذه المنطقة حيث كان هناك أعراب آخرون...» ولعل لبعض هذه العناصر صلة بعناصر اخرى استقرت بشمال المغرب كأولاد عمران، المنتمين اليوم الى الحياينة. وبهذا نفهم وجود قسم صغير من قبيلة بقيت بالنجود العليا الممتدة ما بين المغرب والجزائر، (شجعة)، التي كانت تحت حماية قبيلة الغربية، وهذا ما حتم ظهور أسماء جديدة: الشرقية، الغربية، عبدة، مما يفند رأيا يقول بأن البرتغاليين اخترعوا تلك الأسماء ليميزوا بها القبائل.

واستعمال هذه الاسماء: (غربية، شرقية، عبدة) له دلالته، فهو دليل قاطع على تفكك عصبيات قديمة وظهور أخرى محلها مكونة - وان جمعها نفس الاسم - من قبائل تضم عناصر مختلفة جدا.

ولقد اعتمدنا في تحديد مواطن هذه القبائل العربية المتفرعة عن ثلاث مجموعات كبرى، على عدة اشارات: الصراعات ما بين القبائل، مما يؤكد الجوار؛ والتقارير التي كان المسؤولون البرتغاليون وعملاؤهم يرسلونها باستمرار الى البرتغال، والتي كانت تهتم أساسا بمواقع القبائل التي تثبت مدى عصيانها أو ولائها، بالاضافة الى المؤلفات التي تعرضت للغارات، وكذا كتب الرحلات وسجلات الضرائب.

قبائل الشرقية:

كانت تتفرع عنها حسب (كويش) ست قبائل نعرض لها حسب الموقع لا الأهمية:

1 - **أولاد فرج**: كانت شرق أزمور وجنوب أم الربيع، ووصل امتدادها شرقا الى قرية (بنكيز) و(تافوف) الواقعتين على مشارف هسكورة السهل(29). وكانت تمتد غربا الى ست مراحل شرق قرية(موكرس)(30). وجاء عند (كويش) أنها تتصل بأولاد عمران (إلسْكَاوَن) من ناحية الغرب(31)، مما يفهم منه أنها لم تكن متصلة بأولاد بو عزيز كما هي عليه اليوم. وهكذا بقيت القبيلة محافظة على موقعها من القرن 16 الى القرن 20 .

وكان من فروعها أولاد زيد (32) .

2 - **أولاد عمـــران إلسْكَاوَنْ** : كان مركز انتشارهـــا يتمحـــور حول قرية السكاون الشهيرة، بسهل سيدي بنور، وحول بحيرة ورّار (33) . وكان امتدادها يصل في اتجاه الشرق الى الجبل الاخضر، وغربا الى «الساحل» لتفصل ما بين أولاد فرج وأولاد سبيطة.

3 - **أولاد سبيطة**: كانت تنتشر من أزمورو«سبَيْتْ شمالا الى ضواحي المدينة الغربية جنوبا، مع امتداد هناك نحو الشرق حتى بداية منطقة أولاد عمران الجنوبية، ويتضح ذلك من الاشارات التالية:

- اصطداماتها المتكررة مع قبيلة «الغربية» وأولاد عمران الجنوبية مما يدل على الجوار (34)

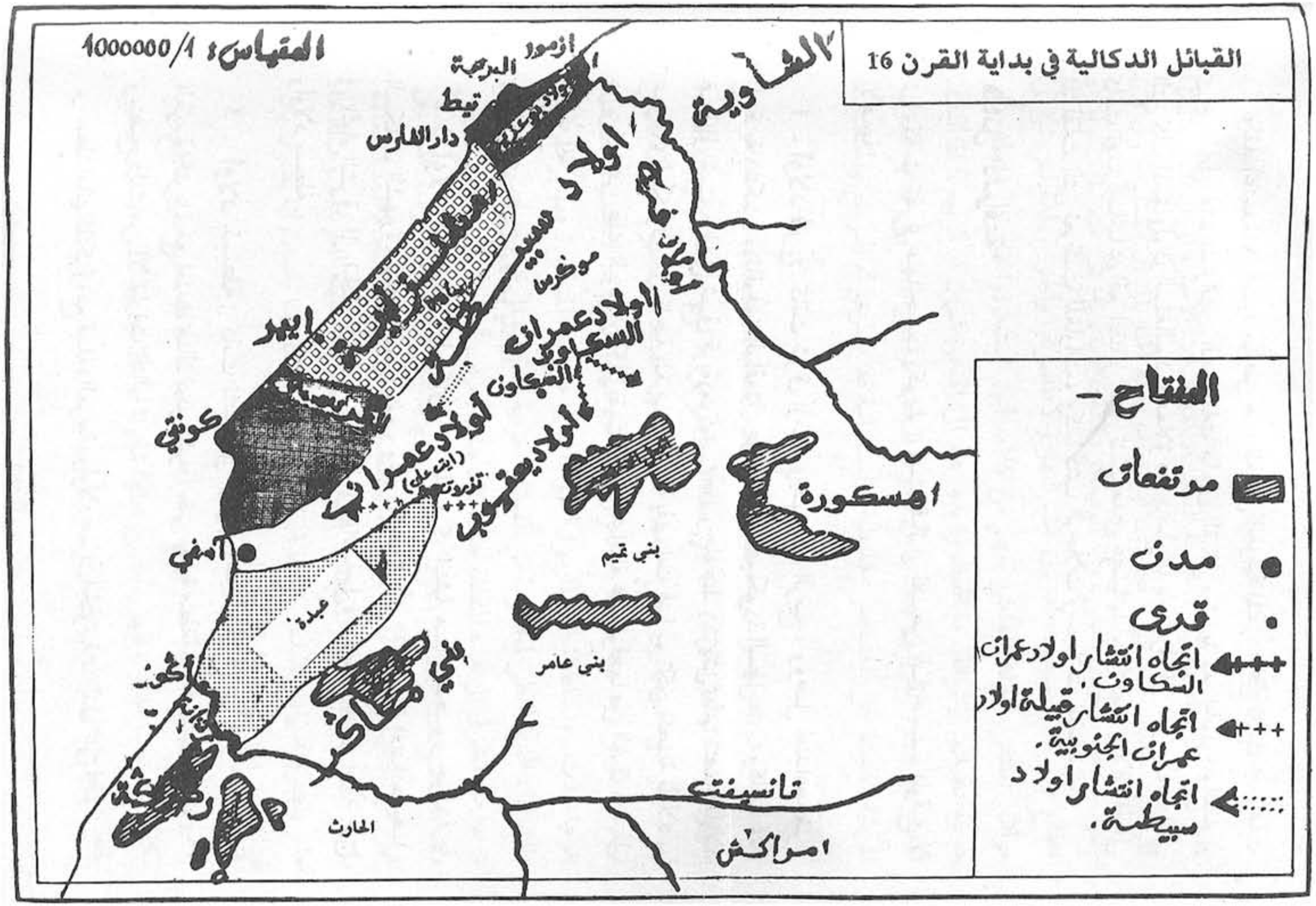
القبائل الدكالية في بداية القرن 16
المقياس: 1/1000000
المفتاح -
مرتفعات
مدن
قرى
اتجاه انتشار اولاد عمران السكاوت.
اتجاه انتشار قبيلة اولاد عمران الجنوبية.
اتجاه انتشار اولاد سبيطة.
الشاوية
أزمور
البرجة
تيط
دارالفارس
أولاد
ايير
موخرس
اولاد عمران
السكاوين
الشبعاون
كوئتي
(ايت علي)
تزروتت
اولاد بو عزيز
آسفي
أمسكورة
بني تميم
بني عامر
عبدة
الحارث
تانسيفت
امراكش

- أثبتت وثيقة وجودها صحبة أولاد عمران الجنوبية وأولاد يعقوب في مناطق القبائل التقليدية الممتدة ما بين المدينة الغربية وتازروت وتكرانت[35]. وبما أن وثيقة أخرى [36] أكدت أن مواقع أولاد سبيطة التقليدية توجد بجوار المدينة الغربية، فهي لذلك أقرب تلك القبائل من المدينة.

- من الأكيد كذلك أنها كانت بجوار أزمور سنة 1519 [37].

وذكر (مارمول) أنها أصبحت تنتقل قرب قرية (سبيت) بعد تخريبها[38] (أي بعد 1515 كما سنرى).

4 - **أولاد بوعزيز**: كانت آنذاك صغيرة العدد كما يدل على ذلك ضيق رقعتها ووزنها بالمنطقة إذ لم يكن لها وزن جاراتها. وكانت تنتشر جنوب أزمور على طول الساحل الى حدود الجرف الاصفر حيث تبدأ منطقة مشنزاية كما سنوضح ذلك.

وكان انتشارها نحو الداخل معاكسا من طرف أولاد سبيطة القوية. ولقد حلت قبيلة أولاد بوعزيز العربية محل صنهاجة التي لم يبق منها الا قسم صغير حول ازمور يعرف بالهنائيين «أو قبيلة بني هنا»[39].

وأصبحت النصوص البرتغالية تذكر قبيلة أولاد بوعزيز «بعرب أزمور». ومن فروعها «أولاد دويب»[40]، أولاد داود[41] وأولاد مسعود وأولاد عيسى [42].

5 - **قبيلة أولاد عمران آيت علي؟ (الجنوبية)**: لا ندري اسمها الكامل اذ ذكرته المصادر البرتغالية محرفا، بينما لم تذكره المصادر العربية رغم صمود هذه القبيلة في وجه الاستعمار البرتغالي [42]. ومن المرجح ان هذه القبيلة عاشت بجنوب دكالة، بسهل سحيم. وقد جعلها هذا الموقع كثيرة الاتصال بالحوز ومراكش، كما يدل على ذلك فرارها اليهما أثناء فترات الخطر.

ويساعد على تحديد مواقع تلك القبيلة عدد من الاشارات التي وردت في المصادر البرتغالية، اهمها:

ـ نفس الوثيقة البرتغالية التي ذكرت مواطن أولاد سبيطة وأولاد يعقوب، فضلا عن هذه القبيلة التي كانت أقربها من تازروت.

ـ اشارة (كويش) الى أن طلائع هذه القبيلة كانت على بعد «مرحلتين» من آسفي في عام (1511) [43].

ـ اصطدمت مع الغربية التي لم تكن بعيدة عن آسفي[44]، كما اصطدمت مع أولاد سبيطة[45].

وبذلك كانت هذه القبيلة منتشرة ما بين نجد الكنتور وضواحي آسفي.

6 ـ **أولاد يعقوب**: كانت من أكبر قبائل «الشرقية» وان كانت مساهمتها في الاحداث ثانوية، وذلك راجع على ما يبدو لموقعها الهامشي بالنسبة لدكالة. كما أن وجودها ما بين دكالة ونجد الكنتور مكنها من رقعة واسعة حالت دون اصطدامها مع جاراتها. وكانت من القبائل الشمالية، اذ كانت تابعة اداريا لأزمور، والتجأت الى الشاوية عدة مرات[46]، وورد اسمها مقرونا باسم أولاد عمران السكاون. ويمكن تحديد موقعها كالتالي:

ـ حول تكرانت حسب التقرير الذي أشرنا اليه مرتين، أي بنجد الكنتور[47]

ـ حين دخول الناصر الوطاسي بغتة الى دكالة من جهة الجبل الاخضر، كانت ممن تعرضوا للهجوم المفاجيء قبل أن يقوم أولاد عمران بهجوم مضاد[48] مما يدل على أنها كانت شرق هذه القبيلة.

وبذلك يحتمل كثيرا أن تكون مواقعها ما بين الكنتور والجبل الاخضر، بهوامش دكالة. ومن فروعها أولاد رحال[49].

قبيلة الغربية:

من السهل تحديد مناطق انتشار هذه القبيلة لوفرة الاشارات الصريحة عنها، ومع ذلك يجب التنبيه الى أن توظيف المعلومات التي زودنا بها (مارمول) يفرض نوعا من الحيطة والحذر.

جاء في تقرير: إن الغربية كانت حول (سرنو) منطقتها الاصلية[50]. وكان امتدادها نحو الشمال يصل الى ضواحي المدينة الغربية التي لم تكن تابعة لها[51]. وذكر (مارمول) أن القبيلة كانت منتشرة ما بين المحيط (قرب كونتي) غربا، ومائة بئر وبئر شرقا[52]، ولكن هذا التحديد الأخير خاطيء، وقد ينطبق على النصف الثاني من القرن، ولا يصلح الا اذا قبلنا ما ادعاه البعض من أن هذا الموقع الأخير هو قرية (سرنو) [53].

وهكذا كان امتداد القبيلة يشمل المنطقة الممتدة من المحيط الى شرق قرية (سرنو) حيث كانت قبيلة أولاد عمران الجنوبية ثم الى مشارف آسفي جنوبا والى المدينة الغربية شمالا، وهي لذلك جارة لكل من عبدة وأولاد عمران وأولاد سبيطة ومشنزاية، مما خلق لها عددا من الصدامات.

وكان الى جانب الغربية فرع من قبائل شجعة[54] لا ندري كيف انقطع عن أصله ومتى دخل المنطقة. وعلى كل، فلقد كان كثير الارتباط بالغربية، يذكر لذكرها.

قبيلة عبدة:

كانت بضواحي آسفي الشرقية والجنوبية، ولم تكن تتعداها نحو الشمال كما هي عليه اليوم، ولم يصل انتشارها إلى «سرنو» كما لاحظنا. وكانت تمتد جنوبا حتى الآبار القريبة من (اكوز)[55]. وجاء في أحد التقارير أنها تمتد ما بين جبال بني ماكر وتازروت، مكونة بذلك مثلثا ممتدا ما بين أكوز والتانسيفت وسفح مرتفعات بني ماكر وضواحي تازروت. وبهذا تكون الرقعة التابعة لها أضيق بكثير مما أصبحت عليه بعد الغزو البرتغالي، ومما لاحظه قنصل فرنسا في بداية القرن الثامن عشر[56].

(ب) القبائل البربرية:

بقيت بعض القبائل البربرية محتفظة بشخصيتها اللغوية بعد أن فضلت الانسحاب الى مناطق هامشية على الاندماج داخل القبائل العربية.

1 ـ **مشنزاية**: كانت في القرن السادس عشر أكبر قبيلة بربرية دكالية، وكانت

النصوص تنعتها بـ «. . . برابرة ما بين أزمور والمدينة الغربية. . .»[57] نظرا لوصولها آنذاك الى الجرف الاصفر، اذ كانت قرى (سايس) و (تارتير) و (دار الفارس) تابعات لها[58]. كما كانت المدينة الغربية أيضا تحت نفوذها، وكان جل سكانها مشنزائيين[59]. وبهذا يكون السهل والجبل الأخضر قد ضاعا منها.

2 ـ **بني ماكر**: لم يعد لها أي وجود «بالساحل» والسهل، واعتصمت بعد دخول القبائل العربية بمرتفعات «الميسات» شرق آسفي، التي أصبحت تعرف باسم هذه القبيلة. وكانت تنتشر بالمناطق التي تحيط بهذه المرتفعات ما بين بحيرة زيما والتانسيفت[60].

ولم يدم استقرار مشنزاية وبني ماكر بالمنطقة، ذلك أن الوطاسي أرغمهما على مصاحبته الى السايس سنة 1515 كما سنرى.

3 ـ **ركراكة**: قل ذكرها وطغى عليها اسم الشياظمة التي أصبحت تكون فرعها البربري. وأشار الوزان الى وجودها حول جبل الحديد ووصف سكانها «بالجبليين» مما يفهم منه أنها تخلت عن جميع الأراضي المنبسطة التي كانت تابعة لها. ومع ذلك، بقيت أعدادها مهمة كما يفهم من رواية الوزان[62]. ويؤكد هذا كون آسفي كانت تعتمد عليها في حماية نفسها[63].

واندثرت هذه القبيلة التي أصبحت اليوم جد صغيرة، تكاد تنحصر في أسرة دينية كبيرة.

وكانت تحيط بدكالة قبائل أثرت الى حد ما في الأحداث، لذا وجبت الاشارة اليها وتحديد مواقعها.

الحارث أو الحرث:

ما بقي من سفيان، وكانت ما بين جبل الحديد والحوز، والتانسيفت والاطلس[64]. وحلت محل بني ماكر بعد رحيلهم الى سايس سنة 1515[65]، وكان من فروعها قبيلة أولاد مطاع بالشرق، على مقربة من الحوز والاطلس، وكانت جد قوية الى حد أنها تبدو مستقلة عن الحارث. ومن فروع أولاد مطاع: أولاد بوسبع[66]

ولم يكن آنذاك أي وجود للقبيلتين الموجودتين اليوم شرق المنطقة، أي الرحامنة وأحمر. وكان في محل الاولى هسكورة السهل، وفي محل الثانية قبيلة تعرف ببني عامر[67]، واستوطنت قبيلة تميم نجد الكنتور[68].

3) تقدير عدد السكان

رغم أن القيام بعملية احصائية من هذا النوع لفترة تعود الى القرن السادس عشر، تعتبر مغامرة غير مأمونة، فمن حسن حظ الباحث في تاريخ دكالة أنه يتوفر على عدد من المعطيات تساعد على اعطاء تقدير عدد سكان المنطقة في ذلك القرن. فقد أورد الاخباري (كويش) عدد محاربي كل قبيلة، كما كان البرتغاليون يلزمون الأعيان بتقديم أسماء سكان دواويرهم وقراهم ليتمكنوا من تحديد كميات مقادير الضرائب التي ستفرض عليهم[69].

وعثرنا بالبرتغال على سجل سنعتمد عليه في فصل لا حق، أحصى الدور وأعطى أسماء سكانها.

وقبل الخوض في هذه الأرقام، نعود أولا الى الوراء لأخذ فكرة شاملة. يمكن الجزم أن دكالة كانت كثيرة السكان الى حين القمع الموحدي كما تدل على ذلك كثرة القرى ونوع الاستغلال الزراعي الذي مال نحو البحث عن المردود المرتفع: فزيادة على زراعة الحبوب، تعددت البساتين والجنات و «الحوائط» وأصبح الاعتماد على السقي كبيرا، وقلت الأراضي كما يتجلى ذلك في اقتلاع الحجارة وفي نظام الشركة وانتشار الملكية الفردية على حساب الملكية الجماعية، واحتراف التجارة في أوساط قروية[70]. كل هذه الاشارات تدل على حلول ناتجة عن ضغط ديموغرافي. وأجمعت كل الدراسات والنصوص على أن القمع الموحدي أثر كثيرا على المنطقة، مما أحدث فراغا ديموغرافيا خطيرا دعيت القبائل العربية الى ملئه. واذا كنا لا ندري شيئا عن اعداد هؤلاء النازحين، فيمكن على الأقل لمس كثرتهم من خلال الوزن السياسي الخطير الذي أصبح للمنطقة في أواخر الدولة الموحدية.

ومما لا شك فيه أن تلك الفتن والحروب، وهجرة قسم من سفيان والخلط نحو

الشمال أدت الى تراجع أعداد سكان دكالة. ومع ذلك، انتعشت المنطقة بسرعة لوصول أفواج أخرى. فلقد أثارت انتباه ابن الخطيب كثرة سكانها وأكد عليها مما يفهم منه أنه كان أمرا غريبا بالنسبة اليه. فلقد وصف منطقة بني ماكر بقوله: «. . . ومن الغد سلكنا وطن بني ماكر، وهو كثير العمران متعدد الديار والأشجار[71] . . .» ووصف عمران السهل الممتد ما بين آسفي أزمور بقوله: «. . . هذا الوطن المتكاثف العمارة، أجم الماشية، المنبث الحلل، الغاص على انفساح مداه بالراغية والثاغية[72] . . .» ولاحظ ابن قنفد نفس الشيء، وأكد بدوره على كثافة السكان[73].

وذكر الوزان، ولمرات، أن دكالة كانت كثيرة السكان. فلقد امتنع سكانها عن أداء الضرائب للوطاسيين «. . . محميين في ذلك باعدادهم الكبيرة»[74]، وأشار الى أن محاربيهم بلغوا حوالي مائة ألف، مع العلم أنه لم يذكر الا العناصر العربية. وبهذا تكون دكالة قد حافظت على كثافة مهمة في هذه الفترة المتميزة بفتنها وقلاقلها.

ولقد وافانا المؤرخ (كويش) باعداد محاربي كل قبيلة وباعداد دواويرها. وكان عددهم 100000 بالنسبة للشرقية و 44000 بالنسبة للغربية وعبدة، مما يعطي 144 ألف محارب عربي. وحسب الطريقة التي جربها (Carette) بالجزائر، والتي تقترح أن يكون «. . . عدد السكان القادرين على حمل السلاح، زائد ربعه (1/4) الذي يمثل العاجزين، مساويا لثلث مجموع السكان عند القبائل العربية بالجزائر...»[75] نصل إلى حوالي 540 ألف عربي دون القبائل البربرية التي لا نعلم عن أعدادها شيئا؛ ودون سكان المدن الثلاث. ويحتمل كثيرا أن تكون أعداد السكان في البوادي الدكالية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر حوالي 600 ألف. ولقد تقبل هذا العدد أكثر الدارسين تشككا فيما وصلنا من أرقام[76]. ونؤكد على هذا الرقم لأن لنا عودة إليه في نهاية بحثنا.

واختلف توزيع السكان حسب موارد أقسام المنطقة. فلقد كان السهل أكثر كثافة من الساحل الفقير، اذ نلاحظ ازدحاما بسهلي سيدي بنور وسحيم، حيث تعيش قبائل أولاد عمران بفرعيها وأولاد يعقوب وعبدة، في حين كانت المنطقة الرابطة ما بين السهل والساحل، والتي تعرف عند العامة «بالحصبة»، تحوي أولاد سبيطة، وقسما من الغربية (حول سرنو). وكان الساحل يحوي قبائل قليلة:

أولاد بو عزيز، مشتزاية، وقسما من الغربية. ومن ناحية أهمية القبائل نجد أن أكثرها سكانا كان بالسهل و«الحصبة».

ـ قبائل السهل و «الحصبة»:

ـ أولاد عمران الجنوبية 31.500 محارب 150 دواراً
ـ أولاد عمران السكاون 21.000 " 100 "
ـ أولاد يعقوب 15.800 " 80 "
ـ أولاد سبيطـة 10.600 " 60 "
ـ عبدة والغربية 44.000 " 200 "

ـ قبائل «الساحل»:

ـ أولاد بو عزيز: 15.700 محارب ـ 70 دواراً.
ـ أولاد فرج: 5.400 " ـ 30 دواراً(77).
ـ مشتزاية: ؟ ؟
ـ قسم من عبدة والغربية.

4 ـ **نمط عيش السكان:**

(أ) **الاستقرار والترحال:** اذا كانت اللغة تميز داخل دكالة ما بين عنصرين بشريين مختلفين، فان نمط العيش يسمح بنفس التقسيم، ذلك أن كل المصادر أجمعت على أن العرب أو من اعتبروا كذلك، كانوا يعيشون تحت الخيام، وكانوا كثيري الحركة في حين كان البرابرة يعيشون بالدور المجتمعة والمكونة لعدد من القرى التي كان بعضها مسورا(78). ولقد جعلت المصادر الاوربية الخيمة دليلا على العربي، والدار والقرية دليلا على وجودالبربري. ولا ندري هل استعملت الخيام بالمنطقة قبل دخول العرب اليها، ذلك أن صاحب التشوف لم يزودنا بتاريخ الرواية التي ورد فيها ذكر للخيمة. ومع ذلك فمن الأكيد أن السكان كانوا مستقرين، كما يتجلى ذلك من خلال عدد القرى الكبير الذي ذكره صاحب التشوف. ومال العرب أنفسهم نحو الاستقرار وتشييد الدور والحصون للاحتماء بها ضد أبناء عمومتهم الذين لم يتمكنوا بعد من الاستقرار، وخصوصا من بني الحارث.

وعاين ابن الخطيب ما بين آسفي وأزمور بروز حصن يسكنه العرب سماه (سور موسى) يعود بناؤه الى عهد أبي عنان المريني. ولاحظ أن البناء ساذج وبسيط وأن ما تم بناؤه «... غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المصحرة بالتحصين(79)...» ووصلتنا اشاراتان عن وجود «سور قديم» وآخر «جديد» (80) بضواحي المدينة الغربية نعتقد أنهما يعودان الى هذه الحقبة.

وبهذا يسقط ادعاء وحكم سريع ومسبق روجه بعض مؤرخي الاستعمار(81) مفادهما أن العرب ضد الاستقرار والبناء دون أن يربطوا بينه وبين عوامل خارجة عن ارادتهم. فكلما سمحت المعطيات الطبيعية والسياسية بذلك، الا وانكب هؤلاء على الحرث والزرع والبناء. ولكن القلاقل التي عرفها المغرب بعد اغتيال أبي عنان، والتي تصاعدت مع القرن15 ،حالت دون استمرار هذا التحول، فتراجع لذلك نمط الاستقرار وطغت الخيام على الدور؛ وشمل هذا التحول نحو الترحال قبائل بربرية، كما حدث لمشنزاية التي لم تعد تختلف في شيء عن جاراتها العربية، مما يؤكد أن الترحال لم يكن مقتصرا على عنصر دون آخر.

ورغم وجود الخيام وتحركها باستمرار، فلا يعقل أن نتكلم عن الترحال كما هو معروف بالمناطق الصحراوية والجبلية، اذ لا يعقل أن تسمح دكالة المكتظة بالسكان؛ المتعددة القبائل، والضيقة الرقعة نسبيا، أن تسمح بمثل هذا الترحال. كما أن قلة المياه الصالحة للشرب والطرق المتبعة لادخارها لا تسمح به من جهتها. ولقد غرت الخيام الاجانب فوصفوا مستعمليها بذلك(82) . ولكن الصواب أن نتحدث عن مربي مواشي ومزارعين في نفس الوقت أرغمتهم الظرفية السياسية المضطربة على التكيف، وذلك بالاعتماد على الخيام وعلى المواشي المتلائمة مع هذه القلاقل؛ والتي تسمح بالتحرك السريع كلما حلت بهم المخاطر. أما في الأوقات العادية فلم يكن الترحال موجودا باستثناء تحرك القبائل بعيدا شيئا ما عن المناطق المحروثة لكي لا تضربها المواشي. (82 م) وبهذا يكون نمط عيش الدكاليين أقرب الى الاستقرار منه الى الترحال وتكون الاضطرابات والقلاقل سبب توقف هذا التحول.

(ب) **نسبة التمدن بالمنطقة**: من الطبيعي أن تكون نسبة سكان الأرياف بدكالة عند مطلع القرن السادس عشر أعلى بكثير من سكان المدن. فمقابل ما يقرب من 600 ألف نسمة عاشت بالبوادي، لا تتوفر المدن الثلاث الا على حوالي 60 000 أو 70 ألف اذا أعطينا للمدينة الغربية نفس عدد سكان أزمور(83) . ولا يمكن ادماج سكان القرى التي وصلتنا أسماؤ ها ضمن سكان المدن لأن أنشطتها زراعية. وبهذا تكون نسبة السكان في المدن قرابة عشر سكان البوادي. وتجدر الاشارة الى الفرق الكبير في نسبة التمدن ما بين الفترة البربرية وما بعد دخول الهلاليين، كما يتجلى ذلك نسبيا من خلال «التشوف» الذي ذكر عرضا اثنين وعشرين قرية(84) ، اختفى ذكر جلها ولم يصلنا الا إسـمـا«سرنو» و «السكاون».

ولم يذكر الوزان من القرى الا ثمانية، منها اثنتين خارجة عن حدود دكالة: (مرامير) بالشياظمة، و (تمراكوشت) بالشاوية، ومنها ما هو مخرب (تيط)، أو صغير جدا (مائة بئر وبئر). ولا عبرة بما أورده الزياني نقلا عن ابن قنفد من أن دكالة كانت تتوفر على عشرة ألاف قرية، فهذا ما لم يرد في النص الأصلي المطبوع مؤخرا(86) . ويرتبط هذا التراجع بالقلاقل والحروب التي عرفتها المنطقة بعد دخول سفيان والخلط من جهة، ثم بعد اغتيال أبي عنان من جهة ثانية.

ولا تتجلى هذه الظاهرة المتعلقة بطابع المنطقة القروي في عدد المدن فقط، ولكن كذلك في أعداد سكانها. إنه من الغريب حقا أن تكون مدينة تجارية منفتحة على العالم الخارجي كآسفي، أقل سكانا أو في مستوى سكان بعض مدن السـوس أو هسكورة، ذلك أن العدد الذي أعطاها الوزان يجعلها في مرتبة (تدسي) بالسـوس وأقل من تكاوست الموجودة على مشارف الصحراء(86) ، ولا شك في أن ذلك راجع الى ركود المدينة الطويل، اذ يعود انتعاشها الى ما بعد القرن 14 كما سنرى.

وتوجد كل المدن على الساحل أو على مقربة منه، في حين لا يتوفر الداخل ولو على مدينة واحدة.

ولم تعرف دكالة إلا ثلاث مدن فقط:

أزمور : كانت أكبر الحواضر الدكالية وأكثرها نشاطا الى حدود القرن الخامس عشر. وقدر الوزان عدد سكانها بحوالي 5000 «كانون»(87) (25 ألف نسمة تقريبا. . .). وتوجد على مقربة من مصب نهر أم الربيع، على ضفته اليسرى.

وكان هذا النهر أكبر محرك لتجارتها، وبه ارتبط مصيرها. فزيادة على كونه كان يوفر خلال القرون الوسطى مرفأ للسفن التي كانت تتضرر من عنف الشاطىء الدكالي، فان أسماك الشابل الموجودة به بكثرة، ضمنت للمدينة ازدهارا كبيرا. وهكذا أصبح التجار يفدون عليها من اسبانيا والبرتغال لشرائه أو لصيده. وكانت الضريبة المؤداة عن الصيد تضمن للمدينة مداخيل مهمة. وكانت أزمور مرتبطة بظهير غني ينتج كثيرا من القمح والمواشي.

وكان القمح أحد الأسباب التي دفعت الازموريين الى ركوب البحر واحتراف التجارة(88) .

وكان النهر والميناء سببا في ظهور طبقة تجارية سنعود اليها. واستفادت أزمور - كما لاحظنا - من تخريب آنفا، اذ أصبحت القوافل تفد عليها يوميا من الشاوية(89). إلا أن التطور الذي عرفته السفن مع القرن الخامس عشر، وتحولها نحو الضخامة، جعل المدينة تفقد كثيرا من أهميتها، مما سمح لمازيغن القريبة منها بتعويضها. ولقد علل البرتغالي المجهول تخلي المراكب عن ميناء أزمور بقوله: « . . . إن المصب ضيق، وبه حواجز رملية تجعله خطيرا. . .»(90) . ولهذا لم تدخل النهر ما بين 25 غشت و 30 شتنبر 1513 الا سفينة واحدة كبيرة، واثنتان صغيرتان(91) . هذا في فصل الصيف، وهو وقت اقبال السفن على موانىء المنطقة. وتوجد المدينة على شكل مربع كبير جدا على ارتفاع يسمح لها بمراقبة النهر والمصب. ولكن ثلاثة مرتفعات تعلوها مما يجعلها عرضة لنيران المدافع(92) . وكان بها 28 مسجداً(93) وقت دخول جيوش البرتغاليين اليها، مما يدل على كبرها. ويحيط بها سور مبني على الطريقة المغربية التقليدية، به ثمانون برجا وقصبة واحدة، كانت تشرف على النهر.

وكانت التجارة أهم أنشطة المدينة التي كانت تصدر كميات مهمة من القمح

والجلود والشمع، وسلع أخرى ذكر (فرننديش) بعضها: «هنا تشتري جياد جميلة، وحياك، وجلابيب، وعبائن، تنقل لتباع ببلاد السود. . .»[94]

آسفي: مدينة قديمة جدا، لا يعرف لاسمها دلالة[95] . وتقع على المحيط، محتمية برأس سيدي بو زيد الذي وفر لها حوضا كبيرا. وكانت آسفي «لبنة التمام للمسورات بالمغرب، وليس وراءها مدينة جامعة ولا محلة مسورة. . .»[96] ووصفها الرحالة الالماني (فرننديش) بأنها «أجمل وأهم ما يملك المسلمون ما بين جبل طارق والحبشة» .[97]

وسمح لها هذا الموقع على الساحل بان تعوض أكوز، وبان تصبح منفذا بالنسبة للحوز والشياظمة وحاحة.

وتعتمد آسفي على ظهير غني وخصب، الا ان موقع المدينة يطرح عددا من المشاكل اهمها قلة الماء،[98] واحاطة تلال بها.[99]

ولم تكن آسفي متوفرة على ميناء آمن، ولم تكن السفن تصل اليه لعنف الرياح الغربية وكثرة الصخور على مقربة منه،[100] وكان الاتصال ما بين الميناء والسفن يتم اعتمادا على مراكب صغيرة[101]

وتمكننا لوحة تعود الى بداية القرن السادس عشر[102] من اخذ فكرة عن المدينة وسورها: فمن خلالها تبدو آسفي ضيقة الرقعة، اذ كان الفراغ داخل السور كبيرا جدا ما بين القصبة والدور التي كانت متجمعة حول الميناء، وحول رباط ابي محمد صالح. ولا تظهر باللوحة الا اربع صوامع، واحدة تناسب الموقع الحالي للمسجد الاعظم، والثانية تناسب مسجد الرباط.

وكان السور يفصل ما بين المدينة وميناءها ، وكان الاتصال بينهما يتم اعتمادا على باب . وهذا السور موحدي ، بني في عهد أبي محمد صالح (ق 13) بخليط من الجير والطوب ، على الطريقة المغربية . وهو أكبر بكثير من السور البرتغالي الذي لا يزال قائما ؛ إذ بلغ طوله حسب المصادر البرتغالية 2234 مترا[103]. وكانت تتخلله 87 برجا وعدد من الأبواب وصلتنا اسماء بعضها : باب المدينة الغربية ، باب الشعبة ، باب الرباط ، باب أكوز ، وباب المجاذيم[104] .

واذا كانت أزمور قد استفادت من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وكانت الى هذا القرن الاخير أكثر رواجا وحيويـة من آسفي، فان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانا لصالح آسفي، اذ أصبحت اكثر الموانيء المغربية استفادة من التيارات التجارية الجديدة. وهكذا أصبح بامكان هذه المدينة، حسب ما ورد بوثيقة برتغالية، أن تزود كل تجارة سواحل غرب افريقيا بما تحتاجه من سلع، وأن تروج كل ما يجلب من الهند مں صمغ. (105) وازدهرت الحرف بآسفي، وخصوصا منها الصوفية والجلدية. وكانت أهم صادرات هذه المدينة هي: القمح، الاثواب الصوفية، الخيول، التبر، الشمع، النيلة، الجلود، والصمغ العربي. وكانت الانسجة الاوروبية اهم سلعة كان التجار المسيحيون يعرضونها هناك. (106)

المدينة الغربية. (107) كانت خلال الفترة البربرية حاضرة دكالة وعاصمتها، ولهذا سميت ايضا «مدينة دكالة». وتقع هذه المدينة غير بعيد عن البحر، على مقربة من أيير أو الوليدية الحالية. ولم يكن غناها يعتمد على الخارج كسابقتيها، بل نتج عن خصوبة المناطق المجاورة لها، والتي وصفها (مارمول) بقوله: «. . . وكانت من قبل غنية وكثيرة السكان، وعاصمة المنطقة، لانه لا يوجد قط بلد في كل مملكة مراكش اكثر منه خصوبة فيما يخص انتاج القمح والكلأ. . .». (108)

ولا نعلم شيئا عن عدد سكانها، وإن كانت بقايا سورها تشهد على عمران كبير.

القرى:

(أ) الساحلية منها:

أكوز: عاصمة رجراجة على عهد الموحدين، وميناء أغمات قبل ان تعوضها في ذلك مدينة آسفي.

لقد نتج عن وجودها على نهر التانسيفت، بعيدة عن المصب بحوالي عشرة كلمترات، نفران السفن منها. وهذا ما يفسر سكوت كل من الوزان ومارمول عن وصفها. وشيد البرتغاليون سنة 1519 حصنا عند مصب التانسيفت سمي باسم هذه القرية. (110)

كونتي: على مقربة من رأس كونتي أو رأس بدوزة. وفي بداية القرن السادس عشر، كانت هذه القرية خربة(111). وبما ان البحر عنيف بذلك الموقع، وان عددا من المراكب قد غرقت هناك، فان «كونتي» لم تعرف اي نشاط بحري او تجاري كما كان عليه الحال بدار الفارس مثلا.(112)

تيط: ارتبط نموها باستقرار الامغاريين بها. وحسب ما ورد بمؤلف ابن عبد العظيم الازموري، كان موقعها آنذاك «ذا شعرة»، أي أنه كان مغطى بالأشجار. وسمحت هذه الاشارة للبعض بارجاع تاريخ تأسيسها إلى بداية القرن الثالث عشر الشيء الذي فندته الحفريات التي أثبتت وجود مدينة بذلك الموقع على الأقل منذ العهد الفنيقي(113).

وكانت تيط تستقبل عددا من المراكب التجارية لأن الساحل، رغم انه صخري على مقربة منها، يتوفر على حوض يمكنه استقبال حوالي عشرة مراكب، وان كانت الرياح الشمالية الغربية لا تجعل منه مرفأ آمناً.(114) ولاحظ ابن الخطيب تفشي الفوضى بضواحيها وكثرة قطاع الطرق بها، لعله كان سبب انخفاض سكانها الذي عاينه.(115) وذكر الوزان، الذي خص تيط بوصف قصير، أن سكانها كانوا كثيري الاتصال بالتجار البرتغاليين، وأن مستوى معيشتهم تحسن لذلك.(116)

دار الفارس: لا نعلم شيئا عن هذا المرفأ الذي كان البرتغاليون كثيري الاقبال عليه لشراء الحبوب. فلقد ذكر الرحالة البرتغالي (بريرا): «... يوجد هنا كثير من القمح والشعير، وغالبا ما تأتيها السفن لشرائه...»(117) وتؤكد بعض الايصالات هذه الحقيقة.

مازيغن: اجمعت المصادر البرتغالية على كونها في بداية القرن السادس عشر خربة.(118) ولعل في سكوت ابن الخطيب اولا، والوزان ثانيا عن ذكرها تأكيد لذلك. ونظرا لقربها من أزمور، وتوفرها على ميناء جيد، تزاحم التجار الايبيريون لشراء القمح بها.(119) فلقد ذكر الدوق (دو براغانص de Bragança) فاتح أزمور، ان مازيغن تتوفر على احسن موانئ العالم.(120) ولهذا ستحظى بأهمية كبرى من طرف البرتغاليين بعد تحصينها سنة 1514.

أيير: لم تكن تستعمل آنذاك كميناء. وكانت موجودة قرب الموقع الحالي للوليدية، وكانت قرية نامير بجانبها.

(ب) القرى الداخلية:

كانت صغيرة ودون أي نشاط يذكر ما عدا الزراعة وكراء الامراس للاعراب.

سرنو: لا تبعد عن آسفي الا بثمانية عشر كلمترا تقريبا. . . ومن بقايا اسوارها يبدو أنها كانت كبيرة جدا. ولاتزال بها عشرات المطامير كما أنه لاتزال بعض آثار الابراج قائمة. ولا عبرة بما ادعاه Doutté (121) من أن مائة بئر وبئر التي وصفها الوزان هي سرنو، لأن الاوصاف التي اعطاها الرحالة المغربي تنطبق على مدينة كانت على الجرف الرابط ما بين سهل عبدة ونجد الكنتور.

سايس: (122) تناسب زاوية سايس الحالية، جنوب الجديدة. وهي التي شاهد فيها ابن الخطيب حصنا ينسب لأحد كبار قواد المنطقة الذين عاكستهم الايام. وكانت على مقربة منها قرية تارتير.

السُّبَيْت: (123) على الضفة اليسرى لأم الربيع. وكانت ضواحيها خصبة وتنتج كثيرا من العسل والشمع. ولكنها تضررت من تعسفات الاعراب قبل أن يخربها البرتغاليون.

تارغا: 300 كانون، على الضفة اليمنى لأم الربيع، عند التقائه مع نهر يحمل نفس الاسم. وكانت توجد بالشاوية، شمال شرق سبيت. ومع ذلك، كانت تعتبر نفسها دكالية. (124)

٢ **بولعوان**: لا زالت القرية تحمل نفس الاسم. وكان بها قرابة 500 كانون. وتوجد على الطريق الرابطة عبر السهل ما بين مراكش وفاس. وكان سكانها على جانب مهم من الغنى إذ كانوا يحصلون على محاصيل زراعية مدهشة(125).

وبالاضافة الى هذه القرى المهمة، وجدت بدكالة قرى أخرى سنضطر الى ذكرها: (تازروت)(126) شمال شرق سحيم، قرب أحد بخاتي، وكـ (تكرنت)(127)، بنجد

الكنتور على الطريق الرابط ما بين الجديدة ومراكش، وكـ (بنكيز وتافـوف)(127) شرق الجبل الاخضر، غير بعيد عن أم الربيع، وكـ (مرامير)، جنوب التانسيفت. . . الخ

5 ـ علاقة الحواضر بالبوادي.

بالامكان تتبع تطور هذه العلاقات اعتمادا على كل من ابـن الخـطيب والوزان. ويلاحظ في هذا الباب تطور مهم وذو دلالة كبرى. فلقد أشار ابن الخـطيب وهـو يتحدث عن آسفي، الى تعرضها لغارات الاعراب الذين يهينون سكانها. وأشار وهو يتحدث عن تيط، الى كثرة قطاع الطرق الذين يجعلون الوصول اليها أمرا صعبا جدا (128) ولم يذكر شيئا من هذا بالنسبة لازمور. . . واذا كان الوزان قد أشار الى المحن التي كانت تعاني منها قرى الحوز وتادلة وغيرهما، فانه لم يذكر شيئا من ذلك بالنسبة لكبريات الحواضر الدكالية رغم كثرة الاعراب وسطوتهم التي أكد عليها. ولم يشر الى تحكم الاعراب الا في قريتين على طول أم الربيع، (سبيت) داخل دكالة، و (تارغا) خارجها. ومما له دلالة كبرى أن الوزان لم يشر الى ذلك بشأن بولعوان. وكان سر هذا الاستثناء على ما يبدو يكمن في كون القرية تابعة سياسيا لآسفي.

ويتجلى من قراءة الـوزان، وخصوصـا من خلال المصـادر البرتغـالية، تحـكم الحواضر في البوادي المحيطة بها. لقد أصبحت آسفي خلال القرن الخامس عشر تتحكم في المناطق القريبة منها، وحتى في المناطـق البعيدة، كبنـي ماكر، ومرامـير الموجودة بالشياظمة؛ وأصبحت منطقة حاحة تدور في فلكها. فمن خلال الرسالة التي وجهها أعيان آسفي الى الملك البرتغالي، نلاحظ ذلك الولاء الذي أصبحـت القبائل تكنه للمدينة، بحيث أضحت تكون عصبيتها التي تعتمد عليها للدفاع عن نفسها. لقد جاء في رسالة أعيان آسفي أنـه بامكانهـم الاعتماد على «عشرة آلاف مهماز» أي على عدد كبير جدا من المحاربين. ولم يميز الاعيان في رسالتهم بين سكان آسفي وقبائل عبدة ورجراجة ورتنانة و «دكالة»، التـي أصبحـت بمثابـة «عظـم» واحد. فمن حصل على ولاء آسفي حصل على ثقة وولاء القبائل المذكورة «. . . وأنت يا مولانا اختر في عشرة ألف مهماز أومهماز واحد، قبيلة عبدَ (عبدة) مع قبيلة رجراجة وقبيلة رتنانة وقبيلة دكالة، الكل عظم واحد، هؤ لاء وقبيلة واحدة، ولف

واحد، وحال واحد، عدوهم وصديقهم واحد. . » (129) .

وتتجلى هذه التبعية السياسية في قبول البوادي اداء الضرائب لقائد او «ملك» آسفي (130)

فما هو سر هذا التحول والى أي شيء يعود انتقام الحواضر لنفسها، اذ أصبحت حاكمة آمرة بعد ان كانت تحت رحمة الاعراب؟

لقد نتج عن ازدهار التجارة بهذه الحواضر واستقلالها عن السلطة المركزية وصول بعض الاعيان الى الحكم. وبما انهم أصبحوا يحتكرون موارد المدن، فان ذلك يسمح بالقول انهم استطاعوا تسليح «مليشيا» بالسلاح الناري فرضوا بها كلمتهم على القبائل. ويسمح بهذا الاحتمال اثبات النصوص لتهريب الاسلحة النارية وبيعها بالثغور المغربية، ووجود وثيقة تؤكد ان «ملك» آسفي، عبد الرحمان، اشترى اسلحة من اكدير(131). ولكن هذا العامل وحده لم يكن كافيا. لقد أرغمت الظرفية الاقتصادية القبائل على الرضوخ للمدن اذ أصبح القرويون من مزارعين ومربي ماشية يفدون يوميا على آسفي وأزمور، وذلك للرواج التجاري الذي أصبحتا تعرفانه مع القرن الخامس عشر. لقد اصبحت المدينتان سوقا كبيرا ودائما تباع فيه الحبوب والمواشي والانسجة الصوفية، وبذلك ادمجت البوادي في التيارات الاقتصادية الكبرى (البرتغال وأوربا والسودان)؛ ولما استفادت هي بدورها من ذلك الرواج، عملت على الحفاظ عليه، لان تحطيمه او الحاق الضرر به يضر أيضا بمصالح البوادي. ولنا على تزاحم القرويين يوميا باسواق آسفي عدة أشارات.

وجاء في تاريخ (كويش) صورة واضحة عن هذا الاقبال «. . . وبما ان المدينة (آسفي) كانت آنذاك (حين عزم القبطان على تنظيم غارة سنة 1511) مليئة بأولئك المغاربة الذين يأتون بالسلع والمواد الغذائية، والذين كان عددهم يصل الى اكثر من ستمائة. . . » (132) .

ولا غرابة في أن تؤدي تبعية أقتصادية الى تبعية سياسية. ولقد عبر عن ذلك نفس الاخباري الذي بينّ ان الاعراب وسكان الضواحي كانوا «. . . يكونون القوة

الرئيسية بالنسبة للمدينة في شؤون الحرب. . .» وتتجلى هذه التبعية الاقتصادية اكثر في ان هؤلاء استمروا في اللجوء الى سوق آسفي حتى بعد احتلالها. والعدد الذي ذكره (كويش) في الفقرة التي أوردناها اعلاه ينطبق على هذه الحالة، كما أن في رسائل يحيي او تعفوفت وغيره اشارات لذلك. ولكن هذا الاقبال سيتوقف لاسباب سنعود اليها.

وهكذا كانت دكالة عند مطلع القرن السادس عشر كثيرة السكان. ويمكن أن تكون أعدادهم قد تعدت الستمائة الف. وكان الدكاليون يتفرعون عن قبائل بربرية سرعان ما غادرت المنطقة، (٠-١٩) وقبائل عربية منقسمة الى ثلاث مجموعات كبرى. وكان جل الدكاليين يعيشون بالبوادي لقلة المدن والقرى النسبية، وذلك رغم انفتاح المنطقة على الخارج.

الهوامش والتعاليق

(1) أحمد بن ابراهيم الدكالي. سلسلة الذهب المنقود، في ذكر بعض أعلام الاسلاف والجدود مخطوطة خ. م. نسخة مبتورة تحت عدد 6536 . وأخرى كاملة ضمن مجموع تحت عدد (3822 مج).

(2) M. Bellaire: Les Doukkala. In Villes et tribus du Maroc

(3) E. Doutté: Marrakech p. 240

J. Goulven: Le cercle des Doukkala au point de vue économique. Paris; 1917;p. 39

وتوجد بدكالة عناصر ثلاثة: قصير أسمر، قصير وسمين وأسمر، أشقر ذو عينين زرقوين وشعر أشقر.

راجع كذلك مقالة التقي العلوي: أصول المغاربة، القسم البربري. مجلة البحث العلمي عدد 19 ، سنة 1972 ص ص 81 - 83 .

(4) M. Bellaire. op. cité p. 34

(5) أحمد بن ابراهيم الدكالي . . . المنهاج الواضح . . . مصدر سابق ص 134 .

(6) المختار السوسي - المعسول. البيضاء ج 4 ص 8 . الكانوني محمد . . . العبدي، كناشة رقم 7 (ملكية الاستاذ المنوني).

(7) نفس المصدرين السابقين.

(8) عن هجرة سبعة رجال الى مكة: C. De Castries: Les sept patrons de Marrakech. hesp. 1924 tIV 3éme tri. pp 245 - 303.

(9) كتبه كذلك كل من ابن عسكر: دوحة الناشر. . . تحقيق محمد حجي الرباط 1976 ص 77 وابن القاضي. لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد: تحقيق محمد حجي الرباط 1976 ص ص 285, 298, 304 وكذلك كتبه أبو القاسم الزياني وصاحب ابتهاج القلوب (أبو زيد عبد الرحمان الفاسي وصاحب سلسلة الذهب المنقود. وكتبه على الصيغتين صاحب السلوة. وجاء في سجل الضرائب البرتغالي كالتالي: «مسنجاية» "Mycemjayas"

(10) ابن ابراهيم. سلسلة الذهب المنقود. . . مصدر سابق ورقة 35 ب.

(11) ابن عبد العظيم الازموري. . . بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص 70 .

(12) كقريتي بنكيز وتافوف اللتين كانتا ما بين بولعوان ومشرع ابن عبو.
S. I. H. M. Port I p 483 n 1.

(13) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 108 - 109

(14) الزياني... ابو القاسم... الترجمانة الكبرى... مصدر سابق ص 78 . وراجع كذلك الصفحة 81 من هذا البحث.

(15) ابن خلدون... عبد الرحمان. العبر... مصدر سابق ج 6 ص 556 .

(16) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 109 ، وكذلك ص 357 - 358 .

(17) Repértoire Alphabétique des tribus et confèderations de L'empire chérifien. Rabat. 1939. p 19 .

(18) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 357 .

(19) البيدق... أخبار المهدي بن تومرت ط. دار المنصور 1971 ص ص 63, 67, 69, 72 ابن خلدون... العبر... مصدر سابق ج 6 ص ص 480 - 484

(20) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص ص 304, 391, 423

(21) الكانُوني محمد... العبدي. أسفي وما اليه... مرجع سابق ص 24 .

(22) ابن خلدون عبد الرحمان... العبر... مصدر سابق ص 62

(23) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 391

(24) ابن عذاري... البيان المغرب... مصدر سابق ص 286 ابن خلدون عبد الرحمان العبر... مصدر سابق ج 6 ص ص 60 - 64

(25) ابن عذاري... البيان المغرب... مصدر سابق ص ص 298, 299, 311, 372... ابن خلدون عبد الرحمان... العبر... مصدر سابق ج 6 . ص ص 528-560 وما بعدها ابن الخطيب: معيار الاختيار... مصدر سابق ص 76 .

(26) ابن خلدون عبد الرحمان... العبر مصدر سابق ج 6 ص 62

(27) ابن عذاري... البيان المغرب... مصدر سابق... ص ص 310, 324, 369

(28) الناصري السلاوي أحمد بن خالد الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى. ط. البيضاء ج 3 ص 94

(29) Gois... op cité p 111 وذكر مارمول أن القريتين تابعتين للشرقية، دون أن يحدد ما اذا كانتا «فرجيتين».

(30) Gois... op cité p 113

(31) Ibid... op cité p 113 ولا يعني كون عبد الرحمان المجذوب والفرجي وليد تيط أن القرية كانت تابعة لاولاد فرج.

(32) S. I. H. M. Port I. 482 n. 2.

(33) Ibid I p 751

(34) Ibid I p 740

(35) Ibid; Ibidem

(36) Ibid I p 366

(37) Gois.. op cité p 189. Ibid II p 260

(38) De Marmol... op cité II p 112

(39) كذا ذكرت في معاهدة أعيان ازمور مع الملك البرتغالي: S. I. H. M. Port I p 10

(40) Ibid I p 346 No 3

(41) Ibid I pp 83, 85 – 396 – 759.

(42) Ibid I pp 346 n. 1 626 n. 2
Taelim, Lithali; ayte el Haly

(43) Gois... op cité p 71

(44) S. I. H. M. Port I p 304

(45) Ibid I p 740

(46) Ibid I p 188, 260

(47) وذكر (Cénival) أن هذا الموقع يناسب قرية (كرندو) الموجودة على الطريق الرابطة ما بين الجديدة ومراكش. ولكن سجل الضرائب البرتغالي ذكر القريتين معا. عن قرية (كرندو) أنظر خريطة (مطال) مقياس 50000 – 1 عند النقطتين 202. – 222

(48) S. I. H. M. Port II p 188

(49) Ibid II pp 34, 36

(50) Ibid I 740 et pp 754; 194 n. 1

(51) Ibid I p 740

(52) De Marmol... op cité II pp 94, 111

(53) E. Doutté: Marrakech. op cité p 118

(54) L. Massignon: Le Maroc... op cité. p 132. S. I. H. M. Port I p 278 n. 4

(55) Ibid I pp 672, 750

(56) انظر الصفحة 49 من هذا البحث.

(57) Gois... op cité p 60 S. I. H. M. port I pp 272

(58) Ibid I pp 281, 626, 693

(59) Ibid I p 740 وسجل الضرائب الاتفاقية مع المدينة الغربية (الملاحق)

(60) Ibid I p 382 No 2.

(61) De Marmol... op cité II p 27 – Léon... opcité I pp 86 – 87

(62) Léon... op cité I pp 86 – 88

(63) رسالة سكان آسفي الى الملك البرتغالي صيف سنة 1509
S. I. H. M. Port I p 186

(64) ابن خلدون عبد الرحمان. العبر... مصدر سابق ج 6 ص 62 . ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 68 .

(65) De Marmol... op cité 116. S. I. H. M. Port I p 193 n. 1

(66) المهدي بن أحمد الفاسي... ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع. ط. فاس. ص 45 . S. I. H. M. Port I p 764

G. Marçais : Les Arabes en Berhérie du XI au XIVS.1913 p 559. L. Massignon: Le Maroc... op cité p 139.

(67) عن بني عامر : S. I. H. M. Port II p 408 n. 3
وعن هسكورة السهل : Léon... op cité I p 130

(68) S. I. H. M. Port II pp 164, 167

(69) سجل الضرائب البرتغالي : Folio I

(70) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 12 ,168 ,304؛ ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 170 ,219 . وعن احتراف التجارة من طرف الماكرين، ابن عبد العظيم... المصدر السابق الذكر ص 4 – 9

(71) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 69 .

(72) نفسه ص 73 .

(73) ابن قنفذ.... انس الفقير... مصدر سابق... ص 71

(74) Léon. Description.. op cité 24

(75) Cité in L. Massignon – Le Maroc.. op cité 134

(76) D. Noin: La population rurale du Maroc. 1970. T. I p 236

(77) Gois... op cité p 105

(78) P. Cénival – Monod: Description... op cité p 33. Gois p 105

(79) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 73

(80) S. I. H. M. Portugal I p 222 No I

كان على رأسهم (تيراس) انظر مناقشة الاستاذ (B. Rosenberger) لهذا الرأي – Hesp Tam XII 1971 p 204

(82) كتب V. Fernandez «يهتم العرب بتربية المواشي وبالحرث ولكنهم يتنقلون بمواشيهم داخل المنطقة ويعيشون تحت الخيام...» مصدر سابق ص 33
S. I. H. M. Port I p 82 وورد ذكر اقامة هؤلاء بعد الحرث والزرع بالمصادر البرتغالية تحت اسم "Azamel" .

(83) اعطى الوزان لاسفي 4000 كانون ولازمور 5000 مما يعطي للاولى عددا يصل الى اكثر من 20 الف نسمة والثانية 25 الف. واذا اعتبرنا المعدل الذي اقترحه احمد التوفيق (جوانب من تاريخ المغرب الاجتماعي في القرن التاسع عشر، انولتان من 1850 – 1912 : (7,5),7 ص 122 يكون مجموع سكان الاولى قرابة 30000 نسمة والثانية قرابة 37000 نسمة.

(84) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص ,109 ,119 ,162 ,164 ,168
,205 ,208 ,218 ,251 ,305 ,316 ,396 ,406 ,422 ,429 ,436 ,451 ,460 ,461 ,469

(85) ابو القاسم الزياني... الترجمانة الكبرى... مصدر سابق ص 78 ابن قنفذ... أنس الفقير... مصدر سابق ص 71

(86) Léon... op cité I p 93

(87) Léon... op cité I p 126

(88) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق ص 169

(89) S. I. H. M. Port II p 251 واشترط على أحد البرتغاليين اكترى حق تنقيل الوافدين على أزمور من ضفة الى أخرى توفير العدد الكافي من القوارب مما يدل على اقبال كبير ويومي على أزمور من طرف الشاوية Ibid I p 586 n. 1

(90) L'anonyme portugais op cité p 91

(91) S. I. H. M. Port I p 438

(92) L'anonyme portugais... op cité p 92

(93) S. I. H. M. Port I p 411, 430

(94) P. Cenival – Monod: Description... op cité p 29

(95) هناك من يرى فيه «أسيف» (النهر) أسفا (جماعة) اسفو (منار) الخ

(96) ابن الخطيب. . . نفاضة الجراب. . . منصدر سابق ص 71

(97) P. Cenival – Monod – Description... op cité p 35

(98) ابن الخطيب، معيار الاختيار. . . مصدر سابق ص 76، وكانت تعتمد أكثر على النطافي. وسبقت الاشارة الى جلب الماء من البرتغال. انظر الفصل الاول من الباب الاول.

(99) كان هذا الموقع يعرض المدينة لعدد كبير من الفيضانات التي كانت تسببها السيول التي تجتمع بوادي الشعبة الذي كان يعبر المدينة. راجع كناشة الكانوني رقم 4 (خزانة ذ المانوني) حول فيضان عرفته آسفي خلال القرن 13 هـ اودى بحياة ما يفوق مائة شخص.

(100) R. Ricard: La côte Atlantique art. cité p 246

(101) S. I. H. M. Port II p 255

(102) Ibid I planche III وهي مأخوذة عن مؤلف Pacheco Perera: Esmeraldo de situ orbus الذي ترجم R. Ricard قسما منه اشرنا اليه عدة مرات.

(103) كان الطول "Brasses"، وكان طول كل واحدة تقريبا 220 سنتم.
انظر Góis... op cité p 63
– S. I. H. M. Port I p 275 (1 083 brasses)

(104) من هذه الابواب: باب البحر S. I. H. M. Port I p 184 باب الشعبة Ibid I p 146 باب الرباط أو الخميس (Ibid I p 273) باب المدينة الغربية (Góis 62, Ibid I p 271) باب المجاذيم (Gois p 61) باب أكوز (Gois p 62)

(105) S. I. H. M. Port I p 145

(106) R. Ricard – La côte atlantique – art cité p 247 – P Cénival – Monod – Description Op cité; p 35 – de Marmol op cité II p 78

(107) لعل هذا التمييز «بالغربية» كان لتفادي الخلطمع مدينة هسكورة، وعن أوصافها انظر Léon... op cit ´ I p 122
De Marmol... op cité II p. 111 E. Doutté – Marrakech op cité pp 195 – 197

(108) De Marmol... op cité II p111 – 112

(109) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق ص 357

(110) Léon... op cité I p 75

(111) Ibid I p 121

(112) عن هذا الميناء المصدر للحبوب، راجع R. Ricard: La côte atlantique... art cité p 245,
S. I. H. M. Port I p 80 n. 3

(113) H. Basset et H. Terrasse : Sanctuaires et forteresses Almohades: Le Ribat de Tit. Hesp 1927 t. VII: 2é trim. pp. 117 – 171.

(114) Ibid. Ibidem.

(115) ابن الخطيب. . . معيار الاختيار. . . مصدر سابق ص 76
R. Ricard. La côte atlantique.... art cité p 245

(116) Léon... op cité I p 121

(117) S. I. H. M. Port I. p. 80n,3 R. Ricard: La côte atlantique art cité 245

(118) P. Cenival – Monod: Description.. op cité 29 Ibid. P. 244

(119) والايصال المتعلق بمازيغن المنشور بالملحق. S.I.H.M. Port I p 74, Ibid, I bidem.

(120) S. I. H. M. Port I p 442

(121) E. Doutté: Marrakech op cité p 186

(122) S. I. H. M. Port I. p 626 n. 2

(123) De Marmol... cité II p 112 Léon... I p 123

(124) Ibid II p 113 Ibid I p 124

(125) Ibid II p 114 Ibid I p 124

(126) S. I. H. M. Port I p 261 n 1 وهي شمال شرق سحيم، قرب احد بخاتي.

(127) S. I. H. M. Port I p 742 n 2 II p 22 n 2
Ibid I p 482 n 2

(128) ابن الخطيب: معيار الاختيار مصدر سابق ص 76

(129) S. I. H. M. Port I p 186

(130) Ibid I p 149

(131) Ibid I p 51

(132) Góis.. op cité p 74

الفصل الثالث

أوضاع دكالة الاقتصادية

ان اول ما يثير انتباه متتبع كتب الرحلات وخصوصا الوزان ومارمول، هو الفرق الموجود بين دكالة وجاراتها في نوعية الانشطة. فبخلاف كل من حاحة والسوس، وهسكورة، والتادلة، تسيطر الزراعة وتربية المواشي سيطرة مطلقة بدكالة. ولا تعرف المنطقة انتاجات زراعية ذات مردود مرتفع كبساتين تلك المناطق. ولم يكن الاستغلال الزراعي في مستوى يمكن دكالة من المقارنة مع جاراتها (السقي، فواكه. . .) ولم تكن تعتمد على انتاجات صناعية تعرف رواجا كتلك التي كانت بهسكورة (البرنوس وصناعة الجلود مثلا) ولم يكن أي انتاج دكالي يصل الى فاس او السودان. واكثر من هذا، لم يذكر المؤلفان من الصناعات الدكالية الاحدادة يهود (مائة بئر) ونسيج (المدينة الغربية).

وهذه ظاهرة غريبة جدا، لان دكالة كانت كما سنرى، منطقة مرتبطة بالعالم الخارجي، ومحج التجار الاوربيين منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر على الاقل(1) . فهل يدل كل هذا على قلة اندماج المنطقة في الاقتصاد المالي ؟ وهل كانت فعلا لا تعيش الاعلى النشاط الزراعي ؟ .

وتدفعنا اشارات كل من الوزان ومارمول الى الاعتقاد بذلك.

فاذا كان الاول قد اشار الى سك العملة بهسكورة(2) ، فانه لم يشر الى ذلك

بدكالة. واكثر من ذلك، ذكر انها تستعمل العملة الهسكورية[3] أما مارمول، فقد ذكر من بين السلع المصدرة من آسفي عددا مما ينتج خارج دكالة كالنيلة والجلود الطبيعية او المحولة، والعسل، والشمع... الخ. وبهذا تبدو دكالة كثيرة الشبه بتامسنا، مما قد يدفع الى رد ذلك الى اصل السكان المكونين اساسا من الاعراب والذين قد يظهرون بمظهر اللامبالين بالانتاجات التسويقية. ولقد لخص الوزان ملاحظاته بالتأكيد على أن هسكورة كانت اغنى من دكالة[4].

ولكن حقيقة الأوضاع الاقتصادية بدكالة كانت على عكس ما قد توحيه قراءة المؤلفين.ولا شك في ان سكوتهما عن جوانب كثيرة من انشطة دكالة الاقتصادية راجع الى الاهتمام الكبير الذي اولياه للاحداث السياسية من غزو برتغالي وحركات وطاسية... وقد يعود اهتمام حاحة وهسكورة والتادلة، وخصوصا اهتمام سكان ضواحي المدن التي تحدث عنها الرحالتان بالزراعة ذات المردود المرتفع كالجنات والبساتين، يعود الى فقر تربة الاراضي المزروعة مما حتم الحصول على مردود مرتفع، الشيء الذي سهله وجود عيون وأنهار[5]. وبما ان دكالة سهل غني وكبير الى حد ما، فانه يضمن عيش السكان من الزراعة وتربية المواشي، ولهذا لم تكن المنطقة تشكو من تفاوت ما بين السكان والموارد، تفاوت يحتم البحث عن انشطة غير زراعية، والعمل على رفع مردودية تلك الانشطة الزراعية نفسها.

ويجب ان يؤخذ ما ذكره الوزان بشأن العملة بحيطة كبيرة جدا، اذ لا يعقل ان تكون منطقة مرتبطة بالعالم الخارجي منذ قرون، معتمدة في عملتها على منطقة داخلية. ومما يسمح بالشك في هذه القولة، كون آسفي وازمور كانتا نهاية احدى طرق التبر، على الاقل منذ القرن13. ولقد مكن ذلك الذهب أزمور من اعطاء نفسها عملة ذهبية اثر استقلالها السياسي في القرن الرابع عشر[6]. وكان بآسفي حين احتلالها «دارسكة»[7]، وهي التي كانت السبب في وجود كميات كبرى من العملة المحلية التي اوردت بعض الايصالات مقادير مهمة منها. حقيقة ان دكالة ارض زراعة ومواشي، ولكن هذا لا ينفي وجود اقتصاد يعتمد الى حد ما على الاستهلاك الداخلي وكذلك على التصدير.

والسؤ ال الذي يفرض نفسه هو التالي: ما هو اثر وصـول التجـار الاوربيين وتزايد اعدادهم مع السنين على المنتجات الدكالية؟.

مما لا شك فيه ان تزايد الطلب على قمح دكالة، واعتماد البرتغال كثيراً عليه أثر على الكميات المعروضة بآسفي وأزمور، وبالتالي على الانتاج والاثمان؛ ودفع بعدد من الدكاليين الى العمل على الاستفادة من المعطيات الجديدة.

وما ينطبق على القمح ينطبق على سلع اخرى.

وباختصار تؤ كد عدة قرائن اهتمام الدكاليين بالرواج الذي اصبحت تعرفه بعض السلع، وبوصـول سلـع اخرى الى الموانىء الدكالية. ويتجلى ذلك في اعـداد الوافدين ـ من البوادي ـ يوميا على آسفي.

لقد اصبح الطلب مهما على انتاجات لم تكن تسوق كالشمع او الشابل أو كان الاقبال عليها قليلا، كالجلود والانسجة الصـوفية وغيرهـا. وظهـر لذلك عدد من الوسطاء اصبحوا يجمعون الانتاجات الريفية، وخصوصا الحبوب، ليعيدوا بيعهـا بالموانيء. وكان اولئك الوسطاء يدفعون سلعا مستوردة مقابل تلك الحبوب(8). ورغم الاهتمام الواضـح بامكانـات السـوق الاستهـلاكية وبـالاثمان، يلاحـظ ان دكالة كانت، بخلاف جاراتها، لا تهتم بالاسواق الداخلية، (فاس، السودان...) ولم يكن التجار الدكاليون ينقلون سلعهم الى مناطق مغربية اخرى، ولم يكونوا يفدون على مناطق اخرى لشراء السلع التي تسمح بربح بآسفي او أزمـور. ولعـل ذلك راجع اساسا لكون المنطقة متوفرة على موانىء تجلب اليها السلع دون ان يضطـر الدكاليون الى الذهاب الى المناطق المنتجة، كما أن الطلب على السلع الدكالية كان مهما بالموانىء، مما اعفى التجار الدكاليين من عناء نقلها الى اسواق اخرى. وكانت دكالة تعرف انشطة متنوعة ومهمة في نفس الوقت.

1 ـ الزراعة وتربية المواشي

أ) كانـت هذه الفلاحـة تخضـع لمجموعــة من العوامــل. فزيادة على الطبيعية

منها، والتي سبقت الاشارة اليها، كانت المحاصيل مرتبطة بمدى تمسك المزارع بالارض، وبنوع الاستغلال الذي يخصها به، وبالهياكل العقارية وبالاوضاع السياسية. فالمعطيات الطبيعية مثلا تسمح باستغلال «بوري» دون الاعتماد على السقي، لان معدل التساقطات في السنة كاف شريطة ان تخضع الامطار لتوزيع يتلاءم وحاجيات المزروعات. كما تتوفر دكالة على تربة قابلة للاستغلال في جل اقسامها، وان كانت تختلف من ناحية الجودة. فسهلي سيدي بنور وسحيم يتوفران على تربة سوداء، في حين لا تتوفر منخفضات «الساحل» إلا على تربة فقيرة.

ولكن العوامل البشرية كانت اكثر تأثيرا على المحاصيل ونوع الاستغلال. ويلاحظ في هذا الباب فرق واضح ما بين الفترة البربرية، وما بعد دخول القبائل العربية. فلقد أكدت المصادر المتعلقة بالفترة البربرية وجود فلاحة كثيفة تعتمد الى جانب زراعة الحبوب وتربية المواشي على الاشجار المثمرة (الجنات والحوائط). وتعددت الاشارات الى فلاحة الكروم، وذكر الاعتماد على السقي من مياه العيون والآبار، وظهرت ملكيات فردية للأرض[9]. ونلاحظ أن السقي لم يعد له وجود في القرن السادس عشر، وتراجعت الرقعة المغطاة بالاشجار والكروم تراجعا كبيرا، الى حد ان الوزان ومن اخذوا عنه جعلوا من اهمال الدكاليين لهذا النشاط دليلا على كسلهم وخمولهم[10]. كما توقف التحول نحو الملكية الفردية للارض، واكثر من هذا لم يعد لها أي وجود، وسيطرت الملكية الجماعية. ولا شك ان كل هذه التطورات تدل على تراجع في نوعية الاستغلال. ولقد زادت الاضطرابات التي تلت دخول سفيان والخلط الى المنطقة من حدة هذه العوامل السلبية.

ومع ذلك، عرفت دكالة انتعاشا مدهشا في القرن الرابع عشر، عاينه كل من ابن الخطيب أولا، ثم ابن قنفد ثانية (769هـ/1367 ـ 1368) ـ ورغم ما كان عليه المغرب آنذاك اقتصاديا وديموغرافيا، اندهش المؤلفان من كثرة السكان والمواشي، ومن كثافة الاستغلال الزراعي. وذكر ابن الخطيب ان بلد بني ماكر «... متعدد الديار والاشجار ...» وان السهل الممتد ما بين آسفي وأزمور كان ذاك «... الوطن المتكاثف العمارة، اجم الماشية، المنبث الحلل، الغاص على انفساح مداه

بالراغية، والثاغية، والصاهلة، والناهقة، والبالغ عدد ازواجه لاثارة الحرث ثلاثة الآف زوج من ازواج الثيران تثير ارضه، وتعالج حرثه. . . .[11] ، وذكر ابن قنفد ان المنطقة كانت تعرف استغلالا مهما جدا: «. . . وبلغت ازواج حراثتها زمان ورودي عليها عشرة الآف، وبعض حيوان فيها من انسان وغيره زائد على مثله في قدره. . . »[12] .

واجمعت كل المصادر على هذا التداخل الكبير ما بين الزراعة وتربية المواشي، مما يؤكد حرص المزارع الدكالي على الاستفادة من كل المعطيات الطبيعية، وخصوصا من مراعي «الساحل» والمناطق الهامشية الشرقية. واستطاعت دكالة الحفاظ على هذا المستوى من الاستغلال رغم القلاقل التي تلت استقلالها السياسي وتناحر شيوخها الذي اشار اليه الوزان![13] .

فلقد ذكرت كل المصادر البرتغالية ان دكالة كانت غنية بالمواشي وبالقمح[14] . وكان القمح على ما يبدو اهم المنتجات الزراعية الدكالية، الأمر الذي يبدو مخالفا للوضعية الحالية، اذ يفهم من النصوص أن الاراضي المزروعة قمحا كانت اكثر اتساعا من اراضي الشعير نظرا للاشارات القليلة التي حظي بها هذا الانتاج الاخير[15] . والغريب انه لم تصلنا الا اشارة عن باقي الحبوب وعن زراعة القطاني بالمنطقة[16] .

وكانت الحبوب تسيطر سيطرة مطلقة، ولم تكن البساتين منتشرة الا حول المدن لافتقار المنطقة للماء، ولهذا كانت دكالة دائما تستورد باستمرار الفواكه من «الاندلس» والبرتغال.

وقد تدفعنا كثرة الوحوش التي تشير المصادر الايبيرية إلى وجودها بالمنطقة، وخصوصا ما يعتبر منها دليلا على فراغ المنطقة من السكان، (الخنازير البرية) إلى الاعتقاد أن استغلال المنطقة كان محليا فقط. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك، اذ أن المصدر الذي اشار إلى هذه الكثرة، وهو مؤلف مارمول، ينطبق على نهاية القرن، وبالتالي يعطي فكرة عن دكالة بعد تعرضها للغزو، لا قبله. كما أن الوحوش التي اشارت اليها المصادر البرتغالية المعاصرة للغزو لم تكن محلية، بل كانت تتسرب الى

دكالة من الشياظمة، او الاطلس (الاسد) او من الشاوية التي ينطبق عليها وصف اسقف آسفي[17] لا على دكالة. ومن السهل فهم اسباب تسرب الحيوانات إلى الشاوية للاستقرار بها في هذه الفترة لان احتلال أزمور، ورفض قبائلها الرضوخ لمشيئة البرتغاليين، ارغمها على الانسحاب بعيدا عن الضفة اليمنى لام الربيع، مما سمح للوحوش بالتكاثر هناك. . . .

وبامكاننا اعتمادا على العدد التقريبي للسكان الذي اقترحناه، ان نصل كذلك الى تقدير اقل ما يجب على المنطقة انتاجه لضمان عيش سكانها ولأداء الضرائب المفروضة عليها من طرف الاستعمار البرتغالي. فإذا أخذنا بمعدل الاستهلاك السنوي من الحبوب الذي اقترحه (بروديل F. Braudel) ، اى قنطارين لكل فرد[18] ، وعدد السكان: 660 000 تقريبا، كان الحاصل 1320 000 قنطار من الحبوب. وحسب كويش كان على المنطقة أن تؤدي حوالي 7000 حمل جمل، نصفها شعيرا والآخر قمحا[19] . وبما أن الحمل حسب نفس الاخباري كان يساوي بالنسبة للقمح 40 «الكير» والشعير كان يساوي 80 فإن الحاصل 3500 × 40 = 140000 «الكير» أي 1960000 ليتر = 19600 هكتولتر 3500 × 80 = 280 000 «الكير» أو 3920 000 ليتر = 39200 هكتولتر.

ويرى ريكار R. Ricard ان الهكتوليتر بالنسبة للقمح يزن بآسفي ومراكش 80 كلغ و٥٤ كلغ بالنسبة للشعير.[20] وبهذا سيكون الحاصل بالنسبة للقمح: 15680 قنطار و 736 22 ق. بالنسبة للشعير مما يعطي: 416 38 ق برتغالي أي حوالي 20000 قنطار حالي. وجاء في سجل الضرائب البرتغالي انه كان على دكالة دفع 16000 حمل كما سنرى. واذا اضيف اليها الاستهلاك، يصبح على المنطقة ان تنتج حوالي 1.340.000 ق.[21] . وإذا كنا لا نجزم شيئا بخصوص هذه الأرقام التي يقصد منها اعطاء فكرة فقط فإننا نود ان نؤكد من خلالها على اهمية انتاج الحبوب بالمنطقة. ورغم ان الكميات المستهلكة كثيرة، فان المنطقة كانت تحصل سنويا على انتاج يضمن فائضا كما يتجلى ذلك من خلال الأمراس الكبيرة الموجودة

بجل مدنها وقراها كتيط، مائة بئر، سرنو، آسفي، أكوز، المدينة الغربية، أزمور. . . الخ؛ (22) وفي تصدير القمح الى كل من حاحة والحوز، وكذلك الى الخارج، وخصوصا للبرتغاليين الذين اصبحوا يولونها أهمية قصوى، نظرا لتوفرها باستمرار على هذه المادة الحيوية. ولقد رأى عدد من المؤرخين ان وفرة الحبوب بدكالة أثرت كثيرا على موقف البرتغاليين من المنطقة وجعلتهم يولونها أهمية كبرى ويعملون على التحكم فيها. (23) وعلى كل حال، فما يهمنا من هذا كله، هو ان المنطقة كانت قبيل احتلالها ذات انتاج مهم من الحبوب. فهل حافظت عليه بعد تعرضها للغزو البرتغالي؟ هذا ما سيجيب عنه البحث في فصل لاحق.

(ب) ولا يوجد بدكالة، كما ذكرنا، تمييز واضح ما بين المزارعين ومربي المواشي. وكان هذا التداخل بين النشاطين قديما وعرفته المنطقة قبل دخول القبائل العربية. ولا شك في أن اقبال الأوربيين على شراء الحيوانات ومنتجاتها أعطى لهذا النشاط أهمية اقتصادية كبيرة. ويتجلى من خلال النصوص وكأن تربية المواشي أصبحت نشاطا مسيطرا بدكالة، يطغى على الزراعة التي تبدو كنشاط تكميلي. وتتجلى هذه الحقيقة فيما كتبه ابن الخطيب، وابن قنفد والوزان(24) ومن أخذوا عنه؛ وفي اعداد الغنائم التي يحصل عليها البرتغاليون اثر كل غارة ناجحة. (25) ولعل هذه الوضعية ناتجة عن تداخل عاملين أولهما ان جل سكان المنطقة مربو ماشية أصلا، كما أن تحول الأعراب نحو ذلك الاستقرار الذي شاهد ابن الخطيب بدايته، حالت دونه القلاقل التي عرفتها المنطقة خلال القرن الخامس عشر. ولهذا تكيف السكان المفتقرون للحصون مع الظروف السياسية المضطربة بالوسائل السريعة الحركة: الخيام والمواشي الأقل عرضة للغارات من الدور والمزروعات. ورغم ذلك، لم يتخل السكان عن الزراعة. ولقد كان اعتناء الدكاليين كبيرا بالأبقار، والأغنام والجمال، والخيول التي كانت كثيرة؛ وكان أشهرها خيول المدينة الغربية. وكانت هذه الحيوانات كثيرة كما يتجلى ذلك من اشارة للوزان. (26)

الصناعات

لقد سبقت الاشارة إلى قلة النشاط الصناعي بداخل المنطقة كاختصاص يكون

مورد فئة معينة من السكان إذ لم يكن مزدهرا إلا بجبال بني ماكر التي كانت بكل تأكيد أكثر المناطق الداخلية اندماجا في الاقتصاد المالي كما يتجلى ذلك في نوعية الاستغلال الزراعي ، وفي كيفية استثمار السكان لمدخراتهم النقدية ــ (شراء الدور بآسفي) . وبهذا كانت الأنشطة الصناعية متمركزة في المدن الثلاث الكبرى . وقد تعود قلة الصناعات ــ كنشاط مستقل ــ بداخل المنطقة إلى ثلاثة عوامل :

- تراجع القرى و «المدن» الداخلية بعد القرن13 ؛
- خصوبة دكالة ، ووفرة أراضيها ، وأهمية مردودها ، مما حال دون وجود ضغط ديموغرافي يحتم توزيع العمل واللجوء إلى أنشطة غير زراعية ؛
- ان هذه الأنشطة ترتبط بوجود أسواق قارة ودائمة ، لا تتوفر الا بالمدن خصوصا تلك التي أصبحت محج التجار الأوربيين .

ولهذا غلب على صناعات دكالة طابع التصدير للخارج . وهذا لا يعني ان دكالة كانت تفتقر للحرف بالداخل ، وانها عرفت توزيعا مبكرا للعمل ما بين البوادي والحواضر . فككل المناطق المعتمدة على اقتصاد شبه مغلق ، كانت البوادي تعمل على الحصول على اكتفاء ذاتي على الأقل في ميدان الأواني والثياب والأفرشة . ولا شك في انها عملت بدورها على الاستفادة من تزايد الطلب على بعض الانتاجات بآسفي وأزمور .

ولا تخبرنا النصوص عن مراحل وظروف الانتاج ، وعن وسائله ، ولا ندري علاقة البوادي بالحواضر في هذا الباب ، وعما إذا كانت الثانية تشغل الاولى ، وان كان من المحتمل أنه حدث فعلا في ميدان الأنسجة الصوفية . وكان على رأس الصناعات الدكالية الأنسجة الصوفية التي كانت عدة أنواع :

الحائك أو «الكسوة» : هو عبارة عن ملحفة من الصوف يستعملها الرجال والنساء على السواء ، ويقوم مقام الثوب ، ولم يكن يلبس غيره ،ولم يكن يختلف عن الازار إلا في النوع ، اذ كان هذا الأخير من الحرير ، وكان علامة على الغنى . وكانت العامة تستعمل الحائك كلباس نهارا وفراش ليلا . (27) وكان أجودها حياك المدينة

الغربية المزركشة، وحياك آسفي التي كانت مختلفة الأنواع، ومنها ما كان ملونا [28]

الجلباب: يطرح هذا النوع مشكلا، اذ يبدو من الوصف الذي وصفه به بعض الأجانب، والذي اعتمد عليه (دوزى) في معجمه، مخالفا للجلباب العادي. فلقد كتب (وندسن) «. . . ان المغاربة الأكثر إدقاعاً يرتدون لباسا يدعى «جلبابية»، وهو مصنوع من قماش صوفي غليظ. وهذا الثوب لا أكمام له ولكنه مزود بثقوب لإمرار الذراع فيه؛ وهو يتدلى حتى يبلغ الركبتين.» [29] ويظهر أن الوصف ينطبق على ما يعرف «بالوندية» والتي ترد في الوثائق البرتغالية تحت إسم «بدن». أما الجلباب فأطول وذو أكمام وغطاء للرأس [30]. والغريب أن البرتغاليين كانوا قليلي الإقبال على البرنوس. ولم تشر بعض الايصالات إلا الى أعداد قليلة.

الحنابل أو «العبائن»: (مفرد حنبل وعباءة): كانت تستعمل كفراش، واحيانا كان الطرف الثاني منها يستعمل كغطاء. ولهذا كانت سميكة وثقيلة وشبيهة بالبساط الصوفي (الزربية). وكانت مختلفة الألوان، وكان انتاجها موجها الى حين وصول البرتغاليين الى موانيء دكالة، للاستهلاك المحلي. وبما أن صناعتها كانت منزلية ومن اختصاص النساء، فان ما كان يروج في الأسواق كان قليلا، خصوصا وان كل المناطق المغربية كانت تنتج هذه الأنسجة وتعتمد عليها، ولم تكن حكرا على دكالة. وذكر ابن الخطيب ان هذا الانتاج كان من اسباب شهرة آسفي. [31] ولكن وصول البرتغاليين جعل الطلب عليها يرتفع ارتفاعا كبيرا.

ولا نعلم مع الأسف شيئا عن باقي حرف آسفي وأزمور. ولعل الأنشطة المرتبطة بالجلود، واصلاح القوارب ـ وصنعها؟ـ والصيد كانت تشغل أكثر صناع المدينتين. ووصلتنا اشارتان متعلقتان بوجود صناعات خزفية، واحدة تعود إلى عهد أبي محمد صالح (القرن 13) والاخرى الى الغزو البرتغالي. [32] كما أثبتت وثيقة برتغالية وجود صناعة للأساور والأقراط بنفس المدينة [33]

التجارة: اعطى هذا النشاط للفلاحة والصناعات المحلية ديناميكية لا عهد لها بها، إذ ضمنت لها سوقا مهمة. ويغلب على هذا النشاط في القرن الخامس عشر طابعان

أ) احتفاظه بالتيارات القديمة، والتي كانت الاندلس أهمها، وبنفس السلع التي كانت الحبوب المغربية على رأسها.

ب) ويتجسد الطابع الثاني في شلل الدكاليين الذين لم يعد بإمكانهم السفر الى المناطق المستهلكة، وخصوصا الى الاندلس التي كانوا كثيري الاقبال عليها.

وتعود أقدم اشارة وصلتنا عن التبادل ما بين العدوة ودكالة الى القرن الهجري السادس(12 م). وكان التجار من المنطقتين[34] . وكان الدكاليون يحملون سلعهم الى مالقا[35] او الى غيرها من مدن الاندلس او البرتغال. وكانت آخر اشارة وصلتنا عن تنقلهم الى العدوة تعود الى عهد السلطان المريني أبي الحسن[36] . ونتج عن وصول التجار الجنويين والكطلبين والفرنسيين (مرسيليا) الى موانيء المغرب الشمالية خلال القرن الثالث عشر، نزول عدد منهم على طول الشواطيء الاطلسية، ليصل الى كل من آسفي وأزمور[37] ، مما مكن التجار الدكاليين من الاكتفاء بعرض السلع المحلية. ولعل تزايد عدد اولئك التجار الاوربيين بموانيء دكالة كان مما سبب توقف الدكاليين عن ركوب البحر، ذلك الركوب الذي كانت العوامل الطبيعية، وخصوصا افتقار المنطقة للاخشاب، معاكسة له. ولكن اعداد تجار ايطاليا و(كطلونا) سرعان ما تراجعت أمام عدد تجار الاندلس المسيحيين وتجار البرتغال الذين عبروا عن ديناميكية مبكرة[38] . وبهذا عرفت آسفي وأزمور رواجا تجاريا لاعهد لهما به، سبب ظهور تلك الطبقة التجارية الديناميكية التي عاينها ابن الخطيب[39] . وكانت السلع التي يقبل عليها التجار الاوربيون مختلفة. فلقد كان القمح اهم سلعة دكالية تصدر الى الاندلس بمعناها الواسع. وكان اعتمادها عليه كبيرا الى حد ان ذلك أوجد مثلا عاميا اندلسيا[40] . وكانت الاندلس ـ وكذلك البرتغال ـ تصدر مقابله الفواكه المجففة التي كانت دكالة مفتقرة اليها ـ لقلة الجنات والماء ـ وعلى رأسها التين[41] . وكان اقبال الايبيريين مهما كذلك على الشابل[42] والجلود، والشمع، والصوف، والتبر الذي اصبح يصل آسفي على الاقل منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وكان الدكاليون يتوصلون مقابل هذه السلع بأخرى اهمها الفواكه المجففة والانسجة القطنية والكتان المختلف الالوان المصنوع بانكلترا وفرنسا وفلندرا والخشب والحلي

والزجاج وبعض الاسلحة المهربة(43) . وتقلص عدد الايطاليين والكطليين والفرنسيين كثيرا في القرن الخامس عشر إن لم يتوقفوا عن المجيء الى الميناءين الدكاليين. واحتدم التنافس ما بين الاسبان والبرتغاليين الذين بقوا وجها لوجه.

فلقد احتفظ القمح بأهميته، وكان من أهم الاسباب التي دفعت بالبرتغاليين الى الالتجاء الى موانيء المنطقة، كبراها وصغراها (تيط، مازيغن. . .). ولكن هذه المادة سرعان ما طغت عليها مواد أخرى أعطت لدكالة مكانة مهمة لدى البرتغاليين، وأدمجتها في التيارات التجارية الجديدة. وازداد الطلب على السلع التقليدية بتزايد عدد التجار كما يدل على ذلك جلب سلع من مناطق خارجة عن دكالة لتغطية الطلب المهم (شمع وجلود حاحة، نسيج الحوز الصوفي كما سنرى). وأصبح الشابل «صناعة» تعيش عليها أزمور؛ وأصبحت مبيعاته وواجبات الصيد التي يدفعها الاجانب تكون أهم مورد تعيش عليه المدينة. فلقد كانت الضريبة على الصيد وحدها تضمن دخلا يصل الى6000 أو7000 «دوقة»(44) .

ورغم تزايد الطلب على هذه السلع، فان مكانة دكالة لدى البرتغاليين ما كانت لتصل الى ما وصلت اليه من أهمية لولا الظرفية الاقتصادية التي خلقها القرن الخامس عشر، والتي كانت دكالة أكثر المناطق المغربية استفادة منها: لقد نتج عن احتلال الموانيء الشمالية أفول نجم سبتة التي كانت نافذة المغرب على الابيض المتوسط ومحج تجار أوروبا، في حين لم تعد أصيلا عاصمة التوابل والعقاقير كما كانت عليه من قبل(45) . ونتج عن هذه الوضعية تحول الطرق التجارية الداخلية نحو الموانيء التي لم تسقط بعد في يد البرتغاليين، ومنها موانيء دكالة، واقبال الاوربيين عليها. وبهذا أصبحت دكالة من منافذ منتجات الجنوب: التبر، النيلة، الجلود، الشمع. . . ونتج عن اقبال التجار الاجانب فتح آفاق جديدة للمنتجات المحلية. وتلا تخريب أنفا التي كانت أكبر ميناء مصدر للحبوب والصوف بالجنوب(46) ، تحول التصدير نحو أزمور القريبة منها. وزيادة على هذه العوامل المرتبطة بالغزو، استفادت دكالة كثيرا من تحول الطرق التجارية البحرية نحو المحيط، واستفادت على الخصوص من بداية تبادل البرتغاليين مع سكان سواحل افريقيا شمال خط الاستواء،

التي أصبحت مصدرة للعبيد والتبر، والتوابل. . .

لقد تم وصول البرتغاليين الى جزيرة (أرغين) المقابلة للرأس الابيض، بالساحل الموريطاني، سنة1443 . وتم تنظيم التجارة به سنة1455 (47) . وتعود أول اشارة وصلتنا عن بداية تردد التجار البرتغاليين على آسفي الى سنة1450 . وفي سنة1456 أرسل الملك ألفونس الخامس سفينة الى آسفي كانت مهمتها التجسس على أوضاع المدينة(48) . فهل كان بين هذا وذاك علاقة؟

تعوّد «الموريطانيون» و «السودانيون» على تسليم التبر والعبيد مقابل مجموعة من المواد كان التجار المغاربة يزودونهم بها منذ قرون، وكان أهم هذه السلع الانسجة الصوفية، والقمح، والخيول، وأدوات نحاسية، زيادة على الملح(49) . ولم يعمل البرتغاليون ـ أو لم يستطيعوا ـ اقناع المتعاملين معهم بأخذ سلع اخرى تنتج بالبرتغال. وهكذا شرعوا في جلب الحياك والحنابل و«الجلابيب» من تونس، وبجاية، وتلمسان، ووهران(50) . وتنبهوا بعد ذلك الى أن دكالة، الواقعة على طريقهم، والتي عرضوا بها قسما من تلك الانسجة،(51) تتوفر على هذه المواد وبامكانها، نظرا لكثرة مواشيها، تغطية كل حاجياتهم منها؛ هذا زيادة على توفرها على القمح والخيول التي يطلبها «الموريطانيون». وهكذا اصبحت السفن المتجهة نحو (أرغين) تتوقف بآسفي للتزود بتلك الانسجة الصوفية وبالحبوب والخيول. . . والاساور والاقراط النحاسية، وذلك على الاقل منذ سنة1455 .

وحاول الامير «هنري الملاح» ربط علاقات تجارية مع المدن المغربية الموجودة جنوب كونتي، ومع آسفي على الخصوص سنة1448 ، أي بعد اكتشاف جزيرة أرغين، وقبيل تنظيم التجارة بها، مما يؤكد هذه العلاقة ما بين دكالة وتجارة «غينيا» وعمل البرتغاليون على ابعاد المنافسة التجارية والسياسية الاسبانية، وذلك باحتكار ما يوجد جنوب رأس كونتي. وبذلك تم الربط ما بين دكالة وأرغين في كتلة واحدة(52) .

وازدادت مكانة آسفي وأزمور بعد اكتشاف (أشين Axim) و(لامينا) (1471) ، وبداية التعامل مع المناطق المجاورة لهما. واصبح الملك البرتغالي يعمل على تغطية

شراء المواد الدكالية ببيع سلع يرسلها الى آسفي وأزمور، مما زاد المبناءين رواجا، ورفع من عدد السفن الراسية بها. وبهذا اصبح البرتغاليون اكثر التجار الوافدين على موانيء دكالة، واصبحت المنطقة في نظر البرتغال اساسية ليس فقط لكونها منتجة ومصدرة لعدد من السلع التي كانوا يعملون على اقتنائها، وعلى رأسها القمح، ولكن لكونها اصبحت تلعب دورا اساسيا في مبادلاتهم التجارية مع سكان سواحل افريقيا. والسؤ ال الذي يطرح نفسه هو التالي: ما هي نتائج هذه الاهمية التي سببها النصف الثاني من القرن الخامس عشر على العلاقة ما بين البرتغال ودكالة؟ هذا ما سيجيب عليه فصل لاحق.

* * *

لقد كانت دكالة اغنى واكثر حيوية مما توحيه قراءة مؤ لف الوزان. ولكنها كانت قليلة الاعتماد على الانتاجات ذات المردود الكثيف (البساتين، تحويل بعض الانتاجات المحلية...)، وقليلة الاتصال بالمناطق المغربية الاخرى. ولعل هذه الوضعية كانت وليدة وفرة حبوبها واسماكها وتوفرها على موانيء مما ربطها بالخارج، الاندلس اولا، ثم مع موانيء الحوض الغربي للابيض المتوسط. وكانت دكالة اكثر المناطق المغربية استفادة من الظرفية الاقتصادية التي تولدت عن غزو شمال المغرب وعن اكتشاف سواحل عرب افريقيا فما هي نتائج هذه الاوضاع الاقتصادية الجديدة على المجتمع الدكالي؟ وهل استفاد منها المجتمع كله أم فئات معينة؟ وأين تجلت تلك الاستفادة؟ وما هي خطورة ارتباط غنى المنطقة بالخارج؟

الهوامش والتعاليق

(1) Dufourcq: L'Espangne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siécles. Paris U. F. 1966. p 136.

(2) V. M.Godinho: L'Economie de L'Empire Portugais... Paris; 1958 p 177

(3) Léon.. op cité I p 130

(4) Ibid, Ibidem

Ibid I pp 75, 76

(5) مثلا: Ibid I pp 75, 76

(6) V. M. Godinho: L'Economie op cité p 178

(7) P. Lima: História... op cité p 43. Goulven: Safi... op cité p 94

(8) S. I. H. M. Port I p 74

(9) ابن عبد العظيم الازموري. بهجة الناظرين. . . مصدر سابق ص 219 ابن قنفد أنس الفقير. . مصدر سابق ص 71 ابن الزيات. . التشوف. . مصدر سابق ص ص 166, 304, 423 . وكانت وجة أزمور تعتمد على نواعير سبقت الاشارة اليها.

(10) Léon.. op cité I p 117 – De Marmol... op cité II p 78 Góis, op cité p 28

(11) ابن الخطيب. . نفاضة الجراب. . . مصدر سابق ص ص 69, 73

(12) ابن قنفد. . . أنس الفقير. مصدر سابق ص 71

(13) Léon... op cité I p 141

(14) P. Cenival – Monod: Description, op cité p 29 etc – R. Ricard La cotê atlantique, art. cité p 244. L. Massignon: Le Maroc... op cité p 25

(15) وهذا مخالف للوضعية التي كانت عليها المنطقة في بداية القرن الحالي. راجع:
J. GOULVEN: Le cercle des Doukkala du point de vue économique p 44
ويعود هذا الاعتقاد الى كون الاوربيين كانوا كثيري الاقبال على القمح.

(16) أنظر الايصال الثالث المتعلق بآسفي المنشور بالملاحق.

(17) Braudel: La Mediterranée.. op cité I p 55 – de Marmol op cité I p 53
S. I. H. M. Port II p 250.. etc. . .

(17م) S. I. H. M. Port II p 418, 250

(18) Ibid I p 384

(19) GÕIS... op cité p 75

(20) R. RICARD: Communication In Hesp XXXI, 1944 p 66

(21) بلغ الانتاج خلال موسم (1973 – 74) 9.600 000 قنطار حسب احصائيات وزارة الفلاحة.

(22) عن مطامير آسفي وادخار الاعراب حبوبهم بها: S. I. H. M. Port I p 244
وعن مائة بئر Léon... op cité I p 122
وعن تيط: S. I. H. M. Port I p 553
وعن المدينة الغربية: GÕIS... Op cité p 75
وعن أكوز: S. I. H. M. Port I p 672

(23) V. M. Godinho: Les Grandes Découvertes. art cité p 32 etsq

V. M. Godinho: L'Economie... op cité p 832

R. Ricard: Publications portugaises sur L'Histoire du Maroc. Hesp. 1927 p 49

D. P Lima. História... op cité p 107

(24) ابن قنفد... أنس الفقير... مصدر سابق ص 71 ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 73. وكتب الوزان عن أعداد مواشي أعراب السهول الممتدة ما بين الاطلس والابيض المتوسط. «... ويملكون أعدادا هائلة من الاغنام والابقار...» وبهذا فسر عدم ارتباطهم بالارض لكثرة المراعي الضرورية لمواشيهم. (Léon... op cité I p 10)

(25) GÕIS op cité p 72 حصل البرتغاليون بعد غارة على ضواحي (كونتي) على 5000 من الغنم والماعز، 1000 من الابقار، 300 من الجمال.

(26) ذكر أن نسبة مهمة من الخيول التي جمعها السلطان وقت تخييمه حول بحيرة (ورار) كانت ملكا للدكاليين الذين هبوا لمساعدته Léon. op cité I p 129

(27) Ibid I p 72

DOZY: Dictionnaire detaillé des noms des Vêtements chez les Arabes Beyrouth. p 147, 38 et sq.

E. Doutté Marrakech, op cité P 249

وتوجد ترجمة لمعجم (دوزي) بمجلة اللسان العربي، مجلد9 جزء 2 يناير 1972 ص 35 (الحائك) وعن الازار م 2 ج 3 ص 37

(28) انظر الايصال الاول والثالث المتعلقين بآسفي (الملاحق)

(29) Dozy: op cité p 122 واللسان العربي م 9 ج 2 ص 22

(30) P. Cenival – Monod: Description op cité p 331

(31) ابن الخطيب... معيار الاختيار... مصدر سابق ص 76

(32) ' أحمد بن ابراهيم الماكري: المنهاج الواضح. . . مصدر سابق ص 348 ـ الوثيقة المتعلقة بقنص الرجال المنشورة بالملحق.

(33) الايصال السابع (آسفي)

(34) ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق ص 169 .

(35) نفسه ونفس الصحيفة.

(36) ضاع المصحف العثماني في عهد ابي الحسن المريني بعد معركة طريف. واعاده الى المغرب بعض التجار الازموريين بعد أن أصبح بحوزة البرتغاليين.
الاستقصا. . ج 2 ص 129

(37) V. M. Godinho: L'Eonomie... op cité p 19 – Dufourcq L'Espagne Catalane... op cité p 150 – J. Bouquerelle: Le port de Safi. Rev. de la chambre de commerce No 35 jan 1969 pp 193 – 94.

(38) J. Heers: Gênes au XV.S Flammarion 1961, pp 341 – 42

(39) ابن الخطيب. . . معيار الاختيار. . . مصدر سابق ص 76

(40) محمد بنشريفة امثال العوام بالاندلس. فضالة ج 1 ص 287 « . . . لول دكالة ما خدمت البال» ونعتقد انه يشير الى كثرة اعتماد الاندلس على الحبوب المستوردة من دكالة.
ابن الزيات. . . التشوف. . . مصدر سابق ص 169

(42) كان التجار القشتاليون يفدون على أزمور لهذا الغرض. وكانت الاسماك تحمل على البهائم: V. M. Godinho: L'économie... op cité p 422

(43) CH. E. Dufourcq – L'Espagne... op cité 548

(44) Léon... op cité I p 126

(45) V – M. Godinho: L'économie... op cité p 539

(46) R. Ricard: Le Commerce... art. cité p 10

(47) Ibid p 14

(48) Ibid, Ibidem

(49) Léon... op cité II pp 470 – 472

(50) R. Ricard. Le commerce... art cité p p 1 – 5

(51) الايصال الثالث المتعلق بآسفي (الملاحق)

(52) R. Ricard: Le commerce... art cité p 17

الفصل الرابع

المجتمع الدكالي وتطوّره إلى حدود القرن 16 م

لا تسمح النصوص بتتبع خصائص المجتمع الدكالي أو باعطاء فكرة متكاملة عن تقسيماته وعن علاقات فئاته وعن مواردها وظروف عيشها. ورغم هذه القلة في المعلومات يمكن تسليط الاضواء على بعض خصائصه ومعرفة امكانات الصمود والمقاومة ـ او العكس ـ التي وفرها المجتمع الدكالي للتصدي لكل غزو مسيحي. سبقت الاشارة أثناء الحديث عن تعمير المنطقة الى ظهور نمطي عيش داخلها اثر استقرار العناصر العربية بها، فالعنصر العربي ومن ينتسب اليه كان يعتمد على الخيام، وبالتالي على عدم الاستقرار، في حين استمر العنصر البربري في أغلبه يعتمد على الدور والتجمع داخل القرى ؛ واحتفظ بأنشطته الزراعية. ومن جهة أخرى كان المجتمع الدكالي منقسما الى قسمين: قسم حضري قليل العدد، وقسم قروي يكون الاغلبية الساحقة، فما هي مستويات المعيشة داخلهما؟

نعني بالمجتمع الحضري ذلك القسم الذي كانت غالبية سكانه تعتمد على أنشطة غير زراعية، من حرف وتجارة وتعليم وغير ذلك.

ورغم أنه لا يمكن الجزم بأن المدن أصبحت ذات طابع حضري محض، وبأنها قطعت كل الروابط مع البوادي فيما يتعلق بالانشطة والعقليات، فان الفرق بينهما كان مع ذلك واضحا.

1 ـ تحسن مستوى عيش الدكاليين من حضريين وقرويين.

عرفت المدينتان التجاريتان الساحليتان، أزمور وآسفي، رواجا كبيرا مع القرنين 14 و15 م أعطاهما حيوية لا عهد لهما بها، خصوصا آسفي التي كانت شبه خاملة الى حدود القرن14 . ولا شك أن هذا الرواج أثر على التشكيل الاجتماعي داخل المدينتين ومكنهما من السيطرة الاقتصادية على البوادي كما مكنهما أيضا من تحسين مستوى معيشة السكان، وخصوصا التجار والحرفيين. ويتجلى هذا التحسن فيما كتبه ابن الخطيب بشأن أزمور «. . . بلد يخزن الاقوات ويملأ اللهوات، باطنه الخير، وإدامه اللحم والطير، وساكنه رفيه ولباسه يتحد فيه، ومسكنه نبيه . . .»(1)

وعبر عن نفس الشيء بالنسبة لآسفي ولكن في عبارات أقل صراحة مما خص به أزمور نظرا لتفوق هذه الاخيرة تجاريا الى حدود القرن15 م.(2) اصبحت المدن اذن وافرة المأكل رفيعة الملبس وحسنة المسكن، وزاد هذا التحسن مع تزايد اقبال التجار البرتغاليين والاسبان. ومما يؤكد علاقة هذا التحسن بوصول الاوربيين، وبالتالي ارتباطه بالخارج أكثر من ارتباطه بالاوضاع الداخلية المضطربة والمتأزمة،(3) أن هذا التحسن لم يشمل سكان المدينة الغربية الموجودة بالداخل بنفس المستوى الذي كان عليه بالموانيء. لذا نجد الحسن الوزان يهاجم سكانها وينعتهم بالجهل ويشير الى خشونة ازيائهم وحليهم التقليدية(4)، الشيء الذي لم يذكره بالنسبة لقرية شبه مخربة، (تيط)، عرفت رواجا مهما بعد وصول البرتغاليين الى مينائها الصغير. فبعد أن هاجم سكان تيط كعادته مع سكان مدن دكالة لعدم اعتنائهم بزراعة البساتين والجنات كتب: «. . . والحقيقة أنهم يرتدون البسة فاخرة نتيجة تجارتهم وتعاملهم مع البرتغاليين . . .»(5) .

ويتجسد التحسن أيضا في اقتداء السكان بألبسة وعادات البرتغاليين وطريقة بنائهم الدور وفي شراء كميات مهمة من الانسجة الرفيعة الاوربية كما يتجلى ذلك في الايصالات، كما يتجسد في وفرة اللحوم والسمك والحبوب والخضر التي اصبحت القرى المجاورة تزود بها المدن يوميا(6) .

حقيقة أن هذا التحسن لم يشمل كل الفئات، بل على العكس من ذلك، زاد على ما يبدو التباين الطبقي حدة، اذ استفاد منه أساسا كبار التجار والوسطاء والحرفيون. فبالرغم مما ورد عن تقليد السكان في أزمور للبرتغاليين في طريقة البناء، وجد هؤلاء حين احتلالهم المدينة جل منازلها في حالة سيئة ووسخة، (7) مما يؤكد أن المقلدين كانوا قلائل. ولكن هذا لا ينفي استفادة جل سكان المدينتين - ولو بمستويات كثيرة الاختلاف - من الظروف الاقتصادية الحسنة. ولقد تجلى هذا التحسن أيضا في التحول الذي طرأ على عقلية المستفيدين واخلاقهم، والذي يمكن تلخيصه في نقطتين:

1 - الانغماس في الملذات والاستفادة من الوفرة التي خلقها الغنى، فتحسنت التغذية واللباس والسكن. وأكثر من هذا، تجرأ السكان على الاقتداء بالاجانب كما لاحظنا. وعلى العكس من هذا، احتفظت المناطق غير التجارية بمستوى عيشها المنخفض جدا.

2 - أما النقطة الثانية فهي نتيجة للاولى، وتتجلى في الابتعاد عن القيم الأخلاقية والدينية المعهودة والانكباب على الرذائل، وفي تفشي التفاخر والشح. ولقد ذكر الوزان بشأن سكان أزمور افعالا لا يقبلها العقل من أناس مسلمين. (8) ويؤكد هذا أيضا التمييز الذي جعله ابن الخطيب في هذا الباب بين سكان أزمور وآسفي، اذ جعل سكان الاولى أكثر ميلا نحو الرذائل وذلك لاستفادتها أكثر من الرواج التجاري.

فقال عن سكان أزمور «. . . قليل احسانهم، يكثر بينهم بالعرض الافتخار (9) . . .» ولاحظ تمسك سكان آسفي بدينهم وقيمهم. فبعد أن ذكر أنهم: «. . . أولوا خيرة وجنوح نحو الصلاح. . .» أضاف «. . . لطف خفي وجناب حفي ووعد وفي، دين ظاهره مالكي، وباطنه حنفي. . . الزهد والمال، قليلة الاحزان. . . وافية المكيال والميزان. . .» (10)

ويتجلى من قراءة مؤلف الوزان أن هذا التحسن شمل حتى المدن التجارية الاخرى وان كانت داخلية كمدن حاحة (تادنيست، تاقوليعت) او مدن السوس او

هسكورة. ويمكن لمس ذلك بسهولة من مقارنة أوضاعها بأوضاع المناطق الاخرى غير التجارية[11]. هذا عن الاوساط الحضرية، فكيف كانت أحوال الاوساط القروية؟ لقد أشرنا، ولمرات، الى ما لاحظه كل من ابن الخطيب وابن قنفد من غنى قرويي دكالة المتجسم في كثرة مواشيهم وانتشار زراعتهم.

حقيقة أنهما مرا بدكالة قبل مجاعة 776 هـ (1374 - 1375) ووباء 840 هـ (1442 - 1443 م). وبعد وباء سنة 750 هـ (1349 - 1350) بقرابة عقدين، ولهذا لا نلمس اثر هذه المجاعات والأوبئة في كتابيهما.

ولكننا نجد مع ذلك الوزان ومارمول، وكل المصادر الاجنبية المتعلقة بالمنطقة، تؤكد في نهاية القرن15 م وبداية القرن16 م على غنى دكالة مما يؤكد مرة أخرى أنها لم تتأثر كثيرا كباقي المناطق المغربية، وأن غناها ووفرة مدخراتها مكناها من محو نتائج هذه الفترات الصعبة بسرعة.

ومع ذلك، فان هذه الوفرة التي أكدت عليها كل المصادر لا تعني أن ظروف عيش القرويين كانت حسنة لأن الخيام والترحال لا يسمحان بذلك، وكانت القرى الاكثر ارتباطا بالارض تعرف ظروفا أحسن. ففي جبال بني ماكر، أشار ابن الخطيب الى كثرة الجنات والبساتين، الشيء الذي ذكره أيضا الوزان وأشار بالاضافة الى ذلك الى ثروة الحرفيين الذين أصبحوا يستثمرون أموالهم في شراء الدور بآسفي. ورغم ما تعرفه ظروف عيش القرويين من تأخر بالمقارنة مع الوسط الحضري، فان ذلك لا ينفي وجود تحسن نتج عن التقاء عاملين:

1 - استقلال المنطقة السياسي وتحررها من كل التكاليف التي كانت حسب ملاحظة الوزان تثقل كاهل الفلاح «... الى حد أنه لا يوجد بكل افريقيا الا عدد قليل من المزارعين الذين يستطيعون فقط ادخار ما يتطلبه ملبسهم ومعاشهم...»[12].

2 - استفادة المناطق الداخلية من الرواج التجاري الذي اصبحت تعيش عليه الموانيء اذ أصبحت تزودها بالمواد الموجهة للتصدير أو المستهلكة يوميا كالخضر واللحوم والحطب والحبوب الخ... وتتجلى هذه الاستفادة في العلاقة الجدلية التي

أصبحت توجد ما بين رواج آسفي وكثافة استغلال ضواحيها؛ فلا وجود لواحد منهما دون الآخر كما عبر عن ذلك أعيان المدينة لملك البرتغال في رسالة (1509) : «. . . واذا ما كان عليه آسفي الحرث والخزين ما يسكن واحد من المسلمين فيه لين ما هي عمارة آسفي غير العرب والحرث والخزين. . .» وأكدوا للملك أنه بدون اطمئنان النفوس، فلن تتوفر ظروف هذا الاستغلال وذلك الرواج «. . . ولو تنفع (تنفق) على آسفي مال الدنيا ما تصلحه ولا تحرث العرب عليه ولا تخزن فيه. . .»[13] ولهذا لاحظ الوزان غنى أعراب دكالة الذي يتجلى في كبر خيامهم وجمالها وفي كثرة اعداد مواشيهم واهتمامهم بالزراعة[14] ؛ الشيء الذي أكده أيضا المؤرخ (كويش).

لقد استنتج هذا الاخباري البرتغالي غنى أولئك الاعراب من جودة سلاحهم ودروعهم التي كان بعضها مزينا بالذهب والحرير، وقال ان ذلك كان متوفرا على الخصوص لدى مشنزاية «وعرب أزمور»[15]. وبذلك يكون هذا التحسن الذي طرأ على مستوى معيشة حضريي وقرويي دكالة مرتبطا بوصول التجار الاجانب.

والجدير بالذكر أن باقي المناطق المغربية كانت تعرف ظروفا صعبة (الفتن الداخلية، الغزو البرتغالي). ولا يمكن مع الاسف معرفة نتائج هذا التحسن على التغذية لان الاشارات تكاد تكون منعدمة باستثناء ما ذكره ابن الخطيب من اعتماد سكان أزمور على «اللحم والطير». فاذا كان الوزان قد اهتم كثيرا بتغذية سكان حاحة وأوانيهم وطريقة طبخهم وأكلهم، فانه لم يذكر شيئا عن ذلك بدكالة، ويحتمل كثيرا أن ينطبق وصف حاحة على دكالة وعلى باقي المناطق المغربية مع بعض الفروق البسيطة (القمح عوض الشعير، الزيت عوض أركان مثلا) ذلك أن هذا الوصف ورد أيضا عند الفرنسي (مويت Mouette) في القرن 17 ،[16] ولا زلنا نراه في الاوساط القروية. ومن حسن الحظ وصلتنا اشارات متعلقة بأنواع الاطعمة التي كانت كثيرة الاستعمال قبل دخول القبائل العربية. ولم يحدد ابن الخطيب نوع المأكولات التي قدمت له بآسفي واكتفى بهذه الاشارة الغامضة ولكن الدالة على الغنى «. . . فجلب خوان بهي اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا

تختلف عن طعام ولا شراب. . . »[17]

وكانت جل الوجبات الغذائية تعتمد على «العصيدة» او «الرغيف» او الخبز الذي يضاف اليه الجلبان المطبوخ او السمن والعسل او العنب او البطيخ او السمك او يصنع منه تريد باللحم»[18].

ولم يرد ذكر اعتماد الدكاليين على الكسكس الذي ذكره الوزان بحاحة واشارت بعض الوثائق البرتغالية الى اعتماد المغاربة الكبير عليه[19]، والذي ذكره كذلك احمد بابا السوداني[20]. كل هذا يسمح بالاعتقاد على أنه كان كذلك من الوجبات الدكالية الاساسية. وهكذا يلاحظ أن المغرب لم يعرف ذلك التحول النوعي الذي طرأ على التغذية بأوروبا منذ بداية القرن 13، اذ اصبح اعتمادها على اللحوم كبيرا[20] م). ولقد ورد ذكر لشرب الخمر وبيعه في القرن 12م.[21] وهذا أمر غير مستبعد نظرا لكثرة الكروم بالمنطقة آنذاك.

وفي ميدان الألبسة، كانت الأنسجة الصوفية المحلية الصنع تسيطر سيطرة مطلقة. وتزايد اقبال المنطقة على كتان أوروبا. واذا كان الوزان قد أشار الى انعدام الصابون، بحاحة[22] فاننا لا ندري هل ينطبق ذلك على دكالة. وعلى كل، فان هذه المادة كانت متوفرة حين الاحتلال البرتغالي[23]. ولم تصلنا أية اشارة عن الأمراض التي كانت منتشرة، ولا عن وسائل العلاج، ذلك أن الوزان تعرض لهذه النقطة وهو يتكلم عن كل المناطق المغربية[24]. ولم يكن بدكالة الا مارستان واحد كان موجودا بآسفي[25]. وكانت العامة تلتجىء الى تراب قبور الأولياء طلبا للشفاء[26]، أو الى الأولياء الأحياء للشكاية من الجن الذي كان يحمل مسؤولية المرض[27] وتشير النصوص الى وجود طبيب يهودي بآسفي قبيل احتلالها[28]. وهذا اللجوء الى الأولياء والى القبور طلبا للشفاء يدفعنا الى دراسة العقيدة والعقليات وبالتالي الزوايا بالمنطقة.

2 ـ عقلية الدكالي ومكانة رجال الزوايا لديه.

كانت الزوايا الدكالية من أول ما ظهر بالمغرب، اذ أنشأت زاوية الامغاريين بتيط قبل قيام الدولة المرابطية[28]. ومن بين الطوائف الست التي عدها ابن قنفد،

توجد ثلاثة بدكالة(29) : الشعيبيون الذين ينتسبون الى ابي شعيب أيوب المعروف بالسارية؛ دفين أزمور، (30) والامغاريون الذين استقروا بتيط وكان رئيس طائفتهم ابو عبد الله أمغار، معاصر أبي شعيب؛ (31) والماكريون بآسفي المنتسبون لطريقة أبي محمد صالح(32) . وكثر عدد الفقراء والاولياء والمريدين بدكالة، ذكر صاحب التشوف بعضهم. وكانوا كثيرين جدا في كل تجمعاتهم التي كانت تنظم اما بساحل المحيط ما بين تيط وآسفي أو برباط شاكر. وتدفعنا هذه الكثرة، وهذا التنظيم المبكر، الى البحث عن الاسباب التي أدت الى ذلك.

لقد أرجع كل المؤرخين تنظيم الزوايا وظهور الرباطات بدكالة الى عامل الجهاد، وجعلوا منها تنظيمات عسكرية ودينية في نفس الوقت.(33) وتوجد عدة قرائن قد توحي بصحة هذا الاعتقاد: فلقد أشار ابن عبد العظيم الازموري الى غارة مسيحية ضد تيط في عهد ابي عبد الله أمغار، وإن لم يحدد جنسية منظميها وتاريخ ذلك الهجوم الخاطف.(34) ويؤكد هذا أيضا تشييد رباطات في تيط وآسفي وشاكر، بمنطقة كانت تابعة، ثم اصبحت مجاورة «لكفار برغواطة» . كما أن وجود ظهائر من بني يفرن، أعداء البرغواطيين، لصالح الامغاريين قد يدفع الى التشبث أكثر بهذا الرأي. . . (35) ولكن الحقيقة تؤكد عدم ارتباط اقامة الرباطات بالجهاد .فالظهائر لاتتعدى كونها ظهائر احترام وتقدير، ولاتشير قط الى الجهاد، او الى وجود تنظيم عسكري بتيط. وينفي ابن عبد العظيم نفسه ضمنيا هذا الاعتقاد. فزيادة على سكوته عن هذا الجهاد المزعوم، نجده يورد رواية تنفي بصفة قاطعة محاربة الامغاريين لبرغواطة، أو تنظيمهم للجهاد ضدهم: فبعد أن اندلعت إحدى حروب برغواطة بتيط وضواحيها، كان أبو جعفر أول الفارين من الفتنة(36) . وما كان ابن عبد العظيم الذي أطال في ذكر كرامات الامغاريين، وسمح لنفسه بكل المبالغات، ما كان لِيَسكُت عن الجهاد لو وجد فعلا.

زد على هذا أن كفر برغواطة مجرد خرافة نسجتها أقلام المؤرخين السنيين وكتاب البلاطات ضد خوارج المغرب الذين كان البرغواطيون منهم(37) . ولم تكن تسمية زاوية ابي محمد صالح «بالرباط» الا تقليدا لرباط تيط، اذ لم يبق أي مبرر للمرابطة في حياة ابي محمد صالح ضد البرغواطيين إن سلمنا بكفرهم ـ لان المنطقة كانت مستقلة

عنهم منذ مدة طويلة. لقد كانت الرباطات اذن مجرد مراكز علمية ودينية كانت الغاية منها نشر تعاليم الدين ومحاربة المذاهب الخوارجية.

واذا كان لظهور التصوف علاقة بسفر بعض المغاربة الى الشرق حيث تتلمذوا على أقطاب الصوفية آنذاك، فان العوامل الداخلية لعبت دورا أساسيا في انتشاره وتنظيمه، كسطحية اسلام البرابرة لجهلهم للغة العربية، وتورط الفقهاء مع السلطة وابتعادهم عن المجتمع، بالاضافة الى نوع الحكم الاستبدادي. لذا كان المتصوفة أكثر ارتباطا بالمجتمع وابتعادا عن الحكام وعن ملذات الحياة. ويدل على ذلك ما زودنا به صاحب «المنهاج الواضح» من معلومات مهمة عن الطريقة التي سنها ابو محمد صالح، والتي تتلخص في «. . . اتخاذه للمرقعة رغبة في الاقتصاد، ونبذا للفقراء لها على وجه النصيحة والارشاد. . . وما تابعها كمثل التسبيح والشاشة والحلاق، ولزوم العصى والركوة عند توجههم في الآفاق. . .»[38] وكان يدعو الى الذكر والعبادة طوال اليوم تقريبا، ويلح على الوصال (أي صيام 40 يوما ليل نهار)[39].

وكان «أيوب السارية» يدخل في شبه غيبوبة اذا ما وقف للصلاة[40]. وطبعا، يتطلب هذا الخمول والامتناع عن كل أنواع الكسب. ولقد صور لنا صاحب المنهاج إمساك ابي محمد صالح عن العمل رغم الفاقة التي أصبح يعيش فيها «. . . قال رحمه الله، مكثنا مدة من اثنتي عشر يوما لم يفتح لنا فيها بشيء، فاشتد حالنا، حتى كان بعض الاولاد يلحس الرحى وبعضهم يلمس الرقعة من شدة الجوع، فناجتني النفس قم يا صالح وتسبب لهذه الاولاد، فان الله تعالى أمرنا بالتسبب. قال فخرجت الى باب الدار فتذكرت قوله تعالى «وفي السماء رزقكم»، فرجعت الى البيت. . .»[41] ولعل هذه الفاقة، وهذا التقاعس عن العمل هما سبب اخذ ابي محمد صالح ثلث مال من «تاب على يديه»[42]. ورغم ابتعاد الطرقية المغربية آنذاك عن التطرف، والتزامها بطرق متصوفة مشارقة أو مغاربة التزموا بالكتاب والسنة كالغزالي، فان الفقهاء حاربوا بشدة ظهور هذه الطوائف بالمغرب: «. . . لما قدمت من بلاد الشرق (يقول ابو محمد صالح) واخذت في استعمال هذا الطريق، انكر علي فقهاء الوقت، وبدعوني، حتى ضاق صدري وعيل صبري. . .»[43].

ولقد عرفت هذه الزوايا ـ باستثناء زاوية ابي شعيب بازمور الذي لم يخلف من يرث طريقته ـ انتشارا كبيرا جدا، اذ وصل نفوذ زاوية ابي محمد صالح الى السوس وورززات، الى حد ان موارد الزاوية كانت كلها من خارج آسفي حسب رواية ابي محمد صالح. (44) وينطبق نفس الشيء على الامغاريين.

ويعود اقبال الناس على «الماجرين» والامغاريين لاسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية سنعود اليها، كما يعود أيضا الى كونها آنذاك من أول الزوايا المنظمة بالمغرب، ولكون أقطابها اخذوا التصوف من منابعه ـ الشرق ـ وعن أشهر أعلامه، ثم لم يكتفوا بذلك، بل تتلمذوا بعد عودتهم على مشاهير المتصوفة المغاربة؛ ولم يقطعوا روابطهم بالشرق؛ بل ربطوا علاقة صداقة مع متصوفة مشارقة بادلوهم الزيارة. (45)

جاء في المنهاج أن أبا محمد صالح تعلم بالمشرق حيث لزم ابن عوف عشرين سنة بالاسكندرية، (الفقه) ثم اخذ التصوف عن ابن عربي وعن الغزالي. ثم تتلمذ بعد عودته على ابي مدين شعيب دفين العباد، وعلى ابي الحسن علي حرزهم وأبي عبد الله أمغار. (46)

.ورغم هذه الشهرة لم تستطع أية واحدة من زوايا دكالة أن تفرض نفسها كطريقة وطنية كما حدث بعد ذلك للشاذلية والجزولية. وعلى العكس من ذلك، عرفت خمولا سريعا لعله كان سبب سكوت كل من ابن الخطيب والوزان عن ذكرها.

فلقد ذكر الاول ما يوضح وجود عدد من الفقراء لا يلتزمون بطريقة ابي محمد صالح، اذ رآهم يذكرون بالمسجد الاعظم لا بالرباط(47) ولم يذكر شيئا عن الامغاريين مع أنه تعرض لذكر قرية تيط. ولعل هذا التراجع يعود الى سببين:

1 ـ خيانة حفدة الماجرين والامغاريين للمبادىء التي أنشىء من أجلها الرباطان، اذ أصبح الشيوخ والمريدون لا يهتمون بالتصوف الا ظاهريا، وطغى عليهم حب الاموال والوجبات الغذائية. ولقد عرض ابن الخطيب حفيد ابي محمد

صالح لنقد لاذع اذ كتب: «. . . ومن ساعة المامنا، انزوى عنا الشيخ ابو العباس. . . بلهوه، واشتغل، زعموا، بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه. . .» (48) وانتقد صاحب المنهاج - كما سنرى - ذلك الانكباب على جمع الاموال وعلى استغلال ثقة العامي في الاولياء. . .

2 - تورطها مع السلطة التي اغرقتها بالاموال والعطاءات والمناصب وأعفتها من كل التكاليف، فكانت النتيجة ارتباطها بالحكام وابتعادها عن العامة. ومعلوم ان المجتمع ما ارتبط بالزوايا الا ليحتمي بها في كل الظروف الحرجة كما سنرى، وانه ارتبط أساسا بالاولياء الذين يشاركونه سراءه وضراءه، لذا نجده أكثر تعلقا بالفقراء والزهاد البعيدين عن مغريات الحياة، والذين لا يترددون في انتقاد الدولة وفي الحيلولة دون تعديها على المجتمع. (49) وهذا هو سبب تكاثر الزهاد الغير المنتمين لاحدى زوايا دكالة الكبرى، والذين عاشوا داخل المجتمع أو ابتعدوا عنه والتجأوا الى المناطق المنعزلة، وخصوصا الى الجبل الاخضر وجبل الحديد برجراجة، والذين ارتفع عددهم في القرن الخامس عشر، وبداية السادس عشر، ارتفاعا كبيرا(50).

ولقد أعطى الجزولي للطرقية بالمغرب نفسا جديدا شمل أيضا دكالة. ومعلوم ان طريقته تنتسب الى الشاذلية التي كانت معروفة بدكالة، بعد أن أدخلها الى المغرب أحد الرجراجيين. فما هو سر نجاح الجزولي السريع. ؟ يرتبط هذا النجاح بالظروف السياسية التي أدت الى احتلال البرتغاليين والاسبان للثغور المغربية. وتعتبر الطريقة التي سنها الجزولي محاولة لتخطي ما كان موجودا آنذاك من هياكل سياسية ودينية، اذ حملها مسؤولية ما يعانيه المغرب من محن، لعجز القادة عن الدفاع عن الثغور، والفقهاء عن تحمل مسؤولياتهم في الدفاع عن الدين واحياء تعاليمه. . . فهذا الاصلاح المزدوج الذي طالب الجزولي به، والذي سخر له مئات الدعاة، كان سبب شهرته أولا بآسفي، ثم بأفغال. فهو ليس فقط «فقيرا» يكتفي بالسبحة والذكر، بل رجلا منظما ومخططا لبرنامج كان ينوي على ما يبدو الوصول به الى السلطة. لذا لم ينفع معه الا السم. (51)

ولكن ما هو اثر هؤلاء المتصوفة والاولياء على المجتمع؟

يبدو الدكالي شديد الايمان والثقة في أولئك الاولياء، أو من يعتبرون كذلك، يخصهم بالتقدير، ويعمل على الحصول على رضاهم ودعائهم بالصدقات، الى حد ان بعض القبائل كانت تلح على الاولياء ليقيموا بين ظهرانها.(52) وهكذا كانت الابقار والسمن والدقيق والفواكه والاموال تعطى بسخاء للزوايا والفقراء.(53) والمجتمع الدكالي في هذا لا يختلف عن باقي مناطق المغرب.

وجعلت هذه الوضعية بعض المستشرقين يعتبرونها استمرارية لظاهرة وثنية لم يستطع الاسلام محوها. فالقبائل ـ كما يرون ـ استبدلت الساحر والمنجم بالولي. ولاحظ (منوطان) انها كانت مجرد عادة وليست عقيدة.(54)

والحقيقة أن هذا التأويل رغم طرافته لا يعتمد الا على شبه بين ظاهرتين مختلفتين كل الاختلاف.

وتعود هذه المكانة التي خص بها المجتمع أولئك الاولياء الى عدة عوامل. جعل الجهل العامي يتقبل أكاذيب وخوارق وهمية روجها المستفيدون من ذلك التقدير والاحترام المربحين. كما أن الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب آنذاك قوت هذه الظاهرة. فقد كان الانسان يشعر دوما بعدم الاطمئنان اذ كان ضحية تسلط الحكام، وخصوصا ممثليهم، او ضحية طغيان العوامل الطبيعية (جفاف ومجاعات) او ضحية الامراض والأوبئة. وهذا العجز عن مواجهة الواقع، دفع الناس الى اللجوء الى الزهاد والأولياء ليحصلوا على ضمانة ولو معنوية تفتح لهم أبواب الرجاء لاعتقاد العامي أن تقدير الاولياء يقرب من الله. ولقد شاءت الظروف أن يحقق هؤلاء الاولياء رجاء الناس، كابعاد السلطة عن المنطقة، وحماية العامة من طغيان الحكام أو نزول المطر بعد اللجوء الى أحد الاولياء للاستسقاء... الخ مما عزز هذه الثقة في رجال الدين. ولهذا نجد هذه العلاقة الجدلية ما بين المجتمع والولي. فمقابل هذه الضمانة يتحمل المجتمع، خصوصا القروي منه عيش الاولياء. فأصبح المجتمع المغربي بذلك منقسما على الشكل الذي كان عليه المجتمع

الاوروبي خلال القرون الوسطى: قسم يحكم وقسم يعبد وآخر يضمن عيشهما. ولقد عرف رجال الزوايا كيف يستغلون لصالحهم هذه الثقة التي أصبح المجتمع يخصهم بها، فأصبحوا لا يتورعون في ابتزاز امواله وفي استغلال ذوي النيات الحسنة. وهذا ما عبر عنه صاحب المنهاج بقوله: «. . . واما ما اعتاده الفقراء في زماننا (مطلع القرن 8 هـ) من أخذ ذلك (الصدقات) كرها من صاحبه، فلا خفاء في تحريمه. . . ولقد عاينت فقراء عصرنا متى تاب الفقير واستغفر عن ذنب اصابه، وليس له الا ما يستر به عورته او ثياب ضرورية لدفع حره او برده، ينتزعون ذلك منه قهرا، وتباع ويمد بها سماطا ويأكلونه، ويبقى الفقير بينهم عريانا، وربما الجأوه الى أن يسأل ولم يكن ذلك منه عادة ويعلمونه بذلك الالحاح في السؤال والتبرم وأكل الغصب. . .»[55]

يستخلص من هذا أن مكانة رجال الزوايا كانت مهمة جدا بخلاف ما ادعاه بعض المؤرخين من أن هذه المكانة لم تظهر الا بعد الغزو البرتغالي، وان العامي كان مستغلا حتى قبل هذه الفترة. انما الجديد بعد ذلك الغزو هو أن الوضعية تعززت بتزايد المشاكل التي أصبح المجتمع يعاني منها. ولقد صنع هؤلاء لانفسهم خوارق وأنسابا زادت العامة اقبالا عليهم. فلقد أعطى كل من حفدة ابي محمد صالح والامغارين لانفسهم انسابا شريفة مع أن بربريتهم لا غبار عليها،[56] وروجوا عن اجدادهم خوارق بالغوا فيها أشد المبالغة، كالمشي على الماء والطيران في الهواء والمكاشفة. . . حتى أن صاحب المنهاج اضطر الى غربلة ما توصل به من كرامات وأسقط الكثير منها: «. . . فقد أسقطت منه اخبارا كثيرة اذ لا يتحملها كل عقل كما شرحناه أولا في هذا الكتاب. . .»[57].

وهذا لا ينفي وجود متصوفة عانوا الشدائد دفاعا عن حقوق القبائل، وكانوا صادقين في زهدهم وعباداتهم ووعظهم.

وكانت المدارس قليلة، ولم تخبرنا النصوص الا بوجود واحدة بآسفي[58]. ولا ندري مصير مدارس المدينة الغربية بعد زيارة ابن قنفد لها.[59] وكانت أزمور مركزا علميا مهما رغم سكوت المصادر عن ذلك بدليل انتماء علماء اجلاء لها:

كابن القاسم بن محمد الماجري الشهير بالازموري واحمد بن علي الزموري ومحمد ابن سعيد انقشابو الزموري الهنائي. وكانت اسرة ابن ابراهيم المشنزائي العالمة دكالية[60].

٣ ـ الفئات الاجتماعية

(أ) تقوية نفوذ شيوخ القبائل

تعطينا اشارة لصاحب بهجة الناظرين فكرة عن مركز هذه الفئة ونفوذها. فحينما وصل أول الامغاريين إلى تيط، علم بذلك شيخ صنهاجة الذي «. . . كان يجبي مغارم تلك البلاد كلها، وكان أميرهم ومقدمهم، وكانت له ماشية كثيرة. . .»[61]

ونستنتج من هذا أن الشيخ كان مختارا ومقدما من طرف القبيلة نفسها، ثم أنه كان شيخ الشيوخ وأميرهم، مما يدل على تدرج في المراتب داخل القبيلة الواحدة (شيخ الشيوخ)، الشيء الذي كان موجودا أيضا بمشنزاية.[62]

وتكتفي الدولة على ما يبدو بالاعتراف بهؤلاء الشيوخ الذين تكلفهم بسلط واسعة تجعل منهم «ملوكا» محليين. وللتقليل من نفوذهم، تلتجىء أحيانا إلى تعيين عامل يراقبهم.[63]

ولا ندري كيفية ارتقاء هؤلاء الشيوخ إلى هذه المناصب، ولا ما هي المعايير التي يعتمد عليها في ذلك، وما علاقتها بالثروة؟ وكيفما كانت الحال، فان ذلك المنصب كان يؤدي إلى تشييد ثروات كبيرة.

ولا شك في أن نفوذ أعيان وشيوخ قبائل دكالة لم يعرف فترة أحسن مما حدث بعد ضعف الدولة الموحدية، اذ ظهر شيوخ الخلط وسفيان بمظهر الملوك المتحكمين في مصائر عشائرهم وقبائلهم، وأصبحوا لذلك قادرين على خلق أكبر الصعوبات لسلاطين مراكش. واضطر الملوك إلى ارضائهم بالعطاءات والاقطاعات[64]؛ فازدادت ثرواتهم وتطاولهم على الدولة. وهكذا ظهرت اسر كبرى كأسرة جرمون (زار عبد الله بن جرمون المرتضى صحبة مائة من إخوانه بأولادهم وحفدتهم)[65]، وأسرة مسعود بن حميدان، شيخ الخلط، أو شيخ الهنائيين قرب أزمور[66]. ولقد

اختفت كل امكانيات اختيار الشيوخ حسب الاستحقاق، وأصبح أفراد أسرة كبير الشيوخ يتوارثون هذا المنصب. ولعبت الدولة نفسها دورا أساسيا في تقوية نفوذ البعض منهم. وأحيانا فرضت عناصر أجنبية على بعض المناطق، كالصبيحيين بأزمور.(67) ولقد نتج عن تعزيز نفوذ هؤلاء الشيوخ بروز ظاهرة خطيرة جدا بالنسبة لاستقرار المغرب السياسي: لم تعد القبائل مرتبطة بالارض، بل بشخص يوجد على رأسها، تثور لعصيانه، وتخضع لخضوعه، وأكثر من هذا تموت دفاعا عنه. وتتجلى هذه الحقيقة الخطيرة فيما ذكره ابن عذاري عن مصير أعيان الخلط الذين نجح مخطط الرشيد في جلبهم، والذين أمر بقتلهم. فلما «. . . أيقنوا بالهلاك توسطوا شيخهم وصاروا يموتون دونه واحدا واحدا وكان هو آخرهم قتلا. . . »(68) ولذلك فلا غرابة أن يقف المرء على موقف شاذ وغريب تتخذه بعض القبائل، كالتعامل مع المستعمر المسيحي مثلا، لان مواقفها من الاحداث أصبحت رهينة بمواقف شيوخها منها. ولنا على ذلك عدة حالات سنذكرها في محلها.

وباستقلال المنطقة بعد ضعف الدولة المرينية، استحوذ الشيوخ على السلطة، واحتكروا الجباية لانفسهم. فلقد عاين ابن الخطيب أفول نجم احدهم بقرية سايس «. . . دار عادية ملوكية، تنسب لأحد أشياخ الوطن ممن غمس يديه في الجباية في الدم والفرث تدل على انسحاب دنيا كانت سحابة صيف. . . »(69) ونظرا لصراع الأعيان وتنافسهم فيما بينهم، تفككت الجماعات والألياف الكبرى، واختفى ذلك الالتحام الذي عرفه المجتمع الدكالي كما يظهر من خلال النصوص في نهاية الدولة الموحدية. ولهذا طغت أسماء الفروع التي لم يكن لها أي ذكر، وأصبحت الدواوير لا تعرف الا بأسماء شيوخها.(70) والغريب أن عناصر نفس الفروع («الشرقية»مثلا) أصبحت تتناحر فيما بينها لتناحر اعيانها كما سنرى.

ولقد لاحظ الوزان انقسام اعيان آسفي وأزمور وربط بينه وبين تحكم البرتغاليين في حاضرتي دكالة. ولا شك أن الإستعمار عمل على تقوية ذلك التنافس بالبوادي نظرا لنجاح تلك السياسة بآسفي وأزمور. . .

وخلاصة القول، أصبح المجتمع الدكالي متفككا؛ وأصبحت القبائل لا تقرر،

بل تتصرف حسل هوى شيوخها؛ واختفت تلك المقاييس التقليدية التي أشرنا اليها لاختيار الشيوخ الذين أصبحوا لا يخفون مواقفهم من البرتغاليين، إذ سرعان ما ادخل بعضهم نفسه تحت حماية التجار البرتغاليين، كما حدث لبعض أعيان «الشرقية». وستزداد سلبية القبائل وعجزها عن اتخاذ المبادرة وطرد من لا يبحث من شيوخها الا عن مصالحه الخاصة؛ وأكثر من هذا، أصبحت تتقبل أفرادا لا ينتمون اليها. فيحيي أو تعفوفت بربري وحضري لا ينتمي في شيء لا إلى الغربية ولا لعبدة، ولكنه أصبح على رأسهما، وتم تعيينه من لشبونة!.

(ب) رجال الزوايا

يكون «الأولياء» والمتصوفة ومريدوهم فئة اجتماعية مستقلة يميزها عن باقي الفئات نمط عيشها ومواردها ومكانتها الاجتماعية. وبخلاف الشيوخ الذين كانت سلطتهم ناتجة عن قوتهم أو غناهم أو جاههم، يعود نفوذ رجال الزوايا إلى التقدير الذي يخصهم المجتمع به للأسباب التي أوضحناها.

وأهم ما يميز غالبية هذه الطبقة هو الزهد والابتعاد عن ملذات الحياة ومغرياتها، والانكباب على العبادة والذكر، واللجوء إلى الأماكن النائية والخالية.(70) وغالبا ما تصحب هذا الاختيار ظروف عيش قاسية، اذ تخبرنا النصوص باعتمادهم على القطف لضمان رزقهم أو بصنعهم لأقراص نباتية يعيشون عليها. وتكون هذه الفئة عنصرا سلبيا داخل المجتمع لا يساهم في الانتاج؛ وأكثر من ذلك، يشجع على التقاعس والخمول.

وكان الذين آثروا الإقامة داخل المجتمع يعيشون من الصدقات«والفتوح».ولا ينفي هذا وجود فئات كرهت التواكل وفضلت عليه الكسب والعمل باليد.(71) ومع الأسف، مالت الأغلبية إلى الطريق السهل، وتهافتت على الصدقات، مما نتج عنه استغلال فادح للعامي؛ فتكونت لذلك ثروات هائلة ازدادت ضخامة بالعطاءات والاقطاعات والامتيازات التي خص بها الحكام أقطاب الزوايا الدكالية. فإذا كان أبو محمد صالح يجد صعوبة في ضمان رزقه، (72) فان إبنه أصبح، وبسرعة كبيرة، ذا

مال؛ وأصبح حفيده واليا على آسفي، ويملك مزارع كبرى.[73] ولم تخل ولايته من معارضة الأعيان الذين فاجأتهم هذه الترقية السريعة، وتطاول الزاوية على السلطة السياسية.[74]

وبعد تنحيتها عن السلطة السياسية، احتفظت أسرة أبي محمد صالح بمهن مربحة كالخطابة والقضاء، واعفيت الزاوية من كل التكاليف. وخصص الملوك لزاوية الامغاريين قسما من جباية صنهاجة. ونتج عن هذا تراكم الثروات وتكاثر العقارات. فهذا أبو إبراهيم اسحاق إبن أبي الحسن علي بن عبد الخالق بن أبي عبد الله أمغار قد «. . . حبّس في سبيل الله عز وجل قرابة ثلاثين موضعا بين أراضي الحرث وجنات من أعناب ومحارث وزرع وولجات على ضفة البحر. . .»[75] كما أصبح لحفدة أبي محمد صالح العقارات حتى خارج منطقة أسفي، ذلك أنهم أصبحوا يملكون الدور والجنات بكل من أغمات ومراكش.[76]

ولقد أصبح بذلك لزاوية أبي محمد صالح وللامغاريين نفوذ سياسي كبير، فكان السلاطين يتقربون إليهم ويلبون طلباتهم ويقضون حاجاتهم.[77]

ولعب أبو عبد الله دورا كبيرا في وصول الناصر الموحدي إلى الحكم، مما يؤكد تحكم الامغاريين في عصبية صنهاجة.[78] وكان لزاوية الماجريين نفس الوزن السياسي، ونفس المكانة عند السلاطين. ولقد لخص إبن الخطيب ذلك بقوله: «. . . جالس (الحفيد) السلطان، وقاد ركاب الحجاز، وجر ببلده عريضة واقتعد غارب غنى جم، يفد على باب السلطان بسبيل دالة تقديمه، ويقفل إلى وطنه مجدد الصكوك، مستجاد الخلعة. . .»[79]

وهكذا كان المجتمع الدكالي ـ والمغربي بصورة عامة ـ مرتبطا بفئتين اجتماعيتين أكثر من ارتباطه بأرضه أو بالدولة! والغريب أن المجتمع كان يرى في الدولة شيئا غير مرغوب فيه. فكلما حل السلطان بمنطقة بنية الجباية أو عقاب سكانها، التجأت القبيلة إلى الولي ليتدخل وليطلب منه مغادرة المنطقة[80]. وأمام الفوضى السياسية التي عرفتها دكالة بعد استقلالها عن السلطة المركزية، وأمام التناحر الذي احتدم بين

الشيوخ والأعيان من أجل السلطة؛ وفي فترة تعرضت فيها المناطق الشمالية للغزو المسيحي وأصبح القسم الجنوبي الذي انفتح كثيرا في وجه الاجانب مهددا بدوره بنفس المصير، لم يبق للمجتمع الا اللجوء إلى الزوايا التي عملت على إصلاح ذات البين بين القبائل، وعلى إحياء تعاليم الاسلام المهدد. وبهذا نفهم نجاح الجزولي بآسفي. ونفس الدور قام به رجال الدين بعد طرده منها حسب ما أورده مارمول، وكما سيتبين لنا في فصل لاحق.

(ج) التجار

كانت لموانىء دكالة علاقة تجارية قديمة ومستمرة مع موانيء الحوض الغربي للأبيض المتوسط، وخصوصا منها موانيء ايبريا. ونتج عن هذا تكاثر محترفي التجارة بين الدكاليين، وخصوصا بعد تزايد اقبال التجار الاوربيين بصورة عامة، والاسبان والبرتغاليين بصورة خاصة.

لقد نتج عن تزايد المبادلات، وتراكم التجارب، تطور في الهياكيل، اذ انتشر نظام الشركة واصبح هناك من يقدم الاموال ومن يقوم بالاستثمار[81] . كما ظهرت بأزمور كل خصائص الطبقة التجارية الديناميكية من تسابق نحو السلع وادخارها لوقت ارتفاع الاثمان، ومحاولة تنحية المنافسين. ولقد وصف ابن الخطيب عقلية هذه الفئة الاجتماعية كما رآها بأزمور: «. . . إنما حرثهم وحصادهم اقتصادهم. . . يترامون على حبة الخردل بالجندل، ويتضاربون على الأثمان الزيوف بالسيوف. . .»[82] كان هذا في القرن الرابع عشر الذي كان فيه عدد التجار الاوربيين قليلا، مما يسمح بالقول ان هذه الطبقة تكاثرت وهذه العقلية تعززت مع القرن الخامس عشر.

ونتج عن تزايد اقبال الأوروبيين على موانىء دكالة ما لاحظناه من ارتفاع في مستوى العيش. وارتبطت هذه الوضيعة بوجود الأوروبيين الذين فتحوا اسواقا كبرى امام سلع لم تكن تسوّق. وبهذا ارتبطت مصالح التجار بمصالح الاوربيين، وخصوصا بأزمور وآسفي، ذلك أنه كان بإمكان الأوروبيين ان يتوجهوا الى أي ميناء آخر (سلا، المعمورة، العرائش ماسة. . .) في حين أن افتقار الدكاليين لوسائل

النقل يحول دون حمل السلع الى المناطق الأكثر استهلاكا لها، كما كانوا يفعلون من قبل. وأمام هذا الشلل الذي كان التجار الدكاليون يعانون منه عملوا على ارضاء التجار الأوروبيين وتسهيل مقامهم، وظهر الوسطاء الذين تنافسوا فيما بينهم، وأصبحوا حريصين كل الحرص على مصالح الملك البرتغالي التجارية، وعلى تنبيهه الى كل ما يهدد سيرها الحسن.(83) وأكثر من هذا، لم يتردد عدد من الوسطاء في الدخول تحت «حرمة»(84) أو حماية التجار البرتغاليين العاملين معهم. وتتجلى هذه التبعية الإقتصادية فيما يلي: فبعد ان تعرضت مراكب التجار البرتغاليين للنهب بأزمور، (1502) أمر الملك البرتغالي بمقاطعة ميناء المدينة. ودام ذلك سنتين مما أدى الى تضرر مصالح التجار الأزموريين، لأن جل التجار كانوا آنذاك برتغاليين؛ واضطروا الى طلب العفو من الملك البرتغالي، وتراجعه عن قراره، واقترحوا عليه تعويض كل الخسائر، وقبلوا كل الشروط المفروضة عليهم.(85)

وبما ان عائدات الجمارك اصبحت مهمة، وأن المدن اصبحت مستقلة عن السلطة المركزية، فان الصراع احتدم ما بين الأعيان من أجل الاستحواذ على السلطة، فأتاح ذلك للبرتغاليين فرصة التدخل،واستطاعوا بوعود مختلفة وبالرشاوى ضرب طامع بآخر الى أن تمكنوا من هدفهم النهائي: التحكم في آسفي وأزمور.

وبذلك يكون الاستعمار قد استغل تنافس الأعيان بالحواضر الساحلية لاحتلالها، ثم تنافس وتطاحن الاعيان والشيوخ بالبوادي للتحكم فيها بدورها. وهذا العامل الايجابي لم يتوفر له في مناطق اخرى.

(د) **اليهود** : ان اول ما يلاحظ في هذا الباب هو قلة العناصر اليهودية داخل دكالة. فلم تشر النصوص الى اهتمامهم بالزراعة، ولم يذكر الوزان الا عددا قليلا كان يعيش (بمائة بئر) من حرف بسيطة كالحدادة. وبهذا تختلف دكالة عن جاراتها، حاحة، هسكورة والتادلة التي كانت تتوفر على عدد مهم من اليهود. فلقد ذكر الوزان ان «. . . جل سكان التادنيست يهودا. . .»(86) وكان (بتفزة)، بالتادلة، مثتا «كانون» يهودي، اي ضعف ما يوجد بآسفي.(87)

ومن المعلوم ان الجالية اليهودية بحواضر دكالة توصلت بعدد لا يمكن مع الاسف

لمس أهميته من يهود إيبيريا الذين أرغمهم الإرهاب والمطاردات ومحاكم التفتيش على الهجرة، خصوصا بعد ان صدر قرار الطرد الجماعي من اسبانيا يوم 31 يوليوز 1492 . ورغم ان اعداداً مهمة منهم استطاعت الحصول على إذن بالدخول الى البرتغال، حيث وفرت لهم ظروف حياة افضل بكثير من اسبانيا، فإن الملك امنويل سرعان ما غير موقفه منهم ـ بعد تعرضه لضغوط اسبانية ـ وأصدر قرارا بطرد الممتنعين عن التنكر لدينهم، وذلك سنة (1496) . [88] ورغم ان الشروط المفروضة على من فضل الهجرة كانت قاسية (ترك الاولاد)، فإن عددهم كان مرتفعا. ولم يكن نصيب المدن الدكالية في مستوى ما توصلت به المناطق الشمالية. واستولت أسر أرستقراطية يهودية إيبيرية على القيادة الدينية والسياسية مما مكنها من الغنى والجاه. وكان أكبر هذه الأسر على الإطلاق أسرة (ابن زميرو) بآسفي التي كان أكبر أفرادها طبيبا قبل أن يصبح حاخاما أكبر[89] بعد احتلال المدينة، ثم عميلا للاستعمار وتاجرا كبيرا. وقام أخواه بأدوار مماثلة. وكانت أسرة الديب بأزمور بدورها برتغالية، [89] ولعبت كذلك دورا مهما لصالح التوسع البرتغالي. وبحكم الاصل، ونظرا لمعرفتهم اللغة البرتغالية، ضمن أولئك النازحون لانفسهم دور الوساطة التجارية والسياسية.
وكان هذا الموقف الذي وقفته الجالية اليهودية النازحة من البرتغال واسبانيا شاذا، ذلك أنها سخرت نفسها لخدمة الذين سببوا تشردها وأرغموها على الهجرة وترك المال والبنين. فهل نتج هذا الموقف عن رغبتها في الحصول على رضى البرتغاليين، أم كان نتيجة سياسة برتغالية أكثر تسامحا بالثغور المغربية. . . ؟ كلها أسئلة سيجيب عنها البحث في فصل لاحق.

(هـ) العامة

لم يصلنا عن أحوالها شيء، ولم تهتم النصوص الا بتحركاتها السياسية دون أن تظهر مدى تأثيرها في سير الاحداث. ولا نعلم عن عناصرها إلا الشيء القليل كوجود عبيد حتى في دور الفقراء، وإشارات متعلقة بمهن الجزارة، والصيد، وصناعة الأواني الخزفية. . . الخ وأمام قلة المعلومات، وبما أن ما يهمنا من دراسة هذه الفئات هو معرفة مدى قدرة المنطقة على مقاومة أطماع المستعمر، فإننا سنكتفي هنا

بتحديد موقفها من الاحداث السياسية. لقد انقسمت العامة على نفسها في كل الحواضر الدكالية وذلك لانقسام الأعيان وأصبحت تمثل غالبية عناصر ما سماه الوزان «بالاحزاب». ولا ندري المقاييس المعتمدة في الاختيار، وإن كان من الواضح أن الاضطرابات فرضت على الضعفاء الاحتماء بالأغنياء. ولهذا لا تسمح النصوص يصبغ الاضطرابات التي عرفتها آسفي وأزمور بصبغة طبقية، ذلك أن الأوصاف التي زودتنا بها كل المصادر تنطبق على تطاحن ما بين العامة نفسها ـ لتطاحن الاعيان ـ لا على صراع ما بين الأغنياء والفقراء. ولهذا اظهرت العامة سلبية خطيرة أمام سير الأحداث لانعدام محرك يؤثر عليها مباشرة. وهكذا وقفت مواقف غريبة جدا. فبعد الانقلاب الذي نظمه البرتغاليون لصالح عبد الرحمان، اعترف به السكان بسهولة رغم ان مساعدة البرتغاليين له كانت واضحة، ورغم انه خرج من متجرهم ناشرا راية البرتغال. فهل نتج هذا الاعتراف عن كونه أقنع السكان بادعائه أنه لم يقم بما قام به الا لتنحية خونة الملك البرتغالي ومن يسرقون سكان المدينة؟[90]. ورغم الظروف التي تم فيها اغتيال هذا القائد (العيد وبالمسجد)، ورغم بشاعة الحادث، اعترفت عامة آسفي بنفس السهولة بمنظمي الاغتيال (علي بن وشمان ويحيى أوتعفوفت)[91] وأكثر من هذا «. . . اطمأنت العامة بسهولة، وأعجبها أن تنتقل السلطة الى ذينك الرجلين. . .»[92].

وتظهر العامة من خلال النصوص وهي تتحرك تحركات متناقضة، كأن تقاطع العمل بأوراش البرتغاليين أو تحاصرهم بمتجرهم أو أن تساهم في مظاهرة نظمها بعض الأعيان لصالح البرتغال[93]. اذن كانت هناك سلبية واضحة أمام الاحداث الخطيرة التي نتج عنها احتلال آسفي. ونفس الشيء ينطبق على أزمور والمدينة الغربية اللتين عانتا من نفس التطاحن ما بين الأعيان[94]. وتعود هذه السلبية الى سببين رئيسيين:

(1) ان ذلك التجاهل لمجرى الاحداث وتقبلها لكل من استطاع الوصول الى الحكم بوسائله الخاصة ناتج عن يأس السكان وتأكدهم من ان كل المتطاحنين مجرد طامعين ومستبدين لا يرجى اي خير من ورائهم.

(2) ان موقف العامة الصريح من البرتغاليين، والذي كان مخالفا لما كانت تخفيه، كان يملي عليها من طرف الأعيان المتحكمين فيها. وهذا هو سر تلك المواقف المتناقضة التي أشرنا اليها أعلاه ازاء البرتغاليين. فالهجوم على متجر البرتغاليين او مقاطعة العمل به هو نتيجة أمر من قائد المدينة ومن يدورون في فلكه، كما ان المظاهرة المعبرة عن الولاء تعبر عن نفس الشيء. فمصلحة الاعيان كانت تملي على العامة مواقف ولو كانت مضرة بالمدينة وسكانها. وهذه ملاحظة أساسية ستؤكدها الفصول التالية. ولكن هذه السلبية لم تستمر طويلا، ذلك أن السكان ما أن تنبهوا الى النتائج الحقيقية لتنافس الاعيان، وتورطهم مع الاجانب، من اسبان وبرتغاليين، حتى تخلوا عن مواقفهم السابقة، وبادروا الى مغادرة المدينة تاركين العملاء وحدهم وجها لوجه مع المستعمر.

* * *

لقد استفاد الدكاليون، وخصوصا سكان الحواضر، من تزايد اعداد التجار الأوروبيين الوافدين على موانئهم، صغراها وكبراها. ولكن تلك الاستفادة لم تكن في مستوى الثمن الذي دفعته المنطقة مقابل ذلك. فلقد نتج عن تأخر الهياكل والوسائل المسخرة لصالح التاجر الدكالي بالمقارنة مع ما كان متوفرا لدى الاوربي، نتج عن ذلك تسخير نفسه وسيطا له، مما جعله يكون أحرص الناس على مصالحه. وازداد هذا الموقف رسوخا لتبنيه من طرف الحكام لأسباب تجارية وجبائية، وبذلك اصبحت دكالة تابعة اقتصاديا لإيبريا التي أصبح سكانها يكونون اغلبية التجار بموانئها. ولا غرابة أن تتولّد عن هذه التبعية الاقتصادية تبعية سياسية، خصوصا وأن تناحر الاعيان من اجل السلطة، وتنافس القشتاليين والبرتغاليين ازداد بتزايد اهتمام الدولتين بالمنطقة كما يتجلى ذلك خلال الفصل التالي.

التعاليق والهوامش

(1) ابن الخطيب... معيار الاختيار... مصدر سابق ص 76 .

(2) نفسه ونفس المصدر والصحيفة.

(3) كتب ابن خلدون عن أزمات القرن الثامن (14 م) «... وهذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي... ذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران....»: العبر... مصدر سابق ج 7 ص 85

(4) Léon... op cité I p 122

(5) Ibid I p 121

(6) S. I. H. M. Port II p 10

(7) S. I. H. M. Port I p 411

(8) Léon... op cité I p 127 وكتب (كـويش) في هذا الصدد «... كان السكـان متحضرين (بأزمور)، حسني اللباس رجالا ونساء، وكثيري الانكباب على الرذائل».
Góis... op cité p 104

(9) ابن الخطيب... معيار الاختيار... مصدر سابق ص 76

(10) نفسه ونفس المصدر والصحيفة.

(11) Léon... op cité I pp 74, 75, 76
وما يعاكس هذه الصورة: Ibid I pp 78, 84, 85

(12) Ibid I p 239

(13) S. I. H. M. Port I p 187

(14) Léon... op cité I p 40-41 وجعل ملاحظته تنطبق على كل أعراب السهول «... يحرث هؤلاء الاعراب أراضيهم ويحصلون منها على كميات كبرى من الحبوب، ولهم أعداد لا حصر لها من الاغنام والابقار. أنظر كذلك: Góis op cité p 68, 72, 89

(15) Góis... op cité p 64

(16) Mouette. Histoire des conquetes de Mouley Archy; Connu sous Le nom de roy de

Tafilet, et de Mouley Ismael... IN S. I. H. M. France, 2 série. II. p 162

(17) ابن الخطيب، نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 71

(18) أحمد بن ابراهيم... الماكري - المنهاج الواضح.... مصدر سابق ص 251 ابن الزيات.. التشوف... مصدر سابق ص ص 303, 284 ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين.... مصدر سابق ص ص 221, 169 Léon... op cité I p 72

(19) S. I. H. M. Port III pp 182

(20) أحمد بابا السوداني: نيل الابتهاج بتطريز الديباج. ط. مصر. 1329 هـ ص 251

(20م) P. Chaunu: L'expansion européenne du XIII au XVe S. nle Clio Paris 1969 p 77

(21) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص ص 334 - 338 - 339
ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين.. مصدر سابق ص 114

(22) Léon... op cité I p 73

(23) S. I. H. M. Port I p 106 وذلك بعد احتلال أزمور وكان بيعها حكرا على القبطان.

(24) Léon... op cité I pp 59 - 60

(25) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 72

(26) ابن الزيات... التشوف.... مصدر سابق ص 119

(27) نفسه ص 286

(28) وهو ابرهم بن زميرو الذي عين حاخاما كبيرا بآسفي.

(28م) توصلت بظهائر من بني يفرن: ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين ص ص 23 - 27

(29) ابن قنفد... انس الفقير... مصدر سابق ص 63

(30) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 166 - 170

(31) زيادة على بهجة الناظرين، انظر سلوة الانفاس ج 2 ص 218

(32) يغطي المنهاج الواضح لاحمد بن ابراهيم الماكري تاريخ هذه الزاوية ومباديء مؤسسها.

(33) M. Bellaire: Conférences. Arch. Maroc. 1927, pp 22, 37

(34) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص ص 142

(35) نفسه ص ص 23 - 26

(36) نفسه ص 70

(37) يرى الدكتور محمود اسماعيل أنهم كانوا خوارج صفرية: «مغربيات». ابريل 1977 ص ص 49 - 53

(38) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص 150.

(39) نفسه ص ص 203, 217, 218

(40) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 168

(41) أحمد بن ابراهيم الماكري. المنهاج الواضح... مصدر سابق ص 280

(42) نفسه ص 258

(43) نفسه ص 248

(44) نفسه ص 305

(45) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 164 . عبد العزيز بن عبد الله. الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب: مجلة البينة س 1 عدد 9 نوفمبر 1962 ص 90

(46) أحمد بن ابراهيم الماكري: المنهاج الواضح... مصدر سابق ص 150 . ويلاحظ أن أبا محمد صالح لم يعاصر الغزالي الذي توفي قبل ميلاده .

(47) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق. ص 72 . وهذا لا يعني اندثار الطريقة: «... وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العباس (حفيد أبي محمد صالح) طائفتين....».

(48) نفسه ونفس الصحيفة.

(49) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص ص 360, 252, 162 ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين، مصدر سابق ص ص 117, 66, 40, 33

(50) Léon... op cité. I. p. 128 – de Marmol... op cité II p. 116

Góis... op cité p 111

(51) L. Mezzine: Un Aspect de L'Islam au XV. S. L'Enseignement de la confrérie d'Aljazouli: (mémoire de Maitrise) p 44

(52) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق... ص ص 65 – 66

(53) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص ص 253, 280, 282, 289. ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 12 . ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 166 ... الخ.

(54) E. Doutté: Les Marabouts. op cité pp 11 – 15

H. Basset: La Religion Musulmane en bérbérie 1938 – p 342

R. Montagne: Les Berbéres et le Makhzen dans la sud Marocain. Paris 1932 p 50

(55) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص 258

(56) نفسه ص 134 . حيث أرجع نسب الماكرين الى قريش - ابن عبد العظيم الازموري بهجة الناظرين. مصدر سابق ص 50 الكتاني محمد بن جعفر: سلوة الانفاس ج 2 ص 218 .

(57) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص 339

(58) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 72

(59) ابن قنفد... أنس الفقير... مصدر سابق... ص 71 محمد بلقاسم الزياني: الترجمانة الكبرى... مصدر سابق ص 78

(60) أورد ابن القاضي أحمد... (جذوة الاقتباس) بعض الاسماء: ص ص 10, 136, 238, 246, 250, 407, 455.... الخ.

(61) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين.... مصدر سابق ص 65

(62) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 109

(63) نفسه ص ص 109, 357

(64) ابن عذاري... البيان المغرب... مصدر سابق ج 3 ص ص 289, 290, 298, 299...

(65) نفسه ص 432

(66) نفسه ص 372. وكتب عن شـ ـهم انه لو كان حاضرا (وقت حدوث فتنة بازمور) «... لما كان أحد يجسر على شيء من تلك ـه مور...».

(67) ابن خلدون... العبر... مصدر سابق ج 7 ص ص 345 - 346

(68) ابن عذاري... البيان المغرب... مصدر سابق ج 3 ص 302

(69) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 77

(70) راجع سجل الضرائب المنشور بالملحق، ضريبة أولاد يوسف

(71) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 170 ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 451

(72) أحمد بن ابراهيم الماكري... المنهاج الواضح... مصدر سابق ص ص 252، 280, 296, 305..

(73) نفسه ص ص 136, 146

(74) نفسه ص 146

(75) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 219

(76) الكانوني محمد بن احمد. كناشة رقم 7. وهي في ملكية الاستاذ المنوني.

(77) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص ص 24, 33

ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 69

ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 47

(79) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق... ص 69

(80) ابن عبد العظيم الازموري... بهجة الناظرين... مصدر سابق ص 40 ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 109

(81) ابن الزيات... التشوف... مصدر سابق ص 170

(82) ابن الخطيب... معيار الاختيار... مصدر سابق. ص 76

(83) S. I. H. M. Port I pp 74, 83

(84) Ibid I p 74

(85) Ibid I pp 92, 95 – 98

(86) Léon... op cité I p 76

(87) Ibid. I p. 122 ويعود ذلك الى الركود التجاري الذي كانت تعاني منه آسفي الى حدود القرن الرابع عشر.

(88) عن عداء الايبريين لليهود

– D. Is. Aou : Musulmans Andalous et Judéo – Espagnols. Casa S.D. (1953 p 16

– H. Zafrani: Les Juifs au Maroc, Vie sociale; économique et religieuse. Paris 1972. pp 103, 149... etc.

– Slousch . Etudes Sur l'histoire des juifs au Maroc. Arch. Maroc. Vol. VI pp 144 – 145

– G. S. Colin: Des juifs nomades retrouvés dans la Sahara Marocain au XV. S. In Mélanges d'études Luso – marocaines offertes à D. Lopés et p. Cénival p 55

(89) Góis, op cité p 108 وعن أدوار أفراد الاسرتين أنظر الفصول اللاحقة.

(90) S. I. H. M. Port I p 36

(91) أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني.

(92) Léon... op cité I p 119 – Gois... op cité p 29

(93) Ibid I p 120 ، Ibid pp 35 – 36

(94) أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني.

الباب الثاني

مراحل ومظاهر تحكّم البرتغاليّين في مدن وبوادي دكالة

الفصل الأول

الغزو البرتغالي لسواحل المغرب

نتائج المرحلة الشمالية على تعامل البرتغال مع موانئ دكالة

لقد حظي الغزو البرتغالي على الخصوص، والكشوف الجغرافية على العموم، باهتمام كبير من طرف المؤرخين الذين تضاربت آراؤهم حول الاسباب والوسائل. وقبل الخوض في هذه الاسباب، يجب التنبيه الى بعض الملاحظات تفاديا للخلط والتعميم. مما لا شك فيه ان المسؤولين البرتغاليين لم يكونوا ينظرون الى غزو المغرب، واكتشاف طريق الهند، والبحث عن مراكز تجارية على طول سواحل افريقيا، بنفس المنظار، مع أنهم برروا ذلك البحث بكونه عملية ضرورية ومكملة لغزوهم للمغرب. ومعنى هذا ان العوامل والوسائل قد اختلفت. فلقد طغى العامل التجاري طغيانا كبيرا على غيره من العوامل في سواحل افريقيا ثم الهند، في حين بقي العامل الديني ايديولوجية رسمية وشعارا يرفع وقت كل هجوم على المغرب أو كل دفاع عن مكتسبات البرتغاليين به. واكثر من هذا، كان يوحنا الثالث وهو يفكر في الجلاء عن عدد من الثغور المغربية يلوح بنفس الشعار. وفي ميدان الوسائل المستعملة لم يكن لاكتشاف (الكرفيلا)، وتطور وسائل القياس وعلم الخرائط وصناعة الاشرعة، أي أثر على «المغامرة المغربية» لتقارب البلدين. ويجب التنبيه ايضا الى ضرورة أخذ الحيطة من المصادر البرتغالية المعاصرة للكشوف ولغزو المغرب، ذلك أن أهم ما يميزها هو أنها لم تفصح عن العوامل التي كان لها وزن كبير، وأعطت الاولوية لعوامل كانت ثانوية أو سرعان ما اختفت،(1) ذلك أن العوامل لم تحتفظ

بنفس الوزن الذي كان لها حين بداية الغزو، اذ سرعان ما طغى العامل الاقتصادي كما يتجلى ذلك من خلال التجربة الاستعمارية البرتغالية بجنوب المغرب. ومع هذا، فانه يصعب على المرء اثبات وجود عامل واحد، ذلك أن هذه العوامل تداخلت وإن اختلفت مكانتها. ولهذا سنستعرض كل العوامل التي أثرت من بعيد أو قريب على البرتغاليين مؤكدين على مكانتها ووزنها.

1 ـ العوامل والوسائل

(أ) العوامل

ـــ **العامل الديني**: لقد أعطى الاخباريون البرتغاليون المعاصرون لغزو المغرب وللكشوف (Zurara مثلا) أهمية قصوى لهذا العامل، وجعلوا منه المحرك الرئيسي. وسار على نهجهم من درسوا موضوع الغزو قبل استغلال الوثائق البرتغالية، اي قبل العقد الثالث من القرن الحالي. وهكذا رأوا في اكتشاف واستيطان الجزر الاطلنطيكية الشمالية، (ماديرا ـ الاصور) والنزول على طول سواحل افريقيا، تتمة لحروب البرتغاليين بالمغرب، واستراتجية مقصودة تهدف الى تطويق المغرب أولا، ثم الاتصال بالشعوب والملوك المسيحيين للتحالف معهم ضد مسلميه ثانيا. واذا أخذنا بهذا التحليل، يكون احتلال الجزر بعد سقوط سبتة، ومحاولات كشف سواحل افريقيا بعد فشل البرتغاليين الذريع أمام طنجة (1437) حربا اخرى يعلنها البرتغال ضد المغرب(2) .

وقد يدفع الى الاعتقاد بأهمية هذا العامل ما أجمعت عليه المصادر من حرص ملوك البرتغال على محاربة المسلمين بالمغرب والعمل على محو الاسلام منه، وتعويضه بالمسيحية، وتحويل المساجد الى كنائس، وإنشاء الاسقفيات بالمغرب، وارسال الكهان والرهبان للعمل بها. . . كما تتجلى هذه الروح في الشعائر والطقوس الدينية التي تسبق كل هجوم على المغرب؛ وفي محاولة الملوك البرتغاليين دفع ملوك المسيحية الاخرين الى الاقتداء بهم.(3)

وعملت الكنيسة والملوك على اذكاء روح العداء للمسلمين عند البرتغاليين، فاصبحت محاربتهم مسألة مصيرية عند عامة الناس وخاصتهم.

واذا كان من الصعب نفي قوة هذا العامل، خصوصا في بداية الغزو،(4) فان السؤ ال المطروح هو: ما هي مكانة العوامل الاخرى؟

لقد عرف هذا العامل فتورا سريعا بعد تنبه البرتغاليين لصعوبة المغامرة بالمغرب، كما يتجلى ذلك في تعثرها وتردد ملوك البرتغال، وتفكير الملك (ادوارد) في ارجاع سبتة للمغاربة، وفي معارضة الفرسان والنبلاء والجماعات العسكرية(5) المساهمة المادية في تكاليف الغزو(6).

ولم يتردد أمير برتغالي، ورث رئاسة جماعة المسيح، اكبر الجماعات العسكرية وأغناها في معارضة مشروع الملك (الفونص الخامس) القاضي بتكريس ثلث مداخيلها للدفاع عن المكتسبات بالمغرب، ولم يتردد ايضا في التدخل لدى البابا لمنع تنفيذ ذلك المشروع، مدعيا أن هذه الجماعات أسست للدفاع عن البرتغال ضد الغارات والحروب الاسلامية لا لتهاجم وتحارب خارج البلاد. ولهذا اهتم باستثمار امواله في جزر الرأس الاخضر وفي فلاحة قصب السكر بماديرا(7).

ومعلوم أن الامير (هنري الملاح) اهتم اكثر بانشاء مراكز تجارية واحتكار التجارة بها، وبالعبيد اكثر من اهتمامه بالتبشير او محاربة المسلمين.(8)

ولعل ما اعطى ايضا لحروب البرتغاليين بالمغرب ذلك الطابع الديني الذي امتازت به، هو الاهتمام الكبير الذي أولته البابوية اياها. فلقد خصتها بسبعة وأربعين (47) قرارا بابويا، في حين لم تحظ الكشوف الا بقرارين، كان واحد منهما في رأي البابوية استمرارا لحروب المغرب(9).

لقد التقت مصالح البابوية والبرتغال المتورط بالمغرب مما يفسر ذلك الاهتمام البابوي.

لقد كان هذا البلد الصغير سباقا الى اعلان الحروب على المسلمين في فترة كثرت فيها مخاوف البابوية وقلقها من التقدم التركي بحوض الابيض المتوسط الشرقي ووسط اوروبا، وذلك في وقت كان البابا يجد صعوبة في جمع كلمة الدول المسيحية ضد المسلمين. ولقد أعطى البرتغال للبابوية نوعا من الاطمئنان من الناحية الغربية.

وتدخلت احيانا المصالح الشخصية لبعض الباباوات. فلقد كان البابا العجوز (Calixe III) من اصل اسباني. وبما انه عاين الانتصارات التركية، فانه اصبح يخشى زحفا اسلاميا من ناحية الغرب تكون نتيجته الحتمية دخول المسلمين الى اسبانيا، بلده، والى البرتغال. لذا عمل كل ما في وسعه لتشجيع البرتغاليين على الاحتفاظ بسبتة، وعلى احتلال مدن اخرى.(10)

وكان البرتغاليون أحوج ما يكونون لهذه المساعدة. فلقد تبين لهم أن سبتة تحولت الى مجرد ثكنة يجب الدفاع عنها باستمرار، في وقت كانت فيه امكانيات البرتغال محدودة؛ كما تنبه البرتغاليون الى أن الدول المسيحية لا تعير حروبهم بالمغرب اي اهتمام.(11) ولم يبق للملوك البرتغاليين الا الالتجاء الى البابوية، وبالتالي صبغ الحروب بصبغة صليبية.

ولقد مكن ذلك الاهتمام البابوي البرتغاليين من موارد كبرى كان لها وزنها في الاحتفاظ بسبتة، وفي احتلال مدن اخرى، وذلك باتخاذ عدة قرارات ضمنت للملوك البرتغاليين اموالا مهمة، ورفعت من قدرة البلاد على مواجهة «المغامرة المغربية».
ومكّنت البابوية ملوك البرتغال من رفع مداخيلهم. فلقد طلب الملك (ادوارد) من البابا اعتبار الحروب ضد «المسلمين» (أي المغاربة) حروبا مشروعة، وقبول مساهمة البرتغاليين المالية فيها.(12) ووافق البابا على أن يصبح الملك الفونص الخامس عميد كنيسة (يابرة Evora)، أغنى كنائس البلاد، وذلك لتغطية مصاريف الدفاع عن سبتة.(13) واصدر البابا قرارا مؤرخا بـ 19 دجنبر 1442 ضمن فيه الغفران لمن حج الى سبتة وساهم بماله في الدفاع عنها، ولمن تصدق من البرتغاليين بخمس «دوقات» لتغطية نفس المصاريف.(14) ومكنت البابوية كذلك ملوك البرتغال من التصرف - دائما تحت نفس الغطاء الصليبي - في مداخيل الجماعات العسكرية الاربع التي لم يكن لهم فيها حق، مما مكنهم من اموال طائلة نظرا لغناها وكثرة اقطاعاتها.(15)

وضمنت البابوية كذلك للبرتغاليين مساهمة كل البلاد المسيحية في مجهودهم العسكري. فلقد اصدر البابا يوم 1 يناير 1443 قرارا تم بمقتضاه تحديد وسائل

تموين مصارف الحروب الصليبية البرتغالية: أصبح بامكان الملك البرتغالي التصرف في عشر مداخيل كنائس بلاده، وتنازل له البابا عن خمس مداخيل دولته، وأرغم (الكردينالات) على التنازل عن عشر مداخيل مناطقهم. (16)

وبعد احتلال القصر الصغير، طلب الفونص الخامس من البابا **تعويض ما انفقه** في الهجوم على المدينة المغربية، وطالب بالتنازل له عن كل ما جمعه البابا من اجل محاربة العثمانيين، فأسكته البابا بارسال قدر مالي له. (17)

وحين تقرر الهجوم الثالث على طنجة (1464) التجأ الفونص مرة أخرى الى البابا الذي أصدر بعد ذلك قرارا تم بمقتضاه تكريس عشر مداخيل كنائس البلاد المسيحية كلها لمحاربة المسلمين، على أن يعود النصف للبرتغال، وأن يخصص النصف الثاني لمحاربة العثمانيين. وعاد في نهاية الأمر كل شيء الى البرتغال لفشل البابا في تجهيز حملة ضد الأتراك. (18) وبهذا يكون اللجوء الى البابوية قد أفاد كثيرا ملوك البرتغال. ومما له دلالة كبرى أن يتم ذلك بعد أن أصبحت مصاريف تحصين سبتة والدفاع عنها تثقل كاهل البرتغال، وبعد أن ظهر للملوك نفور النبلاء والفرسان والكنيسة من تحمل تلك المصاريف، فاصبحت البابوية لذلك في نظر البرتغال شريانا يزود البلاد بالدم الضروري لحركته التوسعية. وطبعا يقتضي الحصول على مزيد من الأموال والامتيازات مزيدا من الحروب واظهار النية والعزم على الاستمرار في محاربة الاسلام.

وواضح أن ما حصل عليه الملوك تزايد مع الأيام، وأصبحت تنازلات البابوية كبيرة ومربحة جدا بالنسبة لحكام لشبونة. (19)

ولقد كان البابوات يرون في تلك التنازلات حافزا على المزيد من التوسع بالمغرب، وكانوا يظنون أن سياسة البرتغاليين تهدف الى نفس الشي، الا أن الملوك خيبوا آمالهم.

فلقد شعر البابا (Calixe III) بمرارة كبيرة أمام تهاون (الفونص الخامس)، وتماطله، واختفائه وراء مبررات غير مقنعة رغم ما توصل به من مساعدات. (20)

ومعلوم أن هذا الملك كان من أكثر ملوك البرتغال عنادا واصرارا على محاربة المغاربة.
فكيف كانت خيبة أمل البابوات في ملوك آخرين بذلوا مجهوداً أقل بالمغرب؟..

وإذا كانت البابوية قد أفادت ملوك البرتغال ماليا، فإنها أصدرت أيضا قرارات كانت الغاية منها دفع المواطنين الى المساهمة في الدفاع عن المكتسبات البرتغالية بالمغرب. فلقد أمرت رجال الكنيسة بإعلان الحرب الصليبية بالبلاد كلما قرر الملوك البرتغاليون هجوما على المغرب، وضمنت الغفران لكل من ساهم فيها. وحثت على الحج الى سبتة، وعلى الاقامة بها على الأقل ثلاثة أشهر، أو كراء من يقوم بذلك.(21) وأرغم البابا «الجماعات العسكرية» على بناء كنيسة على نفقة كل جماعة بسبتة وعلى ارسال ثلث المستفيدين من اقطاعات تلك الجماعات الى تلك المدينة للمساهمة في الدفاع عنها.(22)

واعترفت البابوية بمشروعية التوسع بالمغرب، وجعلته حكرا على البرتغال(23) وحقا دائما وبدون حدود.

ولقد استغل المسؤولون البرتغاليون العامل الديني لتبرير أعمال تهدف الى الربح. فلقد طلب الملك من البابا السماح له بالاتجار مع المسلمين (أي المغاربة) ليمكنه ذلك - حسب ادعائه - من ارسال الجواسيس الى الموانيء المغربية.(24) ولما طلب تجديد السماح له بذلك، وعد بتخصيص أرباح تلك التجارة للدفاع عن سبتة.(25)

ولقد لعب عامل الزمن لصالح البرتغال، فأصبح ذلك أمرا واقعا ولم يغد البرتغاليون في حاجة الى مبرر كلما طلبوا تجديد السماح بالإتجار مع المغاربة. وسرعان ما أصبح أمرا دائما لا يحتاج الى ترخيص خاص(26). واضح أن البابوية كانت تعني بقراراتها، وبما خصت به الملوك البرتغاليين من امتيازات، دفعهم الى غزو المغرب، في حين كان تفسير الملوك البرتغاليين مخالفا،[1] إذ سرعان ما أصبح المغرب في نظرهم في مرتبة ثانوية بالنسبة لما أصبحوا يخصون به أفريقيا، وخصوصا الهند من اهتمام. ومعلوم أن ما أخذه منهم البحث عن الطريق البحرية من اهتمام فاق بكثير اهتمامهم بالمغرب. كما ان مكانة الجنوب المغربي، وخصوصا دكالة ، لم تتعزز الا بعد اكتشاف (أرغين)، وبداية الاتجار بها؛ مما يدل على أن هذا العامل الديني لم يكن

وحيدا، وانه سرعان ما طرأ عليه فتور واضح، [27] وطغت عليه عوامل أخرى. .

وبما أن الدولة حملت راية الحرب الصليبية وصبغت غزوها للمغرب بتلك الصبغة، وبما أن وقائع الامور أثبتت العكس، وأظهرت أن الاغراض المتوخاة كانت خلاف ذلك، فلقد أصبح على كتاب البلاط «ترميم» ما تحطم من الاديلوجية الدينية المسخرة لأغراض دنيوية. وفي هذا الصدد كتبت السيدة (M. De Carvalho) معلقة على تحريف الاخباري (زرارا ZURARA) للحقائق لإعطائها روحا صليبية «. . . يندمج موضوع الحرب الصليبية بالطبع داخل رواية متأثرة بالفروسية والحرب، إما لاذكاء حماس الامير هنري الملاح في حربه ضد الكفار، وإما لاستغلال هذا الدافع النبيل في تبرير عدة صور من العنف والنهب قام بها الفرسان ـ الملاحون ـ. لقد كانوا يقومون، والسيوف في أيديهم، وخدمة الإله والأمير على ألسنتهم، بغارات مربحة على طول الساحل المغربي والموريطاني. وليس بغريب، حيث أن الأمر لا يتعدى **مجرد تاريخ فتوح (وليس تاريخ كشوف)**، ان يحتل به موضوع الحرب الصليبية مكانة كبيرة. . .» [28]

العامل الاستراتيجي ومحاولة القضاء على الجهاد البحري.

لعبت القرصنة الاسلامية والمغربية على الخصوص، دورا في دفع الابيريين الى العمل على احتلال الموانيء المغربية، أو على الأقل القضاء على هذا النشاط بها. [29]

فلقد كان هذا العامل سبب هجوم القشتاليين على تطوان سنة 1399 وتخريبها وأسر نصف سكانها. [30] وعلل الإسبان احتلالهم لغساسة ومليلية أولا، ثم بادس ثانيا، بكون هذه الموانيء كانت مراكز تجمع القراصنة الذين كانوا يعرّضون سواحل بلادهم للنهب. [31]

وكان نفس العامل سبب تحطيم آنفا على يد البرتغاليين[32] (1469). وأرجع المؤرخ Cortesâo احتلال سبتة الى هذا العامل[32 م]. ويرى بعض المؤرخين أن الابيريين استطاعوا القضاء على القرصنة بالمغرب الشيء الذي لا تثبته النصوص. [33]

ومما يؤكد أن هذا العامل لم يكن أساسيا هو أن البرتغاليين لم يعملوا قط على احتلال مدينتين كان مجاهدوها نشيطين، اي تطوان التي ازدهر فيها هذا النشاط تحت

إشراف المنظري، والعرائش التي نظم هجوم مفاجيء ضدها لاسترجاع ما إستطاع المغاربة الاستيلاء عليه من سفن برتغالية [34]. وهذا ما حتم على البرتغاليين تجهيز أسطول لمراقبة المضيق. وعمل البرتغاليون باحتلالهم للثغور المغربية أيضا على حماية استقلالهم ومنع كل محاولة للعبور الى العدوة لحماية الاسلام المهدد بها.

وقد يفسر هذا الخوف اختيار سبتة كهدف أول لكونها «. . . ذات أهمية استراتجية عظمى. . . مفتاح المضيق. . . » كما قد يعبر عنه عناد البرتغاليين أمام طنجة (4 محاولات). [35] ومما له دلالة كبرى أن يتم احتلال أصيلا سنة اكتشاف (لامينا)، [36] وأن تطور المبادلات بهذا المركز وبأرغين، جعل البرتغاليين يهتمون كثيرا بمواني‌ء دكالة. وبهذا يكون اهتمام البرتغاليين بالناحية الاستراتيجية مزدوجا: ضمان أمن شواطئهم وأراضيهم من كل هجوم اسلامي، بالاضافة الى ضمان سلامة سفنهم وتوفير المواني‌ء لها على طول طريقها الى سواحل غرب افريقيا أولا، ثم الى الهند والبرازيل منذ بداية القرن السادس عشر.

العوامل الاقتصادية

افتقار البرتغال الى القمح: لقد كانت شبه جزيرة إيبريا تعتمد باستمرار في تغذيتها على قمح المغرب، حتى ان كثرة استعمال قمح دكالة اوجدت مثلا عاميا. [37] ونظرا لغنى منطقة الاندلس، فان اسبانيا كانت تعرف اكتفاء ذاتيا نسبيا في ميدان الحبوب الا في حالات الجفاف، في حين كان البرتغال في فقر مستمر لهذه المادة. وتزايد نقصه بتزايد عدد سكانه وارتفاع عدد حضرييه، فأصبح يحتاج الى الاستيراد على الاقل مرة كل ثلاث سنوات. [38] ولهذا كان البرتغال يلتجيء الى المغرب زيادة على دول شمال اوربا. ففي سنة 1282 استوردت مدينة (فارو) الموجودة «بالغرب» Algarve البرتغالي حبوب المغرب. ولهذا لم يتردد بعض المؤرخين في ربط احتلال السواحل المغربية بمحاولة البرتغاليين ضمان هذه المادة الاساسية لبلادهم. [39] وتتجلى اهمية المغرب بالنسبة للبرتغال في هذا الباب في الايصالات التي وصلتنا، وفي الاوامر والوفود التي ارسلها الملوك الى مواني‌ء دكالة، صغراها وكبراها، لشراء هذه المادة.

الذهب: كتب (شوني Chaunu) : «. . . ولكن اكثر من القمح، إنه الذهب

الذي دفع قهرا (البرتغاليين) نحو موانيء المغرب، ذهب السودان. . . »(40)

لقد كانت أوروبا منقسمة من ناحية العملة الى قسمين، قسم بالشمال يعتمد على فضة مناجم المانيا ووسط أوروبا، وقسم جنوبي يعتمد على الذهب المستورد من موانيء المغرب العربي. ولقد عرفت أوروبا ما بين سنة 1000 و 1350 تزايدا في عدد السكان وصل الى اربع مرات بالنسبة لما كان عليه سنة 1000، في حين تضاعف الانتاج في الفترة المذكورة، وارتفع حجم المبادلات عشر مرات. وتطلب هذا مدخرات نقدية تصل سنة 1300 إلى 40 مرة أكثر مما كانت عليه حوالي سنة 1000. (41)

وكانت اوروبا كما قلنا، تجلب التبر من موانيء المغرب الذي يجلبه بدوره من السودان. ولقد اظهرت القوافل عجزها عن تغطية حاجيات اوروبا المتزايدة من هذه المادة، ذلك ان الاعتماد على الجمال لا يمكن ان يتخطى مستوى معينا من الوزن والسرعة، اذ أن نقل طن من التبر يتطلب حوالي عشرين جملا، وما بين ثمانية وعشرة أسابيع. (42) ولم يكن بإمكان المغرب آنذاك ادخال أي تطور وتحسن على هياكل ووسائل تجارته عبر الصحراء. وهكذا لم تعرف اوروبا أبدا مستوى من الفقر الى التبر مثلما عرفته ما بين 1350 و 1500. ولم تكن منطقة تشكو من هذا النقص اكثر من ابيريا. (43) فلقد توقف سك العملة الذهبية بالبرتغال بعد 1383، ودام ذلك خمسين سنة، أي الى ان انطلقت الكشوف، وبعد احتلال سبتة. ونتج عن هذا التوقف سلسلة خطيرة من انخفاض قيمة العملة البرتغالية. فلقد اصبحت قيمتها سنة 1409 أقل من قيمة العملة القديمة الذهبية بخمسين مرة، ونزلت الى 700 مرة سنة 1435! (44) فلا غرابة والحالة هذه، ان يعمل البرتغاليون على الخروج من بلادهم ليبحثوا لأنفسهم عن سند لعملتهم المتدهورة، الشيء الذي حاول الايطاليون والكطليون القيام به قبلهم بحرا وبرا. (45) وبما ان سبتة كانت أكبر أسواق الذهب بالمغرب، فمن المعقول أن تكون لذلك هدفهم الأول.

وبهذا يكون احتلال باقي الثغور المغربية تتمة لعملهم هذا: فبما انهم استطاعوا الوصول الى سواحل افريقيا المصدرة لهذه المادة، فانه تحتم عليهم، تفاديا للمنافسة المغربية، «اغلاق» كل موانئه واحتلالها. (46) ومما يربط بين هذا العامل والاحتلال

أن سك العملة الذهبية تم بعد احتلال سبتة، التي احتفظت بدار سكتها حتى بعد احتلالها.(47)

العبيد: يرتبط هذا العامل بوباء الطاعون الاسود (1348) الذي انتزع من اوروبا اعدادا مهمة من سكانها وصلت احيانا الى النصف(48) وكانت حاجة اوروبا الى اليد العاملة كبيرة الى حد أن شوني (CHAUNU) اعتبر أول «قنص» نظم بسواحل موريطانيا بمثابة العامل والمحرك الاقتصادي «للكشوف».(49) ولقد كان اهتمام الامير «هنري الملاح» بهذه «السلعة» كبيرا جدا، وكان حريصا على تسلم عشر ما يدخل الى البرتغال من عبيد نتيجة احتكاره للمناطق المصدرة.(50)واذا كانت لنا عودة للموضوع في فصل لاحق، فلا بأس من الاشارة هنا الى مدى تهافت البرتغاليين على العبيد والاسرى «وقنص الرجال» بدكالة وبكل الثغور المغربية، وبكل الوسائل الممكنة. ودفعهم حرصهم على الحصول على هذه «السلعة» الثمينة الى التخلي للقبائل الحليفة حين الغارات على كل الغنائم مهما كانت مهمة، على ان تتخلى القبائل للبرتغاليين عن الاسرى.(51) ولقد تزاحمت المراكب البرتغالية بميناء أزمور لشراء الدكاليين حين مجاعة 1520، (52) وارسل الملك أو الملكة للقباطنة يطلبان منهم ارسال رجال او نساء...(53) وتؤكد وثيقة عثرنا عليها بالارشيف البرتغالي بشاعة الطرق المستعملة للحصول على الاسرى. (الملاحق)

التجارة: لقد نتج عن نجاح الثورة البورجوازية والحضرية التي ادت الى وصول اسرة (AVIS) الى الحكم (1385) ارتباط الحكام بالمال. وبما ان الرأسمالية الفردية كانت ما تزال ضعيفة، فان ذلك الزم الدولة بالتدخل.(54) ونظرا لفقر البلاد، ولوجود نظام جبائي يعفي الفئات المحظوظة من كل المغارم، فان الدولة عملت على الرفع من مواردها بالاهتمام بالتجارة.(55) ولقد لاحظنا المبررات التي استعملتها في البداية لدفع البابوية الى السماح لها بالاتجار مع المغرب.

وتعزز هذا الاهتمام بالتجارة عند الدولة بعد احتلال بعض الثغور المغربية، وبداية الاتجار مع الافارقة. وهكذا «اضحت الرأسمالية ملكية»(56) على عهد يوحنا الثاني، ونتج عن هذا الاهتمام احتكار التجارة جنوب كونتي وظهور مصالح مختصة

في التجارة مع افريقيا: (دار غينيا ولامينا)، ومع الهند: (دار الهند)(57) .

واصبحت تجارة ارغين بيد الامير يوحنا سنة 1475 ، وفي سنة 1506 اصبحت تجارة التوابل الأسيوية والذهب والفضة بيد الدولة(58) . ولقد لعب هذا العامل دوره في دفع البرتغاليين الى اختيار سبتة كهدف اذ كانت العملية «قضية بورجوازيين. . . يقودها نبلاء. . .»(59). وعلى كل، فاذا كان من الصعب تحديد اهمية هذا العامل ومكانته بين باقي العوامل بشمال المغرب، فان التجربة الاستعمارية بجنوبه تؤكد سيطرته على غيره سيطرة مطلقة. لقد كان البرتغاليون لا يبحثون هناك إلاّ على ضمان اسواق مدن دكالة والسوس للتزود منها بالسلع الضرورية لتجارة السودان او البرتغال أو لبيع ما حملته السفن البرتغالية. ولقد سبق التأكيد على علاقة اهتمام البرتغال بآسفي ببداية الاتجار بمركز أرغين. ولهذا تركت فرصة كبيرة للمبادرة الفردية، وشيد حصنان على يد نبيلين، وأرسل الوكلاء التجاريون، وتم احتلال الثغور الجنوبية ـ باستثناء أزمور ـ بطريقة مخالفة لما حدث بالشمال. وكان من أهم الشروط التي أكدت عليها المعاهدات الممضاة مع المغاربة هي ضمان سلامة التجار واعفاء التجارة الملكية من الضرائب.

الاسباب الاجتماعية: يمكن تلخيص التاريخ الاجتماعي والسياسي للبرتغال في ثلاث مراحل: مرحلة السيطرة الأرستقراطية التي انتهت مع ثورة 1383، ثم فترة سيطرة مؤقتة للبرجوازية مع (يوحنا الاول)،وأخيرا رجوع الأرستقراطية الى نفوذها السابق، مع فترة قصيرة حين وصاية الامير (بدرو) كان النفوذ فيها للبرجوازية.(60)

ولقد اجمعت الدراسات على ان الملك البرتغالي توخى من الهجوم على المغرب هدفين: الحفاظ على الروح العسكرية لدى النبلاء والفرسان الذين مالوا الى الدعة بعد امضاء الهدنة مع قشتالة، (1411) ، وشغل النبلاء المبعدين عن السلطة في حروب خارجية.(61)

كما وجد النبلاء والفرسان في غزو المغرب وسيلة لتخطي الازمة التي اصابت ذوي المداخيل القارة بعد تتالي انخفاض قيمة العملة، وذلك بالعمل على الحصول على أراضي جديدة وعلى مناصب أو رواتب تخلقها الحروب بالمغرب. كما كان وراء

مشروع الهجوم على سبتة، الضغط الذي قام به الامراء على ابيهم لكي يجد لهم وسيلة لأظهار شجاعتهم وتمكينهم من رتبة «فارس» (chevalier) . وكـان وراء الهجوم الاول على طنجة مشروع مماثل لفائدة الامير (دون فرنندو) (62) . ولقد اقترح المؤرخ البرتغالي (كودينيو GODINHO) تفسيرا طبقيا لغزو المغرب وللكشوف. فهو يرى أن البرتغاليين انقسموا في هذا الباب الى قسمين: قسم يفضل «المغامرة المغربية»، وقسم آخر يميل اكثر الى الكشوف الجغرافية والبحث عن الطريق الى الهند. وكـان النبلاء وراء الاختيار الاول، في حين دافعت طبقة التجار عن الاختيار الثاني. (63)

وكان يعزز الفريق الثاني الامير (دون بيدرو .PEDRO) الذي عارض اصرار النبلاء على احتلال المغرب وحذرهم من أنهم لن يستولوا عليه، بل على العكس من ذلك سيطمرون البرتغال بسبب ذلك العناد. وهو الذي دفع بالبرتغال الى انتهـاج سياسة التوسع السلمية، وأعطى نفسـا جديدا للكشـوف حـين فتـرة وصايتـه على العرش. الا أن اضطرابات سنة 1449 التي اودت بحياته، أعطت للغزو بالمغرب نفسا جديدا لعودة النبلاء الى السلطة. (64)

وبالفعل كان الغزو بالمغرب قضية نبلاء وفرسان. فلقد كانت القيادة العسكرية بأيديهم، وكانوا يعينون على رأس ادارة المدن المحتلة. وأعطيت مدن مغربية كإقطاع لبعضهم(65) . ونظرا لما حصلوا عليه من امتيازات، حرصوا على القيام بالغارات ضد المغاربة لاذكاء نار الحرب اكثر؛ وعملوا على إقحام الملوك اكثر في «المغامرة المغربية».

ولكن هذا الوزن الذي كان للارسطقراطية بالثغور المغربية لم يمنع التجار من الاهتمام بها. وسنرى دورهم في إخضاع مدن دكالة، وفي استقطاب بعض العناصر المغربية.

وبذلك تكون العوامل مختلفة حسب الفئات المهتمة بالتوسع.

(ب) **الوسائل**:

ومعلوم ان هذه الاسباب والدوافع غير كافية في حد ذاتها، بل يلزم توفر مجموعة من الشروط إذ كان افتقار كل من الجَنْوِيين والكطليين اليها سببا في فشل محاولاتهم التوسيعيـة والاستكشافيـة. وظن كثير من المـؤرخين أن البرتغال الفقير، والضيـق

الرقعة، والقليـــل السكان، [66] كـــان عاجزا عن الانطلاق في المغامرة لولا مساعدة الايطاليين وغيرهم من باقي الشعوب الاوروبية. [67] وحاول كل شعب اعطاء نفسه السبق في ميــدان الكشوف أو المساهمة فيها مساهمة كبرى، وذلك نتيجة تفاخر القوميات خلال القرن 19، وبداية الحركات الاستعمارية الاوروبية.

والحقيقة ان اسطول البرتغال كان قويا كما اثبت ذلك خلال حرب «المائة سنة» وأن بحارته تعوّدوا على ركـوب البحر المحيط بهدف الصيــد والتجارة. وإذا كان البرتغال قد استدعى الايطاليين للعمل في اسطوله، فإن ذلك يعود - يقول (كودينيو GODINHO) الى كون البحارة البرتغاليين لم يكـونوا متعوديـن على سفن الابيض المتوسط. ولقد لخص (شوني P. CHAUNU) اسباب السبق الإيبيري في توفر البرتغال واسبانيا على عدد من المعطيات الايجابية:

- وجـودهما قرب ايطـاليا حيث تراكمـت التجــارب التجــارية، وتطــورت الرأسمالية، (البنوك - الشركات - استعمال طرق مختلفة للاداء...). وبالفعل لعب الجَنْوِيون دورا طلائعيا في تطور الرأسمالية البرتغالية وتطور المبادلات مع المناطـق المكتشفة وازدهار فلاحة قصب السكر «بماديرا».

- تراكم التجارب والخبرات عند بحـارة وصيادي القســم الشمالي من البـلاد، فتعودوا لذلك على ركوب المحيط. ومعلوم ان الكشوف كانت تقتضي رفع التحدي الذي كان يمثله رأس بوجدور. ولقد كون هؤلاء البحارة نواة الاسطول البرتغالي.

- وجود البرتغال واسبانيا بمنطقــة شاءت حركة الـرياح والتيارات البحـرية ان تكون منطقة انطلاق ورجوع السفن المتجهة جنوبـا وغربـا. لذلك كانـت نقطـة انطلاق وعودة الاساطيل هي لشبونة أو قادس أوأشبيلية. [69] هذا زيادة على الروح الصليبية المسيطرة، وعلى تطور وسائل النقل بعد اختراع الكرفيلا، وتطور وسائل الاتجاه والقياس واختراع دفة المركب... وعلى كل، فهذه الاختراعات الاخيرة لم تؤثركثيرا على الغزو البرتغالي للمغرب لعامل القرب ولقدم العلاقات بين الطرفين.

2 - المراحل

لقد تطلبت «المغامرة البرتغالية» بالمغرب من البرتغال قرنا كاملا من الزمن، اي ما

يغطي فترة حكم خمسة ملوك،[70] ذلك ان سبتة سقطت صيف 1415 في حين تمت هزيمة البرتغاليين بالحصن الـذي شيدوه بالمعمـورة سنـة 1515 . وعرفت السياسـة البرتغالية ارتجالية كبيرة، وامتازت بانعدام الاستمرارية.

فـاذا كان من الاكيد ان الملـوك البرتغـاليين فكروا في بداية الأمـر في احتـلال المغرب [71]، فانهم نظرا لما واجههم من صعوبات، حولوا أعينهم نحو افريقيا اولا، ثم الهنـد ثانيا، واكتفـوا بالثغـور لاسبـاب استـراتيجية واقتصـادية. وحتـى مع هذا التحديد، لم يستطيعوا التحكم في كل موانىء المغرب، وان كان بعضها مهما جدا وقريبا من الثغور المحتلة، ويخلق لها مصاعب كالعرائش وتطوان والمعمورة وسلا وموانئ حاحة الصغيرة التي مكنت السعديين من تسليح جيوشهم . وهذا التعثر الذي امتازت به السياسة البرتغالية بالمغرب يدفع إلى بعض الملاحظات :

(أ) ـ لقد كان هذا التطور الذي طرأ على موقف حكام البرتغال من المغرب ناتجا عن مقاومة المغاربة العنيفة للغزو المسيحي،[72] تلك المقاومة التي جعلت من احتلال المدن والدفاع عنها وتنظيم هذا أو ذاك امرا صعبا يتطلب مصاريف وتضحيات سرعان ما أظهر البرتغال الصغير عجزه عن تحملها. وكانـت الكشوف الجغرافية لا تتطلب مثل ذلك، في حين كانت تبشر بمردود مهـم، إذ أن المشرفين عليها كانوا على علم بما تسمح به سواحل افريقيا والهند من ارباح طائلة. فلا غرابة، والحالة هذه، ان يكون (هنري الملاح) من اكبر المتحمسين لغزو المغرب في بداية الامر، قبل أن يصبح المسؤول الاول عن عملية الكشوف، وأول منظم للمبادلات التجارية مع سواحل افريقيا، وأكبر مستفيد منها.

(ب) ـ ان المغرب سرعان ما اصبح لا يكون بالنسبة للبرتغاليين غاية في حد ذاته.[73] ولقد ظهر ذلك واضحا بعد احتلال اصيلا وطنجة، أي بعد ان تم الوصول الى سواحل غينيا. وبهذا برزت فترة من الخمول دامت طويلا الى حين احتلال آسفي والهجوم على أزمور. وتجلى تردد البرتغاليين، وعدم اقتناعهم بضرورة الاحتلال في المرحلة الجنوبية حيث تركت المبادرة لأفراد بكل من اكدير ومغدور ومازيغـن واكتفى

الملوك البرتغاليون، ولمدة طويلة، بولاء اسمي لحكام آسفي وأزمور، ولم يقرروا الاحتلال إلا بعد مدة طويلة، وكانوا شبه مرغمين على ذلك.

ومع ذلك، فلقد اصبح واضحا ان ملوك أسرة «أفيش» الحديثة العهد بالحكم أصبحوا يعطون لمكتسباتهم بالمغرب دلالة خاصة. لقد أصبحت حروبهم به تكون مصدر امجاد ومنجما يزودهم بلآلىء تضاف الى تيجانهم، واصبح كل ملك مهما كانت مشاغله يعمل على احتلال ولو مدينة واحدة، أو ادخالها تحت حماية البرتغال.[74] كما كانوا يتوخون من هذا ايضا غاية أخرى، وهي إيهام الرأي العام والبابوية على الخصوص، ان المصاريف التي تبتلعها عملية الكشوف تهدف الى نفس الغاية: ـ تطويق الاسلام ـ.

(ج) ـ ونظرا لهذه المعطيات مرت التجربة الاستعمارية البرتغالية بالمغرب بمرحلتين متميزتين زمنيا وجغرافيا وسياسيا.

المرحلة الشمالية:

تمت في القرن الخامس عشر، اذ تم احتلال سبتة سنة 1415 والقصر الصغير سنة 1458 واصيلا وطنجة سنة 1471. وبقيت تطوان والعرائش حرتين.

وتمتاز هذه المرحلة بكونها تطلبت من البرتغال مجهودا ضخما جدا كان احيانا فوق طاقته، مما أرغمه على طلب عون دول مسيحية أخرى.[75] وتم الاحتلال على الطريقة التقليدية: اساطيل وجيوش، مما يجعله شبيها بحروب القرون الوسطى ومخالفا للروح الحقيقية التي صبغت التوسع البرتغالي في افريقيا.

وتتجلى هذه الصعوبات من خلال ما يلي:

ـ تطلبت الاستعدادات للهجوم على سبتة مدة طويلة، وسرية كبرى، وتطلب ذلك من البرتغال 220 مركبا.

ـ كما تطلب احتلال قرية القصر الصغير 280 مركبا و 25000 محارب.

ـ وتطلب احتلال طنجة اربع محاولات باءت ثلاثة منها بفشل ذريع، وأسر في المحاولة الاولى الامير (دون فرنندو). وبذلك اصبحت المدينة «مقبرة نبلاء البرتغال» لكثرة من ماتوا بها.(76)

ـ تخللت هذه المرحلة فترات ركود طالت احيانا، اذ يفصل احتلال سبتة عن اول هجوم على طنجة مدة 22 سنة، وتفصل ما بين هذه المحاولة واحتلال القصر مدة 21 سنة. ومعلوم ان هذه الفترة الممتدة ما بين 1438 (مبايعة الفونص) و 1471 (سقوط اصيلا، وطنجة) تعتبر انشطمرحلة مر بها الغزو البرتغالي.

ـ منيت اول محاولة للتوغل داخل هذا القسم من المغرب بفشل ذريع. فلقد قرر الملك (يوحنا الثاني) إنشاء حصن على مقربة من التقاء وادي المخازن واللكوس. وكانت غايته بالاضافة الى ضمان حماية المدن الساحلية المحتلة، اخضاع القصر الكبير والتحكم في السهل المحيطبه. الا ان السلطان الوطاسي ضرب على البرتغاليين حصارا وأغلق النهر، مما حال دون وصول العون الى المحاصرين الذين لم يبق لهم الا الاستسلام. ولم يعرف السلطان الوطاسي كيف يستغل انتصاره.(77)

ولم ينعم البرتغاليون بالراحة في الثغور الشمالية، ولم تعط محاولاتهم امضاء معاهدات مع سكان الضواحي وجبال الخروب أية نتيجة، ذلك أن القبائل سرعان ما ضربت حصارا على هذه المدن، مؤطرة في ذلك من طرف الزوايا والفقهاء، وقواد القصر الكبير، والشاون، وتطوان، وأحيانا من طرف الوطاسيين. وتحرك آخر ملوك المرينيين للجهاد. وحاول الوطاسيون، رغم عدة تنازلات، رفع راية الجهاد. وكانت جل حركاتهم خطيرة، وكادت أصيلا ان تسقط في ايديهم خلال احداها (1508)(78).

ونظراً لهذه الصعوبات لم يكن بيد البرتغاليين حوالي سنة 1500، أي بعد 85 سنة من بداية غزوهم للمغرب، الا اربع مدن، وعجزوا عن احتلال العرائش التي تنازل لهم عنها محمد الشيخ الوطاسي(79)، ولم يستطيعوا استغلال فرصة قدمها لهم ابن راشد لاحتلال تطوان(80).

وهكذا اصبحت هذه المدن التي كانت تعرف قبل احتلالها رواجاً تجارياً كبيراً، عبارة عن ثكنات عسكرية تعتمد في عيشها على البرتغال عوض ان يستفيد هو منها، كما كان متوقعاً(81) . ولقد عبر احد البرتغاليين عن نفسية جنودهم داخل هذه الثغور بقوله: «. . . كنا نبقى داخل الثغور المغربية كما لو كنا على ظهر سفننا، ولكن السفن كانت تمخر البحار بحرية ناشرة نفوذنا وملحقة الهزائم (بالاعداء)، في حين كانت الثغور في كل مكان جامدة، معرضة باستمرار لأمواج المغاربة العنيفة» . .(82)

ويؤكد هذه الحقيقة ما وصلنا من ايصالات متعلقة بمدن الشمال، والتي لا تشير الا الى المصاريف التي تتطلبها صيانة أسوار هذه المدن، وتكاليف عيش حاميتها ومصاريف الدفاع عنها. وتطغى بالايصالات المواد الغذائية من قمح وشعير، ودقيق وبسكويت، وخمر، ومواد البناء (الجير-الحديد)؛ وكذلك الاسلحة والبارود والكبريت(83) ؛ في حين ان الايصالات المتعلقة بموانيء الجنوب، وخصوصاً بآسفي وأزمور، اكتست طابعاً تجارياً واضحاً(84) .

ويمكن اعطاء صورة عن هذه الوضعية بايراد محتوى إيصال يتعلق بسبتة لأخذ فكرة عما نقول: ويتعلق الايصال بالفترة الممتدة ما بين 1494 - 1496 (85) :

القمح: 1638 مداً 10,5 «الكير»(86)

الدقيق: 29 مداً، 4 «الكير»

بسكويت: 83 قنطاراً، 1 «ربع»

اكياس: 50 (دقيق)

نقود: 2593323 «ريال» (صرفت على يد «المحاسب»)

مصاريف الترميم: 427160 «ريال»

الجير: 3373 مد، 2 «الكير»

اخشاب: 280 دزينة (12.280) و 7 ألواح

عربات: 3

ركائز البناء: 12 (من خشب)

مسامير؛ 15053

حديد: 39قنطارا. 3 «ربع»

ركائز للبناء: 81

فولاذ: 1 قنطار، 3,5 «ربع»

واحتفظت أصيلا بنوع من الرواج النسبي، ذلك ان عدداً من القوافل كان تصل اليها بين الحين والآخر[87].

ولاعطاء فكرة عما اصبح يتطلبه الحفاظ على هذه المدن، نذكر أن طنجة وأصيلا والقصر وسبتة أصبحت تبتلع عشر مداخيل البرتغال! (سنة 1477)[88] وما يهمنا من هذه الارقام والايصالات هو ان البرتغاليين حين اتصالهم بجنوب المغرب كانوا قد استنتجوا مخلفات تجربتهم بالشمال، وعاينوا ما آلت اليه هذه المدن بعد احتلالها. فما هي السياسة التي انتهجوهابالجنوب على ضوء تجربتهم بالشمال؟

المرحلة الجنوبية

تخلى البرتغاليون جنوب نهر أم الربيع عن السياسة التي انتهجوها شماله. ورغم انهم احتلوا عدداً من المدن، فان ذلك تم في ظروف جد مختلفة، وتطلب مجهوداً أقل بكثير مما تطلبه احتلال المدن الشمالية.

واعتمد في ذلك على التوغل السلمي. ولقد سمح الفراغ السياسي للبرتغاليين بالتحكم في عدد من الثغور الجنوبية دون ادنى مجهود، اذ تم تحصين اكدير (1505) ومغدور (1506) على يد نبيلين برتغاليين[89].

وكان من المقرر ان يتم نفس الشيء بمازيغن[90]. وزيادة على ذلك، دخلت المدن التي كانت تعرف نوعاً من التنظيم السياسي تحت«حماية» الملك البرتغالي، ولعب

التجار دوراً كبيراً في هذا الاعتراف بسلطة البرتغال. واكتفى البرتغاليون لمدة طويلة بهذا الولاء، ولم يتم احتلال المدينتين الدكاليتين الا في نهاية العقد الاول من القرن السادس عشر لأسباب سنعود اليها.

وهكذا يكون المسؤ ولون البرتغاليون قد اعطوا للغز و بالجنوب طابعاً استعمارياً جديداً، يتجلى في اعطاء الاولوية للدبلوماسية، وفي الحرص على الحفاظ على البنيان القائم للاستفادة منه عوض تحطيمه. وبذلك دخلوا تجربة سياسية جديدة تهدف الى اقامة تبادل تجاري وتبحث عن الربح اكثر مما تهدف الى مطاردة المسلمين، أو نقل حروب الاسترداد الى تلك المناطق.

ومن خلال هذه السياسة يظهر أن تحولا كبيراً قد حدث في أهمية العوامل التي أدت الى غز و سواحل المغرب، لتصبح السيطرة مطلقة للعامل التجاري. ولكن وزن الفئات الاجتماعية المهتمة بالغزو، وخصوصاً النبلاء والفرسان، كان كبيراً مما يدفعنا الى التساؤ ل عن موقفهم من تلك السياسة الجديدة. ولكن الاجابة عن هذا السؤ ال تقتضي طرح آخر قبله: كيف تم الاتصال بالمناطق الجنوبية، وكيف تم التحكم في دكالة، وما هي مظاهر ومراحل ذلك التحكم؟؟.

التعاليق والهوامش

(1) Piérre chaunu: L'éxpansion Européenne du XIII au XV. siècle. nle Clio, n, 26 Paris, 1969 pp, 132, 133

(2) Ch. m. witte: Les bulles pontificales et L'Expansion européenne au XV. S. Rev. d'histoire écclesiastique – Louvain 1956 p. 429

Lannoy – Vandeer: L'Expansion coloniale des peuples européens. Bruxelles, 1907 p 29 – 56.

Gounard: La conqête portugaise, découvreurs et économistes. p 27.

H. Terrasse: Histoire du Maroc. II p 114.

A. Parétier: apperçu historique de L'occupation portugaise au Maroc. Rev. du Monde Musulman, XII; 1910 p. 234.

(3) رسالة الملك يوحنا الاول الى ملك الارغون، وخطاب سفير البرتغال لدى المجمع الديني سنة 1516. M. Witte: Les bulles... art. Cité XL VIII, 1953 pp 689 – 690.

(4) حث يوحنا الاول ابناءه على متابعة الحروب بالمغرب، وذلك قبل موته. راجع Les bulles... art Cité XL VIII 1953. pp 699

(5) كانت هذه الجماعات العسكرية اربعة تكونت في فترات مختلفة للدفاع عن البرتغال، ومنع كل هجوم اسلامي عليه. وكانت تستفيد من اقطاعات شاسعة تضمن لها اعدادا هائلة من الفرسان. وهذه الجماعات هي:

(أ) أقدمها وأقواها: جماعة المسيح (Ordre du Christ) التي أسست سنة 1318 وأصبحت وقت بداية الكشوف تحت رئاسة الامير هنري الملاح.

(ب) جماعة «أفيس» AVIS التي تعززت بوصول الأسرة التي تحمل نفس الاسم الى السلطة بعد ثورة 1383 – 1385).

(ج) جماعة St jacque de L'Epeé

(د) جماعة St Jean ou de L'Hopital

راجع : Lannoy. L'Expansion.. op cité pp 16 – 17

(6) وصلت المعارضة الى حد ان البعض فضل السجن أو أن يرى املاكه تصادر على أن يساهم في الهجوم على طنجة (1437) ، وبعد تدخل النبلاء والجماعات لدى البابا، اضطر الملك الفونص الخامس، وخلفه، الى التخلي عن التجنيد الاجباري. وكان أمنويل أول من عرف كيف يقحم النبلاء والفرسان في المغامرة المغربية وذلك بخلق مناصب Commanderies) هناك.

– Lannoy op cité p 127 – Witte.. op cité L III 1958 pp 19 – 23 n. 3

Castonnet des Fosses: Les portugais au Maroc, Paris 1886 p. 8

(7) CH. Witte, art. Cité L III 1958 pp. 11 – 14 Lannoy op cité p 127

(8) Ibid L 1956 p 832 Ibid pp 35, 137 p Chaunu – L'Expansion... op cité pp 128 – 142

(9) كانت هذه القرارات موضوع دراسة مطولة في أربع مقالات طويلة (قرابة 200 ص) نشرت بمجلة دينية ب Louvain ما بين 1953 و 1958 والجدير بالملاحظة ان الكاتب راهب.

(10) Ibid, LI 1956, p 834

(11) Ibid, XLIX, 1954, p 439

(12) Ibid, XL VIII, 1953, p 690

(13) Ibid LI, 1956, p 830

(14) Ibid XLIX, 1954 p 442 ولاحظ المؤلف ان محرري القرارات كانوا يعملون عن قصد على ذكر كل الوسائل التي تمكن الملك من جمع اكثر ما يمكن من الاموال Ibid L III, 1958 P 41 والزم البابا ملوك البرتغال بالقيام بعمليات عسكرية لكي يستفيدوا مما تم جمعه في البلاد المسيحية لمواجهة التوسع العثماني ومحاربة الاسلام، وكان هذا من الاسباب التي حدت بالملك يوحنا الثاني الى التحصن بإحدى جزر اللكوس (المليحة) وذكر مؤرخ هذا الملك (Rui de Pina) ان القرار البابوي مكن الملك من جمع اموال طائلة ولكنه لم يتمكن من عبور البحر الى المغرب.

(15) Witte, XL VIII, 1953, p. 696 XLIX 1954 p 460

(16) Ibid XLIX, 1954, P. 449 n 3

(17) Ibid, LIII, 1958, P. 9 n 2

(18) Ibid, L III, 1958, 18

(19) ومما له دلالته ان القرارات صدرت بطلب من البرتغال.

(20) Witte, LL, 1956 p 835

(21) Ibid XL, VIII, p 690 XLIX 1954 p 44

(22) Ibid LI, 1956 p 834

(23) Witte... art cité 1953 p 690, 1956 p 427

(24) Ibid, XL VIII, 1953, p 692

(25) Ibid 706

(26) Ibid L, 1956 p. 830 وتعزز هذا خصوصا بعد اتصالهم بالجنوب المغربي.

(27) وهذا ما يؤكد حرص البرتغال على دفع البابوية الى الاعتراف بمشروعية الكشوف وجعلها حكرا عليه وابعاد غيره عنها. وتجلى هذا التحول بوضوح حينما طلب البرتغال قرارا بابويا (1454) اي حينما لم تكن بيده الا سبته. وهذا ما دفع Witte الذي يعطي الاولوية للعامل الديني الى الاعتراف بهذا الاهتمام الجديد والعلني عند المسؤولين البرتغاليين، والذي اعتبره « استعماريا » سببته اهتمامات « . . . اقتصادية وروحية في نفس الوقت. . . » Witte, LI, 1956, p 431 انظر عن تحول الطابع الصليبي الى طابع تجاري مسيطر Gounard op cité pp 28 - 29

(28) M. Barrades de Carvalho. L'Idéologie religieuse dans la Cronica De Guiné: B. E. P. T. 18, 1955 – 56, pp. 47 – 48.

(29) مما قد يعطي فكرة عن هذا النشاط ان احد الرهبان المكلفين بشراء الاسرى النصارى استطاع تحرير ما لا يقل عن 2984 (مات سنة 1431). ولكن هذا ينطبق على الجهاد البحري بشمال افريقيا كلها: Witte, LIII. 1958, p.458, n,1

(30) Brignon et collaborateurs. Histoire du Maroc. Hatier. 1967 p 170

(31) S. I. H. M. Port I p 209

(32) Léon... op cité I pp 160 – 161 – S. I. H. M. Port I. p. XI
Historia de portugal, Barcelos, TIII. p. 404 – 05

(33) Lannoy, op cité p 209 – H. Terrasse, op cité pp 113 – 114 – Góis op cité 167

(34) Gois pp 18, 167, 203 – 204 – 209
ويرى (كويش) Gois ان التوسع البرتغالي كان نتيجة خوف البرتغاليين من تقدم العثمانيين بحوض الابيض المتوسط لذا عملوا على التحكم في المضيق راجع.
M, V. Godinho: Les grandes Découvertes... op cité p 110

(35) M. Nunes Dias : O capitalismo, cité Par P. Chaunu op cité p 125

(36) P. Chaunu: L'expansion... op cité pp 151 – 53

(37) عد الى الهامش رقم 40 بالفصل الثالث من الباب السابق.

(38) V. M. Godinho: Les grandes découvertes, op cité p 31
– P. Chaunu. L'Expansion... op cité p 111

(39) عد الى الهامش رقم 25 من الفصل الثالث من الباب السابق.

(40) P. Chaunu. L'Expansion... op cité 111

(41) Ibid, p 312

(42) Ibid p. 271 لان قدرته على الحمل تصل الى حوالي 35 – 40 كلغ وباستطاعته السير لمسافة 50 كلم كل يوم.

(43) Ibid, p 118

(44) V. M. Godinho: L'Economie... op cité pp 25, 39
P. Chaunu: L'Expansion... op cité pp 117 – 119

V. M. Godinho: Les grandes découvertes... art cité pp 35, 39

(45) P. Chaunu: L'Expansion... op cité pp 93 – 98, 312, 350

(46) V. M. Godinho: Les grandes découvertes... art cité pp 16 – 17

(47) Ibid p 36

(48) P. Chaunu: L'Expansion.. op cité pp 105 ، 353

(49) Ibid p 141 شوقي الجمل عطا الله ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها. القاهرة 1971 ص 156

(50) Ibid. p 143

(51) Góis... op cité pp 93, 121, 131... كتب ص 121 « . . . وعاد اولئك الاسرى (280) الى المسيحين، وعادت الغنائم، من ذهب وفضة ومواشي، والتي كانت ذات قيمة مهمة، الى المسلمين (الدكاليين) التابعين لسيدي يحيى أو تعفوفت. . . »

(52) أنظر الفصل الثاني من الباب الثالث.

(53) S. I. H. M. Port I p 446. Góis... op cité p 17

(54) V.M. Godinho : Les finances publiques et la structure de L'Etat portugais au XVIe. S. Rev. Economia. XIV; Juin 1962; p 165 et suivantes.

وكتب نفس المؤرخ بنفس الصفحة واصفا عقلية الدولة البرتغالية « . . . وهكذا استولت، ومبكرا، على المملكة، وعلى الدولة البرتغالية، عادة تجارية رسخت مع السنوات. . . » وعبر عن الدولة البرتغالية «بالدولة التاجرة» (L'Etat marchand)

(55) Lannoy: L'Expansion... op cité p 15

(56) P. Chaunu: L'Expansion... op cité p 322 انظر اهتمام الملك البرتغالي بالعمليات التجارية الاكثر رواجا والتي تسمح بأكبر ربح في الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا البحث.

(57) عن هاتين المصلحتين (Casa da Mina) Casa da India

راجع : P. chaunu: L'éxpansion... op cité T2 (26 bis) p 229

(58) V. M. Godinho:L'économie: op cité 105

(59) P. Chaunu: L'Expansion... op cité p 126

(60) M. Godinho: Les grandes découvertes. art, cité p 43

(61) Lannoy :L'éxpansion... op cité pp 29, 31 p. Chaunu : L'Expansion op cité p 322.

C. Des Fosses: Les portugais... art cité p 6

R. Gounard: La conquête... op cité p 26. G. E. De Zurara: Chronique de Guiné. trad

L. Boudon. Dakar. 1960. p. 55.

(62) Ch. Witte. Les Bulles... art cité 1953 p 695

– V. M. Godinho. L'économie... op cité p 40

– V. M. Godinho: Les grandes découvertes . art cité p 42

– p. Chanunu: L'éxpansion... op cité p 119
– Lannoy: L'éxpansion... op cité p 41.

(63) V. M. Godinho: L'économie... op cité p 41. Les grandes decouvertes... art. Cité p 43 p P. Chaunu: L'Expansion... op cité p 363. R. Ricard: c. r. in. Hesp. 1927. lér. trim. pp 49 – 51.

(64) V. M. Godinho: Les grandes découvertes... art cité p 43
Lannoy: L'Expansion.. op cité p 44 S. I. H. M. Port I. p IX

(65) أنفا، العرائش، مغدور، أكوز، مازيغن.
Lannoy: L'Expansion. op cité p 5 – V. M. Godinho: L'économie... p 18

(66) ويقدر عدد سكان البرتغال انذاك بحوالي مليون او مليون ونصف ساكن.

(67) Ibid p 11 Ibid p 21 – 31

(68) V. M. Godinho: L'économie... op cité pp 35 – 39

(69) P. Chaunu: L'Expansion op cité pp 106 – 109

(70) يوحنا الاول (1385 – 1433) ادوارد (1433 — 1438) الفونص الخامس «الافريقي» (1438 – 1481) يوحنا الثاني (1481 – 1495) امنويل الاول «السعيد» (1495 – 1521)

(71) P. Chaunu: L'Expansion op cité p 121

(72) Ibid pp 137 – 38

(73) D Lopes: Les portugais... art cité p 337. R. Ricard. Le probléme de L'occupation restreinte. en Afrique de Nord. A. E. S. Septembre 1936. p. 433.

(74) D. Lopes: Les portugais... art. cité p 337

(75) Lannoy: L'Expansion.. op cité.. p 32

(76) ونحيل فيا يخص هذه الاعداد على مقدمة:
S. I. H. M. port I pp VIII – XIII (Introd)

وتوفي خلال المحاولة الثانية ضد طنجة ما يقرب من 300 نبيل برتغالي.
راجع: Ch. M Witte: Les bulles.. art. cité L III. 1958 p. 18. n 1

(77) D. Lopes: Les portugais... op cité p 343

Os. portugueses... op cité 450 – 452. S. I. H. M. Port I pp XV – XVI
محمد الكراسي عروسة المسائل فيا لنبي وطاس من الفضائل الرباط 1963 ص 15 ابن القاضي احمد: لقط الفرائد... مصدر سابق ص 271 – 272 – Léon... op cité I p 258
احمد بو شرب: وثيقة جديدة تتعلق بواقعة المليحة 1489، مجلة كلية الاداب، فاس العدد الثاني، ص ص 376 – 387

(78) Góis... op cité pp 43 – 53

(79) في المعاهدة التي امضاها معهم بعيد سقوط اصيلا S. I. H. M. Port I p XII

(80) وكان ذلك سنة 1502 Hesp. 1957 pp 21 - 25

(81) أخبر الملك (أدوارد) البابا بان ادارة سبتة تتطلب منه 500 28 «دوقا» (1437) زيادة على المصاريف الاستثنائية. وكانت طنجة واصيلا والقصر الصغير تبتلع عشر مداخيل البرتغال

Lannoy: L'Expansion... op cité p 187

(82) D. Lopes: Les portugais... art cité p 340

(83) توجد عدة ايصالات متعلقة بالثغور الشمالية، تؤكد كلها على هذا الطابع

(أصيلا) Arch. Hist Port I p 285, 286

(سبتة) Ibid, tIV, p. 76. V. p 239

(طنجة) Ibid t. IV. p 475 V. p 475

(84) انظر الايصالات المتعلقة بآسفي المنشورة بالملحق

(85) Arch. Hist port T6 p 78

(86) سنعود الى هذه الوحدات في الفصل الثاني من الباب الثالث.

(87) De Sousa op cité p 59 مرآة المحاسن... ص 142 - 143

(88) Lannoy... op cité p 187

(89) مغدور (D. D'Azambuja) اكدير، J. Lopez de Sequeira

(90) اقتطعت لفائدة J. De. Mello ولكنه لم ينفذ المشروع لأسباب بقيت مجهولة.

الفصل الثاني

التجربة السياسية البرتغالية مع حاضرتي دكالة:
من الولاء والحكم غير المباشر إلى الاحتلال

من المعلوم ان المغرب لم يعرف الاستقرار السياسي بعد اغتيال ابي عنان الا في فترات قصيرة ومتقطعة. وهكذا تتالت انقلابات البلاط وتحكم الوزراء في السلاطين، وتدخلت الدول المجاورة في سياسة المغرب لتزيد الازمة عمقا. وبذلك استقلت جل الاقاليم عن السلطة المركزية. ونظرا لضعف الدولة المرينية، وعجزها عن التحكم في كل اقاليم المغرب، ونظرا لانقسام الاسرة الحاكمة، تقرر تقسيم المغرب الى قسمين، وجعل «مملكة مراكش» تحت الاشراف الفعلي للهنتاتيين، مما سمح لهم بالاسقلال بالمنطقة وانشاء مملكة خاصة بهم.

واذا كنا لا ندري متى اسست هذه «الدولة»، فان الوزان أثبت أن آسفي كانت ضمن نفوذها(1). الا انها سرعان ما أظهرت عجزها عن الحفاظ على المناطق التابعة لها، ولم يبق بيد «ملك» مراكش في بداية القرن السادس عشر الا العاصمة والنواحي القريبة منها.

فما هي الاختيارات السياسية التي اعطتها الحواضر الدكالية لنفسها بعد استقلالها؟

1 ـ فترة ولاء آسفي وأزمور لملك البرتغال: تحليل المعاهدتين

(أ) استقلال الحاضرتين واختياراتها السياسية.

لاندري بالضبط متى استقلت آسفي عن مراكش. فحينما طرد الجزولي من آسفي، كان عليها «قائد» لم تحدد المصادر هويته، وحين وصول الرحالة الفرنسي (de la fosse)الى المدينة سنة 1479 وجد بها «ملكا»[2] . وقبل 1481 ، قرر قائد آسفي الاعتراف بسلطة الملك الفونص الخامس (المتوفى يوم 28 غشت 1481) على المدينة[3] . وحسب رواية الوزان، كان القائد من اسرة بني فرحون، التي استولت على السلطة اثر استقلال المدينة عن مراكش[4] . وكان اول من عرفتنا النصوص عليه من افرادها هو القائد (احمد بن علي) الذي امضى مع البرتغال المعاهدة المذكورة. ولا شك انه اول حكام هذه الاسرة لسكوت النصوص عن غيره. واذا كان هذا القائد يكتفي بلقب «القائد»، فان ابن اخيه وخلفه لقب نفسه «بالملك»[5] .

ولم تستطع هذه الاسرة الحفاظ على السلطة، وعرفت معارضة شديدة حتى من طرف بعض افرادها. وكانت المناطق المجاورة، واحيانا اخرى خارج النواحي المباشرة لآسفي، تابعة لقائد المدينة. وهكذا كانت جبال بني ماكر، وقرية (مرامير) الموجودة جنوب (التانسيفت، وربما المدينة الغربية[6] ،تدين لقائد آسفي بالطاعة. والغريب، إن صحت رواية الوزان، ان قرية بولعوان الموجودة على الضفة اليسرى لام الربيع، كانت تابعة له. ويحتمل كثيرا ان تكون هذه المناطق قد دخلت تحت النفوذ السياسي لآسفي على عهد اول قوادها، (احمد بن علي)، لان القلاقل والفتن التي عرفتها المدينة بعده لا تسمح بمثل هذا النفوذ.

وكان اختيار أزمور السياسي مخالفا، ذلك ان الحكم كان بها جماعيا. فلقد نحي عامل المدينة، أو من كان يقوم مقامه، وحلت محله مجموعة من الاعيان لا ندري كيف تم اختيارها، ولا كيف تم تقسيم السلطة فيما بينها. ويبدو من المعاهدة التي أمضوها مع الملك البرتغالي، أن عناصر «قبيلة الهنائيين» كانت مسيطرة مما يؤكد انه يصعب التمييز ما بين المدينة والقبيلة، الشيء الذي يبدو في المعاهدة ككتلة واحدة. والى جانب الهنائيين ورد ذكر عناصر تنتمي لاسرة «اليونسيين» «وأسرة ابن القاسم»[7] .

وكانوا حسب مارمول يعرفون نوعا من الاستقرار السياسي كانت تفتقر اليه جل المدن المغربية المستقلة.[8]

ولم نتوصل بأية اشارة تثبت تحكم المدينة في المناطق المجاورة كما كانت عليه الحال بآسفي، ولم يكن ولو ميناء (مازيغن) القريب، تابعا لأزمور.

واصبحت ادارة المدينة الغربية بيد أعيانها الذين كانوا على اتصال بوكيل الملك التجاري بآسفي الذي أملي عليهم بعض المواقف السياسية، منها عصيان قائد آسفي، وطلب ارسال جيوش وتجار برتغاليين الى مدينتهم[9]. ولهذا الاتصال دلالته. فما هو سببه والغاية منه؟

مما لا شك فيه انهم كانوا يتوخون من ذلك التخلص من التبعية التي تدين بها مدينتهم لآسفي لعدم توفرها على ميناء. وهذا المثال يؤكد وجود اهتمامات تجارية لدى حكام المدن، تلك الاهتمامات التي تملي عليهم مواقف سياسية معينة. ويعني هذا ان الاعيان والمسؤولين على المدن كانوا ايضا يهتمون بالتجارة. وتدل على هذه الحقيقة المهمة عدة قرائن. فلقد كان القائد احمد بن علي متعدد العقارات[10]، وكان من اكبر تجار المدينة ان لم يكن اكبرهم، لان الملك البرتغالي كان يدين له بقسم من ثمن الحنابل التي باعها اياه[11]، مما يؤكد ان الكميات كانت مهمة. ومن المحتمل ان يكون قد استفاد من الرخصة التي كان خلفه يستفيد منها الى حدود 1500، والتي كانت تسمح له بارسال سفينة لبيع سلعه في مركز ارغين التجاري، وذلك مرة في السنة[12]. ويتطلب هذا إمكانيات مالية مهمة.ولعل ما تعبر عنه النصوص بالاعيان، كانوا ايضاتجارا كبارا لانه لا يعقل ان لا يهتم هؤلاء بأكبر نشاط اصبحت تعيش عليه المدينة. ولا شك ان هذه الملاحظة تنطبق ايضا على أزمور، التي كانت كما لاحظ ذلك ابن الخطيب، سباقة الى اعطاء نفسها طبقة تجارية ديناميكية.

لقد استولى على السلطة اذن من اصبح اهتمامهم بالتجارة كبيرا. ولذا حاولوا استغلال نفوذهم ومركزهم للرفع من عملياتهم التجارية، والاستفادة اكثر من دور الوساطة، والاستحواذ على مداخيل المدينتين المهمة (الجمارك، الضرائب على

الصيد، وعلى البوادي). فما هو نوع الحكم الذي فرضوه لتحقيق هذه الاهداف؟.

رغم الاختلاف الواضح في نوع النظامين بأزمور وآسفي، نجد مع ذلك بينهما قاسما مشتركا، هو عجز حكام المدينتين عن الحصول على ثقة وطاعة كل السكان او بالاحرى كل الاعيان. ولا شك في أن الاعيان لم يقبلوا ان يستفيد قسم منهم دون الآخر من رواج المدينتين ومداخيلهما. ولهذا اكدت كل النصوص على انقسام الاعيان الذي ازداد حدة بتزايد الارتباط بالاجانب، الشيء الذي حدث للمدينة الغربية ايضا بعد ذلك الاتصال. وتبدو هذه الحقيقة بوضوح من نص متعلق بأزمور التي كانت كما لاحظنا، اقل انقساما من جارتها. فلقد اعترف حكامها انفسهم بوجود «احزاب» بها وألزموا الملك البرتغالي الذي دخلوا تحت حمايته بالدفاع عنهم وضمان بقائهم في السلطة: «... وأن تكونون (كذا) علينا العين الباصرة، وعلى **جميع حزبنا ومن ركن الينا وانتسب من جملتنا.....**» وتكرر هذا الاعتراف بالانقسام مرة اخرى بنفس الوثيقة(13) كما تكرر كذلك في وثيقة اخرى (14). وبهذا نصل الى سؤ ال مهم، وهو الا تكون هذه المعارضة، وعجز الحكام عن اسكاتها هي سبب الالتجاء الى البرتغال وطلب حمايته؟ لا شك ان هذا ما حدث، خصوصا وان البرتغاليين المهتمين بمصير المدينتين لَوّحُوا بمجموعة من الوعود والضمانات. ولفهم اسباب هذا التحول في الحياة السياسية، لا بد من معرفة اسباب تعويض نظام استبداد (الدولة او العامل) بآخر ربما كان اكثر منه استبدادا. وقد تسمح بفهم ذلك التحول دراسة التجربة السياسية بالحواضر التجارية الداخلية التي لم ترتبط بالاجانب. ويمكننا الوزان من القيام بهذه المقارنة، مما سيسمح بوضع الاصبع على سبب رئيسي من اسباب محن المدينتين التجارتين.

لقد كانت المدن التجارية الاخرى تعرف أنظمة أبوية ترعى الاجانب الذين يفدون عليها، ويحتمي فيها الضعيف بالقوي. فلقد **الغيت الجبايات** (بتادنيست)، بحاحة، وتحمل الاغنياء مصاريف تسيير وصيانة المدينة(15). وكان قائد (تقولعت) يكثر من صدقاته وهباته التي أغدق بها الفقراء «.... الى حد انه لا يوجد أحد لا يجبه كأب(16) ...» وفي (تفطنا)، بحاحة، كانت الضرائب التي

يحصل عليها بالميناء توزع بصفة **عادلة** على المساهمين في الدفاع عن المدينة(17) . وكانت هذه الابوية موجودة ببعض مدن هسكورة التجارية(18) . وعمل السكان في مدن أخرى على الحيلولة دون سقوط مدنهم في الاستبداد والحكم الفردي، وذلك بتقسيم السلط بين عدد من الاعيان يختارون احيانا بالقرعة، وكانت مدة الحكم محددة مسبقا(19) .

فهذه «الجمهوريات» شديدة الشبه بما درسه (مونطان) بالجنوب بعد استقلاله عن المخزن(20) . حقيقة ان هذه المؤسسات غير «ديموقراطية» ان صح التعبير، وانها جمهوريات «اوليغارشية» لا تترك مكانا للعامة، ولكنها كانت مع ذلك اقل سوءا ـ وبكثير ـ مما كان عليه الحال بحاضرتي دكالة. واضح اذن ان السبب في الاستبداد هو محاولة حكام آسفي وأزمور الاستفادة وحدهم من رواج المدينتين، واحتكار مداخيلها المهمة. وزاد وصول البرتغاليين والاسبان، وتنافسهم هذا التحول تطرفا، فازدادت بذلك المعارضة(21) .

(ب) امضاء المعاهدتين

وامام هذه المعارضة، التجأ الحكام الى البرتغاليين.

وهكذا امضت كل من آسفي وأزمور معاهدة دخلت بمقتضاها تحت حماية البرتغال.

وكانت آسفي سباقة الى ذلك، اذ ادخلها قائدها تحت النفوذ البرتغالي في تاريخ لم يصلنا، وان كان قبل وفاة الفونص الخامس (1481) . واعترفت ازمور بسلطة (يوحنا الثاني) سنة 1486 .(22) وبعد تناس طويل للمعاهدة، عاد القائد احمد بن علي لطلب تجديد العمل بها سنة 1488 .

واول ما يثير انتباه دارس الوثيقتين، كونهما مشبعتين بروح النظام الفيودالي، ان لم تكونا تطبيقا حرفيا له. وبذلك نلاحظ اول طابع ارستقراطي في النظام الاستعماري البرتغالي بالمغرب.

ومعلوم ان النظام الفيودالي يقتضي وجود جانبين: جانب ضعيف يلتمس من آخر اقوى منه الرعاية والحماية مقابل مجموعة من الخدمات، دون ان يمس ذلك بكرامة وحرية الطرف الضعيف الذي يبقى، رغم ارتباطه بسيده، متساويا معه، مبدئيا، في الحقوق والواجبات؛ ويبقى من حقه اذا ما لاحظ إهانة او تقصيرا ان يطالب بإلغاء العقدة.

ويتم عادة الاتفاق ما بين السيد والمولى حسب برطكول يمر من ثلاث مراحل.[24] وتحتوي الوثيقتان على هذه المراحل الثلاث.

فاذا التجأ سكان ازمور الى حماية الملك البرتغالي، فلانه «. . . للمسكين مأوى، للملهوف ركنا، للغريب عمّاً . . .»[25].

ويوجد القسم الاول من البرطكول بالوثيقتين. فالتصريح «الحر» بالرغبة في الدخول تحت سلطة الملك البرتغالي كانت من اهم النقط التي اكدت عليها الوثيقتان «. . . ونحن نعرفكم يا مولانا ان نحن (سكان ازمور) كنا اصرفنا اليكم مع فارسكم (مرطين رينال M. Reynal) ثم بعد ذلك مع (جون فرايس J. Fraes) فارسكم الذي وصلنا كتابان اثنان، واعلمناكم بكتبنا كيف نحن لكم خدما وموهوبين، وفي حبكم ورعيكم راغبين، وذلك بقلوب **صادقة ونفوس خالصة**، لتكون حرمتك علينا وعلى جميع قبيلتنا ومدينتنا، وان تكون لنا مأوى وركنا وحبيبا ومولى. . .»[26].

ومما يؤكد الاهمية التي كان الملك البرتغالي يوليها لهذا التصريح «الحر» أنه عاد ليؤكد مرة أخرى على لسان أزمور (لأن التحرير تم بالبرتغال)[27] على هذه «الرغبة الصادقة» . . . فاعلم أن وقع وفاقنا على صلحكم وعافيتكم. . . وأردنا لها واخترنا أن تكون لنا حبيبا ومولا. . .»[28] وعبر قائد آسفي عن نفس الرغبة التي تتجسد في ارسال ابن أخيه، يحيي الزيات، ليطلب من الملك البرتغالي الاستمرار في العمل بالمعاهدة التي كان أمضاها مع أبيه؛ والتي أرسل له نصها ليطلع عليه. كل هذا ليتأكد الملك من أن القائد «. . . كان يحسب نفسه وما زال يحسب أنه ديالنا والمدينة المذكورة، وناسها وأحوازها، وبجميع ما فيها. . .»[29].

ويجيب الملك بالقبول والرضى. ويبدو ذلك وكأن الالحاح كان من الطرف

المغربي، وأنه ما اتخذ قراره وقبل الطلب الا بعد تفكير طويل، في حين أن الامر كان عكس ذلك، وأنه ضغط على حكام المدينتين لدفعهم الى ما قاموا به: «. . . فنظرنا مطلبهم، ورعينا الخدمة الذي (كذا) للمذكور المولا السلطان أبي، ولنا في الزمان الجايز مع معمول نحبّو ونْقَبْلُوونرضاوخَدْمَتّوُا،حسب ما طلب منا، فأخذناه للابد عنا وعن الذين يأتون بعدنا من دابَ لُقَدَّامْ. . . »[30] .

وطبعا لا يسمح البعد بالقيام بحركة اليدين (التماسك) وبالقبلة. ومع ذلك، فان ما كان يعتبر أساسيا في القرون الوسطى الاوربية هو التعبير عن الرغبة في الخدمة.

وتتوفر الوثيقتان على القسم الثاني من البرطكول، والمتجسم في القَسَم الذي يعتبر الضمانة على حسن نية المولى.

فبعد أن قبل الملك طلب حكام المدينتين، بقي عليهم أن يقدموا القَسَمَ وأن يتعهدوا بالوفاء وبالخدمة الصادقة. واذا لم يكن ذلك موجودا بوثيقة أزمور حيث لم يرد الا ذكر «الالتزام»[31] ، فان الملك البرتغالي أكد على ذلك في وثيقة آسفي «. . . ويحلف (القائد) فالحين والوقت باللاَّزْمَة، أن كل شيء بالتحقيق يحفظه بالدين الطيب بدون شك، وقط الخلاف ما يعمل ولا يوافق عليه. . . »[32] والزمت الوثيقة كل سكان المدينة، عامتهم وخاصتهم، بنفس الشيء[33] .

أما القسم الثالث والاخير من البرطكول، فيتجسد في ارسال ملك البرتغال شارات تدل على قبوله دخول المدينتين تحت رعايته وحمايته. فلقد أرسل الى قائد آسفي بطلب منه رسالة تثبت تبعيته للبرتغال[34] . كما أرسل الملك لحكام المدينتين علما يدل على خضوعهم له. وبما أن قائد آسفي كان يتحكم في مناطق داخلية، وتوقعا لما قد يدخله من حروب هناك، أرسل اليه الملك علما آخر وطبلا.

وبهذا يعترف ملك البرتغال بحكام المدينتين، وأكثر من هذا يمنحهم نوعا من المشروعية التي يفتقرون اليها، ويصبح هو المسؤ ول عن تعيينهم. ولعل هذه الضمانة هي ما دفع بأحمد بن علي الى طلب تجديد العمل بالمعاهدة الاولى بعد أن تناساها مدة سبع سنوات، بينما كان عليه أن يطلب تجديد العمل بها اثر مبايعة الملك الجديد. رغم ما توحي به الوثيقة من انه بقي مدينا بالطاعة والولاء للبرتغال، فان الحقيقة

كانت عكس ذلك، والا فما الغاية من ارسال يحيي الـزيات، واكثـر من ذلك من ارسال نص المعاهدة التي كانت في حوزته. وبهذا نفهم أن وراء لجوء القائـد مرة اخرى الى البرتغال ظرفية سياسية صعبة كان يعاني منها داخل المدينة.

ووجد البرتغاليون ـ العاجزون عن التدخل العسكري ـ في ذلك وسيلة للتحكم في مدينتين مهمتين بالنسبة لتجارتهم.

وبهذا تلتقي مصالح اعيان وحكام المدينتين بمصالح البرتغاليين. فمقابل ذلك الاعتراف وتلك الحماية قبل الحكام القيام بعدد من التنازلات السياسية والاقتصادية.

ونصت المعاهدتان على مجموعة من الحقوق والواجبات. فأول ما يجب على حكام وسكان المدينتين، الطاعة للملك البرتغـالي التـي يجـب ان تكون صادقـة فـي كل الظروف. فلقد تعهد قائد آسفي بان لا يخالف ملكه ابـدا، وأن لا يتفـق مع من خالفه: «. . . وقط الخلاف ما يعمل ولا يوافق عليه. . .»(35) وتعهد سكان أزمور بتنفيذ كل اوامر الملك بدون مخالفة لا في القـول ولا في الفعـل(36). والتـزم حكام المدينتين ايضا بالخدمة «. . . ودايما يخدمنا ويتبعنـا بداتـه وبحوايجـه كلهـا والمدينة المذكورة (آسفي) وناسها، وسكانها وأحوازها، وفي كل زمان ومكان الذي بنا وبكتبنا بكل وجه يومر به او يطلب به. . .»(37) وقبل حكام أزمور طاعة الملك كما يطيعه البرتغاليون.(38) وتعهد حكام المدينتين ايضا برعاية وبحماية التجار البرتغاليين المقيمين بالمدينتين وتسهيل مهمتهم. كما قبلوا التنازل لهم بالمدينتين عن دار حصينة يحفظون بها سلعهم ويقيمون بها؛ وتعهدوا ـ اذا ما انعدمت بالمدينتين تلك الدار ـ بتسليمهم ارضا للبناء بها والسماح لهم بذلك(39). وبهذا اصبح مقام التجار الاجانب بالمدينتين امرا عاديا وذا طابع «رسمي»، واصبح على الحكام حمايتهم. وستعطي هذه الضمانة للتجار ثقة بالنفس تدفعهم الى إضافة دور سياسي إلى دورهم التجاري.

والتزم الحكام ايضا باداء ضريبة سنوية، كانت قيمتهـا بالنسبـة لآسفي 300 مثقال او ما يعادلها من شمع أو من سلع اخرى يختار نوعها وكيل الملك التجـاري بالمدينة. ويضـاف الى هذه القيمة جوادان. ويلاحظ أن هذه الضريبة رمزية فقط(40). وانعدمـت القيمـة النقـدية بوثيقـة أزمـور، وعوضـت بعشرة آلاف من الشابل

المجفف.(41) وأعفيت تجارة الملك بأزمور من كل انواع الضرائب، وسمح له بشراء كل ما يرغب فيه من سلع حتى الخيول التي كان بيعها للمسيحيين يخضع على ما يبدو لرقابة صارمة(42).

وتم السكوت عن اعفاء تجارة الملك بآسفي.(43) وبقي التجار الاحرار خاضعين بازمور للضرائب الجمركية المعمول بها بالميناء. ولا يعني سكوت وثيقة آسفي عن هذه النقطة، ان التجار كانوا معفون من الضرائب بها، ذلك انهم كانوا الى حدود 1500 يؤ دونها بالمدينة قبل ان يرغم القائد عن التنازل عنها لصالح الملك.(44).

ومقابل هذا، التزم الملك البرتغالي بمجموعة من التعهدات، منها انه تحمل مسؤ ولية الدفاع عن المدينتين وحمايتهما. وفضلا عن هذه الحماية من الاعداء الداخليين، التزم بحمايتهم من المخاطر الخارجية وتعهد بان يحترم رعاياه وحلفاؤه (القشتاليون على الخصوص) هذا الشرط(45).

واصبح الآسفيون والأزموريون يستفيدون من هذه الحماية برا وبحرا، ولكن هذه الحماية في البحر لا تشمل الا من ركبوا سفنا برتغالية.(46)

وسمح للآسفيين والأزموريين كذلك بالسفر الى البرتغال للاتجار هناك وبيع وشراء كل ما يريدونه من سلع، على ان يؤ دوا ما يؤ ديه البرتغاليون من ضرائب. كما اصبح بامكانهم شراء ما يريدونه من السلع البرتغالية والذهاب بها الى اي مكان شاءوا لبيعها.(47) وذكرت في معاهدة ازمور امكانية الذهاب الى البرتغال بنية السياحة فقط(48).

واضح ان هذا التعميم كان مقصودا من طرف الملك البرتغالي لاغراء الحكام والتجار، اذ من المعلوم ان سلعا كانت تعتبر استراتيجية (اسلحة، حبال، خشب، كبريت. . .) كانت محرمة من طرف البابوية، كما ان السماح للدكاليين بالاتجار بالبرتغال كان مجرد وعد كاذب، ذلك ان البابا لم يسمح للملوك البرتغاليين انفسهم بالاتجار مع المسلمين الا بعد ان برروا ذلك بمبررات مقنعة؛ فكيف يسمح لهم بقبول المسلمين داخل اراضيهم. كما ان هذه الحرية في التنقل بالسلع التي اعطيت للدكاليين كانت كذلك مجرد وعد، اذ لم تخبرنا النصوص الا بحالة واحدة: وهي

استفادة عبد الرحمان من تجارة أرْغين التي سرعان ما حرم منها.

يستخلص من هذا ان الحقوق والواجبات كانت مبدئيا متساوية، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك. فاذا ازدحم التجار البرتغاليون بموانيء دكالة، فانه لم يكن بامكان الدكاليين القيام بنفس الشيء بالبرتغال، خصوصا وان الملك ارغمهم على ان لا يسافروا الا في سفن برتغالية مما يقلل من عددهم، هذا اذا فرضنا ان التجار والوكلاء البرتغاليين سيقبلون حملهم وسلعهم. وبهذا يكون البرتغاليون هم المستفيدين الحقيقيين من المعاهدتين اللتين فتحتا في وجههم المدينتين التجارتيين.

وكان ما حصلت عليه المدينتان هي تلك الضمانة التي اعطيت لحكامها. وبذلك نضع اصبعنا على اهم اسباب لجوء الحكام الى البرتغاليين وقبولهم لتلك الشروط.

ولقد قبل الملك امنويل الاول بعد وصوله الى الحكم (1495) الاستمرار في العمل بالمعاهدتين، ثم اعاد التصديق على المعاهدة مع آسفي سنة 1496 اولا، ثم سنة 1500 بعد ان ارغم القائد عبد الرحمان على القيام بتنازلات خطيرة سنعود اليها.(49) كما صادق نفس الملك على المعاهدة الممضاة مع ازمور في بداية سنة 1497 .(50) الا ان سكان المدينة تنكروا لها وهاجموا سفن التجار البرتغاليين سنة 1502 كما سنرى.

(ج) مقارنة النصين

يختلف النصان في الرقعة الجغرافية التي تخضع لكل واحد منهما. فاذا كانت معاهدة ازمور لا تنطبق الا على المدينة وضواحيها المباشرة التي كانت تابعة لقبيلة الهنائيين، فان المعاهدة مع آسفي اكدت عدة مرات على ارتباط المدينة بظهيرها، وكان التأكيد مقصودا وتكرر خمس مرات: «. . . انه (القائد) والمدينة المذكورة وسكانها مع احوازها كانوا للسلطان مولانا ابي المرحوم. . .»(51)

ويعود هذا التأكيد الى سببين رئيسيين:

1 - النفوذ السياسي الذي كان للمدينة على المناطق الداخلية

2 ـ وراء هذا أيضا عامل اقتصادي: لقد كان غنى أزمور يكمن آنذاك اساسا في وفرة اسماكها التي كانت سبب ازدحام التجار الاوربيين بها. في حين تحولت آسفي نحو التخصص في تسريق الانسجة والمواد الضرورية لانتاجها. فهي تصدر الانسجة الصوفية وتستورد أخرى أوروبية ومواد للصباغة. ويتطلب هذا سوقا لترويج هذه السلع ومناطق منتجة (للحياك) و (الحنابل)... لان الطلب كان كبيرا، يتعذر على حرفيي المدينة تغطيته.

كما يوجد بالنص اختلاف ثان يؤكد الوزن الاقتصادي والاهمية التي اصبحت آسفي تكتسيها في نظر البرتغاليين.

لقد اكدت المعاهدة المتعلقة بها كثيرا على صلاحيتها في كل الاحوال سواء تغير القائد او لم يتغير. وتردد ذكر ذلك ثمان مرات بالوثيقة.(52)

ولعل هذه الاهمية، وهذا الوزن الذي اصبح لآسفي، هو ما جعل البرتغاليين يكتفون بتلك الضريبة الرمزية التي اشرنا اليها.

(د) هل كان امضاء هاتين المعاهدتين ضروريا، وامرا لا مفر منه؟

يرى الاستاذ (سنيفال) ان سكان ازمور اضطروا أمام تتالي غارات القراصنة الاسبان على مدينتهم الى الاعتراف بسلطة الملك البرتغالي والدخول تحت حمايته لضمان أمنهم. واعتمد في هذا على عدة اشارات وردت في هذا الشأن بالمصادر الاسبانية، وعلى نص لمؤرخ برتغالي ربط ما بين هذا الولاء والغارات الاسبانية وخوف سكان المدينة من هجوم برتغالي(53).

والحقيقة ان الامر كان خلاف ذلك، وان وراء هذا القرار الخطير اسبابا اخرى اهم بكثير مما يراه الاستاذ الكبير. حقيقة ان الغارات اضرت بالسكان، وان احداها كانت جريّئة وكادت ان تنتهي بسقوط ازمور في يد الغزاة، ولكن هذا لم يكن كافيا لارغام السكان على الدخول تحت الحماية البرتغالية، وتفضيل سيادة على اخرى، ذلك ان المدينة لم تكن الوحيدة التي تعرضت لهذه الغارات، بل تعرضت قرى ومناطق اخرى على ساحل الابيض المتوسط لعدة غارات دون ان ترغمها على الطاعة

والخضوع لا للبرتغال ولا لاسبانيا[54] . وما ينفي هذا الرأي هو أن آسفي سبقت الى الاعتراف بسلطة الملك البرتغالي (1481) دون ان تصلنا ولو اشارة واحدة عن غارة من هذا النوع.

إذن ، يعود هذا الولاء الى سبب رئيسي هو ارتباط مصالح الاعيان وكبار التجار بوجود البرتغاليين الذين اصبحوا يكونون غالبية التجار بالمدينتين. كما ان مصلحة هؤلاء التجار الدكاليين والاجانب تقتضي ان تكون الاوضاع السياسية داخل المدن التجاريه مستقرة ليسهل عليهم المقام بها، والقيام بعملياتهم التجارية. ولهذا سارع الحكام الى الاعتراف بالبرتغاليين ـ وحدث هذا ايضا بماسة ـ للحصول على سند يطبع حكمهم بنوع من المشروعية التي يفتقرون اليها؛ والتي لا يمكن للدولة الوطاسية او الهنتاتية ان تضمنها[55]. كما يسمح ذلك الاعتراف بالحصول اذا اقتضى الحال على سند عسكري للقضاء على منافسيهم. . ولقد تعهد الملك فعلا بالقيام بذلك. وهذا هو سبب طلب اعيان المدينة الغربية من البرتغال ارسال الجنود الى مدينتهم المنقسمة على نفسها، حتى يتسنى لهم ضمان اقامة مطمئنة للتجار البرتغاليين[56] . وبهذا تكون الظرفية السياسية التي كان عليها المغرب في نهاية القرن 15 ، ودور التجار البرتغاليين السياسي، وحرص الحكام على الاستفادة سياسيا وتجاريا من وجود البرتغاليين بالموانىء، سببا رئيسيا في دخول المدينتين تحت النفوذ البرتغالي كمرحلة اولى قبل احتلالهما الفعلي.

وضمنت هذه الوضعية مصالح كل من الحكام ـ ومن يدور في فلكهم من الاعيان ـ والبرتغاليين. وعمل هؤلاء على اشراك الحكام وكبار التجار في الاستفادة من رواج المدينتين، اذ اصبحوا اكبر مزودي البرتغاليين بالسلع المحلية. ولقد عبر الاخباري (كويش) عن استفادة اولئك الوسطاء الكبيرة من وجود البرتغاليين بآسفي، [57] ولقد لاحظنا كثرة ما كان يبيعه القائد احمد بن علي للبرتغاليين، واستفادة عبد الرحمان من تجارة « . . . غينيا ».

كما تنازل البرتغاليون للحكام عن مداخيل المدينتين، واكثر من هذا قبل الملك ان يؤدي رعاياه الضرائب الجمركية بها. وهذا تنازل مهم في حد ذاته لان هذه المداخيل المهمة كانت تسخر لمصالح الحكام الشخصية. ورغم ان الملك البرتغالي

(امنويل) اتخذ عددا من الاجراءات الجبائية التي اضرت كثيرا بالقائد عبد الرحمان، فانه بقي مع ذلك حريصا على ان لا يحرمه كليا من الاستفادة من تلك المداخيل، وخصه بمعاش قدر اعتمادا على قيمة مداخيل الجمارك سنة 1500 . ووعده بالرفع من قيمته اذا ما ارتفعت قيمة المداخيل،(58).

ولعبت بعض العناصر دورا كبيرا في دفع الحكام الى قبول شروط الملك البرتغالي او هيأت النفوس وجعلتها قابلة لتلك الشروط. فبعد تصديق اعيان أزمور على المعاهدة سنة 1486 بقليل، أرسل الملك البرتغالي الى وكيله التجاري بالمدينة يأمره بتخصيص معاش لعمر بن موسى، الذي لا نعرف عنه شيئا، والذي لا يوجد ضمن قائمة الممضين على الوثيقة، وذلك جزاء له على ما قدمه من خدمات للبرتغال (59)

مدى صدق الطرفين واستعدادهما لتطبيق المعاهدة؟

يبدو وكأن البرتغاليين لم يكونوا ينظرون الى هذه المعاهدة كغاية في حد ذاتها، بل كانت مجرد وسيلة لضمان اسواق وسلع المدينتين الى حين توفر ظروف ووسائل الاحتلال. ومع ذلك يتجلى من تتبع الاحداث التي عرفتها المدينتان، والتي سنعود اليها، وكأن البرتغاليين كانوا حريصين على تفادي التدخل العسكري. وقد يفسر ذلك قلة امكانياتهم، وعجزهم عن تحمل مصاريف الغزو والدفاع عن المدينتين. ولكن يبدو ان حرص البرتغاليين على تجنب نتائج سياستهم بالشمال كان له وزن في انتهاج سياسة الحكم غير المباشر، ذلك ان التدخل العسكري لن ينتج عنه الا ما حدث بسبتة واصيلة وطنجة، اي تحول المدينتين الى مجرد ثكنات عسكرية تعيش على نفقة البرتغال.

ولم يكن الجانب المغربي يرى في المعاهدتين إلاّ مجرد وسيلة تمكن القوادوالحكام من التغلب على مشاكلهم السياسية وتنحية منافسيهم، وضمان الامن داخل المدينتين.

ويتجلى هذا الحرص على الحفاظ على الامن من طرف حكام المدن التجارية ومن يدور في فلكهم، في القولة الخطيرة التي عبر عنها اعيان ماسة، والتي تعبر بدون شك عن نفس المشاغل التي كانت تأخذ باهتمام مسؤولي أزمور وآسفي: فهم لا يبحثون الا عن حاكم قوي يفرض الامن، سواء كان نصرانيا او يهوديا «. . . فهذا الدار - يقولون للملك البرتغالي - التي لك علينا، **اعطها لمن تحب او بعها**، هي

مالك وملكك، ونطلب نحن ما نجمّنا من له جهد وقوة، إما يهودي او غيره. . . »[60]

ولهذا لم يكن حكام المدينتين متحمسين في ولائهم. فما هي الاسباب التي تفسر ذلك، وما هي نتائجه على العلاقة بين البرتغال وتينك الحاضرتين؟

2- تدخل البرتغاليين في سياسة آسفي وأزمور: فترة الانقلابات ثم الاحتلال.

لم يدم ولاء آسفي وأزمور طويلا، وسرعان ما أصبح على الملك البرتغالي أن يتدخل في سياسة المدينتين، وأصبح لذلك يكون عنصرا مهما من عناصر القلاقل والفتن التي أصبحت تعيش عليها المدينتان، وخصوصا آسفي. فما هو سر هذا التحول الذي طرأ على السياسة البرتغالية الاصلية.

(أ) أسباب تحول السياسة البرتغالية.؟

يمكن ارجاعها الى أسباب سياسية وأخرى تجارية مرتبطة بها. وتتجسد السياسية في سوء نوايا الطرفين. لقد كان حكام المدينتين يرون في المعاهدة وفي الاحتماء بالبرتغاليين مجرد وسيلة لإسكات معارضيهم. ولهذا لم يكونوا يترددون في التملص من قبضة البرتغاليين كلما سكتت المعارضة. وكان الملك البرتغالي يرى في تلك المعاهدة وسيلة للتحكم أكثر في آسفي وأزمور ومنع سقوطهما في أيدي الاسبان. ولإبعاد المنافسة الاسبانية والتحكم في المدينة أكثر، ازدادت الشروط البرتغالية مع السنوات، مما أدى الى عصيان القواد والحكام كما سنرى بعد قليل.

وكانت المنافسة الاسبانية كذلك من أسباب هذا التحول. فاذا كان التنافس ما بين الدولتين حادا ومبكرا حول الجزر الخالدات، فان اسبانيا لم تعبر عن مطامعها التوسعية بالمغرب الا بعد سنة 1436 .[61] وتفاديا لكل اصطدام، شجعت البابوية الدولتين على التفاوض، فكان تقسيم مناطق النفوذ بينهما نتيجة أربعة مؤتمرات متتالية.[62] ومع ذلك، لم يتخل التجار الاسبان عن المجيء الى موانئ دكالة؛ ولم يحتج البرتغاليون على ذلك. ولكن هؤلاء الاسبان سارعوا الى تحريض حكام المدينتين ضد البرتغاليين، كما فعلوا مع القائد أحمد بن علي، وابن أخيه يحي الزيات، ومع خلفه القائد عبد الرحمان.[63] ونتج عن وجود التجار

الاسبان بآسفي وأرمور بروز جماعة من الاعيان أصبحت ترى في الاعتماد عليهم وسيلة للوصول الى السلطة أو للافلات من قبضة البرتغاليين. ولهذا ظهر بآسفي ما عبر عنه الوزان بالاحزاب، ولهذا كذلك أعلن عدد من القواد عصيانهم بتشجيع من التجار الاسبان كما فعل أحمد بن علي، وابن أخيه عبد الرحمان، وربما علي بن وشمان. (64)

وكان الحكام لا يترددون لذلك في اعلان عصيانهم وتناسي تعهداتهم، اذ ما أن تستقر لهم الامور داخل المدينتين، ويرضخ معارضوهم حتى يسارعوا الى معاكسة مصالح البرتغاليين، مما يحتم على هؤلاء التدخل خوفا من ان تضيع المدينتان من أيديهم.

كما ان وجود تيار «وطني - ديني» يترأسه الفقهاء والمتصوفة يدعو الى عدم التعامل مع النصارى، مفضلا الحرب الاهلية على الاعتماد عليهم في إعادة الامن الى المدينة، كان له وزنه على موقف الحكام من البرتغاليين ونجح فعلا في ابعاد قواد وصلوا الى السلطة اعتمادا على البرتغاليين عن التعامل معهم (56) كما حدث ليحيي أو تعفوفت، وعلي بن وشمان. وهذا التيار الديني هو الذي دفع السكان الى هجرة المدينة بعد ان تأكد من انها ساقطة بيد البرتغاليين. وهو الذي سماها «بلد النصارى»، واباح قتل من بقي بها من المسلمين أو النصارى (66) . ولقد نتج عن هذه الهجرة الكثيفة ركود تجاري خطير، زاد الملك البرتغالي اقتناعا بضرورة التدخل. كما يعود هذا التحول الى اسباب تجارية. فلقد سبقت الاشارة الى المكانة التي اصبحت دكالة تحتلها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية. ونتج عن تطور المبادلات البرتغالية بأرغين (ولامينا)، تزايد اهتمام الملك بآسفي. وهكذا ارغم قائدها سنة 1500 على القيام بعدد من التنازلات الجبائية، مما لعب دورا مهما في تآمره مع الاسبان. (67)

وأدّى حرص الملك على ضمان استقرار آمن ودائم لوكلائه وللتجار البرتغاليين بآسفي وأزمور، الى طلب التنازل لهم عن حصن منيع متوفر على باب مشرفة على البحر، الشيء الذي عارضه الحكام، مما سبب عددا من الانقلابات(68) . ولعل اهم سبب دفع البرتغاليين الى التدخل العسكري، هو الركود الذي اصبحت تعرفه آسفي بعد هجرة سكانها. فلقد جاء في تقرير لوكيل الملك التجاري بآسفي مؤرخ في 25

دجنبر 1507 ان المدينة اصبحت شبه فارغة بعد ان فر تجارها وصناعها من الاستبداد والفوضى، وذكر ان من بقي منهم يطالب بتدخل الملك.(69) واكد وجود هذا الركود تاجر آخر وصل الى مينائها يوم 18 دجنبر 1507 ، ولم يكلف نفسه عناء انزال سلعه لقلة الطلب. وبما ان الطلب كان قليلا، والاثمان منخفضة، فان الوكيل التجاري نصحه بانتظار عودة الامن الى المدينة، ورجوع السكان اليها.(70) وبرر يحي او تعفوفت،معارضته لتحصين متجر البرتغاليين بفرار السكان من المدينة وبضرورة انتظار اطمئنان النفوس.(71) ولقد ربط الوزان ما بين احتلال آسفي وانتشار الفوضى.(72) (وبالتالي ركود المدينة التجاري) كما لاحظ ان وراء احتلال أزمور حرص التجار البرتغاليين على الغاء ما يفرض عليهم من ضرائب: «. . . وكانوا يؤدون تلك الضريبة على الصيد الى ان توصلوا الى اقناع الملك البرتغالي بضرورة احتلال المدينة. . .»(73)

وهكذا اضطر البرتغاليون الى التخلي عن سياستهم الاصلية. ومر هذا التحول بمرحلتين. فخلال الاولى، اكتفوا بتنظيم الانقلابات، واعطاء الحكم لعملائهم، وفي الثانية اضطروا الى الاحتلال العسكري.

(ب) انقلابات آسفي

اذا كانت أزمور قد عرفت نوعا من الاستقرار السياسي رغم انقسام اعيانها، فان آسفي مرت ما بين 1498 و 1507 بفترة سوداء، كثرت فيها القلاقل والفتن والانقلابات التي اودت في نهاية الامر باستقلالها.

بقي القائد احمد بن علي وفيا للبرتغاليين مدة عشر سنوات. ولكنه مال الى الاسبان بعد ذلك، ربما تحت تأثير ابن اخيه يحي الزيات. وامام نوايا القائد العجوز، وخوفا من سقوط المدينة في يد الاسبان، نظم البرتغاليون انقلابا لصالح عبد الرحمان، ابن اخ القائد. (1498) ورغم ان النصوص البرتغالية تؤكد ان الانقلاب كان سهلا، وأنه نجح لشجاعة عبد الرحمان، فان الامر كان عكس ذلك، وان دور البرتغاليين كان حاسما رغم ما قيل من ان الذين ساندوه من البرتغاليين كانوا قلائل.(74)

وهكذا عوض عبد الرحمان عمه الذي قبل بالامر الواقع، وتنازل له عن السلطة ودعا العامة الى طاعته. وتم طرد يحي الزيات من آسفي.

ولم يدم ولاء عبد الرحمان طويلا. ففكر البرتغاليون سنة 1505 في تعويضه بيحيى المذكور.(75) ولم ينجح المشروع، وبقي عبد الرحمان قائدا الى حين اغتياله على يد علي بن وشمان ويحيى أوتعفوفت اللذين استطاعا اقناع العامة بمشروعية عملهما (1506).(76) واقتسم الشخصان السلطة الى ان كثر المعارضون، فدخلا في المسلسل الذي دخله القائدان السابقان: أرسل علي الى (مُغَدُور) لطلب العون من قبطانها (Diogo D'Azambuja.) الذي استطاع علي اقناعه بمصاحبته الى آسفي لكي لا تخرج المدينة من يد البرتغال. ولما وصلاها، وجدا الحرب الاهلية مشتعلة، فتطلب الامر الالتحاق بالبرتغال لطلب العون العسكري من الملك. وهكذا سافر علي وقبطان مغدور وبعض اعيان آسفي الى لشبونة(77). وما ان عاد الوفد من البرتغال مصحوبا باسطول، حتى تبين للبرتغاليين ان (علياً ويحيى) غير مستعدين لتنفيذ ما وعداهم به، وخصوصا اعطاؤهم حصنا متوفرا على باب مطلة على البحر، والسماح لهم باحتلال امنع بروج المدينة(78). وهكذا عمل البرتغاليون على خلق الشكوك بين الصديقين، وجعل كل واحد يظن أن الآخر يريد قتله.

وبما ان يحيى كان آنذاك هو الحاكم، وبما انه عارض تحصّن البرتغاليين بالمدينة، فان (دييغو) «... كلم سريا (علي بن وشمان) واخبره انه يريد تسليمه سلطة المدينة، وأوحى له بالهجوم بصحبة انصاره ليلا على دار يحيى أوتعفوفت وقتله، وأضاف انه سيساعده اذا اقتضى الحال...»(79) ويفهم من هذا انه كان بامكان البرتغاليين تغيير مجرى الاحداث بالمدينة في الاتجاه الذي يريدونه، وإعطاء السلطة لمن شاءوا، وان وزنهم داخل المدينة كبير، ولكنهم لم يكونوا يفكرون في التدخل المباشر، وفي الاحتلال.

وفعلا استدعى علي بن وشمان قبيلة بني ماكر التي دخلت المدينة ونهبت منازل انصار يحيى أوتعفوفت الذي لم ينجه الا الفرار الى المتجر البرتغالي لانه لم يظن ان ما حدث كان بايعاز من (ديوغو)

ويتجلى دور (ديوغو) في وصول علي بن وشمان الى السلطة فيما كتبه بعض اعيان

آسفي الى الملك البرتغالي: «. . . وعاملك يا مولانا ديوغ الى الزنبوج. . . ادخله (ابن وشيهان) بالقهر منا، وبرّح عليه انه شيخ آسفي. . .»(80) ولم يطل ولاء علي للبرتغاليين، اذ سرعان ما اظهر عداءه لهم.(81) وهكذا تزايدت القلاقل، وفر السكان الى جبال بني ماكر. وعمل (ديوغو) على ان تجري الاحداث في اتجاه يرغم الملك على تقبل فكرة التدخل العسكري واحتلال المدينة، الشيء الذي نجح فيه بخلق اصطدامات ما بين السكان والبرتغاليين. وبذلك يكون التيار العسكري قد طغى على التيار التجاري واستطاع ان يظهر بمظهر المدافع عن المصالح البرتغالية. نستخلص من هذه الاحداث ملاحظتين: الاولى هي ان الاضطرابات والانقلابات تمت على ارضية ملائمة جدا، تتجسد في تنافس الاعيان وتناحرهم، الشيء الذي نتج عنه انقسام العامة وظهور ما عبر عنه الوزان «بالاحزاب». ولقد لعب التجار البرتغاليون والاسبان، الذين نقلوا الى آسفي ما كان موجودا بين الدولتين من تنافس، دورا خطيرا في تصعيد حدة التنافس والانقسامات، وحالوا دون حدوث اي تقارب ما بين الاعيان.

ولاستقطاب اكثر ما يمكن منهم، وزعت الرشاوي بسخاء.(82) وربما عمل كل فريق على تسليح مناصريه، ذلك أن العناصر المسلحة كثرت بالمدينة التي اصبحت لذلك في حالة حرب أهلية. فلقد اعترف الملك (جوا) الثاني بتسليم اسلحة الى حلفائه بالجنوب المغربي وإن ادعى انها اسلحة بيضاء تستعمل للزينة فقط(83). ولا شك في أن الملك امنويل استمر في هذا العمل لاهتمامه اكثر بمصير آسفي(84). فلقد كان علي ابن وشيهان «. . . رجلا من عامة السكان، ولكنه كان رئيس حزب قوي. . .» وكان يحيى اوتعفوفت«. . . شابا جريئا، كان أيضا على رأس عدد من المحاربين المشاة. . .»(85) وكان هذا التنظيم وراء نجاح الشابين في انقلابهما. والسؤال الذي يفرض نفسه هو التالي: ما هو الانتماء «الطبقي» لهؤلاء المتناحرين على السلطة؟

من المؤكد ان كلا من عبد الرحمان ويحيى الزيات كان من اغنى أسر آسفي نظرا لانتمائهما للاسرة الحاكمة. ويتجلى من النصوص، ورغم ما كتبه الوزان عن علي بن وشيهان، أن يحيى أوتعفوفت وعليا كانا ايضا من وجهاء المدينة، اذ وردت في هذا الصدد عدة اشارات(86).

كما انه من المهم معرفة سن هؤلاء المتناحرين على السلطة. فباستثناء القائد احمد ابن علي، الذي وصل الى السلطة قبل ان يهتم البرتغاليون بالمدينة، نجد كل المتنافسين على السلطة بعده شبابا. فهم لذلك شبان مغرورون حريصون على اخذ السلطة بكل الوسائل. ولهذا لم يترددوا امام الاغتيال البشع الذي يتم بمحضر الجميع[87]. اما الملاحظة الثانية فهي ان سبب تزايد القلاقل ناتج عن خيبة امل البرتغاليين في كل من تتالى على حكم آسفي. ويعود تنكر القواد لالتزاماتهم الى ثلاثة اسباب رئيسية:

- تزايد شروط ومطالب البرتغاليين مع الزمن. فبعد نجاح كل انقلاب تفرض شروط جديدة على المستفيد منه، مما يدفع بالقائد الى العصيان[88].

- ويعود تراجع القواد عن وعودهم كذلك الى محاولتهم محو وصمة التعامل مع النصارى، خصوصا وان ذلك التعامل لم يكن في رأيهم الا وسيلة فقط تمكن من الحصول على السلطة.

- ولعبت العناصر المناوئة للبرتغاليين والاسبان على حد سواء دورا أساسيا في ابعاد القواد عن البرتغاليين. فلقد ذكر المؤرخ (كويش) ان هذه العناصر دفعت يحيى اوتعففت الى معارضة تحصين المتجر البرتغالي[89]. ولعب الفقهاء حسب رواية (مارمول) دورا أساسيا في ابعاد علي بن وشمان عن البرتغاليين. ولهذا كان البرتغاليون كثيري الشكوك - بعد خيانة احمد بن علي وعبد الرحمان - في صدق وعود علي بن وشمان حين وصوله الى (مغدور)، لانهم كانوا «... يعلمون أنهم (المغاربة) نادرا ما يكونون صادقين...» ولأن علياً ويحيى «... لا يقدمان اي دليل صادق على (تنفيذهما) ما وعدا به الملك...»[90]

(ج) المؤامرات مع بعض الاعيان ضد بعض المدن والقرى الدكالية.

لم يكتف التجار البرتغاليون، وخصوصا وكلاء الملك، بالعمل على التحكم في آسفي وأزمور. بل ربطوا علاقات مع اعيان مدن وقرى اخرى متوخين بذلك ادخالها بدورها تحت «حماية» الملك البرتغالي. وكاد هذا التوغل السلمي ان يعطي ثماره.

ـ التآمر ضد أزمور

عمل البرتغاليون بأزمور على تطبيق نفس السياسة التي انتهجوها بآسفي. الا ان أزمور كانت تعرف انقساما اقل خطورة مما كانت عليه جارتها.

دام ولاء المدينة للملك البرتغالي قرابة خمس عشرة سنة. الا ان عامة المدينة هاجمت ـ ربما رغم معارضة الاعيان ـ مراكب البرتغاليين ونهبتها (1502). وقرر الملك مقاطعة ميناء المدينة عوض الهجوم عليها، مما يؤكد مرة اخرى عجز البرتغاليين عن التدخل العسكري [91]. ودامت القطيعة سنتين الى ان ارسل الاعيان يطلبون العفو ويرجون من الملك العدول عن قراره [92]. ورغم ما جاء في الرسالة الجوابية للملك، لم يكن عفوه ناتجا عن حلمه او عن تدخل الملكة، ولكنه كان وليد احتياج الطرفين الى المصالحة. فلقد تضررت أزمور من المقاطعة في حين كان البرتغال في امس الحاجة الى القمح. ولهذا قبل الملك ان يكون اداء ضريبة السنتين قمحا لا سمكا، وان يبيع الأزموريون للملك الفي (2000) مد من تلك المادة [93]. ولعب بعض التجار البرتغاليين في هذه المصالحة دورا مهما. [94]. وتتجلى حاجة الاعيان الكبيرة الى رجوع التجار البرتغاليين فيما كتبه الملك: «. . وإن أوفيتم بما قلتم وكتبتم، نَصرْفوا لهناك لعندكم وكيلنا وتاجرنا وفيطورنا بجميع ما تحتاجون، ويصلكم كما طلبتم وأصرفتم اليه.واذا نظرتم هذا بنظر صحيح سالم لكم فيه منفعة عظيمة. . » [95].

وذكر الرحالة الالماني (فرنانديش) ان المدينة كانت في قطيعة مع البرتغال سنة 1507. [96] وفي هذه السنة تعقدت الامور بوصول امير وطاسي الى أزمور.

تمكن الناصر «الكديد»، اخو السلطان محمد البرتغالي من طرد ابن عمه زيان بن لحلو من مملكة مكناس وتامسنا التي كانت تابعة له. والتجأ زيان بعد فراره من السجن الى أزمور التي كان له بها عدد من الاقارب والانصار. وحاول ان يستولي على السلطة ولكن الاعيان رفضوه. وهكذا التجأ بدوره الى التجار البرتغاليين الذين نقلوه الى لشبونة حيث تعهد للملك بتسهيل احتلال أزمور وباداء مصاريف الحملة على ان يُعطاه حكم المدينة. وبما ان التجار البرتغاليين كانوا قد توصلوا بوعود مماثلة من بعض الاعيان، فان الملك قبل بسهولة اقتراح الامير الوطاسي [97]. ولهذا ارسل

اسطولا واعدادا قليلة من المحاربين سببت سخرية سكان أزمور(98) . وكان وصول البرتغاليين امام المدينة يوم12 غشت سنة1508 (99) . وواجه السكان المهاجين بمقاومة عنيفة لم يكونوا يتوقعونها. ولم يستطع البرتغاليون الالتحاق بسفنهم الا بصعوبة، فكان فشل محاولة الاحتلال اعتمادا على زيان وبعض الاعيان.

ومن الاسباب الرئيسية للفشل «خيانة» زيان، ذلك انه ما أن عاد الى المدينة حتى تغير موقف الأعيان منه - ربما تنبأوا بما نواه - فلم يتردد في نسيان وعوده للبرتغاليين، وكان على رأس مقاوميهم.

- التآمر ضد المدينة الغربية ومراكش

تنبه يحيى الزيات، الذي تم طرده من آسفي الى ان مجرى الاحداث يسير لصالح البرتغاليين، وان الوصول الى السلطة لا يمكن ان يتم الا بالاعتماد عليهم. ولهذا بدأ يعمل على الحصول على عفوهم. والملاحظ انه لم يبدأ تحركاته الا في سنة1502 مع انه طرد من آسفي سنة1498 ، اي الا بعد ان مال عبد الرحمان الى عداء البرتغاليين. وهكذا تحرك الى المدينة الغربية (كان يعيش مع القبائل القريبة من مازيغن) التي كانت في صراع مع قائد آسفي، - بايعاز من وكيل الملك التجاري -، ونصح اعيانها بالدخول تحت حماية الملك البرتغالي، ووعدها بنفس الامتيازات التي تستفيد منها آسفي: ارسال الجنود لحمايتها والتجار لاغنائها. وسارع الاعيان الى طلب ذلك للتخلص من نفوذ آسفي السياسي والاقتصادي(100) (كانت تفتقر الى ميناء).

وتدخل يحيى لدى وكيلي الملك بآسفي وأكدير لكي يحصلا له على عفو ملكي. وطالب بالرجوع الى قبائله قرب آسفي، وتطوع للسفر الى البرتغال لاقناع الملك.

وامام تأخر العفو، لوح بمشروع مغر: دفع الهنتاتي الى الاعتراف بسلطة البرتغال واداء الضرائب له من جهة، واعطاء البرتغال ميناء دار الفارس من جهة اخرى. وهو لا يطالب مقابل كل هذا الا بالسماح له بالعودة الى آسفي. ومقابل اعطائه السلطة، وعد بالسماح للتجار البرتغاليين بالتحصن وبان لا تشملهم سلطته(101) .

وبما ان عبد الرحمان كان قد مال الى العصيان، فان الملك البرتغالي فكر في اعطائه الحكم. ولكن المخطط الذي أعد لهذه الغاية لم ير النور(102).

ـ وحاول احد اعيان«الشرقية»استغلال الفراغ السياسي بمازيغن لتشييد حصن هناك وادارته تحت «حماية» البرتغاليين. وكان هذا الشخص ـ وهو سالم بن عمر ـ من الذين كانوا تحت حماية (اي«حرمة» كما كان مستعملا انذاك) وكيل الملك التجاري بآسفي[103] .

وهكذا يكون البرتغاليون قد اعتمدوا كثيرا في بداية تجربتهم السياسية على بعض أعيان المنطقة لتحقيق مخططاتهم السياسية. ويتجلى من خلال الاحداث التي سبقت الاشارة اليها ان البرتغاليين لم يكونوا متحمسين للغزو. ولعب التجار دورا سياسيا خطيرا. وبهذا يكون الشبه كبيرا ما بين هذه الفترة وما عرفه المغرب خلال النصف الثاني من القرن الماضي: الحماية الفردية (الحرمة في القرن15)، دور التجار في التجسس وخلق الفتن، انتهاج سياسة افقار الحكام (قرارات1500 بآسفي مثلا) للتحكم فيهم أكثر. وبعد ان عاين البرتغاليون فشل تجربتهم السياسية، اضطروا الى احتلال المدينتين التجاريتين.

3 - الاحتلال العسكري

(أ) **مشروع تحصين مازيغن**: وقع السكوت عن مشروع سالم بن عمر، واقطع الملك مازيغن لاحد النبلاء J. De Mello سنة 1505 . ومما له دلالته ان الغاية من ذلك لم تكن توسعية، اذ ان الملك لم يجعل رهن اشارته ولو جنديا واحدا. ولكن المشروع لم يعرف النور[104] . ولن تحصن مازيغن الا بعد احتلال ازمور. . (1514) .

(ب) **احتلال آسفي**: اتخذ القرار بعد ان خيب علي بن وشمان امل البرتغاليين فيه، وبعد ان تم تحصينهم للمتجر وادخال السلاح اليه خفية. وتم ذلك خلال الفتنة التي تلت دخول قبيلة بني ماكر لآسفي[105] . وبذلك أصبح المتجر قلعة خارجة عن سلطة القائد، تتصل مباشرة بالميناء بواسطة باب مطلة على البحر. وهكذا أصبح ديوغو يتحرش بالسكان لاعلان الحرب ضدهم، الشيء الذي تم له بعد مشاجرة بالسوق بين برتغالي وأحد التجار الآسفيين. ونظرا لتفوق الأسلحة البرتغالية، استسلم المقاومون، وسلمت مفاتيح المدينة والقصبة للبرتغاليين. وتم

الاحتلال ما بين يناير ومارس 1508 (106). وعين الملك ذيوغو (D. d'Azambuja) قبطانا. ولكنه اساء التصرف، فزاد ذلك المدينة فراغا مع انه كان ينتظر من الاحتلال اعادة الرواج التجاري اليها. وبقيت المدينة لذلك فارغة سنة ونصف. (107) وامام تعدد الشكايات، وبعد ان استطاع الملك معرفة ما يدور بآسفي، عزل القبطان، وحل محله (أتايد)، أشهر قباطنة آسفي (108). ويحق لنا ان نتساءل عن المجهود العسكرى الذي تطلبه هذا الاحتلال؟

يبدو من خلال ما ذكر ان احتلال آسفي تطلب ارسال الرجال والأسلحة والسفن الحربية، وبذلك يبدو الاحتلال شبيها في الصعوبة بما تم في الشمال، الا ان عدة قرائن تثبت العكس.

فاذا كان احتلال القصر الصغير تطلب 25 الف محارب، فان احتلال آسفي لم يتطلب الا 1500 رجل على أكبر تقدير (109) وقد ترد سهولة احتلالها الى فرار عدد كبير من السكان، ولكن النصوص تثبت تورط عدد من العملاء (الذين سماهم احد المؤرخين البرتغاليين «بالطابور الخامس» (110) في هذا الاحتلال السهل. فبعد ان سقطت المدينة، نظمت مظاهرة احتفال شارك فيها من بقي في المدينة (111). وربط الوزان ما بين وجود اولئك العملاء المرتشين وسهولة الاحتلال. (112) واعترفوا بأنفسهم بذلك في احدى رسائلهم للملك البرتغالي: «. . . وعاملك يا مولانا. . . لا يكذب عليك ويقول لك انه أخذ آسفي بذراعه، نحن يا مولانا الذى اعطينك آسفي، ونحن دخلنا عاملك ديوغ لذا الزنبوج كما وصفنا لك. . . » وذكروا للملك انهم فضلوه على مولاى زيان وعلى الهنتاتي، وانه كان بامكانهم المقاومة اعتمادا على قبائل تابعة لآسفي ومستعدة للموت دونها، قبائل تكوّن معها: «. . . عظم واحد. . . وقبيلة واحدة، ولف واحد، وحال واحد، عدوهم واحد، وصديقهم واحد. . . ولو اتفقنا مع بني ماكر تكون دارك (متجرك) هلكت مع رجالك. . . » (113).

ونعتبر ان دور اولئك الأعيان في تسهيل مهمة الاستعمار لم يؤكد عليه. وبهذا نفهم قلة امكانيات البرتغاليين، ونضع اصبعنا على سبب من اسباب سهولة توسعهم داخل دكالة.

وهكذا كان حرص الأعيان على تحقيق مصالحهم الخاصة، ولو كانت مضرة

بمدينة كاملة، سببا من اسباب سقوط آسفي . وعبّر عن ذلك المؤرخ والقنصل شونيي بقوله: «. . . وهكذا كان طموح الرؤساء، وفي كل الأزمنة، سبب مصائب الشعوب. . . »(114)

(ج) **احتلال أزمور**: مرت العلاقات البرتغالية الأزمورية ما بين1508 و1513 بفترات ولاء وعصيان. فرغم ان زيان كان سببا من اسباب فشل محاولة البرتغاليين سنة1508 ، فانه استمر في الاعلان عن رغبته في خدمة البرتغال وطاعة ملكها(115) . وقرر امنويل الاول احتلال المدينة سنة 1509 وعين الدوق (de Bragança). قائدا على الحملة، الا ان المشروع لم ينفذ. (116) .

واذا كانت سنة1509 قد عرفت علاقة طيبة، تجلت في اعادة فتح المتجر البرتغالي، فان سنة1510 عرفت توترا حاول حاخام يهود آسفي الحد منه بدفع السكان الى العمل من جديد بمعاهدة1486 .

وطرأ في هذه السنة تطور على أوضاع المدينة السياسية، اذ اختفى الحكم الجماعي. فزيادة على رجوع زيان السهل الى السلطة، (كان قد انتقل الى فاس) نلاحظ ارتقاء احد الأعيان ـ علي بن سعيد ـ الذي أصبح يخاطب الملك البرتغالي رأسا وباسمه الخاص لا باسم كل الأعيان، وتولى رعاية زيان والدفاع عنه لدى الملك البرتغالي، ومقابل ذلك أصبح يقتسم معه مداخيل المدينة. (117) وكان السبب في التجائهما الى البرتغال هو ان ذلك الاستحواذ على تلك المداخيل جعل كل الأعيان ضدهما. (118) ونظرا لبحث زيان عن سند برتغالي، تم الاتفاق على بنود معاهدة لمدة عشرين سنة. وتنازل زيان للتجار البرتغاليين عن دار وتعهد بالسماح لهم بتحصينها واعفائهم من اداء الضرائب، وقبل دفع عشرة آلاف من الشابل المجفف سنويا. (119) ومقابل ذلك أصبحت المدينة تحت حماية الملك. ولكن زيان سرعان ما تنكر للمعاهدة، فاضطر التجار البرتغاليون الى مغادرة المدينة مما دفع بالملك الى الاستعداد لاحتلالها. (120) ولقد أصبح هذا الاحتلال ضروريا لحماية مكتسبات البرتغاليين داخل دكالة، ذلك ان برتغاليي آسفي استطاعوا ما بين 1511 و 1513 نشر نفوذ بلادهم بعيدا داخل دكالة والشياظمة. ولقد أكد على ضرورة هذا الاحتلال كل من القبطان (أتايد) والمسؤول عن اموال الملك بآسفي(121)

وبدأ الاستعداد منذ ربيع1513 دون ان يعلن عن الهدف. وانطلق اسطـول مكون من430 وحدة تحمل على ظهرها15 ألف محـارب يرأسهـم الـدوق السابـق الذكر. وكان الوصول الى مازيغن يوم 27 غشت 1513 . واستطاع القبطان (أتايد) الحصول على حياد قبائل الشرقية وحياد الهنتاتي، مما سهل كثيرا انزال الجنود والزحف على المدينة. وبعد مقاومة عنيفة سقطت أزمور يوم 3 شتنبر 1513 .(122).

كان تعامل البرتغاليين مع دكالة مخالفا لتعاملهم مع المدن الشمالية. لقد عمدوا هنا الى تفادي الاحتـلال، وكلما تدخلـوا عسـكريا او سياسيا الا وكان ذلك فقـط للحيلولة دون خروج آسفي من ايديهم، وكلما نجحت تدخلاتهم اكتفوا باعطـاء السلطة لافراد كانوا يتوقعون منهم الوفاء. ولم يقرروا الاحتلال الا بعد تتالي خيبات املهم ويأسهم من وجود عملاء أوفياء. وخلقت لهم عدة فرص للهجوم على أزمور، دون ان يستطيعوا استغلالها، كما عجزوا عن الرد عن تحديات الازموريين. فما هي نتائج الاحتلال على المدينتين؟ وما هو موقف القبائل من هذا الاحتلال؟ ومـا هي السياسة والوسائل المتبعة للتحكم في المنطقة بعد ان تم التحكم في مينائيها؟.

التعاليق والهوامش

(1) عن هذه «الدولة» أنظر مقالة:
P. Cenival: Les Emirs des Hintata. Rois de marrakech.
Hesp. XXIV, 1937, pp 245 – 259

(2) S. I. H. M. Port I p 151 راجع كذلك ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع.
ط. فاس. ص 9

(3) Ibid. Ibidem p 25 sq

(4) De Marmol... op cité II p 79 – Léon... op cité I p 117

(5) S. I. H. M. Port I p 52 – Léon... op cité I p 118
وادعى بعض المؤرخين أن آسفي عرفت انذاك نظاما «ملكيا» الشيء الذي لا تبرره الاحداث:
A. Paretié: Aperçu historique de L'occupation portugaise au Maroc. Rev. du Monde Musulman T XII, 1910 p 238.

(6) سبقت الاشارة الى نفوذ آسفي السياسي. وعن المدينة الغربية جاء في أحد التقارير أنها رفضت الاعتراف بعبد الرحمان بعد انقلابه مما يدل على أنها كانت تابعة لاسفي قبل ذلك:
S. I. H. M. Port I p 79

(7) أنظر الوثيقة والمضين عليها: Ibid Port I pp 15 – 16

(8) De Marmol... op cité II p 97

(9) S. I. H. M. Port I p 79

(10) Ibid I p 36

(11) Ibid I pp 36, 51

(12) Ibid I p 51

(13) Ibid I pp 10, 12

(14) Ibid I pp 95 – 96

(15) Léon... op cité I p 75

(16) Ibid I p 76

(17) Ibid I p 83

(18) Ibid I pp 131, 133

(19) Ibid I pp 83, 91, 93

(20) R. Montagne: Les Bérbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc Paris 1930 pp 219, 245 et sq.

(21) والغريب أن البرتغاليين عززوا كثيرا مكانة الطبقات الارستقراطية بالشمال ولكن بسبب الجهاد الذي أعطى وزنا مهما لكل من قائد القصر الكبير، وبني راشد والمنظري. . . ووصل بنو راشد الى حد مزاحمة الوطاسيين وعصيانهم والتآمر عليهم مع كل من البرتغاليين والاسبان.

(22) S. I. H. M. Port I pp 1 – 5

(23) Ibid I p 25

(24) R. BOUTRUCHE: Seigneurie et féodalite Paris 1959 p 190 et sq.

(25) S. I. H. M. Port I p 9

(26) S. I. H. M. Port I p 10

(27) Ibid I p 9 n. 1

(28) Ibid I p 10

(29) Ibid I p 26

(30) Ibid I p 27

(31) Ibid I pp 11, 12

(32) Ibid I p 28

(33) Ibid I p 28

(34) Ibid I p 26

(35) Ibid I p 28

(36) Ibid I p 11

(37) Ibid I p 27

(38) Ibid I p 11

(39) Ibid I pp 12,28

(40) 300 مثقال سنويا أي قرابة 126000 ريال (أنظر عن قيمة المثقال الفقرة المتعلقة بالعملة من الفصل الثاني من الباب الثالث). أي أقل من معاش أول قباطنة آسفي الذي كان (250 000) ريال. انظر: S. I. H. M. Port I p 173 n. 1

(41) Ibid I p 11

(42) «. . . وذلك أن شاء (الوكلاء) يطلعوا خيلا من عندنا نتركوهم (كذا) وذلك اذا وصلنا أمرك وبراتك وطابعك. . .»: S. I. H. M. Port I p 11

(43) ويجب أن لا يفهم من هذا انه كان يؤدي الضرائب على السلع التي كان يجلبها الى آسفي.

(44) S. I. H. M. Port I p 50

(45) Ibid I pp 13, 14, 29

(46) Ibid I pp 13, 29 وجاء هذا وكأنه من مطالب الآزموريين.

(47) Ibid; Ibidem

(48) Ibid I p 13 وأن من شاء من أهل مدينتنا ان حب يمشي لبلادكم تاجرا او جابلا أو زايرا. . » . . .
وكانت تعيش بلشبونة جالية مغربية لا نعرف عن عددها شيئا، وكان مترجم الوثيقتين امامهم.

(49) S. I. H. M. Port I p 57

(50) Ibid I p 4

(51) Ibid I pp 26 – 30

(52) Ibid Ibidem

(53) Ibid I p 3

(54) Ibid I pp 1 – 3

(55) Ibid I pp 3; 179

(56) Ibid I p 70

(57) Góis... op cité p 74

(58) S. I. H. M. Port I p 51

(59) تاريخ الامر الملكي هو 24 شتنبر، وكان التصديق على المعاهدة يوم 16 غشت. عن هذا الامر الملكي، انظر: Hesp. XXXI, 1944 p 76

(60) رسالة سكان ماسة الى امنويل الاول: S. I. H. M. Port I pp 234 – 239

(61) Ch, Witte, art cité XLVIII 1953 p. 690

(62) توجد دراسة مفصلة عن هذه المؤتمرات وتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين بقلم الاستاذ (سينفال Cénival) S. I. H. M. Port I pp 203 – 212

(63) Ibid I pp 36, 152, et no 5 – p. Cénival – Monod: Description op cité p 35 – R. Ricard: Etudes sur l'histoire des portugais au Maroc p 149.

(64) ذكر (فلنتين فرننديش V. Feranadez) أن (علي بن وشمان) تآمر مع دوق مدينة سدونيا Medina Sidonia وذلك سنة 1507

(65) De Marmol... op cité II p 80 – Góis op cité pp 31, 33

(66) S. I. H. M. Port I p 139

(67) Ibid I p 235 أصبح يسهل مهمة القراصنة القشتاليين. جاء في رسالة أعيان ماسة الى الملك امنويل «. . . فجاءهم (تجار ماسة الذين اختطف القراصنة سلعهم) الخبر بأن عبد الرحمان الذي كان في آسفي قام فيا لهم (في مالهم) ورد منه ما رد بسبب صحبته مع القشتليين. . .».

(68) S I. H. M. Port I pp 155 – 156

(69) Ibid I p 145

(70) Ibid I p 149

(71) Ibid I p 180

(72) Léon... op cité I pp 119 - 120

(73) Ibid I p 126 - 127

(74) S. I. H. M. Port I pp 36 - 37

(75) Ibid I p 114

(76) GOIS... Op cité p 29

(77) Ibid p 30

(78) Ibid, Ibidem

(79) Ibid p 33

(80) S. I. H. M. Port I p 186

(81) GOIS... op cité p 34 - Ibid I p 139

(82) Ibid p 28 - Léon... op cité p 119

(83) S. I. H. M. Port II p 82, 84 n 1

(84) صادر امنويل اسلحة اشتراها القائد عبد الرحمان من مهربين بأكدير، ولكنه وعده بتعويضها له بما هو احسن منها: S. I. H. M. Port I p 50

(85) Léon op cité I p 118

(86) ارسال علي بن وشمان في سفارة الى البرتغال (1500)، اختراقهما للصفوف للصلاة وراء القائد عبد الرحمان، وجودهما على رأس عصابات مسلحة، ووصفهما (كويش) بكونهما «...

(87) شخصيتين مهمتين...» (ص 29)
ويجب أخذ اشارة الوزان الى شباب يحيى بتحفظ لانه لم يكن شابا وقت رئاسته لعبدة والغربية. وعن الاغتيالات السياسية نشير الى ان عبد الرحمان قتل أخاه قبل أن يغتال بدوره بالمسجد يوم العيد على يد علي بن وشمان ويحيى أو تعفوفت. وكاد هذا الاخير ان يقتل على يد صديقه السابق.

(88) فبعد أن ألزم أحمد بن علي بتسليم دار للبرتغاليين، طلب من عبد الرحمان السماح لهم بتحصينها، فعارض ذلك، كما أمر الملك القائد بالتنازل له عن مداخيل جمارك المدينة. وسبقت الاشارة الى ما فرض على يحيى وعلي مقابل مدهما بالعون. وبما أن يحيى كان في صراع مع علي، فانه تنازل لهم عن «... دار لها باب مطل على البحر...» ولكنه سرعان ما تراجع وعارض تحصين تلك الدار ومنع السكان من العمل بأوراش البرتغاليين. وعارض علي بن وشمان بدوره نفس الشيء رغم أنه وصل الى الحكم اعتمادا على البرتغاليين.

(89) Góis.. op cité p. 33

(90) Ibid pp 30, 31

(91) S. I. H. M. Port I pp 87, 395

(92) Ibid I pp 87, 95 - 98

(93) Ibid I pp 95 – 98

(94) Ibid I p 87

(95) Ibid I p 98

(96) P. Cenival – Monod: Description... op cité 29

(97) Góis... op cité p 38

(98) كان اكثر التجار البرتغاليين شهرة بأزمور بمقدمة الجيش لارشاده. ولما رآه السكان بدأوا يسخرون منه وينادونه «... كيف يا بيريو Berrio، أبأربعة سفن تريد أن تحتل أزمور؟. وأصبحت هذه القولة مثلا شائعا بالبرتغال.

Cité In Góis op cité p 43 no 1. Texte dans Anais d'Arzila.

(99) Góis... op cité pp 40 – 44 – S. I. H. M. Port pp 162 – 163 ابن القاضي احمد... لقط الفرائد... مصدر سابق ص 281

(100) أنظر رسالة أعيان مشنزاية الى الملك البرتغالي S. I. H. M. Port I pp 70 – 71

(101) Ibid I pp 77, 79, 80

(102) أنظر مشروع انزال يحيى الزيات بآسفي وارسال اسطول لهذه الغاية:
S. I. H. M. port I p 114

(103) عن هذه العناصر «المحمية» من طرف التجار البرتغاليين: Ibid I pp 74, 83, 84

(104) S. I. H. M. Port I pp 103 – 113

(105) Gois... op cité P 34 – Ibid I p 139

(106) عن هذه الاحداث التي سبقت الاحتلال أنظر:
Ibid pp 33 – 36
S. I. H. M. Port I pp 157 158

(107) Léon... op cité I p 120 – S. I. H. M. Port I p_59

(108) وقام بمهمة القبطان قبل وصول (أتايد) (بيدرو دو. أزفيدو) وتنازل ديوغو عن ادارة آسفي مقابل معاش مهم سنعود اليه في فصل لاحق.

(109) Léon... op cité I p 120 no 261 – S. I. H. M. Port I p 158

(110) P. A. Evin: L'architecture portugaise au Maroc. BEE. P

(111) Góis... op cité p 36

(112) Léon... op cité I p 119

(113) رسالة أعيان آسفي الى الملك البرتغالي: S. I. H. M. port I pp 179 – 189

(114) L. Chênier: Recherches... op cité III p 420 ولاحظ الكانوني نفس الملاحظة: آسفي وما اليه مرجع سابق ص ص 80 – 81

(115) S. I. H. M. Port I p 394 – 402 حيث توجد كل المعلومات المتعلقة بتطور علاقة المدينة مع البرتغاليين الى حين احتلالها. وهي بقلم (سينفال)

(116) D. Lopes. Os Portugueses.. op cité III p 510

(117) S. I. H. M. Port I p 230 انظر كذلك ص ص 249 - 251

(118) Ibid I p 230

(119) Góis... op cité pp 98 - 99

(120) Ibid p 99

(121) رسالتها الى الملك البرتغالي: S. I. H. M. Port I pp 300, 387

(122) أخطأ ابن القاضي (لقط الفرائد... مصدر سابق ص 283): حين ارجع احتلالها الى فاتح رجب 917 (موافق 1511)

الفصل الثالث

محاولات التوسع بداخل دكالة

الوسائل والمراحل

لقد تم كما لاحظنا احتلال آسفي سنة 1508 ، وأزمور سنة 1513 ، وذلك بعد فشل تجربة الحكم غير المباشر التي انتهجت لمدة طويلة.

ومعلوم أن هاتين المدينتين لم تكونا غاية بالنسبة للبرتغاليين بل كانتا وسيلة تربطهم بظهيرهما. وكان التدخل العسكري واحتلال آسفي يهدفان الى اعادة الاتصال ما بين المدينة وظهيرها.

فهل اكتفى البرتغاليون بالمدينتين التجاريتين؟ أم عملوا بعد ذلك على التحكم في المناطق المرتبطة بهما والضرورية بالنسبة اليهم. وما هي الوسائل التي اعتمدوها والمراحل التي قطعوها، وما هي حصيلة تلك المحاولات التوسعية بداخل المنطقة؟

1 ـ هل يمكن الكلام عن سياسة برتغالية جديدة أصبحت تهدف الى التحكم في «مملكة مراكش»؟

لقد جعل احتلال آسفي من طرف البرتغاليين، ودراسة ورسم خرائط لمصبات اهم الانهار المغربية، وارسال حملة ضد أزمور سنة 1513 ، ثم تحصين «المعمورة» سنتين بعد ذلك، جعلت كل هذه الاحداث عددا من المؤرخين يعتبرونها دليلا قاطعا على حدوث تحول جذري في السياسة البرتغالية المتبعة الى ذلك التاريخ، وعلى

ميلها الصريح نحو التدخل الهادف الى احتلال كل الثغور. وأكثر من هذا، يرى بعض المؤرخين أن الغاية المتوخاة من احتلال أزمور كانت هي غزو «مملكة مراكش»، في حين كانت الغاية من احتلال وتحصين مصب سبو التحكم في «مملكة فاس» .(1)

وتوجد فعلا عدة قرائن قد توحي بهذا الاعتقاد. فلقد سبقت الاشارة الى مشاريع امنويل «(سنة 1500) فيما يخص ضواحي آسفي، واعتبر (ديوغو) تنحية يحيي أوتعفوفت دلالة على قرب سقوط مراكش(2) . وبعد سقوط أزمور كتب الملك الى البابا يخبره بالحدث وينبئه بقرب احتلال العاصمة الهنتاتية(3) . وتعرض (الدوق) ،قائد الحملة ضد أزمور، لنقد شديد اللهجة لعدم استعداده للتحرك ضد مراكش(4) . وبعد فرار سكان المدينة الغربية وتيط اثر احتلال أزمور، تم التحكم في المدينتين من طرف البرتغاليين(5) .

يظهر من هذا كله، وكأن البرتغاليين تخلوا منذ مطلع القرن السادس عشرعن سياسة الاحتلال المحدود العقيمة، وانتهجوا سياسة التحكم الشامل، ان لم يكن في كل المغرب، فعلى الاقل في مناطقه المهمة، وعلى رأسها عاصمتي البلاد: «. . . ان اختيار (الدوق دوبراغاس)، ابن أخ الملك، وأكبر اشراف المملكة، كرئيس للحملة، وكذلك أهمية الاستعدادات التي امر بها (أمنويل الاول)، يشهدان على ان الملك كان يعد لمشاريع ضخمة؛ ولا يتعلق الامر هذه المرة بانشاء مراكز تجارية للتبادل مع الاهالي، أو حتى البحث عن نقط تمركز اقتصادية وسياسية في نفس الوقت على الساحل المغربي؛ لقد كان كذلك حربا صليبية حقيقية تهدف الى احتلال «مملكتي مراكش وفاس»(6) .

ولكن تتبع الاحداث من خلال ما وصلنا من وثائق ومصادر، يجعلنا لا نطمئن الى هذا الطموح الذي الصق بالسياسة البرتغالية بالمغرب في بداية القرن السادس عشر. ذلك أنها لم تتعد كونها مجرد استمرارية لنفس السياسة المتبعة الى ذلك التاريخ. فلقد تلت احتلال كل ثغر من الثغور محاولات جادة لفك الحصار المضروب

عليه، ولتهدئة المناطق المجاورة له ضمانا لتزويده بالمواد الضرورية يوميا، ولضمان أمن سكانه حين خروجهم الى الحقول وللصيد.

ولقد بقيت السياسة البرتغالية تتعثر لنفس التردد ولقلة الامكانيات اللذين امتازت بهما منذ البداية. ولا شك ان سياسة تمتاز بهذا النوع من الطموح تقتضي تدخلا اكثر جرأة. فمن المعلوم أن ما بين احتلال آسفي وأزمور خمس سنوات، وان البرتغاليين اكتفوا لمدة سنتين كاملتين بآسفي؛ وعملوا على الدفاع عنها، ولم تسجل الا محاولات خجولة بنواحيها المباشرة. كما ان طموحا في هذا المستوى يقتضي تسخير وسائل مهمة، وهذا ما لم يكن متوفرا اذ كانت جل مراسلات القباطنة تشكو من قلة الجنودوالاموال، وتؤكد على ضرورة ارسالها. ولم يعمل البرتغاليون على استغلال الرعب الذي احدثه سقوط أزمور لاحتلال الداخل وللانطلاق نحو مراكش، بل على العكس من ذلك، سرعان ما بدأ الفرسان والنبلاء يغادرون المدينة، واكثر من هذا حدد الملك عدد الحامية **القادرة في رأيه على الدفاع عن المدينة**.(7) وطلب من العدد الفائض الالتحاق بالبرتغال.

ولم تتوصل أزمور بعد ذلك، ولمدة سنتين، ولو بجندي واحد(8)؛ مما ينفي نفيا قاطعا ان تكون الغاية من احتلال أزمور ما يدعيه البعض.

نعتبر انه يجب التمييز من خلال هذه النصوص ما بين موقفين سياسيين مختلفين: موقف الملك الواعي بامكانيات بلاده القليلة، والذي لم يأمر باحتلال مراكش او فاس كما يدل على ذلك جواب (الدوق) على اتهامات المتحمسين للهجوم على مراكش، وتحديد عدد حامية أزمور. . . حقيقة انه وعد البابا بقرب سقوط مراكش، ولكن هذا يدخل في اطار محاولاته ارضاء البابوية للحصول على امتيازات اضافية. وبهذا تكون الغاية الاساسية من احتلال أزمور هي ضمان أمن المكتسبات التي تم تحقيقها داخل دكالة. كما أن الاوضاع الاقتصادية كانت تفرض ذلك لان التحكم الاقتصادي في المنطقة يقتضي التحكم في كل موانئها. وكانت غاية الملك من تحصين

المعمورة، على مصب سبو، هي قطع الطريق على الوطاسي وشغله عن التدخل بدكالة كما فعل سنة 1514، وعن إلحاق الضرر بالبيان الذي استطاع البرتغاليون تشييده بها. كما كانت الغاية ايضا من ذلك ارغام الشاوية المترددة على الرضوخ وقبول شروط البرتغاليين[9].

أما موقف المهتمين بمصير المغامرة المغربية من نبلاء وقباطنة وفرسان ورهبان فكان مخالفا. فهذا الطموح الذي جعل منه بعض المؤرخين برنامجا رسميا لا يتعدى كونه مجرد اغراءات لوح بها هؤلاء لاقحام الملك البرتغالي المتردد اكثر، وذلك لضمان فرص لا تتوفر لهم بالبرتغال لتحسين اوضاعهم المادية والاجتماعية.

وبهذا نفهم ما لوح به قبطان أزمور من مشاريع مغربية لاستغلال المنطقة اقتصاديا وكذلك بشريا[10] (التجنيد). واستعملت هذه الاغراءات لمرات عديدة، خصوصا كلما طالب القباطنة بارسال الاموال والجنود. ومما له دلالته ان يعبر هؤلاء عن تلك المشاريع في الفترات الحرجة. فلقد وعد قبطان المعمورة باحتلال سلا والشاوية في وقت كانت جيوش الناصر الوطاسي تحصد البرتغاليين، وحامية الحصن وسكانه يعيشون بين موت وحياة[11]؛ كل هذا لدفع الملك الى ارسال العون ومنعه من التفكير في اخلاء الحصن. ولاقحام الملك اكثر في «المغامرة المغربية»، طلب احدهم منه القدوم الى دكالة او ارسال الامير لتتويجه بمراكش «ملكا على افريقيا»[12].

واعتمادا على هذه الملاحظات، نعتبر انه لا مبرر لاعطاء طابع رسمي لكل ما ورد في النصوص من مشاريع واقتراحات، واعتبار احتلال أزمور وسيلة للتحكم في الجنوب المغربي وخصوصا مراكش مع العلم انها لا تتوفر على أي شيء يمنع آسفي من ان تقوم بذلك الدور.

حقيقة ان البرتغاليين توغلوا في الداخل، وحصلوا على ما لم يتمكنوا منه في

مناطق اخرى، ولكن هذا التوغل كان نتيجة حتمية تظهر اثر كل احتلال، والا اصبح على الثغر أن يعيش على حساب البرتغال وأن يستورد كل شيء. الا أن البرتغاليين وجدوا الظروف بدكالة جد ملائمة.

وتدخلت عدة عوامل اما متعلقة بالمنطقة (الفراغ السياسي ووجود عملاء)، او بالبرتغال (ضرورة فك الحصار على آسفي، وضمان عيش حاميتها من حبوب المنطقة) لدفع البرتغاليين شيئا فشيئا نحو الداخل الى ان اوصلتهم الى ابواب مراكش شرقا وقلب حاحة جنوبا والى ما وراء «سلا» شمالا. فما هي الوسائل المسخرة لهذه الغاية؟

2 ـ الوسائل المسخرة

(أ) **الجيش**: كان مكونا من عنصرين: سكان الثغور (Moradores) الذين كانوا من طبقات دنيا، والاشراف والفرسان ومن يرتبط بهم من اقنان وموالي وخدم (Fronteiros)، والذين يأتون الى الثغور للخدمة العسكرية مقابل ما كان بأيديهم من اقطاعات. وكانت اقامتهم ونفقتهم على حسابهم اذا لم يكونوا يستفيدون من جراية ملكية.(13) وكان الجيش يتكون من الفرسان، وهم الاغلبية الساحقة، ومن المشاة الذين لا يتعدون المائة وقت الغارات.

وكان هؤلاء الجنود الرسميون يتقاضون رواتب زيادة على مؤونتهم.(14) وكان الجيش متوفرا على عدد من المراتب العسكرية التي ذكر المؤرخ كويش Góis بعضها. وكان القبطان رئيسا للجيش يدين له بالطاعة كل محاربي الثغر، مهما كانت مراتبهم ومكانتهم الاجتماعية، وكان لذلك يترأس الغارات ويخطط لها، ويأخذ مقابل ذلك خمس الغنائم.(15) وكان «الدليل» (Adail) ساعده الايمن ونائبه في الشؤون العسكرية. وهو الذي يترأس الجنود حين غياب القبطان.(16) وأشهرهم بدكالة، وربما بكل الثغور المغربية L. Barriga، الذي أدخله الملك ضمن طبقة النبلاء جزاء له على كثرة انتصاراته على القبائل والشرفاء السعديين(17).

وتنحصر مهمة «المقدم» (Almocadem) في الاطلاع على اوضاع المنطقة التي

سيمر منها الجنود وتحديد الطريق الاقل خطرا. [18] وكان يساعده في ذلك عدد من الجواسيس التابعين له. ويتطلب هذا المنصب معرفة جيدة بضواحي الثغر وبالمناطق التي ستنظم بها الغارات؛ ولهذا كان يختار بالشمال من بين المغاربة المتنصرين. ولكن «مقدمي» دكالة كانوا برتغاليين. وكانت مهمة «الفارس» (Alfares) حمل الراية حين الغارات والحروب [19].

وعرفت الثغور عدداً من المناصب العسكرية. «فالقائد» (Alcaide) هو المسؤ ول عن القصبة الموجودة داخل المدينة[20]. ويوجد بها احياناً «القائد الكبير» (Alcaide mor) وهو الرئيس الاول، «والقائد الصغير» (Alcaide menor) وهو مساعده. وكان «قائد البحر» (Alcaide do mar) مسؤ ولا عن الميناء[21].

وعرف هذا التنظيم مراتب اخرى كمرتبة «الكمندار»، «والرقيب» «والعريف» الخ[22] . . .

وكانت حاميتا آسفي وأزمور تتقويان وتضعفان حسب الضغوط المفروضة عليهما وان كانتا دوما في نظر القباطنة غير كافيتين. لذا تعددت شكاويهم وتكررت طلبات الرفع من عدديهما. [23] ونادرا ما تعدتا الفي رجل لكل واحدة، باستثناء أزمور بعيد احتلالها.

وتألفت حامية آسفي في 5 دجنبر 1510 من 900 رجل قادر على حمل السلاح. [24] وانخفض العدد الى 700 فارس زيادة على المشاة، وذلك سنة 1512. [25] وبعد توصل المدينة بدفعتين من الجنود وصل العدد الى 900 فارس زيادة على المشاة[26]. واصبحت مكونة سنة 1526، اي بعد ان تحولت السياسة البرتغالية الى مرحلة الدفاع عن النفس، من حوالي 217 «رمح» منهم 35 صاحبوا القبطان الجديد، مما يعطي اذا اعتبرنا ان «الرمح» يضم ثلاثة افراد، عددا يقل عن الالف. [27] واصبح العدد سنة 1536 لا يتعدى 850 محارب. [28]

اما حامية أزمور فكانت مهمة في البداية. فلقد حددها الملك بعد احتلال المدينة

في100 محارب يتقاضون راتبا و800 فارس. (29) وفي رسالة الملك (يناير1514)، امر بأن لا تتعدى1900 رجل، واعتبر ذلك كافيا لحماية المدينة(30). وتقلص العدد مع السنين ليصبح800 رجل سنة1517 (31) و450 من المشاة و190 من الفرسان سنة1525 ؛ (32) و 580 شخصا سنة 1530 (33) و500 فقط سنة1541 (34) . واضح اذن انها اعداد قليلة جدا، وغير كافية ولو للدفاع عن المدينتين، لو وجدت هنالك قوة منظمة قادرة على معاكسة التوسع البرتغالي بالمنطقة.

وحاول البرتغاليون، وبأمر ملكي، التغلب على هذه القلة في الرجال بجمع قوتي المدينتين في التوسع بالداخل، الشيء الذي كان أمرا عاديا بالثغور الشمالية. ولكن تنافس قباطنة دكالة وتحاسدهم حالا دون ذلك، ولم تسجل الا بعض الحالات التي تم فيها هذا التعاون. (35)

والتجأ الملك في الفترات الصعبة الى تجنيد مرتزقة اسبان. (36) ومكن الاعتماد على العناصر المغربية المتعاملة مع الاستعمار، وخصوصا عبدة والغربية الخاضعتين ليحيى، مكن البرتغاليين من التغلب على مشكل قلة الرجال؛ ذلك ان العناصر المغربية كانت حين الغارات اكثر بكثير من البرتغاليين. ووصلت النسبة الى برتغالي مقابل25 حليفا كما كانت حين الهجوم على ضواحي مراكش في اكتوبر 1514. (37) ويلاحظ ان اعداد الحاميتين مالت نحو التقلص في فترة اختفى فيها ذلك الاشعاع الذي عرفه النفوذ البرتغالي بالمنطقة. وكان اهم جديد هو تكيف الحامية بالظرفية الجديدة، وذلك باختفاء الفرسان لتصبح السيطرة مطلقة للمشاة.

(ب) السلاح:

ولكن البرتغاليين غطوا هذا النقص في الرجال بتفوقهم في ميدان الاسلحه، وخصوصا الاسلحة النارية (38) .

وهذه الاسلحة عبارة عن بنادق ومدافع. واذا كانت هذه الاخيرة تنصب في جل الاحيان على الاسوار، فان الوثائق سجلت لنا بعض الحالات التي استعملت فيها

المدافع خارج المدن. وكانت تحمل على خيول خاصة او عربات وكان يستعملها خبراء مختصون. (39)

واستعمل الرماة البنادق او قاذفات للنبال.

اما الفرسان، فكان اعتمادهم على الاسلحة التقليدية كبيرا. وكانت هذه الاسلحة نوعين: هجومية، مكونة اساسا من سيوف ورماح؛ ودفاعية مكونة من الدروع التي تغطي جسد المحارب كله وتشمل احيانا الفرس. وتغطي الرأس قبعات حديدية. ويتقي المحارب ضربات العدو بواسطة الترس.

واتقى البرتغاليون بدكالة - كباقي الثغور - هجمات المغاربة المفاجئة بعدد من التدابير كارسال بعض الفرسان ليستقروا في اماكن معينة لمراقبة البادية. ويحمل هؤلاء اسما مشتقا عن العربية لتقدمهم بالداخل: «الطليعة» (Atalaia). كما يكلف فرسان آخرون يعرفون المنطقة بالتجول وتفتيش الاماكن القابلة لنصب الكمائن (Cortadores). ويتلقى مراقب يشرف على البوادي من اعلى الابراج الاشارات التي ترسلها «الطليعة» فيخبر السكان الخارجين من المدينة باشارات متفق عليها. ..الخ (40). ويبدو ان برج المراقبة الشرقي بآسفي هو ما يعرف اليوم عند السكان بـ «رحى الريح»، والذي اضيف الى السور المغربي الذي كان يمر هناك، والذي تم الاحتفاظ به بعد بناء السور البرتغالي. وكانت ابراج مراقبة أزمور موجودة بالشاوية. (41) وحفر خندق حول آسفي (42).

وبقيت اسلحة المغاربة تقليدية على العموم، تعتمد على النبال والسيوف والرماح والحجارة والعصي. ولكن الاسلحة النارية لم تكن مجهولة لديهم. فلقد استعمل سكان آسفي وأزمور المدافع ضد البرتغاليين(43). واصطحب محاصرو آسفي سنة 1510 بعض قطع المدفعية(44). كما كان المغاربة على علم بتقنيات الحصار واحراق السفن واستعملوا النحل في الدفاع عن مدنهم (أزمور وأمغور بالشياظمة)(45). ولكن اعتماد المغاربة على الاسلحة النارية تعزز مع مرور الزمن، خصوصا بعد تقوية نفوذ السعديين.

(ج) التنظيم العسكري:

ولم يكن وزن التنظيم العسكري لدى البرتغاليين اقل من وزن الاعداد والسلاح، ذلك ان القباطنة كانوا حريصين قبل الدخول في اية معركة على تنظيم رجالهم وترتيبهم حسب معطيات المكان واعداد المغاربة. واعتمد البرتغاليون في مواجهة محاربيهم او مطارديهم على ترتيب معين يمكنهم من الصمود اكثر، خصوصا وان هجوم المغاربة ودفاعهم كان عشوائيا. وسمح هذا الترتيب لهم بتخصيص مهمات محددة لكل فريق، كأن يبدأ الاول مثلا بالهجوم السريع ويبقى الثاني في كمين حتى تتبين له مواقع المهاجمين فيبادر الى تطويقهم، او الى أن تتبين له مراكز ضعفهم فيلح عليها بالهجوم. ومكنهم هذا الترتيب من احاطة الغنائم والاسرى والدفاع عنهم، ومنعهم من الفرار.(46)

ومع ذلك كان النبلاء يخلون بهذا التنظيم، ويخلقون مشاكل للقبطان بميلهم الى التسرع في الهجوم، وبحثهم عن المناوشات والرد على التحدى.

وانتهج البرتغاليون طرقا معينة في الهجوم. فبعد سنتين من الخمول داخل آسفي، تقرر الهجوم على القبائل وبث الرعب في نفوسها، وارغامها على الطاعة. وكانوا يتبعون في ذلك خطة معينة. ففي غالب الاحيان يتأكدون أولا من مواقع الدواوير او القرى التي سيهاجمونها. ويخرج الجنود ليلا اذا كانت المسافة طويلة. وقبل ان يصلوا الى المكان يرسل «المقدم» على رأس عدد الفرسان للتأكد من الموقع والاطلاع على اوضاع الدواوير والتضاريس... وعلى ضوء تلك المعلومات تحدد كيفية الهجوم. ونادرا ما يقع الهجوم في النهار، اذ يبدأ في غالبية الحالات عند الفجر، ويصاحب بالصياح والضجيج لافزاع المهاجمين واخماد روح المقاومة لديهم، الشيء الذي يحدث في جل الاحيان.(47) ولم يكن البرتغاليون يلحون كثيرا اذا ما لاحظوا استماتة من طرف المهاجمين وعاينوا من جانبهم صمودا واصرارا على القتال(48). وفشلت عدة محاولات برتغالية وهزم القبطان(أتايد Ataide) في بداية التوسع على الاقل مرتين(49). واعطت مشاركة العناصر المغربية للبرتغاليين في غاراتهم ثقة كبيرة بالنفس

(د) ولقد اعتمد البرتغاليون كثيرا على المعلومات التي كانوا يتوصلون بها حول قوة ومواقع اعدائهم؛ وزودهم بها، اما جواسيسهم وعيونهم الخاصة، او مبلغون مغاربة كانوا من ثلاث فئات: كانت الفئة الاولى مرغمة على ذلك لوجود اولادها أو أزواجها أو أقاربها في الاسر بآسفي. (50) وكانت الفئة الثانية مرغمة بطريقة اخرى، اذ كان البرتغاليون يعملون قبل الهجوم على اسر بعض الأفراد واستنطاقهم. (51) وكانت الثالثة تتطوع لهذه المهمة آملة بذلك الحصول على مبالغ مالية او هدايا، كذلك الذي أخبر القبطان (أتايد) بدخول الناصر الهنتاتي الى دكالة، وتقاضى عن ذلك 8000 ريال (52). وتوصل آخرون مقابل معلومات مختلفة برشاوى متنوعة: اثواب، توابل، ألبسة، احذية، نقود... الخ (53) وكان المبلغون احيانا من الاعيان والشيوخ: فلقد توصل حسون، شيخ عبدة، سنة 1509 بـ 2420 ريال لمعلومات زود بها البرتغاليين. كما توصل ميمون، شيخ المدينة الغربية، بثلاثة امتار من الكتان مما يمثل 900 ريال. وتوصل عبد الرحمان، احد اعيان «السور القديم،» بنصف رطل من القرنفل. (54) وتوصل حسون مرة اخرى بكمية من التين المجفف. (55) ولقد اعطت هذه الرشاوي المتتالية التي توصل بها حسون أكلها مبكرا، ذلك ان عبدة كانت القبيلة الوحيدة من قبائل دكالة التي لم تشارك في حصار آسفي سنة 1510. (56) وكان احد «الاولياء» من الذين تجسسوا مرة لصالح البرتغاليين. (57) وبلغت الرشاوي الموزعة بآسفي ما بين يونيو ودجنبر 1512 ما لا يقل عن 200000 ريال، أي كل محاصيل الجمارك خلال الفترة المذكورة. (58) ولا غرابة والحالة هذه، ان تناسب هذه السنة أعتراف جل القبائل الدكالية بسلطة البرتغاليين. ولتأكيد هذه الحقيقة الخطيرة، وهي أن الرشاوى لعبت دورا لا يقل عن دور القوة العسكرية، نذكر ان قبطان أزمور لم يستطع الحفاظ على ولاء بعض القبائل حين دخول الناصر الوطاسي الى دكالة (1514) الا بارشاء عدد من شيوخها. (59) وعرف الشيوخ كيف يستغلون تنافس قبطاني آسفي وأزمور لارغامهما على دفع اكثر ما يمكن من الرشاوى. فاذا سمح قبطان آسفي لليهودي (أبرهم بن زميرو) الذي كلفه بالتفاوض مع شيوخ اولاد عمران بارشائهم بعشرين أوقية، فان رسول قبطان أزمور وصل والمفاوضات مستمرة فوعد بخمسين لكل واحد. (60)

وزيادة على الرشاوي النقدية والنوعية، استعملت وسيلة اخرى لاغراء الشيوخ وهي: إرسالهم الى البرتغال وتنظيم زيارات الى اماكن معينة لكي يعاينوا الفرق ما بين المدينة البرتغالية والدواوير الدكالية حسب تعبير صاحب الفكرة، القبطان (أتايد). وهكذا ارسل اعيان اولاد عمران وعلى رأسهم شيخهم (ديا)، وصاحبهم اليهودي الترجمان (دارديرو Dardeiro) وذلك ربيع 1512 . [61] وتلاهم آخرون من ناحية أزمور وعلى رأسهم كبير شيوخهم محمد بن محمد صحبة اليهودي (ابن الديب) وذلك خريف 1514 . [62]

(هـ) دور الشيوخ والاعيان في اخضاع القبائل

لقد سبقت الاشارة الى الوزن الخطير الذي اصبح للشيوخ داخل قبائلهم، ذلك الوزن الذي تعزز بتزايد القلاقل التي نتجت عن وصول البرتغاليين.

ويكفي للدلالة على ذلك الوزن، الاشارة الى أن قبيلة أولاد عمران الجنوبية التي صمدت طويلا، وأكثر من هذا هاجمت البرتغاليين احيانا وهزمتهم مرة قرب آسفي، خضعت مقابل تسلم رأس اكبر شيوخها المعلق بأحد أبواب المدينة. [63] ولقد تعززت تلك المكانة، الى حد ان القبائل اصبحت مجرد دمى تحركها أيدي الشيوخ في الاتجاه الذي تريده. فلقد ترأس «يحيي اوتعفوفت» مرة قسما من الغربية ليطارد قسما آخر منها فضل العصيان [64] . وللتأكيد على هذا الوزن الذي اصبح للشيوخ ودورهم في اخضاع القبائل، نورد هذه الأمثلة.

1 - من المعلوم ان يحيى لعب دورا خطيرا في نشر النفوذ البرتغالي وذلك لتحكمه في عبدة والغربية اللتين اصبحتا مجرد آلة يحركها في الاتجاه الذي يريده. فحين عاد من البرتغال بعد نفيه الثاني، وجد كل القبائل في حالة عصيان: الغربية بالحوز، وعبدة بالشياظمة. . . الخ وما ان كاتب اعيانها حتى سارعوا الى تلبية ندائه ووفدوا عليه بآسفي حيث تم خضوعهم من جديد. [65] ويتجلى هذا الاكراه كذلك فيما كتبه سنة 1517 اذ اخبر الملك البرتغالي انه اذا ما رجع الوطاسي الى عاصمته «. . . واذا رجع ان نتحزم مع هذا العرب حتى نردهم لسفي برز منهم. . . » [66] واعترف يحيى انه ارغم

الغربية على البقاء بأراضيها رغم ان الشرقية وعبدة فرتا حين اقتراب وصول الوطاسي الى المنطقة (1517) . [67]

2 ـ واذا تغيبت عبدة حين حصار آسفي الكبير (1510) ، فذلك راجع الى الرشاوي المتعددة التي توصل بها حسون. وسنرى ان اغتيال يحيى تم على يد احد شيوخها، غانم. ونتج عن هذا عصيان القبيلة وفرارها نحو المناطق التابعة للشرفاء السعديين. ولكن حسون الذي اصبح ـ على ما يبدو ـ يطمع في خلافة يحيى اعادها الى اراضيها والى ولائها السابق. [68]

3 ـ وتتجلى سلبية القبائل في المثال التالي:

فرت قبائل الغربية نحو جنوب التانسيفت (1519) ثم عبرت بعد ذلك عن «رغبتها في الخضوع». ولما توصلت «بأمان» القبطان التحقت بأولاد عمران الجنوبية التي كانت بدورها في حالة عصيان وعادتا معا. الا ان الشيوخ بادروا بطلب «هدايا» «. . . كعادة هؤلاء المغاربة. . .» فكان جواب القبطان «. . . ان هديته هي اعطاؤهم اراضيهم. . . . لكي يحرثوها ويزرعوها كما كانوا يفعلون من قبل. . .» فردوا عليه بارجاع قبائلهم الى حالة العصيان السابقة، وشرعوا في مطاردة عبدة الخاضعة. [69]

4 ـ اعطت قبائل الشرقية لشيخ أصلح ذات البين بينها وبين قبطان أزمور بقرة عن كل خيمة، او عشرة أواق عن كل دوار بالنسبة لمن لا يملكون الأبقار[70] .

5 ـ حين اغتيال يحيى حاولت القبائل التي كانت معه الفتك بالبرتغاليين المصاحبين له، الا ان معارضة شيوخهم حالت دون ذلك، ومنهم من مات في سبيل ذلك ان صحت رواية (كويش)[71] .

6 ـ استطاع ميمون، قائد المدينة الغربية، ارجاع قبائل الشرقية بعد عصيانها الذي تلا موت القبطان أتايد. (1516) وقام غانم بنفس الشيء مع عبدة [72]

هذه بعض الحالات فقط، ولكن هذا التعميم يؤدي بنا الى الخطأ. فباستثناء اقلية سارعت الى خدمة الاستعمار، وبطريقة اختيارية، نجد ان جل الشيوخ أرغموا

على الرضوخ كما سنرى ذلك في فصل لاحق. ويعتبر يحيى أوتعفوفت أكبر عملاء الاستعمار البرتغالي على الاطلاق لكونه لعب دورا طلائعيا في نشر النفوذ البرتغالي في دكالة، والحوز، والشياظمة، وفي الدفاع عن المكتسبات البرتغالية؛ وساهم في اخضاع القبائل وفي تنحية الهنتاتيين عن المنطقة، وفي منع الشرفاء السعديين من نشر نفوذهم بشمال التانسيفت، وصمد في وجه الوطاسيين. وأعطاه هذا العمل شهرة كبيرة لدى القبائل ولدى البرتغاليين. فلقد وصلت شهرته الى السوس، وتمنى قبطان أكدير لو انه وصل الى المنطقة لطرد الشريف السعدي منها.[73] ورغم كل هذه الادوار الخطيرة التي قام بها يحيى، بقي مجهولا، ولم تصلنا عنه من خلال المصادر المغربية الا اشارات قليلة، اذ لم يحظ من صاحب «الاستقصا» الا بسطور قليلة، وأكثر من هذا جاءنا اسمه محرفا (ابن تافوفت)[74]. ومن حسن الحظ وصلنا عنه الشيء الكثير من خلال المصادر البرتغالية ومن خلال رسائله التي وصلتنا مكتوبة بالعربية والبرتغالية. واعتمادا على هذه الوثائق تتبع المؤرخ البرتغالي D. Lopes مراحل مغامرته الى جانب البرتغاليين[75].

لقد سبق لنا التعرف اليه. فلقد كان ضمن المتنافسين على السلطة بآسفي. ويرى D. Lopes ان اقامته بالبرتغال، ومعاينته لبذخ البلاط وتفوق البرتغال الحضاري على المغرب جعله يقرر تسخير نفسه لصالح هذا البلد[76]. والحقيقة ان يحيى ككل الطامعين في السلطة، كان متأكدا، ومنذ البداية، من ان ذلك لا يتحقق الا اعتمادا على الاجانب. ولهذا الح على ارساله الى لشبونة وربما اقترح هناك على الملك ارساله الى دكالة قائدا على عبدة والغربية[77].

ولم يستقر يحيي بآسفي التي وصلها سنة 1510؛ بل التجأ الى «كونتي». وكانت اول اشارة وصلتنا عنه تعود الى اكتوبر 1511 حينما التقى بالقبطان حين عودته من غارة على دواوير قريبة من القرية المذكورة، ولامه على عدم اشراكه اياه فيها، وأكد له انه لو فعل ذلك «... لتمكنوا من أسر عدد أكبر، ولاحتفظوا بكل البهائم...»[78] مما يؤكد انه كان يتصور دورا أكثر فعالية مما كلف به الى حدود ذلك

التاريخ . واستمر القبطان في تجاهل وجوده ، ولم يصلنا شيء عن نشاطه العسكري سنة 1511 .

وقام يحيَى في تعامله مع البرتغاليين بثلاث مهام : ففي الأولى كان مجرد مساعد على ادخال الضرائب[79]. وخلال الثانية أصبح مساعدا فعالا وضروريا بالنسبة للبرتغاليين في نشر نفوذهم ، ثم كلف بعد ذلك بالدفاع عن تلك المكتسبات.

فخلال 1512 أرسله القبطان على رأس عدد من رجاله الى جوانب التانسيفت لادخال ضرائب تلك المنطقة. وهاجمه قسم من الشياظمة، ولكنه انتصر عليه رغم قلة رجاله وأرغمه على اداء الضرائب[80] . وتحرك ايضا نحو الجبل الاخضر في هذه المهمة. ونجح في ادخال «اولاد عمران السكاون» سلمياً تحت النفوذ البرتغالي. [81] وشارك البرتغاليين في انتصارهم على الناصر الهنتاتي بسفح جبل بني ماكر صيف 1512 . [82] وبعد أن أعاد الهنتاتي جمع قواه، زحف نحو (أكوز). وآنذاك وصلت القبطان اخبار تفيد بأن يحيى يعد لخيانة البرتغاليين، فأمر كل من كان مع يحيى من البرتغاليين بالالتحاق بآسفي، فامتثلوا باستثناء اقلية كان على رأسها صديقه Rodrigo De Noranha . [83] واستطاع يحيى، الذي كان على رأس 3000 (غربي وعبدى)، أن يسحق جيوش الهنتاتي، فازدادت بذلك شهرته وفي نفس الوقت عداء القبطان ويهود آسفي له. وهكذا تعرض خلال هذه السنة لاتهامات من هؤلاء، أخطرها انه يعد لخيانة النصارى، ويخطط لاغتيال القبطان. ورغم ان الملك كتب الى يحيى يطلب منه الالتحاق بالبرتغال، فان القبطان احتفظ بذلك الامر لأن التوسع كان في بدايته. وبالفعل كان دور يحيى اساسيا خلال سنة 1513 . فلقد ساهم مساهمة كبرى في الهجوم على «اولاد احمد» بالحوز، وارغمهم على اداء الضرائب. [84] وفي نفس السنة التقى مع الشرفاء السعديين الذين دخلوا بلاد الشياظمة قادمين من السوس وهزمهم. [85] وفي فبراير 1514 كان بالحوز على رأس 1000 من المحاربين المغاربة صحبة 100 «رمح برتغالية» [86] - وفي نهاية هذا الشهر ساهم في الاستيلاء على مدينة (تادنيست) التي اتخذها الشرفاء مقراً لهم [87] . وفي مارس 1514 التقى به الحسن الوزان بالحوز وهو يجمع ضرائبه وحاول ان يقنعه بالابتعاد عن البرتغاليين [88] .

وكان يحيَى مع برتغاليي أزمور وآسفي في «معركة الجمعة» يو 14 أبريل 1514 حيث هزم قواد الناصر الوطاسي الذي تخلى عن فكرة محاصرة أزمور وطارد يحيى بنية قتله أو استقطابه، ولكن يحيى تفادى الاصطدام واكتفى بتسميم الآبار واغلاقها لارغامه على مغادرة المنطقة(89) . ولم يقدر الناصر الا على تخريب «سرنو» مقر يحيى، الذي توصل به بعد ذلك من الملك كإقطاع جزاء له على صموده في وجه الوطاسي(90) .

وبتتالي انتصارات يحيى، تعززت مكانته، فزاد ذلك القبطان تشككا فيه أو حسدا له، فأخرج الامر القاضي بالالتحاق بالبرتغال. وامتثل يحيى وغادر آسفي آخر غشت 1514 (91) .

وبقي يحيى بالبرتغال مكرما مدة اثنين وعشرين شهرا. ولم يقرر الملك ارجاعه الى آسفي الا بعد موت القبطان أتايد. ووصل هذه المدينة يوم 20 يوليوز 1516 برتبة قائد على كل دكالة مع عدد من الامتيازات سنعود اليها في محلها. (92)

ووجد يحيى كل القبائل في حالة عصيان، إذ أصبحت عبدة والغربية تقطعان الطرق المؤ دية الى آسفي. ونجح بسرعة في ارجاع القبائل الى الطاعة وفي اعادة تهدئة البلاد مما جعله يظهر بمظهر«المخلص والمنجي» بالنسبة للبرتغاليين(93) .

ولكن هذا النجاح ، واختلاف وجهات النظر حول طرق تسيير المنطقة، خلقت من جديد اصطدامات ما بينه وبين القبطان (مَشْكَرَنْيَاشْ) ومساعديه، زادتها أسرة زميرو حدة، فالتجأ كل طرف الى الملك للاحتجاج. وبما أن الملك كان في حاجة اليهما معا، فانه عمل على جعل حد لتلك الوضعية دون أن يعاقب هذا او ذاك.

واستمر يحيى رغم مؤ امرات القبطان واليهود ضده في الدفاع عن المكتسبات البرتغالية. ففي يوم 20 مارس 1517 انتصر على الناصر الهنتاتي. وانتصر بعد ذلك بقليل على عدد من الدواوير كانت تنوي الخضوع للسعديين. ولما عاد الى آسفي استقبل بحفاوة كبرى. (94)

وانتصر مرة أخرى على الناصر الهنتاتي وابن عمه «أمير الجبل»[95] . وفي ربيع 1517 راجت أخبار عن قرب دخول الوطاسي الى المنطقة. وكان آنذاك يصحبة أعرابه على جوانب ام الربيع منهمكا في شراء الزاد (جفاف)، فاقترحت عليه قبائله الخضوع للسلطان الوطاسي وتسليم ابنه له لتفادي هجومه، ولكنه رفض.[96] وما أن اقترب الوطاسي من دكالة حتى فرت عبدة ونصف الغربية والتجأ الى جنوب التانسيفت بعد أن نهبا محلته وقرية سرنو حيث يقيم، وحيث مخازن حبوبه. وتفاديا لكل تطويق قد ينجم عن تقارب الوطاسي والسعديين والعبديين، قرر يحيى مهاجمة عبدة والقسم الفار من الغربية. وهكذا رحل الى آسفي للتشاور مع القبطان، فلحقت به أعداد كبيرة من الغربية، مما جعل السكان يظنون أنه أعد لانقلاب؛ فقامت ضجة داخل المدينة أسكتها يحيى بصعوبة.[97] وهكذا اضطر بدوره الى الالتجاء الى حاحة على رأس من بقي وفيا من الغربية. واستغل القبطان وجوده هناك لاتهامه بتقسيم مناطق النفوذ مع أحمد السعدي.[98] وأشارت احدى الرسائل الى انه كان في بداية شتنبر 1517 بميناء (تركوكو) على مقربة من أكدير[99] (أقل من 20 كلم شماله). وذكر يحيى في احدى رسائله الى الملك انه ينتظر مغادرة الوطاسي للمنطقة ليعمل على دفع القبائل الى الرجوع الى أراضيها.[100]

ولم يصلنا عنه شيء من هذا التاريخ الى يوم اغتياله، وان كان من المؤكد أنه نجح في ارجاع القبائل، لان كلا من عبدة والغربية كانت بأراضيها في بداية 1518 . وتم اغتياله قبل 16 فبراير 1518 بخيمة الشيخ حسون العبدي، على يد غانم، أحد شيوخ عبدة، وأخيه يشو[101] . وانتهى الاغتيال بعصيان جماعي جديد. وعجز البرتغاليون عن اعادة الامور الى ما كانت عليه.

تقويم دور يحيى

مما لا شك فيه أن دور يحيى في التوسع كان كبيرا. فلقد أكد المؤرخ (كويش) على ذلك عدة مرات[102]. ولكن القبطان (أتايد) كان يرى أن ما فعله يحيى، كان بامكان أي مغربي القيام به لو جعل على رأس القبائل[103] والحقيقة أن هذا الحكم أملته محاولاته اليائسة لجعل الملك يقتنع بخيانة يحيى، وعدم الاحتياج اليه.

وكان يحيى محاربا شجاعا استطاع تحقيق انتصارات لم تكن متوقعة، وأصبح مجرد وجوده ضمن الجنود كافيا لبث الرعب في نفوس المهاجمين. وأصبح كذلك يمثل ضمانة بالنسبة للحلفاء مما يجعلهم متيقنين من الانتصار، فيسارعون الى المشاركة في الغارات(104) . ومكن وجود يحيى على رأس عبدة والغربية البرتغاليين من ولاء القبيلتين مما سمح لهم بالخروج من آسفي والابتعاد عنها. وأكثر من هذا مكنهم هذا من تغطية النقص في اعدادهم باشراك العبديين والغربيين في الغارات.

وسمحت لهم هذه المشاركة بانتصارات بأقل الضحايا، ذلك أن «الحلفاء» كانوا يتحملون ثقل الحروب إذ كانت غالبية الضحايا دكالية كما يشهد على ذلك كويش: «. . . واشتبك سيدي يحيى ورجاله مع العدو (الشريف السعدي وسكان تادنيست) بينما بقي (نونوش فرنندیش) واقفا دون أن يحرك رجاله. . .» ومات من الحلفاء مائة في حين لم يمت ولو برتغالي واحد. (104) ولم يتحرك البرتغاليون الا بعد ان لاذ أنصار السعدي بالفرار.

وكانت مساعدة رجال يحيى تقنية كذلك. فزيادة على معرفة المناطق المهاجمة وفروا للبرتغاليين وسائل المبيت المتجسمة في الخيام، لان القبائل المساهمة في الغارات البرتغالية كانت تتحرك بكل عناصرها. ولقد أكدت التقارير على دور هذه الخيام في نجاح التوسع وجعل منها أحد البرتغاليين عاملا أساسيا في وصول البرتغاليين الى سفح الأطلس الكبير. (105)

وبعد اغتيال يحيى استمر ابن أخيه سعيد في خدمة البرتغاليين. الا أنه لم يصل الى ما وصله عمه. فلما قرر الملك البرتغالي تحصين قرية «الجمعة» بجبل سيكاط بالشياظمة، فكر في إرساله للمرابطة بها ضد أحمد الأعرج السعدي. ولكن المشروع لم ير النور، ولا ندري مصير هذا الرجل.

(و) دور الفراغ السياسي وعامل التضاريس

وزيادة على العوامل السابقة الذكر، سهل الفراغ السياسي الذي كانت تعاني منه المنطقة مهمة البرتغاليين. فلقد سبقت الاشارة الى أن خضوع القبائل تم بعد أن

يئست من التوصل بأية مساعدة رسمية نظرا لعجز الأنظمة القائمة آنذاك عن تحمل مسؤ وليتها. وسنرى في فصل لاحق أن تدخل الوطاسيين والهنتاتيين أضر بالقبائل أكثر مما ساعدها.

ومما يؤكد أهمية هذا العامل في تسهيل التوسع أنه لعب كذلك لصالح البرتغاليين بالسوس وإن كان مؤقتا؛ ذلك أن مبايعة الشرفاء به سرعان ما ضيقت عليهم الخناق وحرمتهم من حلفائهم.(106) وتعطينا الثغور الشمالية مثالا حيا على أهمية هذا العامل. فلقد استطاع البرتغاليون مباشرة بعد احتلال اصيلا مثلا خلق «منطقة مسالمة» (كما تم بعد ذلك بآسفي)؛ ولكنهم سرعان ما حوصروا داخل حصونهم بتتالي الغارات التي كان ينظمها قواد الشاون (بنو راشد) وتطوان (المنظري) والقصر الكبير، والذين كانوا يصدون كذلك كل هجوم برتغالي، ويردون على كل غارة تضر بالقبائل.(107) وبهذا لم يعد أحد يجرؤ على التعامل مع البرتغاليين. وأكثر من هذا لم يكن هؤلاء القواد يلتزمون بمعاهدات الوطاسيين مع برتغاليي الثغور، مما كان يحرمهم من راحة الهدنة.(108)

هذا زيادة على غارات الوطاسيين التي كان بعضها خطيرا جدا.(109) كما ارتفع عدد المجاهدين مع مرور السنوات وأصبح بعضهم مهابا كثيرا من طرف البرتغاليين. فلقد نتج عن استشهاد أحدهم تنظيم حفلات كبرى بأصيلا لانه «. . . كان دائما في مقدمة الصفوف لمهاجمتنا (يشير دوسوزا الى اصيلا) وعرضنا لوحده لحروب أكثر مما عرضتنا لها كل المنطقة المجاورة للقصر والشاون. . .»(110)

وزاد عامل التضاريس بدكالة الفراغ السياسي خطورة، ذلك أن التضاريس المنبسطة وكثافة السكان على مقربة من الثغور سهلت على المستعمر مهمة التحكم في المنطقة. ولم تكن القبائل تجد مأوى تلتجيء اليه ذلك أن الجبل الأخضر وجبال بني ماكر غير منيعة. وبهذا تكون دكالة فاقدة لعامل استفادت منه قبائل الشمال: قرب الجبال المرتفعة من الثغور المحتلة.

3- **مراحل التوسع**: (أنظر الخريطة رقم 5 والجدول)

يمكن اعتبار تعيين (أتايد) قبطانا بآسفي بمثابة منعرج في تاريخ التوسع داخل

دكالة والمناطق المجاورة، ذلك أنه تخلى عن السياسة المتبعة الى ذلك الوقت ومال الى سياسة تقتضي ارغام القبائل على الرضوخ والدخول تحت النظام الذي تقرر فرضه على المنطقة بتعيين يحيى على رأس قبائلها. ولم تصلنا الا اشارات قليلة عن العمليات العسكرية التي قادها اثر وصوله الى آسفي خلال ربيع 1510 . وكانت أولاهاتلك‌التي استهدفت دار أحد المرابطين القاطنين قرب آسفي، والتي انتهت بأسره وأسر أكثر من مائة من الأفراد. ثم تلتها غارات ضد القبائل التي نعتها (كويش) «. . . بعرب أزمور الذين يسكنون على بعد خمسة «مراحل» من آسفي. . . » كما نظمت غارة أخرى ضد المدينة الغربية. ونتج عن هذه الغارات أن «. . . جل أهالي المناطق المجاورة. . . ليعيشوا في أمن، خضعوا لسلطة التاج البرتغالي. . . »(111)

وهكذا امتد نفوذ البرتغاليين شرقا الى أن وصل الى قرية تازروت وشمالاوإلى المدينة الغربية وأيير في الشمال الغربي على ساحل المحيط. وقبلت كل هذه الأماكن اداء الضرائب.(112)

ونظرا لوجود فريقين بالمدينة الغربية، واحد يميل الى التعامل مع البرتغاليين واداء الضرائب لهم، وآخر يرفض ذلك، فان هذا الأخير نادى بالجهاد. وبما أن قبائل جنوب التانسيفت كانت قد حققت خلال1510 انتصارا كبيرا وبدون اي عون رسمي، وذلك بتحريرها (لمغدور)(113) فان القبائل تقاطرت على المنطقة من كل جهة: من الشياظمة، والحوز، ودكالة باستثناء عبدة.

ووصلتنا عن الحصار الكبير الذي ضربته القبائل على آسفي أربعة تقارير زيادة على رواية كويش. (114) ووصل أول فوج من المحاصرين يوم5 دجنبر، وفي يوم13 من نفس الشهر، تمت محاصرة آسفي من كل الجهات. وكان المغاربة آنذاك200 000 حسب تقدير «كنتدور آسفي». وقام المحاصرون بهجومين يومي 29 و 30 دجنبر دون انتظار الهنتاتي، وذلك بعد أن توصلت آسفي بالعون من البرتغال واسبانيا وماديرا.

العمليات العسكرية ومراحل التوسع

التاريخ	المكان المهاجم	عدد البرتغاليين وحلفائهم	قتلاهم	اسراهم	عدد المغاربة	قتلاهم	اسراهم	الغنائم	المصدر
دجنبر 1510	حصار آسفي	430 و 100 مشاة			200 000	10 الف			S.I.H.M.I.P.272 GOIS pp 60 – 67
22 – 1 – 1511	قرب المدينة غ	430 رمحا 100 مشاة					100	عدد كبير	Gois p. 68
نفسه	مطاردة البرتغاليين		12		400 فارس				Gois p. 69
نفسه	مطاردة أخرى				800				Ibid p. 70
نفسه	مطاردة أولاد عمران للبرتغاليين		16						Ibid p. 71
23 – 10 – 1511	قرب «كونتي»	460 فارس، 500 مشاة			25 دوارا		567	1000 من الابقار	Diego 13 – 14 Ibid p. 72
1512	الشياظمة	160 من رجال يحيى			800	3	2		Ibid p. 84
1512	قرية «العزيز» بالشياظمة						6	عدد غير محدد	Gois p. 84
1512	هجوم تازروت على آسفي						11	13 فرس	Ibid p. 85

1512	المدينة الغربية	400 رمح+ مشاة	3		6 600	20			Ibid p. 85
يوليوز 1512	مخيم المنتاتي	150 فارسا + 100 رمح				5	14		Ibid. p. 88
نفسه	مخيمة بكونتي					300		عدد كبير من الخيول والجمال	Ibid P. 89
نفسه	مخيمة بني ماكر	500 + الحلفاء				400		عدد كبير من الخيول والجمال	Ibid. p. 89
1512	المدينة غ ـ آسفي		3				40		Ibid. p. 90
1512	أ. عمران ـ آسفي	160 + آخرين			700				Ibid pp 91 – 95
أكتوبر 1512	المنتاتي بأكوز	3000 عبدى وغربي					300 ؟ 500 ؟		Ibid. p. 94
1513	الحوز ـ اولاد احمد	150 + يحيي ورجاله				1000	158	انغام وغنائم اخرى	Ibid p. 91
1513	الشياظمة		1				«بعض»	مواشي	Ibid. p. 95
فبراير 1514	بنكيز ـ تافوف	1200 رمح + 1000 م					200	كثيرة	Ibid p. S. I. H.M.P.I. pp 482 Marmol I p 111 TorresI. p. 24
15 فبراير	أ. احمد (الحوز)	100 + 1000 «حليف»				50	420	10 الف غنم، ماعز، 6000 بقر	Gois p. 132 S.I.H.M. p.480

تابع العمليات العسكرية ومراحل التوسع

التاريخ	المكان المهاجم	عدد البرتغاليين وحلفائهم	قتلاهم	اسراهم	عدد المغاربة	قتلاهم	أسراهم	الغنائم	المصدر
28 فبراير 1514	تادنيست	400 ر+ 2000 حليف			4000			200 000 راس غنم وبقر	Gois p. 114 Mormol IIp. 9 TORROSI p. 46
مارس 1514!!	قرية بالشياظمة	400 «رمح» + جنود أزمور					50		Góis P 114 – 16
14 – 4 – 1514	معركة الجمعة	1800 + رجال يحيى			4000 + م	2600	280	مهمة ومتنوعة	Góis p. 118 – 21 S.I.H.P.I. 540 Marmol IIp. 106
اكتوبر 1514	ضواحي مراكش	17 + 423 دكالي				50		10 الف غنم 334 جمل	Góis PP. 131
بداية 1515		300 ر+ 300ر (حلفاء)					160	4000 من الابقار	S.I.H.M.I.P.676 Marmol II p. 64
1515	الشريف السعدي	150+ بوجمعة ورجاله			1600 «رمح»		1		Góis p. 136
1515	أمغور	250 + 700 مع بوجمعة			150 فارس + 200 مشاة	1200	400	85 فرس مسرج	Ibid. P. 138 – 40 S.I.H.M.I.PP. 683 Torrès. I.p. 52
1515	أغبالو	120 ف + حلفاء					قليلون		Góis p. 140
1515	أكلكل	150 + حلفاء	16 + 500 حليف						Ibid p. 141 MARmolII 10 Torres, I. p. 58

1515 - 4 - 22	مراكش	+ 32 + ف 510 2400|حليف							Góis. p. 143 - 47 S. I. H. M. I. 687
1516 - 4 - 19	أولاد عمران	430 ف + 4000 حليف		35					GOOIS P 161 S.I.H.M.I.P. 3
يونيو 1517	عبدة	300 ف + 300 م					87	9 خيول، 42 جملا	Góis p. 175
1518 - 4 - 26	الشاوية	؟					250	150 من الابقار	Ibid. P. 179
1518 - 5 - 26	ناحية أزمور	70 رمحا					80	كثيرة	Ibid. p. 180
غشت 1518	موكرس	30 رمحا					11		Ibid p. 189
فبراير-1519	الشاوية	230 رمحا +100 مشاة					210		Gois p. 184
1519 - 2 - 25	الشاوية	؟					197		Ibid. p. 18
1519 - 3 - 20	الشاوية						402	5000 راس	Ibid. p. 185
1519 - 3 - 25							50		Ibid. p. 186
1519 - 3 - 28							50		Ibid. p. 186

تابع العمليات العسكرية ومراحل التوسع

التاريخ	المكان المهاجم	عدد البرتغاليين وحلفائهم	قتلاهم	اسراهم	عدد المغاربة	قتلاهم	اسراهم	الغنائم	المصدر
1519 - 3 - 30						كثيرون	358		Ibid. p. 187
1519 - 4 - 10							253		Ibid. p. 189
1519 - 10 - 8	الشاوية						21		Góis p. 198
1519 - 10 - 14							3		Góis p. 189
اكتوبر 1519	تمركشت	250 ر + 35 م				200	250	خيول، جمال	Ibid p. 190 – 91
	غربية قرب «زيما»	250 + 120 م				300	176		Ibid. p. 197 – 98
1519	عبدة الشياظمة	250 ر + 60 م	4			150	90	5 خيول، 9 جمال	Ibid. p. 199
1520	الحوز	175 + 1120 مع ابن حدو				كثيرون	482	360 فرس، 850 بقرة 6000 غنم	Ibid. p. 222
	العطار قرب أزمور				200 ف +				De Sous p24

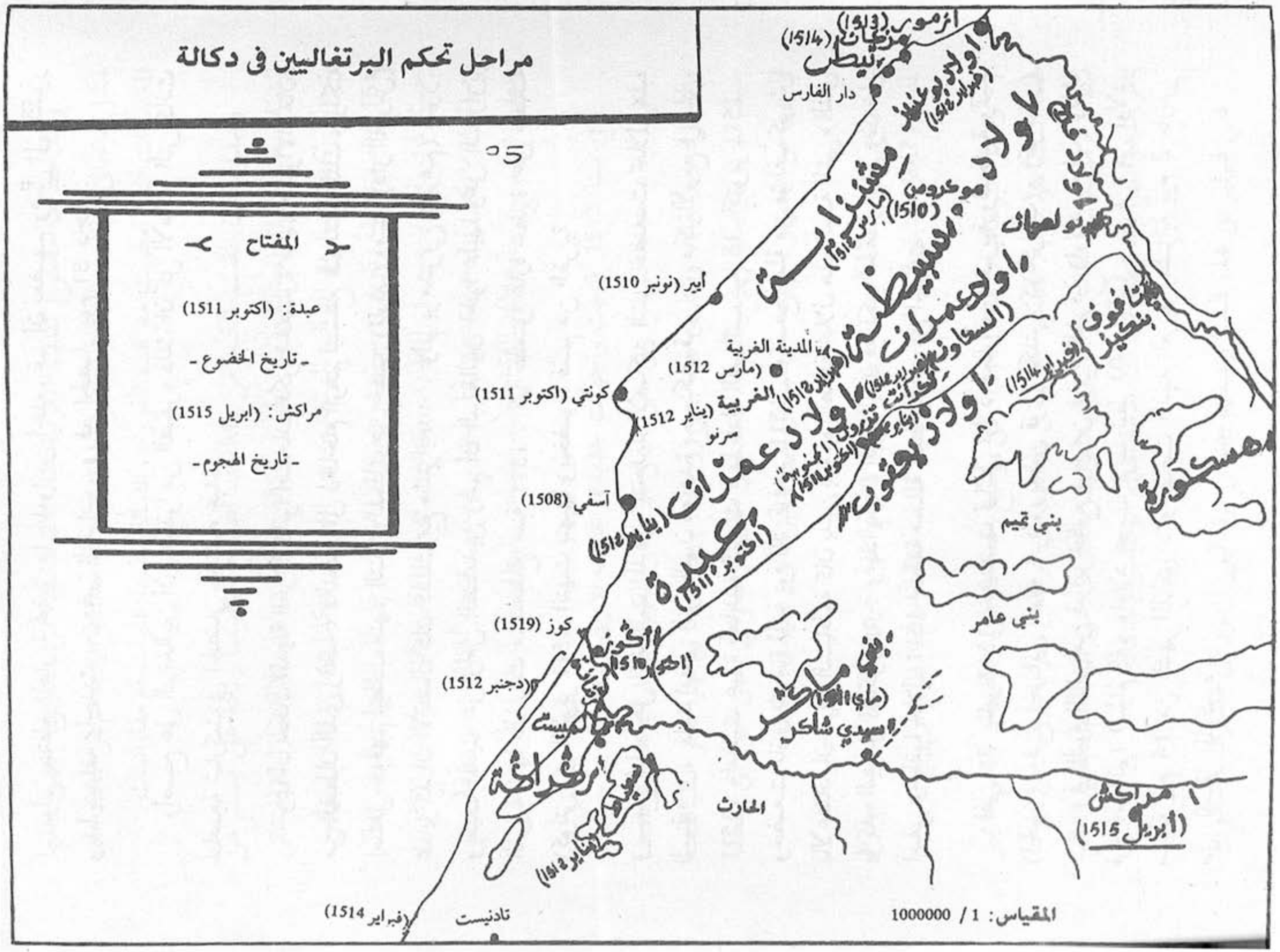
مراحل تحكم البرتغاليين فى دكالة
المفتاح
عبدة: (اكتوبر 1511)
ـ تاريخ الخضوع ـ
مراكش: (ابريل 1515)
ـ تاريخ الهجوم ـ
دار الفارس
أيير (نونبر 1510)
المدينة الغربية
(مارس 1512)
كونتي (اكتوبر 1511)
الغربية (يناير 1512)
مرنو
آسفي (1508)
كوز (1519)
(دجنبر 1512)
(فبراير 1514)
تادنيست
الحارث
بني تميم
بني عامر
المقياس: 1 / 1000000

ولم يستطع المغاربة تحقيق ما جاءوا من أجله رغم أن بعضهم وصل الى السور وبدأ يتسلقه وأحدث به بعض الثغرات. ورفع الحصار يوم 31 دجنبر.

وأصبح على البرتغاليين أن ينطلقوا من الصفر، ذلك ان كل الاماكن التي كانت خاضعة شاركت في الحصار باستثناء عبدة.

وبما أن سكان المدينة الغربية كانوا اصحاب فكرة الحصار، فانهم طلبوا «الامان» من القبطان الذي رفضه، فالتجأوا الى الحاخام ابرهم ليشفع لهم لدى الملك، ولكنه استغل خوفهم ليطلب منهم التنازل للملك عن حصن (تارتير) وميناء (دار الفارس) مما يؤكد ان الاتصال كان كذلك مع مشنزاية[115] . ولم ير مشروع (أبرهم) النور. وبقيت المدينة على رأس الصامدين رغم أن البرتغاليين الحوا عليها وعلى الدواوير القريبة منها بالغارات منذ مطلع سنة 1511 . كما نظموا غارة خطيرة على منطقة (كونتي) في اكتوبر 1511 انتهت بنهبها وبخضوع قسم من الغربية.

ويسمح لنا سجل الضرائب المذكور بتحديد الاماكن التي خضعت خلال هذه السنة[116] . فلقد امضى البرتغاليون معاهدة مع سكان قرى بني ماكر الأربع في ماي 1511، وامضت عبدة معاهدة التزمت فيها باداء الضرائب يوم 18 اكتوبر 1511 . وخضعت تازروت مرة ثانية يوم 30 نوفمبر 1511 . وتسمح جملة من مؤلف كويش بالاعتقاد بان شمال الشياظمة كان يدين بدوره بالطاعة خلال هذه السنة الشيء الذي يؤكده السجل المذكور[117] . وبهذا يكون البرتغاليون قد فكوا الحصار المضروب على آسفي وخلقوا خلال 1511 منطقة مسالمة تحيط بها من كل الجهات.

ففي 31 يناير 1512 خضعت قبائل اولاد عمران والغربية وشجعة وتميم (الحوز)، وفرع آخر اتى اسمه محرفا، وبعض قرى الكنتور ك(تكرانت) و (كراندو) ... وفي اليوم الثاني من فبراير خضع فرع من فروع الشرقية (اولاد يوسف) وتلاه فرع «سلاليم» (سوالم ؟)، وأولاد دويب قرب تيط (10 فبراير) ، ثم فرع من أولاد سبيطة يوم 14 من الشهر المذكور ، وخضعت المدينة العربية ومشنزاية يوم 2 مارس من السنة المذكورة .

والملاحظ ان خضوع المدينة الغربية جاء بعد سلسلة من الغارات انتهى جلها بفشل برتغالي، وتكبد القبطان خلال احداها هزيمة حقيقية .ولا نعلم هل كانت هذه المعاهدات التي امضيت مع هذه الفروع والقبائل نتيجة غارات أم مفاوضات.

وبهذا يكون القسم الكبير من دكالة قد اصبح خاضعا زيادة على قسم من الشياظمة ،والمنطقة الممتدة ما بين الحوز ودكالة. وجعلت هذه الانتصارات الهنتاتي يتحرك، خصوصا بعد اقتراب البرتغاليين من الحوز. وهكذا دخل دكالة في يوليوز 1512 وخيم بمنطقة (كونتي) حيث هوجم بغثة وهزم، فرحل إلى سفح جبال بني ماكر حيث كان نفس المصير في انتظاره. وبعد ان جمع قواه مرة ثالثة تحرك نحو (أكوز) حيث هزمه يحيى اوتعفوفت يوم 12 شتنبر. وخلفت تنحية الهنتاتيين من دكالة نتائج خطيرة اذ لم يبق بعدها للقبائل اي سند لتجاهل الوطاسيين لما يدور بالمنطقة.

وفي سنة 1513 فتحت واجهات جديدة. تمثلت الأولى في الحوز، اذ تعرضت قبائل «اولاد احمد» المستقرة على مقربة من الاطلس الكبير لغارة برتغالية قادها «الدليل» (باريغا)، وشاركه فيها يحيى ورجاله. ومن هناك توجهوا نحو الشياظمة حيث تم اول اصطدام مع الشرفاء السعديين الذين وصلوا في نفس اليوم الى المنطقة قادمين من السوس. وهذا ما حتم على يحيى والبرتغاليين «تهدئة» المنطقة.

ونتج عن احتلال أزمور خريف 1513 فتح واجهة اخرى بالشاوية. فبعد سقوط المدينة وتماطل الشاوية في الخضوع نظمت غارة قادها الدوق، فاتح أزمور(119).

وعمل البرتغاليون خلال 1514 على توسيع رقعة المناطق الخاضعة. واهم ما يميز هذه السنة هو بداية التفكير الجدي في الهجوم على مراكش، وخصوصا من طرف قبطان أزمور، ثم الحاح البرتغاليين وحلفائهم بالغارات على الشياظمة لطرد القائم بامر الله وابنه احمد منها، وكذلك بداية اهتمام الوطاسيين بدكالة.

ففي فبراير من هذه السنة وصلت جيوش برتغاليي أزمور الى مشارف هسكورة

(بنكيز وتافوف)، في حين وصلت خلال النصف الاول من هذا الشهر جيوش آسفي الى سفح الاطلس الكبير، ونهبت دواوير اولاد مطاع. وفي 28 فبراير كان برتغاليو آسفي بصحبة يحيى ورجاله بالشياظمة حيث هزموا الشرفاء ودخلوا مقر اقامتهم، (تادنيست). وتابع القبطان (أتايد) ويحيى وقبطان أزمور الذي لحق بهما تهدئة المنطقة.

لقد كلف السلطان الوطاسي اخاه الناصر الكديد، ووزيره وعامله في نفس الوقت على «مملكة مكناس وتامسنا بالهجوم على برتغاليي آسفي وأزمور وحلفائهم، الشيء الذي تم خلال ابريل 1514 . ولم يستطع الناصر لا استقطاب يحيى، ولا قتله، ولا ابعاد القبائل عن التعامل مع البرتغاليين.

وعرفت سنة 1515 الحاحا من طرف البرتغاليين على الشرفاء السعديين بالغارات. كما نظم خلال هذه السنة هجوم على مراكش مما جعل التوسع يعرف خلال هذه السنة اقصى ما وصله. فلقد استطاع البرتغاليون باخضاعهم للقسم الشمالي من الشياظمة، وبتعيينهم بوجمعة على رأسه خلق حزام وقائي ضد السعديين لمنعهم من عبور التانسيفت ومن الاتصال بعبدة. وبما ان بوجمعة اصبح مضايقا من طرف السعديين، فان القبطان ارسل «الدليل» لمساعدته. واستطاع هذا الاخير الانتصار على الاعرج الذي فر والتجأ الى حصن «أمغور»، جنوب حاحة وقرب ميناء (تافَطْنَا). فاضطر «الدليل» الى محاصرته هناك وانتصر عليه . واعتبر الاخباري كويش هذا الانتصار «. . . من أمجد ما حصل عليه البرتعاليون الى ذلك التاريخ بهذه المنطقة من افريقيا. . .»(120) والتجأ الاعرج ورجاله الى حصن (اكلاكل) حيث لحق به «الدليل»، ولكنه هزم واستطاع الافلات من الاسر بأعجوبة، وتفرق رجاله في كل اتجاه. وفي يوم 22 ابريل نظمت الغارة الكبرى ضد مراكش، وشارك فيها برتغاليو أزمور وآسفي (550 محارب) وحلفاؤهم الدكاليون (2500 رجل). ومعلوم ان الهجوم على هذه المدينة واحتلالها خامر عددا كبيرا من البرتغاليين، وخصوصا القباطنة(121) . وانتهى الهجوم بهزيمة برتغالية، ذلك ان جيوش الهنتاتي صدتهم عن المدينة وأرغمتهم على مغادرة ضواحيها.

وعرفت سنة 1516 تراجع النفوذ البرتغالي بالمنطقة بطريقة فجائية. فلقد تم قتل

القبطان أتايد في ابريل 1516 على يد شيخ اولاد عمران (رحو بن شحموت) بعد ان نهب البرتغاليون دواويره. ونتج عن قتل القبطان تنازع البرتغاليين بعين المكان حول من يخلفه. ومالت العناصر الدكالية المرافقة للبرتغاليين الى جانب «رحو» وشرعت في مطاردة البرتغاليين الذين اسر منهم 35 ، منهم الفيطور والدليل، وقتل منهم عدد كبير[122] . وبذلك دخلت قبائل الشرقية وعبدة والغربية في حالة عصيان، وتهدم كل البنيان، واصبحت هاتان القبيلتان اللتان كانتا اكثر القبائل تورطا مع الاستعمار تمنعان كل من حاول الوصول الى المدينة التي اضطرت الى جلب الحبوب من البرتغال[123] .

ولقد اعتبر بعض المؤ رخين قتل أتايد سببا في هذا التحول وجعلوا من موت «. . . القبطان الذي لا يعرف الراحة» سببا في ظهور مرحلة جديدة تمتاز بعصيان القبائل وانكماش النفوذ البرتغالي، وكأن الامر كان رهينا بشخص واحد[124] .

حقيقة ان فترة من العصيان تلت موت القبطان، ولكن القبائل كانت قد اعلنت عصيانها قبل ذلك سنتي 1514 و1515 ، وارغمها أتايد على الخضوع مرة اخرى، الشيء الذي استطاع خلفه بمساعدة يحيى القيام به مؤ قتا. ومعنى هذا أن شيئا ما قد طرأ على موقف القبائل من البرتغاليين، وذلك قبل موت أتايد التي كانت مجرد نتيجة لتلك التطورات لا سببا فيها، تلك التطورات التي ستتعزز لتؤ دي في النهاية الى قتل يحيى اوتعفوفت اولا، واسر القبطان (مشكرنياش N. Mascarenhas) ثانيا، وحصار البرتغاليين الدائم بآسفي وقبولهم «للسلم المهين» ثالثا. ويمكن ارجاع ذلك التحول الى السببين الرئيسيين التاليين:

1 ـ اهتمام الوطاسيين المتزايد بالمنطقة بعد 1513 ، ولو بصفة مؤ قتة، ذلك ان القبائل اصبحت بعد دخول الناصر لدكالة في ربيع 1514 تخشى كل تحرك وطاسي نحو المنطقة وتعتبره كارثة عظمى. ورغم ان هذه التحركات لم تعط اية نتيجة ملموسة، فان القبائل خرجت مع ذلك بخلاصة مهمة، وهي ان عجز البرتغاليين عن حماية حلفائهم لا يقل عن عجز سلطان فاس او الهنتاتيين. ولهذا اتخذت موقفا جديدا من الطرفين: اما الفرار بصفة نهائية كما حدث لأولاد عمران الجنوبية بعد 1514 ،

واما الخضوع ثم الفرار حين اقتراب الوطاسيين من المنطقة ثم الرجوع اليهـا بعـد مغادرتهم لها. وبما ان الفرار كان يتم الى الشياظمة، فان وجود الشرفاء بها جعـل القبائل تصبح يوما بعد يوم قابلة لسماع «نصائحهم». وهكذا اصبحت عبدة اقرب القبائل الى السعديين بشهادة البرتغاليين أنفسهم (فيطور آسفي)[125] . وبعد ان عزز الشرفاء مكانتهم، وقووا صفوفهم لم يعد التجاء القبائل اليهم مؤ قتا، بل اصبحت خاضعة لهم باستمرار، خصوصا بعد بداية الثلاثينات.

2 ـ فاجعة المعمورة.

رغم ما قيل عن اسباب تحصين المعمورة[126]، فان السبب الرئيسي كان هو العمل على منع الوطاسي من الوصول الى دكالة، وذلك بشغله في واجهـة جديدة. ولـكن المحاولة انتهت بمذبحة برتغالية كبـيرة، نظـرا لسوء اختيار موقـع الحصـن واصرار الوطاسيين والقبائل على سحق البرتغاليين، وافشال هذه المحاولة الجريئة.

واستطاعت المدفعية الوطاسية المنصوبة على التلال المشرفة على الحصـن وعلى المصب الحاق الضرر بالحامية والسكان ومنع السفن من دخول النهر. وانتهت محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المدفعية بمآت القتلى. وعوض ارسال العون للمحاصرين، أرسل الملك البرتغالي لجنة للتحقيق قررت اخلاء الحصن. وشرع في ذلك يوم 20 غشت في فوضى واضطراب كبيرين، مما أدى الى خسائر بشرية ومادية هائلة. وتعتبر الواقعة أكبر هزيمة تكبدها البرتغاليون منذ بداية اهتمامهم بالمغرب. ولقد لمس خطورة الحدث على المكتسبات البرتغالية بدكالة كل من القبطان أتايد والفيطور والدليل. فلقد ألح الأول على الملك لكي لا يتخلى عن الحصن مهما كانت التضحيات حفاظا على ولاء القبائل الدكالية، ذلك أنها ستفر كلما تحرك الوطاسي نحو دكالة.[127] ورأى الفيطور في عصيان عبدة المتعودة على الطاعة فألا سيئا ينبىء بتزايد الصعوبـات، خصوصا بعد وصول خبر فاجعة المعمورة الى مسامع القبائل الدكالية.[128]

ونتيجة لهذه المعطيات، تحولت القبائل نحو العصيان المؤ قت في بداية الأمـر، ليصبح دائما عند نهاية العقد الثاني من القرن. فبعد قتـل أتـايد أصبحـت عبـدة

وشجعة بالشياظمة، والغربية بالحوز، قرب مراكش، وفرت الشرقية الى جبال هسكورة.

وتطلب ارجاعها من كل من يحيى والقبطان مجهودات عسكرية ضخمة وتنازلات سياسية كبرى. وقضى يحيى كل الفترة الممتدة ما بين تاريخ رجوعه وتاريخ اغتياله في مطاردة القبائل. ولقد استعصت عليه تلك التي كانت أكثرها ارتباطا به، الغربية وعبدة، كما ان قبيلة أولاد عمران التي تعهدت لقبطان أزمور بالخضوع سرعان ما أعلنت عصيانها، وقتلت الشيخ الذي بعثه القبطان ليرأسها، وأسرت ثلاثة عشر برتغالياً صحبوه.(129) ولهذا لم يعد القباطنة يثقون في القبائل وشيوخها كما كانوا يفعلون من قبل(130). ومعلوم ان يحيى اغتيل وهو في طريقه الى غارة ضد احدى القبائل القريبة من دكالة بعد ان استطاع مؤقتاً ارغام القبيلتين المذكورتين على الخضوع.وما ان علمتا بموته حتى اعلنتا عصيانها. وأصبحت القبائل بعد ذلك تجرؤ على الوصول الى ابواب الثغور وتحاول اختطاف مواشيها. وجاء في احد التقارير سنة 1519، انه لا يوجد بكل دكالة ولو خاضع واحد(131). وأصبح جنود السعديين يتخذون مبادرة الهجوم، وصلوا سنة 1518 الى ابواب آسفي، وهاجموا قرية أكوز. وتوقفت القبائل عن المشاركة في الغارات، ولم يعد البرتغاليون يجرؤ ون على الابتعاد عن المدن.

ولكن القباطنة عملوا على اخفاء هذا الفشل بالكذب على الملك لاعطاء حروبهم صبغة المكتسبات،(132) في حين مال قبطان أزمور الى الالحاح بالغارات على الشاوية، بعد منع الملك القيام بها بدكالة(133)، ودفع الدكاليين الى المساهمة فيها لحرمانهم من امكانية الفرار اليها.

وحاول قبطان آسفي جعل حد لهذه الوضعية، وعمل على تفادي تفشيها بتحصين بعض القرى في الأماكن الأكثر صمودا. وهكذا تحمس كثيرا لتشييد حصن على مقربة من مصب التانسيفت، سمي «بأكوز» نسبة الى المدينة المغربية القديمة الموجودة على بعد بضعة كلمترات بالداخل، والح كثيرا على الملك، ووعده بأن تكون المصاريف منخفضة، وبأن يشرف بنفسه على الأشغال. وخامرت الملك فكرة

تحصين قرية (تارتير) ما بين المدينة الغربية ومازيغن، وفكر في تحصين «سكياط»، بوسط الشياظمة، وارسال حامية برتغالية الى هناك لطرد السعديين من المنطقة، وارغام أعرابها على الرضوخ. وشجع القبطان هذه الفكرة الأخيرة، وأكد على فوائدها رغم انها بعيدة عن البحر مما سيخلق مشكل الاتصال وارسال الزاد والعتاد والرجال.

وبما أن هذه القرية كانت بيد جنود الشرفاء، فان القبطان اقترح ارسال سعيد، ابن اخ يحيى، الى قرية الجمعة وتحصينها لتخريب سكياط وطرد أنصار السعديين منها. (134)

واصبح المسؤولون البرتغاليون انفسهم على وعي بهذا التحول في موقف القبائل. وهكذا اقترح القبطان مشكرنياش (1517) على الملك الاكتفاء فقط «بولاء» القبائل القريبة من آسفي، والتخلي عن السياسة الطموحة والمفلسة التي اتبعت على عهد القبطان أتايد. ويتجلى انهيار البنيان الذي تم تشييده بالمنطقة، وتراجع نفوذ البرتغاليين، في أسر القبطان مشكرنياش نهاية 1522 على يد جنود السعديين، وفي قبول خلفه أداء القرى القريبة من آسفي وارباضها الضرائب لاحمد الاعرج. (135)

* * *

لقد كانت دكالة المنطقة المغربية الوحيدة التي عرف فيها التوسع البرتغالي انتشارا كبيرا تعداها بعد 1513 ليصل الى قلب حاحة والحوز والشياظمة والشاوية، مما جعل البعض يذهب بعيدا في تأويل هذا التوسع ومقارنته بتجربة أخرى مر بها المغرب تحت الاستعمار الفرنسي. ولقد أكدنا على العوامل التي استغلها البرتغاليون ليصلوا الى ما وصلوا اليه بدكالة. ويفرض علينا التوسع بالمنطقة عددا من الملاحظات:

1 - اذا كان التوسع بدكالة سريعا، فان تراجع النفوذ البرتغالي لم يكن أقل منه سرعة، اذ تهدم البنيان بطريقة فجائية. فلقد تم خضوع جل القبائل ربيع 1512، وبدأ العصيان يظهر ويتعزز بعد ربيع 1514. (136)

2 - لم يكن التوسع البرتغالي فعليا، اذ لا يعني وصول البرتغاليين الى منابع التانسيفت أو الى جنوب حاحة او الى ما وراء الرباط ان المناطق الممتدة ما بين هذه

الاماكن وأزمور أو آسفي كانت محتلة عسكريا، وان السيطرة عليها كانت تامة. ولم يقم البرتغاليون بدكالة بحرب شاملة بهدف تهدئة المنطقة، حرب مستمرة لا تنتهي الا بتحقيق الاهداف المحددة لها، بل اكتفوا بغارات خاطفة على دواوير معينة قبل العودة الى مكان انطلاقهم. وقد لا ينتج عن الهجوم خضوع، كما انه من الممكن أن تبقى ما بين آسفي، أو أزمور، والمكان المهاجم قرى أو فروع قبائل لم ترضخ بعد لمشيئة البرتغاليين. لقد كانت الغاية من الغارات هي الحصول على الاسرى والحبوب ودفع القبائل الى الدخول في «النظام البرتغالي» أو ما عبر عنه «بالسلم البرتغالي.» اي دفعها الى تحمل تكاليف عيش الحامية (الحبوب) والاقبال على آسفي لشراء السلع المستوردة وتزويدها بالسلع المحلية.

3 ـ وعمل البرتغاليون للحصول على هذه الوضيعة على تطبيق نوع من التنظيم يسمح لهم بالسيطرة على المنطقة لعجزهم عن توزيع مجموعة من الثكنات داخلها. فما هو نوع هذا التنظيم؟ هذا ما سيجيب عليه الفصل التالي.

التعاليق والهوامش

(1) S.I.H.M. Port. I. p. 396

(2) Ibid I p. 139

(3) Ibid I p. 434 – 437

(4) Ibid I p. 400

(5) Góis... op. cité p. 109 Ibid I p. 430

(6) S.I.H.M. Port. I p. 398 – 399 p. Cenival

(7) Ibid I p. 477

(8) Ibid I p. 761

(9) عن هذه النقطة، انظر فقرة لاحقة.

(10) رسالة القبطان Barreto التي أشار فيها الى خيرات المنطقة والى ما يستطيع البرتغال اخذه منها: S.I.H.M. Port. I p. 489 – 490

(11) Ibid I pp. 707 – 708 انظر كذلك رسالة القبطان Barreto التي تشير الى قرب دخول الناصر الوطاسي الى دكالة، والوعود التي وعد بها ملكه اذا ما أرسل مزيدا من الجنود والاموال. Ibid I p. 505

(12) Ibid I p. 677 (رسالة 25 – 1 – 1515)

(13) Góis... op. cité. p. 160. Ibid I p. 366.

(14) Ibid I p. 311 etc... وعن تحمل النبلاء نفقة إقامتهم Góis... op. cité 160

(15) Ibid. I. p. 169

(16) D. Lopes: Les portugais.. Maroc. art. cité. 349 Góis. op. cité 241 (index)

(17) S. I. H. M. port I pp. 683 – 686 (7 أبريل 1516)

(18) Góis... p. 241 (index)

(19) Ibid, Ibidem

(20) D. Lopes: Les portugais... art. cité p. 349

(21) R. Ricard: Mazagan... op. cité 111

(22) Góis... op. cité. p. 100.

(23) راجع مثلا S.I.H.M. Port. I p. 678 II 144, 147... etc.

(24) Ibid I p. 285 n. 3

(25) D. Lopes: Textos... op. cité 123 Góis... op. cité p. 87

(26) Góis... op. cité p. 94

(27) S.I.H.M. Port. II p. 372 وعن دلالة «الرمح» Ibid I p. 461 n. 2

(28) L. De Sousa... Les portugais... op. cité. 118 واصبحت تتكون من 1000 رجل ثم 800

(29) S.I.H.M. Port. I p. 459

(30) Ibid I p. 477

(31) Ibid II p. 85

(32) Ibid II p. 344

(33) Ibid II p. 526 الملاحظ ان هذا يشمل كل السكان القادرين على حمل السلاح.

(34) Ibid III p. 386

(35) بولعوان، تادنسيت، مراكش، انظر تحته الامر الملكي Ibid I p. 460

(36) L. De Sousa op. cité p. 153 - 155 S.I.H.M. Port. III 411 - 445

(37) Góis... op. cité p. 130 - 131 وكانت النسبة 1 مقابل 4 حين الهجوم على مراكش.

(38) Chronique Anonyme de Sainta Cruz de cap de Guè - Trad... p. cenival p. 85 et 15 n. 1

(39) عن الخيول S.I.H.M. Port. I p. 446 والعربات Góis... op. cité p. 119 وسماها اعيان آسفي في رسالتهم الى الملك «بالعجلات» S.I.H.M. Port. I p. 183 وعن المختصين Ibid. I p. 526

(40) R. Ricard: Le problème de l'occupation restreinte en Afrique du Nord A.E.S.C. Sep. 1939 pp. 428 - 429

(41) S.I.H.M. Port. I p. 577

(42) Ibid II p. 47 تم تنظيفه يوم 2 دجنبر 1516

(43) وجد البرتغاليون بأزمور 80 مدفعا S. I. H. M. Ip. 158 Gòis.. op cité 36 - 39

(44) D. Lopes: Os portugueses... op. cité 516 Góis... op. cité. p. 61.

(45) S.I.H.M. Port. I p. 166 n. 1

(46) Góis... pp. 88

(47) Góis... pp. 83 - 84 - 86 - 88 - 89 - 162 L. De Sousa: Les portugais... op. cité. p. 36

(48) مثلا Góis pp. 86 - 89

(49) أو على الاقل ما اعترفت به المصادر البرتغالية Ibid pp. 71, 86

(50) S.I.H.M. Port. I p. 378.

(51) Góis... p. 88

(52) Ibid p. 87

(53) عن النقود انظر مثلا S.I.H.M. Port. I p. 221, 366, 457, 505, 534,
وعن الالبسة Ibid III p. 17, 34, Ibid I p. 603, II p. 192, III p. 34, 15

(54) Ibid I p. 221

(55) Ibid, Ibidem. n. 2

(56) انظر قائمة اسماء القبائل المشاركة في الحصار: Góis...op. cité. pp. 60-61 Ibid I p. 278.

(57) Ibid I. 504 ارسل من بولعوان ليتجسس على محلة الناصر الوطاسي بالشاوية.

(58) Ibid. I p. 366

(59) Ibid. I p. 505

(60) Ibid. II p. 204

(61) Ibid. I pp. 300, 307. راجع كذلك p. 389 حيث يشير القبطان الى ارسال آخرين خلال سنة 1513

(62) Góis... op. cité p. 127 Ibid I p. 61 n. 2

(63) Góis... op. cité p. 90

(64) Ibid p. 228

(65) Góis... op. cité p. 166 S.I.H.M. Port. II. 24

(66) Ibid II. p. 155

(67) Ibid II. p. 106 - 107

(68) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 206 Ibid. II. p. 178

(69) Góis... p. 197

(70) S.I.H.M. Port. II. 47

(71) Góis. op. cité. 226

(72) S.I.H.M. Port. II. p. 10 - 11

(73) Ibid. I p. 611

(74) الناصري السلاوي... الاستقصا... ج 5 ص 10 ونقل عنه صاحب الاعلام: ج 4 ص 135 (ط- الرباط).

(75) D. Lopes: Textos... op. cité. pp. 108 ، 226

(76) Ibid. pp. 207 208

(77) وكان سكان آسفي بدورهم يطالبون بعودته ليكون «قنطرة بين المسلمين والنصارى...
S.I.H.M. Port. I p. 187

(78) Góis... op. cité 73

(79) كان يحضر الجلسات التي يعقدها الاعيان مع المسؤولين البرتغاليين للاتفاق معهم على مقادير الضرائب: انظر سجل الضرائب بالملحق.

(80) D. Lopes: Textos... op. cité. pp. 122 – 123

(81) S.I.H.M. Port. I p. 340 n. 1

(82) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 123 Góis... op. cité. p. 89

(83) S.I.H.M. Port. I p. 356 D. Lopes: Textos... op. cité. p. 124 – 125 Góis... op. cité. p. 94

(84) Góis... op. cité p. 91

(85) Ibid... Ibidem

(86) Ibid... p. 132

(87) D. Lopes: textos... op. cité. p. 137 Ibid. p. 114

(88) Góis... op. cité. appendice par p. Cenival p. 240 Léon... op. cité. I p. 120

(89) S.I.H.M. Port. I p. 552 Góis... op. pp. 118 – 121

(90) Góis... op. cité. p. 123 S.I.H.M. Port. I p. 601

(91) D. Lopes Toxtos... p 147 Ibid Ip 596

(92) الفصل الاول من الباب الثالث، الفقرة المتعلقة بالشيوخ والقواد.

(93) راجع رسالته: 9 غشت 1517 التي يؤكد فيها على دوره في التهدئة:
D. Lopes: Textos... op. cité. p. 167 – 169 S.I.H.M. Port. II p. 24. 106

(94) استقبلته المدينة بالمزامير والطبول، واقيمت حفلة بالمناسبة S.I.H.M. Port. II p. 73

(95) Ibid. II pp. 70, 73, 76

(96) Ibid. II p. 133

(97) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 180 Ibid. II p. 100 et 107

(98) S.I.H.M. Port. II p. 144 ولكنه كذب بعد ذلك النبأ في رسالة الى الملك بعثها بعد أربعة أيام:
Ibid. II p. 147

(99) Ibid. II p. 171

(100) Ibid. II p. 155

(101) Ibid. II p. 178 وجعل (كويش) موته سنة 1522 (ص 224)

(102) Góis... op. cité. pp. 74, 76, 91, 132, etc....

(103) S.I.H.M. Port. I p. 658 وكان de Torres يرى نفس الشيء Relation... op. cité. I p. 61

(104) Góis... op. cité. p. 114 et 146 D. de Torres... Relation... op. cité. I pp. 46 – 47

(105) S.I.H.M. Port. I p. 552 – 53 وكذلك Ibid. I p. 603 وبالفعل مات 500 حليف من البرد بعد أن اضطروا الى الفرار وترك خيامهم اثر هجومهم على أكلاكل (Góis... op. cité. 142

(106) انظر شكاوى اولئك الخلفاء الى الملك من تعسفات الشرفاء والقباطنة (1529) S.I.H.M. Port. II p. 459 et I p. 611

(107) مثلا Góis... op. cité pp. 8 – 9

(108) Ibid. p. 3

(109) كاد محمد البرتغالي أن يحرر اصيلة (1508) وأن يدخل طنجة، هذا زيادة على عدة حركات نظمها ضد الثغور الشمالية : Góis... op. cité. pp. 80, 83, 95, 97 etc...

(110) L. De. Sousa... op. cité. pp. 64 – 65

(111) Góis... op. cité. p. 60

(112) S.I.H.M. Port. I p. 259 (رسالة 4 – 12 – 1510)

(113) S.I.H.M. Port. I pp. 125 – 126

(114) رسالة الكونتدور (13 – 1 – 1511) S.I.H.M. Port. I pp. 271 – 278

وأبرهم بن زميرو (13 – 1 – 1511) Ibid I p. 281 – 283

ورسالتين للقبطان: الاولى بتاريخ (5 – 12 – 1510) Ibid I p. 265 – 70

والثانية بتاريخ (4 – 1 – 1511) Ibid I pp 284 – 296

Góis... op. cité p. 60 – 67

(115) Ibid I p. 281 وابتداء من الآن، لن نحيل على ما هو موجود بالجدول الموجود صحبة هذا الفصل.

(116) انظر الفصل اللاحق، فقرة التنظيم الجبائي، والملحق.

(117) (الملحق) Livro dos tributos.. doc. cité folio 11, 16 Góis... p. 83

(118) عن كل هذه التواريخ والمعاهدات، راجع السجل المنشور بالملاحق.

(119) S.I.H.M. Port. I p. 443 Góis... op. cité p. 110

(120) Ibid p. 140

(121) عن هذه الحملة انظر مقالة بقلم سنيفال S.I.H.M. Port. I p. 687 – 692

انظر كذلك: Góis... op. cité p. 143 – 149

Deverdun: Marrakech... op. cité. I p. 327 – 330

(122) S.I.H.M. Port. II pp. 4 – 5 Ibid pp. 164 – 165

(123) Ibid II p. 10

(124) Ibid II p. 5 p. Cenival

(125) ولاحظ الفيطور حدوث هذا التحول وخطورته منذ صيف 1515 - Ibid I p. 740

(126) عن محاولة تحصين «المعمورة» ونتائجها راجع الدراسة التي قدم بها Cénival مجموعة الوثائق المتعلقة بها Ibid I pp. 695 - 702 انظر كذلك Léon... op. cité. I pp. 173 - 174
احمد بن القاضي . . . لقط الفرائد . . . مصدر سابق ص 285

(127) رسالة القبطان (15 - 8 - 1515) مما يؤكد الغاية التي أشرنا اليها من تحصين المعمورة.
S.I.H.M. Port. I pp. 732 - 735

(128) رسالة الفيطور (21 - 8 - 1515) Ibid I. 741 - 744 وعبر «الدليل» عن نفس التخوف Ibid I p. 746

(129) Góis... op. cité p. 198

(130) Góis... op. cité p. 199

(131) Ibid II p. 371 et 178

(132) Ibid II. 178, 243, 111, 416, 454, 464

(133) Góis... op. cité. p. 179 - 180 - 184 - 92

(134) Ibid. II. 221, 243 وعن تارتير Góis... op. cité. p. 236

(135) عن أسر القبطان Ibid II p. 294 وعن الضرائب Ibid. II p. 375

(136) وكتب (ريكار) (R. Ricard) معلقا على هذا التحول السريع: «. . . ولكن هذه الحقبة السعيدة (التوسع) كانت قصيرة بقدر ما كانت لامعة، وبدأت الصعوبات ابتداء من 1515، مع فاجعة المعمورة».
R. Ricard: Le problème de L'occupation restreinte dans L'Afrique du Nord A.E.S.C. Sept 1936 p. 427

الباب الثالث

التنظيمات التي استحدثها البرتغاليون بدكالة

الفصل الأول

التنظيم الاداري والجبائي

انتهج الملك البرتغالي، نظرا لقلة امكانيات بلاده، وحرصا منه على تفادي نتائج السياسة المتبعة بالثغور الشمالية، انتهج سياسة جديدة بالسوس، وخصوصا بدكالة، تقتضي الاعتماد الكبير على عناصر مغربية للاشراف على القبائل لكي يحصل على ثقتها، ويتمكن من ادماجها في النظام، ويجعلها تدافع عنه بطريقة عمياء. ولا شك في أن نظاما مثل هذا يوفر على البرتغاليين كثيرا من المصاريف، ولكنه يقتضي وجود افراد أوفياء ويحتم تحديد سلطهم. ولقد عمل البرتغاليون منذ بداية «مغامرتهم» بالمغرب على الحصول على معاهدات مع قبائل احواز سبتة وأصيلا، وتم لهم ذلك مؤقتا، ولكنهم لم يصلوا الى ما وصلوا اليه بالجنوب المغربي، نظرا للفراغ السياسي والفوضى التي كانت تعاني منها المنطقة. كما ان هذه الاتصالات بالقبائل الشمالية لم تكن تهدف الا الى الحصول على موافقتها على تزويد المدن بالمواد الضرورية، والسماح للبرتغاليين بعبور أراضيها.

وبخلاف هذا، عرفت دكالة تنظيما حقيقيا في الميدان الاداري والجبائي. وأعطى هذا التنظيم نتائج مهمة، مما جعل البعض يقارنه بنظام الحماية الذي عرفه المغرب بعد 1912 .

ومما لا شك فيه أن هذا التنظيم تولّد عن السياسة العسكرية البرتغالية بدكالة. فلقد بينا كيف ان وصول البرتغاليين الى مكان ما لا يعني أبدا سيطرتهم عليه

عسكريا، وان الغارات كانت لا تؤدي الا الى ارغام سكانه على الولاء، وبينا كيف أنه لم تكن في يد البرتغاليين أية وسيلة لالزامهم بذلك الولاء، مما حتم تعيين أفراد من بين الاعيان للحفاظ عليه. فكيف كان ذلك، وما هي سلط اولئك الوسطاء، وكيف كان تنظيم المنطقة اداريا؟

1 ـ التنظيم الاداري:

(أ) كان القبطان على رأس الادارة البرتغالية بكل من آسفي وأزمور ومازيغن. ويتم تعيينه من طرف الملك الذي خوّله سلطا واسعة على المدينة التابعة له. فهو قائد الجيش المرابط بها، مما يعطيه رتبة القبطان التي تخصه النصوص بها.

وهو رئيس الادارة، والمسؤول عن احوال المدينة وما يتبعها من مناطق داخلية، مما يجعل منه في نفس الوقت «عاملا». وزيادة على هاتين السلطتين، توجد بيده السلطة القضائية التي تشمل كل من يوجد في المدينة. وكان بامكان القباطنة تعيين مساعديهم المدنيين والعسكريين. ونظرا لهذه المهام، لا يختار القباطنة الا من الاسر البرتغالية النبيلة، ومن بين الافراد الذين سبقت لهم الخدمة بالثغور المغربية. فالقبطان (أتايد)(1) ومشكرنياش)(2) (ودو سكوطو) (وغرسيا دوميلو)(3) وغيرهم، كانوا كلهم على اتصال بما يدور بالثغور، وساهموا ولمرات في الدفاع عن تلك التي كانت محتلة او في احتلال التي لم تكن قد احتلت بعد. ويعطينا القبطان (ليط. Leite) مثالا على ذلك. فلقد عمل بالثغور الشمالية قبل أن يعين «كنتدورا» بأزمور لمدة طويلة. وفي سنة 1520 عين قبطانا على مازيغن قبل ان يعين بأزمور(4) .

ومقابل هذه المهام المنوطة بالقباطنة، خُصّوا برواتب تعادل رواتب قباطنة باقي الثغور، بلغت 200 000 ريال سنويا.(5) . وكان أول قباطنة آسفي، هو الوحيد بدكالة الذي توصل باقطاع يتمثل في حصن أكوز، وبمعاش أضيف اليه يصل الى 150 000 ريال، وذلك زيادة على راتب منصبه على رأس ادارة آسفي ـ(6) .

واستفاد القباطنة زيادة على هذه الرواتب من امتيازات مالية مهمة، كخمس

الغنائم البحرية والبرية وخمس الاسرى. وكان قبطان مازيغن (دوميلو) محتكرا لتجارة الصابون بأزمور،[7] في حين كان (دُونُرْنْيَا) محتكرا للضرائب التي تؤ دى عن الشمع والعسل بالمدينة.[8] واستفاد قبطان آسفي (كَاشْتْرُو) من معاش قيمته 000 100 ريال سنويا.[9] ولم تصلنا الا اشارة واحدة عن تعويض ملكي لاول قباطنة آسفي مقابل تنازلـه له عن ادارة هذه المدينـة وعـن (مغـدور)، وذلك مقابـل 250 الف ريال سنويا.[10]

وعرفت آسفي 13 قبطانا. وكان أولهم القبطان ديوغو الذي تم احتلال المدينة على يديه. ولكن سياسته الطائشة، وطغيان الحامية البرتغالية جعلا المدينة تبقى فارغة سنة ونصف. وتم عزله بعد أن تأكد الملك من ذلك، وبعد ان وصلته شكايات أعيان المدينة، وبعـض البرتغاليين. وخلفه مؤ قتا (بيدرو دوأزفيدو .P. de Azevedo) الذي استمال الاعيان ووزع الرشاوي بسخاء.[11] وكان تعيين (نونـوش فرننـديش أتايد) بمثابة منعرج في السياسة البرتغالية بالمنطقة اذ في عهده عرف التوسع بالداخل أقصى ما وصله؛ واعتمد القبطان في ذلك على سياسـة اللـين والحيل لاستقطـاب الاعيان والقبائل. ولكنه لم يكن يتردد في الهجوم على المترددين أو المعاكسين للتوسع البرتغالي. وكان عصبي المزاج[12]، كثير الحركة، الى حد أنه لقب «بالقبطان الذي لا يعرف الراحة» او «القبطان الذي يجري باستمرار. . . » ولقد وصف المؤ رخ (كويش) دور هذا القبطان فكتب: «وكان (نونوش فرننديش دو أتايد) شديد الدهاء، لا يعرف التعب في شؤ ون الحرب، بحيث أن كلا من النصارى والمسلمين، الحلفاء منهم أو الاعداء، كانوا يسمونه «الذي يجري باستمرار». وذلك لانه كان يقوم بعدد كبير من الغارات، ومن مسالك جد ملتوية، حتى أنه لم يكن احد يعرف بالتحديد المكان الذي يوجد به ـ سواء الذين يبحثون عنه أو الذين يهابونه ـ وذلك نظرا لتحركاتـه الكثيرة التي كان يقوم بها، دون أن يعرف أحد شيئا عن الطرق التي يسلكها الى أن يكون على مقربة من الاماكن التي يريد مهاجمتها ـ وكرس نفسه لهذه المهمة طوال المدة التي كان فيها قبطان وعامل مدينة آسفي، وذلك الى حدود قتله. . . »[13]. ونظرا لهذه الخدمات عينه الملك بصفة دائمة بمنصبه منذ 2 يوليوز 1513 وذلك بعد أن كان تعيينه مؤ قتا.[14]

ولا شك في أن هذا القبطان استفاد كثيرا من عدد من العوامل التي لم تتوفر لغيره، كوجود عميل في مرتبة يحيى، وكفزع القبائل وشلل الوطاسيين في بداية الامر. . . وتم قتله في فبراير 1516 . وتلا الحادث عصيان جماعي.

ولم يستطع خلفه اعادة الامور الى ما كانت عليه، وأسر في نهاية الامر في احدى حروبه ضد السعديين نهاية 1522 . وعمل خلفه (منديش دوسوكوطو) على ارضاء احمد الاعرج، وعلى الحصول منه على هدنة، وقبل أن تؤدي القرى والقبائل التي كانت من قبل تابعة للبرتغاليين الضرائب للاعرج. وعرفت سنة 1534 تعاقب ثلاثة قباطنة قتل المغاربة واحدا منهم، [15] مما يدل على تغير الاوضاع بالمنطقة وتزايد مشاكل البرتغاليين. ولم يكن لبعضهم وزن على الاحداث، وبقي عدد منهم مجهولا، لم يرد له ذكر في المصادر التي اعتمدناها.

القبطان	تاريخ التعيين	تاريخ الاقالة أو الموت
د. أزنبوجا ـ D. d'Azembuja	1507	4 ماي 1509 [16]
ب . أزفيدو P. de Azevedo	يوليوز 1509	أبريل 1510
نوش فرنديش دو أتايد N.F. Ataide	17 ابريل 1510	قتل فبراير 1516
نونوش مشكرنياش N. Mascarenhas	3 يوليوز 1516	دجنبر 1522 (أسر)
غ . دومنديس سكوطو G.M. Sacoto	1522 (دجنبر)	9 نوفمبر 1525
غرسيا دوميلو G. de Melo.	1525	1527
ف . لوبش جراو. F.L. Girâo	1529	1533 لا يعرف عنه شيء
ج . دوفارو J. De. Faro.	1533	1534
روي دوفرير R. De Freire	1534	قتل 1534
ل . دولريرو R. De Loureiro	8 مارس 1534	يونيو 1534
غ . دونورنيا G. Noranha.	يونيو 1534	22 نونبر 1534
ج . دونرنيا J. Noranha.	1535 خلفا لعمه وذلك بامر ملكي	1535
ر . دوكسترو R. De Castro.	1535	1541

وعرفت أزمور 11 قبطانا رسميا أو مؤقتا. ولم يصل أي منهم الى ما وصل اليه قبطان آسفي (أتايد) في الجاه والنفوذ داخل دكالة رغم الحاح (A. De Noranha) على الشاوية بالغارات في بداية العشرينات. ومن هؤلاء القباطنة من عمل بمازيغن قبل الالتحاق بأزمور، ومنهم من عين بعد عمله بأزمور على رأس آسفي. . . وعين الملك بعد احتلال أزمور عاملين عليها، واحد على المدينة نفسها، وآخر على الضواحي التابعة لها، الشيء الذي لم يحدث من قبل بباقي الثغور.

القبطان	تاريخ التعيين	تاريخ الاقالة أو الموت
بريطو + ج دومنش R. Barreto J. Meneses	شتنبر 1513	1514 (17)
بدور دوسوزا .P. Sousa	2 يونيو 1514	غشت 1516
سياوكريا .S. Correa	بداية شتنبر 1516	1517
الفارو دونرنيا .A. Noranha	30 دجنبر 1517	1525
غ. م. سكوطو G.M. Sacoto	نونبر 1521	دجنبر 1523
ج. فييغاش .J. Viegas	ربيع 1525	1529
انطونيو ليط .A. Leite	10 شتنبر 1529	يونيو 1530
ب. مشكرنياش P. Mascarenhas	1530	1534
لنصروت دو فريطاش .L.De Freitas	1534	1534
الفارو دو ابرنشي .Alvaro de Abranches.	1534	1537
انطونيو ليط .A. Leite	1537	1541
ف. دو نورنيا Fernando De Noranha.	1541	1541 (الاخلاء)

وعرفت مازيغن ما بين تحصينها الاول (1514) والثاني الذي تلا اخلاء أزمور

(1542) على الاقل خمسة قباطنة لم يقوموا بشيء يذكر، ولم يعملوا على خوض حروب بالداخل كما كان يفعل قبطان آسفي وأزمور. والحقت بادارة أزمور ما بين مغادرة القبطان الاول لها وتعيين (ليط Leite) .

القبطان	تاريخ التعيين	تاريخ الاقالة
Martin Affonso de م. أنفونصود دوميلو MELLO	10 غشت 1514	لا ندري متى عين ومتى غادر الحصن
انطونيو ليط .A. Leite	20-1-1520	22-1-1529 (18)
؟	؟	؟
منويل دوساند .M. Sande	1536	1537
جواغوميس .J. Gomes	1537	1541
لوريرو .Loureiro	1541	1548

وكان قباطنة المدن الثلاث في تنافس مستمر، خصوصا في المرحلة الأولى التي امتازت بالتوسع، وكانت تسمح بالغنائم والامجاد.

ويتجلى هذا التنافس في ثلاثة ميادين : الحرص على اكتساب الامجاد دون الآخرين، وحول مناطق نفوذ كل قبطان، وأخيرا حول تحديد السلطة بينهم .

1 - ففيما يخص سبب الخلاف الأول نجد ان كلا من قبطان آسفي أتايد، وقبطان أزمور (منيزش)، كان يعمل على الحصول، وحده، على المجد الذي ينتج عن دخول مراكش، أو على الاقل الوصول اليها. وهكذا عاكس قبطان آسفي مرتين على الاقل مشروع قبطان أزمور، وخلق مبررات مختلفة لشغله عن التحرك

نحو المدينة الحمراء.(19) وكان كل قبطان يعين على رأس احدى المدينتين يبادر باخبار الملك بعيوب ادارة سابقه، واطلاعه على ما قام به من مجهودات لاصلاح ذلك.(20)

2 ـ واصطدم (أتايد) قبطان آسفي عدة مرات مع قبطان أزمور (منيزش) حول المناطق التابعة لكل واحد منهما. واستمر الخلاف بعد موت هذا الاخير مع خلفه (روي باريطو) وذلك حول قبائل «الشرقية»(21). وطرح المشكل كذلك بعد تعيين (دوسوزا) على رأس أزمور، ولكن هذه المرة حول مشنزاية وبعض قراها كـ (تارتير) و(سايس)، اذ ادعى كل واحد منهما انها تابعة لنفوذه(22). وطرح نفس المشكل ما بين قبطان آسفي أتايد وولد (ديوغو أزنبوجا)، قبطان اكوز.(23) وسبب كذلك اصطدامات بين قبطاني أزمور مازيغن.(24) وعمل كل قبطان على اخضاع اكثر ما يمكن من القبائل للرفع من نسبة ما يعود اليه من ذلك. ولهذا وصل قبطانا المدينتين الى التنافس المضر بمصالح البرتغال، كما حدث حين تفاوض قبطان آسفي بواسطة ابرهم بن زميرو مع اولاد عمران، إذ أوشك الطرفان على امضاء الاتفاقية لما اقبل مبعوث قبطان أزمور، واخبر ان كل اتفاق يتم مع آسفي لن يعترف به لانهم تابعون لازمور لالآسفي، ووعد برشاوي أهم مما وعد بها قبطان اسفي؛ فكان مآل المفاوضات الفشل.(25).

وأفسد تعنت (نورنيا) على قبطان آسفي محاولات بذلها سنة 1519 لارجاع قبائل الغربية التي كانت على جوانب ام الربيع، في حالة عصيان(26).

3 ـ أما السبب الثالث فيكمن في عدم تحديد السلط. وطرح هذا المشكل على الخصوص بأزمور ما بين القبطانين (باريطو)، قبطان المدينة، و (منيزش)، قبطان الضواحي، مما خلق مشاكل عديدة لم تعد تخفى على أحد بالمدينة.(27)

وهكذا طغى تنافس الرجلين على المهام المنوطة بهما،(28) وتقاطرت رسائل الاحتجاج والشكوى من كل منهما بالاخر على الملك الذي أصبح: «. . . يرى في ذلك، أن كلا منهما، وكذلك (نونوش فرننديش)، كان يفضل أن يفقد مجد الانتصار صحبة الآخر على أن يقتسم معه الانتصارات التي قد يمنحها الاله اياها! . . .»(29).

ولـم يكن الصراع والتنافس مقتصرا على القباطنة، بل كان كذلك ما بين القباطنة ومساعديهم وخصوصا الكنتدور.[30]

والملاحظ ان هذا التنافس الموجود بين القباطنة انعدم بالشمال، حيث ارغمت المشاكل اليومية القباطنة على تنسيق اعمالهم.

ويرى (ر. ريكار) أن أكبر نقص عانت منه الادارة البرتغالية بالمغرب ـ وبالتالي بدكالة ـ هو انعدام سلطة بين الملك والقباطنة تكون بيد نائب عن الملك كما كان الحال بالنسبة للهند أو البرازيل. فهو يعتبر أن رجلا مثل هذا كان بامكانه أن يجعل حدا لتنافس القباطنة، وأن يجعل حدا لعيوب البيروقراطية التي كانت تتميز بها الادارة المركزية آنذاك، مما سبب كثيرا من التأخير في ارسال المعونة والاموال. . . الخ وخلق اوضاعا خطيرة أهمها سقوط أكدير. ويرى كذلك أن تعيين نائب للملك بالمغرب كان بامكانه حل الخلافات بين القباطنة بعين المكان والزامهم بعمل موحد، وتنسيق مطالبهم.[31]

(ب) واعتمد القباطنة على عدد من الأفراد في القيام بمهامهم كانوا اما برتغاليين أو يهودا أو مسلمين.

من البرتغاليين:

ـ (الكنتدور) أو المسؤ ول العام عن أموال ومصالح الملك بالمدينة. ورغم ان المنصب كان ماليا، فانه كان مع ذلك أكبر مسؤ ول بعد القبطان لكونه كان ينوب عنه في حالة موت أو مرض، وفي انتظار تعيين قبطان جديد كما حدث مثلا (لننو كاطو N. Gato.)، كنتدور آسفي، بعد قتل أتايد.[32] وقد يصل هذا المسؤ ول الى مرتبة القبطان كما حدث لكنتدور أزمور (ليط) الذي عين على رأس مازيغن ثم أزمور.

ـ الكاتب أو المسؤ ول عن المراسلات والتقارير وخصوصا عن المحاضر اذ كان بالمدن الثلاث دفاتر مخصصة لهذه الغاية، وكانت تعطى لهذه المحاضر عناية كبرى.

ـ الفكاك: كان مكلفا بتحرير الاسرى. وشغل هذا المنصب بآسفي في بداية الامر الكنتدور[33]. وسيصبح هذا المنصب مهما بعد تراجع النفوذ البرتغالي بالمنطقة.

اليهود: كما اعتمد القباطنة على بعض الاسر اليهودية اعتمادا كبيرا جداً، ولعبت اسرتا الحاخامين الكبيرين، ابرهم بن زميرو بآسفي، ويوسف بن الديب بأزمور، لعبتا ادوارا أساسية في توسيع رقعة المناطق الخاضعة للنفوذ البرتغالي. وساهم أفراد آخرون لا ينتمون لهاتين الاسرتين في التوسع. وتعددت أوجه المساهمة اليهودية. فلقد احترف عدد منهم الترجمة.

ويبدو أن المستفيدين من هذه المناصب كانوا من أصل برتغالي أو اسباني، وتقاضوا على هذا المنصب رواتب زيادة على المكانة والجاه الذي يسمح به دور الوساطة. فلقد تقاضى (موسى دارديرو) عن الترجمة بآسفي 6400 ريال سنويا.(35) وبعد اغتياله بالمدينة الغربية ،عوضه في هذا المنصب يحيي الديب، ترجمان أزمور، وأصبح يتقاضى مقابل العمل بالمدينتين 4000 ريال سنويا.(35) وعين يوسف ليفي ابن اسماعيل زميرو بهذا المنصب بآسفي.(36)

وكان ترجمان مازيغن هو ابرهم بن زميرو (شخص آخر غير الحاخام) مقابل نفس الراتب السابق الذكر.(37)

والجدير بالملاحظة أن بعض المغاربة المسلمين كانوا يحسنون اللغة البرتغالية وكان منهم من يقوم بهذه المهمة كسليمان صديق يحيى.(38) وكلف بعض اليهود بالاعتناء بالاعيان حين اقامتهم بآسفي وأزمور على نفقة القبطان(39) ، كما كلفوا باصطحاب الاعيان الذين يرسلون الى البرتغال للاتصال بالملك، وبالوساطة لدى القبائل والتفاوض معها بشأن الخضوع وشروطه. ولعب اليهودى (دارديرو) في هذا الباب دورا مهما جعل كلا من القبطان والكنتدور ينوه به(40) . وكان الدور الذي لعبه أبرهم ابن زميرو وأخواه اسماعيل واسحاق أكبر بكثير، الى حد أن دور الوساطة بآسفي اقتصر على هذه الأسرة: فلقد استطاع اسحاق الحصول على حياد الناصر الهنتاتي وقبائل الشرقية حين الهجوم الثاني على أزمور (1513) ، مما سهل كثيرا سقوط المدينة. وهو الذي دفع أتايد الى الهجوم على السعديين بعد استقرارهم بالشياظمة.(41) وقام أبرهم واسماعيل بادوار أخرى سبقت الاشارة اليها أو سنذكرها في محلها.

واستحوذت أسرة «الذيب» على هذا الدور بأزمور، وتعززت مكانتها الى حد أن القبطان (ليط) اتهم بانه لا يطلب رأي أحد غير الحاخام. (42) واستطاع كل من أبرهم ويوسف بن الذيب الحصول على ثقة القبائل التي كانت أحيانا تطالب بحضورهما حين المفاوضات (43)

وبهذا نفهم سبب عداء أفراد أسرة ابن زميرو ليحيى أوتعفوفت وتآمرها ضده وتحريض القبطان عليه، وعداء أسرة الذيب ليعقوب بن الغربي، أكبر العملاء بمنطقة أزمور، وذلك كله لمنافستهما لهم في دور الوساطة(44) . ولم يتردد أبرهم في الكتابة الى الملك بان مصلحة البرتغال تقتضي أن لا تسند أية مهمة لاى مسلم! (45)

وزيادة على دور الوساطة، كلف اليهود، وعلى رأسهم أفراد أسرة الحاخام أبرهم، بادخال الضرائب الى آسفي. (46)

وكان أبرهم وأخواه ويحيى ويوسف بن الذيب على اتصال مستمر بالملك يخبرونه بما يروج بالمنطقة كتابة أو بالاتصال به شخصيا في المهمات الخطيرة(47). وكلف أبرهم بالتفاوض مع الشريف السعدي بعد دخوله مراكش وتضييقه الخناق على آسفي، كما كلف بتحرير الاسرى البرتغاليين(48) . وكلف قبطان أزمور أفراد عائلة الذيب بذلك، وأرسل مرة يحيى الى فاس لجس نبض الوطاسي فيما يخص استعداده للتحالف مع البرتغاليين ضد أحمد الأعرج. وفي طريق عودته مر بسلا وحصل من قائدها على هدنة لمدة ثلاثة أشهر(49) . وكان يحيى الذيب على اتصال مستمر بالقائد العطار، عامل الوطاسيين على التادلة. (50)

وزود بعض يهود مراكش والتادلة وهسكورة البرتغاليين بمعلومات عن تحركات الوطاسيين والسعديين وعن قواتهم، وأرُسل آخرون الى تلك المناطق لهذه الغاية(51) .

العناصر المسلمة: الشيوخ والقواد

كان القباطنة يعتمدون بالبوادي على هؤلاء لضمان ولاء القبائل. وبذلك يكون البرتغاليون قد حافظوا على الهياكل الموجودة، وأكثر من هذا سخروها لصالح التوسع

البرتغالي، وعززوا مكانة هذه الهياكل داخل المجتمع إما بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة.

فأما المباشرة، فتتجلى في اعتراف السلطة البرتغالية بالشيوخ الموجودين على رأس قبائلهم مما زاد من وزنهم ثقلا داخلها وأعطاهم مشروعية كانوا يفتقرون اليها بسبب الفراغ السياسي. ولهذا السبب رفض القبطان مشكرنياش تعيين برتغالي قائدا على ربض الخميس(52). وتتجلى كذلك في تخويل القواد سلطا واسعة وذلك بتعيينهم على رأس مجموعات كبرى: الشياظمة بالنسبة لبوجمعة، عبدة والغربية أولا، ثم كل دكالة بالنسبة ليحيى أوتعفوفت والشرقية بالنسبة لعبد الرحمان بن حدو. . . الخ.

أما الطريقة غير المباشرة فتكمن في تعزيز الهياكل القائمة وتقوية نفوذ اولئك الشيوخ والقواد نتيجة الاضطرابات والقلاقل التي ازدادت بتزايد اهتمام البرتغاليين بالمنطقة. وبهذا عزز الاستعمار، وبطريقة غير مباشرة، مكانة شيوخ القبائل الموجودة بهوامش دكالة نظرا لوجودهم على رأس قبائلهم الصامدة في وجه الاستعمار. ويكفي للدلالة على ذلك الاشارة الى أن الشيخ الرئيسي لاولاد عمران الجنوبية، وقاتل القبطان (أتايد) ازدادت مكانته مع مرور الايام لتجعل منه في آخر الامر صهر الاعرج السعدى، وأحد المقربين اليه(53). كما تعززت بالشاوية مكانة الشيوخ سواء الفارون اليها (بودومة مثلا) أو المنتمون اليها. ويعطينا (علي مومن) صورة عن وزن هؤلاء. فلقد اصبح بعد تزايد القلاقل وتهديد البرتغاليين لاستقلالها: «. . . جد قوي الى حد أن رجاله والمرتبطين به كانوا لوحدهم يكونون الف فارس. وكان يجمع كلما لاحظ ضرورة ذلك 5000 محارب من بين أقاربه وأصدقائه الذين يطيعونه. وبما أنه كان يشعر بقوته، فانه لم يهن ابدا نفسه أمام ملك فاس، ولم يفكر قط في الخضوع له. . .»(54).

وكانت سلط الشيوخ داخل النظام البرتغالي معنوية، شبيهة بسلطهم المعتادة. فلقد اكتفى البرتغاليون في غالب الاحيان باحترام اختيارات القبائل وبترك شيوخها على رأسها بعد خضوعها. ولم نسجل الا حالات قليلة تم فيها تعيين شيخ على رأس

قبيلة، أو بعض فروعها، على يد القبطان أو الملك البرتغالي كتعيين بوجمعة قائدا على القسم الخاضع من الشياظمة، أو تعيين شيخ شيوخ اولاد دويب على ضواحي مازيغن زيادة على قبيلته.[55] وخضع هؤلاء الشيوخ لمراتب مختلفة داخل القبيلة الواحدة، اذا كان على رأس كل فرع شيخ وكان على رأسهم الشيخ الرئيسي كما تدل على ذلك النصوص. والملاحظ ان مكانة هؤلاء الشيوخ تتراجع بخضوعهم، اذ يصبحون مجرد منفذين لأوامر القباطنة والقواد. ويصبح وزنهم مهما داخل قبائلهم في حالة عصيانها.

فبعد خضوع اولاد عمران، تقلص وزن اكبر شيوخها (دِيبَا) وحدث نفس الشيء لمحمد بن محمد شيخ الشرقية، وعيسى بن ابي بكر شيخ الغربية. وكان هؤلاء الشيوخ هم الذين يفاوضون البرتغاليين أو ممثليهم في شروط السلم، ويوقعون المعاهدات ويتعهدون باحترامها وبأداء الضرائب. وألزموا، كضمانة على ذلك، بتسليم اولادهم، واحيانا نسائهم كرهائن.

أما القواد، فكانوا يعينون من طرف الملك نفسه. ولم يكن ضروريا انتماء القائد للقبائل التي يعين على رأسها، بل على العكس من ذلك كان فرض الاجانب على القبائل أمرا مقصودا. فيحيى أوتعفوفت الذي عينّ على رأس عبدة والغربية حضري وبربري. وتم تعيين عبد الرحمان بن حدو على رأس الشرقية مع أنه من منطقة أنماي (سيدي رحال الحالية).

ولم تكن هذه التعيينات تتم بسهولة، أوكان هذا المنصب يعطى لكل من طلبه. فلقد أرسل يحيى الى المنطقة كقائد على عبدة والغربية بعد الحاح اعيان آسفي (رسالتين على الاقل). ولم يتم تعيين مساعده عبد الرحمان على رأس الشرقية في شتنبر 1514 الا بعد تحقيق دقيق، وبعد أن اقترحه اعيان القبيلة واشاد به (الدوق دُوبْرَاغَنْصْ). وتعطينا رسالة الملك نفسه الى القبطان (أتايد)، والتي أوردها (كويش) فكرة عن هذه الحيطة: «... واقترحوا علينا، (الشيوخ) وطلبوا منا بالحاح أن نقدم لهم جميلا وذلك بتعيين عبد الرحمان، من بطانة يحيى سابقا، قائدا عليهم. وأكدوا لنا انه قادر

وصالح وعارف حق المعرفة كيف يخدمنا في ذلك. ولقد وصلتنا عنه اخبار منذ مدة طويلة بواسطة الدوق(فاتح أزمور وابن اخ الملك). . وكذلك بوسائل اخرى، وجعلتنا المعلومات التي توصلنا بها عنه نعتقد أنه سيقدر وسيعرف كيف يخدمنا في كل هذا بكل اخلاص ووفاء، خصوصا وأنه من بطانة يحيى الذي قد يكون تعلم عنه كيف يعمل بكل اخلاص في كل ما يتعلق بخدمتنا. . . »(56)

ولكن تطور الظرفية السياسية في بداية الثلاثينات من القرن 16، وتحول القبائل نحو العصيان، جعلا تلك الشدة والحيطة تختفي، وجعلا المقياس في ذلك يكمن فقط في وزن الشخص السياسي وعدد المحاربين التابعين له. ولهذا عين عبد الرحمان بن حدو على رأس الشرقية مع أنه حديث العهد بالولاء، كما عين علي مومن على رأس الشاوية مع سلط واسعة، مع أن خضوعه لم يكن أمرا واقعا. وبالفعل رفض اغراءات البرتغاليين، ولم ير مشروع الولاء النور، كما أن عبد الرحمان بن حدو سرعان ما خان البرتغاليين.

وخولت لاولئك القواد سلط ادارية، اذ كانوا يمثلون الملك والقبطان بالبوادي التابعة لهم، وكانوا يجوبون المنطقة مصحوبين بشارات ولائهم للتاج البرتغالي، المتمثلة في العلم والطبل اللذين يرسلان إثر كل تعيين. (57)

وألزموا بدفع القبائل الى الخضوع وادخال ضرائبها، ونشر نفوذ البرتغال في المناطق التي ماتزال خارجة عنه. وسمح للقائد بتعيين بعض الممثلين عنه ينعتون اما «بالمقدم» أو «القائد». وهكذا عين يحيى «مقدمين» على الحارث وعلى قبيلة لم يصلنا اسمها(58) . وعين كذلك «يهوداً» قائدا على الغربية(59) وشخصا آخر على رأس أولاد مطاع وألحق به خمسين فارسا تحمّل نفقتهم(60) . وعين محمد الحاج على المدينة الغربية التي كان القبطان أتايد قد اعطاه اياها بعد دخول القوات البرتغالية اليها. (61) ولكن هذه التعيينات التي قام بها دون استشارة القبطان، اغضبت هذا الاخير وزادته تشككا في يحيى، مما جعل الملك يسحبها من الاختصاصات والسلط المخولة ليحيى بعد ارساله الى دكالة سنة 1516 ، ولم يبق له الا حق الاقتراح. (62)

وبقي التنظيم القضائي كما كان عليه، واستمر الاعتماد على الشرع والعرف كما يتجلى ذلك في نصوص التعيينات(63)، ومن خلال «القانون» الذي سنه يحي على قبيلة الحارث، والذي ذكر فيه كل الجنايات الممكنة من سرقة وشتم وضرب وجرح وغميمة وزنى، وخلاف بين الزوجين، وأشار فيه الى ما يلزم كل واحدة من عقوبات(64).

والى جانب هذا، كان القواد مكلفين بدفع القبائل الى حمل ضرائبها الى آسفي وأزمور، وبالاتفاق مع القبائل والقرى التي قررت الدخول تحت النفوذ البرتغالي على مقادير تلك الضرائب، أو مرافقة اعيانها الى آسفي أو أزمور للاتفاق مع القبطان أو الكنتدور على تلك المقادير(65).

ولا نعلم شيئا عن رواتب اولئك القواد، اذ لم تشر اليها النصوص حين تعيين يحيى الاول، أو حين تعيين عبد الرحمان بن حدو، في حين استثنته وثيقة تعيين علي مومن.

وبعد تعيين يحيى قائدا على كل دكالة حدد الراتب في 300 أوقية، بقيمة 320 ريال لكل واحدة، وأصبح له الحق في أخذ خمس الغنائم.(66) ومهما كانت قيمة هذا الراتب، فانه لم يكن كافيا ـ ان كان موجودا ـ لاشباع رغبات القواد، خصوصا وأن سلطهم الواسعة تسمح لهم بكثير من الرشاوي و«الهدايا» والابتزاز. فلقد اتهم يحيى بابتزاز حوالي عشرة آلاف أوقية (320 000 ريال برتغالي) قبل ارساله الى البرتغال سنة 1514 (67) فكم ابتز بعد أن تعززت مكانته اثر تعيينه الثاني؟. وتتجلى ثروته الكبرى في كونه اصبح ذا حرس خاص مكون من مائة «مخزني» يؤدي رواتبهم(68) زيادة على الخمسين المصاحبة لقائد اولاد مطاع. كما تتجلى في عدد الخيول التي اقتناها بالحوز حين دخول الناصر الكديد لدكالة ربيع 1514 (69). وتتجلى هذه الثروة كذلك في أن القبطان أتايد اخبر الملك بان يحيى قادر على تحمل مصاريف اقامته بالبرتغال(1514)(70). وكان ما تركه (يعقوب بن الغربي) بأزمور بعد التحاقه بالشريف السعدي سنة 1523، 40 000 (كروزادو) أي 16 000 000 ريال

برتغالي.(71) وكان القواد يستفيدون من اقطاعات وان كنا نجهل نوعيتها وأهميتها. ولم نتوصل الا باشارة واحدة تتعلق باقتطاع الملك البرتغالي ليحيى وورثته قرية (سرنو) ومداخلها، وذلك سنة 1514 .

ويفرض هذا التنظيم سؤ الا مهما : هل يمكن الكلام عن حماية برتغالية على منطقة دكالة. ؟

(ج) نوع النظام المفروض على دكالة:

دفع هذا النوع من التنظيم: تواجد ادارة أجنبية تشرف على أخرى محلية، ان صح التعبير، وتراقبها، دفع بعض المؤ رخين أو المهتمين بهذه الفترة،(72) الى نعته بكونه «نظام حماية». فلقد اعتبره (سنيفال .P.Cenival) «. . . أول تجربة لنظام الحماية».(73) وكتب (كولفن .Goulven) الذي كان أكثرهم جرأة ومبالغة، أنه كان «. . . نموذجا رائعا ،مثاليا وانسانيا استوحى منه التصور الاستعماري المعاصر. . . وكان (دون امنويل) أول من طبقه بافريقيا. . .»(74) ولهذا سمح لنفسه بمقارنة الملك امنويل بالمرشال (ليوطي) ويحيى أوتعفوفت بالتهامي الكلاوي. وأشار الى نفس الشبه دون التأكيد عليه المؤرخ البرتغالي (د. لوبش) .David Lopes) (75) .

حقيقة أن نجاح البرتغاليين بالمنطقة كان مهما ، وأن العناصر الدكالية ساهمت فيه، وأنها كانت تتحرك داخل المنطقة مصحوبة بمراقبين برتغاليين،(76) ولكن كل هذه الاشياء لا تسمح بالكلام عن نظام حماية أو بمقارنة التنظيم البرتغالي مع التنظيم الفرنسي، ذلك أن تحكم البرتغاليين في المنطقة كان اسميا فقط، ومرتبطا بمدى استعداد القبائل للالتزام بتعهداتها. كما أن نظام الحماية يقتضي تواجد سلطتين، واحدة محلية، وأخرى أجنبية مشرفة، الشيء الذي لم يكن متوفرا بدكالة. ولهذا قد ينطبق هذا الامر فقط على الحاضرتين الساحليتين قبل احتلالهما.

أضف الى هذا أن هذا التنظيم لم يكن وليد مخطط ملكي (امنويل) طبق لأول مرة بدكالة، كما يدعي ذلك (كولفن)، بل أملته قلة الامكانيات البرتغالية المادية والبشرية.

من المؤكد أن السبب في انتهاج سياسة من هذا النوع لم تكن من أجل تلك

القيم العليا التي أشار اليها (كولفن)، ولكن من أجل التقليل من المصاريف وضمان ولاء المنطقة دون احتلالها عسكريا. وهكذا كان الملك مضطرا الى تجنب كل الأعمال والاجراءات التي قد تؤدي الى نفور القبائل،وبالتالي هدم البنيان: ولهذا تم الغاء المكوس أو الاعشار مؤقتا؛ والتسامح مع مرتكبي بعض الأخطاء الخطيرة، كقتل «أتايد» أو اعلان العصيان. . . الخ ولهذا نعتبر أن استعمال لفظ حماية غير دقيق، وان الاليق هو الكلام عن منطقة نفوذ.

ما هو نوع النظام بالمنطقة؟

إن أهم ما امتاز به النظام هو القهر والنهب سواء على أيدي البرتغاليين أو مساعديهم المغاربة. فلقد ذكر قبطان أزمور (نورنيا) أن يحيى أوتعفوفت كان يقول: إن الأعراب لا تخشى الا الحديد[77]. ورد القبطان ليط تراجع النفوذ البرتغالي الى السياسة اللينة المتبعة مع الدكاليين، وطالب بتطبيق سياسة صارمة.[78] وتكفي قراءة رسائل كل من سكان آسفي (أو ماسة) أو أزمور لأخذ فكرة عما عاناه المغاربة من جبروت وقهر القباطنة ورجالهم، الشيء الذي أثار أحيانا غضب بعض العناصر البرتغالية فكتبت بذلك الى الملك.[79] ولجعل حد لتلك السياسة كان الملك يرسل بين الفينة والأخرى مفتشين الى عين المكان لتقصي الحقائق، ولكن الرشاوي كانت تجعلهم يسكتون عن الشيء الكثير[80] لقد لاحظ القاضي الذي أرسله الملك إلى أزمور سنة 1529 أن القبطان ابتز أموالا كثيرة، فأمره بارجاعها إلى أصحابها ولكن القبطان عجز عن ذلك لكثرتها[81]. ونتيجة كل هذا نسف المسؤولون البرتغاليون بالثغور ومساعدوهم محاولة الملك الرامية إلى الحصول على ثقة القبائل. وهذا ما سبب اصطدامات ما بين يحَيى أوتعفوفت وقبطان آسفي (مسكرنياش) نظرا لاختلاف تصورهما لطريقة تسيير المنطقة، فإذا كان القبطان ومن يدور في فلكه يبحثون عن الحروب المؤدية إلى الغنَى والجاه، فإن يحَيى كان يبحث عن الأمن وعن استقرار القبائل للحفاظ على مكتسبات البرتغال، وبالتالي للحفاظ على مكانته ومنصبه داخل النظام. ولقد أكد أن تصوره هذا هو نفس تصور الملك «... بان انت (الملك) ما أمَرْتنِ الاي على العفْي (= السلم) والغَرْم (= الضرائب) ولا تخطر

لي بالفدلغش ، وهكذا عملت ، وهم يحبوا يكْلُ (يأكلوا) الذي في بَرٍّ ، ويقتلوا الذي في دخل ، ومن قل خلَفْ هذا الكلم هو الغَدَّرْ ، لِينْ هكذا أَمَرْن مُوليَ ...» [82] .

وبهذا تتحمل سياسة القباطنة الطائشة وجشعهم وجشع الفرسان والنبلاء والمرتزقة، قسطا كبيرا من المسؤ ولية في نفور القبائل وعصيانها، كما تدل على ذلك رسالة أعيان «الشرقية» الى الملك التي أخبروه فيها باتفاقهم مع قبطان أزمور الذي طلب منهم الرجوع الى أراضيهم :

« . . . ونعلموك يا مولانا هاد القبطان لو كانوا لقبطانش الذي جازوا بحالُ هادا ما كان خولات البلاد، ونحبو من الله ومن فضلك توصيه علينا وهو جيد عوجبنا كثير وهو رطب مع المسلمين كيف نحبو. . . »[83] ومما كان يسبب نفور القبائل وعصيانها، افتعال البرتغاليين الاسباب لنهب املاكها واسر افرادها، زيادة على النهب والافراط في فرض المكوس والمغارم والذعائر، وارغامها على قبول الاثمان التي يقترحها البرتغاليون وغشها في المكاييل الخ. . فحسب شهادة يحيى اوتعفوفت تعود مقاطعة المغاربة لآسفي الى تلك الأسباب: « . . . من سق غْرَزُ لَسفِ(أي قمحه لآسفي) يُعَبُّوا منه الغرَمَ وكبُّرُ لهم الكيل الذي بش يبيعُ ويعملُ لهم الصوم (السوم) الذي يحبُّ هم وبعدما يبعُ الزرع ويتخلص بالنصف من الدرَهم والنصف من العص (. . .) وهذا ما سَبَّبْ كثرة الشكَوَتْ من العرب الذي يدخلُ آسفي ولا صبت ما نعدل فيهم. . . »[84] هذا فضلا عن اختطاف كل من دخل المدينة للبيع والشراء بدعوى انه من الشاوية .[85]

ولقد أدت هذه السياسة الى الحاق الضرر بالحامية البرتغالية وسكان الثغور، وذلك لاهتمام القباطنة ومساعديهم بالمضاربات على حساب الحامية والسكان[86] (كانت الرواتب تؤدى سلعا)، واحتكار الأراضي الجيدة والمناصب المربحة وتخصيصها لافراد أسرهم، والاستحواذ على أموال الغير ولو كانوا يتامى،[87] واحتكار المواد الغذائية وسرقتها[88] (فيطور أزمور مثلا). وهكذا هاجرت عدة أسر برتغالية من أزمور هروبا من سياسة قبطانها[89] في حين أكد تقرير آخر أن طيش

سياسة قبطان مازيغن سبب خرابها. (90) واشتكى كل سكان آسفي من قبطانها(دوكاشترو) سنة 1540 (91).

وبذلك يكون المسؤولون البرتغاليون على الثغور الدكالية قد خيبوا أمل أعيان وشيوخ القبائل الذين ظنوا أن الخضوع للبرتغاليين يضمن سلامة أرواح وأملاك عشائرهم. وبما أن سياسة القباطنة أضرت كثيرا بهم، فانهم حملوا الملك نفسه مسؤولية ما نزل بهم لعدم سماعه لشكاويهم، ولتعيينه لقباطنة طغات، ولعدم حمايتهم من ضربات المغاربة غير الخاضعين. وتتجلى هذه الخيبة في العبارات المستعملة في رسالة بعثها الى الملك أعيان قبائل حوز أزمور يحتجون فيها ضد تصرفات القبطان (فييغاس Viègas): «. . وقلنا اذا سمعت كلامهم (الوفد الذي أرسلوه الى لشبونة) تعرف الغبن والباطل الذي نحن فيه-الأخذ والاصر (الاسر) في بلادك، والاخذ والاصر من بلاد الشريف، والاخذ والاصر من بلاد سلا. قلنا اذا سمعت كلامهم تعمل لنا الحق يرتفد به قلوبنا، فلما بلغ اليكم ما عملتم منهم شيء، عرفنا أن الباطل كله منكم، الله يجعل دنوبنا على رقبتكم. . . . ونحن ضعنا من كل جهة بالاخذ والاصر في بلادك وفي بلاد المسلمين، ومضان (نا) الجوع، زرعنا أكله الشريف وتركنا للجوع، ما قدرنا على شيء ومتاعنا وأولادنا عباهم (جروج دياجس) وابيت تعمل لنا الحق، الله يعمل دنوبنا في رقبتك واذ انت سلطان وقدرت علينا، السلطان الكبير أقدر منك، واذ وفيت ما توفي الا لروحك، أما نحن لا تحسبنا الا ماضينا والسلام. . . »(92)

والملاحظ ان البرتغاليين سببوا نفس خيبة الأمل لدى سكان آسفي (1509) وماسة (1510) وكذلك لدى«محمييهم» بالشرق الاقصى، كما تدل على ذلك لهجة رسائلهم وتعدد شكاويهم(93)

2 ـ التقسيم الاداري:

كانت المناطق التي تم ادخالها تحت السلطة البرتغالية تابعة في بداية الأمر لقبطان آسفي الذي كان يشرف على مناطق تصل الى أحواز أزمور. وبعد احتلال هذه المدينة

سنة 1513 تم تقسيم دكالة والمناطق المرتبطة بها بين القبطانين بقرار ملكي.(94) وهكذا أصبحت كل من قبيلة الغربية وعبدة والمدينة الغربية وأولاد عمران الجنوبية والشياظمة وأولاد مطاع تابعة لآسفي؛ في حين أصبحت الشرقية والشاوية تابعتين لأزمور. ولم يكن التقسيم دقيقا مما سبب خلافات بين قباطنة المدينتين كما لاحظنا.

واقتضى هذا التقسيم اخراج الشرقية من سلطة يحيى التابع لآسفي، فتم خلق قيادة عبد الرحمان سنة 1514 .

وكانت الغاية الأساسية من هذا التقسيم هو ضمان قسط من الضرائب لكل مدينة، ذلك أن أزمور ظلت تعتمد في بداية الأمر على قسم مما تحصل عليه آسفي من حبوب.(95)

ولقد أعطى الملك لهذا التقسيم مبررا آخر وجعله تنفيذا لرغبة ملحة صدرت عن القبائل نفسها،(96) ذلك أن «الشرقية» طالبت بفصلها عن عدوتها الغربية، التابعة ليحيى(97) . ولكن الملك أراد كذلك من وراء هذا التقسيم تفادي تقوية نفوذ يحيى وتعزيز وزنه السياسي خصوصا وأن (أتايد) لم يتوقف لمدة سنتين عن الصاق التهم به. كما توخى الملك بذلك منع اختلاط القبائل واحتكاكها حفاظا على مكتسباته بالمنطقة. وتجلى هذا الحرص فيما قرره بعد انشاء قيادة عبد الرحمان «... ونأمركم إذا أراد بعض أعراب الشرقية العيش مع عبدة أو الغربية أو مع القبائل التابعة لقيادة ميمون أن لا تسمحوا لا ليحيى ولا لميمون باستقبالهم أو بمساعدتهم، ولكن على العكس من ذلك، يجب أن ترجعوهم فورا الى قبائلهم التي أتوا منها...»(98) ومما يؤكد هذه الخلفية السياسية أن قبائل الشرقية اشترطت سنة 1517 مقابل خضوعها اعطاءها قيادة مستقلة، فرفض القبطان ذلك بدعوى أن على الجميع أن يخضع ليحيى(99) الذي أصبح بعد قتل أتايد، أكبر ركائز الاستعمار. وأكثر من هذا، عمل الملك بعد تزايد الصعوبات داخل دكالة على خلق وفاق ما بين قبائلها الخاضعة، وذلك للصمود أكثر في وجه الوطاسيين. وأمر باختيار عدد من العبديين والغربيين للخدمة العسكرية لزمن ما بين صفوف الشرقية، وتعويضهم بعدد مماثل(100) .

3 ـ التنظيم الجبائي

كان البرتغاليون يولون الضرائب أهمية كبرى ويعتبرون اداءها دليلا على الطاعة. وكانت هذه الضرائب عينية تؤدى من الحبوب، وخصوصا من القمح والشعير أو من مواد أخرى كالعسل.(101) وحينما تكون الحبوب قليلة يتم الاداء كذلك من المواشي(102) أو نقدا.(103)

وكان المصدر الأساسي في هذا الباب هو (كويش) الذي زودنا بالمقادير التي كان على الدكاليين اداؤها، فلقد ذكر ان سكان بعض القرى كـ «. . . نامير» و«أيير» وأكوز ألزموا بدفع حمل جمل من القمح عن كل دار وأربعة من الباز الجيد. وتؤكد وثائق اخرى هذا، اذ الزم البرتغاليون قرى دكالية كتازروت وأخرى بالشاوية او الشياظمة(104) بنفس القدر. وكان على القبائل ان تؤدي ألف حمل جمل من القمح لكل واحدة. وكانت لائحتها كالتالي(105) :

(1) عبدة: 1000 حمل جمل، نصفها قمحا ونصفها شعيرا، على أن يكون حمل القمح ضعف حمل الشعير، وزيادة على هذا يدفعون أربعة خيول.

(2) الغربية وشجعة: 1000 حمل وأربعة خيول

(3) أولاد عمران السكاون: 1000 حمل وأربعة خيول

(4) أولاد عمران الجنوبية: 1000 حمل واربعة خيول.

(5) الشياظمة: نفس الكمية والعدد. ولكنه ذكر القمح وحده(105)

(6) أولاد أحمد (الحوز) 1000 حمل جمل من القمح والشعير و4 من الخيول.

(7) سكان المدينة الغربية: نفس الكمية والعدد زيادة على ضريبة على فوائد كراء الامراس للاعراب.

ويلاحظ أن (كويش) لم يذكر عددا مهما من القبائل الدكالية، كمشنزاية، وبني ماكر، وأولاد يعقوب وأولاد بوعزيز وأولاد فرج. كما أن ما ذكره غريب جدا، اذ كان على القبائل مهما اختلفت اعدادها أن تؤدي كميات متساوية، وجعل المدينة الغربية تؤدي مثلما تؤديه القبائل. أي ألف حمل جمل، وهذا أمر غريب.

ومكننا سجل الضرائب السابق الذكر من تصحيح أخطاء (كويش) ومن تفادي التعميم الذي سقط فيه، كما مكننا من الكميات المفروضة على القبائل والقرى التي لم يذكرها(كويش). والمعلومات المتعلقة بدكالة التي جاءت فيه هي كالتالي:

1 - اتفاق مع سكان قرية (ويرس) شمال آسفي مؤرخ في3 يونيو 1510 تعهد بمقتضاه سكان الستين(60) بيتا أن يدفعوا «500 الكير» من الحبوب عن هذه السنة، 300 قمحا و 200 شعيرا، أي أن على كل «كانون» اداء 5 «الكير» من القمح و 3 وربع من الشعير على أن يكون الاداء بعد عملية «الدرس»(107)

2 - اتفاق مع قرية أخرى (موكرس) بحضور يحيى على نفس الشروط المتعلقة (بويرس) والاتفاق مؤرخ بـ 5-6-1510(108)

3 - اتفاق مع أيير ونامير مؤرخ بفاتح نونبر 1510 ، قبل بمقتضاه السكان اداء ثلاثين الكير من الشعير عن كل منزل وفرس وباز عن كل قرية.(109)

4 - بني ماكر: تم الاتفاق مع أعيان قراها الاربع على أن يؤدي سكان منازلها الاربعمائة عن كل واحد منها ثمانية الكير من القمح أو ستة عشر من الشعير وذلك مباشرة بعد عمليات الحصاد(110)

5 - قرية تازروت(30 يونيو 1511) تعهد الاعيان باداء حمل جمل عن كل منزل على أن يكون الحمل مساويا لخمسين «صاعا مراكشيا» أو 25 الكير برتغالية، بالاضافة الى فرس يختاره القبطان(111) .

6 - عبدة:(18 اكتوبر 1511)فرض عليها 600 حمل جمل، 400 منها من القمح والباقي من الشعير على أن يكون كل حمل مساويا لخمسين صاعا مراكشيا أي 25 الكير. كما تعهدت بدفع ثلاثة خيول يختارها القبطان(112) .

7 - أولاد عمران والغربية وشجعة: (31 يناير 1512) وقبل الجميع اداء 1400 حمل، 1000 منها من القمح والباقي من الشعير بالاضافة الى أربعة خيول

ثلاثة منها يدفعها الاعراب، والرابع يدفعه برابرة القرى.(113) هذا ولا ندري نسبة ما كانت تدفعه كل واحدة من هذه القبائل الثلاث.

8 ـ أولاد يوسف، فرع من فروع احدى قبائل الشرقية (2 فبراير 1512) . وهو مكون من 44 دوارا تعهدوا بدفع مائتي (200) حمل جمل من القمح وفرس يختاره القبطان(114) .

9 ـ سلالم (سوالم؟)، أولاد دويل (دويب؟)، أعراب منطقة تيط (10 فبراير 1512). التزم عشرون(20) دوارا بدفع مائة(100) حمل جمل نصفها قمحا والنصف الثاني شعيرا(115) .

10 ـ ستة دواوير من أولاد سبيطة: فرض عليهم ثلاثون (30) حمل جمل من القمح (14 فبراير 1512) (116) .

11 ـ أولاد فرج وأولاد عمران: (السكاون) وأولاد سبيطة: (20 فبراير 1512) تعهدت القبائل الثلاث بدفع مائة حمل جمل عن سنة 1512 ومائة أخرى مقابل تحرير اسراها الموجودين بآسفي(117) .

12 ـ مدينة دكالة (المدينة الغربية): 2 مارس 1512 . ويتعلق الأمر هنا باتفاقين، واحد يتعلق بمشنزاية التي أصبح عليها اداء ألف (1000) حمل جمل من الحبوب والآخر متعلق بالمدينة نفسها، والتي أصبح على سكانها اداء «تلّيس» أي نصف حمل جمل أو 25 صاعا عن كل منزل، على أن يكون نصف الكمية من القمح. وبالاضافة الى ذلك احتكر البرتغاليون لأنفسهم مكوس المدينة(118) .

وهكذا كانت المقادير مختلفة كثيرا عن التي زودنا بها (كويش)، كما أن هذه المقادير اختلفت من قرية الى أخرى، ومن قبيلة الى قبيلة حتى أن بعض المقادير كتلك التي فرضت على أولاد فرج وأولاد عمران وأولاد سبيطة تبعث على الدهشة: مائة حمل جمل اى ما كان على عشرين دوارا فقط اداؤه!، فهل معنى هذا أن هذه المقادير لم تكن مفروضة على كل فروع القبائل الثلاث؟. ولم تكن هذه المقادير تخضع لمقياس معين: حقيقة أن البرتغاليين فرضوا على كل دوار، وبكل من أولاد يوسف

وأولاد (دويب؟) والسوالم، قرابة خمسة الكير عن كل دوار، ولكن أولاد يوسف كانوا يؤدون خمسة «حمل جمل»، أي 200 الكير عن كل دوار! ولكن ما فرض على القرى يبعث اكثر على الاستغراب: فاذا كان ما فرض على قرية (ويرس) هو ما يعادل ثمانية الكير تقريبا (عن كل كانون)، فانهم فرضوا على تازروت وفي نفس السنة (دجنبر 1510) 40 الكير، أي حمل جمل عن كل بيت، واعادوا العمل بذلك سنة 1511، في حين لم يفرض على المدينة الغربية رغم غناها الا نصف هذا المقدار. فهل تدل هذه الحالة بالاضافة الى حالة أولاد فرج وأولاد عمران وأولاد سبيطة على أن البرتغاليين كانوا يأخذون بعين الاعتبار وزن القبائل والمدن السياسي داخل المنطقة، وكانوا يفرضون لذلك على أقواها كميات قليلة نسبيا تفاديا لنفورها.

ولكن ماذا تمثل هذه الكميات؟ فاذا أخذنا حالة القرى التي كان عليها اداء حمل جمل عن كل كانون أعطى ذلك حسب ثمن 1514 (20 ريالا للكير) ما يعادل، اذا اعتبرنا ان الحمل يحتوي على أربعين الكير، 800 ريالا،(119) أي ما يقرب من ثمن بقرة سمينة.(120) ولكن أهمية هذه المقادير تكمن اساسا في حيوية هذه المادة لا في ثمنها ذلك ان ما أصبحت القبائل تدفعه وصل حسب السجل المذكور الى ما يناهز (16 000) حمل جمل مما يحرم المنطقة من ادخار هذا الفائض المهم للفترات الصعبة. واذا صحت المعلومات التي أوردها (كويش) يكون البرتغاليون قد رفعوا - بعد 1512 - من الكميات المفروضة على المنطقة.

مدى تنفيذ الدكاليين لهذه الالتزامات؟

ذكر (كويش) وهو يتحدث عن المدينة الغربية انها كانت منقسمة على نفسها، يوجد بها فريق معارض لخضوعها للبرتغاليين: «. . . الشيء الذي نتج عنه باستمرار. . . صعوبة في اداء الضريبة التي كان عليها نقلها الى آسفي كما تعهدت بذلك. . .»(121) . وهذا ما دفع القبطان الى تنظيم غارة تأديبية. ولم تكن هذه حالة استثنائية، لأن القبائل لم تقبل أن يأخذ البرتغاليون «. . . اعداء وطنها ودينها. . .» حسب تعبير (لوبش) قسما من محاصيلها(122) .

وكانت القبائل القريبة من آسفي أكثر انتظاما في الاداء من البعيدة، الشيء الذي أكده (كويش) وتثبته النصوص [123]. وكانت القبائل ترفض الاداء في نفس سنة خضوعها كما حدث لأولاد عمران الجنوبية اذ بقوا يدينون، والى حدود دجنبر 1512، بكل ما كان عليهم اداؤه. [124]

ولهذا كان القباطنة او مساعدوهم يطالبون بالرفع من عدد الحامية لارغام القبائل على الاداء وعلى الحرث في المناطق المخصصة لها[125]. ويعود اداء عبدة والغربية المنتظم الى حدود 1515 الى قربهما من آسفي ووجود يحيى اوتعفوفت على رأسهما، كما نتج عن ارتباط القرى بالارض وقربها من آسفي وقلة امكانيات المقاومة لديها، نتج عن هذا استمرارية في الاداء حتّى في الفترات الصعبة بالنسبة للبرتغاليين. وكانت احيانا الوحيدة التي تدفع ما عليها. [126] ولم يكن الاداء يتم دفعة واحدة، بل كانت القبائل تؤجل دفع قسط مما عليها اما لعجزها عن الاداء او لعصيانها قبل اتمامه. [127] ويلاحظ ان كميات ما كانت تحصل عليه آسفي ارتفعت سنة 1512 لتتقلص مع مرور السنوات. فلقد كانت الحصيلة هزيلة جدا سنة 1514 نظرا لتخريب الناصر الوطاسي للمنطقة. [128] وتقلصت مداخيل البرتغاليين بعد ذلك نظرا لتخريب السلطان الوطاسي للمنطقة سنة 1515. وهكذا اضطرت آسفي اثر موت القبطان (أتايد) الى جلب الحبوب من البرتغال. وفي سنة 1517 لم تجد القبائل ما تعيش به، [129] وبالطبع امتنعت عن الاداء. وجاء في ايصال الرابع عشر (آسفي) ان الخاضعين للبرتغاليين عجزوا عن دفع ما عليهم من الحبوب وادوه نقدا. [130] ولم تؤد الا القرى سنة 1518. وكانت الحصيلة هزيلة جدا: 125 مدا من الشعير وثمانية او عشرة من القمح. [131] وفضلت الغربية صيف 1518 ترك محاصيلها على ان تخضع[132]. ولم تؤد الشرقية الا اربعين ثورا سنة 1520. [133] ولا ندري ما توصل به القبطان مما توقع ان القبائل ستدفعه سنة 1519، والذي قدّره ما بين 600 و 1000 مد. [134] ونظرا لهذه المعطيات اقترح القبطان (ماشكرنياش) التخلي عن المشاريع الطموحة والعمل على ضمان ولاء القبائل المجاورة لآسفي فقط، ما دامت البعيدة تفرض مصاريف تفوق بكثير ما تدفعه كضرائب. [135] وكانت هذه الحبوب المحصل عليها تغطي حاجيات الثغور الدكالية ويرسل الفائض الى الثغور الشمالية او

الى البرتغال(136). وزيادة على هذه الضريبة السنوية كان على الدكاليين اداء اخرى. لقد اصدر الملك قانونا سنة 1519 او 1521 الزم الدكاليين بأداء الذعائر على كل خطأ يرتكبونه كالعصيان مثلا. ولكن معارضة قبطان أزمور الذي ادعى ان هذه الذعائر لا تتلاءم واعراف السكان، جعلته يوقف العمل به.(137) والحقيقة ان ذلك التنازل كان وليد الظرفية السياسية المضطربة، وذلك ارضاء للدكاليين، لأن نظام الذعيرة كان معروفا قبل ذلك، وفرضه يحيى في «قانونه» الذي سنه على قبيلة الحارث سنة 1512؛ وكانت الذعائر به نقدية او ما يعادلها من البهائم.(138) والزم قبطان أزمور بعض فروع الشرقية سنة 1514 بأداء كميات من القمح وعدد من البهائم. وادت اخرى لقبطان آسفي عددا من الخيول.(139) ورغم الغاء هذه الضريبة بقيت مطبقة بأزمور الى سنة 1527 على الاقل.(140)

كما فرضت مكوس على السلع الداخلة الى المدن والاسواق.(141) وسمحت هذه الضرائب بتعسفات كبرى مما أدى بالملك الى الغاء العمل بها صيف 1515 (142). ولكن هذا الامر الملكي بقي حبرا على ورق، مما جعله يعيد المنع في بداية 1517 ويعد المخالفين لاوامره باجراءات صارمة.(143) وحسب رسالة يحيى أوتعفوفت الموجهة الى الملك (غشت 1517) استمر العمل بهذه الضريبة رغم الاوامر الملكية،(144) الشيء الذي كان موجودا كذلك بأزمور. فحسب احدى الرسائل الموجهة الى الملك، كان سبب فرار يعقوب بن الغربي الى مراكش والتحاقه بالشريف السعدي هو تعسف المسؤولين عن المكوس الذين اضروا كثيرا بالقبائل الحليفة.(145) واتهم قبطان مازيغن قبطان أزمور بفرضه مكوسا ثقيلة على الاعراب(146)، مما يؤكد مرة اخرى ان اوامر الادارة المركزية لم تكن مسموعة ومطاعة من طرف القباطنة ومساعديهم.

وكان ارباب الامراس بالمدينة الغربية يؤدون على ما يحصلون عليه من كرائها للاعراب(147). مما يفهم منه ان ذلك كان مفروضا كذلك على امراس مدن وقرى المنطقة. ولكن هذه الضريبة على الكراء سرعان ما اختفت بعد ان اصبحت الحبوب قليلة بالمنطقة كما سنرى.

وطالبت الكنيسة بان يؤدي لها المسلمون الاعشار كما يفعل نصارى آسفي وأزمور. (148) وقرر الملك ان يؤدي الدكاليون الاعشار، وذلك بعد ان كاتبه الاسقف في الموضوع. ولكن معارضة يحيى أوتعفوفت فرضت السكوت عنها نظرا لاضطراب الاوضاع آنذاك (1518). وفي 1519 فرضت من جديد ولكن الدكاليين رفضوها بدعوى ان الملك اعفاهم من كل الضرائب باستثناء ما يدفعونه من حبوب مقابل ولائهم. (148) ولا ندري هل طبقت ام لا.

* * *

لقد كانت الغاية من هذا التنظيم الذي تتبعناه هي الحفاظ على ولاء المنطقة بأقل مجهود، وذلك لجعلها تساهم في الحفاظ على الثغور الدكالية وتغطي قسطا مهما من مصاريفها ومصاريف الثغور الشمالية، وجعلها كذلك تغطي فشل البرتغال بشمال المغرب امام الرأي العام والبابوية.

ولا شك في ان مكانة دكالة، ووزنها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية، جعل الملك ومساعديه يولونها اهتماما كبيرا، وجعلهم يعملون باستمرار على الحفاظ على مستواها الانتاجي وعلى رواج موانئها. فاذا سكت الملك عن سياسة «الارض المحروقة»، واختطاف الرجال والنساء والانعام بالشمال والسوس، فانه عارض معارضة شديدة سياسة مثل هذه بدكالة. وما التنازلات السياسية والجبائية المتتالية والتي ازدادت بتزايد الصعوبات الا دليل على ذلك الاهتمام. ولكن طيش سياسة القباطنة وجشعهم نسف هذه السياسة الملكية.

فاذا كانت مكانة دكالة الاقتصادية هي التي املت على المسؤولين عددا من المواقف السياسية، فما هو وزن المنطقة الاقتصادي، وكيف استغل البرتغاليون خيراتها؟ وكيف نظموا الانشطة الاقتصادية بها؟.

التعاليق والهوامش

(1) Góis... op. cité p. 55 حصار اصيلا سنة 1508 من طرف الوطاسيين.

(2) يوجد بـ S.I.H.M. Port. II p. 294 عرض دقيق لخدماته بالمغرب.

(3) S.I.H.M. Port. II p. 357 n. 1 Góis... op. cité. p. 31 – 33

(4) S.I.H.M. Port. I p. 575 n. 1

(5) Ibid. I pp. 169, 226

(6) Ibid. I pp. 169, 172 n. 1

(7) Ibid. I p. 106 وكان من المقرر اذا ما تم الاكتفاء بالقصبة او اذا ما تم نقل الملاح الى خارج المدينة أن يحتكر القبطان (كوريا) البناء وكراء الدور المشيدة، انظر Ibid. II p. 39 n. 2

(8) Ibid. II p. 273, 418

(9) Ibid. III p. 39.

(10) Ibid. I p. 672 n. 1

(11) Ibid. I pp. 159, 221 et n. 2

(12) Góis... op. cité. pp. 94, 141

(13) D. Lopes: Les portugais. art. cité p. 344. Ibid. pp. 160 – 161

(14) S.I.H.M. Port. I p. 395

(15) Rui Freire

(16) تفاديا لكثرة الإحالات المتعلقة بكل واحد منهم نحيل على ملحق الجزء الخامس من S. I. H. M Port. V. p. 235 حيث ورد ذكر لكل هؤلاء القباطنة وللتواريخ المناسبة.

(17) نفس الملاحظة: انظر ص 163 من نفس المرجع.

(18) نفس الملاحظة: انظر ص 212 من نفس المرجع..

(19) Góis... op. cité. p. 115. S.I.H.M. Port. I p. 485

(20) S.I.H.M. Port. II. pp. 47, 364, 371, 372

(21) Ibid. I p. 576

(22) Ibid. I p. 693

(23) Ibid. Ibidem

(24) S.I.H.M. Port. II p. 391

(25) Ibid. II 204 – 206

(26) Ibid. II p. 226

(27) Ibid. I p. 576

(28) Ibid. I p. 520

(29) Góis... op. cité p. 111

(30) S.I.H.M. Port. I p. 309, II p. 441

(31) R. Ricard: Dernières Remarques sur L'histoire des portugais au Maroc. in. S.I.H.M. Port. TV. p. XI – XVI

(32) R. Ricard: Mazagan et Le Maroc... op. cité. p. 14 n. 14 – D. Lopes: Les portugais... art. cité p. 349 – Textos... op. cité p. 166 – S.I.H.M. Port. II p. 394 n. 3

(33) S.I.H.M. Portugal I p. 468

(34) Ibid. I p. 305 n. 1

(35) Ibid I p. 609 n. 1 II p. 60

(36) Ibid. III p. 137, 416

(37) Ibid. II p. 352 n. 1

(38) Ibid. I p. 697 وكان اعيان آسفي على ما يبدو يتكلمون اللغة البرتغالية أو على الاقل كانوا يفهمونها: Ibid. I p. 188 وذكر قبطان أزمور (1514) ان رجلا من سكان (بولعوان) يتكلم «الأعجمية» ولا شك انه كان من سكان أزمور: انظر S.I.H.M. Port. I p. 505 والجدير بالملاحظة أن يحيى لم يكن يحسن هذه اللغة ولهذا ارسل القبطان معه الى البرتغال سليمان الترجمان (1514)

(39) S.I.H.M. Port. I p. 173, n. 1, II p. 321, n. 2, 111, 133

(40) Ibid. I pp. 309, 351 وعن دور باقي اليهود انظر Ibid. I pp. 281, 283, 309, 572

(41) Ibid. I p. 572

(42) Ibid. II p. 508

(43) Ibid. II p. 204

(44) سبقت الاشارة الى تنافس يحيى واسرة ابن زميرو، وعن تنافس ابناء الديب ويعقوب انظر S.I.H.M. Port. II p. 312

(45) S.I.H.M. Port. I p. 356 – 357

(46) Ibid. I p. 443

(47) Ibid. I pp. 281, 356, 572, III p. 59

(48) Ibid. II p. 372

(49) Ibid. II p. 531 وذلك في يونيو 1530

(50) Ibid. II p. 506

(51) Ibid. II p. 147, 344, III, 313, 466, 416

(52) Ibid. II p. 222

(53) Góis... op. cité. p. 160 Ibid. I. 628 n. 2

(54) De Sousa: Les portugais... op cité 35

(55) عن بوجمعة: Góis... op. cité. p. 135 n. I – S.I.H.M. Port. I p. 647 أما التعيين الثاني:
Ibid. I p. 578 n. 2

(56) Góis... op. cité p. 128

(57) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 217 – Góis... op. cité p. 222 Port. II p. 304 وعن السلط المخولة لهم انظر ما كتبه Góis عن يحيى ص 120 (الادارة، العدل، ارغام التابعين له على الطاعة).

(58) S. I. H. M. Port Ipp 316, 326

(59) Ibid Ip 378

(60) Gòis. op ci té p. 225

(61) S.I.H.M. Port. I pp. 385, 619, 630 – 31

(62) Ibid II p. 6

(63) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 217 – Ibid. Ibidem p. 303

(64) يوجد النص بـ: S.I.H.M. Port. I pp. 316 – 320

(65) Ibid I p. 337, II p. 24 D. Lopes: Textos... op. cité. pp. 217, 219
Livro dos Tibutos doc. cité, folio 16 (الملحق) et sq

(66) S.I.H.M. Port. II p. 6

(67) Ibid. I p. 658

(68) Ibid. I pp. 630, 658

(69) Ibid. I pp. 515 وفي رسالة الى عمه ذكر ان تأخره في العودة الى سرنو يعود الى «... ونحن اشتغلنا بشراء الخيل على الجهد» S.I.H.M. Port. I p. 515

(70) S.I.H.M. Port. I p. 606

(71) Ibid. II p. 319

(72) أحسن مثال على هؤلاء المتطفلين على التاريخ هو (J. Goulven) (رجل قانون) الذي بالغ في التنويه بالاستعمار البرتغالي.

(73) P. Cénival: S.I.H.M. Port. I p. 159

(74) J. Goulven, la politique... op. cité pp. 131 – 144 – Safi... op. cité pp. 78, 83, 84.

(75) D. Lopes: Textos... op. cité p. 219

(76) ألحق D. Rodrigo de Noranha بيحيى بصفة رسمية ودائمة وكان يراقب ابن حدو:
Diogo de Melo: Góis... op. cité. p. 222 (S.I.H.MPort. I. 339 n. 2)

(77) S.I.H.M. Port. II. p. 237

(78) Ibid. II. p. 429

(79) Ibid. I. 159, II. 177, 391, 472

(80) Ibid, I p. 188 حيث كتب اعيان آسفي (1509) : «. . . ونعلمك ايضا يا مولانا بأن خديمك الذي اصرفت لآسفي يخرج لك الانفرسوا، ويعرف لك الحق من الباطل بأن أرشاه عاملك ديوغ الدالزنبوج وحد الحصان ووحد المسلم من الذين اتخذوا بآسفي. . .» انظر كذلك.
Ibid. II. 29, III, 143, et 144 n. 1
D. Lopes: Textos... op. cité. p. 219

(81) S.I.H.M. Port. II p. 459 et 425

(82) Ibid. II p. 135

(83) Ibid. II p. 41 – 42 et 31

(84) Ibid. II. 154 وعن أزمور Ibid. II. 418, 425 هذا وقدم مسلمو ويهود أزمور شكوى جماعية ضد قبطانها. Ibid. III. 143 n. 3

(85) Ibid. II p. 106

(86) Ibid. II p. 418, 425, 475

(87) عن محسوبية القبطان مشكرنياش Ibid. II p. 298 n. 1 وأخذه لاموال الغير Ibid. II p. 372 عن أزمور Ibid. II p. 419

(88) S.I.H.M. Port. II p. 177 n. 4, 392

(89) Ibid. II p. 313

(90) Ibid. II p. 508

(91) Ibid. III pp. 410, 464, 465

(92) Ibid. II p. 459 – 460

(93) J. de Sousa: Documentos... op. cité. p. 28 – 29 ، 45 – 46 ، 128 ففي ص 45 مثلا يقول حسين ركاك ملك كلكوطة «. . . وبدأ هذه المصيبة جرت في وصول قبطان (برنردو فريري) ولما وصل بعث وراي وقال: اعطيني الف مثقال وأتركك في الحكم. . .» ولما توصل بذلك «. . . عذبني عذاب شديد ثلاثة أيام. . .» وطلب منه الف مثقال اخرى.

(94) صيف 1514 ، وذلك حين انشاء قيادة عبد الرحمان السابق الذكر.

(95) S.I.H.M. Port. I p. 443

(96) Góis... op. cité. p. 127

(97) S.I.H.M. Port. II p. 150, 164

(98) أورد الرسالة الملكية المؤرخة بـ 6 شتنبر 1514 ، والموجهة الى القبطان أتايد Góis... op. cité. p. 127 - 130 والفقرة بالصفحة 130 .

(99) S.I.H.M. Port. II p. 164

(100) Ibid. II p. 278 ولم ير هذا المشروع النور. والجدير بالملاحظة انه اقترح على الملك من طرف اخ عبد الرحمان بن حدو.

(101) تعهدت احدى القرى (نهاية 1510) باداء قلتين من العسل عن كل كانون: S.I.H.M. Port. I p. 261

(102) Ibid. II p. 276

(103) الايصال الرابع عشر (آسفي)

(104) بالنسبة لتازروت (دجنبر 1510) S.I.H.M. Port. I p. 259 وصيف 1514 بالنسبة لقريتين بالشاوية Ibid. I p. 576

(105) Góis... op. cité. 75 وعنه نقل Diego de torrés Relation... op. cité. t. I p. 15

(106) وهذا امر غريب لان المنطقة كانت تعتمد على قمح دكالة. ولا شك في أنها كانت كغيرها مخيرة بين دفع القمح أو ضعف كميته من الشعير كما ينص على ذلك سجل الضرائب البرتغالي (الملحق) Folios 16, 17, 21

(107) Livro dos Tributos: doc. cité fl 2

(108) ibid. fl 3 V

(109) Ibid fl 12

(110) Ibid. fl 7 V

(111) Ibid. fl 8

(112) Ibid. fl 15

(113) Ibid. fl 47

(114) Ibid. fl 42

(115) وكتب الاسبان "Ulle duyle" و "Cetali"

(116) Ibid fl 44

(117) Ibid fl 46 وحسب رسالة قبطان آسفي، كان على أولاد عمران اداء 100 حمل جمل كضريبة (1512) فهل كان هذا المقدار المذكور مفروضا على كل واحدة من القبائل الثلاث.

(118) Góis... op. cité. p. 75 – Ibid fl 48

(119) كان ثمن القمح سنة 1514 ,20 ريالا كما سنرى في الفصل الثاني من هذا الباب.

(120) كان الف ريال بالنسبة للبقرة السمينة: S.I.H.M. Port. I p. 331

(121) Góis... op. cité. p. 85 – 86

(122) D. Lopes: Textos... op. cité. p. 218 – 219

(123) Góis... op. cité. p. 87 – Ibid. p. 215

(124) S.I.H.M. Port. I p. 366 ومعلوم ان خضوعهم يعود الى يناير من نفس السنة، ولاحظ الفيطور أن شروعهم في الحرث بعيدا عن آسفي يدل على عدم تحمسهم للاداء.

(125) Ibid. I pp. 330, 490 etc

(126) Ibid. II p. 206

(127) كان على المدينة الغربية أن تدفع 400 حمل كانت ما تزال تدين بها منذ 1511 (Ibid. I p. 366) (رسالة 15 – 12 – 1512) وفي دجنبر 1513 كانت ما تزال تدين لهم بـ 700 حمل (I p. 453 Ibid.) وأدت عبدة نصف ما عليها قبل أن تفر الى الشياظمة بعد دخول الوطاسي الى المنطقة (صيف 1515): Ibid. I p. 754

(128) انظر الاسباب التي ذكرها القبطان: تخريب الناصر المنطقة واستهلاك البرتغاليين لحبوب القسم الخاضع من الشياظمة، عصيان «الشرقية» (Ibid. I 603) ولهذا كان كل ما قدمه «للمشرف» من الحبوب هو 80 مدا.

(129) S.I.H.M. Port. II pp. 67, 147, 171

(130) الايصال الرابع عشر المتعلق بآسفي.

(131) S.I.H.M. Port. II p. 206

(132) Ibid. II p. 204 (وذلك صيف 1518)

(133) Ibid. II p. 276

(134) Ibid. II p. 244

(135) Ibid. II p. 122 (صيف 1518)

(136) D. Lopes = Textos. op cité 213 Arch Hist Port VI p 79

(137) IHM Port IIp. 237

(138) Ibid I p. pp 317 – 319

(139) Ibid I p 576, 603

(140) Ibid II pp 418 – 419 ارجع الى رسالة طبيب أزمور الى الملك (15 – 11 – 1527) التي يفضح فيها الاساليب المتبعة من طرف القبطان لابتزاز اموال الدكاليين وانواع «الأخطاء» المؤدى عنها. وكانت تسمح تلك الذعائر للقبطان حسب نفس المصدر بـ 2000 كروزادو سنويا 800 الف ريال)

(141) أمر يحيى «. . . بان من اشترى كبشا يأخذ (المحاسب أو الجابي) ربع دينار ومن أخطأ (امتنع) يعطي خمسة ثمان «قيمته» S.I.H.M. Port. I p. 326

(142) Ibid. I p. 759

(143) Ibid. II p. 54, 63 ولهذا المنع علاقة بمقاطعة الدكاليين لآسفي . ارجع الى رسائل يحيى في الموضوع S.I.H.M. Port. II p. 100, 106, 154

(144) Ibid, II p. 154

(145) Ibid. II p. 312 – 313

(146) Ibid. II p. 391

(147) Góis... op. cité. p. 75

(148) كان الملك امنويل قد وعدها بذلك سنة 1495 : عد الى:

Góis... op. cité. p. 2

وكانت مفروضة على نصارى آسفي منذ 1509 :

S.I.H.M. Port. I 48 n. 2

ولا يوجد أي مبرر لاعفاء نصارى أزمور.

(149) S.I.H.M. Port. II p. 269

الفصل الثاني

البرتغاليون وطاقات دكالة الانتاجية والاستهلاكية:
طرق الاستغلال ومدى الاستفادة

كان المسؤولون عن التوسع البرتغالي يتوخون من التحكم في دكالة شيئين اثنين:

1 ـ ضمان حبوبها ـ وكذلك حبوب الشاوية المرتبطة بها بعد تخريب انفا ـ وذلك لثلاثة أغراض (تموين الثغور والبرتغال، وأخيرا أرغين.) ويحتم هذا عملين متكاملين: التحكم السياسي في المنطقة وما يرتبط بها لارغامها على الاندماج في «النظام البرتغالي» ولتسخير خيراتها لصالحه، مع الحرص على أن لا يؤدي ذلك التحكم الى تخريبها والى نفور قبائلها. ولهذا سخرت عدة وسائل وبذلت جهود ضخمة للحيلولة دون سقوط البنيان الذي تم تشييده بسهولة نسبية في بداية الامر.

2 ـ ضمان سوقها المهمة التي استفادت كثيرا من الظرفية الاقتصادية الجديدة التي خلقتها الكشوف البرتغالية واغلاق الثغور الشمالية. ومكنت هذه السوق البرتغاليين من اقتناء السلع التي كانوا في حاجة اليها بالمراكز التجارية الجديدة على ساحل افريقا انطلاقا من (أرغين) حتى (لامينا)، وكذلك من تسويق السلع التي كانوا يجلبونها من كل المناطق التي كانوا يتعاملون معها. ولهذا تواجدت بدكالة طريقتان مختلفتان لاستغلال خيرات المنطقة.

ـ طريقة الملك وكبار المسؤ ولين (بلشبونة) التي كانت تهدف الى الحفاظ على الطاقة الانتاجية والاستهلاكية لدكالة. ورسمت لذلك سياسة كانت الغاية منها الحفاظ على ولاء القبائل واستمرار اقبالها على آسفي وأزمور.

ـ طريقة القباطنة والفرسان والنبلاء والمرتزقة الذين لم يكونوا مشاطرين الاهتمامات الملكية البعيدة المدى، ولم يكونوا يبحثون الاعلى الربح السريع وذلك بالغارات والنهب واختطاف الرجال والانعام.(1) ولهذا لم يكونوا ينظرون بعين الرضى لسياسة الملك والتجار التي كانت تهدف الى تهدئة المنطقة، الشيء الذي لا يترتب عنه الا تقلص مواردهم. فما هو أثر تصور هذه الفئات للتوسع على السياسة الرسمية وعلى المنطقة؟ وبما ان التجربة السياسية التي خاضها المسؤ ولون البرتغاليون بدكالة كانت وليدة اهتمامات مركنتلية، فما هي الظروف التي تم فيها استغلال خيرات دكالة؟، وما هي السلع التي كانوا يقبلون عليها، والتي كانوا يجلبونها، وما هي نتائج ذلك على المنطقة وعلى البرتغال؟

1 ـ البرتغاليون وموارد المنطقة الفلاحية والطبيعية:

كان المسؤ ولون البرتغاليون كثيري الاهتمام بالانتاج الزراعي بدكالة. ويتجلى ذلك في الاهتمام الذي أولوه باستمرار لعمليات الحرث، وفي حرصهم على أن تكون محاصيل القبائل مهمة، وفي الدفاع عنها اذا اقتضى الحال.(2) ولقد كانوا يعتبرون كل تأخر في الحرث أو امتناع القبائل عن القيام به ناقوس خطر على آسفي. ولهذا كان الملك كثير الاهتمام بمحاصيل المنطقة.(3)

ولا شك أن هذا الاهتمام راجع الى أهمية الحبوب في السياسة البرتغالية والى حرص المسؤ ولين على ضمان ما تصدره المنطقة من فائض للبرتغال. واهتم البرتغاليون المستقرون بالثغور بدورهم بالانتاج الفلاحي من زراعة وتربية مواشي. ولكننا لا ندري بالضبط أهمية ذلك النشاط بالنسبة للانشطة الاخرى، كالجندية والتجارة، ولا ندري كذلك مدى انتشار الاراضي المزروعة التابعة لهم. ومع ذلك،

يمكن القول بأنها كانت محدودة نظراً لقلة اعداد السكان الدائمين بالثغور، اذ كان جلهم لا يقيم الا مدة الخدمة العسكرية(4) .

ولم يكن هذا النشاط قادرا على توفير فائض يضمن تغطية ولو حاجيات المدينة نفسها، وعجز أحيانا حتى عن ضمان مؤونة المزارعين أنفسهم. فبعد قتل (أتايد)، اضطرت آسفي الى استيراد الحبوب. ونظرا لسوء محاصيل تلك السنة باع السكان أمتعتهم لشرائها، وكان أملهم معقودا على محاصيل السنة اللاحقة التي لم تكن مهمة مما دفع بالقبطان الى طلب ارسال الحبوب.(5) وبعد أن نسفت قوات السلطان أحمد الأعرج محاصيل سكان أزمور أفلس رجل كان من أقدم البرتغاليين اهتماما بالزراعة واضطر الى السفر الى البرتغال لطلب عون ملكي يعوض به ما ضاع له.(6) ويبدو أن الرقعة المزروعة تقلصت أكثر بعد تضييق أحمد الأعرج الخناق على البرتغاليين، وذلك بارساله لقائد رابط بجبال بني ماكر والضواحي وبتطويقه آسفي بحزام من الدواوير. وبذلك أصبحت المدينة تشكو من الجوع بعد ان تأخر وصول الزاد من البرتغال، فخرجت اعداد مهمة من السكان الى البوادي للعيش من القطف رغم معارضة القبطان(7) .

واهتم برتغاليو الثغور، زيادة على الزراعة، بفلاحة البساتين التي كان بعضها مستحدثا (مازيغن)(8) أو تم الاستحواذ عليه بعد احتلال احدى المدن (آسفي مثلا)(9) .

ولم يكن لاولئك المزارعين أثر على وسائل الانتاج وطرق الاستغلال، ولم يدخلوا الى المغرب الذرة الامريكية الا بعد أن أخذوا عن المغاربة الذرة البيضاء التي دخلت البرتغال بعد 1525 . كما أدخلت الى البرتغال زراعة «قمح الشاوية»(10)، وبتراجع نفوذ البرتغاليين، وبحصار المغاربة المؤطرين من طرف السعديين للثغور، تخلى البرتغاليون عن الزراعة واهتموا بتربية المواشي على الخصوص، لانها أقل عرضة من الحقول لضربات المغاربة.

وكانت الابقار مسيطرة. ولكن أعداد الأغنام والخنازير كانت كبيرة جدا بأزمور

حتى انها أصبحت تضايق الأبقار في المراعي مما دفع بالقبطان الى اقتراح منع تربيتها. (11)

واذا عجز برتغاليو الثغور عن ضمان اكتفاء مدنهم الذاتي، وعن توفير فائض قد يسمح بالتصدير، ففي أية ظروف كان التجار البرتغاليون ووكلاء الملك يقتنون الحبوب؟ وهل استمرت المنطقة في تصديرها كما كانت تفعل قبل التوسع بالداخل؟ وهل ارتفعت الكميات؟.

وكان البرتغاليون يقتنون هذه السلعة قبل احتلال آسفي من عدد من «المواني‌ء» كان بعضها صغيرا جدا. فزيادة على آسفي وأزمور، ازدحمت المراكب بميناء تيط الصغير، وبمازيغن «ودار الفارس» لهذه الغاية. (12) لقد أصبحت أزمور وخصوصا آسفي، مركزا مهما لجمع محاصيل البوادي المعروضة على البيع زيادة على ماكان يدفع كضريبة. وكان الاعراب يفدون عليها يومياأو أيامالسوق مصحوبين بعدد من الجمال المحملة بالقمح أو الشعير. واضطروا الى العودة بها أحيانا الى الامراس لقلة الطلب. (13) ولكن سرعان ما ظهرت بالمدينة أهرية مختصة في شراء ما يعرض بالسوق في انتظار اعادة بيعه. وقد يعاد بيع قسط من هذه الحبوب الى الفلاح نفسه، حين نفاد مدخراته أو حين الشروع في الحرث. (14) وقد يباع الى وكلاء الملك. (15) ونتيجة لافراط المسؤولين على الضرائب في جباية المكوس وسرقة التجار البرتغاليين للاعراب في الكيل والاداء، فان عدد الوافدين على المدينة لبيع حبوبهم تراجع كثيرا، مما حتم على اليهود الخروج الى البوادي لشراء الحبوب هناك وحملها الى سوق آسفي. (16)

وكانت الكميات المعروضة بالاسواق غير قارة. ولا شك في أن ذلك مرتبط بعدم انتظام الطلب ذلك أن أكبر مشتر ـ وهو الملك ـ كان لا يأمر بالشراء الا بين الفينة والأخرى. وهكذا كانت الكميات المعروضة بآسفي مباشرة بعد حصاد 1512 قليلة جدا، ولم تكن تسمح باقتنائها بأثمان ملائمة. (17)

وكانت الكميات التي اقتناها الوكلاء التجاريون بأمر ملكي مهمة. فلقد أمر الملكالكنتدور في ماي 1512 بشراء 300 مد من القمح(18). وكلف الملك شخصاً

سنة 1514 بتخصيص 000 200 1 ريال لشراء القمح بآسفي، فكان ما اقتناه: 870 مداً، و 21 الكير[19].

وفي خريف 1515 اشترى الفيطور 600 مد من القمح و 100 من الشعير[20]. واذ تعطي الايصالات التي وصلتنا فكرة عن المقادير التي دخلت المتجر الملكي بآسفي وأزمور، فانها تطرح مشكلين، مما يحتم الحذر قبل استخلاص النتائج، ذلك انها لا تهتم الا بالشراء الذي تم لصالح الملك، وتسكت عما اقتناه التجار الاحرار من برتغاليين وغيرهم. ومن جهة أخرى لا تفصح هذه الايصالات عن مصدر تلك المقادير، مما يحتم تتبع الاوضاع السياسية بالمنطقة لمعرفة ما اذا كانت استيرادا ام تصديرا - باستثناء الايصال السابع الذي يفصح بعض الشيء عن المصدر -

وعلى كل حال، فالكميات التي وردت في الايصالات المتعلقة بآسفي كانت كالتالي:

الايصال 1	6	8	9	10	11	13
45 مداً	1539 مداً 31 الكير	762 مداً 34,5 الكير	1636 مداً 12 الكير	6201 مد 14 الكير	91 مداً 30 الكير	2636 مداً 34 الكير

ولم نتوصل باية اشارة عن شراء القمح لفائدة الملك لا من أزمور ولا من مازيغن ولا من دار الفارس. ولا شك في ان ذلك مرتبط بالتطورات السياسية التي عرفتها المنطقة بعد 1513، والتي اثرت على مستوى الانتاج كما سنرى. ولقد اضطر البرتغاليون اثر احتلال آسفي الى استيراد القمح ومواد غذائية اخرى بعد ان كانت المدينة مصدرة للحبوب.[21] ولكن المدينة سرعان ما عادت الى التصدير بعد ان ارغمت القبائل على اداء الضرائب من الحبوب، وبعد ان عاد الرواج التجاري

اليها . وكان الشراء لصالح الملك وكذلك لصالح التجار الاحرار ، بدليل أن هؤلاء أصبحوا يؤدون ، ابتداء من ماي 1514 ، ضريبة جمركية بلغت مائة ريال عن كل مد من القمح و50 عن نفس المكيال من الشعير إذا كانوا برتغاليين ، وضعف ذلك إذا كانوا أجانب (22) .

وخصص هذا القمح المصدر للثغور الشمالية، (23) ولمركز «ارغين» التجاري، واحيانا للبرتغال، حيث يوجه للافران المنتجة «للبسكويت» التي ازداد عددها، وارتفع انتاجها بتزايد طلب الثغور المغربية الشمالية، والاساطيل البرتغالية على المواد الغذائية (24).

وبقيت آسفي مصدرة للقمح الى حدود 1515 وذلك رغم صعوبات 1514 و 1515 المرتبطة بدخول الوطاسيين الى دكالة. واصبح على آسفي اثر موت القبطان أتايد (1516) جلب مؤ ونتها من ابيريا، ثم وصلتها شحنة اخرى من جزيرة (ماديرا) دون ان تستطيع تغطية كل حاجياتها (25).

وبعد 1516 لم تعد التقارير تؤكد الا على بؤس السكان وفاقتهم ووجود المدينة على ابواب المجاعة. واصبحت المدن الثلاث لا تعيش الا على ما يرسله البرتغال او فيطوريات الاندلس. واضطر القبطان مرة الى مصادرة ما يوجد بالمنازل من حبوب لتوزيعها على السكان الذين خرجوا الى البوادي للعيش من قطف ما تقدمه الطبيعة من نباتات وعسل رغم ان المناطق المحيطة بآسفي لم تكن آمنة. ومات البعض جوعا (26)

ومعنى هذا ان اعتماد البرتغال على حبوب دكالة لم يدم طويلا بعد احتلال آسفي، وأنه لم يتعد اربع سنوات على ابعد تقدير!

ويرتبط هذا التحول بتخريب البرتغاليين والوطاسيين للمنطقة، اذ سرعان ما اصبحت الحبوب قليلة جدا منذ سنة 1514 . وعانت الشرقية هذه السنة من المجاعة لنسف الناصر الكديد زرعها. (27) وكانت المنطقة تشكو من مجاعة كبيرة سنة 1517 (28). وقلت بها الحبوب صيف 1518 ، (29) وكذلك في ماي 1519 حيث كانت المحاصيل سيئة جدا (30) ، كما يعود الى سوء معاملة البرتغاليين لمن يقبل على آسفي

بنية التجارة، والى نفور القبائل من النصارى، خصوصا بعد أن تأكدوا من ان عامل الزمن يلعب لصالح السعديين.

ولقد تأثرت بالطبع اثمان القمح بهذه الوضعية، وارتفعت ارتفاعا خطيرا جدا وصل الى نسب خيالية: 1500 ٪ في دجنبر 1516 بالنسبة لثمن 1502 و 3500 ٪ في صيف 1540 بالنسبة لنفس السنة! هذا دون الكلام عما وصلته الاثمان خلال المجاعة الكبرى لسنتي 1520 - 1521 .(31) (انظر الرسم البياني رقم 6).

الشعير

كان اقبال البرتغاليين عليه مهما، وان كانت كمياته اقل من القمح. فلقد اكدت الايصالات دخول 6806 مد و 45 الكير خلال المدة التي تغطيها، (1491 - 1522) والتي كانت موزعة كالتالي:

1491 1	7	8	9	10	14
5 مد	700 مد 13 الكير	230 مداً 35 الكير	120 مداً 12 الكير	4991 مداً 15 الكير	789 مداً 30 الكير

ولم تشر الايصالات المتعلقة بأزمور الى شراء هذه المادة. ويلاحظ ان الاقبال على الشعير كان قليلا في البداية، ان لم نقل منعدما. ورغم تطور المعطيات السياسية بالمنطقة، استمر البرتغاليون في التوصل بكمية بسيطة من الشعير الذي كانت تؤدى به الضرائب كما حدث سنة 1519 .(32) وارتفع ثمنه، ولكنه لم يصل مستوى ارتفاع ثمن القمح. فاذا كان ثمنه في ربيع 1512 اربعين ريالا لكل فروبة (100 لتر) (مما

يعطي 7,5 ريال للكبير»، (33) فانه اصبح في منتصف يونيو 9 «ريالات» (34) وفي صيف 1536 ثلاثين ريالا لكل «الكير» (35)

وبعد تزايد عجز دكالة في ميدان الحبوب، اصبح على البرتغال تحمل تكاليف عيش سكان الثغور او على الاقل إرسال المواد الغذائية لاعادة بيعها لهم هناك. فبالاضافة الى استيراد القمح والشعير، عمل المسؤولون على تغطية بعض النقص بجلب بعض المواد الغذائية الاخرى:

- «البسكويت»: كان يلعب دورا مهما في تغذية سكان الثغور وخصوصا في فترات الجفاف. وتوصلت آسفي بالمقادير المهمة التالية:

الايصال 1	7	10	12	15
14 مدا	4949 قنطاراً و 10 رطل	1753 قنطاراً و 19 رطلا	بيع منها 303 41 1 ريال	834 قنطاراً

المجموع: 7536 قنطار - 14 مدا وما تم بيعه.
ويلاحظ أن هذه المقادير الهائلة تم استيرادها في فترة ندرة الحبوب.

الارز: وصلتنا اشارة واحدة عن استيراد 75 قنطارا في الفترة التي يغطيها الايصال السابع (1508 - 1511).

- وورد في الايصال الرابع عشر ذكر لدخول 78 مدا و 12 «الكير» من الذرة الى متجر آسفي. ولا شك في انها الذرة البيضاء المغربية التي كانت كثيرة بالشياظمة، والتي اشتريت اما بعد ان تعذر اقتناء القمح والشعير، أو لكي ترسل الى البرتغال الذي شرع في فلاحتها.

وعمل البرتغاليون من جهة ثانية على البحث عن مناطق مغربية اخرى للتزود بالحبوب بعد ان تعذر عليهم ذلك بدكالة. وهكذا تحولت انظار المسؤولين نحو «مملكة فاس»، وارسل الملك (جوا الثالث) سفيرا لدى السلطان احمد الوطاسي وكلفه بشراء الحبوب وبالعمل على عقد حلف وطاسي برتغالي ضد السعديين. (36) والجدير

تطور اثمان القمح ما بين سنة 1502 و 1540 (بالريال البرتغالي)

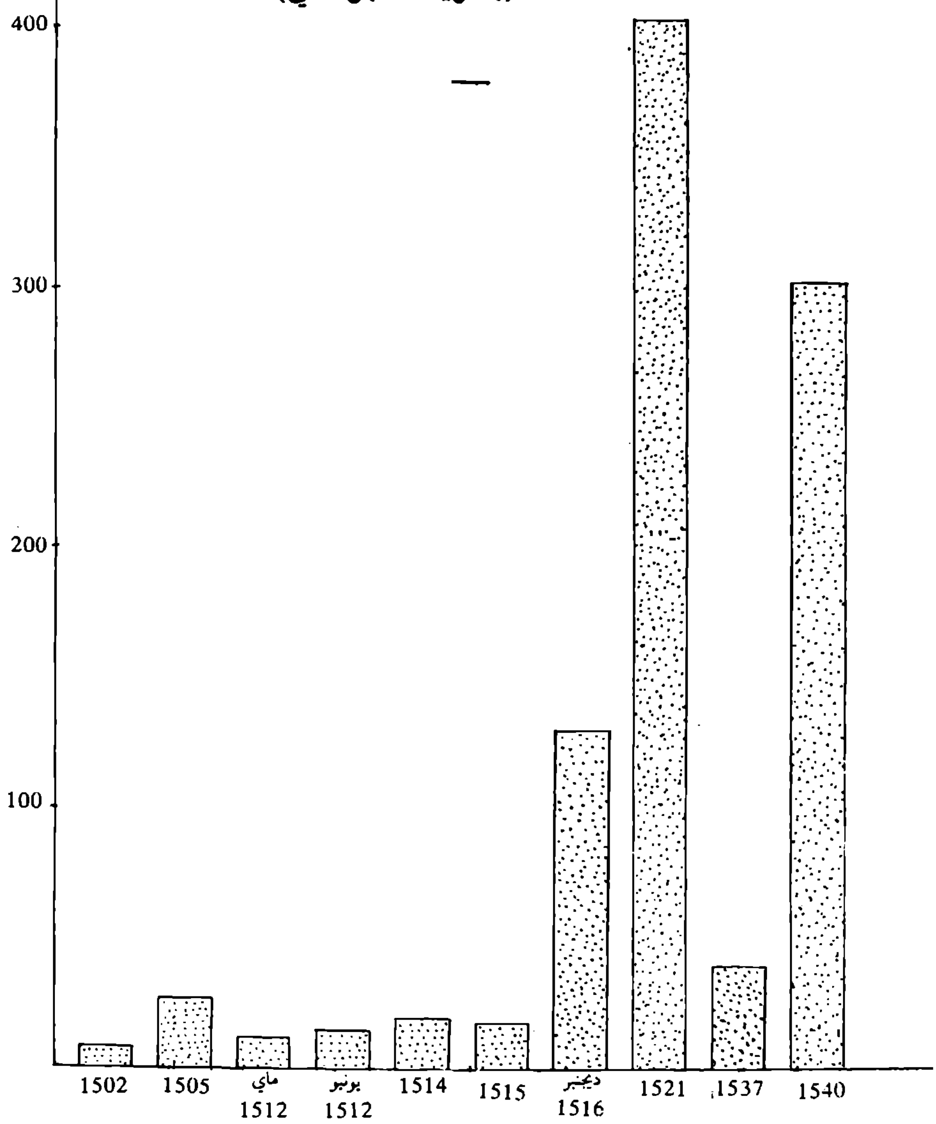

بالملاحظة ان البرتغاليين لم يكونوا يعتمدون على «مملكة فاس» في شراء الحبوب بهذه الكميات قبل تخريب دكالة. وهكذا اصبحت اهم الاهداف التي يطمح اليها ممثل الملك هو تخصيص كل فائض شمال المغرب للملك البرتغالي[37]، ولهذا الح على ضرورة الضرب على ايدي منافسيه، واقترح احتكار الملك البرتغالي شراء الحبوب المغربية[38]. وكانت المنافسة الكبرى تأتي من تجار اشبيلية، وكذلك من وكلاء الامير البرتغالي (دون هنري).[39] وتسابق التجار البرتغاليون بدورهم نحو موانيء العرائش والمعمورة وسلا التي عرفت ازدحاما غير معهود نتيجة ما اصبح يصلها من حبوب. ولكنهم سرعان ما منعوا من الدخول اليها لكي لا يزاحموا وكلاء الملك.[40] وكان الملك البرتغالي يتعامل مع السلطان الوطاسي على الخصوص، والذي اصبح يظهر من خلال النصوص مضاربا كبيرا، ذلك انه وجد في اقبال البرتغاليين على الحبوب وسيلة لتحسين احوال خزينته.[41] ويلي السلطان من ناحية اهمية الصفقات الامير مولاي ابراهيم بن راشد الذي يخبرنا الوكيل التجاري البرتغالي السابق الذكر عن خسارة مالية كبرى مني بها سنة 1538 لعدم توقعه انخفاض الاثمان.[42] كما اصبح القائد احمد العطار اكبر مزود لازمور بالحبوب.[43] وهكذا نتج عن توقف التصدير من دكالة تزايد الطلب على حبوب «مملكة فاس». ومما زاد الطين بلة، اهتمام الحكام المغاربة ومن يدور في فلكهم بتسويقها، مما اعطى لتلك العمليات ديناميكية ما كانت لتصلها في اطار التجارة الحرة. ولهذا سرعان ما نفدت مدخرات المنطقة وقلت قدرتها على مواجهة الفترات الصعبة، مهما كانت قصيرة، واصبح السلطان نفسه عاجزا عن تقديم ما وعد به من حبوب.[44] والغريب ان هذه الحبوب التي اصبحت تشترى بموانيء «مملكة فاس» اصبحت ترسل لتغطي حاجيات آسفي![45] وبذلك يكون البرتغاليون قد استنزفوا بطريقة منهجية، ومقابل سلع غير ضرورية، حبوب جنوب وشمال المغرب. فاذا لم يسبق لهم ان اعاروا «مملكة فاس» اي اهتمام في ميدان الحبوب، فانهم حولوا انظارهم نحوها بعد ان يئسوا من دكالة التي داقت الامرين من مجاعة 1520 - 1521 لقلة مدخراتها، ودخلت بذلك مرحلة صعبة تمتاز اساسا بقلة الانتاج. ونتج عن تحولهم نحو الشمال نفس الشيء: قلة المدخرات وتفشي المجاعة نتيجة لذلك.[46] فلقد اصبح الخبز بفاس اغلى ثمنا مما هو عليه بلشبونة، ولولا وجود الذرة لكانت المصيبة أعظم (دجنبر 1541)[47]. وبذلك أدخل

البرتغاليون المغرب كله في حلقة مفرغة صعب عليه الافلات منها وبقي حبيسا داخلها لمدة طويلة جدا: قلة المدخرات، المجاعات والاوبئة، تراجع عدد السكان، قلة الانتاج وهكذا. .

البرتغاليون ومواشي المنطقة

كان الملك يأمر بين الفينة والاخرى بشراء عدد من الابقار والاغنام أو باقتناء كميات من اللحوم.(48) وارسلت هذه الابقار الى جزيرة (ماديرا) التي توصلت مرة بدفعة مكونة من اربعين او خمسين بقرة(49) . ونتج عن تزايد الطلب على هذه الابقار ارتفاع في اثمانها اذ اصبحت صيف 1512 : 1300 أو 1400 ريال للبقرة السمينة بعد ان كانت في صيف 1511 ثلاثة اواق أو 1000 ريال.(50) وانخفضت الاثمان انخفاضا كبيرا قبيل جفاف 1520 ، واصبح ثمن الرطل من اللحم ريالين، وثمن الابقار بخسا جدا حتى ان ثمن الجلد كان يغطي ثلث ثمن الشراء!(51) وكان تزويد وكلاء الملك باللحوم يتم بالمزايدة العلنية. والتزم احد اليهود (يعقوب توسن) بتقديم 800 «ربع» بثمن يصل الى 80 ريالا لكل «ربع»(52) . وأقبل البرتغاليون كذلك على مواد هذه الحيوانات كالسمن(53) . وسبب وصولهم الى الموانيء الدكالية استهلاكا كبيرا للقرون التي كانت تحول الى أمشاط بيع منها بآسفي ما بين 1495 - 1498 :2828، وبيع، 9800 بأزمور.(54) واشترى البرتغاليون كثيرا من الجلود المدبوغة او العادية التي كان بعضها يجلب من الشياظمة (جلود الماعز). وهذه صادرات آسفي من هذه الجلود حسب احد محاضر مصلحة الجمارك (ربيع 1512) .(55)

- حزمه تحتوي على 150
- حزمه من جلود البقر المدبوغة: بها 30
- حزمه من جلود البقر المدبوغة: بها 30
- جلد ماعز مدبوغ ومصبوغ: 15 حزمة تحتوي كل واحدة منها على 12

واشارت الايصالات الى كميات قليلة من هذه الجلود.

وكان البرتغاليون كثيري الاعجاب بالخيول المغربية، وخصوصا بخيول آسفي.(56) وكانوا يحصلون عليها اما من الضرائب او الغارات او بالشراء او

يتوصلون بها كهدايا. ولا تشير الايصالات الا الى شراء اعداد قليلة. وبيع اثنان بآسفي بـ 5400 ريال (الايصال الرابع عشر).

وكانت دكالة كثيرة العسل والشمع إذ أن خلايا النحل كانت منتشرة بكل مكان، وخصوصا على طول ام الربيع وبالشياظمة حيث كان القطف يسمح بمداخيل مهمة. (الخريطة) وكان الاقبال على السلعتين مهما الى حد ان الاعشار المؤداة عنهما بأزمور بلغت 2000 كروزادو سنويا (– 800 الف ريال).[57] واصبح لجودة شمع آسفي شهرة وصلت الى ما وراء المحيط، واصبح سكان امريكا الوسطى يضربون بها المثل: «يقال إنه يوجد بها (منطقة بأمريكا) مثلما يوجد بآسفي الموجودة بافريقيا من العسل والشمع وذلك من حيث الوفرة ومن حيث الجودة...»[58]. ومعلوم ان الملك البرتغالي ترك لنفسه حق اخذ قيمة الضريبة المفروضة على آسفي في فترة ولائها للبرتغال من الشمع.

وكان البرتغاليون يشترون كذلك انتاجات اخرى غير دكالية كالجوز واللوز والتمر... الخ.[59]

الصيد بنهر أم الربيع:

استمر اقبال التجار والصيادين على أزمور للتزود بالشابل. ولكن المسؤولين ارتأوا كراء حق الصيد لبعض التجار مما يسمح بالقول بان هذا النشاط أصبح بأيدي من لهم امكانيات مالية كبرى وان ذلك أدى الى تمركز مالي مهم في هذا النشاط[60]. ولكن الكميات التي اشارت اليها الايصالات قليلة وأهمها ما ورد في الايصال الأول: (1486 – 1501) 150.000 من الشابل. وبيع ما بين يناير 1514 ومارس 1517: 108 256 ريال من الشابل، ودخل المتجر 14476 «قطعة» حسب الايصال الثالث (أزمور). وبقيت السفن تفد على ازمور على الأقل الى حدود 1521[61]. وصدر السردين مرة من آسفي[62].

2 ـ تنظيم المبادلات التجارية :

(أ) الوسائل :

نتج عن وصول البرتغاليين الى آسفي وأزمور والموانيء الدكالية الصغيرة تواجد نظامين مختلفين، برتغالي، ومحلي، في ميدان الاوزان والمكاييل والعملة . . . الـخ. وغالبا ما يعتمد البرتغاليون انفسهم في مراسلاتهم وتقاريرهـم، لاعطـاء فكرة عن الاثمان، على العملة المغربية. وتشير بعض الايصالات الى العملتين معا. وتم في بعض الاحيان شراء الحبوب اعتمادا على المكاييل الآسفية، وارسلت بعض الموازين والمكاييل المحلية الى آسفي بعد ان صنعت بالبرتغال.(64) ونظرا لهذا التداخل ومـا يخلقه من مشاكل لمتتبعي المبادلات التجارية البرتغالية، حاولنا اعطاء فكرة عن هذه الوسائل.

ـ الاوزان :

كانت جل الاوزان البرتغالية تحمل أسماء عربية، وكانت قريبـة جدا ممـا كان معمولا به بالمغرب.

«الاوقية» : (Onça) 33, 105 غراما (فاس)(64)

«المارك» : 8 أواق، او نصف رطل، أي 265 غراما تقريبا.(65)

«الرطل» : (A.rratel) من 12 الى 16 أوقية وهو يعادل الليبرة (Libra: البرتغالية، (66) أو اكثر من نصف كيلوغرام.

«الربع» : (Arroba) 1 /4 القنطار الذي كان يز ن ما بين 25 و 32 رطلا برتغاليا (حسب المناطق)، اي ما بين 13 و 16,9 كلغ.(67)

«القنطار البرتغالي» : (Quintal) أربعة « Arroba » اي ما بين 52 كيلوغراما و 67,6 كيلوغراما. وجعله الوزان يعادل 59, 72 كيلو(68)

ـ المكاييل :

اكبرها « Moio » (المد) البرتغالي الذي كان يحـوي 828 لترامن الحبوب أو 60

«الكير». (69) وكان يعادله من المكاييل المغربية بأزمور في هذه الفترة «الكفيز» أو «القفيز». (70)

- الكير (Alqueire) المشتق بدون شك عن الكيل في اللغة العربية وكان اقل بستين مرة من المد، مما يعطي (بلشبونة) حوالي 14 لترا. وكان «الكير» ضعف الصاع المراكشي. (71)

- الفروبة (Farroba) : 100 لتر(72) اي اكثر من 7 الكير بقليل

- (Fanegue) أو (Fanga) : 4 «الكير». (73)

- (Meqia) «مكيال؟» كان يعادل 2 Selamins وكل Selamin يساوي 16 /1 الكير. (74)

- حمل جمل: كان يحوي حسب (كويش Góis) 40 الكير من القمح و 80 من الشعير. وجاء في سجل الضرائب الذي اشرنا اليه عدة مرات ان الحمل يعادل 50 صاعا مراكشيا أي 25 «الكير». (75)

- وكان البرتغاليون يعتبرون أن «التليس» معادل لنصف حمل جمل أي أنه يحتوي على 25 صاعا مراكشيا أو 12,5 الكير(76) .

مقاييس الطول:

- Covodo : الذّراع: 3 أشبار أو 66 ستم(77)

- Vara : اكثر بقليل من المتر الحالي، اذ كان بلشبونة يعادل 5 اشبار(78)

- Brasse : 2,20 متر(79)

- Peça : قطعة: 24 ذراعا(80) اي قرابة 16 م.

العملة:

تواجدت العملة البرتغالية والعملة المحلية بالثغور الدكالية.

وكانت العملة البرتغالية ذات وحدة فضية (الريال) واخرى ذهبية (الكروزادو)

Cru zado) . وتطورت قيمة الريال بالنسبة للعملة الذهبية على الشكل التالي: (81)

- ففي عهد الفونص الخامس كان الكرزادو يعادل 253 ريالا ثم اصبح: 324 ريالا.

- وفي عهد جوا الثاني كان الكرزادو يعادل 324 ريالا ثم اصبح: 380 ريالا.

- وفي عهد امنويل الاول كان الكرزادو يعادل 390 ريالا ثم اصبح: 400 ريال.

- وفي عهد جوا الثالث كان الكرزادو يعادل 400 ريال. واستقرت قيمته.

وكانت تروج قطعة فضية تساوي 100 ريال (Testons) واخرى نحاسية كان منها ما يساوي 20 ريالا (Vintem) . (82)

وكان المثقال الأسفي، يساوي بهذه المدينة (27 فبراير 1510) : 420 (83) ريالا أي انه كان اغلى من الكروزادو بعشرين ريالا. وكانت قيمته بلشبونة سنة 1514 ، 450 ريالا، مما يسمح بربح مهم باعطاء (الكرزادو) مقابله. (84) وبلغت الاوقية المغربية في ربيع 1511 : 333 ريالا برتغالياً، وانخفضت الى 320 ريالا كما كانت عليه صيف 1514 ، وبقيت كذلك الى ربيع 1526 (85) على الاقل.

وجاء في قانون يحيى أن الاوقية تساوي عشرة دنانير. (86) وكان الدينار يعادل «الدوبرة» او «الدبلون»، وكانت قيمة هذه العملات عشر الاوقية، اي 32 ريالا، الشيء الذي اكده الايصال الاول المتعلق بأزمور. (87) وكان الثمن (8 /1) يعادل كما يدل على ذلك الاسم، ثمن الدينار، اي 4 ريال(88) . وهي عبارة عن قطع صغيرة الحجم.

وكان الدكاليون يؤدون ثمن السلع بالعملة المحلية، مما يفسر تواجد العملتين معا في الايصالات الاولى. وأمر الملك بان لا يتم الاداء الا بالعملة البرتغالية. ولكن قلة هذه الاخيرة ارغمت الوكلاء على الاستمرار في قبول العملة المحلية. ولهذا التجأوا أحيانا الى تحويلها الى عملة برتغالية. ولكن عمليات الصرف بآسفي لم تكن غاية في حد ذاتها كما كانت بأكدير حيث كانت تسمح بأرباح مهمة. (89) وكان الملك

مفتقرا باستمرار الى المقادير الكافية التي تسمح له بارسال كل ما كان الوكلاء التجاريون في حاجة اليه لشراء السلع. ولهذا تعددت شكاويهم من نقص الاموال. فلقد كتب (الكنتدور) الى الملك يخبره بانه اصبح مدينا للجميع، وانه لم يعد يجرؤ على الخروج الى السوق.(90) وامتنع اليهودي (مايل) عن تسليم حياكه وحنابله قبل التوصل بثمنها.(91) والملاحظ ان هذا النقص في الاموال دام طويلا، ذلك ان وكيل الملك التجاري بمازيغن ألزم في بداية القرن المتعاملين معه بأخذ نصف ثمن الحبوب التي باعوها إياه من السلع التي كان يجلبها.(92)

وأمام هذا النقص في الاموال التجأ الملك الى بعض الحلول. فاذا أراد شراء القمح مثلا، يرسل سلعا وبثمن البيع يتم ذلك.(93) واعتمد في اداء الرواتب وتحرير بعض الاسرى على ذلك، وأمضى عقدة مع اسحاق بن زميرو (يناير 1529) أصبح اليهودي محتكرا بمقتضاها للصمغ والبردات بالمغرب، على أن يقوم بأداء رواتب الجنود في وقتها.(94) واصبحت بعض السلع كالصمغ والبردات تقوم مقام النقود!

وللتخفيف من هذا النقص؛ اقترح القبطان (دوسكوطو) سنة 1523 سك عملة نحاسية من قيمة سدس الريال اعتمادا على النحاس الموجود بالمتجر(95). واقترح خلفه بعد ذلك (1526) استعمال التبر الذي يدخل آسفي لسك عملة ذهبية(96). وتسمح لنا الايصالات بأخذ فكرة عن كميات النقود التي توصل بها المسؤولون عن تجارة وأموال الملك بكل من آسفي وأزمور.

وكانت النقود التي دخلت آسفي كالتالي: (أنظر الجدول والرسم البياني)

الاموال التي كانت في حوزة المسؤولين التجاريين والماليين البرتغاليين حسب الايصالات المتعلقة بآسفي

العملة		برتغالية	محلية	فضة
الايصال	1	814250 ريال	206794 دوبرة	1395 مارك 5 «أوطافا»
	2		797377 دوبرة، 1 ثمن	

الايصالات	برتغالية	محلية	فضة
3	1212000 ريال		947 مارك 7 أواق وثمن
4		79886 و 2 ثمن	20 مارك
5	716871 ريال		
6	5490654 ريال		217 مارك 2/1 أوقية و 18 حبة
7	786530 ريال		
8	856660 ريال		748 مارك 2 أوقية
9	870176 ريال		
10	9317199 ريال		
11	17381494 ريال		
12	11848684 ريال		
13	10288207 ريال		
14	5689143 ريال		
15	5888608 ريال		
16	5084364 ريال		
المجموع	88392840 ريال	984057 دوبرة	3327 مارك 9,5 أوقية

الأموال التي كانت بحوزة المسؤولين التجاريين والماليين البرتغاليين بآسفي ونسبة المبيعات فيها

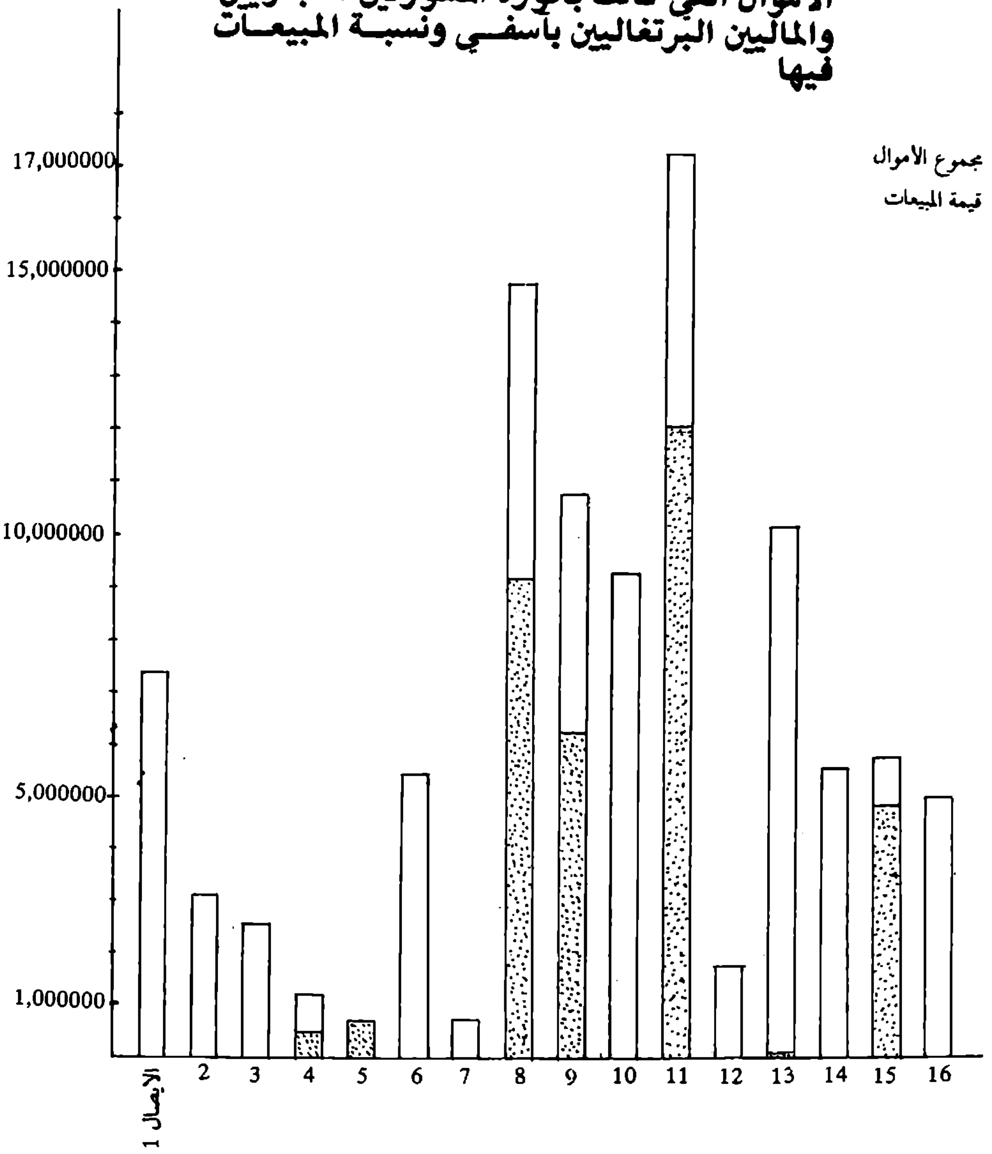

وكان ما دخل متجر أزمور كالتالي:

الايصال الاول	الثاني	الثالث	الرابع
89 920 دوبرة	101 924 دوبرة	11 931 734 ريال	5 416 947 ريال

المجموع: 191 844 دوبرة

17 384 681 ريال

وبهذا تكون آسفي قد توصلت ما بين 1491 - 1500 من العملة المحلية بمعدل سنوي يصل الى 250 41 دوبرة(97).

وكان معدل ما دخل أزمور خلال الفترة التي يغطيها الايصال الاول 6201 دوبرة.

وكان ما دخل متجر آسفي من العملة البرتغالية خلال المدة التي تغطيها الايصالات (1491-1524) هو 88 392 000 مما يعطي معدلا سنويا يصل الى 2678545 ريال. (أنظر الرسم البياني).

وتبقى هذه المقادير مجرد أرقام جافة لا تعبر عن شيء، اذا لم نبين قدرتها الشرائية لنتمكن اعتمادا على ذلك من أخذ فكرة عن قيمة المبيعات وعن أهمية المبادلات التي عرفتها آسفي. ولن نعرض لكل الاشارات - وهي كثيرة - المتعلقة بالاثمان التي استطعنا حصرها، ونكتفي ببعض الامثلة من أنواع مختلفة من السلع:

- القمح والشعير (أنظر الفقرة المتعلقة بهما والسلم البياني)
- بقرة 1000 ريال، وجعلها (قانون) يحيى مساوية لـ 20 دينارا في حين جعل ثمن الكبش 5، مما يعطي حسب ما لاحظنا عن قيمة الدينار، 640 ريالا للبقرة و 100 ريال للكبش!

- بيع بيتـــان بآسفـــي بـ 000 36 ريال (000 18 للواحـــد) [99]
- حذاء 80 ريالا. [100]
- جاء في الايصال الرابع عشر المتعلق بآسفي (الملحق) أن ثمـن بيع فرسين هو 5400 ريال.
- كان راتب «المشرف» بآسفي يصل الى 600 ريال. وكان راتب عامل بأوراش آسفي (1512) : 450 ريالا عن كل شهر[101].

واضح اذن ان قيمة العملة كانت مهمة مما اعطى اثمانا منخفضة، وقدرة شرائية كبرى.

ولا شك ان هذه المقادير من الفضة، التي اشارت اليها الايصالات كانت تباع الى الدكاليين، ذلك ان اقبال المغاربة على العملة الفضية كان كبـيرا، وخصوصا بالسوس. [102] وسك قسم منها قطعـا فضية صغـيرة بيع الى الاهـالي[103] . وبقيت آسفي تتوصل بالتبر اعتمادا على القوافـل. [104] ولا ندري لماذا اختفـت الاشـارة الى العملة المحلية بالايصالات. ويمكن تحـديد مصـدر هذه الامـوال التـي وردت في الايصالات كالتالي:

- مداخيل محلية، وذلك اما نتيجة بيع السلع وأشياء اخرى، (الدور، الخيول الـخ...) وإمـا باستخـلاص الضرائـب الجمـركية والاعشـار والضرائـب عن الصيد...

- أموال ترسلها المصالح المركزية: أمين صندوق القصور الملكية، القابض العام بالمملكة، المسؤول المالي عن أسـاطيل الصيد البرتغـالية.. الخ. ولا شك ان هذه الاموال ترسل في حالة وجود المدينة في ظروف صعبـة: حصـار، عصيان القبائـل الخ... وكان يتوصل بها المشرف.

- مصالح تجارية مركزية، وخصوصا من المسؤولين عن «دار الهند» Casa de India و«دار لامينا» Casa de Mina وكانت الاموال المهمة التي ترسل تخصص لشراء المواد الضرورية للمبادلات بهذه المراكز التجارية.

- وكانت بعض المؤسسات الدينية Santa Cruzada وبعض المسؤولين الدينيين (كاهن الكنيسة الملكية) يبعثون بمقادير مالية تخصص على ما يبدو لمؤسسات آسفي الدينية.

- كما كان «الفيطور» «والمشرف» يتوصلان بمقادير مالية من بعض الافراد. ولا ندري سبب ذلك.

الطرق التجارية

وصلتنا بعض الاشارات المتعلقة بالطرق التي كان الجنود البرتغاليون يسلكونها حين تحركاتهم داخل المنطقة، وخصوصا ما بين شمالها وجنوبها. وهكذا كانت بعض المراكز عبارة عن محاور أساسية كتازروت على الطريق المؤدية من المدينة الغربية الى الحوز، وكان المرور ما بين أزمور والمدينة الغربية يتم بالقرى التالية: كليز، تارتير، المدينة، أوكليز، تيط، المدينة الغربية(105) ولكن مرور الجنود بهذه القرى لايعني أن القوافل كانت تفعل نفس الشيء. لقد تم التخلي عن الطريق المحادية للتانسيفت للربط ما بين الحوز وأغمات من جهة، والساحل وأكوز من جهة ثانية، بعد أن حلت آسفي محل هذه المدينة الاخيرة. ومر ابن الخطيب في طريقه الى آسفي من منطقة بني ماكر.(106)

ولكن الاعتماد على الطريق الاقصر، المارة قرب بحيرة زيما (الشماعية الحالية) كان اكبر. وتعززت طريق اصبحت تربط ما بين الشياظمة وآسفي.(107) وكان من أسباب الحاح البرتغاليين وعملائهم على هذه المنطقة بالغارات (1515) هي محاولة خلق طريق بري ما بين السوس (اكدير) ودكالة (آسفي)، وذلك لتغطية النقص في المواصلات البحرية.(108) وكانت القوافل التجارية تفد على أزمور من التادلة، (لم يذكر وصولها الى آسفي) ومن الشاوية وسلا.(109) ولكن الاتصال مع المنطقتين الاخيرتين كان معاكسا من طرف النهر الذي كان يفتقر الى قنطرة، وذلك رغم وجود معبر على بعد 15 كلم من أزمور.(110) ولهذا فكر المسؤولون البرتغاليون بهذه المدينة في بناء قنطرة، وحددت المساهمة المالية لبعض الفئات(111). ولكن المشروع لم ير

النور. واستمر الاعتماد في عبور النهر على القوارب. واصبحت هذه المهمة تكترى لبعض البرتغاليين. واشترط على أول مستفيد توفير العدد الكافي من القوارب مما يدل على اقبال كبير على أزمور من طرف الشاويين.(112)

ولم يكن الاعتماد على البحر ما بين آسفي وأزمور مهما لافتقار المدينتين الى سفن خاصة بهما. ولكن هذا الاتصال البحري لم يكن منعدما.(113) كما وصلتنا اشارة عن وجود اتصال بحري ما بين آسفي وماسة قبل احتلال الاولى.(114)

(ب) المسؤولون التجاريون والمناصب التجارية والمالية

كان الوكلاء التجاريون "Feitores" يشرفون على المتجر الملكي "Feitorias" ويهتمون بكل ما يتعلق بالمبادلات: بيع السلع المستوردة واقتناء السلع التي يرغب فيها الملك أو وكلاؤه التجاريون الآخرون. وكان يساعده قابض بالفيطورية.

وتنحصر مهام المشرف (Almoxarife) فيما يتعلق بالتموين، فهو الذي يكلف في جل الاحيان بشراء الحبوب لحساب الملك. واصبح المنصب مدمجا مع الفيطور(115) بعد تراجع الرواج التجاري.

وكان الكنتدور "Contador" أو المحاسب يهتم بالمالية، فهو المسؤول الاول عن أموال الملك بالثغر، وكان كذلك المسؤول عن الرواتب. وهو الذي يحدد - بحضور القبطان - قيمة الضرائب ويشرف على استخلاص الجمارك والمكوس. واشارت بعض الايصالات المتعلقة به الى مصاريف الترميم والبناء والمصاريف العامة الاخرى.

وكان اشهر كنتدورات آسفي Nuno Gato الذي شغل هذا المنصب في نفس الوقت بأزمور.

وكان المتصل (؟) Almotacel أو المحتسب يراقب الاوزان والمكاييل والأثمان... الخ واثبتت وثيقة وجوده بسوق بالشاوية قبالة أزمور.(116) وعين في بعض الاسواق قائد يسمى «قائد السوق»، ربما كانت مهمته تتعلق بالامن.(117)

من هم التجار؟

كان الملك البرتغالي أكبر مزود لسوق آسفي وأزمور، وكان اكبر زبون بهما. فكل السلع التي وردت بالايصالات ملكية. لذا أعار اهتماما كبيرا لتقلبات الطلب والاثمان، وحرص على احتكار السلع الاكثر رواجا. وكان البعض يتعامل معه في هذا الباب لا كملك وكسياسي، ولكن كمضارب كبير.[118]

ورغم ان العمليات التجارية الملكية كانت مسيطرة، فان التجار الاحرار من برتغاليين واسبان، ومن سكان جزر الكناري، ومن فرنسيين[119] كانوا كثيرين بكل من آسفي وأزمور. ويدل على هذا القانون المتعلق بتصدير حبوب دكالة.

وكان بعض يهود آسفي وأزمور اما تجارا احرارا واما وكلاء. فلقد عملوا على جمع السلع الاكثر رواجا واعادة بيعها للبرتغاليين كالقمح والحنابل والحياك، وكانت أسرة ابن زاميرو أكثر اليهود نشاطا، وأغناهم. واصبح أفرادها يحتكرون بيع الانسجة الصوفية والصمغ ويكترون «جمارك» آسفي. وكان أحد يهود أزمور وكيل القائد العطار بهذه المدينة.[120]

وبقيت القوافل تفد على آسفي من الحوز ومراكش على الخصوص، في حين استمرت في إقبالها على أزمور من الشاوية وسلا وهسكورة والتادلة. وعمل قائد سلا، وخصوصا القائد العطار (التادلة) على الاستفادة أكثر ما يمكن من الرواج التجاري. ومن القوافل التي كانت تصل أزمور ما كان ملكا لهما.[121] ولقد اصبح القائد العطار مزودا كبيرا للبرتغاليين في ميدان الحبوب والشمع والحياك كما تدل على ذلك عدة اشارات ورسالة بعث بها الى قبطان أزمور[122]. وازداد اهتمامه بالتجارة مع الايام، وعقد مع البرتغاليين عدة صفقات كبرى أهمها تلك التي عقدها مع الملك نفسه سنة 1530: فلقد اشترى من التوابل والصمغ وغيرها ما قيمته 5508 «كروزادو»، (200 203 2 ريال) على ان يؤدي نصف الثمن شمعا والنصف الثاني حياكا وعبائن.[123]

وبذلك استغل الحكام نفوذهم ووزنهم السياسي (قام الملك البرتغالي بهذه التسهيلات التجارية مقابل موقف العطار «المتفهم») لمضايقة التجار الاحرار.

وقـام السلطــان نفســه ومــولاي ابــراهيم قائــد الشــاون ووزير السلطان الوطاسي بنفس العمل «بمملكة فاس». ولم يمنع التجار الاحـرار كما لاحظنـا من المجيء الى الموانيء شريطة ان يؤدوا الضرائب. ولكنهم منعوا من التعامل في بعض المواد التـي كانــت حكراً على الملك كالصمــغ والبــردات والتوابــل والانسجــة الصوفية[124] ، زيادة على المواد المحرم بيعها للمسلمين من طرف البابا. ولكن اقبال المغاربة الكبير على الاسلحة ومستلزماتها، وبقاء عدة موانيء لا تؤدى بها الضرائب دفع التجار الجنويين والاسبان والفرنسيين الى الاقبال عليها ملحقين بذلك الضرر بتجارة الملك بالثغور المحتلة الجنوبية. وازدهر التهريب كما سنرى بمبايعة الشرفـاء السعديين. كما ان الملك البرتغالي نفسه اضر باحتكاره لبعض السلع، اذ نتج عن تعاقده مع بعض كبار المسؤولين المغاربة (مولاي ابراهيم مثلا) وصول السفـن الى موانيء الشمال الحرة محملة بالصمغ وغيره مما سبب، ان صحت رواية القبطان (أ. ليط)، ركودا تجاريا بأزمور[125] . وفـرض المسؤولـون البرتغـاليون على كل السلـع الداخلة أو الخارجة من الثغور الدكالية أداء العشر باستثناء السلع الملكية المحتكرة (البردات والصمغ) والخمر[126] . ولكنهم أعفوا أحيانا سلع بعض المتعاملين معهم، وذلك لاغراض سياسية، كما فعلوا مع القائـد العطـار، وشريكه يعقـوب الـديب بأزمور[127] . وذلك بأمر ملكي (1524) . وأصبح الواجب الجمركي 5٪ فقط بعد تراجع النفوذ البرتغالي[128] .

واذا كنـا نجهـل مقـادير ما تم الحصـول عليه من المكوس، فان الايصـالات سمحت بأخذ فكرة عن مداخيل الجمارك بآسفي وأزمور.

فلقد اعطت الضرائب الجمركية بآسفي ما بين يونيو ودجنبر 1512 : 200 الف ريال، مما يعطي معدلا يصل الى أكثر من 1100 ريال يوميا أي تسويق ما قيمته 111 الف ريال يوميا[129] ولأخذ فكرة عن الرواج الذي عرفته آسفي آنذاك نذكر انه كان بمرساها في احد ايام ربيع 1514 خمسون مركبا[130] .

وأصبـح الاشراف على الجمارك يكتـرى بالمزايدة العلنية[131] . وكان المكتـرون برتغاليين، وشركاؤ هم أحيانا يهودا، خصوصـا من أسرة ابـن زمـيرو (ليفـي مايل

بآسفي، الايصال 11 ، واسحاق بأزمور (1529)) وبلغ ثمـن الكـراء سنة 1520 : 165 000 ريال.

وارتفعت تدريجيا عائدات الجمارك، فكانت بالنسبة لأزمور ما بين 1 يناير 1514 و مارس 1517 كالتالي: اعشار السلع: 151 422 ريال

الجمارك : 1 175 700 ريال

وسمحت جمارك **آسفي** بالمداخيل التالية:

الايصال الثامن (1510 - 1512) : 568 416 ريال

- الايصال التاسع (1515 - فبراير 1516) : 2 247 444 ريال
- الايصال العاشر (1513 - 1519) : 457 946 ريال كراء
- الايصال العاشر (1520) : 165 000 ريال
- الايصال الحادي عشر (1516 - 1518) : 2 096 717 ريال، مردود الجمارك المذكورة، وهو قسم من : 2 650 000 ريال حصيلة الجمارك المذكورة لسنوات 1518, 1517, 1516,
- الايصال الحادي عشر كذلك: من 11-2 الى 23-8-1519 : 564 713 ريال
- الايصال الثالث عشر: 12-8-17 /13-3-1521 = كراء 112 000

(3 سنوات و 6 أشهر)

- الايصال الرابع عشر: (15-9-1519 /16-7-1522) = 1 574 519 ريال

أي أكثر من 46 000 ريال شهريا مما يعطي فوائد أعلى مما حصل عليها في ستة أشهر سنة 1512 .

وكان البعض يؤدي الاعشار سلعا(132) . ومعنى هذا ان العمليات التجارية لم تتأثر بسرعة بالتحول السياسي الذي عرفته المنطقة بعد 1516 وخصوصا 1518 ، وان عصيان القبائل لم يؤد اتماتيكيا الى ركود تجاري بآسفي. وهذه الوضعية مخالفة لما لاحظناه بشأن الحبوب.

3 - أهم السلع

لقد كانت السلع التي روجها الوكلاء التجاريون كثيرة جدا كما تدل على ذلك نسبة المبيعات من مجموع ما كان في حوزتهم من أموال. ولقد ارتفعت هذه المبيعات تدريجيا، وفاقت المبيعات احيانا نصف ما كان بحوزة الفيطور او المشرف من أموال: فمن مجموع 494 381 17، بلغ مجموع ما بيع من السلع 962 147 12 ريال (الايصال 11) (وعن باقي الايصالات انظر السلم البياني). ومعلوم ان هذه المبالغ لا تشمل الا التجارة الملكية، ولكنها تعطي مع ذلك فكرة عن الرواج التجاري واقبال الدكاليين على السلع المستوردة.

(أ) وسيطرت الانسجة سيطرة مطلقة على السلع المعروضة بآسفي.

وكانت هذه الانسجة نوعين: مغربية ومستوردة.

- الانسجة الصوفية المغربية: ارتبط اقتناؤها بأزمور، وخصوصا بآسفي بتجارة سواحل افريقيا المنتجة للذهب، والتي يشترى منها العبيد. كما كان الملك يشتري لنفسه بعض الحنابل الدكالية [133]. وحظي شراء وانتاج هذه الانسجة باهتمام ملكي كبير: فهو الذي كان يصدر الاوامر المتعلقة بالشراء، ويحدّد النوع. [134] وقد توحي الايصالات بتوقف اقبال البرتغاليين على هذه السلعة الدكالية، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك، اذ بقيت هذه السلعة أهم ما يروج بأرغين، وأصبحت تعرف باسمه، كما كانت أهم سلعة تعرض (بلامينا) [135]. ويعود صمت الايصالات عن ذكرها الى تكليف الملك البرتغالي أخ أبرهم بن زميرو، «يهودًا»، ويهوديا آخر هو «مايل ليفي» بشرائها وانتاجها [136]. ومع ذلك بقي الفيطور في بداية الامر يشتري هذه الانسجة رغم انتاج «ليفي» لمائة حنبل، وبلغ مجموع ما اشتراه 000 900 ريال [137].

واشترى مرة أخرى 1000 «كسوة» بأمر ملكي [138]. ولكن سرعان ما أصبح الشراء والانتاج بيدي اليهوديين اللذين كانا ينتجان اعتمادا على أشكال كان الملك يبعثها اليهما. وكلما عجزا عن تغطية كل حاجيات الملك بالانتاج والشراء بآسفي كانا

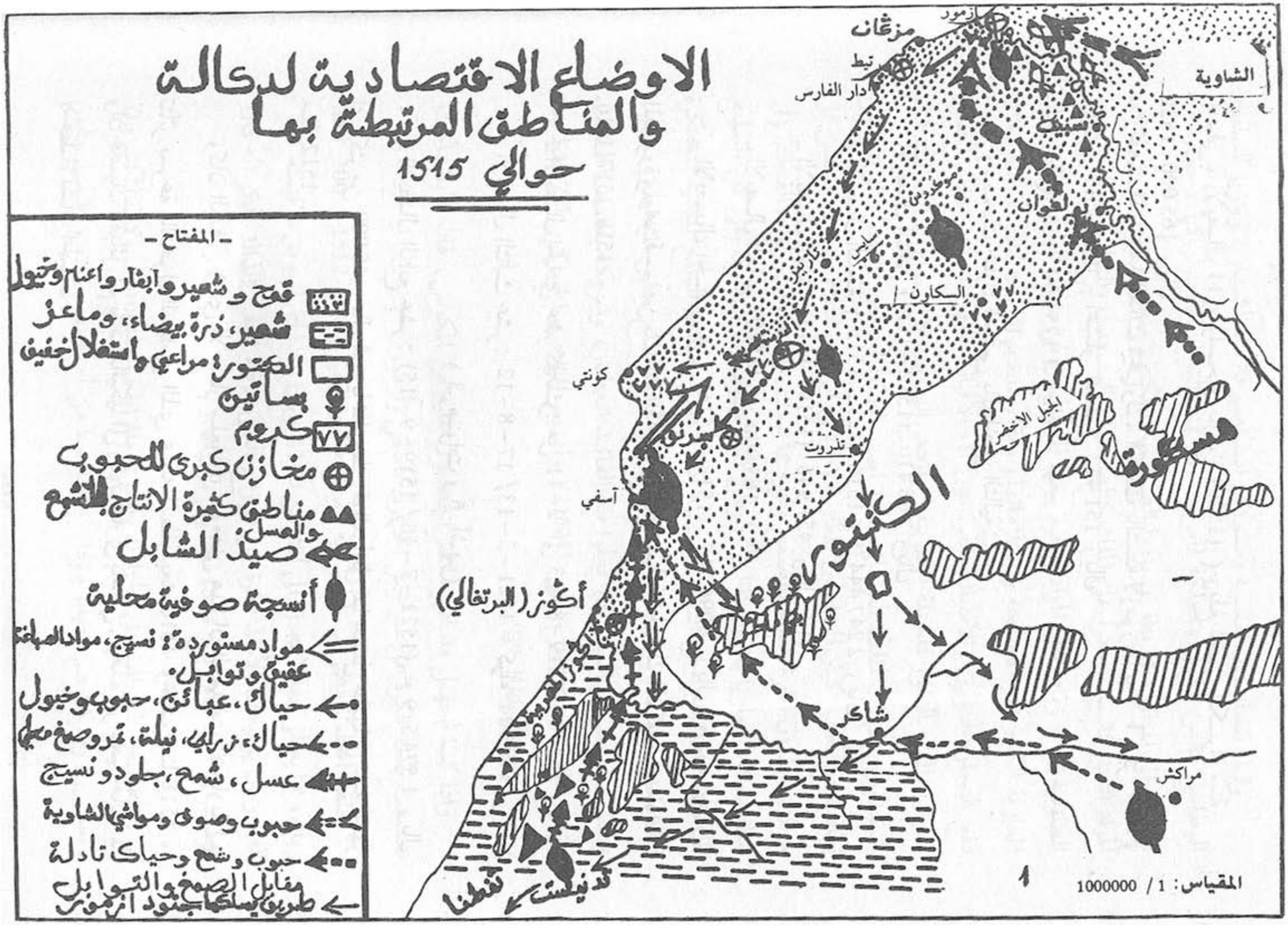
الاوضاع الاقتصادية لدكالة والمناطق المرتبطة بها
حوالي 1515
- المفتاح -
قمح و شعير و ابقار و اغنام و خيول
شعير، ذرة بيضاء، و ماعز
الكثبور، مراعي و استغلال خفيف
بساتين
كروم
مخازن كبرى للحبوب
مناطق كثيرة الانتاج للشمع والعسل
صيد الشابل
أنسجة صوفية محلية
مواد مستوردة: نسيج، مواد الصباغة عقيق و توابل.
حياك، عبائئ، حبوب و خيول
حياك، زرابي، نيلة، تمر و صمغ ...
عسل، شمع، جلود و نسيج
حبوب و صوف و مواشي الشاوية
حبوب و شمع و حياك تادلة مقابل الصمغ و التوابل
طريق يسلكها جنود ازمور
الشاوية
مزغان
ازمور
تيط
دار الفارس
سبيت
موقدوس
لقوان
السكاون
كونتي
تدروت
آسفي
الجبل الاخضر
مسكورة
الكثبور
أكوز (البرتغالي)
شاكر
مراكش
المقياس: 1 / 1000000

يلجآن الى خارج دكالة، كما فعل «مايل ليفي» في نونبر 1514 بالحوز حيث اشترى ما قيمته 300 أوقية من «أنسجة أرغين»، مع أنه كان يملك في نفس الشهر 2 000 من الحياك و 100 من الحنابل(139) .

وبهذا يكون تزايد الطلب على هذه السلعة في وقت تراجع فيه الانتاج بآسفي كما سنرى، هو ما حدا بالملك الى تكليف اليهوديين بالانتاج والشراء محدثا بذلك تمركزا ماليا مهما في هذا القطاع. ولا شك في انه اضر بذلك بالمنتجين الصغار لاحتكار اليهوديين للسوق.

وفي سنة 1519 تم الاتفاق ما بين الملك وبعض اليهود على ان يسلموه في ثلاث سنوات 9 000 «كسوة» (حائك)، اي 3 000 لكل سنة.(140) ولا شك في ان هؤلاء اليهود كانوا من اسرة ابن زميرو، لان الايصال العاشر الذي يغطي الفترة الممتدة ما بين 1513 - 1519 ذكر انهم كانوا يحتكرون شراء وبيع تلك الانسجة الصوفية.

وكان من الشروط المتفق عليها مع القائد احمد العطار ان يؤدي نصف ثمن الصفقة التجارية التي عقدها ممثلوه بلشبونة من الحياك، على ان يكون الانتاج على الشكل الذي سيقدمه فيطور أزمور، وان تسلم السلعة بعد سنة ونصف من توصله بالتوابل والصمغ وغيرها.(141) وبقي الانتاج والشراء على الطريقة التقليدية رغم هذا النوع من التمركز والاحتكار.(142) ولم يتأثر انتاج وتسويق هذه الانسجة بالظرفية السياسية، اذ اشترى الفيطور كمية منها سنة 1529 .(143)

ورغم تعدد الاشارات المتعلقة بتجارة هذه الانسجة، لم نتوصل ولو باشارة واحدة عن أثمانها (أنظر الجدول الثاني). وكانت الكميات من الانسجة الصوفية التي تم شراؤها بآسفي كالتالي:

جدول رقم 2
الانسجة الصوفية المحلية الصنع التـي وردت بايصـالات آسفي

النوع	الايصال 1	2	3	4	5	6	8	13	المجموع
حنابل عبائن	2455	602	17	7325	101	972	9700	137	21 409
حياك «كسوة»	7 477	8 265	9 781	3273		+ 293 900 000 ريال		26 930	58019
جلابيب	12 220	10 460	3 232					104	26 016
برنوس	01		19						20
قبعات «بربرية»		2 085	12 452	132			934		15 603

وكانت الكميات التي وردت في الايصالات المتعلقة بأزمور قليلة جدا. فلقد جاء في الايصال الاول شراء 115 «فرا» من الحياك و 20 حنبلا. وجاء في الايصال الثالث: 190 «كسوة» و 240 حائكا.

(أ) الانسجة المستوردة:

أستأثرت بدورها باهتمام الملك لان بيعها كان يغطي قسما من تكاليف إدارة آسفي كالرواتب مثلا، ويغطي قسطا من اثمان السلع التي تشترى بتلك المدينة. وكانت بعض الانسجة مهمة الى حد انها اصبحت تقوم مقام العملة، وتؤ دى بها الرواتب.

ويتجلى اهتمام الملك بهذه الاثواب في شيئين: في الامر الذي توصـل به وكيلـه

التجاري «بفلندرا» القاضي بتخصيص قسم من ثمن البهار لشراء أثواب انجليزية «لآسفي والمغرب».[145] كما يتجلى كذلك في الاستشارة التي طلبها من أحد التجار المتعودين على الذهاب لآسفي حول الاثواب الاكثر رواجا بها[146]

وتؤكد كل الوثائق ان اكثر هذه الاثواب رواجا بآسفي وأزمور ـ وكذلك اكدير ـ هي البردات[147] . (Bordates) التي تسمح بأهم ما تسمح به الاثواب من ربح، وتباع بسرعة.[148] وكان بيعها حكرا على الملك الذي عجز عن تزويد السوق بالكميات الكافية، مما كان يدفع بالتجار الى الالتجاء الى الموانيء الحرة لاقتنائها[149] (ماسة، أزمور قبل احتلالها)

وتوصلت آسفي بما يلي من البردات:

الايصال، 1	2	3	4	8	9	11	12	15
4316 قطعة	4560 قطعة 129 فرا (Varas)	616 قطعة	3731 قطعة	6316 قطعة	7985 قطعة	10419 قطعة	10080 قطعة (150)	10397 قطعة

المجموع: 48391 أو 48411 قطعة

وكان ما دخل متجر أزمور أقل بكثير لان أهم نشاط كانت تعرفه هذه المدينة هو الصيد: فلقد دخلت المتجر ما بين 1514 - 1517 - 8526 قطعة (الايصال الثالث). وكانت هذه الاثواب القطنية نوعين: نوع جيد، بلغ ثمن كل «قطعة» منه 450 ريالا نهاية 1510[151]. وانخفض بعد ذلك ليصبح 410 ريال سنة 1526[152] (أكتوبر) في حين كان ثمن النوع العادي 420 ريالا في التاريخ الاول، وانخفض بعد ذلك الى 367 ريالا ليصبح في التاريخ الثاني 340 فقط.[153]

وتلي البردات من ناحية الرواج، الاثواب الانجليزية. وأشهرها وأكثرها رواجا

ما كان يعرف بأنطونا "Antona" ، والتي كانت تجلب من ميناء Southampton الموجود جنوب انجلترا(154) . وكان اقبال الدكاليين كبيرا على الملون منها بالازرق الغالق. وضمنت هذه الاثواب للملك ربحا ذا بال: 3290 ريالا عن بيع كل قطعة تشترى بـ 3430 ريالا. في حين كانت توفر قطع صغيرة تعرف بـ «النصص» "Ansese" (النصف؟) ربحا يصل 300 ريال اي قرابة 100 ٪ من ثمن الشراء. (ثمن الشراء والجمارك 330) .(155) وذكر صاحب التقرير المرسل الى الملك جوابا عن استشارته، ان آسفي قادرة خلال سنة على استهلاك نصف أو ثلثي المائة قطعة من الثوب والالفي «أنصاص»، والتي خصص لها الملك مليون ريال. وسمح للتجار الاحرار بجلب هذه الاثواب الى آسفي(156) ، وبجلب اثواب اخرى انجليزية وهولندية وارلندية وفرنسية واسبانية وايطالية.(157)

وكانت مختلفة الانواع والالوان، فكان منها الملف، والكتان، والاثواب القطنية والصوفية والخشبية المستعملة في التلفيف. وكان قسم من هذه الانسجة المستوردة يروج بالمناطق الداخلية القريبة من دكالة(158) . ويلاحظ انه لا يوجد ولو نوع واحد من الاثواب تم صنعه بالبرتغال.

(ب) العقاقير ومستلزمات النسيج

وجلب التجار البرتغاليون ووكلاء الملك الى آسفي وأزمور عددا من المواد الضرورية للصباغة. وكان أهمها الصمغ الهندي الذي كان بيعه محتكرا من طرف الملك.(159) وكان الاقبال عليه بآسفي مهما الى حد جعل البعض يظن أنها قادرة على تسويق كل ما ترسله الهند من هذه المادة.(160) ولهذا جعل الملك منه «سلعة عملة» تؤدى بها الرواتب، وتعطى كأداء عن السلع التي تم شراؤها بالثغور. ونظرا لهذه الاهمية أنعم الملك ببعض الصفقات من هذه السلعة على من سهلوا مهمة البرتغاليين، أو على من كان الملك يرغب في تواطئهم. ولقد سبقت الاشارة الى ان ذلك كان سبب توصل القائد العطار بمائة قنطار. كما استفاد مولاي ابراهيم والسلطان احمد الوطاسي من نفس الشيء وذلك لدفعهما اكثر الى التقرب من البرتغال. وهذا الصمغ الهندي نوعان:

ـ نوع اسود: وهو الجيد وكان ثمنه في يونيو 1512 خمسين (50) مثقالا (قرابة 21 الف ريال) للقنطار البرتغالي(161) . وارتفع الثمن ليصبح في 15 دجنبر من نفس السنة 55 مثقالا.(162) ولكنه انخفض بعد ذلك واصبح 40 كروزادو،(163) (اقل من 40 مثقالا)

ـ نوع أحمر، وهو أقل جودة. وكان ثمنه في دجنبر 1512: 36 مثقالا للقنطار(164) . وأصبح بيع هذا الصمغ في كل المغرب حكرا على أبناء زميرو الذين تعاقدوا مع الملك في هذا الشأن(165) . وباع اسحاق بفاس كميات نقلها من أزمور(166) . وتمت صفقات مع الوطاسيين ومولاي ابراهيم(167) .

وكانت تضاف الى هذا الصمغ بعض المواد الضرورية كالشب والطرطار(168) . ودخل المتجر من النوع الاول كميات مهمة، وان كان استيراده غير دائم.

واشارت الايصالات ثلاث مرات الى جلبه الى آسفي، وكان ذلك في كميات مهمة: 27 قنطارا في الايصال الاول، 17 ق في الرابع، و 64 في الحادي عشر.

ويلي الصمغ من ناحية الكميات الكبريت رغم تحريم (البابا) بيعه ببلاد الاسلام. والظاهر ان استعماله اقتصر على ميدان الانسجة الصوفية. ويلاحظ تراجع استيراد هذه المادة، ذلك ان الكميات المهمة تناسب فترة ولاء آسفي. ولا ندري مصدرها، وان كان من المعتقد ان البرتغاليين جلبوها من «فلندرا» .(169)

وكان حجر الشب يضاف في الصباغة الى المواد الاخرى، وخصوصا للصمغ وكان يستعمل أيضا في الدّباغة. وكان يجلب من الشرق،(170) وعرف استيرادا اكثر انتظاما من الكبريت، وإن كان في كميات أقل. وكانت سجلماسة تنتج نوعا أبيضا، كان يصدر من موانيء الابيض المتوسط(171) .

وعرضت بسوق آسفي كميات مهمة من حب القرمز.(172) وصدرت من مينائها نيلة درعة. ولكن الكميات كانت قليلة وسرعان ما توقف شراؤها من طرف وكلاء الملك التجاريين. وكان الصوف من مواد النسيج الخامة التي كانت دكالة كثيرة الانتاج لها. والغريب ان الايصالات لم تشر الا ثلاث مرات لتصديره بآسفي وأخرى بأزمور.(173) ولكنها كانت تباع بكل تأكيد للتجار الاحرار(174) . وصدر من القطن

275 قنطاراً قبل احتلال آسفي.(175) وخلاصة القول، كانت المقادير التي دخلت متجرآسفي من لوازم النسيج كالتالي: (انظر الجدول رقم 3)

أما الكميات التي توصلت بها أزمور فكانت قليلة جدا (انظر الايصالات المتعلقة بها)

(ج) **التوابل:**

كان الطلب عليها أقل مما كان على الصمغ او البردات(176) (نهاية 1510) وكان البهار أهمها من ناحية الوزن. وهو نوعان:

ـ بهار أسيوى: وهو الجيد، وارتفعت مقاديره مع السنين ارتفاعاً كبيراً: (من 1 ق الى 39)

ـ بهار غيني: (Malaguetta) كان أقل جودة وأرخص ثمناً. وسبق النوع الأول الى سوق آسفي، ولكن تسويقه عرف تراجعاً بتزايد وصول النوع الأول.

وكان الزعفران ـ الذي كان يستعمل كذلك في الصباغة ـ يصل الى آسفي في كميات قليلة مما يدل على انه كان يستعمل فقط في التغذية. وارتفعت كميات «القرفة» بعد احتلال آسفي، الشيء الذي عرفته كذلك كميات القرنفل.

وكانت كميات الزنجبيل قليلة، زود بها المتجر مرتين فقط، وذكر احد التقارير ان الاقبال عليه كان قليلا جدا.(177)

وكانت المقادير التي توصل بها متجر آسفي من التوابل خلال الفترة التي تغطيها الايصالات كالتالي: (انظر الجدول رقم 4).

ودخلت متجر أزمور كميات قليلة جدا من هذه التوابل، 73 قنطارا من البهار الاسيوي (الايصال 3) و1 «ربع» من الزعفران (الايصال 1). وبهذا يكون البرتغاليون قد عودوا المنطقة على استهلاك مواد كمالية: عقاقير وتوابل، وأرغموها ـ مقابل ذلك ـ على تسليم مواد اساسية وحيوية: حبوب، مواشي وصناعات محلية...

ويتجلى تعود الدكاكين على استهلاك التوابل في المثال التالي. فقد جاء على ظهر رسالة بعث بها أحدهم (احمد بن عكو) الى احد برتغاليي أزمور: «... ونعلمك يا

جدول رقم 3 **مواد النسيج الخامة ومواد الصباغة التي وردت بإيصالات آسفي**

النوع	الايصال 1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	15	المجموع
الصمغ	26 ق 33 ربع 1 رطل	2 ق 9 رطل	104 ق 3 ربع	19 ق 3 ربع 19 رطلا	140 ق 3 رطل	96 ق 1 ربع		272 ق 1 ربع	368 ق 2 رطل	4 1/2 ق	574 ق 4 رطل	128 ق 3 رطل	1744 1/2 ق 22 رطلا
الكبريت		328 ق 90 ليبرة		182 ق 3 ربع			6 ق			4 1/2 ق			722 1/2 ق 3 ربع 90 ليبرة
حجر الشب	27 ق 1 رطل	6 ق 1/2 1 ربع	9 ق 30 رطلا	1 ق		71 1/2 ق 29 ربع		76 ق 14 رطلا	58 ق		193 ق 1 رطل	91 ق 2 رطل	544 ق 34 رطلا
حب القرمز	15 ق 3 رطل	4 ق 2 ربع		1 ق									21 ق 3 رطل 2 ربع
طارطار	23 ق 1 رطل		17 ق 2 ربع								64 ق 27 رطلا		104 ق 28 رطلا 2 ربع
نيلة		12 ق 1 3/4 رطل	14 ق	1 ق 22 1/2 ليبرة									13 3/4 ق
صوف	118 تارسا (؟)		30 تارسا			31 تارسا (؟)							179 «تارسا»
قطن	20 ق 7 رطلا	127 ق 31 رطلا	127 ق 3 ربع	83 ق 18 رطلا									357 ق 3 ربع 56 رطلا

يحيي بن الذيب (الترجمان) بان شيعت مع الرقاصين زوج الداالتيران توقف حتى ينبُع وتشتريلي وزن الداللك بوقيتين ونصف والتلي تشيعو لي دراهم، وانت من عنـدك رطل فلفال يكون مخلوط بالقرفا وسِكن جبير. . .»(179) .

وزيادة على الانسجة والعقاقير والتوابل دخلت المتجر البرتغـالي سلـع اخـرى اهمها:

(د) معادن أو مواد معدنية:

كان البرتغاليون كثيري الاقبال على النحاس ـ الذي كان يجلـب من السـوس والاطلس(180) . واشترى منه البرتغاليون كميات مهمة، مما دفع بالقبطان الى اقتراح سك قسم منه. وكانت تصنع منه بآسفي أساور نحاسية كانت تباع للافارقة السود. (اشتري منها 10 قناطير حسب الايصال 5)

وتوصلت آسفي وأزمور بكميات مهمة من القضبان الحديدية الموجهة للبناء. وكانت في كميات مهمة في بعض الاوقـات (16 ق، ايصـال 1 ، آسفـي). كما استوردت المدينة اعدادا كبيرة جدا من المسامير (10 الف، ايصال آسفي رقم 9) و 18 الف حدوة فرس وعددا من الفؤ وس والموازين. . .

(هـ) وكان العقيق من أهم المواد التي جلبها البرتغاليون لآسفي، وقذفوا دكالة بأعداد هائلة منها، الشيء الذي يؤ كده هذا الجدول:

الايصال 1	2	4	5	6	8	9	11	12
1100 حبة	162400 حبة	170000 حبة	977000 حبة	4 ق 20 ربع	16 ق 22,5 رطلا	6 ق 6,5 رطل	17 ق 2 ربـع 26 رطلا	بيع ما قيمته 97880 ريال ثم 125 096

(و) وهناك سلعة لم تشر اليها الايصالات، وسكتت عنها الوثائق رغم أن البرتغاليين كانوا كثيري الاقبال عليها: العبيد

ويتجلى اهتمام المسؤ ولين البرتغاليين بالعبيد في القوانين والاجـراءات التـي تم

جدول رقم 4 كميات التوابل التي دخلت متجر آسفي حسب الايصالات المتعلقة بهذه المدينة.

النوع	الايصال 1	2	4	5	6	8	9	11	12	المجموع
بهار آسيوي		1 قنطار		1 قنطار	4 قنطار 1,5 ربع	6 قنطار 22,1 رطلا	30 قنطارا	39 قنطارا 26,2 رطلا	بيع 25932 ريال	82 قنطارا 3 ربـــع (177)
بهار غيني	10 قنطار 27 رطلا	8 قنطار 1 ليبرة	7 قنطار 1 ربع و24 رطلا		4 قنطار 22,5 ربع	4 قنطار 1 ربع, 20 رطلا		3 قنطار 1 ربع، 20 رطلا		101 قنطار 1 رطل
قرنفل					5 ربع 29,5 رطلا	7 قنطار 1 ربع، 5,5 رطل		7 قنطار 21 رطلا		16 قنطارا
زعفران	60 رطلا 21 ليبرة	30 ليبرة 5 أواق	28 ليبرة 2 أوقية							60. رطلا 79 ليبرة
قرفة				3 ربع		2 ربع	4 قنطار 1 ربع، 18 رطلا	5 قنطار 3. ربع، 16 رطلا		11 قنطار
زنجبيل				1 قنطار		2 قنطار 1 ربع				2 قنطار 1 ربع

اتخاذها لاستثمار ما يدخل البرتغال من عبيد، وذلك اما في النشـاط الفلاحـي، أو بتصديرهم الى الدول الأخرى(181) . ويتجلى كذلك في كونه شغل بال كل المسؤ ولين وعلى رأسهم هنري «الملاح»(182) ، وكذلك التجار الاحرار(183) ، وحتى الكنيسة التي تورطت في هذه التجارة(184) . واذا حصّل البرتغاليون بالشراء على كل من دخل بلادهم من سواحل «غينيا» وخصوصا من حصن أرغين ولامينا، فان البرتغاليين ـ وكذلك الاسبان ـ اخذوا عددا مهما من الرجال والنساء من المغـرب وذلك بطـرق مختلفة.

فلقد سمحت الغارات والحـروب للبرتغـاليين بالحصـول على الاسرى الـذين يباعون بالثغور قبل ان يتم نقلهم الى البرتغال او الى «ماديرا»(185) . ولتشجيع هذه الصادرات أعفى الفونص الخامس (1455) التجار الذين يدخلون العبيد من سبتة من اداء الاعشار، وبعد 1502 اصبح الاعفاء يشمل كذلك القصر الصغير وأصيلا وطنجة.(186) وكان المحاربون البرتغاليون بدكالة يتنازلون عن كل الغنائم لحلفائهم المغاربة، ليحتفظوا لانفسهم بالاسرى. وكان ذلك يكون موردا مهما بالنسبة لجنود نادرا ما يتوصلون برواتبهم في وقتها اذ كان عدد الاسرى يصل احيانا الى 300 أو 400.(187) ولهذا لم يكن العسكريون ينظـرون بعـين الـرضى الى السياسـة الملـكية بالمنطقة.

وكان هؤ لاء الاسرى يباعون بآسفي أو أزمور حيث كانت السوق منظمة، يأخذ بها ممثل الملك واجبا عن البيع.(188) وعمل الملك نفسه في بداية التوسع على الحصول على بعض اولئك الاسرى، كما كان يفعل بالشمال.(189) ولكن حرصه على تهدئـة المنطقة، وعلى الحصول على ثقة سكانها وخضوعهم للبرتغـال لأهميتهـا التجـارية والفلاحية، جعل الملك يمنع تحويل الاسرى الى عبيد وبيعهم، وذلك بقرار مؤ رخ في 17 مارس 1511 ،(190) ولكن المسؤ ولين بآسفي والمهتمين بهذه التجارة استمروا في عملياتهم السابقة بدعوى انهم لا يشترون الا من كان عبدا اصلا. ومنع الملك سنة 1517 بيع كل الاسرى الذين سيلقى عليهم القبض بعد صدور قراره.(191)

واعتمد البرتغاليون على الاختطافات «وقنص الرجال» للحصول على الاسرى

وكانت هذه الطريقة أول وسيلة استعملها البرتغاليون بعد الفزع الذي طرأ على سكان آسفي بعيد دخول البرتغاليين اليها[192] . واستغلوا ذلك من جديد حين فرار سكان المدينة الغربية بعد سقوط أزمور[193] . ولقد فضح اعيان آسفي سنة 1509 هذه الاختطافات في رسالة الى الملك ذكروا فيها ان ضحاياها كانوا كثيرين:
« . . . قال (العامل دي ازنبوجا) لفرسانك ورجالك ان من أصاب منهم ما يشتري من المسلمين في الخفا يشتريه، وبهذا الامر يا مولانا عادت رجالك تشتري في المسلمين ويأخذونهم غصبا وقهرا، وعادت السراق من المسلمين واليهود يسرقون أولاد العربان والمصامد. وكان بآسفي يا مولانا كثير من ضعفاء العرب الذين ما كان عندهم بهايم للرحيل، ولا كان لهم جهد عليه، فسرقت أولادهم وأخذت غصبا وكذلك أولاد المصامد والمسروقين من العربان. . . من دخل منهم لآسفي ما يرجع لاهله؛ وعاد كل أحد يسرق ويبيع حين اصاب من يشتري منه حتى انغدر الكثير منهم الذي ما عرفنا له عدد من أهلن برا وأهلن البلد؛ وطلعوا لبلادك، والكثير منهم طلع لجزيرة الخشب. . . »[194]

وفضح يحيى أوتعفوفت سنة 1517 هذه الاساليب المستعملة من طرف القبطان والكنتدور وبعض مساعديهما .[195]

وتعوّد القباطنة على القيام بنفس الشيء الذي وجدوا فيه موردا مهما .[196] وكان بعض الدكاليين يختطفون عناصر من قبائل معادية ويأتون بها لبيعها بالموانىء[197] . ووصلتنا عدة حالات عن هذه الاختطافات التي نظمها البرتغاليون[198] ،ولكن بعض الحالات فضحت، وكان ابشعها واكثرها وحشية ما حدث بآسفي. فلقد قرر أربعة برتغاليين اختطاف اسرة مغربية كانت تعيش قرب آسفي، ولكن المحاولة انتهت بمجزرة: قتل اربعة يهود وثلاثة من افراد الاسرة التي لم يفلت منها الا صبي[199] .

ولقد شجع البرتغاليين على اختطاف الدكاليين وعلى العمل على أسر اكثر ما يمكن منهم، وجود تجار بالموانىء تهافتوا على العبيد. ففي ماي 1512 ، كان الحاخام الكبير ابرهم يملك اربعة أسرى من اولاد عمران، بينما كان عدد آخر في ملكية افراد آخرين. [200] وكان المسؤولون بالثغور يهتمون بدورهم بالشراء[201] . وارتفع الشراء

كثيرا بعد اندلاع مجاعة 1520 - 1521 .(202) ورغم أن هذه المجاعة شملت المغرب كله، فانها لم تعرف خطورة مثلما عرفتها بدكالة. فلقد نتج عن انعدام المواد الغذائية ان اصبح الدكاليون «. . . يتملصون من بعضهم البعض، وكانوا يبيعون انفسهم لمسيحيي الثغور بثمن بخس جدا حتى انهم يعطون مسلما أو مسلمة مقابل قفة من التين او من عنب دمشق (. . .) لقد كانت المجاعة عامة الى حد انه لم يعد اي شيء ارخص من الانسان. . .»(203) ولهذا اقبل التجار على المدينتين - آسفي وأزمور - من كل مكان، وتخلى عدد من التجار عن شراء الشابل لشراء الرجال والنساء.

وكان المعرضون على البيع يقنصون من طرف قناصين مغاربة كان اكبرهم يعقوب بن الغربي الذي سبق لنا ان تعرفنا إليه. ولكن عدداً كبيرا منهم لم يكن في حاجة الى الاكراه، اذ دفعتهم الفاقة الى القدوم من تلقاء انفسهم لعرض ذويهم اولا، ثم انفسهم بعد ذلك. وكان الشراء مهما اذ كان يباع يوميا بأزمور ما يقرب من 1000 شخص. وغادر ميناء هذه المدينة في يوم واحد خمسون مركبا محملا بالدكاليين. ويقدر عدد من دخل منهم اسبانيا بحوالي 60 الف شخص. ورغم هذا الاقبال، بقيت الاثمان منخفضة جدا، وكان بامكان التجار الاختيار، ولم يكونوا يقتنون الا النساء والاطفال وخصوصا الشابات(204) : «. . . لانه لم يكن احد يريد شراء الرجال والنساء. . .»(205)

4 - وتفرض علينا هذه المبادلات التي عرفتها آسفي وأزمور عددا من الملاحظات.

1 - احتفظ البرتغاليون بالتيارات التجارية القديمة ما بين عدوتي الابيض المتوسط وحلوا محل الجنويين، والكطلين، وتجار جنوب فرنسا. واكتفى البرتغاليون بعرض وشراء السلع التقليدية. ولكنهم احدثوا تحولا في المراكز التجارية الاكثر رواجا اذ حلت آسفي محل سبتة في القرن 16 . ولكن البرتغاليين وسعوا هذه التيارات لتشمل كل المناطق التي اصبحت تابعة لهم: سواحل افريقيا وآسيا، أو أصبحت مرتبطة بهم تجاريا: جنوب اوربا وشمالها. وبذلك استطاعوا اعطاء انفسهم امبراطورية تجارية عظمى. واصبحت دكالة من العناصر المهمة ان لم نقل الاساسية داخل هذه الامبراطورية، اذ اصبحت اكبر مزود للبرتغال بالمواد الضرورية للتجارة بسواحل

افريقيا، واكبر خزان للحبوب بالمغرب، واكبر سوق بافريقيا كلها لصمغ الهند، وكذلك للانسجة الاوربية. ولاعطاء فكرة عما كانت تضمنه آسفي من أرباح نورد المثال التالي: فقد مكن الرواج التجاري الذي عرفته في هذه الحقبة، من بيع كميات مهمة من الانسجة، والصمغ غطت مصاريف جد مرتفعة. فحسب «المشرف» مكنت تلك المبيعات من أداء المعاشات والرواتب والمؤونة مما تطلب 600 000 ريال عن كل ثلاثة اشهر، توزيع 200 000 ريال كرشاوي، تسليم 700 000 ريال للكنتدور لتغطية مصاريف البناء، 900 000 ريال من الاثواب الصوفية لارغين(206).

2 ـ ولكن اندماج دكالة داخل هذه التيارات التجارية الدولية لم يكن تلقائيا ووليد تطور اقتصادي داخلي. لقد كان وليد تحكم البرتغاليين فيها اولا اقتصاديا، ثم بعد ذلك سياسيا واقتصاديا.

وهكذا اقحمت في تيارات لم تكن منذ البداية في صالحها. فلقد اضطرت الى تصدير مواد اساسية كانت سبب حيويتها وصمودها في وجه المجاعات (الحبوب) وسبب كثرة سكانها.

حقيقة ان دكالة كانت دائما مصدرة للحبوب، ولكن الخطير هو ان البرتغاليين احدثوا نزيفا خطيرا حال دون توفر المنطقة على المدخرات. ونتيجة هذه الوضعية ارغمت المنطقة بعد ذلك (خصوصا وقت مجاعة 1520 - 1521) على تسليم طاقاتها الانتاجية نفسها للبرتغال. وبهذا يكون البرتغاليون قد ادخلوها في الحلقة المفرغة السابقة الذكر، والتي لم تستطع الافلات منها: قلة المدخرات ـ انخفاض خطير في عدد السكان في حالة جفاف ومجاعة ـ انخفاض في الانتاج ـ قلة السكان ـ قلة الانتاج وهكذا.

ويتجلى تضرر المنطقة كذلك من خلال انواع السلع المتبادلة. فاذا كانت تسلم مواد ضرورية (حبوب، حيوانات، رجال، انسجة صوفية)، فان البرتغاليين ارغموها، نظرا لشللها وافتقارها للسفن التي تسمح بعرض سلعها في المناطق

المستهلكة، كما كان الحال خلال القرون الوسطى، على اخذ مواد غير ضرورية، كمالية أو تافهة. فلقد أغرقوا المنطقة بكميات هائلة من العقيق والعقاقير والتوابل، وأكثر من هذا من مادة كان انتاج المنطقة لها مهما: الانسجة.

3 - ونظرا لهذه المكانة التي اصبحت لدكالة خلال القرن السادس عشر، حظيت باهتمام كبير من طرف المسؤولين البرتغاليين وعلى رأسهم الملك. وما تلك التنازلات السياسية المهمة والمتتالية الا دليل على ذلك. فاذا كان الملك قد سكت عن سياسة «الارض المحروقة» المتبعة في الشمال، وعن اختطاف الرجال والانعام، فانه منع ذلك منعا صارما بدكالة، وعمل باستمرار على الحصول على ثقة القبائل، ودفعها الى الانتاج والى الاقبال على آسفي حتى ولو كانت في حالة عصيان(207). واذا كان بعض القباطنة قد شاطروا الملك هذا التصور لطريقة تسيير دكالة، (208) فان جل القباطنة وكل الفرسان والنبلاء والمرتزقة كان لهم تصور آخر، وافسدوا على الملك سياسته، وحالوا دون استمرار البرتغال في استغلال خيرات المنطقة.

4 - يمكن الجدول الذي رسمناه اعتمادا على الايصالات من تحديد فترة رواج تجاري خلال العقد الاخير من القرن الخامس عشر، تلتها فترة ركود امتدت خلال العقد الاول من القرن السادس عشر، ولا شك ان لذلك علاقة بالقلاقل التي عرفتها آسفي بعد اغتيال القائد عبد الرحمان وما تلا ذلك من تدخلات برتغالية نتج عنها فرار السكان الى البوادي ومقاطعة المدينة من طرف القبائل قبل أن تقرر محاصرتها. كما يتجلى ذلك في كون المدينة توصلت باموال كثيرة (مصاريف الاحتلال والدفاع عنها) وبمواد غذائية (أنظر كميات الحبوب والبسكويت والخمر) وبعتاد حربي مهم.

ولم يعد الرواج التجاري الا بعد فشل حصار 1510 ودخول البرتغاليين في سياسة جديدة. ويفصح الايصال العاشر (1513 - 1516) عن حالة شبيهة بالحالة السابقة، اذ طغى به كذلك استيراد المواد الغذائية والاسلحة والذخيرة. ويعود ذلك الى ما تلا قتل القبطان أتايد من قلاقل ومشاكل غذائية بآسفي. وبذلك تكون المدينة قد عرفت رواجا لمدة 10 سنوات، خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر

وحوالي 6 سنوات من الركود عند بداية القرن السادس عشر. وتلتها فترة رواج دام زهاء 5 سنوات. . . الخ.

كما يسمح نفس الجدول بتتبع تطور الطلب على السلع. ويمكن تقسيم المدة التي تغطيها الايصالات الى فترتين:

ـ فترة الولاء التي امتازت برواج كبير، كما امتازت بعرض البرتغاليين لعدد كبير جدا من السلع كما يتجلى ذلك في مختلف أنواع الانسجة. ولا شك ان ذلك راجع الى رغبة المسؤ ولين عن التجارة الملكية في معرفة قدرة السوق على استهلاك هذا أو ذاك النوع. (راجع الايصالين، الاول والثاني) كما اشترى البرتغاليون خلال هذه الفترة سلعا محلية مختلفة: نيلة، صوف، قطن، كبار. . . الخ.

ـ أما الفترة الثانية التي تناسب احتلال المدينة، فلقد عرفت تحولا على صعيدين: فعلى صعيد أنواع السلع اختفت بعض السلع التي ظهر للمسؤ ولين البرتغاليين ان الطلب عليها قليل. وهكذا توقف جلب عدد من أنواع الاثواب وحب القرمز (الصباغة) والتين المجفف. . . الخ. كما توقف شراء البرتغاليين لبعض السلع المحلية: القطن والصوف والقبعات والامشاط. . . الخ.

كما حدث تحول على صعيد الكميات، اذ ارتفعت كميات السلع التي احتفظ بها. وهكذا تزايدت كميات البردات (أنظر الرسم البياني) والعقاقير. فبالنسبة للصمغ، وصل الارتفاع بالايصال التاسع الى نسبة 2200 ٪ بالنسبة للايصال الأول. وكان ارتفاع مقادير الشب بالنسبة للايصالين المذكورين 714 ٪(209). وعرفت كميات التوابل نفس الارتفاع المهم، اذ كانت النسبة بين الايصالين 3900 ٪ بالنسبة للبهار الاسيوي و 700 ٪ بالنسبة للقرنفل. وعرف النحاس (مغربي) والعقيق (مستورد) نفس التزايد. ويلاحظ أن كل المواد المعروضة بآسفي غير برتغالية، ولا يوجد ولو نوع واحد من النسيج مثلا تم صنعه هناك. وبذلك يكون البرتغاليون قد فوتوا على أنفسهم فرصة الاستفادة، استفادة حقيقية، من تشييدهم لامبراطورية تجارية عملاقة.

ولكن، ما هي نتائج الاحتلال وتحكم البرتغاليين في المنطقة على الصناعات

المحلية؟ سببت القلاقل والفتن التي سبقت احتلال آسفي فرار جل التجار والصناع الى منطقة بني ماكر. وتخلى كل سكان أزمور عن مدينتهم بعد احتلالها. ويتجلى تضرر صناع هذه المدينة من التجائهم الى البوادي في رغبتهم في الرجوع الى المدينة ان صحت رواية «لود»(210) . كما يتجلى تراجع الصناعات المحلية في الكميات الهائلة التي أصبح البرتغاليون يجلبونها الى آسفي وأزمور من المسامير، وحدوات الخيول، والمطارق، والمعاول، والمناجل، والاقفال والخناجر، والموازين والمكاييل(211) .

حقيقة ان استيراد بعض هذه المواد سبق الاحتلال، ولكنه كان آنذاك نتيجة رغبة في التوفير، أو كانت مواد خاصة بالكنيسة كالأواني والكؤوس. . . الخ. وتراجعت صناعة الأواني الخزفية بدليل ان القبطان اعتبر وجود صانع كان يقيم في بداية العشرينات قرب آسفي «ضروريا» بالنسبة لكل المدينة، مما يفهم منه أن أمثاله كانوا قلائل(212) . ولم يكن سكان ربض الخميس يعيشون الا من انشطة «هامشية» كجلب الحطب الى آسفي.(213)

ولكن المستعمر عمل كل ما في وسعه لاحياء الانشطة الضرورية بالنسبة اليه. فبما ان انتاج وعرض الحياك والعبائن. . . توقف بالمدينتين بعد احتلالهما، فان الملك التجأ الى اليهوديين السابقي الذكر لينتجا أو ليشتريا ما هو في حاجة اليه. ونتج عن توقف الانتاج بآسفي نتيجة هجرة السكان ظهور منتجين برتغاليين. واصبحت اليد العاملة نفسها برتغالية.(214) ولعل حداثة اهتمام هؤلاء المنتجين بهذا القطاع هو ما كان يدفع بالملك الى ارسال عينات اليهم.

وبهذا يكون الانتاج وتسويق هذه المواد قد عرف تمركزا ماليا واضحا. وعزز الملك البرتغالي هذا التحول بنظام الاحتكار. كما نقله الى التادلة بتكليف القائد العطار بانتاج كميات مهمة من الحياك بعد الصفقة التجارية المذكورة. ويفهم من هذا ان النظام الذي اعتمد عليه الملك لجمع انسجة دكالة خلق وسطاء ما بين المنتجين القرويين ووكلاء الملك التجاريين، الشيء الذي حرم المنتج من ارباح تعود الى اولئك الوسطاء. ورغم وجود هؤلاء الوسطاء، لم تتوقف البوادي عن تزويد آسفي وأزمور بالانسجة.(215) ولكن انتاجها عرف بدوره تراجعا نتيجة انعدام الاستقرار كما يتجلى ذلك في التجاء اليهودي «مايل» الى مراكش في نونبر 1514 لاقتناء

ما يحتاج اليه منها، ونتيجة جلب البرتغاليين لكميات هائلة من الانسجة الاوربية(216) .

وهكذا يكون البرتغاليون قد استفادو كثيرا من دكالة في بداية الامر: فلقد كانت منطقة تزّودهم بالمواد الفلاحية، وتلعب دورا أساسيا في استمرار المبادلات مع السود الذين يزودون البرتغاليين باهم السلع التي كانوا في حاجة اليها: العبيد والتبر. كما كانت آسفي اكبر سوق مستهلكة للتوابل والعقاقير المجلوبة من طرف البرتغاليين بافريقيا كلها. وهذه المكانة الاقتصادية التي أحتلتها دكالة هي التي سببت ذلك الاهتمام الذي اصبح المسؤ ولون عن الادارة المركزية يولونه اياها.

وقام الملك البرتغالي بمجهود جبار للحفاظ على تلك الوضيعة المربحة كما يتجلى ذلك في محاولاته المختلفة للحصول على ثقة القبائل.

ومما يؤكد هذه الاهمية كون الركود التجاري الذي اصبحت تعرفه ارغين وعصيان قبائل المنطقة الجماعي عند بداية العشرينات جعل الملك يفكر مبكرا في اخلاء ثغورها، مما يدل على ان عوامل التحكم في المنطقة كانت تجارية.

التعاليق والهوامش

(1) كان نصيب كل مشارك في احدى الغارات 5500 ريال (الايصال السادس)

(2) S.I.H.M. Port. I p. 297, 366

(3) Ibid. II p. 308 وكتب D. R. de Noranha مراقب وصديق يحيى الى الملك (صيف 1517) يشير عليه بمعاقبة اليهود المتآمرين على يحيى ارضاء لكبريائه، ولكي يعيد القبائل الفارة الى أراضيها قبل بداية الحرث، والا فستكون الكارثة بالنسبة لآسفي: Ibid. II p. 171 وعن هذا الاهتمام Ibid. I pp. 741, 754

(4) كان بأزمور صيف 1530: 240 سطكنا بصفة دائمة من مجموع 680 شخصا Ibid. II p. 526

(5) Ibid. II p. 147

(6) Ibid. II p. 488 (وذلك سنة 1529)

(7) Ibid. III p. 248

(8) Ibid. II p. 509 وكان واحد في ملكية القبطان (ليط)

(9) Ibid. I p. 183 – 184

(10) وسمى البرتغاليون تلك الذرة «الذرة المغربية»

Godinho: Les grandes découvertes. art. cité. p. 33 – 34

(11) S.I.H.M. Port. II. 476 وتحتم هذه المضايقة ارسال الابقار والخيول بعيدا عن المدينة مما يعرضها لهجمات المغاربة.

(12) الايصال المتعلق بشراء القمح بمازيغن والآخر المتعلق بشرائه بالمغرب المنشوران بالملحق.

R. Ricard: Etudes sur l'histoire des portugais au Maroc p. 149

V. Godinho l'économie op. cité. p. 462

(13) Ibid. I p. 311

(14) S.I.H.M. Port. II p. 244

(15) وقد يتم ذلك على يد وسطاء: سلم اسحاق بن زمير «المشرف» 38 مدا و 8 الكير من القمح (الايصال 8)

(16) S.I.H.M. Port. II p. 154

(17) Ibid. I p. 330

(18) Ibid. I p. 311

(19) Archiv. Hist. Port. T.V. 1907 p. 477 والوثيقة منشورة بالملحق.

(20) S.I.H.M. Port. I p. 754.

(21) S.I.H.M. Port. I p. 145.

(22) Ibid. I p. 500 n. 1 وكان ذلك من قبل يمثل 10 ٪ فقطمن الثمن (Ibid. I p. 311) ويبدو ان الغاية من هذا القرار الجديد هو جعل حد لمنافسة التجار الاحرار.

(23) Arch. Hist. Port. T.V. p. 79

(24) M.V. Godinho: Les grandes découvertes, art. cité p. 33

(25) S.I.H.M. Port. II p. 10, 49 n. 1

(26) Ibid. III p. 259

(27) Ibid. I p. 643

(28) تعود هذه المجاعة الى الفتن التي احدثت نقصا خطيرا في الحبوب نظرا لنسف الوطاسيين لمحاصيل القبائل سنتي 1514, 1515 ونظرا لجفاف 1517 .
Ibid. II pp. 67, 147, 171

(29) Ibid. II p. 206

(30) Ibid. II p. 244

(31) كان ثمـن القمـح بمازيغـن سنـة 1502 – 8,4 ريـال (للكـيل) Ibid. I p. 74 وسنـة – 1505 : 27 ريالا Ibid. I p. 262، ماي 1512 – 12 ريـالا (Ibid. I p. 311) يونيـو – 15 1512 ريالا (Ibid. I p. 311) نونبر 1514 – 20 ريالا (ibid. I p. 655) 1515. شتنبر – 18 ريالا (4 دبلون للفروبة) (Ibid. I. 754) 1516 دجنبر 130 ريالا (Ibid. II. P 46) 1521-400-1 كوزادو (Ibid II p. 304) 1537: 40 ريالا (Ibid II 88) غشت 1540 – 300 ريال (Ibid III 260)

(32) Ibid. II. p. 244

(33) Ibid. I p. 311

(34) Ibid. I p. 655

(35) Ibid. III p. 41

(36) كان الممثل التجاري للملك بفاس هو B. Vargas وعرض R. Ricard لنشاطه في مقال يوجد بـ: S.I.H.M. Port. III. 179 – 192

(37) Ibid. III p. 193. وتم ذلك للوكيل Ibid. III p. 231, 253, 295

(38) Ibid. III p. 227.

(39) Ibid. III p. 253 بالنسبة لاشبيلية التي كانت كجل مدن الاندلس تعيد بيع تلك الحبوب للبرتغال والثغور التابعة له. وكان للبرتغال هناك وكلاء تجاريون، وعن الامير Ibid. III p. 227

(40) Ibid. III p. 194, 200, 227, 228, 231

(41) كان يضطر الى بيع الحبوب قبل توصله بها ليتسلم مبالغ مالية من الوكيل التجاري البرتغالي: Ibid. III p. 253, 547

(42) Ibid. p. 194.

(43) Ibid. II p. 509

(44) S.I.H.M. Port. III p. 547

(45) D. Lopes: Les portugais... art. cité. p. 352.

(46) Hesp. Tam. TXIV.. 1973. p. 148 – S.I.H.M. Port. III pp. 529, 547.

(47) Ibid. III p 547

(48) Ibid. I p. 313, 330

(49) Ibid. I p. 331 وتشير الايصالات الى شراء 83 بقرة.

(50) Ibid. Ibidem

(51) Ibid. II p. 240 وذلك صيف 1519

(52) Ibid II P 240, 242 No 2. وذلك ربيع 1519

(53) Ibid. I p. 314

(54) الايصال الثاني المنشور بالملحق.

(55) Ibid. I p. 313 – 314

(56) Witte: Les bulles pontificales, art. cité LI. 1956 p. 413 n. 1

(57) Ibid II p 418

(58) R. Ricard: Etudes sur L'histoire des portugais. op. cité. p. 325

(59) Ibid. III p. 259

(60) ورد ذكر كرفيلا تابعة للمكترين، وعن الكراء: Ibid. II p. 472

(61) ذكر B. Rodriguês مؤلف Anais de Arzila أن التجار تخلوا عن شراء الشابل وشرعوا في اقتناء العبيد حين مجاعة تلك السنة، راجع فقرة تالية عن هذه العمليات.

(62) 22 برميلا في الايصال الخامس (انظر الملاحق)

(63) انظر مثلا الايصال الثاني (آسفي) بالملحق.

(64) L. Massignon: Le Maroc... op. cité p. 104

(65) S.I.H.M. Port. I p. 44 n. 14

(66) Ibid. I p. 43 n. 3

(67) Ibid. I p. 43 n. 2

(68) L. Massignon: Le Maroc... op. cité p. 107

(69) S.I.H.M. Port. I p. 90 n. 1, 101 n. 1

(70) Ibid. I p. 97, 101 n. 1

(71) Livro dos Tributos.. doc. cité fl. 48.
(وهو سجل الضرائب المنشور بالملحق)

(72) S.I.H.M. Port. I p. 312 n. 1

(73) Ibid. I p. 301 n. 1

(74) Ibid. I p. 104 n. 2

(75) Livro dos tributos... doc. cité fl. 15, 68

(76) Ibid fl. 48

(77) S.I.H.M. Port. I p. 222 n. 3

(78) Ibid. I p. 44 n. 13

(79) D. Lopes: Os portugues... op. cité p. 481. Ibid. I p. 463 n. 3

(80) Léon... op. cité I p. 91 n. 100

(81) S.I.H.M. Port. III p. 27 n. 2

(82) B. Rosenberger et H. Triki – famines et épidémies au Maroc. Hesp. Tom. XIV. 1973 p. 132 n. 73. S.I.H.M. Port. I p. 473 n. 4

(83) S.I.H.M. Port. I p. 225

(84) Ibid. I p. 611 – 612 وكانت قيمته آنذاك بأكدير 360 ريالا مما يسمح بربح = 60 ريالا.

(85) عن القيمة الاولى Ibid. I p. 302 وعن الثانية: Ibid. I p. 372 – II. 6 n. 1, 372 n. 1

(86) Ibid. I p. 318 «... دية من جرح اخيه المسلم وقيتين او عشرون دينارا...» وبذلك لا تنطبق على دكالة المعادلة التي خرج بها L. Massignon من دراسة مؤلف الوزان.

(87) Ibid. I p. 323 n. 2 الايصال الاول (أزمور) بالملاحق

(88) Ibid. I p. 312 n. 2 ولا يصح بالنسبة لآسفي ما جاء بهذا الهامش من أنه كان يعادل نصف ريال لان ذلك ينطبق على اسبانيا لا على ثمن (1 /8) العملة الآسفية. واعطت احدى الوثائق قيمته الحقيقية (4 ريال) Ibid. II p. 313

(89) Ibid. I. 149, 311, 471, 611, 612 وعن منع الملك لوكلائه من أخذ العملة المحلية Ibid. I p. 50 n. 2 et 312

(90) Ibid. I p. 300

(91) Ibid. I p. 366 et 655

(92) Ibid. I p. 74

(93) وهذا ما تفصح عنه الايصالات، ذلك أن وكلاء الملك أو قابضي المصالح التجارية كانوا يبعثون بالاموال أو السلع لهذه الغاية. S.I.H.M. Port. I pp. 300, 655...etc.

(94) Ibid. I. 259, 366 – II. 47, 425 وحينما أراد الملك تحرير «الدليل» «بريغا» أرسل لابرهم بن زميرو سلعا غطت قيمتها ثمن الفدية:
Ibid. II p. 372 n. 1 (غشت 1526)

(95) S. I. H. M. Port II p. 308

(96) S.I.H.M. Port. II p. 372

(97) انظر كذلك V.M. Godinho: l'économie... op. cité. p. 180

(98) S.I.H.M. Port. I p. 318

(99) الايصال الثالث عشر (آسفي)

(100) S.I.H.M. Port. III. 16

(101) عن راتب «المشرف»: Corpo cronológico... op. cité p. 93
وعن راتب العامل: D.P. Lima. História... op. cité p. 45 n. 1.

(102) S.I.H.M. Port. I p. 470

(103) الايصال الثامن (آسفي) "aprata que lavravam moeda"

(104) دخلها حسب الايصال الاول 1624 مثقالا وثمين.
S.I.H.M. Port. II p. 372. وكان ذلك سنة 1526

(105) Góis... op. cité 105, 117

(106) ابن الخطيب... نفاضة الجراب... مصدر سابق ص 69

(107) de Marmol... op. cité II p. 7

(108) S.I.H.M. Port. I p. 746

(109) عن آسفي Góis... op. cité p. 18. S.I.H.M. Port. I p. 678,
وعن أزمور S.I.H.M. Port. II p. 419, 509.

(110) L'anonyme portugais p. 91

(111) S.I.H.M. Port. II p. 248

(112) Ibid. I. 586 n. 1

(113) Ibid. I p. 545. II p. 53[illegible]

(114) Ibid. I p. 23[illegible]

(115) انظر ترجمة هذه المفردات البرتغالية بملحق: Góis... op. cité p. 241
وعن ادماج منصب المشرف والفيطور: S.I.H.M. Port. II p. 261 n. 1 – 372 n. 1, III p. 26

(116) Ibid. I p. 581 – 582

(117) Ibid, Ibidem

(118) كتب فيطور أزمور (ماي 1517) اليه يرجوه ان لا يحرر احد الاسرى كان قد اشتراه وانتظر من ذلك فدية مهمة. والح في الرجاء، ثم وعد الملك لاغرائه بتقديم "4000" «ربع» من اللحم بثمن جد مربح بالنسبة للملك: Ibid. II p. 79

(119) عن سكان الكناري ارجع الى:
R. Ricard: relations des îles canaries et de la bérbérie. op. cité p. 75
وعن الفرنسيين S.I.H.M. Port. II p. 308 حيث تشير الى وفاة احدهم بآسفي راجع كذلك:
راجع كذلك Ibid. II p. 476

(120) S.I.H.M. Port. II p. 544 et 221 n. 2

(121) Góis... op. cité pp. 189 Ibid. II p. 419, 509, 526

(122) توجد هذه الرسالة بدار الوثائق Torre do Tombo بلشبونة، وهي تحمل عدد Doc. arabe. M. 2. n. 56. وجاء فيها «. . . من عبد الله عبد اصلطن (السلطان) الله ينصر ملي احمد نصره اله القيد احمد العطر سيال عنك (الفيطور) وقد وصلني كتبك وفرحت به (. . .) من السلع وصل وشمع موجد ونحنا خرجنا للحرك يوما نرجع كلش بترخ تلتا. . . من رمضن. . .

(123) S.I.H.M. Port. II p. 544

(124) Ibid. I p. 366

(125) Ibid. II p. 476

(126) Ibid. I p. 366

(127) Ibid. II p. 321 n. 2

(128) Ibid. III p. 220

(129) Ibid. I p. 366

(130) Ibid. I p. 545 وكان عدد منها ينتظر ارجاع الجنود الى البرتغال

(131) Ibid. II p. 378 n. 2, 493

(132) Ibid. I p. 313 . الايصال الثامن (آسفي)

(133) Ibid. I p. 51

(134) Ibid. I p. 330, 653, II p. 544

(135) Ibid. I p. 653. II p. 453

(136) S.I.H.M. Port. I p. 366, 653, 655 وكلف بهذه المهمة ابرهم بن زميرو حسب الايصال الخامس عشر، كما كلف بذلك ايضا القائد أحمد العطار كما سنرى.

(137) Ibid. I p. 366

(138) Ibid. I p. 330

(139) Ibid. I p. 653, 655

(140) Ibid. II p. 242 n. 3

(141) Ibid. II p. 544

(142) اقترح احد المسؤولين عن تجارة الملك احتكار آسفي لبيع هذه الانسجة، الشيء الذي عارضه قبطان أزمور وبرر ذلك باستفادة التجار من اختلاف الاثمان التي كانت على ما يبدو منخفضة نسبيا بأزمور.

(143) S.I.H.M. Port. II p. 453

(144) لا يوجد هذا المبلغ المالي بالايصال، بل تم شراؤه بأمر ملكي في الفترة التي يغطيها هذا الايصال: Ibid. I p. 366

(145) Ibid. I pp. 223, 224

(146) Ibid, Ibidem وكان ذلك بداية 1510

(147) Ibid. I p. 366 وهي اثواب قطنية تجلب من مصر على الخصوص: Ibid. I p. 45 n. 1

(148) Ibid. I p. 330

(149) Ibid. I p. 336 والوثيقة مؤرخة سنة 1512

(150) حصلنا على هذا العدد اعتمادا على قيمة المبيعات (432.. 37 ريال)، والثمن الذي سنعود اليه.

(151) S.I.H.M. Port. I p. 262

(152) Ibid. II p. 372 n. 1

(153) الايصال الخامس عشر (مؤرخ في 1524)

(154) S.I.H.M. Port. I p. 43 n. 5

(155) Ibid. I p. 223

(156) Ibid, Ibidem

(157) الهولندية أهمها ما يعرف «بأنطونا» تصنع بفلندرا Ibid. I p. 221 n. 4 ولكن منطقة Picardie بفرنسا اصبحت كثيرة الانتاج لها واصبحت تسمى «نصف هولندية» Ibid. I p. 45 n. 6

- الارلندية: تنسب الى مدينة Ibid. I p. 46 n. 9: Galwey

- الفرنسية: تنسب الى «بريطانيا» ومدينة «روان» وتسمى ايضا «فرنسية»

(158) De Marmol... op. cité. II p. 7 Léon... op. cité I p. 74

(159) S.I.H.M. Port. I p. 366

(160) Ibid. I p. 145 والجدير بالملاحظة ان صاحب الرسالة كتب ذلك بعيد احتلال البرتغاليين لآسفي التي فقدت لذلك رواجها التجاري السابق لمدة سنة ونصف على الاقل.

(161) S.I.H.M. Port. I p. 330

(162) Ibid. I p. 367

(163) الايصال الخامس عشر.

(164) S.I.H.M. Port. I p. 367

(165) Ibid. III p. 193

(166) Ibid. II p. 491

(167) Ibid. III. 194, 253

(168) الطرطار هو حتالة الزيت واخبرني الاستاذ زمامة ان كثرة استعمال المادتين في الصباغة اعطت المثل السائر «... تلقى الشب مع الطرطار، طلعت الصباغة هندية...» اي أنها جيدة، وكأنها صبغت بالهند، بلد الصمغ.

(169) F. Mauro – Le XVIème. siècle... op. cité pp. 136 – 137.

(170) Ibid. pp 126 – 127

(171) Dufourcq... op cité 546

(172) نعطي هذه الحبات اللون الاحمر، وهي حبات تبيضها بعض الحشرات على الاشجار في فترات معينة، وحسب الاستاذ زمامة اعطى اعتاد الفاسيين على تلك الحبات المثل «كيظهر مرة في العام بحال القرمز. . .»

(173) انظر الايصال الاول والثاني والثالث (آسفي) وعن أزمور الايصال الاول، وكلها بالملحق.

(174) S.I.H.M. Port II P. 259.

(175) لم يكن انتاجا دكاليا بل كان ينتج بالتادلة وسلا وعن الكميات المصدرة (الايصال الاول والثاني) Che. Dufourcq op cité p 546

(176) حصلنا على هذا العدد باضافة الوحدات الاخرى: الربع، الرطل. . الخ

(177) S.I.H.M. Port. I p. 259 وكان مجموع من اشتراه البرتغاليون من السلعة بالشرق الاقصى سنة 1503 – 20 000 ق.

P. Chaunu. l'Expansion Européenne T. II p. 193

(178) حصلنا على هذا العدد باضافة الوحدات الاخرى: الرطل، الربع. .

(179) Archivo nacional do Torré do Tombo, Doc. Arabes, Maĉo. 2 Doc. n. 60

(180) S.I.H.M. Port. I p. 563

(181) كان الكورتيس (Cortes) يعارض التصدير لكي يتم استغلال العبيد في النشاط الزراعي، في حين كانت الدولة ترى فيه موردا ماليا مهما: de Verlinden... op. cité 623

(182) كان حريصا على أخذ عشر ما يدخل البرتغال لاحتكاره لتلك المناطق المصدرة: Ibid. p. 617 – 618

(183) انشئت اول شركة مختصة بلاكوس (Lagos) «بالغرب» البرتغالي سنة 148 : Ibid. p. 617

(184) Ibid, Ibidem شوقي الجمل. . . تاريخ كشف افريقيا. . . مرجع سابق ص 184

(185) J. Goulven... Safi... op cité p 80 – S. I. H. M. Port II p 79 B. Rodrigues... Anais op cité 327

(189) Ibid. I p. 446 وطلبت الملكة من قبطان اصيلا ارسال عدد من المغربيات.

(190) S.I.H.M. Port. I p. 297

(191) Ibid. II pp. 54, 63, 79.

(192) Ibid. I p. 182 – 183

(193) Ibid. I p. 453

(194) Ibid. I p. 182 – 183

(195) Ibid. II p. 100, 106

(196) Ibid. II p. 177 n. 4, 237, 391

(197) Ibid. I p. 183, 488, II. 227

(198) شنق قبطان آسفي (1517) برتغاليين كانا يختطفان الدكاليين، وذلك عبرة للآخرين:
Ibid. II p. 63.

(199) راجع النص بالملاحق، ويوجد ملخص لهذه الحادثة: S.I.H.M. Port. II p. 379 n. 1

(200) Ibid. I p. 309 n. 2

(201) Ibid. II p. 79

(202) توجد دراسة تتعلق بهذه المجاعة بمجلة. Hesp – tam سنة 1973 بقلم B. Rosenberger
H. Triki انظر كذلك:
Góis... op. cité. p. 22– L. De Sousa... op. cité 25
Trad. R. Ricard Hesp. TXXIV. 1937 p. 265

(203) Diégo de Torres: Relation... op. cité I p. 94

(204) B. Rodrigués – Anais de Arzila... op. cité p. 327

(205) B. Rodrigués – Anais de Arzila... op. cité p. 327
P. Rosenbergeret Triki: Famines... art. cité p. 131

(206) S.I.H.M. Port. I p. 366

(207) سمح القبطان مشكرنياش للاعراب الذين كانت حبوبهم بمطامير آسفي بأخذها رغم أنهم كانوا في حالة عصيان Ibid. II p. 243

(208) سبقت الاشارة الى موقف القباطنة، ونعود اليه للتأكيد على ذلك ولاظهار مكانة العامل الاقتصادي في اهتمامات المسؤولين بلشبونة وأحيانا بالثغور نفسها. فلقد كتب القبطان Barreto للملك يخبره بعدم اتفاقه مع سياسة زميله "Meneses" العنيفة وبأنه يفضل ان يرى القرى التي أعلنت عصيانها تنتج وتؤدي الضرائب: Ibid. I p. 490 – 491

(209) كانت مادة الكبريت هي الوحيدة من بين مواد الصباغة التي عرفت تراجعا واضحا

(210) S.I.H.M. Port. I p. 457

(211) راجع الايصالات بالملاحق

(212) الوثيقة المتعلقة بقنص الرجل بدكالة (بالملاحق)

(213) S.I.H.M. Port. II p. 221

(214) R. Ricard: Le Commerce... art. cité p. 6

(215) S.I.H.M. Port. II p. 453

(216) L. Massignon... op. cité p. 99

الفصل الثالث

التنظيم الديني وأوضاع المسلمين واليهود

نتج عن احتلال مدن دكالة ظهور عدد من المعاهد الدينية المسيحية، ووصول عدد من الرهبان للعمل بها. وبذلك أصبحت الديانات الثلاث جنبا الى جنب، ولكن مع تمكن الديانة النصرانية في هذه المرة من وسائل الاكراه ومن الغلبة. وهذا ما يدفعنا الى التساؤ ل عن موقف النصارى عموما، ورجال الكنيسة والمسؤ ولين البرتغاليين خصوصا، من سكان دكالة، وخصوصا من سكان مدنها المعتنقين لدين آخر، وعما اذا كانت سياستهم بتلك المدن قد امتازت بنفس التعصب الديني الذي امتازت به بلادهم كما تجلى ذلك في قرار طرد مسلمي ويهود البرتغال؟

1 ـ انشاء أسقفية آسفي وتنظيمها

خصص سكان آسفي للتجار المسيحيين كنيسة صغيرة أقاموا بها شعائرهم الدينية، وذلك قبل احتلال المدينة. ويعتقد أنها كانت موجودة بالقصبة.[1] وتوصلت هذه الكنيسة ما بين 1495 - 1500 ، أي بعد اعتراف آسفي بسلطة التاج البرتغالي بعدد من الأدوات الضرورية، من ستائر واناجيل وأجراس وأواني. . . الخ[2] . وتوقعا من البابوية لقرب سقوط آسفي بيد الملك البرتغالي، قرر البابا انشاء أسقفية آسفي في تاريخ غير متفق عليه، وان كان البعض يظن أنه سنة 1472[3] . وكانت أول إشارة إلى وجودها تعود إلى سنة 1478[4] .

وحدد البابا المناطق التابعة لها بقرار مؤ رخ في 17 يونيو 1499 جعلها تشمل زيادة على آسفي كلا من المدينة الغربية وأزمور وتيط ومازيغن (5) ؛ واضيف اليها حصن اكوز بعد انشائه على مقربة من مصب التانسيفت (1520) (6) . وقد يكون نفوذها شمل كذلك حصن أكدير(7) . ولكن نوع التسيير الذي اختاره البرتغاليون للمنطقة جعل نفوذ الاسقفية لا يشمل في الحقيقة الا المدن والقرى التي كان يعيش بها النصارى: آسفي وأزمور ومازيغن وأكوز بعد 1519 .

وكانت بهذه المدن والقرى كنائس تختلف من ناحية الاهمية. وبالطبع، كانت كنيسة آسفي «الكتدرائية» أهمها(8) . وتليها كنيسة أزمور، ثم كنيسة أكوز، في حين بقيت كنيسة مازيغن والى حدود 1542 صغيرة جدا. واذا كانت كنيسة أكوز قد شيدت من لا شيء، فان البرتغاليين اكتفوا بتحويل جامعي آسفي وأزمور الى كنيستين مباشرة بعد احتلال المدينتين. وشرعوا ابتداء من 1519 في تشييد الكتدرائية في محل المسجد من الحجارة على طريقة وهندسة تمثل أروع ما وصل اليه آنذاك الفن المعماري بالبرتغال.(الفن الامنويلي). وزيادة على الكنائس شيد البرتغاليون اديرة بآسفي وأزمور. فلقد شرع في بناء واحد منها بآسفي ابتداء من سنة 1514 ـ وكانت الاشغال مستمرة به الى حدود 1517 (9) . وفكر الملك بعيد احتلال أزمور في انشاء ثلاثة أديرة، ولكن القبطان عارض ذلك بدعوى ان واحدا الى جانب الكنيسة كاف(10) . وتأخر البناء، اذ كان الديران اللذان أصبحت تحتويهما المدينة سنة 1540 حديثي البناء(11) .

وتم ادماج أسقفية آسفي بعيد اخلاء المدينة، ضمن اسقفية طنجة. وكان الملك قد حصل قبل ذلك على اذن بابوي بتهديم وافساد المعاهد الدينية حتى لا تسقط في أيدي المسلمين.(12)

وكانت كل هذه المعاهد تابعة مبدئيا للبابا. ولكنه تنازل عن تسيير كل معاهد «مملكة مراكش» الدينية وعن الاستفادة منها لفائدة «جماعة المسيح»، وسمح للملك بالاشراف عليها (1514) (13) . وفي قرار مؤ رخ بـ 31 مارس 1516 قبل البابا طلب

امنويل القاضي بالتنازل له عن الاشراف على كنائس المناطق التي ستحتلها جيوشه؛ وهكذا قرر «. . . نخضع لهذه الجماعة (جماعة المسيح) كل الكنائس المشيدة والقائمة بكل اقليم أفريقيا وغيره، وكذلك بكل اراضي ما وراء البحر المسترجعة على يدك من أيدي الكفار منذ سنتين، وكذلك كل كنيسة ستشيد مستقبلا بمدينة ومملكة مراكش وغيرها من الاماكن والاقاليم. . . »(14) .

وهكذا أدخلت أسقفية مراكش الموجودة منذ القرن 13 تحت اشراف الملك امنويل. وكلف الملك بالاشراف على كل هذه المعاهد المسؤول عن أكبر الاديرة التابعة لهذه الجماعة،(15) وبهذا تكون رسالة الملك الى البابا بعد سقوط أزمور واشارته الى قرب سقوط مراكش قد اعطت اكلها، ودفعت بالبابا الى القيام بتنازلات مالية أخرى لصالح التاج البرتغالي.

وعرفت أسقفية آسفي أربعة اساقفة(16) لم يكونوا يقيمون بعين المكان، وكان يقوم مقامهم نائب.(17) واكتفى أحدهم بزيارة خاطفة الى المنطقة خلال 1519 حيث كان بأزمور في شهر يوليوز، وراسل الملك منها في 11 غشت(18) . وحضر بآسفي بعد ذلك الشروع في بداية بناء الكتدرائية. وهو الذي طالب الملك بأن يؤدي الدكاليون الاعشار للكنيسة.(19)

ولا ندري أعداد الرهبان العاملين بهذه الكنائس والاديرة. وكانت الاشارة الوحيدة التي وصلتنا تتعلق بأزمور حيث كان بها 12 راهبا صيف 1530 من مجموع السكان الذي كان 680 شخصاً.(20)

ولم تكن موارد هذه المؤسسات مهمة. فقد فرض أمنويل الاول في ماي 1509 على نصارى آسفي اداء الاعشار للأسقف(21) . ولا شك أن هذا كان مفروضا كذلك على نصارى أزمور، ومازيغن بعد احتلالها. كما خصص مرة قسما من مجموع الضرائب المؤداة من طرف القبائل لتغطية بعض مصاريف بناء دير بآسفي.(22) وكانت هذه المؤسسات تتوصل بين الفينة والاخرى بهبات ملكية أو بأموال كانت بعض المؤسسات الدينية أو بعض رجالها يرسلونها من البرتغال.(23)

2 ـ أوضاع اليهود والمسلمين

(أ) **اليهود** : من المعلوم أن قرارا ملكيا حتم على يهود البرتغال الممتنعين عن التنكر لدينهم مغادرة البلاد وترك أبنائهم. وكان من أولئك النازحين عدد من يهود آسفي وأزمور. ولقد سبقت الاشارة الى أنهم استحوذوا على القيادة الدينية والاقتصادية، كما سبقت الاشارة كذلك الى دور اسرتي الديب وزميرو في نشر النفوذ البرتغالي داخل المنطقة. فهل نتج هذا الولاء عن خوف اليهود ـ ومن بينهم اعيانهم ـ من أن ينتهج البرتغاليون بالثغور الدكالية سياسية دينية مثل التي انتهجوها بالبرتغال، فبادروا الى التعامل كوسيلة للتقرب اليهم وللحصول على ثقتهم. ؟

وعلى كل حال، فلقد التزم الملك البرتغالي بعد سكوت دام أكثر من سنة بعدم طرد اليهود من آسفي، وتعهد بعدم ارغامهم على التنصر. أما في حالة ما اذا تحتم طردهم من المدينة لسبب أو آخر، فان ذلك لن يتم الا بعد اعطائهم مهلة سنتين على أن يأخذوا كل مايشاؤون من املاكهم وامتعتهم.(24) . واعترف امنويل كذلك ليهود أزمور بعدد من الحقوق لا شك انها كانت شبيهة بتلك التي أعطيت ليهود آسفي(25) . وعين الملك على رأس يهود آسفي (أبرهم بن زميرو) حاخاما كبيرا (يونيو 1510) بعد أن كان قد عين أخاه اسحاق. وأصبح له على كل الجالية اليهودية السلطة الدينية والجنائية. وكان لحاخام أزمور الكبير، يوسف بن الديب، نفس السلطة على يهود المدينة المذكورة.(26) ولم تصلنا أية اشارة عن معاهدهم الدينية. ويعتقد كثيرا انها كانت موجودة بما انه كان لهم سجن خاص.(27) وأصبح على يهود المدينتين اداء جزية حددت باوقية أو 320 ريالا عن كل دار.(28)

وهكذا يكون الملك البرتغالي قد تعهد بضمان أمنهم. ولكن هذه التعهدات لا تعني شيئا، ذلك أن اليهود كانوا على اتصال يومي بمسؤ ولين نادرا ما ينفذون أوامر وقررات السلطة المركزية. كما كانوا في احتكاك يومي مع السكان المتعصبين لدينهم. وتؤ كد بعض الاحداث ان الملك نفسه لم يحترم التزاماته.

فلقد عارض استقرار اليهود المتنصرين بأزمور بعيد احتلالها رغم احتياج المدينة

لخبرة أيديهم في وقت غادرها الصناع المسلمون. وهذا ما دفع بالقبطان الى الدفاع عنهم والتأكيد على أهميتهم بالنسبة للمدينة، وذكر أنهم لا يتعدون العشرة.(29) وعبر الملك عن رغبته في تخفيض عدد يهود آسفي، ونفذ ذلك بالفعل. وبأمر ملكي تم طرد عدد من الاسر اليهودية في بداية 1519 دون أن يكون هنالك مبرر قاهر، ودون أن يستفيد المطرودون من أجل السنتين.(30) . ولم يستطع اليهود رغم ما قدموه من خدمات الحصول على ثقة البرتغاليين، وخصوصا المسؤ ولين منهم.(31)

وكان المسؤ ولون البرتغاليون عن الثغور الدكالية يجدون في اليهود «بقرة حلوبا» اذ تظهر الجالية اليهودية من خلال النصوص وهي «تتبرع» بأموالها في المشاريع (مشروع بناء قنطرة أزمور مثلا)، ووقت ارسال الهدايا للسلطان أحمد الأعرج أو تعويض ما ضاع للتجار المسلمين وقت الهدنة بالمناطق التابعة للبرتغاليين(32) . كما «تطوعت» للدفاع عن آسفي المحاصرة (1510) وللمساهمة ماديا في ترميم أسوارها. وقدم يهود أزمور الاموال الضرورية لشراء 60 مدا من قمح «سلا» لحامية مازيغن (1517) (32). وكانت معاملة برتغاليي آسفي لليهود سيئة، خصوصا في فترات الفاقة، اذ ما أن انتشرت السرقة بالمدينة حتى أصبح اليهود أول الضحايا، وأصبحوا عرضة للنهب بالنهار وفي الشوارع.(33)

(ب) المسلمون:

لم تكن المدينتان خاليتين من السكان المسلمين بعد احتلالها، ذلك أن ربض آسفي كان كبيرا.(34) كما كان اقبال سكان البوادي على المدينتين المحتلتين يسبب احتكاكا ما بين المسلمين والنصارى. فهل بقيت المدينتان متوفرتين على مساجد، وهل تمتع المسلمون بنفس الضمانات التي أعطيت لليهود؟ .

لم يتوصل من بقي بآسفي بعيد احتلالها بأية ضمانة في هذا الباب. بل اكثر من هذا، بادر البرتغاليون بطريقة مقصودة الى المس بحرمات المساجد والزوايا. فقد تم تحويل المسجد الاعظم الى كنيسة في كل من آسفي وأزمور، وهدمت المساجد الاخرى وسرقت بسائطها وابوابها واصبح البرتغاليون يدخلونها بنية تنجيسها. فلقد اخبر اعيان آسفي الملك بكل هذه الاعمال في رسالة «عربية» طويلة احلنا عليها عدة

مرات «. . . واشتغلوا النصارى بهدم جوامعنا وسرق حصورهم ودفافهم فهدموا لنا جامع بالقبور ولم يبق فيه حيط واقف، وكذلك زاوية لنا بازاية يقال لها زاوية سيدي بوعلي، وجامعنا الاعظم الذي هو مشهر ديننا ترا رجالك فيها ايضا يبلون ويغيطون. . . »

كما استولى البرتغاليون، وعلى رأسهم القبطان، على احباس هذه المعاهد من «. . . الجنات والديار والحناوت (الحوانيت). . . »(35)

وانكب البرتغاليون على العربدة والفساد وهتك حرمات المنازل استفزازا بالمسلمين. (36)

وربط الاعيان في نفس الرسالة ما بين رجوع السكان الى آسفي واعادة الثقة الى نفوسهم، واحترام البرتغاليين لقداسة مؤسساتهم الدينية.

3 ـ مشكل الردة

شغلت الردة في هذه الحقبة بال الرأي العام والمسؤ ولين سواء منهم البرتغاليون أو الوطاسيون أو السعديون الذين كان موضوع مراسلاتهم أحيانا يتعلق بها(37). وأولتها المصادر البرتغالية عناية كبرى. واذا كانت قد سكتت عن حالات ردة النصارى أو شوهت بمن ارتدوا (وصفت بعضهم بالجبن)(38)، فانها أكدت على الخصوص على الحالات التي تهم المسلمين المتنصرين وطبعتها بطابع مثالي وخصت أصحابها باعمال واقوال كانت الغاية منها ارضاء كبرياء نصارى ذلك الوقت المتعصبين. وأخذ بعض المؤرخين حرفيا ما كتبه الإخباريان (كويش) و(دوسوزا)، وزادوا على ذلك أحكام قيمة مشبعة بروح الظهير البربري وموجهة حسب ميول الناشر. فلقد كتب (ريكار .Ricard) في مقال نشره بمجلة دينية سنة 1930 وهو يتحدث عن اولئك «الشهداء» من المسلمين المتنصرين الذين فضلوا الموت في سبيل مجد الصليب كما يقول (كويش) «. . . ان تاريخهم (المتنصرين المقتولين على يد المسلمين) مثال رائع يجب ان يذكر امام اولئك الذين يدّعون ان المسلمين غير قابلين للتنصر. فبما ان اعتناقهم لعقيدة المسيح لم يكفهم، فانهم ارادوا أن يموتوا

دونها. . .»(39) وسنرى بعد قليل أن المؤلف أورد في محل آخر ما ينفي هذا الادعاء.

وطبيعي ان تشمل الردة كل الديانات نتيجة احتكاكها، واصطدامها، وطبيعي كذلك ان تكون حالات ردة النصارى قليلة بالنسبة للحالات التي شملت غيرهم، ذلك ان الغزو البرتغالي لشواطيء المغرب وما تولد عنه من حروب واختطافات خلق ازمات عميقة داخل المجتمع المغربي. ومما له دلالته ان تكون الردة فقط بالمناطق التي كان البرتغاليون متحكمين فيها. ويبدو ان حالات الردة لم تكن وليدة عمل المبشرين الذين لم يجدوا آذانا صاغية في المناطق التي عملوا بها وخصوصا بفاس(40). وهذا ما يؤكد ان المرتدين من المسلمين كانوا ممن عجزوا عن مواجهة تحدي القرن (الحروب، انتصار النصارى، المجاعات. . .). وتمكننا بعض الحالات من اعطاء الدليل على هذه البلبلة التي حلت بالافكار وعن أزمة الضمير التي أصبح الفرد يعاني منها: فلقد التحق أحد أقارب قائد القصر الكبير بأصيلا وتنصر بها، ورغم ما حصل عليه من جاه، ندم على فعله وعاد الى القصر، ولكنه سرعان ما ندم ثانية، فعاد الى أصيلا وتنصر من جديد. ولم يدم طويلا على حالته هذه، وندم ثالثه فعاد الى القصر حيث أمر القائد بقتله(41). وتتجلى هذه الازمة كذلك في كون بعض اولئك المتنصرين أصبحوا يقودون البرتغاليين الى دواويرهم ليتم نهبها وأسر سكانها، وكانوا، ان صحت رواية الاخباريين البرتغاليين، أكثر حماسا وأكثر وحشية في ذلك من البرتغاليين(42).

(أ) **الردة لدى المسلمين**: يمكن حصر اسبابها في ثلاثة:

1 ـ الاسر الذي ينتج عنه تحويل الضحية الى عبد، قد تعود له حريته بالتنصر، وذلك في حالة ما اذا تعذر عليه تحرير نفسه. وبما ان اسبان جزر الخالدات الحوا بالغارات على جنوب المغرب، وخصوصا القسم الموجود جنوب ماسة، فان هذه الجزر توصلت بعدد كبير من اولئك الذين فضلوا التنصر للحصول على حريتهم في انتظار ظروف احسن.

2 - المشاكل المعاشية. تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغذائية

لان المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يتوفرون باستمرار على المواد الضرورية . فلقد نصب عدد كبير من المغاربة خيامهم حول مازيغن وتنصروا آملين بذلك تحسين ظروفهم المعيشية [43] .

3 ـ وكان بعض ضعاف الشخصيات يجدون في التنصر وخدمة البرتغاليين وسيلة للاغتناء وتحسين أوضاعهم المادية.

ووصلتنا بعض الاشارات المتعلقة بالردة بدكالة. ونذكر منها تنصر أعرابي بعد سقوط آسفي صلب على يد القبطان لتورطه في اختطاف الدكاليين[44] ، وكان آخر في خدمة المشرف ألقي عليه القبض بأزمور بعد فراره من آسفي، واتهم بالرجوع الى الاسلام[45] . وكان أحد المتنصرين من بطانة الشريف السعدي[46] .

وعرفت المنطقة موجة كبيرة من الردة بعد مجاعة 1520 - 1521 ، لم يسبق للمغرب ان عرفها. فلقد أرغمت المجاعة اعدادا كبيرة على التنصر وطلب الالتحاق بالبرتغال للعيش هناك. ولقد صور الاخباري (كويش) هذه الحالة ومصير المرتدين بلشبونة بقوله: «. . . وفي هذه السنة (1521) حدثت مجاعة كبرى سواء بذلك القسم من أفريقيا أو بشبه الجزيرة (ابيريا)، وكانت جد خطيرة الى حد ان عددا كبيرا من المسلمين الحلفاء بآسفي وأزمور طلبوا من الملك (دون امنويل) عبور (البحر) للمجيء الى البرتغال ليتنصروا ولكي يضمنوا به عيشهم، الشيء الذي لم يكن بامكانهم القيام به ببلادهم آنذاك نظرا للجفاف. . . وعبروا في اعداد كبيرة حتى انِ لشبونة والضواحي كانت مليئة بهم. ومات جلهم من الجوع والبؤس، ذلك ان المملكة كانت تفتقر كثيرا الى المواد الغذائية. . .[47] .

وكون هؤلاء المرتدون غالبية الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال، وجل من مثلوا أمام حاكم التفتيش الدينية البرتغالية [47 م].

ولم يتمتع مرتدو دكالة بمثل ما تمتع به مرتدو الشمال من مناصب عسكرية (كانوا يعينون «مقدمين») ومن مكانة. فلقد سبقت الاشارة الى قتل احدهم بآسفي بعد حمل وحده مسؤولية اختطاف الدكاليين، وكان آخر في حالة عبودية. وذكرت احدى

الرسائل ان قبطان أزمور يأسر ويبيع المسلمين الذين يقبلون على المدينة للتنصر.[48]

واهتم قبطان آسفي (De Noranha.) كثيرا بتنصر احد اقارب السعدي احمد الاعرج ولكن اهتمامه هذا لم يتعد هبة مالية لمساعدته على الزواج (4000 ريال) وبعض الاثواب.[49]

(ب) ردة اليهود

تبدو ردة هذه الجالية المتماسكة غريبة، ولا ندري اسبابها وظروفها، خصوصا وان قيمة الجزية لم تكن كبيرة حتى تفرض التنكر للدين.

ولا ندري هل ارتدوا بدكالة ام قبل المجيء اليها. ولكن ردة احدهم سنة 1517 تؤكد ان بعض الحالات تمت بأزمور[50] وعلى كل حال، فلقد كانوا اربعة بأزمور في بداية دجنبر 1513 [51]، واصبحوا عشرة في فبراير من السنة التالية، كانوا صناعا. وكان طبيب المدينة منهم.[52]

وخصهم البرتغاليون بمعاملة سيئة رغم ردتهم، ويدل على ذلك موقف الملك منهم بعيد احتلال أزمور، وموقف القبطان كما فضحه طبيب هذه المدينة.[53]

وأكدت بعض التبليغات التي توصلت بها محكمة التفتيش بلشبونة ويابرة أن بعض نصارى أزمور أسلموا أو اعتنقوا اليهودية.[54]

(ج) مدى صدق اولئك المرتدين؟

لم يكن جل المتنصرين صادقين سواء منهم المسلمون او اليهود، ولم يكن ارتباطهم بالمسيحية كبيرا. فلقد كتب القبطان (ليط) الى الملك يخبره بان عددا كبيرا من المسلمين المتنصرين رغم انهم ارتدوا ـ حسب ادعائه ـ من تلقاء انفسهم، فانهم لايزالون يعيشون على الديانة الإسلامية، وطلبوا لعدة مرات، من السلطان الوطاسي أو من الشريف السعدي القدوم لأخذهم، الشيء الذي حاولاه مرتين، مما سبب للمدينة عددا من المشاكل. واقترح نفيهم إلى احدى جزر المحيط ليضطروا

هناك الى اعتناق الديانة النصرانية وليصدقوا في تنصرهم.(55)

واكد كاهن أزمور بعد ثمان سنوات نفس الحقيقة. فلقد كان المسلمون المتنصرون يعيشون جهرا مع نساء مسلمات، واحتفظوا لانفسهم بشعائرهم واسمائهم السابقة(56) . وعاد بعضهم الى الديانة الاسلامية مما اعطى للقبطان مبررا لبيع اثنين منهم.(57) وينطبق نفس الشيء على اليهود. ونظرا لعدم تمسك المرتدين بدينهم الجديد، اقترح الكاهن المذكور انشاء «محكمة للتفتيش» بأزمور.(58) واتهم موسى الديب حين مقامه «بغرب» البرتغال، وكذلك احد سكان أزمور سابقا، بالرجوع الى الديانة اليهودية، وذلك سنة 1537 حيث بلغ بهما لدى محكمة التفتيش هناك.(59) وتثبت مصادر محكمة التفتيش البرتغالية المنشورة بالملاحق نفس الحقيقة.

ولم يكن مرتدو الشمال اكثر ارتباطا بالديانة التي دخلوها رغم ما قالته المصادر البرتغالية. وينطبق نفس الشيء على يهود البرتغال انفسهم الذين كانوا يجدون في شراء الحبوب بسلا والمعمورة والعرائش مبررا للمجيء الى المغرب مصحوبين بأموالهم للرجوع الى ديانتهم الاصلية.(60) ولا يخرج سكان جنوب ماسة المختطفون على يد اسبان جزر الخالدات عن هذه الملاحظة كما اثبتت ذلك دراسة لريكار R.Ricard (61)

وامام هذا، بلغ بعدد من سكان أزمور المرتدين من اليهود والمسلمين. ووصلتنا اشارات عنها تعود الى الفترة ما بين (1537 – 1541) (62) .

لقد عرفت دكالة على عهد الغزو البرتغالي مؤسسات دينية مسيحية عديدة اختلفت في أهميتها وفي أعداد الرهبان العاملين بها. ولكن النصوص لا تخبرنا بأية محاولة تبشيرية بالمنطقة. ولذا شملت الردة الديانات الثلاث. ولم يكن المرتدون صادقين لانهم كانوا يرون في تنكرهم لدينهم الاصلي مجرد وسيلة للتغلب على المشاكل التي كانوا يعانون منها اما كمسلمين أو كيهود أو كنصارى.

التعاليق والهوامش

(1) S.I.H.M. Port. I p. 656 n. 3

(2) انظر الايصال الثاني والثالث (آسفي) المنشورين بالملحق

(3) Witte... op. cité. L. III. 1958 p. 52

(4) S.I.H.M. Port. I p. 48 ول: R. Ricard دراسة مهمة عن هذه الاسقفية: Ibid. III pp. 75 - 82

(5) Ibid. I p. 48

(6) Ibid. II p. 280. III. 75

(7) الدراسة المذكورة ص 81

(8) بيير سنفال (P. Cenival) دراسة مهمة عنها Hesp. Vol. IX. 1929. p. 129.

(9) S.I.H.M. Port. III p. 78

(10) Ibid. I p. 497 - 498

(11) Ibid. III p. 78 - 79

(12) D. Lopes: Les portugais... art. cité. p. 357

(13) S.I.H.M. Port. I p. 569 n. 2

(14) Ibid. I p. 772 وندين بترجمة هذه الوثيقة اللاتينية للسيدة R. Prévot الاستاذة بكلية الآداب بفاس.

(15) Ibid. I. 773 et 772 n. 1

(16) R. Ricard: L'évêché de Safi: S.I.H.M. Port. III p. 79 - 81

(17) Ibid. Ibidem

(18) Ibid. II p. 250

(19) Ibid. II p. 269. وكتب الرسالة بعد عودته الى البرتغال.

(20) Ibid. II p. 526.

(21) Ibid. I p. 48 n. 2.

(22) Ibid. II p. 57.

(23) انظر الايصال الثامن والحادي عشر والثالث عشر (الملاحق)

(24) S.I.H.M. Port. I p. 174.

(25) Ibid. I p. 175 n. 1

(26) Ibid. II p. 60 n. 1

(27) Ibid. I p. 175. n. 1

(28) Ibid. Ibidem

(29) Ibid p 490

(30) S.I.H.M. Port. II p. 222

(31) Ibid. II p. 506

(32) «تبرعت» بـ 25 الف ريال حين ترميم اسوار آسفي مما يعطي 25 ريالا لكل واحد لان الوثيقة ذكرت أن عددهم الف: Ibid. Ip. 301 n1 وكان من المقرر ان تقوم بنفس العمل لو شرع في بناء قنطرة أزمور Ibid. II p. 248 وكذلك Ibid. II p. 371 وتطوعت للمساهمة في حفر خندق حول أزمور: Ibid. II p. 419, II p. 314

(33) Ibid. II p. 372

(34) كان يعرف «بالخميس».

(35) S.I.H.M. Port. I p. 183

(36) Ibid. I p. 181, 184, 185

(37) De Sousa: Documentos... op. cité. 157 – Ibid. II p. 496, 518, III p. 272 – Ibid. France, lèresérie I p. 114

(38) L. de Sousa... op. cité. p. 136 – 137

(39) R. Ricard: Etudes et documents pour L'histoire missionnaire de L'Espagne et du portugal – Louvain, 1930 p. 232

وحاول ان يبرر «وحشية» اولئك المرتدين رغم تنصرهم (كذا) لكون الديانة النصرانية لم تستطع بعد محو غرائزهم الوحشية التي اكتسبوها كمسلمين. Ibid. p. 231

(40) – LeTourneau. Notes sur les lettres latines de Nicola Clenard relatant son séjour

(41) dans le Royaume de Fés (1540 – 1540) Hesp. XIX. 1934 fas. I p. 39 – 52.

– M. Desmaziéres: Sur la terre du Maghreb: La vie et la mort de André de Spolèté.

Martyr franciscian à Fès au XVI es. Paris. édit des franciscains pp. 27, 29.

L. De Sousa: op. cité. 83 – 84

(42) Góis... op. cité. p. 168 – 170 – Ibid. p. 28, 44, 45, 65, 81, 84, 135.
B. Rodriguês: Anais de Arzila cité dans B. Rosenberger et Triki, Famines... art. cité. p. 130

(43م) ـ الملحق رقم 4

(44) S.I.H.M. Port. I p. 183

(45) Ibid. I p. 460

(46) Ibid. III p. 17

(47) Góis... op. cité. 288 وكان (كويش) الوحيد الذي اشار الى هذه الهجرة الجماعية.

(48) S.I.H.M. Port. II p. 177. n. 4

(49) Ibid. III pp. 15 – 16 et 17.

(50) Ibid. II p. 391

(51) Ibid. I p. 459

(52) Ibid. I p. 490

(53) Ibid. II p. 419

(54) راجع وثائق محكمة التفتيش المنشورة بالملاحق.

(55) S.I.H.M. Port. II p. 476

(56) Ibid. III p. 83

(57) Ibid. II p. 372

(58) Ibid. III p. 83

(59) Ibid. V. p. 120 n. 3 عد كذلك الى الملاحق.

(60) Ibid. III p. 200

(61) R. Ricard: Relation des iles canaries et de Bérbérie Paris 1935
أورد عدة حالات تثبت عدم تمسك المرغمين على التنصر بسبب الاسر بديانتهم الجديدة التي كانت مجرد وسيلة للحصول على حريتهم (ص ص 77, 72, 70, 69) وأنهم لم يكونوا ينتظرون الا فرصة تحرير انفسهم او الفرار الى بلادهم (ص 77) ولقد ترك عدد كبير منهم الجاه والمال بالجزر الخالدات ليعودوا الى بلادهم جنوب المغرب (79) وذكر احدهم رغم تنصره، وأمام محكمة التفتيش، ان الاسلام احسن بكثير من النصرانية (ص 91).

(62) عن أزمور Archivo. Hist. Port. TVI. 1908
– p. 104 (25 – 5 – 1541)
– p. 107 – 108 (31 – 5 – 41)
– p. 111 (10 – 1 – 1543)
عن مازيغن (1543) p. 172, 181 –
عد كذلك الى الملاحق.

الباب الرابع

ردود الفعل التي سببتها الغزو البرتغالي بدكالة

الفصل الأول

الفئات الاجتماعية والاستعمار البرتغالي

تختلف مقاومة الدكاليين للاستعمار البرتغالي عن مقاومة الانظمة القائمة آنذاك. فلقد كانت عبارة عن عمليات عسكرية منعزلة، تقوم بها جماعات معينة في اعداد قليلة وبوسائل بسيطة. وكانت في أغلب الاحيان غير منتظرة، تفاجىء العدو، الشيء الذي يعطيها فعالية تفتقر اليها العمليات العسكرية التي يكون البرتغاليون في جل الاوقات على علم بها.(1)

1 ـ خصائص ردود الفعل الشعبية بدكالة.

وتتم هذه العمليات على يد القبائل قبل خضوعها أو حين عصيانها. وأصبحت مقاومة القبائل التي كانت مؤقتة دائمة بعد بداية العشرينات، وأصبح للشرفاء السعديين نوع من الاشراف عليها.

وتطوع لهذا العمل مجاهدون كانوا أحيانا غير دكاليين، كانوا يتسربون الى دكالة من سلا الى منطقة أزمور في أعداد قليلة، ومن الشياظمة الى منطقة آسفي. ووصلتنا اشارات عن بعض عملياتهم التي تمت بالشاوية وبضواحي تيط وأزمور وآسفي وأكوز(2). ولقد اتخذت هذه المقاومة غير الرسمية، والتي يمكن تسميتها بالشعبية، عدة أشكال:

(أ)مقاطعة الثغور المحتلة، وتكفير من بقي بها، وإباحة دمه، كما تم بآسفي قبيل احتلالها، ونعت حلفاء البرتغاليين «بعبيد النصارى»[3]. ولقد كفر عدد من الدكاليين - ربما بعد صدور فتاوى في شأنه - يحيى أوتعفوفت لتورطه الكبير مع النصارى، ولكونه أصبح يحارب اخوانه في الدين، وذلك لفائدة التوسع المسيحي. وجعل هذا الموقف الذي كان واضحا، يحيى في مواقف جد حرجة، اضطر إثرها الى التأكيد في كل المناسبات على تمسكه بدينه، وغيرته عليه[4]. ولكن التبريرات التي قدمها لم تقنع أحدا، وسبب له ذلك عداء عدد كبير من الدكاليين. والغريب أن البرتغاليين فسروا آنذاك هذا العداء بكونه ناتجٌ فقط عن أصل يحيى البربري[5] وأخذ بعض المؤرخين المحدثين بهذا الرأي دون تمحيص[6]. ولقد خلق موقف الدكاليين هذا أزمة ضمير لدى يحيى زادها حدة عداء المسؤولين البرتغاليين له بحيث أصبح لا يدري أين يضع نفسه: فهو مرفوض من طرف المسلمين والنصارى على حد سواء؛ ولقد عبر عن هذه الحيرة في رسالة الى أحد أصدقائه بالبرتغال: «. . . يقول المسلمون انني نصراني، ويقول النصارى انني مسلم، أتأرجح هكذا دون أن أعرف ماذا أفعل بنفسي. . .»[7]، ولا شك في أن الفقهاء ورجال الزوايا كانوا وراء هذا العداء ليحيى وأمثاله. وحاول بعضهم ابعاده عن النصارى كما سنرى.

(ب) اختطاف الانعام والمنعزلين من البرتغاليين وغيرهم من نصارى أو يهود الثغور. واستطاع المجاهدون نصب كمائن لعدد مهم منهم، تم قتلهم أو أسرهم، وخصوصا على طول أم الربيع حيث كانت المعطيات الطبيعة ملائمة، وحيث كان الصيد يبعد النصارى عن المدينة[8]. وتعرضت بعض المراكب الراسية بأم الربيع لهجومات خاطفة[9]. ونسفت محاصيل البرتغاليين وحلفائهم، أو تم احراقها بعد حصادها[10].

(ج) ضرب حصار على الثغور المحتلة، ومنع القوافل والمواد الغذائية من الوصول اليها.[11] وأصبح الحصار فعالا، وخلق صعوبات كبرى لسكان الثغور بعد بداية العشرينات. ولقد كانت كمائن المجاهدين وهجوماتهم جد فعالة الى حد أن برتغاليي أزمور تضرروا كثيرا منها. ولهذا لم يكونوا يتسامحون مع من أسروه

منهم، وكانوا يقتلونهم فورا، وذلك رغم حرص البرتغاليين على الحصول على الاسرى. ولقد أصبح بعضهم معروفا من طرف برتغاليي أزمور لكثرة نشاطهم ضد المستعمر. وترك لنا المؤ رخ (دوسوزا) صورة عن حقد البرتغاليين على أولئك المجاهدين[12] . واضطر قبطان أزمور بعد تزايد نشاط مجاهدي شمال أم الربيع الى الالتجاء الى قائد سلا، وطلب منه جعل حد لذلك. فكان جواب هذا الاخير «. . . وما ذكرت لنا من حال أهل الغرب ان نومنك منهم نحن أمانك بكل ما يوديك من أهل الغرب بالامان التام، والله على ما نقول وكيل. . . »[13] .

ما الذي كان يحرك هؤلاء المجاهدين، سواء كانوا أفرادا أم جماعات، هل هو جهاد أم نتيجة وعي بالوطنية؟

ويدفعنا هذا السؤ ال الى تحديد ما اذا كان مغاربة القرن السادس عشر على وعي بوطنيتهم. واذا كان المؤ رخون الاجانب ينفون وجود هذا الوعي لدى المغاربة، فان بعض مؤ رخينا حاولوا اثبات العكس[14] . ورغم أن النصوص لا تسمح لنا بالفصل في هذا المشكل الشائك، فان هذا لا يمنع من القول بأنه ليس من الصواب الجزم بأن المغرب لم يعرف شعورا قوميا ـ مهما كان ضعيفا ـ لا لشيء سوى لأن أوروبا كانت تجهله آنذاك. مما لا شك فيه، أن موقف الدكاليين ـ كموقف المغاربة ـ من الغزو اتخذ طابعا دينيا واضحا. ولا ينفي هذا وجود شعور قومي، لان الدين نفسه كان عنصرا من عناصر تلاحم وتواجد المغاربة. ولم يكن المغاربة يختلفون في ذلك عن البرتغاليين الذين كانوا يتصرفون كمسيحيين أكثر مما كانوا يتصرفون كبرتغاليين، وكانوا يعاملون المغاربة «ككفار» أكثر مما كانوا يعاملونهم كأجانب.

ومع ذلك، تعامل الدكاليون مع المستعمر تعاملا سياسيا. فلقد خضعت القبائل له لظروف سياسية قاهرة، ولم تقبل أبدا بالامر الواقع. ويلمس من النصوص أنها، بعد أن أكرهت على الرضوخ قامت بمحاولة سياسية لتبرير رضوخها للنصارى؛ وذلك بجعل نفسها تابعة ليحيى، الذي جعلت منه الآمر والناهي، والمتحكم في النصارى أنفسهم، والذي سيطردهم ويحرر آسفي.[15] ولهذا كانت تتعامل معه «كسلطان» كما يتجلى ذلك في تقبيل اليدين[16] ، وفي الهتاف بحياته حين دخوله

للمدينة الغربية،[17] وفي فرح سكان هذه المدينة حين تحريره للأسرى الذين استولى عليهم بعد انتصاره على الهنتاتي بأكوز.[18] فلقد كتب أحد سكان المدينة الى قبطان آسفي يخبره بهذه التصرفات: «. . . ورجع الى المدينة (الغربية) وفرحوا (كذا) أهلها به، وكل يوم محمد بن عمرو كان يخرج الى الشوارع ويصيح: الله ينصر سيدي يحيى بن تعففت. . .»[19] وجاء في رسالة أخرى «. . . وقراه (رسالة يحيى) سبدي محمد على أصحابه في المدينَ وفرحو به، وكان بن بمحمد يمشي ويقول: الا ينصر سيدي يحيى (بن) تعففت، من بغض سيد يحيى فليخرج من المدين (. . . .) ونعلمك بأن بمحمد مع سيد محمد بن عبد الرحمان وزوزو، وبلك، وابراهم بن لحسن التقو مع أولاد سبط مع أولاد يعكى، مع أولاد عمران، يَلْتَقُو جميعا، ويتحلفو جميعا، على كتوب بن تعففت ويسيرُ اليه بلجميع. . .»[20]

ولقد قتل اليهودي (دارديرو) بالمدينة الغربية بعد أن نادى بحياة أمنويل في وقت كان السكان يهتفون بحياة يحيى.[21]

ومعلوم أن هذا الموقف ازاء يحيى تبلور في وقت أرغمت فيه القبائل على الرضوخ (1512)، وبذلك تكون القبائل وسكان المدينة الغربية قد عملوا على تعويض المتحكم الاجنبي بآخر مغربي، كان الوحيد بالمنطقة الذي يمكن آنذاك صبغه بتلك الصبغة.

ويرى المؤرخ تيراس (H. Terrasse)، الذي تعرض لمشكل مقاومة المغاربة لذلك الغزو المسيحي، أن صمود المغاربة تمخض عن شعور قومي. ولكنه عاد كعادته للتقليل من هذه الحقيقة فادعى أنه سبب عداء للاجانب كيفما كانوا: «. . . لقد كان هنالك بالفعل نوع من الشعور الوطني، تقريبا قومية مغربية. . .»[22].

2 ـ موقف الشيوخ والاعيان من الاستعمار

سبقت الاشارة الى دور بعض عناصر هذه الفئة في خدمة الاستعمار. ويفرض علينا تتبع مواقف أولئك الشيوخ سؤالا مهما: لماذا تورط عدد مهم منهم مع

الاستعمار؟ ولماذا لم تعرف أحواز الثغور الشمالية عناصر من هذا النوع وهذه المكانة؟.

ان أول ما يلاحظ بالشمال، هو أن الغزو البرتغالي عزز خلال الفترة التي تهمنا مكانة القواد والشيوخ، ولكن من اولئك الذين يرأسون مقاومة البرتغاليين لا الذين يتعاملون معهم، الشيء الذي لم يكن له أي وجود جنوب أم الربيع، حيث كان أكثرهم نفوذاً من الذين يخدمون البرتغاليين، [23] مما يمكن من وضع الاصبع على أهم أسباب هذا الاختلاف الواضح والمتمثل في الفراغ السياسي الذي كانت تشكو منه المناطق الجنوبية.

ونظرا لانعدام سلطة قادرة على مساعدة القبائل على الصمود، اضطرت، وعلى رأسها شيوخها، الى الرضوخ. وبهذا يجب التمييز ما بين الشيخ العميل عن طواعية، والمرغم على التعامل.

ولقد ترك لنا المؤرخ (كويش Góis) صورة كافية لفهم اسباب رضوخ الفئة الثانية: «... وصل آنذاك (حين استعداد القبطان أتايد للخروج ضد عدد من الدواوير) الى آسفي عيسى بن أبي بكر، من أعيان قبيلة الغربية، والذي ما أن لاحظ (نونوش فرنديش) مسلحا وعلى رأس رجاله حتى ارتمى على رجليه صحبة سبعة أعيان آخرين، وطلبوا منه أن يشفق عليهم، وأن لا يذهب لنهب دواويرهم...» [24].

ولقد أكد الوزان نفسه على هذه الحقيقة المؤلمة: اضطرار الشيوخ الى الرضوخ تفاديا للغارات البرتغالية الوحشية[25].

ولهذا لم يكن هؤلاء الشيوخ يترددون في العصيان كلما تهيأت الظروف، ولا تتمسك بولائها الا العناصر المتورطة. فلقد أصبح «سالم بن عمر» الذي كان

صاحب مشروع تحصين مازيغن، ومن أكثر الناس ارتباطا بالاستعمار، أصبح سنة 1516 على رأس الفارين الى الشاوية[26]. وحين دخول الناصر الهنتاتي لدكالة سنة 1512، والوطاسيين سنة 1514، نسي الشيوخ تعهداتهم للبرتغاليين، أو على الاقل بقي بعضهم يتفرج على الاحداث في انتظار معرفة المنتصر ليحدد موقفه منه[27]؛ مما يؤكد ان الخضوع للبرتغاليين لم يكن أمرا نهائيا. فلقد فر الشيخ عبد الله وقبائله من ضواحي المدينة الغربية للالتحاق بالناصر سنة 1514، [28] وساند شيوخ الشرقية الناصر الوطاسي خلال تلك الحملة. ومات في معركة «الجمعة» سبعة من شيوخها[29]. وكان أكبر شيوخها، وهو محمد بن محمد، ضمن اولئك الذين دفعوا بالوطاسيين الى التحرك نحو دكالة[30]. وكان «الكريمات» ممن مالوا الى الناصر الوطاسي (1514) رغم ان أولاده ونساءه كانوا في أزمور كرهائن، ورغم أنه كان يعلم أنهم سيصبحون أسرى. وقتل في معركة الجمعة.[31] وبعد دخول محمد البرتغالي الى المنطقة، أرسل الملك امنويل الى قبطان آسفي يطلب منه تعيين الشيوخ الذين يستحقون الجزاء على مواقفهم المعادية للسلطان، فكان جوابه أنه لا يوجد ولو واحد[32]! ولكن رجوع الوطاسيين الى عاصمة ملكهم كان يترك القبائل وشيوخها بدون عون مما كان يحتم الرضوخ مرة ثانية في انتظار فرصة جديدة للعصيان. وللتكفير عن أخطائهم أرغموا على تنفيذ أوامر المسؤولين البرتغاليين. وهكذا أرغمهم قبطان أزمور على مطاردة الناصر الذي كان يستعد لمغادرة المنطقة، وذلك بعد أن كانوا يحاربون إلى جانبه[33].

وكان للبرتغاليين على الشيوخ وسيلة فعالة للضغط عليهم، اذ ألزموهم اثر خضوعهم، بتسليم أولادهم، وأحيانا نسائهم، كرهائن بآسفي وأزمور، والذين يصبحون أسرى في حالة عصيان ابائهم او ذويهم[34]. ورغم خضوع الشيوخ، لم يكن البرتغاليون كثيري الثقة فيهم، ولم يتردد قبطان أزمور في نعتهم «بالغادرين» و«بالكاذبين». وعبر عن نفس الشيء كل من القبطانين (أتايد، وليط)[35].

وهكذا كان الشيوخ الأكثر عصياناً ممن كانت قبائلهم بعيدة عن آسفي أو أزمور،

بالشاوية، كعلي مومن[36] أو يشو[37] ، أو بهوامش المنطقة، كما كان الشأن بالنسبة لأولاد عمران الجنوبية التي وجدت في نجد الكنتور والحوز ملجأ ساعدها كثيراً. واشتهر شيخها رحو بن شحموت بعد قتله للقبطان (أتايد)[38] . وينطبق نفس الشيء على ناصر بودومة، شيخ اولاد يعقوب، الذي كان بشهادة قبطان أزمور، شديد العداء للبرتغاليين، واختطف عدداً كبيراً من النصارى واليهود قرب أم الربيع[39] .

وكان أكبر المتورطين مع الاستعمار ممن يجرون وراء السلطة والنفوذ، كما هو الشأن بالنسبة لاشهرهم يحيى أو تعفوفت، الذي كان من المتناحرين على السلطة بآسفي. وكان هذا الدافع مما حدا بعبد الرحمان بن حدو الى اللجوء الى البرتغاليين. ولا يختلف المشروع الذي خامر ذهن القائد أحمد العطار، عامل الوطاسي على التادلة، في شيء عما قام به يحيى أو عبد الرحمان المذكوران[39] . فبعد ان بدأ نفوذ السعديين يتزايد واصبحت تادلة على وشك السقوط في أيديهم، كاتب ملك البرتغال، وحصل منه على اذن باستعمال المراكب البرتغالية لنقله الى تركيا، ولكنه فضل على ذلك العمل تحت راية البرتغال في ثغر من الثغور المغربية، واقترح ان يكون ذلك بأنفا[40] . وكان الملك «بادس» بوحسون نفس المشاريع[41] ، بل وأكثر من هذا سبقهم الى هذا التواطؤ الشريف علي بن راشد سنة 1502 [42] ، وبعده ابنه ابراهيم[43] .

ومعنى هذا أن أكثر المتعاملين مع البرتغاليين كانوا كما قلنا ممن جعلوا الحصول على السلطة قبل كل شيء. وتتجسد هذه الحقيقة في مغامرة يحيي. فمن الاكيد أنه لم يكن يتوخى من عمالته حماية قبائله والحيلولة دون تعرضها للغارات البرتغالية، لانه كان بربريا، ومن سكان آسفي. فهل كان يحيى عميلا مخلصا مستعدا للموت، كما كرر ذلك، في سبيل مجد البرتغال؟ لقد كان المؤ رخ (كويش) متأكدا من اخلاصه ووفائه للبرتغال وملكه، وكرر ذلك عدة مرات[44] . ولكن القبطان أتايد كان يرى

عكس ذلك، والصق به أخطر التهم. وتسرب اليه الشك في مساعده منذ سنة 1512 ، وجمع لإدانته عددا من التصريحات والوثائق وأرسلها الى الملك(45) . وكانت التهم الموجهة له هي: مراسلة الهنتاتي وبعض الاولياء (أغمات)، وإعلانه سرا، (للهنتاتي ورجال الدين) وجهرا، (حين تجمع القبائل) انه لا يزال مسلما وانه سيثبت لهم ذلك قريبا(46) ، اعلانه انه الآمر والناهي وان النصارى تابعين له لا العكس(47) ، تعيين الشيوخ والقواد دون استشارة القبطان(48) ، تحريض القبائل على رفض اداء الضرائب، اعطاء نفسه الالقاب السلطانية(49) ، واعداده لخيانة النصارى كما يتجلى ذلك في تجنيد مائة مخزني ، وشرائه للخيول، قتله للخدام الأوفياء(50) ، ابتزازه للاموال. . .(51) ولم تتوقف اتهامات القبطان بعد سفر يحيى الى البرتغال. بل زاد تقدير الملك وحاشيته له القبطان حقدا. فلام الملك على تفضيل يحيى عليه،(52) وحذره من التفكير في ارساله الى آسفي او الى اي ثغر من الثغور(53) ، وأخبره انه يعد للفرار(54) ، وذهب الى حد الاشارة على الملك بتدبير قتل يحيى للتخلص منه(55) . والح على ان المنطقة هادئة لا تحتاج الى اي وسيط من نوع يحيى(56) . وكانت اتهامات الحاخام أبرهم شبيهة باتهامات القبطان(57) .

وبعد عودة يحيى الثانية اصطدم من جديد مع القبطان (مشكرنياش) ومساعديه وأعيان الجالية اليهودية، فاشتكى كل طرف الى الملك(58) . واتهم يحيى مرة اخرى بالاعداد للخيانة، واتفاقه مع الأعرج السعدي ومع الوطاسي. ويلاحظ ان قبطان أزمور كان يرى في يحيى الخادم الوفي(59) ، كما ان الملك لم يتخذ قراراً مشابهاً لما قام به سنة 1512 ، وطلب من قبطانه العمل على كسب صداقة يحيى، وان كان قد طلب تزويده بمعلومات تدل على تسرب الشك اليه(60) .

ولقد لاحظ المؤرخ لوبش (D. Lopes) انه كان وفياً، ولكنه لم يستطع التغلب على العقلية التي اكتسبها من خلال تطاحنه على السلطة بآسفي. وبسبب الجو المشحون بالشك والدسائس الذي كانت تعرفه آسفي بعد احتلالها، رسخت تلك

العقلية لديه، فلهذا كانت مواقفه مشوبة أحياناً بالغموض وتدفع إلى الشك.

ويرى أنه استطاع الحصول على ثقة الملك وأعطى لنفسه اصدقاء ذوي نفوذ كبير بلشبونة. وختم قائلا: يمكن الجزم بأنه لم يخن أبدا القضية البرتغالية رغم الوثائق الخطيرة التي أرسلها القبطان أتايد، لانها لا تدل الا على استغلال للنفوذ من طرف يحيى «... لا نسوّد ذكراه بهذه التهمة بالخيانة، ولكن من الاولى ان نمجد الخدمات الكبرى التي قدمها للقضية البرتغالية، وبذلك سنعيد له حقه...»(61)

ونعتبر انه يجب الوقوف ازاء يحيى موقفين مختلفين لفهم تعامله من البرتغاليين.

- فالى حدود 1514، اغتر كثيرا بنجاحه السريع وبوزنه السياسي. ويبدو من خلال ما وصلنا من نصوص ان فكرة الاستحواذ على السلطة اعتمادا على البرتغاليين قد دارت فعلا بمخيلته، كما يتجلى ذلك من خلال الالقاب السلطانية التي خص بها نفسه(61)، وفيما كان يعبر عنه سرا وعلانية. وبذلك يكون يحيى قد استمر في البحث عن السلطة بعد فشله بآسفي، وذلك اعتمادا على نفس المخطط الذي لم يتم له بالمدينة: الاعتماد على البرتغاليين قبل خيانتهم، ولكن هذه المرة في البوادي الاقل انقساما من المدن. ولهذا لم تنفع معه كل المغريات، وفشلت كل المحاولات لابعاده عن البرتغاليين، لانه كان يعتقد انه كان على ابواب السلطة. ولهذا ايضا كان أكثر الناس عداء للشرفاء السعديين بعد استقرارهم بالشياظمة.

- اما بعد رجوعه الثاني، فلقد أخذ منه ارجاع القبائل الثائرة الى اراضيها، وحركات الوطاسي وقتا كبيرا. ولم يستطع ان يعيد لنفسه الهيبة التي كانت له من قبل. ولم يكن بامكانه التراجع والالتجاء الى الوطاسيين رغم وصول عدة وفود جاءت لهذه الغاية، لان ذلك ما كان ليؤدي به الا الى الموت.

وكان خلافه هذه المرة مع القبطان أساسا حول طريقة تسيير المنطقة. ولم يكن بامكانه خيانة البرتغاليين أو حتى عصيانهم، لتراجع تحكمه في القبائل. وهكذا كان استمراره في الدفاع عن المكتسبات البرتغالية في الحقيقة دفاعا عن حياته هو، ذلك انه

لم يعد بيده الا حلاّن اثنان: اما ان ينجح، واما ان يموت وهو يدافع عن مكانته. ولقد اصبح واعيا بهذه الوضيعة التي عانى منها. [62]

3 ـ موقف الجالية اليهودية الحقيقي من الاستعمار

لقد وقفت بعض الاسر اليهودية موقفا ايجابيا واضحا من الاستعمار البرتغالي. وعلل بعض المؤرخين ذلك بكونه محاولة من طرف اليهود المستضعفين الانتقام من المسلمين الذين كانوا يعرضونهم لكل انواع الاهانات. [63]

ولكن هذا الافتراض لم يكن يعتمد الا على حكم مسبق ربما أوحته وضعية اليهود بأوروبا في تلك الحقبة.

لم تشر المصادر المتعلقة بالفترة وبالمنطقة، سواء منها المغربية (الوزان على الخصوص) أو الاوروبية الى أي شكل من أشكال الاضطهاد أو التعصب الديني، بل على العكس من ذلك، اشارت الى ما يثبت خلاف ذلك، فبعد استقلال الحواضر التجارية، ورغم تزايد القلاقل، استمر اليهود في الاهتمام بأنشطتهم السابقة، واصبح بعضها ـ وكان مربحا ـ حكرا عليهم كالصياغة وسك العملة (تادنيست مثلا)، واعفوا من اداء الجزية. [64] ولا شك في ان المصادر البرتغالية ما كانت لتسكت عن ذلك الاضطهاد لو كان موجودا فعلا، خصوصا وان المؤرخين سجلوه مباشرة بعد ظهوره [65] ـ نتيجة تلك العمالة. فهل نتجت عمالة الجالية اليهودية عن رغبة اعيانها في التقرب من الحكام الجدد ودفعهم الى التخلي عن سياسة التعصب التي كانت متبعة آنذاك بالبرتغال؟

حقيقة ان الجالية اليهودية توصلت بمجموعة من الضمانات سبقت الإشارة اليها. كما سبقت الاشارة الى حدود تلك الضمانات وعدم التزام البرتغاليين بها، والى ان الملك البرتغالي كان يعمل على تخفيض اعداد يهود آسفي، وأزمور. وقام بالفعل بطرد عدد من الاسر، في حين لم تتعرض الاسر اليهودية الكبرى الى أي شيء من ذلك، رغم تورطها في المضاربات على حساب الجنود، ورغم

تآمرها ضد يحيى، وبث الشكوك بينه وبين القبطانين (أتايد ومشكرنياش). وهذا ما يدفعنا الى نتيجتين مهمتين:

1 - اننا حين نقول أن يهود دكالة تورطوا في عمالتهم مع الاستعمار البرتغالي، نقع في خطأ التعميم، ونغتر بما كتبه مؤرخو الاستعمار البرتغالي لاغراض سياسية. فالطبقات الدنيا من المجتمع لم تكن لها يد في هذه العمالة، رغم أنها دفعت الى اتخاذ بعض المواقف كدفاعها عن آسفي. من الاكيد ان عامة اليهود تضررت من الاستعمار (الضرائب، تحمل كثير من المصاريف الاستثنائية، اهانات، سرقة...) مثلما تضررت عامة المسلمين.

2 - ان المتعاملين من اليهود - والذين كانوا اعيان الجالية - لم يكونوا يتوخون بذلك الدفاع عن مصالح اخوانهم في الدين وحمايتهم من بطش المسؤولين البرتغاليين. فهذا ما لم يقوموا به أبدا في حالات كثيرة ذكرنا بعضها. لقد سارعوا الى خدمة البرتغاليين للاستفادة مما يقدمونه من امكانيات الوساطة السياسية (لمعرفتهم اللغة البرتغالية) والتجارية. ولهذا لا تذكر المصادر الا مجموعة منهم سخروا أنفسهم لصالح الاستعمار لخدمة مصالحهم الخاصة. فقد كان ابرهم يظهر بمظهر التاجر الكبير والمضارب لا بمظهر الحاخام. وهنا يكمن شذوذ موقف هذه العناصر: فهي من أصل ايبري، كما يتجلى ذلك من خلال أسمائها، اي انها كانت ضحية التعصب الديني هناك، وأرغمت على التشرد وترك المال والبنين، ولكن استفادتها المادية انستها ما عانته بالبرتغال واسبانيا.

ولعل ما كتبه القبطان (ليط) مرة الى الملك البرتغالي عن موقف هذه الفئة من الاستعمار خير معبر عن خلفيات ولائهم. فلقد كتب بان الامور بمثل خطورة التهييء لغزو المغرب يجب ان لا تسند الى اليهود الذين لا يفكرون الا في مصالحهم الخاصة. هذا في سنة 1530 ، أي بعد أن ظهرت النوايا الحقيقية لاعيان اليهود.(66)

وكان ابرهم بن زميرو وهو يفاوض الشريف السعدي يعمل على الحصول منه على امتيازات تجارية بمراكش، ويتقرب اليه تنبؤا بانتصاره، ولقد فضح بعض

السجناء البرتغاليين مخططات كبير يهـود آسفـي. (67) وكان ما قام به يوسف الـديب مماثلا. (68)

4 ـ موقف الفقهاء ورجال الدين من التوسع البرتغالي بدكالة

لم تحظ هذه المنطقة باهتمام المؤلفين خلال هذه الفتـرة. ولـم نتوصـل بمـؤلف كدوحة الناشر يمكن من تسليط الاضواء على دور هذه الفئة في مقاومـة الاسـتعمار البرتغالي.

وكان كل ما وصلنا هو اشارات سريعة زودنا بها مارمول تتعلـق بآسفـي قبـل احتلالها. ولم نستطع الوقوف على شيء يثبت قيادة ركراكة للجهاد كما تدعي ذلك الرواية الشفوية.

ولا شك في أن فقهاء المنطقة وعلماءها غادروها اثر سقوط حواضرها. (69) لهذا كان الذين تدخلوا بالمنطقة لدى القبائل أو لدى يحيى ممن يعيشون خارج دكالـة. وكان أشهرهم وأكثرهم نشاطا في بداية الامر «ولي اغمات» الذي كاتب يحيى لابعاده عن البرتغاليين، وتدخل لدى نفس الشخص فقيه آخر. (70)

وكان الوطاسيون يرسلون كلما تحركوا نحو دكالة عددا من رجال الدين الى يحيى وقبائله لاقناعهم بالابتعاد عن البرتغاليين. (71)

ولم يكتف بعضهم بالوعظ، بل مات منهم عدد في حروب ضد البرتغـاليين. فلقد استشهد ـ حسب رواية شفوية ـ سيدي عبد المالك بن عامر السباعي في معركة ضد برتغاليي آسفي قرب مفج تيزي أو معاشو، حيث دفن. (72) وفي مخطوطة الفقيه الكانوني ـ جواهر الكمال ـ (73) بعض أسماء من جاهدوا ضد برتغاليي آسفي:

1 ـ «. . . عبد الكريم الرجراجي، أحد أولياء هذا الثغر الآسفي. وفي بعض التقاييد أنه حضر حصار آسفي في القرن العاشر الهجري. . .»

2 ـ عبد الكريم الصنهاجي «. . . يقال انه حضر حصار آسفي في القرن العاشر الهجري.»

3 ـ «أبو الحسن علي بن احمد بن حسين بن كرارة الرجراجي العبدي. . . في بعض التقاييد انه حضر حصار البرتغال بآسفي في العاشر الهجري.»

4 ـ مول البركي وأخوه عزوز.

5 ـ الغازي بن قاسم الاسفي «. . . ويقال انه كان من المرابطين على آسفي في عهد البرتغاليين من القرن العاشر الهجري.»

وأورد كل من ميشوبلير (M.Béllaire) (74) وانطونا (.Antona) بعض هذه الاسماء، وكذا اسماء أخرى. (75)

5 ـ موقف التجار المغاربة من احتلال موانيء دكالة وتوسعهم داخلها.

من المعلوم أن طبيعة نشاط هذه الفئة تتطلب الاستقرار، الشيء الذي افتقرت اليه المنطقة مع بداية التوسع البرتغالي داخل دكالة وبداية اهتمام الوطاسيين بها. ورغم أنهم تضرروا كثيرا من الفتن وانعدام الامن، فانهم استمروا مع ذلك في مزاولة نشاطهم. وما يهمنا الآن من هذه الفئة القليلة هو موقفها من أحداث المنطقة الذي أصبح يمتاز بطابعين:

(أ) موقف شبه لا مبالي، اذ كان التجار المسلمون يفدون على الثغور المحتلة، كما كان التجار المسيحيون يتقاطرون على مراكش، والقصر الكبير (بالهبط)(76) . وكثيرا ما تفد القوافل على الثغور مباشرة بعد نهاية معركة ما بين الطرفين. (77)

(ب) ان تحركاتهم سرعان ما فقدت حريتها وأصبحت موجهة من طرف المسؤولين بالمنطقة، وخصوصا السعديين بعد دخولهم لمراكش، اذ ان حصار الثغور الدكالية الثلاث يتطلب منع دخول المواد الغذائية اليها. وهذا ما

سبب حركة معاكسة، فاصبح على التجار المسيحيين أنفسهم أن يتوجهوا الى مراكش لشراء ما هم في حاجة اليه من سلع.[78]

كما كان القباطنة يعملون على ادماج شرط متعلق بحرية التبادل ما بين الثغور والمناطق المجاورة في معاهدات السلم.[79] وكان التجار يخضعون لضغط آخر. فلقد كان عليهم تزويد الثغر الذي يفدون عليه بالمعلومات المتعلقة بالطرف الآخر، أو بالتجسس عليه. وأرسلت بعض القوافل الى الثغور الدكالية أساسا من أجل هذه الغاية.[80]

6 ـ موقف القبائل الدكالية من الاستعمار.

لقد جعل تعامل القبائل الدكالية مع الاستعمار، ومساهمتها لبضع سنوات في مجهوده الحربي، وفي نجاحه النسبي بالمنطقة، عددا من المؤ رخين يعملون على تبرير هذا الموقف الخطير والشاذ في نفس الوقت.

وكان أشهر هذه التعليلات وأكثرها قبولا لدى المؤ رخين المحدثين ما كتبه مارمول. لقد أرجع الرحالة الاسباني الأمر الى وجود «لفين» بدكالة كانا متناحرين، الاول قوي مكون من قبائل الشرقية الست، والآخر قليل وضعيف مكون من عبدة والغربية. وبما أن الضغط كان قويا على القسم الضعيف، فانه عمل على استغلال قوة البرتغاليين للانتقام لنفسه، وتغيير ميزان القوى لصالحه: «... وللانتقام لأنفسهم من هذه الاهانة، انضم هؤ لاء للبرتغاليين، وبواسطتهم أصبحوا بعد ذلك أقوى من الشرقية، وأعلنوا ضدهم لمدة حربا قاسية...»[81]

والغريب هو أن أحدث الدراسات، والتي ادعى البعض أنها تحررت كليا من الافكار المسبقة،[82] أخذت بهذا الرأي واغترت كذلك بما كتبه المؤرخ البرتغالي (كويش).[83] لقد اعتقد هؤلاء المؤرخون أن قبائل دكالة وخصوصا منها القريبة من آسفي، لم تواجه البرتغاليين في بداية الامر بأية معارضة. بل على العكس من ذلك، تقبلتهم بتلقائية وعفوية واضحتين ومقصودتين للسبب السابق الذكر. وقبل مناقشة ما أورده مارمول نشير أولا الى خطأ سقط فيه. فلم تعلن عبدة والغربية على الشرقية تلك الحرب التي تكلم عنها، ولم يكن الفارق الزمني بين خضوع الغربية

والشرقية مهما ليسمح بتلك الاصطدامات، اذ خضعت في سنة 1512 : الغـربية (يناير)، أولاد عمران، أولاد فرج: (فبراير) مشنزاية، أولاد سبيطة (مارس). (84)

حقيقة أن المنطقة عرفت اصطدامات ما بين القبائل، كضغطمشنزاية على عبدة وبايعاز من الشرقية (85) (1511)، واصطدامات متكررة ما بين الغـربية ومشنـزاية وأولاد سبيطة وأولاد عمران (86). ولكن تتبع أسباب هذه الاصطدامات يفصح عن دوافع أهم مما يدعيه (مارمول). فالضغط على عبدة سنة 1511 كان وليد تعاملها مع البرتغاليين وامتناعها عن المشاركة في الجهاد للسبب الذي ذكرناه في محله. ولهذا كانت تهاجم كذلك من طرف الشياظمة الموجودة خارج المنطقة، والتي لا تنتمي لأحد «اللفين» المزعومين (87). كما أن الاصطدامات ما بين الغربية وجارتها ناتج عن توزيع مناطق الحرث والمراعي، الشيء الذي سبب اصطدامات حتَّى ما بين فروع الشرقية نفسها (88). وإذا كانت الغربية مهاجمة سنة 1515 من طرف الشرقية، فذلك ناتج أساساً عن كونها الوحيدة التي خضعت للبرتغاليين وأدت لهم الضرائب وكانت تزودهم بالحبوب في وقت كانت المدينة على أبواب المجاعة (89).

ومما يؤكد أن هذه الاصطدامات كانت أحيانا ناتجة عن تعامل المهاجَمين مع الغزاة، أن عبدة سرعان ما أصبحت عدوة الغربية التي أصبحت حليفة «عدوتها» السابقة: أولاد عمران. وذكر (كويش) أن مطاردة الغربية لجارتها ناتج عن خضوع عبدة للبرتغاليين. (90)

ونستخلص من كل هذا أن الاصطدامات كانت وليدة سوقف كل قبيلة من المستعمر، وحول الاراضي. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: ما الذي يجعل هذه القبيلة تخضع وتلك ترفض ذلك؟.

من الأكيد أن نظرية التوازن والخضوع التلقائي ناتجة عن حكم مسبق. فلقد سبقت الاشارة الى أنه باستثناء عبدة - التي لم نتوصل بشيء عنها - لم تخضع كل القبائل الدكالية الا بعد أن قاومت البرتغاليين، وهاجمتهم أو هاجموها عدة مرات. ونشير الى أن الغربية شاركت في حصار 1510 وتعرضت بعد ذلك لعدة غارات،

ولم تخضع الا سنة 1512 . ولقد سبقت الاشارة الى اسباب خضوع قسم منها اعتمادا على رواية (كويش) تتعلق بعيسى بن ابي بكر.

وما قامت به القبائل القريبة من آسفي لا يختلف عما قامت به القبائل القريبة من أصيلا أو سبتة أو بالسوس. ولكن ظهور المقاومة بالثغور الشمالية، وظهور السعديين بالسوس، سرعان ما جعل حدا لهذه الوضعية ومكن القبائل من وسائل الصمود. وهذا ما يدفعنا الى نتيجة مهمة وهي أن خضوع قبائل دكالة كان وليد الفراغ السياسي، وانعدام قوة قادرة على حماية القبائل. فخضوعها لم يكن عفويا وغاية في حد ذاته، بل وسيلة تمكنها من اتقاء شر الغارات البرتغالية في انتظار فرصة العصيان. ويمكن ارجاع اسباب الخضوع الى ثلاثة:

أولا - القرب من الثغر المحتل الذي يجعلها أكثر عرضة للغارات، ولهذا كانت القبائل الموجودة بجوانب المنطقة أكثر ميلا نحو العصيان. وفرت القبائل لعدة مرات الى خارج المنطقة وتركت أحيانا محاصيلها(91) . ولكن التشرد وقلة الاراضي كانت يرغمانها على الرجوع. فلقد فرت عبدة الى المناطق التابعة للشريف سنة 1515 ، واضطرت الى العودة لأن القبطان هددها باعطاء أراضيها للشياظمة، ولأن «الدليل» هاجمها وهي لاتزال بالشياظمة، وأرغمها على عبور التانسيفت(92). ولقد سبقت الاشارة الى أن قلة المراعي بالشياظمة أرغمتها على الرجوع الى أراضيها والرضوخ مرة أخرى بعد عصيانها سنة 1518 (93) .

ويتجلى يأس القبائل واضطرارها الى الرضوخ في مثال الغربية: فرغم ما قيل عن ولائها كانت تثور وتفر من أراضيها كلما سنحت الفرصة (1515, 1516, 1517) . فبعد اغتيال يحيى، أسرت عددا من البرتغاليين وفرت الى منطقة أنماي، شرق مراكش، حيث بقيت تنتظر وصول العون الوطاسي، وتوقعا لعدم وصوله، احتفظت بـ نورنيا R. De Noranha للضغط به على البرتغاليين، وللحصول منهم على عفو في حالة اضطرارها الى الرجوع. وبالفعل، اضطرت الى ذلك بعد اقامة بالحوز، ثم بجوانب أم الربيع(94) . وعادت الى العصيان بعد ذلك، ولكن الغارات البرتغالية

أرجعتها الى «رشدها» [95] . وقبلت بعض القبائل عن طواعية مغادرة المنطقة والرحيل الى السايس [96] .

ولم يكن هذا الفرار ممكناً باستمرار، لان القبائل لم تكن تتقبل وصول أخرى الى أراضيها. فاذا كانت عبدة قد التجأت الى الشياظمة بعد عصيانها سنة 1515 ، فان ذلك سبب اصطدامات مع قبائلها التي استنجدت بالبرتغاليين [97] . كما أن البرتغاليين عملوا عن قصد على خلق اصطدامات ما بين قبائل المنطقة والقبائل المجاورة للحيلولة دون التجائها الى هناك. وهكذا كانت القبائل القريبة من آسفي حبيسة مجموعة من العوامل أرغمتها على الرضوخ. وهذا ما سهل مهمة كل من يحيى والبرتغاليين. ومع ذلك، لم يكن خضوع هذه القبائل صادقاً كما يتجلى ذلك في تراجعها السريع وقت المعارك الصعبة، وعصيانها الفوري اثر قتل أتايد، واغتيال يحيى.

ومما يؤكد أن هذه القبائل كانت مرغمة على الرضوخ أنها سارعت الى العصيان بعد أن تراجع نفوذ البرتغاليين بالمنطقة، واصبحت عبدة والغربية على رأس محاصري برتغاليي آسفي، واستمرتا في جهادهما حتى بعد اخلائهم لها، اذ نقلتا عملياتهما ضد برتغاليي مازيغن[98] . ويكفي للدلالة على ذلك شهادة المؤرخ (كويش Gois) الذي اعترف بأن القبائل كلها أرغمت على الرضوخ بعد أن فشلت محاولاتها اليومية: « . . . وسببت تلك الغارات التي نظمها (دون نونوش)، الواحدة تلو الأخرى، خوفا كبيرا لدى أعراب وبرابرة كل المنطقة، الى حد أن أولئك الرجال الذين كانت غايتهم الاولى والاخيرة الى ذلك الوقت هي اعلان الحرب على آسفي، فضلوا بعد ذلك الخضوع على النتائج الهزيلة التي تسفر عنها الثورات التي كانوا يقومون بها يوميا، والتي كانت في جل الاحيان تسبب لهم خسائر أكثر مما يجنون منها من فوائد . . . »[99]

ثانيا ـ عجز الانظمة القائمة آنذاك عن تحمل مسؤولياتها : كان

خضوع القبائل ناتجا عن انعدام قوة قادرة على حمايتها. ولهذا كانت تنسى التزاماتها للبرتغاليين كلما تحرك الهنتاتيون أو الوطاسيون نحو المنطقة، وكانت تساندهم. ولكن هاتين الدولتين سرعان ما أظهرتا عجزهما عن حماية قبائل المنطقة. (100) ومالت القبائل الى السعديين الذين كانوا بدورهم عاجزين في بداية الأمر عن القيام بأي شيء. وأمام هذا العجز أرغمت القبائل على الرضوخ لشروط البرتغاليين، ولكن ذلك لم يتم الا بعد تعرضها لغارات وحشية كثيرة كما حدث لأولاد مطاع، أو بعد الهجوم على قريتي بنكيز وتافوف. واخترنا مثال هذه القبائل والقرى الموجودة خارج المنطقة لنثبت استحالة صمود التي كانت أقرب منها لآسفي أو أزمور.

وتخلت كل القبائل عن البرتغاليين بعد دخول السعديين الى مراكش، وبعد أن أظهروا قدرتهم على الحاق الضربات القوية بالغزاة.

ثالثا ـ الا يمكن أن نتساءل عما اذا كان وراء مساهمة العبديين والغربيين في بداية الامر، ثم الشرقية بعد ذلك في الغارات سبب اقتصادي، خصوصا وأن السنوات الاولى للتوسع أضرت كثيرا بالقبائل الحليفة نفسها لانه تم على حسابها، ثم تضررت هذه القبائل من دخول الناصر الكديد الى المنطقة ربيع 1514 . ولهذا وذاك، كانت الحبوب خلال صيف هذه السنة قليلة جدا، وكانت الشرقية تعاني من المجاعة في حين أرسلت عبدة الى منطقة اولاد مطاع لادخال ضرائبها والاحتفاظ بها لنفسها. (101) . وحينما ارادت احدى قبائل الشرقية اختطاف كميات من القمح الذي كان مطمورا بالشاوية، التجأت الى قبطان أزمور ليعطيها بعض الجنود ليتم ذلك باسم البرتغاليين(102) . وهذا ما دفع عبد الرحمان بن حدو، الذي كانت قبائله تعاني من الجفاف الى انتظار التحاقه بأزمور واتفاقه مع المسؤ ولين بها قبل الهجوم على أية قبيلة.

وكانت هذه الغارات الى جانب البرتغاليين تسمح بغنائم مهمة ذلك أنهم كانوا يتنازلون لهم عنها مقابل تنازل الحلفاء لهم عن الاسرى. فلقد دام نهب مدينة

(أمغور) ثلاثة أيام، وعاد كل شيء للحلفاء. (103) وسببت تلك الغنائم حسب رواية القبطان أتايد، غنى كل من عبدة والغربية، الشيء الذي أغرى الشرقية التي عملت بدورها على المساهمة فيها. (104) وكان الحلفاء لا يهتمون حين الغارات الا بجمع أكثر ما يمكن من الغنائم. (105) وبذلك تكون القبائل الدكالية قد عملت في هذه الفترة الحرجة على العيش على حساب القبائل الاخرى. وليس هذاامراً غريبا، لانه يحدث في كل مكان وزمان في الاوقات الحرجة التي تقل فيها المواد الغذائية: فبعد تخريب الناصر الكديد لدكالة قلت الحبوب واصبحت قبائل الشرقية نفسها تتناهب ما بقي منها بالمنطقة. (106)

وهكذا لم تكن دكالة تختلف في موقفها من الغزو البرتغالي في شيء عن باقي المناطق. فلقد رفضته قبائلها وسكان مدنها. وعاكست قبائلها توسعه بالداخل بعد سقوط المدن الساحلية، وصمدت طويلا في وجهه، ولكن بعد المنطقة عن فاس، وشلل كل من الهنتاتيين والوطاسيين، وتعرضها لسلسلة من الغارات، ارغمها على الرضوخ.

وعرف البرتغاليون كيف يستغلون هذه المعطيات الايجابية. فلقد اقحموا القبائل المجاورة لآسفي - وبطريقة منهجية - في حروبهم التوسعية ضد القبائل الاخرى المجاورة لها أو المحيطة بالمنطقة، وذلك بدفعها في بداية الامر تحت قيادة يحيى، الى ارغامها على دفع الضرائب الشيء الذي خلق عداء ما بينها وبين جاراتها حال دون وجود تماسك فيما بينها،وحرمها من امكانية الفرار الى مناطق بعيدة عن آسفي. ونتج عن ذلك العداء أن البرتغاليين جعلوا تلك القبائل تتوهم أن مشاركتها في حروبهم لا تهدف في الحقيقة الا الى الدفاع عنها ضد أعدائها. (107) وبذلك ظهر الغزاة بمظهر المدافعين والمضحين! ولعب يحيى بالطبع دورا خطيرا في ترسيخ هذه الفكرة، وذلك لاغراض شخصية سبقت الاشارة اليها.

وتبين لنا من خلال هذا العرض كيف أن الانظمة القائمة آنذاك سهلت مهمة التوسع بتجاهلها في بداية الامر لما يدور بالمنطقة. ولم تتحرك الا بعد أن حصل

المسيحيون على مكتسبات مهمة بالمنطقة. وهذا ما يدفعنا الى طرح عدد من الاسئلة: لماذا هذا الشلل؟ ومتى بدأ الاهتمام بدكالة، ولماذا، وما هي النتائج؟

الهوامش والتعاليق

(1) كان قبطان أزمور على علم، منذ شهر، بالغارة التي نظمها الاعرج ضد المدينة. وكان قد اخبره بذلك قبطان آسفي: S.I.H.M. Port. II p. 508

(2) عن تيط Ibid I, p. 506 وعن أزمور Góis.. Op. cité. p. 187 /
De Sousa.. Op. cité. p. 38 – 39
عن أكوز Ibid. II p. 196, 319 – 20
وعن آسفي: Ibid II, p. 168

(3) S. I. H. M.Port.I, p. 187 – De Marmol... Op. Cité II, p. 89 حيث ورد في رسالة اعيان آسفي الى الملك التي سبقت الاشارة اليها عدة مرات (1509) «... وما نحن يا مولانا، ما نحن عند المسلمين الا نصارى....».

(4) عن مكاتبته الاولياء انظر تحته، وعن اعلانه ذلك وقت تجمع القبائل S. I. H. M. Port.I, p. 381

(5) S. I. H. M.Port.I. p. 553

(6) Hesp. Tam. XII. 1971 p. 199

(7) S. I. H. M.Port.II. p. 106

(8) Ibid I. p. 576 وعن اختطاف الانعام او محاولة ذلك: Ibid II, p. 168, 260 III, p. 259.

(9) De Sousa... Op. cité. pp. 38 – 39

(10) S. I. H. M.Port.II, p. 408

(11) Góis... Op. Cité. p. 189 – Ibid. II, p. 10, 260

(12) De Sousa... Op. Cité. pp. 38 – 39

(13) S. I. H. M.Port.II, p. 500 وكان ذلك ربيع 1530، وعن جهاد «السلاويين» Ibid. II, p. 508

(14) محمد حجي: القومية المغربية دعوة الحق يونيو 1967 ص 92 وما بعدها، يوليوز 1967 ص 139 .

محمد المنوني: القومية المغربية. دعوة الحق. يوليوز 1968 ص 76 .

(15) S. I. H. M.Port.I, p. 378

(16) Ibid I, p. 621

(17) Ibid I, p. 620

(18) J. De Sousa: Documentos... Op. Cité p. 42 – Ibid I, p. 362

(19) J. De. Sousa... Op. Cité p. 42

(20) S. I. H. M.Port. I, p 362

(21) Ibid. I. p. 620, 630 et I. 381

(22) H. Terrasse: Histoire du Maroc II, p. 146

L. Provencal: Historiens des chorfa; Paris. 1922 p. 9.

(23) كان بالسوس قائد في رتبة يحيى، وان كان أقل شهرة: مالك بن داود الذي قتل

S. I. H. M. Part II, p. 128 وكذلك P. Cenival: chronique

Anonyme de Santa cruz op. Cité pp. 29 – 31, 40 n. 1

(24) Góis... Op. Cité p. 72

(25) Léon... Op. Cité I, p. 122

(26) De Sousa: Documentos... Op. Cité. 131

S. I. H. M. Port.11, p. 51

وكان هذا الشيخ الى جانب الناصر الوطاسي ربيع 1514

Ibid: I, p. 534

(27) Ibid I, p. 505

(28) Ibid I, p. 512

(29) Góis... Op. Cité p. 121

(30) S. I. H. M. Port.I, p. 506 No 1, 610 No 2

(31) Ibid I, p. 552

(32) Ibid I, p. 755

(33) Ibid I. p. 552

(34) Ibid I, PP. 378, 619, 620, II, p. 276 etc...

وتوجد بسجل الضرائب السابق الذكر لائحة الرهائن واعمارهم بأسفل المعاهدة الممضاة مع كل قبيلة أو فرع .

(35) L. De Sousa... Op. Cité 38

D. Lopes: Textos... Op. Cité 161

S. I. H. M.Port. I, p. 486.

(36) L. De Sousa: Op. Cité p. 35

(37) S. I. H. M.Port.I, p. 552

(38) Ibid I, p. 628 No 2.

(39) Ibid II, p. 260

(40) Ibid II, p. 536

(41) Ibid II, p. 583 وكان من المقرر ان يتنازل له البرتغاليون عن اصيلا ليحكمها تحت اشرافهم.

(42) فكر في تسليم تطوان للبرتغاليين سنة 1502 مقابل مساعدته على الهجرة الى تونس:
Elaine Sauceau et R. Ricard. un projet de remise de Tetouan aux portugais en 1502
Hesp. 1957. 1ère trim pp. 21 – 23

(43) تآمر المولى ابراهيم سنة 1511 مع القشتاليين ضد الوطاسيين وذلك رغم امضاء الاسبان لمعاهدة سنترا سنة 1509 . والجدير بالملاحظة ان ذلك يطابق بداية رئاسة الشريف للجهاد بالمنطقة بعد أن كان ذلك يتم تحت رئاسة أبيه.
انظر Góis.. Op. Cité pp. 77 – 78 et No 1

(44) Góis.. Op. Cité pp. 34, 74, 87... «. . . والذي خدم طوال حياته، بكل اخلاص، الملك دون أمنويل. . . » ص 87

(45) S. I. H. M.Port.I, pp. 337 – 353, 378 – 380, 381 – 384, 385 – 386, 630 – 637, 642 , 648 658 – 663, 664 – 666, 667 – 669

(46) Ibid I, pp. 337 – 381

(47) S. I. H. M.Port.I, p. 378

(48) Ibid I, pp. 316, 326

(49) عن تحريض القبائل Ibid I pp. 378, 381 وعن الالقاب السلطانية Ibid I, p. 337 وجاء في وثيقة تعيين ابن الحجاج مقدما على الحارث «بيمن الله وتوفيقه وباذن من له الاحكام السلطانية بمدينة اسف الشيخ الاجل الافضل. . . المؤيد المنصور ابو زكريا يحيي بن محمد أدام له عزه ومتع المسلمين بحياته، وافسح لنا في دولته. . . » Ibid I, p. 316
ووصف بالسطان ص 318 (نفس الوثيقة) وفي ص 326

(50) Ibid I, pp. 385, 630, 631, 658

(51) Ibid I, PP. 340 – 341, 344 – 346

(52) Ibid I, p. 642

(53) Ibid I, p. 642, 658

(54) Ibid I, p. 642

(55) Ibid I, p. 630

(56) Ibid I, p. 658 وكانت الغاية من الهجوم على مراكش هي جعل الملك البرتغالي يقتنع بذلك

(57) Ibid I, pp. 356 – 361, 619 – 629

(58) اتهامات القبطان : Ibid II, 128 et pass. 144, 147

(59) Ibid II, PP. 164 – 165

(60) Ibid II, p. 115

(61) D. Lopés: Textos... Op. Cité pp. 208 – 210

(61م) S. I. H. M. Port Ip 316 وراجع الهامش 49 من هذا الفصل

(62) S. I. H. M. Port.II, pp. 134, 155

(63) Massignon: I e .Maroc.. Op. Cité p. 158 ولم يذكر شيئا يدل على وجود تعصب ديني بدكالة D. Lopès Textos... Op. Cité p. 160

(64) Léon... Op. Cité I, p. 74 – 75

(65) يمكن ملاحظة ذلك بمقارنة ما كتبه مارمول بشان تادنيست نفسها Op. Cité II, p. 8 وما كتبه القنصل شوني . Chênier recherches historques Op, Cité III, p. 37

(66) S. I. H. M. Port.II, p. 50

(67) Ibid II, p. 323, 506

(68) Ibid II, p. 508

(69) كان سيدي علي ، احد اعيان ازمور ممن صاحبوا الناصر الكديد حين دخوله الى دكالة Ibid I, p. 534 وكان من الفارين كذلك جد وأبو احمد بن علي الصنهاجي الزموري : العباس بن ابراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ط. الرباط 1974 ج 2 ص 248 . وخص البرتغاليون هذه الفئة بحقد كبير. فلقد استهدفت اول غارة نظمها اتايد بعد تعيينه دار احد المرابطين وانتهت باسره رفقة مائة من الافراد : Góis.. Op. Cité 60

(70) S. I. H. M.Port.I, pp. 381, 619

(71) Ibid II, p. 133

(72) Ibid II, p. 2 Nó 1

(73) الفقيه الكانوني . . . العبدي : جواهر الكمال في تراجم الرجال. مخطوطة الاستاذ المنوني تبدأ بعبد الرحمان ـ ولم نعثر على القسم الاول وطبع قسم صغير جدا منها بالبيضاء .

(74) M. Bellaire: Les Doukkala... Op. Cité pp. 143

وأورد على الخصوص اسماء مجاهدي القرن الحادي عشره (مازيغن)

(75) A. Antona : La région des Abda Op. Cité pp. 78, 84

(76) S. I. H. M. Port.III, pp. 220, 259 وعن القصر الكبير: مرآة المحاسن ص 142

J. De Sousa... Op. Cité p. 59

(77) S. I. H. M.France 1ère serie I, p. 131

(78) Ibid. Port III, pp. 220, 259

(79) Ibid II, p. 364

(80) J. De sousa... Op. Cité p. 59

Ibid III, pp. 59, 410, 440

(81) De Marmol... Op. Cité I, p. 78

(82) تعليق لـ B. Rosenberger عن بعض أعمال مؤرخ بولوني عن المغرب:

Hesp. Tam. XII. 1971 p. 199

(83) كتب (كويش) «. . . . لقد كان اسم دون امنويل جد معظم في كل هذه البقاع من بلاد المغرب (Bérbérie) حتى ان عددا كبيرا من المسلمين (Mouros) كانوا يجعلون انفسهم مواليه ويؤدون له الضرائب عن طواعية وطيب خاطر. . .» Op. Cité p. 127 واخذ المؤرخ البولوني هذا الرأي ووافق عليه B. Rosenberger (المقال المذكور بنفس الصحيفة).

(84) انظر مراحل التوسع بالفصل الثالث من الباب الثاني.

(85) S. I. H. M.Port.I, p. 297

(86) Ibid I, pp. 740, 754

(87) Góis. Op. Cité 83 وعن هجوم الرافضين للخضوع على الخاضعين:

S. I. H. M.Port.I, pp. 736, 750, 755. II. 309 No 2

(88) Góis... Op. Cité p. 143

S. I. H. M.Port.I, p. 740, 755. II, p. 260

(89) Ibid. II. p. 226 et 195

(90) Góis... Op. Cité p. 197

(91) S. I. H. M.Port.II, p. 204

(92) Ibid I, PP. 736, 745

(93) Ibid II, p. 214

(94) Ibid II, p. 178, 226

(95) Góis... Op. Cité p. 196 – 198.

(96) مثال بني ماكر الذين رحلوا حسب القبطان اتايد عن طواعية وتركوا حبوبهم في الامراس (Ibid I, p. 754) ولم يكونوا الوحيدين بل هاجر سكان تارغا، وتيط، ومشنزاية والمدينة الغربية. . .

(97) Ibid I, p. 745

(98) De Marmol.. Op. Cité II, p. 111 وعن محاصرتها لآسفي تحت اشراف السعديين

S. I. H. M. France 1ère série. I, p. 119

(99) Góis... Op. Cité p. 204

(100) الفصل التالي.

(101) S. I. H. M. Port. I, p. 643 ويدخل هذا في اطار سياسة تهدف الى خلق اصطدامات ما بين القبائل القريبة من آسفي والقبائل الموجودة بالمناطق الهامشية لمنعها من الفرار اليها.

(102) Góis... Op. Cité. p. 180

(103) D. de torres: Relation... Op. Cité I, PP. 54 – 55

Gois... Op. Cité p. 137

(104) S. I. H. M. Port. I, p. 677 وعن أهمية الغنائم:

L. De Sousa... Op. Cité pp. 37 – 38

(105) – Góis... Op. Cité p. 163, 226

– De sousa: ... Op. Cité pp. 37 – 38

(106) S. I. H. M. Port. I, p. 740

(107) S. I. H. M. Port. II, p. 225

مزغان البرتغالية

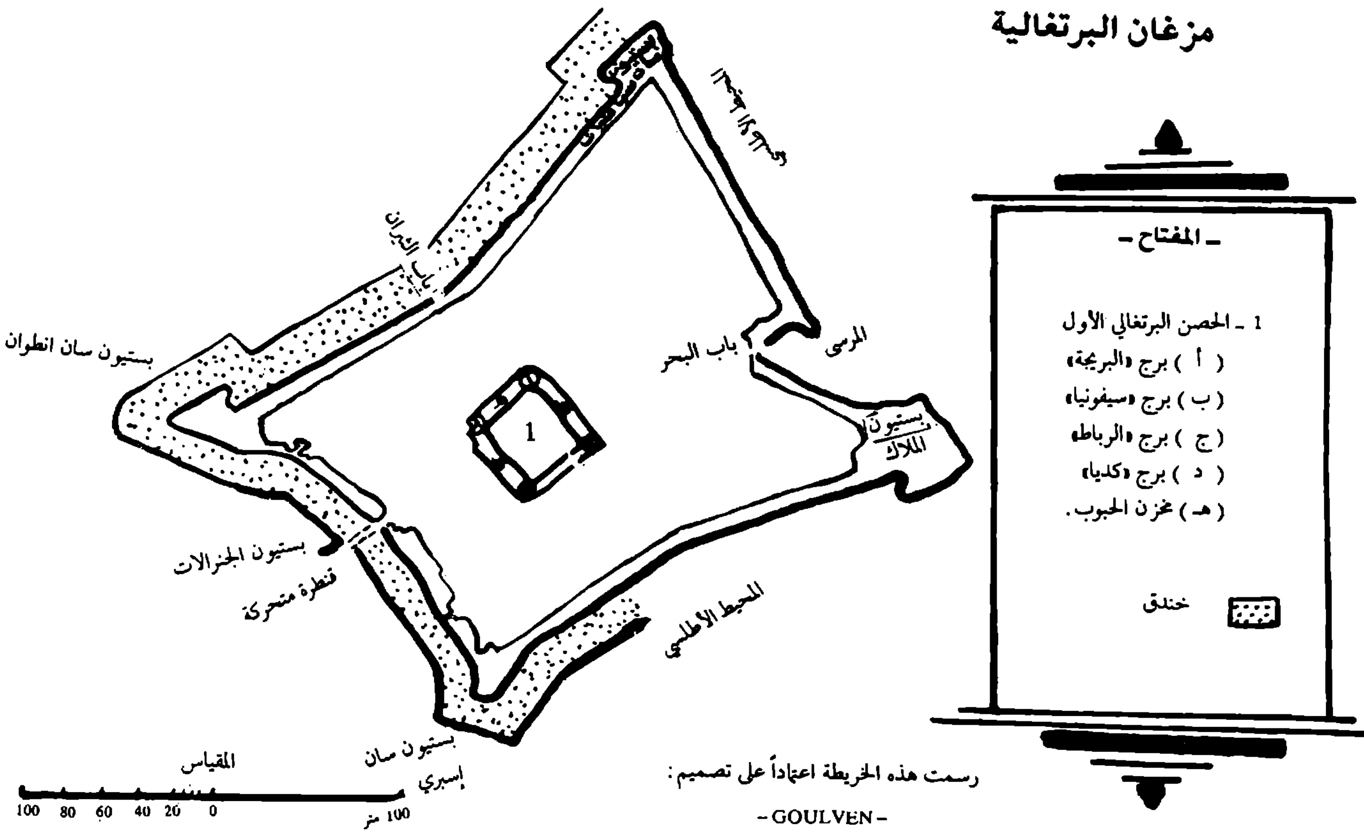

رسمت هذه الخريطة اعتماداً على تصميم :

- GOULVEN -

- LAPLACE DE MAZAGAN... op. Cité -

الفصل الثاني

المقاومة الرّسمية

لم يعان البرتغاليون من عصيان القبائل وحدها، بل هدد اهتمام الحكام المغاربة المتزايد بالمنطقة وجودهم بدكالة تهديداً خطيراً؛ وأصبح عليهم بعد 1512 الوقوف في وجه كل من الهنتاتيين والوطاسيين والشرفاء السعديين. ولكن هذا الاهتمام الذي خص به الحكام المغاربة المنطقة امتاز بثلاث خصائص أثرت كثيراً على مردوديته: لقد بدأ متأخراً، وافتقر إلى التنسيق فيما بين الجيوش الثلاثة، ولم يؤد الى تحرير مبكر وشامل. فما هي أسباب هذا التأخير؟ ولماذا هذه النتائج السلبية مع أن شروط التحرير كانت متوفرة؟

1 ـ لماذا تأخر رد فعل المسؤولين؟.

تجاهل حكام فاس ومراكش ما يجري بدكالة تجاهلا يبعث على الاستغراب، ولم يعيروا أي اهتمام لتدخلات البرتغاليين في سياسة آسفي وأزمور، ولم يحركوا ساكناً لاحتلال آسفي وللهجوم على أزمور سنة 1508 . ووصل الهنتاتي الى حد التعهد للبرتغاليين بلزوم الحياد وقت الهجوم على أزمور سنة 1513 . ولم يقم الهنتاتيون والوطاسيون بشيء يحول دون خضوع البوادي للبرتغاليين. ولا شك أن موقفاً مثل هذا من أمراء مراكش يعتبر أمراً غريباً جداً.

ونتج هذا التجاهل عن ضعف الدولتين. فلقد كان نفوذ الناصر الهنتاتي لا يشمل الا الضواحي المباشرة لمراكش، في حين كانت جبال الاطلس تابعة لابن عمه ادريس الذي كانت النصوص البرتغالية تنعته «بسيد الجبل». وسقطت السهول تحت

رحمة الأعراب، أو بيد بعض الاقطاعيين كعبد الرحمان بن حدو، «سيد أغماي»، الذي كان يتحكم في كل منطقة زمران. ومعلوم أن الأمير الهنتاتي، الواعي بضعفه، فكر في الخضوع للبرتغاليين كما فعل قبله قواد آسفي وأعيان أزمور.

وكانت ظروف الوطاسي أصعب. فزيادة على بعد المنطقة، كانت مشاغله بشمال المغرب كثيرة. فلقد شغلته محاربته للفتن الداخلية، وتحركاته بين الفينة والأخرى نحو الثغور الشمالية، وقلة امكانياته المالية عن الاهتمام بمصير المناطق الجنوبية. ولهذا اضطر الى انتظار توصله بزكات الفطر للتحرك نحو دكالة سنة 1514(1).

ورغم أن الشرفاء السعديين دخلوا منطقة حاحة منذ 1513، فانهم عجزوا عن القيام بشيء يذكر، وأرغمهم البرتغاليون على البقاء في مرحلة الدفاع عن النفس لمدة طويلة، لأن أول اشارة عن عملياتهم العسكرية شمال التانسيفت تعود الى 1518 .(2) ولقد عرف البرتغاليون ببراعة كيف يشلون الشرفاء ويمنعونهم من تعزيز مكانتهم بالمنطقة، وذلك بالالحاح عليهم بالغارات وطردهم من كل المعاقل التي التجأوا إليها وبمنع القبائل من الخضوع لهم، وبخلق عميل لشغلهم بحروب محلية، (بوجمعة) وكذلك بخلق حزام وقائي مكون من عبدة التي حالت دون نقل عملياتهم العسكرية الى شمال التانسيفت. وهكذا بقي الشرفاء عاجزين حتى عن الوقوف في وجه الغزاة الى حدود التاريخ المذكور. ويتجلى ذلك بوضوح في عجزهم عن ارغام الشياظمة على الخضوع الدائم، وفي فرار عبدة والغربية من أيديهم بعد خضوع مؤقت، وفي التجاء يحيى سنة 1517 الى أراضيهم بعد فراره من دكالة التي دخلها محمد البرتغالي.

ورغم ضعف المسؤولين، فان الاتجاه الذي اتخذته الاحداث أرغمهم على التحرك وعلى اعطاء المنطقة اهتماما كبيرا جدا. فما هو سر هذا التحول؟

فاذا تجاهل الهنتاتي نداءات القبائل التي التجأت اليه بعد سقوط آسفي، ولم يساهم في الحصار الذي ضربته على المدينة خلال دجنبر 1510، فانه تحرك صيف 1512 وهو شبه مرغم، ذلك أن خضوع أولاد عمران ربيع تلك السنة جعل قبائل الحوز وجها لوجه مع البرتغاليين، وعرض العاصمة الحمراء نفسها للمطامع التوسعية البرتغالية.

وكان وراء التحرك الوطاسي احتلال أزمور وبداية المفاوضات مع الشاوية في موضوع خضوعها للتاج البرتغالي. ولا شك في أن ذلك لو تم فعلا، كان سيهدد «سلا» وبالتالي «مملكة الغرب» [3] .

وكان وراء هذا التحرك كذلك مجهودات بذلها أبناء المنطقة لدى الحكام ليتحملوا مسؤ وليتهم في حماية رعاياهم. فلقد سبقت الاشارة الى استنجاد القبائل بالهنتاتيين قبل محاصرة آسفي، وربما قام بنفس الشيء أعيانها قبل الخضوع لمشيئة البرتغاليين [4] .

ومعلوم ان مجيء الشرفاء الى الشياظمة كان نتيجة تدخل من طرف الحاحيين لدى القائم بأمر الله[5] .

وتؤ كد المصادر البرتغالية نفسها ان مجيء الناصر «الكديد» الى دكالة سنة 1514 تم بعد الحاح من طرف أعيان أزمور والشاوية. فحسب تقرير أرسل إلى لشبونة (فبراير 1514)، أوقف أعيان الشاوية مفاوضاتهم مع برتغاليي أزمور والتحقوا بفاس للتشاور مع السلطان، وذلك قبل تحديد موقفهم من النصارى[6] . وأكد تقرير آخر أن شيخ الشرقية محمد بن محمد وشخصاً آخر لعبا دوراً كبيراً في اقناع حكام فاس بضرورة التحرك [7] . وكان معه خلال تلك الحملة سيدي علي، أحد أعيان أزمور، وحامي الأمير زيان بها سابقاً [8] . ويفهم من احدى الرسائل أن بعض الحركات التالية تمت بطلب من الدكاليين، كما يفهم منها أنهم لم يتوقفوا عن طلب العون حتى في السنوات التي تغيب خلالها المسؤولون، ولم يستطيعوا التحرك «. . . جَابْنُ عكا، ما ساق شيء من الغرب. . . » [9]

ومعنى هذا أن الدكاليين، ليتمكنوا من الصمود، التجأوا إلى المسؤ ولين وحملوهم مسؤ ولياتهم، الشيء الذي سكت عنه كل المؤ رخين الأجانب الذين تعرضوا لتعامل البرتغاليين مع سكان المنطقة. والجدير بالملاحظة، أنهم ما وجدوا لدى الحكام آذاناً صاغية الا لأن التوسع أصبح يهدد المناطق التابعة لهم تهديداً خطيراً.

2 ـ أوقات الحركات والغاية منها؟

بخلاف ما كان متوقعاً، لم تعد الغارات الوطاسية تهدف الى تحرير الثغور الدكالية، ولم يحاصر الوطاسيون ولو ثغراً واحداً، ولم تصل عملياتهم العسكرية إلى مستوى خطورتها بالشمال. وباستثناء حصار آسفي سنة 1534، لم ينزل الشرفاء بكل ثقلهم في حروبهم مع برتغاليي دكالة. فما هي الغاية التي كانوا يتوخونها من غاراتهم؟

تحرك الهنتاتيون نحو دكالة لأول مرة صيف 1512. وكان وقت الهجوم مختاراً. فلقد كان الهدف من دخولهم في يوليوز هو الحيلولة دون توصل البرتغاليين بما كان على الدكاليين دفعه من حبوب. وكانت الحملة التي نظمت في أكتوبر تهدف إلى منع عبدة التي ساهمت في انتصار البرتغاليين على الناصر بسفح بني ماكر من الشروع في الحرث. وتوخوا من دخولهم دكالة آخر يناير 1519 نسف زروع الحلفاء. ويؤكد ذلك تخليهم عن مشروعهم بعد أن وصلوا إلى (تازروت)، وذلك لكون الفترة مبكرة، تسمح بظهور المزروعات المنسوفة ثانية. ولهذا عادوا من جديد في بداية فبراير(10).

وكان الوطاسيون يهدفون من غاراتهم إلى نفس الشيء. فلقد نظموا أربع حركات ما بين 1514 و 1518 ـ باستثناء 1516 ـ في فترات كانت الغاية منها افلاس القبائل واضعافها وذلك عقاباً لها على خضوعها للبرتغاليين، ولمنعها من أداء الضرائب لهم.

ولهذا تم جل عملياتهم العسكرية ما بين يونيو وغشت(11). وهكذا تخلى الوطاسيون، ومنذ أول غارة لهم، عن توجيه ضرباتهم ضد البرتغاليين، وذلك نتيجة تقويم خاطيء للمعطيات السياسية بالمنطقة. فلقد تبين لهم أن سطوة البرتغاليين تعود إلى مساندة بعض القبائل الدكالية لهم في حروبهم. ولهذا أعطوا الأولوية لابعادها عنهم، ليتمكنوا بعد ذلك من مواجهتهم في ظروف أحسن. واذا كانت لنا عودة الى نتائج هذا التقويم على موقف القبائل من الوطاسيين، وعلى نشاطهم العسكري بدكالة، فاننا نكتفي الان بالتأكيد على هذه الحقيقة الخطيرة التي تتجلى بوضوح بتتبع اتجاه جنود السلطان داخل المنطقة.

فبعد واقعة الجمعة (قرب بولعوان)، تخلى الناصر عن فكرة محاصرة أزمـور كما كان مقررا، وزحفت جيوشه نحو الداخل لمطاردة يحيى ورجاله. وهـكذا دخلـت المدينة الغربية وخربتها قبل أن تُعرض سرنو - مقر يحيى - لنفس المصير. وانسحبت دون أن تلحق أي ضرر بالمدن المحتلة. وضاع المجهود كله في اصطدامات مع سكان المنطقة، وكان منهم اولئك الذين ساندوا الناصر في بداية الامر، مما زاد حكام فاس اعتقادا بتورط كل القبائل الدكالية مع النصارى.(12) وبعد دخول محمد البرتغالي الى المنطقة في نهاية يوليوز وبداية غشت من سنة 1515 ، خيم حول بحيرة ورار، وتحرك بعد ذلك نحو داخل المنطقة. واستطاع اقناع سكان كل من تارغة وتيط وجل سكان المدينة الغربية ومشنزاية بمغادرة المنطقة.(13) وبعد مناوشات مع برتغاليي آسفي،(14) انتقل الى أكوز ومنها الى بني ماكر التي تطوع سكانها لمصاحبته الى السايس رفقـة السكان المذكورين.(15) وكان ما قام به سنة 1517 شبيها بما ذكر. فلقد خيم حول بحيرة ورار، وأرسل أخاه الناصر الى المدينة الغربية. ولـكن الجفـاف ارغمـه على الالتحاق بسرعة بمخيم السلطان، واكتفى ببعض الرهائن الذين توصل بهم من قبيلة الغربية.(16)

واكتفى الناصر الوطاسي في يونيو 1518 بالهجوم المفاجـيء على قبائـل الشرقية قرب الجبل الاخضر وتسلم الرهائـن من الغـربية.(17) وهـكذا وجـه الوطـاسيون مجهودهم العسكري ضد القبائل الدكالية لا ضد البرتغاليين، وأصروا على معاقبتها على خضوعها دون توفير وسائل المقاومة والصمود لهـا. وكان موقفهـم هذا مزكى بواسطة فتوى تقتضي القيام مقام السلطان اذا انعدم في محاربة الكفـار، أو هجـرة الاراضي التي تسقط بأيديهم.(18) ولهذا رحّلوا قسما مهما من سكان المنطقة. وبتلك العمليات العسكرية، وتلك الهجرات كانت النتيجة واحدة، وهي اضعاف المنطقة اكثر. وانتهج الشرفـاء نفس الخطـة العسـكرية. فلقـد كانـت حركاتهـم بدورهـا تستهدف محاصيل البرتغاليين وحلفائهم.

يستخلص من هذا العرض انه لا يمكن أن نتحدث عن عمليات عسكرية هنتاتية

أو وطاسية تهدف أولا وقبل كل شيء الى طرد البرتغاليين وتحرير الثغور. لقد كان كل ما تبحث عنه هو الحصول على وضعية شبيهة بأوضاع الثغور الشمالية. ولقد تنبه البرتغاليون الى عقم هذه الخطة العسكرية، ونتائجها الايجابية على مكتسباتهم بالمنطقة[19]. ولهذا كانوا بدورهم يتفادون الاصطدام، وينتظرون مغادرتهم للمنطقة للخروج الى البوادي وارغام سكانها على الرضوخ من جديد.

3 - الوسائل المسخرة والنتائج المحصل عليها؟

(أ) الوسائل

من الصعب تحديد عدد جنود كل من الهنتاتيين والوطاسيين والشرفاء خلال عملياتهم العسكرية بالمنطقة. ولا يمكن الاخذ بالاعداد التي زودتنا بها المصادر البرتغالية لمبالغتها.

ولم يصلنا شيء عن رجال الناصر الهنتاتي خلال معارك 1512 مع انه اصطدم مع البرتغاليين ثلاث مرات. ومع ذلك يفهم من اشارة لـ «كويش» ان عدد فرسانه كان مهما جدا. [20] وكانوا كلهم من المتطوعين لافتقاره الى جيش رسمي. وكان قسم منهم تابعا لابن عمه ادريس. وخلال حركة 1517، صاحبته اعداد مهمة من فرسان هسكورة، وبني تميم وأولاد مطاع وأولاد عمران... الخ[21].

وكان مرافقو الوطاسيين اكثر بكثير. فحين دخول الناصر الى المنطقة ربيع 1514، تطلب عبور نهر أم الربيع سبعة أيام[22]، مع أن قرابة خمسة آلاف رجل كانت قد سبقته اليها[23]! وكان الى جانب محمد البرتغالي بجوانب بحيرة ورار، صيف 1515، اكثر من 7000 فارس رسمي ومثلهم من المشاة، زيادة على المتطوعين من دكاليين وغيرهم[24]. وتتجلى كثرة مرافقيه فيما كتبه يحيى أوتعفوفت إلى الملك البرتغالي سنة 1517: «... ومول الغرب جَ بكل ما في الغرب من عرب وبربر ...»[25] كما تتجلى في الفزع الذي يتسرب الى نفوس القبائل والبرتغاليين كلما علموا باقترابه من المنطقة.

وكان الشرفاء على رأس اعداد مهمة. فلقد ترأسوا يوم معركة تادنيست اكثر من

أربعة آلاف فارس[26] . وكان معهم في لقاء آخر 1600 «رمح» أي اكثر من العدد السابق[27] . وارتفعت اعداد محاربيهم مع مرور السنوات. فلقد كان الاعرج على رأس ما يقرب من تسعين الف من الفرسان والمشاة حين حصار آسفي سنة 1534 [28] .

واصبح بعد بداية الثلاثينات يوجه قبائل بأكملها ضد الثغور الدكالية[29] . ولم تكن الاعداد وحدها كافية، وكان استعمال الاسلحة النارية ضروريا لمواجهة البرتغاليين الذين كانوا كثيري الاعتماد عليها.

من الاكيد ان الناصر الهنتاتي الذي لم يقم بأية محاولة لمحاصرة آسفي، كان يفتقر الى الاسلحة النارية، وبالخصوص الى المدفعية. وبخلاف ذلك، يمكن الجزم بأن الناصر الكديد الذي كان يصحب عددا من الرماة، كان يتوفر على المدفعية بدليل أن الغاية الاصلية لتحركه كانت هي محاصرة أزمور، وأنه ما تخلى عنها الا بعد ان نصحه أعيان المنطقة بمطاردة يحيى. ولكن اعتماد الوطاسيين على الاسلحة النارية قل كثيرا بعد الحركة الاولى نتيجة توجيه ضرباتهم أساسا ضد الدكاليين.

وعمل الشرفاء، ومنذ مبايعتهم، على الحصول على أكثر ما يمكن من الاسلحة النارية. فلقد اتصلوا مبكرا بالتجار والمهربين غير البرتغاليين، وذلك للرفع من مداخيلهم وللحصول على الاسلحة التي كانوا يرغمونهم على تسليمها مقابل ما كانوا يأخذونه من سلع. ولقد عرفوا كيف يوفرون باستمرار المواد التي كان الطلب عليها مهما، كالسكر والتبر، حتى أن من المؤرخين من يرى في ذلك السبب الرئيسي في انتصار الشرفاء على البرتغاليين[30] . ولاعطاء فكرة عن تلك المداخيل المهمة تكفي الاشارة الى أنهم أعطوا في نونبر 1510 لبعض تجار (بورغوس .Burgos) حق احتكار تصدير السكر مقابل ستمائة الف (كروزادو)[31] وكان تزايد التهريب وعجز مالك حصن أكدير عن منعه سبب تنازله عنه لفائدة الملك[32] . واستمر التهريب بقريتي «تافطنا» «وتركوكو» بحاحة، رغم عدة محاولات برتغالية للقضاء عليه. كما فشلت

محاولات الملك البرتغالي لدى الامبراطور لاقناع رعاياه الاسبان الـذين كانـوا اكبـر المهربين ـ بالتخلي عن تعاملهم مع المغاربة بالموانيء الحرة[33] . ولكن عدد المهربين ارتفع وتزايد عدد الانجليز والاسبـان مع السنـين. وبـذلك تدفقـت على حاحـة «. . . كميات مهمة من الاسلحة الهجومية والدفاعية، من القصدير ومـن المعـادن الصالحة لصنع المدافع، ومن الرماح، والمجاديف، مما جعل المسلمين اليوم أحسن سلاحا ومدفعية وأكثر عتادا حربيا من النصارى[34] . . . »

ولكن غالبية ما توصل به الشرفاء كان من الاسلحة الخفيفة، ذلك انهم بقـوا مفتقرين للمدفعية كما يتجلى ذلك في فشل الحصار الذي ضربه محمـد الشيخ على أكدير سنة 1533 ، ومن خلال تقرير لقبطان آسفي مؤرخ في ابريل 1529 ، حيث ذكر أن احمد الاعرج لا يمثل اي خطر على الحصون[35] . وعمل الشرفاء بعد سنة 1533 ، وبطريقة جدية، على التزود بالمدافع وعلى انتاجهـا ما دامـوا متوفـرين على مناجم النحاس. فلقد تم اكتشاف منجم للنحاس «بدمسيرة» ـ زيادة على مناجـم السوس والاطلس الصغير ـ تم صهر معدنه على يد موريسكي كان يقطن بمراكش. ومع ذلك، لم يتوقف الشراء. فخلال حصار آسفي على يد أحمد الاعـرج سنـة 1534 ، كان يتوفر على عدد من المدافع سمي أكبرها تفاؤلا ـ «الميمونة»[36] .

واستولى الشرفاء على ستة وثلاثين مدفعا وطاسيا بعد معركة وادي العبيد[37] . وبذلك اصبح البرتغاليون يهابون كثيرا حصارات الشرفاء[38] . ومعلـوم ان سقـوط أكدير تم نتيجة توفر محمد الشيخ على عدد كبير من المدافع كانت ستة منها كبيرة[39] . واضطر السلطـان الوطـاسي الى القيام بنفس الشيء، وأمـر بتشييد معمـل لصنـع الاسلحة سنـة 1540 [40] . وبتـزايد استعمال الاسلحـة النـارية، تم الاعتماد على التقنيات العصرية، وتجنيد الاجانب من علوج واتـراك وغيرهـم، والـذين كانـت تجذبهم الرواتب المرتفعة[41] . وبذلك اصبح من الممكن تهديد الحصون بعدد من الوسائل والتقنيات أهمها نسف الاسوار اعتمادا على خنادق باطنية[42] . وهكذا اعطى السعديون لانفسهم الوسائل الضرورية لمحاربة البرتغاليين بنفس السـلاح الـذي

مكنهم من الغلبة في بداية الامر، وجعلوا كل فرص التحرير بأيديهم، خصوصا وأنهم كانوا اقرب من السلطان من الثغور الدكالية.

وعمل الوطاسيون في بداية الامر على تنسيق عملياتهم العسكرية بالمنطقة مع الهنتاتيين والشرفاء. وكلف الحسن الوزان بهذه المهمة ربيع 1514، ولكنه فشل. (43) وتم لقاء ما بين احد قواد السلطان واحمد الاعرج والناصر الهنتاتي بمراكش، وصادف ذلك يوم تعرض المدينة للغارة البرتغالية (1515). (44). وكان الهنتاتي الى جانب محمد البرتغالي بجوانب التانسيفت صيف 1517. (45) ورغم هذه الحالات، انعدم التنسيق والعمل العسكري المشترك، ولم تصلنا ولو اشارة واحدة عن عملية عسكرية مشتركة ما بين الشرفاء والهنتاتيين، أو ما بينهم والوطاسيين، رغم المساعدات التي توصلوا بها من فاس، ورغم أنهم كانوا، والى حدود 1523، يجاهدون باسم السلطان. (46) والغريب أن عمليات الشرفاء أنفسهم كانت تفتقر الى التنسيق. فلقد انعدم على صعيد الجيشين اذ لم يعزز الاعرج عمليات اخيه بالهجوم في نفس الوقت على الثغور الدكالية. وتنطبق نفس الملاحظة على محمد الشيخ. وانعدم التنسيق على صعيد الجيش الواحد. فلقد سمح حصار آسفي دون أزمور ومازيغن وأكدير بارسال العون من هذه الثغور الى المدينة المحاصرة. كما سمح للملك ووكلائه بتزويدها بأكثر مما كانت في حاجة اليه. (47)

ولم يكتف المسؤولون بالعمليات العسكرية، بل بذلوا كذلك مجهودا سياسيا لمعاكسة التوسع البرتغالي بالمنطقة. فلقد ساند السلطان الفريق المعارض لخضوع المدينة الغربية للبرتغاليين، (1512) كما أرسل بعض قواده لدفع القبائل الى عصيان البرتغاليين. ونجح احدهم في دفع الغربية الى العصيان، مما أرغم القبطان على تدبير اغتياله. (48) وذكر (كويش) ان سبب عصيان عبدة هي الهدايا التي بعثها الوطاسي للاعيان. (49) وكان السلطان يبعث بعدد من الفقهاء والمتصوفة الى القبائل لاقناعها بالابتعاد عن النصارى. (50)

ونجح الشرفاء في خلق الشكوك ما بين يحيى وقبطاني آسفي (أتايد

ومشكرنياش). (51)

لقد سبقت الاشارة الى أن الوطاسي اصبح يوجه عملياته ضد القبائل لا ضد البرتغاليين. ونظرا للاعداد الهائلة التي كان يصحبها، والتوجيهات التي كانت تعطى للجنود، كان يغادر المنطقة وهي عبارة عن صحراء قاحلة. ولهذا أصبحت القبائل تخاف كثيرا الحركات الوطاسية وتولي أهمية كبرى للاشاعات المتعلقة بها. وكانت هذه الاشاعات تروج أحيانا مباشرة بعد مغادرته دكالة. (52) لذا عملت كل القبائل ما في وسعها لمنعه من دخول المنطقة وضغطت على البرتغاليين وعلى يحيى من أجل ذلك!

واتخذ المسؤ ولون والقبائل بالفعل اجراءات مختلفة. فلقد ارسل القبطان (S. Correa) من أزمور سفينة وأمر ربانها بدخول مصب سبو والعمل على اثارة انتباه السكان حتى يظنوا أن الملك البرتغالي يعد ثانية لتحصين «المعمورة»، فيخبروا بذلك السلطان، وذلك لشغله عن التحرك نحو دكالة (1517). (53) وعملت قبائل المنطقة على التحالف مع الشاوية لكي تمنعه من عبور أراضيها لدخول دكالة. (54) كما وعدت يحيى بنصف ما تملك في حالة ما اذا اقنع الوطاسي بالعدول عن تخريب المنطقة (1517) (55). واقترحت عبدة على الشريف اعطاء محمد البرتغالي خمسمائة (500) جمل مقابل رجوعه الى فاس دون الحاق الضرر بها(56). وضغطت على يحيى ليخضع للوطاسي ويسلم ابنه كرهينة. (57) وكانت تضطر أحيانا الى تسليم الرهائن وأداء الضرائب للوطاسي اذا ما تعذر عليها الفرار(58). وان صح ادعاء القبطان مشكرنياش تم ذلك باذن منه لكي لا يخرب السلطان المنطقة! (59)

ويتجلى فزع القبائل من اقتراب جيوش الوطاسي من المنطقة وكأنهم غزاة آخرون في المثالين التاليين: فلقد فر سكان المناطق المجاورة للساحل وسكان المدينة الغربية، بعيد دخول الناصر الى دكالة (1518)، والتجأوا الى الكهوف القريبة من البحر التي سرعان ما ضاقت بهم، فالتجأ الآخرون صحبة مواشيهم الى أسوار آسفي التي كانوا متأكدين من عجزه عن الاقتراب منها! وكان الذين لجأوا الى هذا الحل كثيرين: من

سكان المدينة الغربية، وكونتي وأكوز، والسور الجديد. (60) أما المثال الثاني فيتجسد في محتوى الرسالة التي تعبر تعبيرا صادقا عن فزع الدكاليين وخوفهم من الحركات الوطاسية. وتتعلق بالحركة التي قادها محمد البرتغالي صيف 1515 ، وهي مؤرخة في أوائل يونيو 1515 :

«. . . ذلك الكتاب الى عبد المولى بن غانم وحسن بن علي، والزعرات، وعمر بن محمد بن هلال، وغانم بن علي، ومحمد بن حسون فقال لكم سليان بن محمد نسيب بن عمير، اسلام عليكم، السلطان جا، اهربوا لشريف، وكل ما شدكم فيه اعطوله، **لا تفرطو فيه، لا تفرطو فيه**، واسلام، أكان ما قبل عليكم الشريف اهربوا للملى النصر مُلَى مراكش أكان اعطوا الناس الخيل اعطوا للاولاد، أكان مونكم ارفدوا بأمان، اذا ما مونكم اهربوا لبلاد تنجو فيها، ملي ببكر وملي بحسن، وملي النصر، وملي محمد الشريف طلعوا الفق، ومُلِّيَ محمد خرج لَزُمر وأسْفِ، **وأنتم دبرو على أرواحكم لا تكدبو فهذا** . . . .» (61) هذا عن أوقات الحركات والوسائل المسخرة لها. فما هي الحصيلة والنتائج بالنسبة لكل الاطراف من مسؤ ولين مغاربة ومن برتغاليين، وكذلك بالنسبة للمنطقة وسكانها.

(ب) **النتائج**: لقد كانت حصيلة العمليات العسكرية الوطاسية والهنتاتية والسعدية هزيلة جدا، وكانت الوطاسية سلبية على منظميها وضحاياها في آن واحد.

لقد كانت النتيجة الاولى والخطيرة التي تولدت عن الحركات الوطاسية هي تخريب المنطقة نتيجة نسف المحاصيل ونهبها وتحطيم القرى، وتخريب المدن، ومطاردة القبائل. ولقد اجمعت كل التقارير على أن المنطقة عانت من تلك الغارات، (62) مما لم يسمح لها بالانتعاش وترميم ما خربه البرتغاليون قبل ذلك ببضع سنين، وزاد القبائل ضعفا الزام الوطاسي اياها بأداء الضرائب وتحمل مؤونته طوال اقامته بالمنطقة. (63) هذا طبعا بالاضافة الى ما دفع للبرتغاليين وما ابتزه عملاؤهم، وفي

فترة تقلصت خلالها الرقعة المحروثة خوفا من الحركات الوطاسية أو البرتغالية أو السعدية. وهكذا اصبح حكام فاس يظهرون بمظهر العدو لا بمظهر المنقذ، ولم تعد القبائل تميز بينهم وبين البرتغاليين، ولم تعد تنتظر منهم أي شيء، وأكثر من هذا، اصبحت تتمنى لو تجاهلوا ما يدور بالمنطقة. وأمام هذه الغارات الوطاسية، اتخذت القبائل موقفا معينا من حكام فاس، وكذلك من البرتغاليين.

لم تعد تنتظر من السلطان أن يحرر الثغور وأن يخلصها من النصارى وعملائهم، بل على العكس من ذلك، اصبحت تهاب قدومه أكثر مما تهاب البرتغاليين الذين عبروا عن رغبتهم في الحصول على ثقة القبائل قصد استمرارها في الانتاج وأداء الضرائب. وكما تبين للقبائل ضعف الوطاسي وعجزه عن الاصطدام بالبرتغاليين، تأكد لها كذلك أن النصارى لا يبذلون أي مجهود لحماية حلفائهم، بل يكتفون بالتحصن داخل مدنهم في انتظار مغادرة السلطان للمنطقة، مع أنهم كانوا يعدون أولئك الحلفاء بالدفاع عنهم. ولهذا اتخذت القبائل في بداية الامر موقفا وسطا تفاديا لنار الطرفين: فكلما دخلت جيوش الوطاسي دكالة، فرت الى المناطق الهامشية، الحوز والشياظمة، لتعود اليها كلما غادرها السلطان، وذلك بعد هجوم برتغالي أو تفاديا له. واصبحت عبدة، وأحيانا الغربية، تلتجيء مؤقتا الى المناطق التابعة للشرفاء، ليصبح خضوعها لهم نهائيا بعد دخولهم مراكش. وبذلك يكون الشرفاء هم المستفيدين الحقيقيين من الغارات الوطاسية.

وكانت عمليات الهنتاتيين أكثر سلبية، اذ لم تؤثر على المكتسبات البرتغالية، ولم تستطع ولو تهديدها. وبعد عمليات 1512، تناسوا كليا ما يدور بدكالة من أحداث، وأكثر من هذا، كانوا على أبواب الخضوع للتاج البرتغالي وأداء الجزية، والسماح للملك (أمنويل) بارسال التجار والجنود الى مراكش(65). ولم يستطع الناصر بوشنتوف منع تنظيم الهجوم على عاصمته أو معاقبة البرتغاليين على جرأتهم. ووعيا منه بضعفه، استنجد بالشرفاء وتخلى لهم عن مهمة الجهاد، مما سمح لهم بتنحيته بكل سهولة.

واستطاع الشرفاء الحصول على نتائج مهمة بعد 1518 ، وخصوصا بعد مجاعة 1521 التي سهلت كثيرا استيلاءهم على السلطة بالعاصمة الحمراء(66) . وتتجلى هذه النتائج الايجابية في الهزائم التي ألحقوها ببرتغاليي آسفي، وفي أسر القبطان، وتحرير أكوز، وقبول البرتغاليين لشروط قاسية وجد مهينة كأداء أرباض آسفي الضريبة للشرفاء سنة 1523(67) . وهكذا مالت كل القبائل الدكالية اليهم ولم يبق خاضعا الا السكان القريبون جدا من الثغور، وذلك بعد أن ألحوا على الخاضعين بالغارات كما يتجلى ذلك في رسالة أعيان بعض القبائل القريبة من أزمور(68) . وبعد خضوع تلك القبائل لهم، خلقوا منها حزاما ضيقوا به الخناق على البرتغاليين(69) . ولعبت عبدة والغربية دورا طلائعيا في ذلك. ولتعزيز تلك القبائل، كلف أحمد الأعرج القائدين بودبيرة وجيان بالمرابطة قرب الثغور الدكالية؛ فكان الأول ببني ماكر على رأس ستمائة رمح (1540) ، وأصبح جد مهاب من طرف البرتغاليين(70) ، في حين كان الثاني مرابطا ضد أزمور ومازيغن(71) . وأصبحت الأفعال التي يجازى عنها بعض البرتغاليين هي الحصول على هدنة من الشريف أو اقناعه بالتخلي عن الهجوم أو دفع القبائل الى تزويد الثغر بالمواد الغذائية(72) . ولكن الشرفاء لم يستطيعوا تحرير أي ثغر من الثغور، باستثناء حصن أكوز (1525) ، لأن عملهم كان يهدف الى نفس النتيجة التي عجز الوطاسيون عن تحقيقها، أي الحيلولة دون انتشار نفوذ البرتغاليين بالداخل، ومنع القبائل من الخضوع لهم. ولم ينزلوا بكل ثقلهم ضد الثغور الا مرات قليلة جدا كان أخطرها حصار آسفي سنة 1534 . كما أنهم لم يولوا محاربة النصارى نفس الاهتمام الذي أعطوه لمحاربة الوطاسيين، الشيء الذي أثر كثيرا على جهادهم بدكالة.

4 ـ نتائج الصراع الوطاسي السعدي على الجهاد بدكالة.

كانت آخر حركة وطاسية بدكالة هي تلك التي نظمت سنة 1518 . وكلف السلطان عامله على التادلة، القائد أحمد العطار، بالهجوم على أزمور سنة 1521 (73) .

وكان ذلك على ما يبدو آخر اصطدام مع برتغالي دكالة(74) . ومباشرة بعد استيلاء الشرفاء على السلطة بمراكش، شرع السلطان ابتداء من 1523 في التقرب الى البرتغاليين. وبذلك أعطى الأولوية للقضاء على الشرفاء، وأصبح يعمل على إشراك البرتغاليين في ذلك. ويتجلى هذا التحول الخطير في كون السلطان أصبح يرسل عددا من رجاله الى أزمور لا لمحاربة برتغالييها، ولكن لكي يستعملوهم في نسف محاصيل الخاضعين للشرفاء(75) ! وبعد فشل الحصار الذي ضربه محمد البرتغالي على مراكش، كلف القائد أحمد العطار بالدخول في مفاوضات مع قبطان أزمور. وكانت الاتصالات الاولى في شتنبر من1523 (76) . وكان من المقرر أن يسافر الى البرتغال للتفاوض مع الملك بشأن تحالف برتغالي وطاسي ضد مراكش(77) . وأثرت هذه الاتصالات بالطبع على العمليات العسكرية بالشمال، مما سمح لبرتغالي الثغور الهبطية بالتنفس وتذوق طعم الراحة(78) .

وبما أن العداء ازداد ما بين حكام فاس ومراكش، فان الاتصالات ما بين فاس ولشبونة كثرت. وهكذا كلف السلطان المولى ابراهيم، قائد الشاون، بالاتصال مع قبطان أصيلا، في حين أمر العطار بالاستمرار في مفاوضاته مع قبطان أزمور(79) . وتوصل هذا الاخير بعدد من الرسائل خلال 1526 (80) تتعلق بمشروع عمل عسكري مشترك ضد السعديين، يقوم خلاله الوطاسيون بالهجوم على مراكش من الداخل في حين يعمل مع البرتغاليين على الاستيلاء على ساحل حاحة لمنعهم من الاستفادة من ميناءي تافطنا وتركوكو، على أن يحتفظ كل طرف بما احتله(81) . وطالب البرتغاليون بتسليم رهائن قبل تنفيذ المشروع. وبذلك يكون السلطان الذي خاف على عرشه قد تنازل للبرتغاليين عما بأيديهم، ووعدهم بتسهيل استيلائهم على مناطق لم يستطيعوا التحكم فيها من قبل، رغم خطورتها على مكتسباتهم بدكالة والسوس.

ورغم أن المفاوضات حول شروط وظروف هذا الهجوم استمرت الى حدود

1527 ، فان السلطان الذي كان يخشى حساسية الرأي العام، لم يكن متحمسا لتنفيذ المشروع، وتملص في السنة المذكورة بدعوى انشغاله باخماد بعض الفتن(82) . وعاد الطرفان الى المفاوضات بعد توقف طويل. ومرة أخرى تملص السلطان سنة 1534 (83) .

وبعد هزيمة أبي عقبة، (1536) أرسل المولى ابراهيم أحد خدام السلطان وهو اليهودي «ريط»، (Rute) الى لشبونة للبحث مرة أخرى عن طريقة للقضاء على الشرفاء. وكانت شروط الوطاسي هذه المرة هي التالية:

(1) الرفع من عدد الحاميات الدكالية،

(2) ارسال اسطول لاستعمال سفنه وجنوده في الهجوم المشترك وتعهد السلطان بتحمل مصاريفه؛

(3) الهجوم على تركوكو وتافطنا برا وبحرا(84) .

ولكن الملك البرتغالي الذي كان يفكر في التخلي عن بعض الثغور، لم يعر الاقتراح أي اهتمام. وبما أن أحمد الأعرج أمضى آنذاك مع قبطان آسفي هدنة لمدة ثلاث سنوات، فان الوطاسي رد عليها بأخرى لمدة احدى عشرة سنة (ماي 1538)(85) . وبذلك ارتاح البرتغاليون من الطرفين.

وأمام تزايد قوات أحمد الاعرج، أرسل أحمد الوطاسي سنة 1539 سفارة الى البرتغال لم تحصل ولو على اهتمام المسؤولين(86) . ولكن سقوط أكدير جعل الملك (جوا) يغير موقفه من الوطاسي ويصبح هو الطالب. وهكذا أرسل سفيرا خاصا رغم معارضة السلطان ووكيل الملك التجاري بفاس لوصول سفير نصراني الى العاصمة(87) .

وتركزت المفاوضات على المخطط الوطاسي لسنة 1536 ، أي حول ارسال الجنود البرتغاليين وتحمل مصاريف الحملة، وأخيرا حول مشكل الرهائن. واعتذر الوطاسي عن عدم تمكنه من تحمل مصاريف الحملة البرتغالية لسوء محاصيل السنوات السابقة،

وعبر مع ذلك عن استعداده للتحرك في الربيع المقبل(88) على رأس ثلاثة آلاف فارس في اتجاه دكالة ليتم هناك الالتقاء بالجيوش البرتغالية والهجوم على مراكش. وتعهد بالتحرك ضد الأعرج قبل ذلك التاريخ اذا هاجم ثغرا من الثغور الدكالية. واشترط الوطاسي أن يبعث الملك البرتغالي من جهته بالف رجل في الخريف المقبل. وطالب بدوره برهائن ليتأكد من استعداد البرتغاليين لتنفيذ تعهداتهم. ووعد السفير البرتغالي بتسليم أزمور مقابل الرهائن. وبعد مدة تفكير، طالب السلطان بمدفعيتها. ولم يستطع المفاوض البرتغالي الخروج من المأزق، فقرر الالتحاق ببلاده وهو متأكد من أن السلطان غير متحمس للتحالف مع النصارى ضد أمير مسلم، وذلك مهما كانت مشاكله، ومن أنه لم يكن يتوخى من المفاوضات أكثر من افزاع الشرفاء بوجود سفير ببلاطه(89).

هذا عن الاتصالات الوطاسية البرتغالية، فما هو موقف السعديين من البرتغاليين؟

لقد أصبح موقفهم من البرتغاليين رهينا بموقف الوطاسيين منهم. ولهذا تعاقبت بعد 1523 فترات السلم والحرب ما بين الشرفاء والبرتغاليين. أمضى الأعرج مع القبطان دوسكوطو (de Sacoto) هدنة لمدة سنة في خريف 1523 وجدد العمل بها لمدة سنتين شملتا أزمور كذلك(90). ولكن القبطان دوميلو (de Mello) الذي خلف دوسكوطو رفض اثر وصوله الاستمرار في العمل بالهدنة اذا لم تراجع بعض بنودها، وخصوصا ما يتعلق باداء أرباض آسفي والقرى القريبة منها الضرائب لمراكش، وزاده عنادا علمه باستعداد الوطاسي للتحرك ضد مراكش - وصل الخبر الى أزمور في شتنبر 1525 - ورغم لهجة القبطان وتحرشاته، ورغم اخلال البرتغاليين بشروط الهدنة، قبل الاعرج شروط القبطان، وجدد العمل بالهدنة سنة 1526. وكانت تنازلاته كبرى: فلقد تخلى عن أداء أرباض آسفي الضرائب له، وسمح بدخول المواد الغذائية الى آسفي، وبحرية المبادلات، وقبل أن يصل نفوذ البرتغاليين الى بني ماكر وتازروت والمدينة الغربية: «... والشروط على غرامة الدشور تركها

مولاي نصره الله، والحدود الذين هم لاهلن آسفي يحرثون المدينة، وتزروت، والدشور، وبني ماكر، وهدو الدشور من جملة حدود النَّصَرَ يحرثوهم أو يسكنوهم، وكذلك من لم يحرم بيعه في ديننا يشترون النَّصَرَ في بلاد مولاى نصره الله. . .»(91)

وبذلت كذلك محاولات لارضاء القبطان العنيد ودفعه الى احترام بنود الهدنة. فلقد حاول كاتب الاعرج أن يقنعه بأن «. . . الجيد عافيته عافية، وقوله قول يعمل بفعله. . .»(92) .

ورغم كل هذه التنازلات، ما أن علم القبطان بمحاصرة السلطان لمراكش حتى تنكر للمعاهدة، وأعلن الحرب ضد الاعرج، وهاجم احدى القرى التابعة له(93) .

واضطر الاعرج الى التخلي عن محاصرة أزمور، (1530) والالتحاق بسرعة بعاصمته بعد أن وصلته اخبار استعداد السلطان لمحاصرته(94) . واضطر مرة أخرى الى الالتحاق بمراكش بعد أن كان منهمكا في نسف محاصيل أزمور، وبعد أن حاصرت القبائل بأمر منه آسفي لمدة شهر ونصف، وذلك بعد أن وصلته اخبار استعداد الوطاسي والبرتغاليين للقيام بهجوم مشترك ضده(95) . ولهذا اصبح الاعرج يكتفي أحيانا بالتهديد، ويقنع بكل ما يدل على تخوف البرتغاليين منه كما حدث سنة 1538، اذ اكتفى «بهدايا» الزم قبطاني أزمور ومازيغن بارسالها له (أثواب)(96) .

وكان الاعرج يعلن الحرب ضد البرتغاليين كلما اطمأن من جهة فاس. وهكذا خرب محاصيلهم عدة مرات(97) .

وعمل الشرفاء على الحيلولة دون تكوين حلف برتغالي وطاسي ضدهم، وذلك بترك باب المفاوضات مفتوحا مع الطرفين، والاعتماد على رجال الدين لابعاد السلطان عن النصارى! وهكذا تتالت وفود العلماء والفقهاء على السلطان بفاس الذي اضطر الى التحفظ ازاء البرتغاليين(98) . واذا اصبح السعديون يعملون على منع بروز ذلك الحلف، فإنهم اصبحوا مع بداية الثلاثينات يكرسون مجهودا ضخما للقضاء على الوطاسيين. وللتفرغ لهذه المهمة، أمضوا مع البرتغاليين هدنة وصلت لاول مرة الى

ثلاث سنوات (1537)(99) . واذا كانت الهدنة قد أمضيت في أبريل، فأن الاخوين ضما جيوشهما في أكتوبر واستطاعا السيطرة على كل من التادلة وتافيلالت(100) . والغريب أنه لم يسبق لهما أن تعاونا ضد البرتغاليين! وكان الاعرج صيف السنة التالية على بعد ستين كيلومترا من فاس(101) . وخاف الاخوان ان تكون الاعانات التي توصلت بها الثغور الدكالية بعد سقوط اكدير بداية استعداد الملك البرتغالي لعبور البحر الى دكالة(102) . ومنعهما الجفاف الخطير الذي عرفه الجنوب، والنزاع الذي طرأ بينهما ابتداء من 1541 من استغلال الفزع الذي حل بالبرتغاليين بعد هزيمة اكدير ربيع تلك السنة. وهكذا يتجلى بكل وضوح أن التنافس السعدي الوطاسي فوت على الدكاليين فرصة تحرير مبكر. فمن من الطرفين يتحمل مسؤ ولية ذلك؟

ليس من الحق ادانة الوطاسي وحده، فكما حصر اهتمامه في الحفاظ على عرشه، كان الشرفاء يجرون وراء السلطة التي كانوا يظنونها سهلة المنال نظرا لتوفرهم على المال (فلاحة قصب السكر، احياء تجارة القوافل)، والسلاح. وإذا كان الوطاسي الذي أفزعته انتصارات الشرفاء عليه قد تورط من جراء اتصالاته العديدة بالنصارى، فإن الشرفاء عرفوا كيف يخفون تناسيهم للجهاد، ومطاردتهم للسلطة، وذلك بدفع القبائل الى تطويق الثغور، وارسال قائدين للمرابطة ضدها بصفة شبه دائمة، وتنظيم بعض الحركات بين الفية والاخرى. وبذلك تكون القبائل الدكالية قد تحملت القسط الأكبر من المجهود العسكري الذي يبدو وكأنه بذل من طرف الشرفاء السعديين.

ولكن، ما الذي جعل الملك البرتغالي يفضل الوطاسيين على الشرفاء الذين اصبح يرى فيهم اكبر خطر على المكتسبات البرتغالية؟ اذا كان الملك البرتغالي غير مستعد للتورط من جديد في المغامرة المغربية، وذلك بتنظيم هجوم مشترك مع الوطاسي ضد مراكش، فإنه كان يرى في بقاء الوطاسيين في الحكم أمرا حيويا بالنسبة لبلاده. واذا لم يقم بشيء يخلصه من المشاكل التي خلقها له الشرفاء فإنه اصبح يخشى كثيرا سقوط فاس في أيديهم، لعلمه بالتطورات التي أدخلوها على جيشهم وسلاحهم، الشيء

الذي لا يهدد الثغور الشمالية وحدها، ولكن يهدد البرتغال نفسه، خصوصا وأن كثرة المرتزقة في جيشهم جعلته وجعلت كثيرا من البرتغاليين يعتقدون أنه متحالف مع الخليفة العثماني[103]. وكان الملك متأكدا من أن الموانيء الشمالية ستصبح قاعدة انطلاق للغارات التركية على سواحل البرتغال واسبانيا. وزاد البرتغاليين خوفا من الشرفاء سقوط أكدير. ولهذا عملوا على اقحام اسبانيا في حروبهم بالمغرب بعد فشل مساعيهم لدى الوطاسي. وهكذا ارسلت لهذه الغاية سفارة الى بلاط الامبراطور شارل الخامس كانت على رأسها احدى الشخصيات الكبرى بالبلاد. وكانت مهمتها هي تنبيهه الى خطورة الشرفاء على اسبانيا نظرا لتحالفهم مع الاتراك، ودفعه الى الاهتمام اكثر بما يدور بالمغرب من أحداث لانها لا تقل خطورة عن التوسع العثماني. ولهذا أصبح الملك (جوا) يرى أن من أخطر الاولويات هو منعهم من دخول فاس. وكان على السفير أن يعمل على الحصول على مساعدة اسبانية وأن ينبه الامبراطور الى كثرة مصاريف ملكه والى عدم مساعدة البابا له[104]. ويتجلى كذلك خوف البرتغاليين من قوة الشرفاء فيما كتبه الملك إلى البابا بعد سقوط أكدير: فلقد أرجع تلك القوة إلى ثلاثة عوامل أساسية:

1 — اغتناؤهم من تجارة السودان التي ضمنت لهم ذهب (تنبوكتو).

2 — استفادتهم من التعريب؛

3 — اعتمادهم على عدد كبير من المرتزقة الاتراك والنصارى الذين مكنوهم من صنع الأسلحة والعتاد الحربي — الشيء الذي جعل البارود يصنع بأراضيهم وجعل ثمنه رخيصا لكثرة انتاجه[105].

وعبر عن نفس الخوف في رسالة الى اعضاء ديوانه (ابريل 1541)، وطلب منهم ابداء رأيهم في الموقف الذي يجب اتخاذه ضد الشرفاء لجعل حد لتزايد قواهم[106].

وهكذا أرغم النجاح الذي عرفه البرتغاليون بدكالة الحكام على الاهتمام بالمنطقة وعلى العمل على جعل حد لهذه الوضيعة، ولهذا تعددت الغارات الوطاسية

ما بين 1514 و 1518 ، والسعدية بعد 1518 على الخصوص. ولكن السلطان الوطاسي لم يحقق أية نتيجة لتقويمه الخاطيء للمعطيات السياسية بدكالة ، ولانشغاله بمطاردة القبائل ، الشيء الذي ضيع له مجهودا ضخما كان عليه استعماله ضد النصارى.

وكان من الممكن أن يعرف مجهود الشرفاء مردودا أحسن ، وأن يتم التحرير قبل التاريخ الذي تم فيه لان كل عوامل الانتصار على النصارى اصبحت بأيديهم ، ولكن تصارعهم مع الوطاسيين على السلطة شغلهم كثيرا عن الجهاد ، وأضاع لهم مجهودا ووقتا مهمين.

ومهما كانت نتائج هذه العمليات العسكرية الوطاسية أو السعدية سلبية ، فإنها جعلت على الاقل حدا لسطوة البرتغاليين وابعدت عنهم القبائل وأرغمتهم على دخول مرحلة جديدة أصبحت خلالها الثغور الدكالية لا تختلف في شيء عن الثغور الشمالية. وهذا ما يدفعنا الى طرح سؤ ال مهم : كيف تعامل المسؤ ولون البرتغاليون مع المعطيات السياسية والاقتصادية الجديدة التي أصبحت تعرفها دكالة بعد بداية العشرينات ، والتي أصبح على البرتغال بسببها أن يعطي عوض أن يأخذ ؛ وهل كان بامكانه تحمل هذا العبء الذي أضيف الى ما كان البرتغال يتحمله منذ البداية في باقي الثغور ، وهل كانت دكالة متوفرة على شيء يبرر التضحيات؟

الهوامش والتعاليق

(1) ابن القاضي . . احمد . . لفظ الفرائد، مصدر سابق ص 284

(2) S. I. H. M. Port.II, pp. 196 – 197

(3) انظر مثلا Ibid I, pp. 438, 448, 457 etc.

(4) رسالة اعيان آسفي الى الملك البرتغالي (1509) Ibid I, p. 179

(5) اليفرني . . النزهة . . . صـ 16 نشر «هوداس» «. . . ثم جاء اشياخ حاجة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصر لوائه فشكوا له امر العدو الكافر في بلادهم وشدة شوكته عليهم . . . وطلبوا منه ان ينتقل اليهم (. . .) فاجابهم الى ذلك . . .».

(6) S. I. H. M. Port.I, p. 485

(7) Ibid I, pp. 504, 506 No 1

(8) Ibid I, p. 534

(9) Ibid II, p. 20

(10) Ibid II, p. 225

(11) تحرك الناصر الوطاسي في ابريل 1514 ، ثم دخل محمد البرتغالي المنطقة في نهاية يوليوز وكان بها في بداية غشت 1515 :Ibid I, p. 721 وفي يوليوز 1517 (Ibid II, p. 122) وكلف اخاه الناصر بهذه المهمة في يونيو 1518 (Ibid II, p. 188)

(12) عن خيبة امل قبائل الشرقية ومطاردتهم للناصر الوطاسي :
Góis... Op. Cité p. 124

(13) S. I. H. M. Port Ip 740 – 41

(14) Ibid I, p. 745.

(15) Ibid I, PP. 741, 751

(16) Ibid II, pp. 144, 150

(17) Ibid II, p. 188, 195

(18) A. Laroui. Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain. Maspero. 1977 pp. 320 – 321

(19) S. I. H. M.Port. I, p. 527

(20) Góis... Op. Cité pp. 92 – 93

(21) S. I. H. M.Port. II, p. 225

(22) Góis... Op. Cité p. 122.

(23) Ibid p. 119

(24) Léon... Op. Cité I, p. 128

(25) S. I. H. M.Port. II, p. 155.

(26) Góis... Op. Cité p. 114.

(27) Ibid p. 136 وعن دلالة «الرمح»: الفصل الثالث من الباب الثاني هـ 27 .

(28) S. I. H. M.Port. II, p. 633

R. Ricard: Extraitsde la chronique d'andrade: in. hesp. 1937 pp. 268, 270

(29) راجع مثلا: S. I. H. M. Port II, p. 458.

(30) V. M. Godinho: L'économie... Op. Cité pp. 222, 223.

(31) S. I. H. M.Port. I, p. 255. ويمثل ذلك 240 مليون ريال برتغالي!

(32) Ibid III PXII (introd)

(33) S. I. H. M. Esp: Iére série. I, p. 531

(34) Ibid. Angl. Iére série I pp. II, III (introd)

(35) Ibid.Port. II, p. 455

(36) R. Ricard: Extraits... art. Cité p. 633.

A. Andrzej Dzinbinski: L'armée et la flotte de guerre Marocaines à l'époque des Sultans de la dynastie Saâ dienne. Hesp – tam. XIII 1972 p. 72

(37) Ibid p. 71

(38) S. I. H. M. Port. III, p. 390

(39) A. Dzinbinski. Art. Cité p. 72

(40) S. I. H. M. Port. III, p. 300 المنوني محمد: صناعة الاسلحة النارية بالمغرب. دعوة الحق، عدد 8 السنة الثالثة عشر شتنبر 1970 ص ص 103 – 104 الكراسي. . . محمد عروسة المسائل. . . مصدر سابق ص 36

(41) A. Dzinbinski. Art. Cité p. 85

(42) S. I. H. M. Port.II, p. 633.

(43) Léon... Op. Cité I, p. 125 وعـــن عدم اهتمام الشرفـــاء والهنتـــاتيين بنـــداء الناصر:

S. I. H. M.Port. I, p. 545.

(44) S. I. H. M. Port.I, p. 692.

Góis... Op. Cité p. 146

De Marmol... Op. Cité II, p. 65

Diégo De Torres: Relation... Op. Cité I, p. 33.

(45) S. I. H. M. Port.II, p. 153

(46) اجمعت كل المصادر العربية والاوربية على ذلك: انظـر تاريخ الدولـة السعـدية لمؤلف مجهول (نشر كولان) ص 4

de Marmol... Op. cité I p. 444 – 445

D. Torres: Relation... Op. Cité I, pp. 9, 11

(47) S. I. H. M. Port II, pp. 603, 608, 611, 616, 618

(48) Góis... Op. Cité p. 196.

(49) Ibid p. 218

(50) مثلا S. I. H. M. Port.II, p. 133 وكتب يحيي في فاتح غشت 1517 : «... وجوه الفقر من عند مولى محمد بالكتب...» وكذلك:

Ibid II, p. 155

(51) D. de Torres Relation... Op. Cité I, p. 61.

(52) S. I. H. M. Port.I, p. 459, 485, 502, 504, 603, 678, 721. II. 59, 85, 98, 106, 219, 243.

(53) Ibid II, p. 150.

(54) Ibid II, pp. 50 – 67.

(55) Ibid II, p. 106

(56) Ibid I, p. 721

(57) Ibid II, p. 133

(58) Ibid II, pp. 144, 147, 195

(59) Ibid II, pp. 226

(60) Ibid II 196

(61) Ibid II p 95

(62) Ibid II p. 106, 195

(63) S. I. H. M. Port II, pp. 142, 144

Léon... Op. cité. I p. 125

(64) أنظر مثلا عن ارغام البرتغاليين عبدة على الرجوع ومهاجمتها بأراضي الشرفاء سنة 1515

Ibid I, p. 736.

(65) انظر عن مراحل المفاوضات وشروطها : Ibid I, pp. 587, 590, 593.

(66) B. Rosenberger

Triki : famines et épidémies Art. Cité p. 138

(67) عن الضرائب : S. I. H. M. Port.II, p. 375 وسبقت الاشارة الى اسر القبطان (1522) والى تحرير اكوز 1525

(68) S. I. H. M.Port. II, p. 459 – 61

(69) Ibid. III, p. 406

(70) S.I.H.M. France 1ère série I p. 118

Ibid. Port. III. 248, 406, 450, 455, 464.

(71) Ibid III. pp. 399, 450, 454, 460, 518.

(72) Ibid III, p. 39 انعم قبطان آسفي دوكاسترو بمعاش يصل الى 10000 ريال سنويا لشخص، وتطوع بآدائها له في حالة ما اذا رفض الملك أداءها

(73) De Sousa... Op. Cité pp. 24 – 25

(74) يبدو من اشارة وردت باحدى الوثائق أن السلطان تحرك نحو دكالة صيف 1525 S. I. H. M.Port. II, 346 n. 1. ولكن ذلك يتنافى ودخوله في مفاوضات منذ 1523 مع قبطان أزمور، واستمرارها الى ذلك التاريخ.

(75) Ibid III, p. 240

(76) Ibid II, p. 355 No 2 et 321 No 2.

(77) Ibid II, p. 354.

(78) De Sousa... Op. Cité p. 102

(79) مفاوضات المولى ابراهيم : S. I. H. M. Port.III, p. 156

(80) Ibid II, pp. 382, 384, 385, 387

(81) S. I. H. M. Port.II, p. 382.

(82) Ibid II, p. 416 et 432.

(83) Ibid II, p. 645

(84) Ibid III, p. 69

(85) انظر ملخصا لاهم بنودها : Ibid III, p. 158

(86) Ibid III, p. 184

(87) Ibid III, p. 413, 423

(88) بدأت المفاوضات في يوليوز 1541

(89) انظر مراحل المفاوضات والنقط التي نوقشت : Ibid III, pp. 476, 479, 482, 485
وعن استخلاص السفير لتلك النتيجة :
De. Sousa... Op. Cité p. 148 Ibid III, p. 520

(90) S. I. H. M. Port.II, 348, 351 No 1

(91) Ibid II, p. 367

(92) Ibid II, p. 359

(93) Ibid II, p. 407

(94) Ibid II, pp. 508 – 509

(95) Ibid III, p. 406

(96) Ibid III, p. 143

(97) قام بذلك سنة 1529 (Ibid II, p. 455) وربيع 1530 : راجع
(Ibid II, pp. 508 – 509) ودجنبر 1531 راجع II, p. 558
فبراير 1537 راجع III, p. 85
. . . الخ .

(98) Ibid III, pp. 188, 191, 300

(99) Ibid III, p. 104 ويوجد تقرير متعلق بأهم بنودها وترجمة النص العربي المتعلق بالاتفاقية في الصفحات 104, 108 .

(100) S. I. H. M. Port III, p. 131

(101) Ibid III, p. 167

(102) Ibid III, pp. 417, 406, 448

(103) كان قبطان مازيغن يعتقد نفس الشيء Ibid III, p. 335 وعن موقف الامبراطور انظر الفصل التالي .

(104) S. I. H. M. Port III, p. 356 – 57

(105) Ibid III, p. 357

(106) Ibid III, p. 377

الفصل الثالث

تأزم أوضاع البرتغاليين داخل الثغور الدكالية واجلاؤهم عن آسفي وأزمور

لقد تبين لنا في الفصلين السابقين أن البرتغاليين عانوا الكثير من عصيان القبائل ومن الحركات الوطاسية وخصوصا السعدية، مما ضيق عليهم الخناق وحتم على البرتغال بذل مجهود عسكري ومالي لم يكن قادرا عليه خصوصا وأن المعطيات الاقتصادية بالمنطقة لم تعد تسمح بأي ربح. وحدث هذا التحول في وقت قلت فيه الارباح التي كان البرتغال يحصل عليها من المناطق التي كان يستغلها. وبذلك ازداد عجزه عن ضمان تموين منتظم للثغور بالاموال والزاد والعتاد، مما خلق مشاكل عديدة على المستوى المحلي والمركزي، وسبب اصطدامات ما بين سكان الثغور زادها حدة تضارب مصالح الفئات المهتمة بالتوسع.

وعلى ضوء المشاكل السياسية والاقتصادية الجديدة، حاول الملك التخلي عن آسفي وأزمور. ولكن الارستقراطية البرتغالية عارضت ذلك. فما هي حجج الطرفين، ولماذا استطاعت فرض كلمتها؟ وفي أية ظروف تم تحرير الثغور الدكالية؟

1 ـ تضارب مصالح الفئات المهتمة بالتوسع

(أ) لقد كان الملك يهدف كما لاحظنا الى الحصول على منطقة مسالمة تنتج الحبوب وتؤدي الضرائب، وتقبل على الثغور لتزويدها بالانتاجات المحلية ولشراء المواد المستوردة. وكانت هذه السياسة مناقضة ـ كما تبين لنا ذلك في فصل سابق ـ لمصالح العسكريين، من قباطنة، ونبلاء، وجنود برتغاليين، ومرتزقة، الشيء الذي أدى الى افشالها بسرعة بعدما أعطت ثمارها.

وبعدما فشل الملك في الحصول على تلك الوضعية التي تسمح بتسيير المنطقة واستغلالها بأقل التكاليف، أصبح يعمل على تقليل مصاريف الثغور الدكالية، وذلك بادخالها في مرحلة الخمول والدفاع عن النفس، وذلك بالتقليل من عدد الفرسان، وبالتالي من النبلاء، الشيء الذي عارضته هذه الفئة، واستمرت في فرض وجودها بالثغور(1). وللتقليل من المصاريف، أصبح كذلك يعمل على تجنب الاصطدامات مع الشرفاء والحصول منهم على معاهدات سلم. ولم تستسغ طبقة النبلاء هذا الموقف الملكي الجديد.

ورغم انتهاج سياسة تقشفية بالثغور، ازدادت المصاريف، مما جعل الملك يفكر في اخلاء المدن الدكالية. ولكن معارضة النبلاء حالت دون ذلك، مما حتم الاحتفاظ بها في ظروف جد صعبة، وكلف البلاد مجهودا لم تكن قادرة على تحمله.

(ب) تصور التجار البرتغاليين للغزو:

وكان التجار يشاطرون الملك هذه السياسة. فلقد كانوا رواد التوغل السلمي بالجنوب المغربي، ولعبوا أدوارا طلائعية في ادخال آسفي وأزمور وماسة تحت حماية الملك البرتغالي. ولكن المنافسة الاسبانية الحادة، ومعارضة قسم من سكان المدينتين الدكاليتين خضوعهما للنصارى حتم على التجار الاستنجاد بالعسكريين، مما مكنهم من التدخل بمناطق لم تكن خاضعة لمبادرتهم. ومعلوم أن (ديوغو) ومن رافقه في

مهمته جعلوا الاحداث تجري حسب مخطط يؤدي في النهاية الى الاحتلال العسكري. وبذلك اصبحت آسفي كباقي الثغور، مجرد ثكنة عسكرية منعزلة عن العالم المحيط بها، تعيش على حساب البرتغال.

ولكن التيار المركنتيلي الذي كان يتزعمه الملك ضغط من جديد. ولقد بينا كيف أن من بين الاسباب التي دفعت عسكريي آسفي الى العمل على فك الحصار المضروب على المدينة، كانت محاولة فتح المنطقة في وجه التجار البرتغاليين، وعلى رأسهم وكلاء الملك.

واذا كان التجار وكبار العسكريين قد تعاونوا في ميدان اقتناء العبيد والمضاربات على حساب الجنود، فان مصالح الطرفين سرعان ما اختلفت على ضوء المعطيات السياسية والاقتصادية الجديدة. لقد اصبح العسكريون يرون في بعض مواقف التجار أعمالا «تخريبية» لكونهم لم يتورعوا عن بيع الاسلحة للمغاربة كما تم ذلك بآسفي(2) . كما اتهموا بالتهريب والتعامل في السلع المحتكرة من طرف الملك(3) . واصبحوا، بعد أن قاطع الدكاليون الثغور، ينقلون أموالهم وسلعهم الى مراكش التي عوضت الموانيء الدكالية، محدثين بذلك نزيفا ماليا خطيرا، ورافعين من مداخيل الشرفاء. وبفعلهم هذا جعلوا مداخيل جمارك آسفي أقل بكثير من مداخيل العاصمة الحمراء(4) . ولم يترددوا في بيع خبراتهم (وخصوصا ما يساعد منها على صنع الاسلحة والعتاد) للاعرج، مسهلين بذلك محاربة اخوانهم في الدين(5) .

(ج) تصور النبلاء والفرسان للغزو.

ولعبت طبقة النبلاء دورا كبيرا في التوسع، وفي تسيير الثغور المحتلة والدفاع عن المهدد منها. وتحملت في ذلك مصاريف مرتفعة، اذ كانت تفد على الثغور على رأس عدد من الموالي والفرسان التابعين لها، وتتحمل نفقة اقامتهم بها. فخلال الهجوم الذي انتهى باحتلال أزمور، كان منهم من شارك على رأس عشرين أو خمسين محاربا(6) . وتجدد ذلك مثلا خلال حصار آسفي سنة 1534 . ويتجلى بوضوح دور

هذه الطبقة في المجهود العملاق الذي بذله حاكم جزيرة ماديرا في احتلال آسفي وأزمور، وفي الدفاع عنهما، والدفاع عن باقي الثغور(7) .

ومع ذلك، يجب التأكيد على أن هذا المجهود لم يكن بدون مقابل. بل على العكس من ذلك، كان النبلاء يجرون من خلاله وراء المناصب والمعاشات والاقطاعات. ولقد سبقت الاشارة الى امتناع هذه الطبقة عن المساهمة في التوسع البرتغالي وتحمل نصيب من مصاريفه، والى الوسائل التي استعملها الملك امنويل لاغرائها(8) .

فزيادة على الامتيازات التي عدها (كويش)(9) ، كانت الحروب بالمغرب تسمح بأخرى: المناصب الادارية وما يترتب عنها من مداخيل وجاه، امكانية الاغتناء من الحروب والغارات. ويكفي تصفح مؤلف (كويش) لحصر عدد كبير ممن مكنتهم حروب المغرب من ترقية سريعة داخل المجتمع البرتغالي، وكان على رأسهم جل القباطنة(10) . فلقد اصبحت المكانة الاجتماعية لكل من (منيزش) قبطان أزمور، و (أتايد)، قبطان آسفي، جد مهمة(11) . وعرف آخرون ترقية سريعة كليط ولوريرو مثلا. فلقد بدأ الاخير مهنته العسكرية بآسفي (1510) قبل أن ينتهي به المطاف قبطانا بمازيغن(12) . ومعلوم أن (لوبوباريغا) ألحق بطبقة الاشراف جزاء له على كثرة ما خاضه من حروب بدكالة.

وكان النبلاء يستفيدون، مقابل مساهمتهم العسكرية أو الادارية، من معاشات مهمة. فلقد توصل قبطان أزمور (سيا وكريا S.Correa) بالاضافة الى راتبه بسبعمائة ألف (700 000) ريال سنويا(13) . وكان قبطان آسفي (دوكاشترو) يستفيد من آخر يصل الى مائة الف ريال(14) . وكان غيرهما كثيرين جدا(15) .

وأغرت هذه الامتيازات النبلاء الاوروبيين الذين عملوا على الاستفادة منها بعرض خدماتهم على الملوك البرتغاليين. ووصل بالفعل الى البلاط الملكي نبلاء فرنسيون وانجليز(16) .

ونظرا لكل هذه الامتيازات، أصبحت هذه الطبقة تعمل على الالتحاق بالثغور، وعلى تمطيط مدة اقامتها بها مع أن الملك لم يكن يحبذ ذلك!

وخلقت مساهمة هذه الطبقة عددا كبيرا من المشاكل. فهم المسؤولون عن اعطاء التوسع ذلك الطابع العنيف الذي امتاز به، والذي نسف السياسة الملكية بالمنطقة. ويتجلى جشع هذه الطبقة وحرصها على الحصول على أكثر ما يمكن من كل غارة في فرض مشاركتها فيها على القباطنة(17)، ومعارضتها لفترات السلم والخمول، خصوصا فيما حدث لأحدهم حين رجوع برتغاليي أزمور من غارة استهدفت دواوير الشيخ بودومة(18). وكانوا يكونون كذلك عناصر بلبلة وفوضى بالثغور، خصوصا في أوقات السلم(19). وبما أن هذه الفئة كانت أكثر الفئات استفادة من التوسع، فانها كانت أحرصها على الحفاظ على المكتسبات البرتغالية بالمغرب بعد أن تأكد لها أن الملك بدأ يفكر في التخلي عن بعض المدن. وتجلى ذلك الحرص في عدة مواقف أهمها:

- الدفاع بحماس غير معهود على المهددة منها، كما حدث حين محاصرة الاعرج لآسفي سنة 1534. فلقد تطوع عدد كبير منهم والتحقوا على رأس رجالهم بالمدينة المحاصرة. وفاق عدد المتطوعين ما يتطلبه الدفاع عن المدينة مما دفع بالملك الى شكر بعضهم وأمرهم بعدم ركوب البحر(20).

- معارضة فكرة الجلاء معارضة عنيفة، والتعبير عن استعدادهم للتضحية بالمال والبنين.

- العمل على اقحام الملك أكثر في «المغامرة المغربية»، ونصحه بتجهيز حملة ضد المغرب لا تتوقف الا بعد سحق الشرفاء واخضاع البلاد كلها(21). وهكذا دافع قبطان آسفي السابق (دوسكوطو) في مذكرة الى الملك على غزو المغرب وجعله هبة الهية، وفضله على كل المناطق الخاضعة للبرتغال، تلك المناطق التي يجب أن لا تنسي البرتغال في المغرب، بل يجب أن تمول الحروب به. ونصح الملك باستغلال الظروف المضطربة بالمغرب للهجوم عليه. وأكد أنه لا يمكن التغلب على مآسي البرتغال وقلة

المواد الغذائية به الا بالتحكم في المغرب. واعتبر أن ذلك هين مادامت مفاتيح البلاد بيد الملك، والمتمثلة في آسفي وأزمور وأكدير(22). والجدير بالذكر أن التقرير حرر في فترة أصبح الملك فيها عازما على اخلاء المدن المذكورة، وكلف محرره بدراسة ظروف ووسائل الجلاء عن المدينة الاخيرة(23)!

وذكر آخر في رسالة بعث بها من فاس أن مملكة الوطاسيين على ابواب الهاوية، وأن عددا من القبائل والاعيان والفقهاء عبروا جهرا عن رغبتهم واستعدادهم لمساعدة البرتغاليين اذا ما تحركوا لغزو المغرب، وأشار الى أن امضاء المعاهدة الاخيرة (1538) مع السلطان خيّبت أملهم(24)! ووصلنا عدد كبير من أمثال هذه الاكاذيب(25).

(د) هذا عن موقف الاشراف البرتغاليين من التوسع وتناقضه مع مواقف فئات أخرى، وخصوصا التجار والادارة المركزية. فما هو موقف الجنود والمرتزقة؟

لم يكن للجنود، سواء المستقرون بصفة دائمة، أو الذين يفدون على الثغر للخدمة العسكرية أي مورد غير الرواتب والمؤونة التي كانت ترسل لهم من البرتغال. ولكن وصول هذه وتلك لم يكن منتظما وفي الوقت المناسب. ولم يكن التأخر قصيرا اذ كان يتعدى التسعة اشهر(26)، الشيء الذي عرّض الجنود والسكان للبؤس والفاقة، وجعل المدينة على أبواب المجاعة إن لم تعان منها فعلا كما حدث عدة مرات(27). ولم يكن هذا المشكل جديدا كما لاحظنا في فصل سابق، ولكن نجاح التوسع في بداية الامر كان يسمح بالزراعة وبغنائم مهمة(28)، وبكميات من الحبوب (الضرائب، الشراء) الشيء الذي يجعل الجنود لا يشعرون بطول التأخر.

وكان نظام الاداء نفسه يجعل الجنود يعانون من مأساة أخرى. فرغم منع الملك أداء الرواتب والمعاشات من السلع، فان قلة الاموال جعلته يسكت عنه، كما جعله هذا المشكل الاخير يكلف من تعاقدوا معه على صفقات تجارية كبرى باداء الرواتب مقابل ثمنها. وكان المستفيدون يهودا أو برتغاليين. ولكنهم كانوا ـ كما تؤكد ذلك

وثيقة سنعود اليها - بتواطؤ مع القبطان، يؤخرون الاداء عن قصد. كما كانوا يستغلون قانون العرض والطلب لصالحهم. فبما أن كل الجنود كانوا مرغمين على اعادة بيع تلك السلع، ولنفس الشخص الذي سلمها لهم كراتب، فانهم كانوا يخسرون في ذلك قسما مهما من راتبهم قد يصل الى النصف!

ومن جهة أخرى كانوا يبيعونهم السلع الاخرى بأثمان جد مرتفعة، تفوق ثلاث مرات ثمنها الحقيقي، ووصل الارتفاع يوما الى 16 مرة(29) !

وكان بعض الاحتكاريين يشترون بثمن بخس من الجنود الذين يوجدون في حاجة ماسة الى النقود، الايصالات التي تسمح لهم بتسلم قسط من القمح، ويذهبون بتلك الايصالات الى لشبونة ليتقاضوا دفعة واحدة ثمنها الحقيقي(30) .

وبهذا وذاك، فقد الجنود حماسهم وعبر عدد منهم عن رغبته في الالتحاق بالبرتغال(31) ، وقلت اعدادهم ، مما حتم على الملك الالتجاء الى المرتزقة، الشيء الذي لم يسبق له أن قام به بدكالة الا مرة واحدة (1510 حين حصار آسفي). كما هدد هؤلاء الجنود بإعلان عصيانهم، واضطر القباطنة الى تسويفهم عدة مرات(32) . وارغمت هذه الوضعية الجنود على السرقة وقطع الطرق، مما خلق مشاكل خطيرة داخل الثغر سنعود اليها بعد قليل.

ولم يكن تجنيد المرتزقة حلا بدون مشاكل. فبما أنهم لا يرتبطون بالثغر الا بعقدة، وبدافع نفعي فقط، فانهم كانوا أول المحتجين على كل تأخر في الاداء، وكاد ذلك أن يؤدي مرة الى عصيانهم ونهبهم لازمور. وذكر المؤرخ (دوسوزا) ان المرتزقة الاسبان كانوا ميالين الى العصيان واحداث الفوضى داخل الثغور(33) .

واستحال على الملك ايجاد موارد مالية محلية لتغطية ولو قسم من مصاريف تسيير المدن الدكالية، وذلك نظرا لتطور الاوضاع الاقتصادية بالمنطقة وحدوث تحول خطير في علاقة تلك المدن مع البوادي الدكالية.

2 ـ الظرفية الاقتصادية الجديدة بدكالة، وأثرها على موقف المسؤولين من المنطقة

إن أهم ما يميز الثغور الدكالية بعد بداية العشرينات هو اختفاء كل العناصر التي كانت تعطيها تلك الأهمية لدى المسؤ ولين البرتغاليين. فلقد نتج عن مجاعة 1520، والوباء الذي تلاها، انخفاض كبير في عدد السكان زاد المنطقة التي عانت الكثير من الغارات البرتغالية والوطاسية، ومن الهجرات الجماعية، زادها كل ذلك فراغا. وبذلك انخفض الانتاج، واختفى الرواج التجاري الذي كانت تعرفه أزمور، وخصوصا آسفي، وذلك نظرا لمقاطعة الدكاليين لهذين الثغرين، وتعويضهم إياهما بمراكش. وتتجلى تلك المقاطعة في توقف دخول الانتاجات المحلية، وخصوصا الغذائية منها[34]، وفي اختفاء منصب الفيطور، وادماجه مع «المشرف» الذي أصبح أكثر من ضروري، وفي اعتماد المدن الدكالية بصفة دائمة على ما يرسله البرتغال. وبذلك لم تعد آسفي تختلف في شيء عن الثغور الشمالية، واختفى عامل مهم كان يربط البرتغاليين بالمنطقة، خصوصا وانها لا تكتسي أية أهمية استراتيجية تقتضي تحمل مصاريف الحفاظ عليها مهما كانت مهمة. كما أن قربها من قاعدة الشرفاء جعل تكاليفها ترتفع سنة بعد أخرى. ولهذا كانت المدينتان الدكاليتان أول ما فكر الملك في الجلاء عنه. وشاطره هذا الرأي بعض كبار المسؤ ولين الذين اصبحوا مقتنعين بأن الاحتفاظ بالمدينتين لا يتم الا على حساب رفاهية البرتغاليين، ولن يؤ دي الا الى الرفع من عدد اليتامى والارامل والاسرى الشيء الذي سيزيد مشاكل البلاد المالية[35].

وارتبطت هذه الظرفية الاقتصادية بنفور الدكاليين من النصارى، وبتزايد ضغط الشرفاء على الثغور. وبذلك تحتم على الملك الرفع من الحاميات كلما اقتضى الحال، وترميم الاسوار، وتزويدها بما يلزم من أموال وذخيرة... ولقد ارتفعت تلك الحاميات لتصل الى اكثر من ألفي رجل، الشيء الذي لم تصله في فترة التوسع. فلقد توصلت آسفي بألف رجل على الاقل دفعة واحدة (1534)[36]. واصبح الاعتماد على

المرتزقة الاسبان أمرا معتادا. وتزايدت المصاريف مع السنوات. فاذا كانت نفقات تسيير الثغور المغربية الثمانية تتطلب حوالي 1515 ما يقرب من خمسين مليون (ريال)، فان العدد تضاعف بعد خمس عشرة سنة[37] ووصلت قيمة ما دفع كرواتب سنة 1534 وحدها خمسة وعشرين الف(كروزادو)[38] . وتطلب العون الذي توصلت به آسفي سنة (1534) عشرة آلاف(كروزادو)[39] . وكانت قيمة ما تطلبه امداد كل من آسفي وأزمور بالعون وتزويدهما بالمواد الغذائية مائة الف كروزادو[40] . وتزايدت متطلبات هذه المدن من الحبوب. فلقد أرسل إلى الثغور الثمانية سنة 1536 : 5420 مد من القمح كان نصيب آسفي منها 950 مدا، وأزمور 780 ، ومازيغن 139 ونصف[41] . وتوصلت آسفي سنتين بعد ذلك بـ 403 مد وأزمور بـ 105 ومازيغن بـ 70 [42] . وأرسل الى المدينة الاولى في ماي 1541 : 100 مد، وتلتها دفعات أخرى أقل[43] . وطبعاً لم تكن هذه الكميات هي كل ما توصلت به المدن الدكالية، ولم تكن كذلك كافية، بل اشتكى القباطنة باستمرار من تجاهل أحوال السكان السيئة. وهذا ما يدفعنا الى تسليط بعض الأضواء على ظروف عيش السكان بسبب الظرفية الاقتصادية الجديدة.

لقد اختفت تلك الحقبة القصيرة التي كان فيها كل شيء متوفراً بالمدن الدكالية التي أصبحت تعتمد على «المتربول» في كل شيء حتى في الماء العذب أحياناً[44] . وهكذا أصبحت الفاقة عامة. فلقد أضطر السكان إلى بيع لباسهم وأثاثهم لشراء ما يسدون به رمقهم، ومات بعض سكان آسفي من الجوع، وخرج آخرون إلى البوادي للعيش من القطف معرضين بذلك أنفسهم للموت[45] . واضطر المسؤولون على الأقل مرتين إلى مصادرة ما يوجد داخل المنازل من حبوب في انتظار المساعدة من البرتغال[46] .

واستفاد الأحتكاريون من هذه الوضعية لفرض أثمان باهظة على المستهلكين، كما استغلها المسؤولون لسرقة ما يرسل من البرتغال واعادة بيعه أو إرساله إلى قصورهم هناك[47] .

وأمام الجوع والفقر احترف عدد من السكان السرقة. ولم يكن الدكاليون وحدهم الضحية، (اختطاف الأشخاص، القوافل، المواشي)(48) بل عانى منها كذلك البرتغاليون واليهود.

فلقد تعددت الدور التي تعرضت للسرقة ليلا بكل من آسفي وأزمور(49). وأصبحت الأيدي تمتد إلى أمتعة وأموال اليهود في واضحة النهار(50). ولقد رد القبطان (سكوطو) الأمر إلى شدة الفقر وتأخر الاداءات. ورد طبيب أزمور الأمر إلى السببين نفسهما، وزاد عليهما مبالغة التجار في طلب الأثمان المرتفعة. ولقد ذكر أن السراق يعتبرون أن عملهم شرعي يهدف إلى إرجاع ما ابتز منهم من طرف الاحتكاريين(51). كما أن معاينة السكان لتورط المسؤ ولين مع الاحتكاريين ولنهبهم لحبوب «وبسكويت» المدينة دفعهم إلى الدخول في صراع معهم وفضح أعمالهم لدى الملك. وعمت الفوضى لذلك المدن الثلاث. فلقد كتب الطبيب السابق الذكر أنه لم يعد أحد يهاب القانون بأزمور (1528)(52). وكتب الأخباري (دوسوزا) أن القبطان (دونورنيا) لما وصل إلى أزمور (1517) «... وجد الحرب داخل الأسوار في وقت لم يكن الأعداء يقومون بها خارجها...»(53).

وكتب يهود ومسلمو أزمور إلى الملك واشتكوا من تصرفات القبطان (ألفرو)(54). واتهم (فييغاس .Viegas) بسرقة الحبوب والبسكويت(55). وتعرض غيرهما لنفس الاتهامات،(56) فلقد كاتب كل سكان آسفي الملك (1541) بشأن تصرفات القبطان واتهموه بسرقة الحبوب والجباية والاستيلاء على دور اليتامى، والتواطؤ مع السراق(57). وبذلك تكون الجالية البرتغالية المستغلة، والتي تعاني من الفاقة لتجاهل المسؤولين لأوضاعها، قد انقسمت لنفسها بدخول صراع ضد الاحتكاريين والمستغلين لنفوذهم، صراعاً اتخذ طابعاً طبقياً واضحاً.

وتعطينا وثيقة تعود إلى 1530 صورة عن مآسي برتغاليي أزمور، ومدى استغلالهم من طرف كبار التجار والقبطان. وهي ممضاة من طرف القاضي المسؤ ول

عن يتامى المدينة: «. . . إن هذه المدينة في طريق الموت من جراء المجاعة الكبرى التي احتدت منذ أربعة أشهر على الأقل، وليس ذلك ناتجاً عن خطأ سموكم الذي أرسل قمح سبعة أو ثمانية أشهر، واختفى الباقي على الشكل الذي ساذكره: فالقباطنة الذين يريدون أن يكنزوا الأموال يغتنون على حساب اليهود والمسلمين، واليهود على حساب النصارى الذين يضطرون إلى رهن رواتبهم وبيع جرايتهم بعشرة أو خمسة عشر ريالا للكيل، وذلك لأن المسؤولين عن الاداءات(58) لا يؤدون ما عليهم. لقد توقفوا عن أداء أي شيء منذ تسعة أشهر، وذلك باتفاق مع القبطان، الشيء الذي نتج عنه انعدام الحبوب والأموال. وأصبح لذلك فرساننا، وكذلك السكان، في بؤس كبير. يساعد المسؤول عن الاداءات يهوديان أو ثلاثة يشترون من السكان رواتبهم بالثمن الذي يريدونه لأنهم محاطون بالبحر، يشكون من الجوع، ومحاصرون من طرف المسلمين، فهم لذلك يخسرون خمسمائة ريال في كل ألف وذلك إذا أرادوا أخذ الأموال مقابل الأثواب، الشيء الذي منعه سموكم في عقدته. ويشترون منهم (بكروزادو) واحد ـ أي 400 ريال ـ ما قيمته 120 ريالاً بقشتالة، أما الثوب المصنوع من القنب، والذي يساوي 30 ريالاً فيبيعونه بمازيغن بـ 120 ريالا. . . »(59).

ولم تجد شكاوي السكان واقتراحاتهم آذاناً تنصت اليهم لأن المشكل كان مشكل عجز مالي على الصعيد المركزي. فما هي أسبابه ما دام البرتغال متحكماً في امبراطورية تجارية من أكبر الأمبراطوريات التي عرفها التاريخ؟

من المعلوم أن قوة وغنى البرتغال تعتمد على ثلاث ركائز: سواحل افريقيا التي تزوده بالتبر والعبيد وبعض التوابل، الهند والشرق الأقصى بلد التوابل والعقاقير، وأخيراً أسواق شمالي غرب أوربا وخصوصاً منها «فلندرا» وميناؤها (أنفرس Anvers) التي تروج توابله وتزوده بالحبوب والمواد المصنعة وخصوصاً الأسلحة، وأخيراً بالاموال وبفضة ألمانيا. وكان البرتغال مستفيداً في كل هذه المناطق. فلقد نتج عن احتكاره لتلك السلع فرضه أثماناً منخفضة على المنتج ومرتفعة على المستهلك،

كما كان بامكانه تزويد السوق بالكميات التي لا تؤثر على الأثمان[60] . وهكذا كانت التجارة البحرية تسمح للبرتغال بمدخول يضاعف مدخول البلاد[61] .

ولكن هذه الوضعية سرعان ما تغيرت بعد 1520 . فلقد كثرت مشاكل البرتغاليين بعد هذا التاريخ بالشرق الاقصى مما حتم الرفع من عدد السفن وتعزيز الادارة، الشيء الذي جعل استغلال المنطقة يشكو من عجز مالي خطير ازداد مع مرور السنوات وأصبحت «الهند» لذلك عبارة عن مضخة تمتص أموال البلاد. وحدث هذا في فترة توقف فيها وصول الفضة الالمانية، وتقلصت الكميات التي كان البرتغال يحصل عليها من مبادلاته «بارغين» و«لامينا»، وذلك أيضا بعد 1521 [62] .

ولهذا لم يبق للبرتغال الا البحث عن سبل جديدة للحصول على الفضة والذهب، وكان ذلك على حساب اسبانيا، اما بتزويد مستعمراتها بالعبيد، واما بتهريب قسط مما كانت تحمله السفن من أمريكا[63] .

ولعب التهريب والقرصنة دورا كبيرا في ظهور المشاكل البرتغالية. ففيما يخص التهريب، فانه نظم على يد الفرنسيين والاسبان والتجار الاحرار البرتغاليين، وشمل كل المناطق التي وصل اليها نفوذ البرتغال. فلقد وصل الفرنسيون سنة 1538 الى (سومترا)[64] ؛ وذلك رغم الحراسة البرتغالية المشددة. وشمل التهريب أيضا السواحل المغربية وأرغين.

وكانت القرصنة الفرنسية تفقد الاسطول البرتغالي حوالي 20 مركبا سنويا ما بين 1520 – 1530 ، وحوالي 12 ما بين 1531 – 1534 [65] . ولقد اختطف القراصنة الفرنسيون أو نهبوا قرابة نصف الاسطول التجارى البرتغالي[66] . وتزايد نشاط القرصنة الفرنسية بعد 1520 بحيث «. . . أصبحت الهجمات أكثر، والفارق الزمني بينها أقصر. . .»[67] ولم تفد كل المحاولات الدبلماسية التي قام بها المسؤولون البرتغاليون وتجهيزهم لخمسة أساطيل لحماية مناطقهم[68] . كما يعود تراجع أرباح البرتغاليين الى المقاومة التي واجهوها في المناطق التي اتصلوا بها واستغلوها. فلقد

فشلوا رغم كل المحاولات في اغلاق طريق القوافل المؤدية الى المغرب، ومنع التبر من الوصول اليه، ذلك أن هذا التيار عرف بعد مبايعة الشرفاء نفسا جديدا، كما أن وجود المواد الأساسية لهذه المبادلات، وخصوصا الملح بالداخل، حال دون تحقيق ما كان يهدف اليه البرتغاليون(69) . وكان انتصار السعديين في هذا الميدان، أو كما عبر عنه «بانتقام» القافلة من الكرفيلا، مبشرا بانتصار عسكري. ولقد لمس الملك البرتغالي نفسه خطورة ذلك، وتنبأ بأثره على ميزان القوى ما بين بلاده ودولة الشرفاء(70) . وصمدت مناطق كثيرة بالشرق في وجه البرتغاليين وكان على رأسها العثمانيون والامارات الاسلامية الاخرى، الشيء الذي أعاد الى الطريق البرية حيويتها السابقة(71) . وهكذا فشلت جهود البرتغال في احتكار الطريق البحرية والمناطق المكتشفة، وأحدثت مقاومة الامارات والدول الاسلامية ثغرات داخل البنيان الذي تم تشييده، مما زاد مشاكل الدولة المالية حدة.

وكانت ميزانية البرتغال تشكو بصفة دائمة من عجز مالي حتى خلال فترات الازدهار التجاري، وذلك نظراً للمصاريف الاستثنائية الطائشة التي كان يقوم بها القصر: مصاريف اقامة النبلاء الكثيرين بالبلاط، زفاف الاميرات والامراء، عطاءات للنبلاء، مصاريف الاساطيل والثغور المغربية والمستعمرات الاخرى.

وأمام تدهور ميزانية الدولة التجأ الملك جوا الثالث الى حلين:

- استدعاء مجالس «الكورتيس» وطلب اعانة مالية منها. وهكذا حصل منها على 450 000 كروزادو في ثلاث دفعات (180 مليون ريال برتغالي).

- اللجوء الى القروض سواء الداخلية (Juros) أو بأسواق فلندرا (أنفيرس) والأندلس المالية. ولقد بلغت أداءات الدولة من هذه الديون ما بين: 1522 – 1543: 2 200 000 كروزادو (= 880 000 000 ريال) أي 100 000 كروزادو سنويا (40 مليون برتغالي)(72) .

ما هو الحل أمام تزايد الديون والمشاكل المالية؟

لقد كانت أمام المسؤولين عن ميزانية الدولة ثلاثة حلول فقط:

ـ التقليل من أسطول الشرق الأقصى. ولكن هذا الحل أصبح مستحيلا نظرا لتزايد المضايقات العثمانية بالخليج العربي والمحيط الهندي.

ـ الغاء الامتيازات التي يستفيد منها النبلاء، أو على الأقل التقليل منها: ولكن ذلك لن يؤدي الا الى ابعاد النبلاء عن الدفاع عن الثغور مما سيحتم اللجوء الى المرتزقة ويجعل المصاريف أعلى دون أن يضمن حماس النبلاء وتضحياتهم التي تجلت خلال حصار آسفي (1534)

ـ اخلاء الثغور التي تكلف مصاريف مرتفعة، «. . . والتي لا يستفاد منها لا في الميدان المادي ولا على صعيد الحرب الصليبية. . .»[73] ، أي الثغور الجنوبية.

فما هو موقف الرأي العام عامة، والمهتمين بالتوسع خاصة، من هذا الاستنتاج الذي خرجت به الادارة المركزية؟

3 ـ التفكير في الجلاء عن آسفي وأزمور

(أ) لقد أصبح ذلك في نظر الادارة المركزية، وعلى رأسها الملك حلا لبعض المشاكل المالية. وكان القرار يستهدف المدن الجنوبية لاسباب سنعود اليها. ولم يقرر الملك ذلك، بل طلب رأي عدد من كبار الشخصيات في الموضوع. ويبدو أن التفكير في الجلاء عن بعض المدن بدأ سنة 1529 على الأقل كما يتضح ذلك من خلال جواب الدوق ـ فاتح أزمور ـ عن استفسار الملك[74] . وعزم الملك على تنفيذ مشروعه هذا في السنة التالية كما يتجلى في المهمة التي كلف بها (دو سكوطو) بأكدير. إلا أنه تم الاحتفاظ بكل الثغور دون أن يصلنا شيء عن سبب هذا التراجع الملكي. فهل نتج عن معارضة النبلاء للفكرة كما يتجلى ذلك في موقف المبعوث نفسه؟ ولكن الملك استمر في التفكير في ذلك الحل بدليل مكاتبته البابوية بطريقة مستعجلة بشأن السماح له بتخريب المدن ومعاهدها الدينية اذا ما تحتم التخلي عنها (1532)[75] .

وعلى كل، فلقد كان جواب الدوق مخالفا لما كان يتوقعه الملك. فلقد نصحه

بالتخلي عن الثغور الشمالية التي لا تسمح باي ربح مادي (ضواحي جبلية فقيرة)، وكذلك عن كل حصون ومدن الشرق باستثناء (كوا Goa) و (كوشين Cochin)، والاحتفاظ باسفي وأزمور اللتين يمكن أن تسمحا للبرتغال بأرباح مهمة [76].

وبعد سكوت قصير عن الموضوع، دفع الحصار الذي ضربه الأعرج على آسفي، (1534) والذي ضربه أخوه على أكدير في السنة السابقة، والمصاريف الباهظة التي تطلبتها مساعدتها، دفع ذلك الملك الى التفكير من جديد في التخلي عن آسفي وأزمور. واستشار في ذلك مع اثنين وعشرين شخصية برتغالية[77]، منها الامراء وكبار الكنيسة، وكبار الاشراف، وبعض رؤساء الجماعات العسكرية وبعض المسؤولين الماليين. وأكدت الرسالة الملكية على الاسباب التي أرغمته على التفكير في هذا الاجراء.

وكانت الاطروحة الملكية ترتكز على عوامل جغرافية ومالية وسياسية. فالجغرافية تكمن في بعد المنطقة عن البرتغال، وبالتالي كونها لا تهدد سواحله اذا ما استعملت من طرف المسلمين ولا تضمن حمايتها اذا ما بقيت بيد البرتغاليين.

ويصعب الدفاع عن آسفي وأزمور في الوقت المناسب نظرا لسوء ميناء الثانية وانعدامه بالاولى، خصوصا وأن ضغط الشرفاء عليهما أصبح دائما. كما أن كون آسفي محاطة بمرتفعات يجعلها عرضة للنيران والقذائف. كما أن مشاكل الدولة المالية لا تسمح بارسال العون اليها باستمرار. ولاقناع الشخصيات المستشارة أرفقت الرسالة بتقرير مفصل وسري عن أوضاع الخزينة.

ونظرا لاهمية الرسالة الملكية، وحتى نتمكن من ابداء بعض الملاحظات بشأنها نورد أهم فقراتها. وهي موجهة الى الشخصية التي ستبعث على رأس سفارة لدى البابا والامبراطور: «... صديقي (C. de Tavora) أنا الملك، أحييك بحرارة. نظرا للحصار الذي ضربه الشريف في الايام الاخيرة على آسفي بكل قواه، التي هي جد مهمة، ونظرا للمصاريف الهائلة التي تطلبها انقاذها، وكذلك أوضاع ماليتي،

يلزم النظر فيما اذا كان من الافيد التخلي عن تلك المدينة وكذلك عن أزمور أو عن احداهما أو الاكتفاء في إحدهما أو فيهما معا بالقصبة فقط. . . ونظرا للمصاريف التي تتطلبها صيانتها (آسفي)، والتي لا يمكن لميزانيتنا تحملها من جراء مصاريف أخرى جد مهمة، تنفق على مدن وحواضر أخرى بافريقيا، وعلى الاساطيل التي يجب تجهيزها باستمرار لخوض الحرب، وكذلك في الدفاع عن الهند والحفاظ عليها، وأخرى كثيرة ضد القراصنة وغيرها مهمة وضرورية جدا أقوم بها (. . .) خارج ممالكي. ولهذا، ونظرا للخطر الذي يهدد هاتين المدينتين كلما حاصرهما الشريف القوي جدا، فانه يستحيل مساعدتهما نظرا لبطء ارسال العون ولصعوبة الارساء بهما شتاء، ويبدو أن ذلك لا يتم بأزمور في ظروف حسنة ولو في الصيف. وبما أنهما تتوصلان دائما بعدد الرجال الكافي، فإن ذلك يمثل مصاريف مهمة لا يمكن أن تغطى الا بمجهودات ضخمة، تلك المصاريف التي يتحملها رعاياي وموالي، الذين يجب عليهم في هذا الباب خدمتي كما فعلوا سابقا.

ومن جهة أخرى، يبدو أن مسألة التخلي عنهما للمسلمين ستكون ذات نتائج جد خطيرة، خصوصا وانهما احتلتا على يد الملك مولاي وأبي (. . .) لخدمة الهنا وأبينا ولنشر المسيحية بتلك المناطق. وسينتج عن هذا أن الشريف بتحكمه في هاتين المدينتين سيصبح سيد دكالة بدون منازع، وسيصبح جد قوي مما سيجعله أكثر هيبة مما كان عليه من قبل.

ويستلزم احداث قصبات بهما تحمّل نفقات جد كبرى. وبالفعل فان أقل ما يلزم لتحصينهما يفوق مائة الف كروزادو، هذا دون الحديث عن حمايتهما؛ ومع ذلك، ومهما بلغت حصانتهما، فليس مؤكدا أننا لن نضطر الى اعانتهما.

(. . .) ولهذا، واعتبارا لغزو بلاد المسلمين الذي طالما تمنيت القيام به في تلك المناطق من (مملكة) فاس ومراكش، اذا ما وفر لي الاله الذي يعلم جيدا مدى رغبتي في ذلك الوقت، والذي لن اتأخر في الشروع فيه مباشرة بعد أن تسمح لي ماليتي

بذلك، أرجو منكم بإلحاح أن تبينوا ما اذا كان من الاحسن بداية تلك الحرب بمملكة فاس أو من تلك المنطقة الاخرى من (مملكة) مراكش. ويجب اعتبار اوضاع كل من هاتين المنطقتين، وقوة سلطان فاس والشريف، ذلك أنه اذا ما ظهر أنه من الافضل البداية من مملكة فاس، يحسن التخلي عن المدينتين، أما اذا كان علينا ان نبدأ بالقسم الآخر، فيجب آنذاك الاحتفاظ بها. ويجب مع ذلك الاعتبار، التفكير في الخصائص العديدة الموجودة بكل من تلك المناطق ليمكن الشروع في الحرب في ظروف أحسن، تلك الخصائص التي يطول ذكرها، والتي يمكنكم لمسها اعتمادا على المعلومات التي تتوفرون عليها بشأن الواحدة والاخرى، والتي يعلمها الجميع.

ولكي تطلعوا على أحوال ماليتي، سيطلعكم (F. de chamorro) على أوضاعها ليمكنكم الحكم عليها، ولكن يجب أن لا تكلموا أحدا بشأنها(78) . . . ».

ويستنتج من صيغة الرسالة الملكية:

- أنها صيغت على شكل يهدف الى اقناع المخاطب بتأييد فكرة الجلاء عن الثغرين. واعتمد الملك على كل الحجج الممكنة، والتي اعتبرها مقنعة، كما ناقش كل الامكانيات والحلول الاخرى ليقتنع القارىء بضرورة تبني فكرة الجلاء. وللتقليل من خطورة القرار قدم وعدا غامضا بدخول حرب شاملة بالمغرب مباشرة بعد تحسّن أحوال الخزينة. وطلب من مخاطبيه تحديد المنطقة التي يجب أن يبدأ منها الهجوم توقعا منه اختيارهم للشمال لعدة أسباب سنعود اليها.

- وتنبوءا بمعارضة المستشارين لفكرة الجلاء، كان الشطر الثاني يهدف الى دفع المحظوظين الى الاسهام في المجهود، وتحمل قسم من تكاليفه.

(ب) موقف النبلاء من الاقتراح الملكي.

ورغم اختلاف الأجوبة في التفاصيل، أجمع جلها على ضرورة الاحتفاظ بالثغرين مهما كلف ذلك من تضحيات.

ففيما يخص النقطة الاولى المتعلقة بمصير الثغرين، كانت غالبية الاجوبة ضد اخلائهما. وكان أصحاب ذلك الموقف يرون في التراجع بالمغرب عارا واهانة للبلاد وتخريبا للعمل الذي قام به الملوك والاجيال السابقة. ولهذا فضل احدهم فعل ذلك بعد هزيمة على التراجع بدون حرب(79) . وكان منهم من طالب بالهجوم الفوري على المغرب والقضاء على قوة الشرفاء، وذلك للتغلب على المصاعب التي تعاني منها الثغور(80) . واقترح أحدهم على الملك الهجوم ـ فورا ـ على المغرب واحتلال «سلا» والمعمورة للتحكم في الشاوية وضرب كل من فاس ومكناس، وانتهاج سياسة مسالمة بدكالة تهدف الى الحصول على ثقة القبائل لتعود الاوضاع الى ما كانت عليه من قبل. (حمل ضمنيا غش التجار للدكاليين والغارات مسؤ ولية ذلك التحول الذي طرأ على موقف القبائل من البرتغاليين)(81) .

ولهذا عارض هذا الفريق فكرة تخريب المدينتين والاحتفاظ بالقصبتين فقط. وكان الوحيد الذي حبذ الفكرة هو الوحيد كذلك الذي قبل الجلاء عن احدى المدينتين وفضل آسفي على أزمور(82) .

ويلاحظ أن رجال الدين، باستثناء أسقف «الغرب»، كانوا اما ضد المحافظة على الثغرين(83) ، أو أنهم امتنعوا عن ابداء رأيهم بدعوى جهلهم لمعطيات الموضوع(84) . وشاطرهم هذا الرأي بعض النبلاء(85) . وبرر هذا الفريق موقفه بكثرة المصاريف، وبعدم اكتساء الثغرين أية أهمية بالنسبة للبرتغال، ولكونهما لا يشكلان أي خطر على أمنه واستقلاله.

وكان منهم من طالب كذلك بالتخلي عن أكدير(86) . ففي الرسالة الجوابية لاسقف (لاميغو Lamego) نقرأ مثلا:

«. . . يبدو لي أن الدفاع عنهما مخالف لخدمة الاله، (ذلك) أن المدينتين غير قادرتين على تسهيل احتلال افريقيا، وأن الجيش الذي سينزل بهما سيعرض لاخطار كبيرة، وانهما ليستا مدينتين قادرتين اذا ما تم تعميرهما على يد المسلمين على الحاق

الضرر بمالككم وبالمسيحية. ويستحيل حاليا حمايتهما الى الحد الذي يسمح بفلاحة الارض بهما وضمان اكتفائهما الذاتي، كما أكدت ذلك التجربة. حقيقة أن الشعائر الدينية تقام بهما، ولكن اخلاءهما لا يلحق أي ضرر بخدمة الاله، لانه لا يكلفنا بأمور مستحيلة، كما هو الحال الآن في الحفاظ على المدينتين اللتين تحدثان لسموكم وخدامكم كثيرا من المشاغل وتسببان مصاريف ضخمة لا تقدر أبدا ماليتكم على تحملها. انه ليس بخدمة الاله في شيء ان ينفق سموكم في الدفاع عنهما ما يدين به سموكم لعدد كبير من الارامل واليتامى والرجال الذين سبق لهم أن خدموكم مدة طويلة والذين يعانون من الفاقة، والذين يجب على سموكم زيادة على أداء ما تدينون لهم به، منحهم هبات أخرى (. . .) ويبرر البعض ضرورة الحفاظ على المدينتين بكونهما احتلتا على يد والدكم. . . ولكن، سبق لي أن كتبت اليكم أنه ربما كان من الافضل لو أنه لم يقم بذلك أو أن تخريبهما كان أحسن من احتلالهما، وحبذا لو تم ذلك! ولو بقي على قيد الحياة للاحظ بكل تأكيد ان كل ما حصل عليه من ذلك الاحتلال هي الاعباء الثقيلة والمصاريف الباهظة، زيادة على الهموم التي تخيم على حياة سموكم بسبب هاتين المدينتين[87] . . .».

وفيما يخص المشاكل المالية، أجمعت الاجوبة على ضرورة مساهمة المستفيدين من الاقطاعات والعطاءات الملكية، والنبلاء ومجالس المدن (الكورتيس) والبابوية اذا اقتضى الحال. وعبروا جميعهم عن استعدادهم للتضحية بالنفس والمال والبنين. كما أشار بعضهم على الملك باعادة النظر في المصاريف التي اعتبروا بعضها زائدا أو مبالغا فيه[88] .

وعارض أسقف (لاميغو) هذه المساهمة المالية والتجاء الدولة الى القروض[89]

وعن القسم الذي يجب أن يبدأ منه غزو المغرب، كانت غالبية الاجوبة تحبذ البداية بغزو الشمال وذلك لعوامل جغرافية واستراتيجية. (الخوف من القرصنة الاسلامية، الخوف من استعمال موانئه من طرف الاتراك، مناخ شبيه بمناخ البرتغال،

كثرة المدن والانهار، البداية بالاقوى (الوطاسي!) الخ . . .

وكان مفضلو البداية من الجنوب ممن كانوا على علم بخطورة الشرفاء وبالتطورات التي أدخلوها على الجيش والسلاح. وكان واحد فقط لا يفضل قسما على آخر(90) . والجدير بالملاحظة ان الذين طالبوا بالجلاء لم يجيبوا على هذا الشطر من السؤ ال ـ باستثناء أسقف لاميغو ـ مما يدل على اقتناعهم بضرورة التراجع النهائي عن المغرب. وكان من المستشارين من أشار على الملك بالتعاون مع الأمبراطور(91) . وبذلك تكون الارستقراطية، المستفيدة الكبرى من التوسع البرتغالي بالمغرب، قد عارضت تراجع البرتغال به، وتخليه عن بعض مكتسباته به مهما كانت قليلة، وذلك تفاديا لحدوث سابقة.

هل كان بامكان الملك الاستغناء عن هذه الاستشارة؟

لقد اتخذ كل من يوحنا الثاني وامنويل ثلاثة قرارات تم اثرها التخلي عن كل من المليحة (1489) ، مغدور (1510) وأخيرا المعمورة (1515) ، دون أن يطلبا رأي أحد في ذلك. ولكن هذه العمليات تمت في فترة كان التوسع خلالها في أوجه، وكان النجاح في نقط مختلفة من العالم يغطي ما يلحق بالبرتغاليين بين الحين والآخر من هزائم. وامتازت بداية حكم جوا الثالث (1521) بالتراجع في كل مكان كما لاحظنا. ولا شك في أن الفريق «الافريقي» وجد الفرصة مواتيه لرد مشاكل البلاد الى انشاء امبراطورية تجارية ضخمة أنست البلاد مطاردة المسلمين وغزو أراضيهم. ويفهم من جملة للمؤ رخ (دوسوزا) ، ومن دفاعه عن القرار الذي اضطر الملك الى اتخاذه في نهاية الامر بشأن آسفي وأزمور، أن أصابع الاتهام توجهت فعلا نحو الملك، وأن التيار «الافريقي» تعزز بعد تزايد المشاكل بالشرق والبرازيل والجزر الاطلنطيكية(92) . ولهذا لم يجرؤ الملك على اتخاذ قرار يكون وحده مسؤ ولا عنه. واعتقد أن حججه كثيرة ومقنعة.

ونظرا لقرار الاحتفاظ قام الملك بمجهود ضخم لحماية المدينتين ومنع الاعرج من

الاستيلاء عليها. وهكذا عزز الحاميات بالمدن الثلاث وزودها بما يلزم من زاد وعتاد. ولكن المجهود لم يكن في مستوى الضغط المفروض عليها، ولم يكن دائما، الشيء الذي لم يحسن أحوال السكان السيئة.

4- الجلاء عن آسفي وأزمور والاحتفاظ بمازيغن

(أ)وزعزع الوجود البرتغالي بالمغرب سقوط أكدير ربيع 1541، وحتم على المسؤولين اعادة النظر في مصير الثغور الدكالية، اذ كانت الهزيمة البرتغالية كبيرة. فمن مجموع 1600 شخص، قتل الف وأسر الباقي، وكان منهم القبطان (93).

وظن المسؤولون البرتغاليون أن الشرفاء سيضمون قوة السوس الى قوة مراكش للزحف نحو المدن الدكالية. ولهذا أرسل الملك تعزيزات جديدة، وبعث بأسطول لحماية أزمور ومازيغن (94).

ثم أمر بتحويل يهود المدينة الاولى الى احدى المدن الشمالية التي يفضلونها، وذلك تنبؤا منه بحصار على يد الاعرج(95).

وكتب الى اعضاء ديوانه يخبرهم بالتعزيزات التي تمت بكل من أزمور ومازيغن كما طلب منهم ابداء رأيهم فيما يجب اتخاذه على ضوء ما حدث بأكدير، وعلى ضوء تزايد قوة الشرفاء، وطلب منهم اقتراحات حول السبل التي يمكن استعمالها للقضاء عليهم، وذلك قبل أن يعبر بدوره عن نواياه (96).

ولم نطلع الا على جواب واحد امضاه السفير انذاك بروما الذي لم يختلف عن أجوبة النبلاء المعارضين للجلاء سنة 1534. فهو يرى ان الحل لكل هذه المشاكل يكمن في القضاء على الشرفاء بواسطة هجوم لا يتوقف الا بسحقهم، وأشار الى امكانية مشاركة سلطان فاس في ذلك. وحذر الملك من خطورة الاستمرار في انتهاج السياسة التي اتبعت بالمغرب الى ذلك التاريخ، والا فيجب التخلي عن المغرب والشروع في الاستعدادات للرد على غارات المغاربة على الشواطىء البرتغالية (97).

وعلى الصعيد الدبلماسي، حاول الملك أن يخفف من خطورة الهزيمة وأن يبرىء

ذمته منها لدى كل من البابا والامبراطور. وكانت مهمة السفير جعلهما يقتنعان بان ذلك لا يعود الى تهاون الملك، ولكن الى عامل جغرافي (سوء اختيار موقع الحصن وهيجان البحر الذي حال دون ارسال المساعدة في وقتها وانزالها بأكدير) والى سوء حظ المحاصرين الذين احدثوا عن غير قصد ثلاثة انفجارات أضرت بالاسوار. وكلف السفير من جهة أخرى بتنبيه الامبراطور الى خطورة الشرفاء على اسبانيا نفسها اذا ما استمروا في تقوية صفوفهم، وتعاملهم مع الاتراك، واذا ما استمروا في التوصل بالكميات المهمة التي يحصلون عليها من الذهب[98].

وبعد أن وصلت اخبار حشد الاعرج لجنوده بمراكش وبني ماكر والجبل الاخضر، جدد الملك أمره بترحيل اليهود الى المدن الشمالية، ثم أمر بعد ذلك بترحيل نساء وأطفال أزمور الى مازيغن ليتم من هناك نقلهم الى البرتغال[99]، مما يدل على عزمه عن التخلي عن تلك المدينة. ويتجلى هذا القرار بكل وضوح في جوابه على رسالة بعث بها قبطان مازيغن طالب فيها بالخشب والقرمد والمدفعية والعتاد الحربي، والذي اخبر فيه القبطان انه سيتوصل بكميات كبيرة من كل ذلك من أزمور[100].

واختلف كثيرا في تاريخ الجلاء عن آسفي وأزمور[101]. واصبح الان أكيدا أن ذلك تم ما بين 20 و 30 من اكتوبر 1541. ولقد وصلتنا شهادة صريحة في هذا الباب[102]. وبذلك يكون احتلال آسفي قد دام ثلاثة وثلاثين سنة، ولم يطل احتلال أزمور الا ثمانية وعشرين سنة وشهرين.

وتم الاحتفاظ بمازيغن التي عرفت تحصينات ضخمة سنة 1541 [103] وبرر الملك هذا الاحتفاظ بتوفرها على ميناء جيد، وبكونه ينوي الهجوم ثانية على المنطقة[104]. ويبدو أنه أراد بذلك التقليل من خطورة القرار المتخذ، واسكات معارضيه باعطائه طابعا محدودا ومرحليا. وبذلك يكون البرتغاليون قد تخلوا اولا عن آخر منطقة مغربية اتصلوا بها. والغريب انها كانت المنطقة التي حققوا بها ما لم يتم لهم في مناطق أخرى من المغرب! وبرر الملك قراره لدى كل من البابوية والامبراطور، واستعمل نفس الحجج التي سبقت الاشارة اليها.

(ب) ولقد تعرض عدد من المؤرخين لاسباب فشل البرتغاليين بالمغرب. ومما يثير الانتباه ان كل من تعرضوا لهذه القضية اخذوا حرفيا بالتبريرات التي قدمها الملك البرتغالي في رسائله الى البابا والامبراطور وكبار الشخصيات البرتغالية. وأرجع (كولفن Goulven) التراجع بالمغرب الى انعدام رجال في مثل شجاعة القباطنة والمسؤ ولين العسكريين الاوائل، والى طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة[105] . ويرى (روبير ريكار R. Ricard) في مقال كتبه سنة 1936 [106] أن جل المؤ رخين ارجعوا ذلك الفشل الى انتهاج المسؤ ولين سياسة «الاحتلال المحدود» اذ أن سياسة المراكز التجارية التي نجحت بافريقيا السوداء، لا يمكن ان تنجح في افريقيا الشمالية، فهنا ليتم الاستقرار يجب تحطيم مراكز الصمود، والا فستكون النتيجة واحدة «. . . فاما ان يلقى (بالغزاة) في البحر، واما انهم يخملون (داخل الحصن) بدون ربح أو مجد. . . وعلى كل يضيعون وقتهم ورجالهم وأموالهم[107] . . . » وطرح مقارنة اعتبرها مهمة لفهم خطأ تلك السياسة: لماذا احتفظ الإيبيريون في شمال افريقيا بالحصون فقط، في حين، استولوا على قسم كبير من أمريكا؟ ورد ذلك الى كون الاسبان لم يكتفوا بالساحل، بل توغلوا داخل امريكا وطاردوا الاهالي وحطموا قوتهم.

ورد هذا الاختلاف في السياسة بكل بساطة الى قرب شمال افريقيا من شبه الجزيرة، الشيء الذي جعل الحاميات تقنع بالمدن الساحلية ما دام بالامكان الاعتماد على المتربول، في حين أن سيطرتهم على البلاد المكتشفة كانت مسألة حياة أو موت[108] .

كما أرجع الفشل الى ضخامة الامبراطورية بالنسبة لامكانيات البرتغال الصغير.

وعاد الى نفس المشكل بعد سبع عشرة سنة (1953) [109] . فبعد عرض سريع لاهم الاسباب التي فسر بها المؤ رخون الفشل البرتغالي، حصرها في نقطتين: أسباب عامة (ضخامة الامبراطورية، وضعف موارد البلاد وقلة سكانه) ومحلية، (انعزال الثغور التي لم تكن تتصل فيما بينها وكان اتصالها مع لشبونة صعبا)، أعطى

بعض الملاحظات حول الحلول التي كانت آنذاك ممكنة للتغلب على المشكل والتي ذكرناها في محلها[110] . ومرة أخرى خرج بالنتيجة التالية : لم يكن المغرب غاية في حد ذاته ، ولم يعمل البرتغاليون على احتلاله . وكان الهجوم على سواحله مجرد وقاية تحمي بلادهم من غزو اسلامي جديد . واستدل على ذلك بموقفهم من المناطق الاخرى التي كانت تابعة لهم : « . . . ومما له دلالته أن يحتفظ البرتغاليون بالبرازيل الى بداية القرن التاسع عشر ، وأن يكونوا الى يومنا هذا بـ «(جزر)» الرأس الاخضر وبسا وطومي وبكوا (الهند) ومكاوو ، جد بعيدين عن مراكزهم ، وأن يكونوا على العكس من ذلك قد تخلوا منذ أربعمائة سنة عن أزمور وأصيلا[111] . . . »

واضح أن المؤلف يرجع بكل بساطة تراجع البرتغاليين بالمغرب الى تخليهم عن فكرة احتلال المدن المغربية . فهو يدعي أنهم بقوا بالجزر والمناطق المذكورة لانهم أرادوا ذلك ، وتخلوا عن المدن المغربية من تلقاء أنفسهم مع أنه كان بامكانهم الاحتفاظ بها الى القرن العشرين !

ولم يكن (ريكار) المؤرخ الوحيد الذي نظر الى الغزو بمنظار المستعمر وتبنى المبررات التي اعتمدها لتغطية فشله ، وأحجم عن ذكر مقاومة المغاربة له .

لقد نسي (ريكار) أو تناسى أن مقارنة المغاربة مع شعوب أمريكا خاطئة لان الفرق بينهم يكاد يكون نفس الفرق الموجود ما بين الابيريين وتلك الشعوب ، وأن البرتغاليين اذا لم يقوموا بحملات تبشيرية بالمغرب ، فان ذلك يعود الى رفض المغاربة لها كما تؤكد ذلك بعض المحاولات الانتحارية التي قام بها بعض الرهبان بفاس ومراكش وغيرهما .

ولا شك في أن استنتاجات (ريكار) كانت مع الاسف موجهة لاغراض سياسية تخدم الاستعمار الفرنسي بالمغرب : لم يجرؤ على الكلام عن مقاومة المغاربة للغزو البرتغالي في القرن السادس عشر لكي لا يظهروا متمسكين بدينهم ووطنهم ، ولكي لا يفهم من ذلك أن الفرنسيين أنفسهم يعانون من معارضة أعنف . ولقد اثبتت ذلك

أحداث سنة 1953 ، أي سنة نشر هذا المقال.

وكان المؤرخ البرتغالي (د. لوبش) أكثر موضوعية، وفي كل أعماله المتعلقة بالمغرب. فهو يرى أن فشل البرتغاليين بالمغرب كان أمرا لا مفر منه، لانه كان من المستحيل بالنسبة اليهم احتلال البلاد كلها « . . . وذلك لم يكن على كل حال ممكنا نظرا لقلة مواردنا البشرية والمالية، **ولهذا اكتفينا باحتلال مدن ساحلية**. هذا بالاضافة الى كون أعدائنا لم يكونوا متوحشين كما كان الشأن بالنسبة لعدد من الشعوب الاخرى التي حاربناها، وسيطرنا عليها بأمريكا وآسيا: لقد كانوا أصحاب دين وحضارة لم يكونا أدنى من ديننا وحضارتنا. ولم يكونوا أقل شجاعة من رجالنا، وكانوا فرسانا بسلاء، وكانوا كذلك متوفرين، ومنذ عدة قرون، على وحدة سياسية، وديانة من مستوى عال[112] . . . »

وأضاف بأن احساسهم بالاهانة بعد الغزو المسيحي دفعهم الى جمع صفوفهم ومبايعة الشرفاء الذين استطاعوا تحرير جل الثغور. كما حمل سياسة البرتغاليين الوحشية مسؤولية الفشل[113] .

وبذلك يكون موقف المؤرخ البرتغالي أكثر موضوعية وحرصا على قول الحق من موقف المؤرخ الفرنسي الذي كان على علم بأعماله.

ورد عدد من المؤرخين فشل البرتغاليين الى تفضيلهم الهند والبرازيل على المغرب[114] . وكان منهم من هاجم قرار الملك البرتغالي القاضي بالتخلي عن عدد من الثغور المغربية[115] .

وهكذا تكون ردود الفعل المغربية العنيفة، وتناقضات النظام البرتغالي «بدكالة»، المتجسدة في تضارب مصالح الفئات الاجتماعية البرتغالية المهتمة بغزو المغرب وراء قرار الملك البرتغالي القاضي بالانسحاب من آسفي وأزمور نهاية سنة 1541 ، وذلك تفاديا لهزيمة شبيهة بالتي تكبدها البرتغاليون بأكدير.

وكان خراب المنطقة، ومقاطعة الدكاليين للثغور المحتلة، سبب تفكير الملك

البرتغالي مبكرا، ومنذ 1529 ، في الجلاء عن أزمور وآسفي اللتين لم تعودا تسمحان بأي ربح واللتين أصبحتا تكلفان الميزانية البرتغالية المتدهورة مصاريف ضخمة. ولكن معارضة العسكريين أخّرت الجلاء الى ما بعد هزيمة أكدير.

الهوامش والتعاليق

(1) S.I.H.M. Port. II. p 443 رسالة الدوق (de Bragance) الى الملك (1529)

(2) وعد الملك كل نصراني يقوم بذلك بالنفي لجزيرة (ساوطومي) لمدة عشر سنوات وبمصادرة أملاكه. S.I.H.M. Port. II. p. 54.

(3) S.I.H.M. Port. II. p. 476 III. p. 200.

(4) Ibid. III. p. 220.

(5) Ibid, Ibidem.

(6) Ibid. I. p. 439. وكان الشخص المرفق بعبد الرحمان بن حدو على رأس 25 «رمحا»

(7) Góis... Op. Cité pp. 61, 101, 118, 160;.. etc.

(8) Ibid. pp. 236 – 237.

(9) Ibid. pp. 9,85, 100, 101, 102, 224... etc.

(10) Ibid. pp. 235, 236.

(11) Góis... Op. Cité p. 237 كان الاول حاجب الملك وخلفه (أتايد) في هذا المنصب

(12) De Sousa... Op. Cité p. 167. n. 1.

(13) n.4 S.I.H.M. Port. II. p. 177 وذلك بعد ان استطاع قناع الشاوية بتزويد أزمور بالمواد الغذائية.

(14) Ibid. III. p. 39.

(15) De Sousa... Op. Cité pp. 25, 69, 112.

(16) انجلترا. Góis... Op. Cité 170 فرنسا Hesp. 1934, XIX, pp. 27 – 29.

(17) Góis... Op. Cité p. 224.

(18) Ibid. pp. 184 - 85. وكان من بين الاسرى، زوجة ابن الشيخ التي كانت كثيرة الاساور والحلي ودفع الجشع احد النبلاء الى قطع يديها للاستحواذ عليها وحده!

(19) S.I.H.M. Part I. p. 545. رسالة قبطان أزمور (منيزش) الى الملك (ماي 1514)

(20) Ibid. II. p. 616.

(21) انظر فقرة قادمة.

(22) S.I.H.M.Port. II. p. 521.

(23) Ibid. III. p. XVI (Introduction)

(24) S.I.H.M.Port. III. p. 166.

(25) Ibid. III. pp. 406, 416 – 417, 440 – 441.

(26) Ibid. II. p. 510. وبلغ التأخير سنة كاملة. Ibid. II. p. 536

(27) Ibid. II. pp. 244, 345, III. pp. 60, 300.

(28) اعطت غارة نظمت سنة 1541 – 3000 كروزادو مما يعطي اكثر من 3500 ريال للواحد لان مجموع المساهمين كان 332 شخصا

(29) راجع الصفحة 412 من هذا البحث.

(30) Ibid. II. p. 475.

(31) Ibid. III. p. 65.

(32) Ibid. III. p. 248. ولم ينفع معهم ذلك في بعض الاحيان فتمردوا وتم اداء الرواتب مرة بمازيغن من القمح لانعدام الاموال: Ibid. III. p. 60.

(33) De Sousa... Op. Cité 154.

(34) S.I.H.M.Port. III. pp. 259, 262.

(35) Ibid. II. pp. 445, 482.

(36) Ibid. III. p. 386. وتوصلت آسفي على الاقل بألف رجل حين محاصرة الشرفاء لها Ibid. II. p. 616 (1534)

(37) J. Goulven, Safi... op. cité p. 109

(38) J. Lopes: Osportugueses op. cité IV. p. 128

(39) De Sousa... Op. Cité. p. 160 n. 1.

(40) Ibid... Op. Cité. p. 190.

(41) D. Lopés. Os Portugueses. Op. Cité IV p. 128.

(42) Ibid. IV. p. 97.

(43) S.I.H.M.Port. III. pp. 399, 403, 416.

(44) انظر ص 61 من الفصل الاول من الباب الاول.

(45) S.I.H.M.Port. III. p. 248.

(46) Ibid. III. pp. 259, 448. وتم ذلك بكل من آسفي وأزمور.

(47) Ibid, II. p. 177. n. 4, 392.

(48) وكان ذلك في فترات الهدنة كما جاء ذلك في رسالة بعث بها احمد الاعرج الى جوا الثالث

(10 دجنبر 1525). Ibid. II. p. 348 – 349.

(49) Ibid. II. p. 425.

(50) Ibid. II. p. 372.

(51) عن ساكطو. Ibid. II. 379 n. 1. والوثيقة منشورة بالملحق وعن الطبيب. Ibid. II. p. 425.

(52) Ibid. II. p. 425.

(53) De Sousa... Op. Cité p. 153.

(54) S.I.H.M. Port.III. pp. 143 et 144 n. 1.

(55) Ibid. II. p. 425.

(56) Ibid. II. pp. 177 n. 1, 392.

(57) Ibid. III. p. 464.

(58) كان هذا المنصب يخضع لمزايدة علنية. Ibid. II. p. 418.

(59) اعطى. D. Lopés. ترجمة النص الفرنسية

D. Lopés: Les portugais... art. Cité pp. 354 – 355.

(60) F. Mauro: Le XVI S. aspects économiques... Op. Cité 149

(61) V.M. Godinho: Les Finances publiques et la structure de l'Etat portugais au XVI Siècle Rev. Economia (Lisbonne) Juin 1960. p. 107.

(62) V.M. Godinho. Les incidences de la course sur l'économie maritime portugaise au XVI siècle Rev. économia, décembre 1960 p. 151.

V.M. Godinho L'économie... Op. Cité pp. 185, 219, 428.

V.M. Godinho Les finances publiques... art. Cité p. 115.

... Tel une pompe (L'empire), il vide la métropole de son argent..."

V.M. Godinho Le Tournant mondial de 1517 – 1524 et l'empire Portugais Rev. Studia (Lisbonne) I Janvier 1958, p. 199. Lannoy... Op. Cité pp. 196 – 201.

(63) V.M. Godinho: Le tournant... art. Cité p. 199.

(64) V.M. Godinho : Les incidences de la course.. art. Cité 152

(65) Ibid. p. 147

(66) Ibid. p. 148.

(67) V.M. Godinho: Les incidences de la course... art. Cité p. 146 C.A. Julien: Les voyages de découvertes

et les premiers établissements (XV. et XVI Siècles.) P.U.F.
1948. pp. 95 et sq.

(68) عن المحاولات الدبلماسية .Ibid. p. 154 أسطول مضيق جبل طارق وأسطول ساحل البرتغال واسطول الارخبيل المجاور (ماديرا - أصور) وأسطول خليج غانا وأسطول البرازيل.

(69) استولى البرتغاليون على قافلة (100 جمل) تابعة للشرفاء السعديين كانت متجهة نحو السودان .S.I.H.M. Port. II. p. 128 وعن المحاولات التي بذلها البرتغاليون لقطع الطريق على القوافل عند مستوى «ودان»، وللحصول على صداقة ملوك المنطقة:
V.M. Godinho: L'économie... Op. Cité pp 223 – 225

(70) S.I.H.M. Port. III. p. 357.

(71) V.M. Godinho: Crises et changements géographiques et structuraux au XVI siècle. Economia Mars 1958. pp. 1 – 5.

(72) Lannoy... Op. Cité pp. 197 – 212. V.M. Godinho: Les finances publiques... art. Cité p. 113

(73) V.M. Godinho: Ibid. p110

(74) S.I.H.M. Port. II. pp. 443 – 445.

(75) D. Lopés: Les portugais... art. Cité p. 357.

(76) S.I.H.M. Port. II p. 445.

(77) J. Goulven: Safi... Op. Cité. p. 110.

(78) S.I.H.M. Port. II pp. 640 – 44.
Ibid. France. 1ère série. I pp. 43 – 46:

(79) Ibid. III p. 1.

(80) مثلا .Ibid. II pp. 652, 665, 692, III p. 1

(81) Ibid. II p. 692. وهو اسقف «الغرب» البرتغالي.

(82) Ibid. II p. 652. وهو الامير D. Fernando. أخ الملك.

(83) اسقف لاميغو Ibid. II p. 656 (توجد ترجمة الرسالة الى الفرنسية) S.I.H.M. France. 1ère série I pp. 57 – 63.

(84) أسقف كوينبرا (Coimbra) Ibid. II p. 690.

(85) Ibid. II p. 637. رئيس جماعة Santiago والسفير لدى البابا والامبراطور شارلكان.
Ibid. II p. 676.

(86) أسقف لاميغو. (Lamego)

(87) S.I.H.M. France. 1ère série. I pp. 58 – 60.

(88) Ibid. II pp. 680, 684, III p. 1.

(89) Ibid. France 1ère série. I p. 59.

(90) Ibid. Port. II p. 671.

(91) Ibid. II p. 652

(92) De Sousa... Op. Cité p. 157,

(93) عن كل هذه المعلومات المتعلقة بالحصن انظر:

R. Ricard: L'occupation portugaise d'Agadir. In:
S. I. H. M. Port. III pp. I – XX (introduction)

P. Cenival: La Chronique anonyme... Op. Cité

(94) S.I.H.M. Port. III pp. 311, 348, 350.

(95) Ibid. III p. 352.

(96) Ibid. III p. 377.

(98) Ibid. III pp. 344, 356, 357, 363.

(99) Ibid. IV. p. 335.

(100) Ibid. III p. 534.

(101) جعله D. Lopés في بداية 1542 (Les portugais... p. 358) وكانت المصادر المغربية أقل دقة: ابن ابراهيم: الاعلام. . . مصدر سابق ج 2 ص 232 الاستقصا ج 5 ص ص 19-20 .

(102) ذكر القبطان (نورنيا) آخر قباطنة أزمور في احدى رسائله ان الجلاء تم في أكتوبر من سنة 1541 S. I. H. M. Port. IV. p. 335

(103) De Sousa... Op. Cité p. 162 Ibid. III 507, 534

(104) Ibid. III p. 560.

(105) J. Goulven Safi... Op. Cité p. 108.

(106) R. Ricard : Le problème de l'occupation restreinte dans l'Afrique du Nord. A. E. S. Sept. 1936. PP. 426 – 34. واعتمد عليه دون نقده:

F. Braudel: La Méditerranée... Op. Cité II p. 181.

(107) R. Ricard: Le problème de l'occupation... p. 426.

(108) Ibid. pp. 431 – 32.

(109) R. Ricard. Dernières remarques sur l'histoire des portugais au Maroc. In. S.I.H.M. Port. V. Introduction.

(110) انظر الفصل الاول من الباب الثالث

(111) Ibid. p. XIV (Introduction)

D. Lopés: Les portugais... au Maroc... art. Cité pp. 359 – 60. (112)

Ibid. p. 360. (113)

D. Pires Lima: História da dominacão portuguesa em cafym Lisboa. 1930. p. 107 (114)

– R. Ricard: C.R. Hesp. 1927. 1èr trimestre pp. 49 – 51.

– D. Lopés: Os Portugueses... Op. Cité IV. p. 126. (115)

– D. P. Lima: História... Op. Cité p. 107.

الباب الخامس

النتائج العامة
للغزو البرتغالي على دكالة

الفصل الأول

نتائج الغزو على مدن وأوضاع دكالة الاقتصادية

بخلاف ما ادعاه تيراس (H.Terrasse.) (1) ، كان الغزو البرتغالي وحشيا كما تشهد على ذلك المصادر البرتغالية نفسها. فلقد أكد كل الذين انكبوا على دراسة ذلك الغزو، ورغم تحيز بعضهم على هذا الطابع الذي امتاز به(2) .

لقد ترك البرتغاليون دكالة غداة مغادرتهم لكل من آسفي وأزمور على وجه مخالف جدا للوجه الذي وجدوها عليه. فلقد تضررت في كل أنشطتها، وعرفت تراجعا خطيرا في أعداد سكانها، ولم تبق ولو مدينة أو قرية واحدة لم يشملها الخراب. ولم يكن البرتغاليون دائما المسؤ ولين المباشرين عن هذا الخراب الذي نتج أحيانا عن رد فعل المسؤ ولين المغاربة من وطاسيين وهنتاتيين وسعديين.

وشمل الخراب بدكالة قطاعات جد حيوية بالمنطقة، كالآبار والنطافي التي تبينت لنا أهميتها في أول فصل من هذا البحث. ومما زاد هذا الخراب حدة، كون المنطقة أصبحت على حالة لا تسمح بتعويضها أو احيائها من جديد. وبقيت كذلك يابسة لمدة طويلة. فلقد أشار (أفوكاي) الى وجود عدد من الآبار اليابسة في عهد المنصور السعدي ما بين البريجة وتيط وأزمور(3) .

ويمكن لمس خطورة هذا الخراب الذي نتج عن الغزو وعن رد الفعل المغربي في الحالة التي أصبحت عليها المدن والقرى الدكالية. ويتجلى الفرق واضحا من خلال مقارنة ما كتبه الوزان بما ورد في مؤلف مارمول.

1 - النتائج على المدن والقرى الدكالية.

(أ) تقلص رقعة المدن المحتلة، وتحولها الى قلاع لا يربطها أي رابط بما يحيط بها: كانت الحياة الحضرية ضعيفة بدكالة قبل تعرضها للغزو البرتغالي؛ وحين تحرير آسفي وأزمور كان الموت قد تسرب الى ما كان بها من قرى ومدن. وهذه ملاحظة تنطبق على سائر مدن وقرى المغرب، وذلك لاسباب مرتبطة اما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بالغزو المسيحي لشواطيء المغرب. وكان هذا التطور مخالفا لما حدث بأوروبا التي عرفت تزايدا مهما في أعداد حضرييها خلال القرن السادس عشر(4) .

ونتيجة احتلال كل من آسفي وأزمور ومازيغن، اصبحت المدن الثلاث عبارة عن عنصر أجنبي معاد للعالم الذي يحيط به(4) ، خصوصا بعد فشل البرتغاليين في محاولتهم الرامية الى الحفاظ على العلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت تربطها بضواحيها. وبذلك اصبحت مجرد ثكنات عسكرية جامدة تكوّن عنصر اضطراب وتخريب عوض أن تكون سوقا مهمة بالنسبة للبوادي وحافزا على الرفع من الانتاج. ويتجلى هذا التحول في اعداد سكان تلك المدن التي عرفت تراجعا لم يسبق له مثيل كما سنرى، وفي الوجه الجديد الذي اصبحت عليه.

احتفظ البرتغاليون في بداية الامر بالشكل الذي وجدوا آسفي وأزمور عليه. ولكن تطور الاوضاع السياسية بالمنطقة، وقلة أعداد الحاميتين أرغماهم على تضييق رقعتهماوعلى تحويلهما الى قلعتين حصينتين تختلفان في شكلهما وفي طريقة بنائهما عما يحيط بهما ؛ إذ تم تشييد الاسوار والابراج والابواب والمعاهد الدينية على الطريقة المستعملة آنذاك بالبرتغال، أي اعتمادا على نموذج الفن المعماري الامنويلي الذي يمثل أرقى ما وصل اليه الفن المعماري البرتغالي. وتمت هذه البناءات التي استحدثت

بالمدن الدكالية على يد أشهر المعماريين البرتغاليين وأحسن ممثلي هذه المدرسة(5) .

واختلفت البناءات البرتغالية عن المغربية كذلك فيما يخص المواد الخام. فهي لم تعتمد قط على «الطوب» والجير، بل كان اعتمادها فقط على الحجر المقصوب، والذي كان يقلع بعين المكان. ولكن بعض الحجارة التي تحمل شعارات ورسوماً وكتابات جلبت من البرتغال(6) . وكانت الحجارة تكون المادة الخام الاولى، اذ كانت تستعمل في كل شيء، حتى في ربط البناء وبأعلى الاسوار، وفي اطار الابواب والفرجات. وكانت المواد الاخرى تجلب من البرتغال: الاخشاب والركائز، القرمد وحتى الجير بعد أن تبين للمشرفين على البناء سوء نوعية ما تم صنعه بكل من آسفي وأزمور(7) .

وكان المشرفون على البناء مرغمين على أخذ ثلاثة عوامل بعين الاعتبار:

- السرعة في البناء نظرا للحصار الشبه الدائم الذي اصبحت القبائل والشرفاء السعديون يضربونه حول المدن منذ مطلع العشرينات من القرن.

- تفادي التبذير والتقليل الى أقصى حد من المصاريف. ولهذا جاءت البنايات بسيطة، لا تحتوي الا على القليل من الزخرفة.

- اعتبار ما جد في ميدان الاسلحة. ولهذا كانت الغاية هي الحصول على تحصينات تصمد في وجه المدفعية التي اصبح اعتماد الشرفاء عليها كبيرا(8) .

واختلفت تحصينات دكالة كذلك عما تم تشييده بالثغور الشمالية. فلقد عمل البرتغاليون هنا على تفادي عيوب ما شيد بالشمال إذ لم يعتبر في تلك التحصينات الا عامل المناعة فقط. فبخلاف السجوف الطويلة والعالية(9) ، والابراج المربعة والكبيرة التي امتازت بها تحصينات الثغور الشمالية، احتوت المدن الدكالية على الخصائص التالية:

- اصبحت «البستيونات» و «السجوف» اقل ارتفاعا لتسمح للمدفعية بتسديد

ضربات منحدرة.

- أصبح التدعيم الجانبي(10) خاضعا بدوره لهذه الغاية.

- ظهر بآسفي البستيون المستدير لتوضع عليه اعداد مهمة من قطع المدفعية.

- وشيدت اسوار جد سميكة سمحت بانشاء ممرات للحراس فوقها. ولكي تصمد في وجه المدفعية المغربية، عزز اسفلها بمنحدر جد سميك مبني من الحجارة(11).

- وأحاط البرتغاليون هذه التحصينات بخنادق لمنع المهاجمين من الاقتراب منها. ولكن هذا الخندق كان منعدما بأزمور كما سنرى.

وهكذا يكون البرتغاليون «. . . قد كدسوا بمساحات ضيقة كل امكانيات الفن العسكري لزمنهم، وذلك من أجل استعمال مدفعيتهم احسن ما يمكن، وللحصول على أحسن مردود من حاميتهم الضعيفة(12) . . .»

وتختلف هذه الأشكال عما كان مستعملا بالمغرب حيث كانت الاسوار غير سميكة ومشيدة من الطوب، تعتمد على سجوف مرتفعة ومستقيمة، وعلى ابراج موحدة الشكل والتباعد، وغير قادرة على تحمل قذفات المدفعية. وكان الاختلاف واضحا كذلك في التفاصيل: الاقواس، الابواب، شكل عقدة القبة. . .(13) وهكذا لم يتأثر الفن المعماري العسكري البرتغالي بالتقنيات المستعملة آنذاك بالمغرب. ولقد كانت التحصينات البرتغالية جد متينة مما جعلها تصمد في وجه الزمن وجعل المغربي ينسب للبرتغاليين كل بناية ضخمة وقديمة حتى ولو كانت بالمناطق الداخلية.(14) ويرى تيراس Terrasse أن المغاربة لم يعتمدوا التقنيات والاشكال البرتغالية بعد تحريرهم للثغور التي كانت خاضعة للبرتغاليين، واستمروا في الاعتماد على الاشكال والتقنيات التي كانت مستعملة في القرون الوسطى. وكانت المحاولة الوحيدة لتقليد الفن المعماري البرتغالي بأكدير، وتمت في عهد الغالب السعدي، ولكنها جاءت حسب (تيراس) على شكل محرف وسيء(15). وبقي

السلاطين السعديون يقلدون الاشكال المغربية التقليدية، ولم تتم محاولات التجديد الا بالمناطق التي كانت معرضة للمطامع العثمانية. ويرى نفس المؤرخ ان البرج الشمالي بفاس هو الوحيد الذي يسمح بالقول بوجود تأثر بالفن المعماري العسكري البرتغالي(16) . ومن جهة أخرى، كان سكان آسفي الوحيدين الذين اقتدوا ببعض التفاصيل المعتمدة لدى البرتغاليين كبناء سناد الابواب من الحجر(17) .

ونظرا لهذه الاوضاع الجديدة التي اصبحت عليها المدن الدكالية، تقلص عدد سكانها كثيرا. واذا كانت آسفي قد احتفظت بعيد احتلالها بقسم من سكانها، واذا كان ربض الخميس قد عرف تزايدا في عدد سكانه لاسباب سنعود اليها، فان أزمور فقدت كل سكانها قبل أن يدخلها البرتغاليون.(18) وكان منهم من وصل الى «سلا» وفاس.(19) وحال المسؤولون دون عودة عدد منهم عبروا عن رغبتهم في ذلك. وكان هؤلاء من الحرفيين الذين تضرروا من التجائهم الى البوادي.(20) وهكذا كان بالمدينة ربيع 1514 حوالي أربعة الآف شخص كانوا كلهم جنودا برتغاليين(21) . ولم يعمل البرتغاليون على التخفيف من الطابع العسكري الذي اصبح يميز المدينة، ولم يعملوا على اعادة النشاط التجاري السابق للاحتلال. وكان ذلك ناتجا على ما يبدو عن الاهتمام الكبير الذي خصوا به آسفي. ولهذا لم يكن بأزمور صيف 1530 الا 680 شخصا يعيشون على جرايات الدولة. وكان منهم اثنا عشر قسيسا، وثمانية بحار، وأربعة عشر مجرما في حالة نفي.(22)

ولهذا لم يطل احتفاظهم بالسور المغربي لشدة اتساعه وقلة اعدادهم. وبدأ التفكير مبكرا في التخلي عن المدينة، والاحتفاظ فقط بقصبتها، أو تحصين قسم صغير من المدينة. ولذلك تم التخلي عن حفر خندق حول المدينة شرع فيه بعد ثلاثة اشهر فقط من احتلال أزمور.(23)

واذا بدأ التفكير في تقليص رقعة المدينة منذ 1514 ، فان المسؤولين البرتغاليين ترددوا طويلا بشأن الشكل الذي ستصبح عليه المدينة الدكالية المحتلة. ولهذا طالب

القبطان (كوريا S. Corréa) سنة 1516 بالتعجيل باتخاذ أحد الحلول الثلاثة.

- اما الرفع من اعداد الحامية للدفاع عن المدينة الشاسعة؛

- واما اخلاؤ ها والاحتفاظ بالقصبة فقط؛

- واما تحصين قسم من المدينة.(24)

وتقرر في نهاية الامر تنفيذ الاقتراح الثالث. وشرع في البناء سنة 1518.(25) واستمرت الاشغال الى حدود سنة 1520.(26) واصبحت أقل اتساعا بكثير من المدينة المغربية، واصبحت مقتصرة على القسم المشرف على النهر. وتم الاحتفاظ بالسور المغربي لحماية البساتين التي عوضت الدور.(26) واحاط البرتغاليون القسم المشيد بسور شيد على الطريقة التي سبقت الاشارة اليها.

ولم يؤد تحصين مازيغن سنة 1514 الى انتعاشها، ولم تتعد النشاط العسكري، واقتصرت على استقبال السفن التي كانت تحمل السلع والمساعدات الموجهة الى أزمور.

ومعلوم أن البرتغاليين وجدوا القرية مخربة خريف 1513، وذلك بعد ان فشل مشروع اقطاعها لاحد النبلاء البرتغاليين (M.A. De Mello.) وشرع البرتغاليون في تحصين القرية صيف 1514 نظرا لاهميتها بالنسبة لازمور. واستمر العمل بالاوراش الى حدود خريف 1517.(27). وكانت التحصينات بسيطة، اعتمدت على البرج المغربي الذي كان موجودا هناك، والذي اعطى اسم «البريجة» للقرية. وكان الحصن البرتغالي صغيرا ومربع الشكل (47م ــ 57) يرتكز على أربعة أبراج (أنظر الرسم ص 375).

- برج «البريجة» الاصلي الذي اصبح يكون الى جانب برج «سغونيا» عماد الزاوية الشرقية.

- برج «الرباط Rebate»، أعلى الابراج، والذي كان مخصصا للمراقبة.

- برج «كديا Codèa » الذي كان يستعمل كسجن للنبلاء والفرسان[28] .

وكان كل ما يوجد داخل السور عبارة عن قاعة شاسعة مخصصة للسلاح تفصلها عن السور مخازن الحبوب والعتاد التي كانت تحيط بالقلعة من ثلاث جهات[29] . ولا ندري هل كان الخندق الذي شرع في حفره صيف 1517 قد احاط بكل الحصن.[30]

وعرفت مازيغن خلال 1541 تحصينات جد ضخمة غيرت وجهها تغييرا كليا، وذلك بعد أن تقرر الاحتفاظ بها وحدها بدكالة. وهكذا اصبح الحصن الاصلي جزء صغيرا داخل ما تم تشييده.

شيدت المدينة الجديدة على مقربة من البحر على مساحة شبه مربعة (250 - 300 م) يحيط بها سور ضخم يصل سمكه الى 11 مترا وعلوه الى 14 مترا. وكانت تعززه خمسة ابراج عملاقه (بستيونات)[31] :

- بستيون L'Ange الذي كان مشيدا بجانب البحر من جهة المشرق.

- وكان يقابله من جهة المغرب بستيون St Pierre الذي اصبح يعرف بعد ذلك ب St. Antoine.

- ومن جهة الشمال كان يوجد بستيون (سان سبستيان ST. Sebastien)

- وكان يقابله من جهة الجنوب بستيون(سراو Serrao.)أو (سان اسبري St. Esprit.)

- وكان برج الجنرالات يوجد ما بين البرج الجنوبي والغربي، وعلى مقربة من الباب الرئيسية.

وكانت تتخلل السور ثلاثة ابواب :

ـ الباب الرئيسية التي تربط المدينة بالبوادي، والتي كانت توجد بين برج الجنرالات والبرج الجنوبي.

ـ الباب الرابطة ما بين المدينة ميناء، والتي كانت تعرف بباب البحر.

ـ وكان بين البستيون الشمالي والغربي باب «الشيران» تخرج منه المواشي الى المراعي.

وكان يحيط بالمدينة خندق يمتد من البحر الى البحر عرضه 35 مترا وعمقه ثلاثة امتار. (32) وتم تحويل الحصن الاصلي الى خزان للمياه ما يزال قائما الى يومنا هذا. (33)

واصبحت انشطة المدينة التي التجأ اليها عدد كبير من برتغاليي آسفي وأزمور عسكرية فقط. وحال بقاء البرتغاليين بها دون انتعاش جاريتها تيط وأزمور اللتين تعرضتا لغارات عديدة. وأكثر من هذا، حال بقاء البرتغاليين بمازيغن دون استغلال مناطق بعيدة عنها كما سنرى.

واستطاعت آسفي أن تعرف اشعاعا سياسيا وتجاريا اكثر مما عرفته أزمور. ولكنها سرعان ما سقطت بدورها في وضعية جارتها، واصبحت علاقاتها مع المناطق المجاورة تكتسي طابعا عسكريا فقط. وكان هذا التحول وراء بداية التحصينات التي عرفتها بعد 1520 .

احتفظ البرتغاليون طويلا بالسور المغربي الذي رمم عدة مرات. وارغمت الظرفية السياسية التي عرفتها المنطقة منذ بداية العشرينات البرتغاليين على التخلي عن المدينة المغربية. واحتفظ البرتغاليون بما يوجد ما بين القصبة وقصر البحر. وتم التخلي عن السور المغربي وبني سور جديد من الحجارة احاط بالقسم المحتفظ به من الدور. واصبح على الشكل التالي: (34)

شيد حصن على مرتفع صخري مشرف على الميناء بالمكان الذي كان يقيم به قائد المدينة والذي أصبح يكون بعد ذلك فيطوريتها. وهو على شكل مربع تحيط به

ثلاثة ابراج، اهمها البرج الرئيسي الموجود بمدخله، والذي كان يشرف على الميناء الذي كانت تربطه به باب صغيرة.

ومن هذا الحصن الذي عرف بعد ذلك (بقصر البحر) كان السور ينطلق في اتجاه برج الشلوقية. وكان بهذا القسم من السور باب تربط المدينة بالميناء. ومن برج الشلوقية يتغير الاتجاه نحو الشرق في اتجاه باب الشعبة المعزز بواسطة برج. وبين هذا البرج وبرج «الشلوقية» يوجد قسم من السور عمودي بالنسبة للاتجاه السابق الذكر، والذي يمثل قسما من السور ا.. بي تم الاحتفاظ به وعزز بواسطة برج يعرف اليوم ببرج الاقواس. ومن باب الشعبة يستمر السور في اتجاهه نحو الشرق ولكنه يتعلق بجوانب المرتفع الذي يسمح للقصبة بالاشراف على المدينة. وابتداء من برج خزانة البارود يتغير الاتجاه نحو الجنوب ليتم الربط ما بين هذا البرج وبرج القصبة الرئيسي المعروف «ببرج الدار». ويلي هذا البرج برج آخر يكون الزاوية الشرقية للقصبة يعرف ببرج «الروى». وانطلاقا من هذه النقطة يتحول الاتجاه نحو البحر على شكل شبه مستقيم تتخلله ثلاثة ابراج: امستوكي، ناصر و «بولكسية» الذي اصبح يكون نهاية السور بعد أن حذف القسم الذي كان يربطه بقصر البحر.

وتقلص عدد سكان المدينة نظرا لاعتمادها على ما كان البرتغال يرسله من أقوات. ولا شك في أن القبطان (دوكاسترو .De Castro) الذي كان يطالب بالرفع من كميات ما كان يرسل للمدينة من زاد (1541) قد بالغ في تقديره لعدد السكان اذ جعل مجموعهم يترواح ما بين 4000 و 5 000 شخص(35).

ولم يغادر البرتغاليون آسفي وأزمور الا بعد نسف أهم اقسامها.(36). وكانت الوضعية التي تركوا عليها المنطقة لا تسمح باعادة تعميرها رغم محاولات السلاطين السعديين. فلقد بقيت آسفي خالية مدة اثنتي عشرة سنة الى أن أمر محمد الشيخ السعدي باعادة تعميرها.(37) ولم تستطع المدينة استعادة ما كانت تعرفه من حيوية،

وذلك رغم أنها اصبحت ميناء الدولة السعدية(38) . فلقد كانت شبه ميتة سنة 1631 ، يعيش بها حوالي ثمانمائة ساكن ربعهم يهود، وذلك رغم « . . . ارساء التجار الهولنديين والانجليز بها وقيامهم بعمليات تجارية مهمة. . . »(39) ولا يوجد أي تناقض في هذه الظاهرة (احتضار المدينة وكثرة اقبال التجار عليها) لأن السلع المصدرة كانت ملكا للدولة وكانت مجلوبة من خارج دكالة(40) التي اصبحت تعرف ظروفا جد صعبة. وتثبت هذه الوضعية السيئة التي اصبحت عليها آسفي، والتي تتجلى من خلال الوثيقة الفرنسية التي سبق الاعتماد عليها، وثيقة مغربية تصف نتائج وباء 1062 هـ على آسفي. لقد عجزت المدينة عن التغلب على المجاعة، وجلبت اليها الحبوب من خارج دكالة. ولم تستطع الاحتفاظ بقسم من سكانها الا اعتمادا على جراية خصها السلطان بها. وما إن أوقفها لشهر حتى غادرها من بقي بها. ومات عدد كبير من السكان، ولم يبق ولو من يتكفل بدفن الاموات. وبذلك « . . . بقيت البلاد خالية لا اثنين بها، والقرى الخارجة عن البلد لا عمارة بها. . . » (41)

وزيادة على العوامل التي عاقت انتعاش آسفي، عاكس وجود البرتغاليين بمازيغن تعمير أزمور من جديد. فلقد تعرضت لهجوم خاطف بعد استقرار المغاربة بها انتهى بأسر عدد كبير منهم كان ضمنهم فقهاء مشهورون(42) وتعرضت ضواحيها لغارات متعددة(43) . وهذا ما جعل مارمول يكتب: « . . . وهكذا لم يعد المسلمون يجرؤ ن على تعميرها من جديد، واصبحت ملجأ للوحوش الضارية. . . »(44) وكانت شبه خالية سنة 1631 ، أي بعد قرن تقريبا من اخلائها!(45)

(ب) خراب المدينة الغربية وجل القرى الدكالية:

ولم يشمل الخراب المدن المحتلة وحدها، بل شمل كذلك كل القرى الدكالية. ونتج هذا الخراب أساسا عن رد الفعل المغربي وخصوصا عن الحركات الوطاسية.

فبعد أن عجز السلطان عن حماية سكان القرى ضد الغارات البرتغالية، أرغم سكان بعضها، وأقنع سكان أخرى، بضرورة مصاحبته الى السايس، وذلك تفاديا

لخضوعهم للنصارى. وهكذا رحّل سكان كل من «سبيت» و«تارغة» و«تيط» وقرى بني ماكر وقسما من سكان المدينة الغربية ومائة بئر.(46) ولم تقم لهذه القرى قيامة بعد ذلك «. . . بسبب كوارث الحرب والطاعون والمجاعة التي عانت منها المنطقة. . . »(47) وحمل مارمول الغزو البرتغالي مسؤولية هذه الويلات(48) .

ويؤكد مثال المدينة الغربية معاناة المدن والقرى من هذا الغزو ومن رد الفعل الوطاسي.

كانت المدينة الغربية ـ كما لاحظنا ذلك ـ غنية وكبيرة، الشيء الذي مكنها من الصمود طويلا في وجه البرتغاليين. وبعد خضوع 1512 ، تعرضت لهجوم برتغاليي أزمور انتهى بنهبها وأسر عدد كبير من سكانها. وعاد اليها قسم منهم اثر ذلك الهجوم.(49) ولكنها تعرضت بعد ذلك للنهب على يد الناصر الوطاسي (1514) . وفر قسم مهم من سكانها بعد دخول السلطان الى المنطقة صيف السنة التالية. واستطاع ترحيل قسم منهم. وادعى احد التقارير أن سكانها كانوا غداة مغادرته للمنطقة الفا(50) . واصبحت المدينة خالية من السكان حين الاضطرابات التي تلت موت القبطان (أتايد) وكتب يحيى أوتعفوفت الى الملك أن جلهم التجأ الى مراكش، وأن أربعمائة اسرة ترجو السماح لها بالعودة الى ديارها. (51) وفر السكان من جديد بعد دخول الوطاسي الى المنطقة صيف 1518 ، والتجأوا الى الكهوف، أو الى اسوار آسفي(52) . ولكن الضربة القاضية جاءتها من مجاعة ووباء 1520 - 1521 . ولم تقم لها قيامة بعد ذلك نظرا لبقاء البرتغاليين بمازيغن مدة طويلة.

ونظرا لقربها من مازيغن، بقيت تيط مخربة، واصبحت تنعت «بمدينة السباع»(53) ولم يكتب لها الانتعاش بعد تحرير جارتها.

النتائج الاقتصادية

ولم يكن تراجع المدن والقرى الا مظهرا من مظاهر الخراب الشامل الذي عم المنطقة، ذلك أن الغزو البرتغالي حرمها من عناصر حيويتها وازدهارها والتي كانت

متجلية في وفرة سكانها وغزارة انتاجاتها.

(أ) ويتجلى تراجع الانتاج من خلال عدة مظاهر أهمها:

تقلص الرقعة المزروعة مع مرور السنوات، وذلك نظرا لعدة عوامل:

- الغارات البرتغالية وعصيان القبائل ومغادرتها لاراضيها. وقد يسمح ذلك بالحرث في ظروف صعبة في الاراضي التي تم الالتجاء اليها، وقد يؤدي الى سنة بيضاء كما حدث لقبائل الشرقية خلال الموسم الزراعي 1513 - 1514. (54)

- الحركات الوطاسية: كانت الاشاعات المتعلقة بقرب وصول السلطان أو وصول أخيه الناصر تجعل القبائل تتخلى عن الحرث والزرع أو على الاقل تؤخر كثيرا هذه العمليات مما يحد من رقعة الاراضي المزروعة.(55)

- الابتعاد عن المدن المحتلة لحرمانها من الانتاجات المحلية. وبذلك اصبحت مناطق شاسعة حول آسفي فارغة من السكان. لقد ذكر تقرير (خريف 1526) أنه لا توجد بمنطقة آسفي كلها الا ما يقرب من أربعين خيمة، في حين كان يوجد حول أزمور حوالي ثمانية آلاف(56) . ومما يعطي فكرة عن تخلي السكان عن استغلال مناطق شاسعة أن البرتغاليين الذين أرادوا الحصول على أسرى لاستنطاقهم، اضطروا الى الذهاب من آسفي الى ضواحي المدينة الغربية حيث كان أول لقاء مع الدكاليين(57) .

- وعاقت فترات الجفاف بدورها الاستغلال. فزيادة على جفاف سنة 1511 ، عانت المنطقة من بعض السنوات العجاف: 1517، 1541 وخصوصا من مجاعة 1520 . ولكن دكالة التي تضررت من العوامل المعاكسة للانتاج السابقة الذكر، كانت اكثر المناطق المغربية تضررا من المجاعات كما سنرى.

— وساهمت الهجرات المتتالية، وفقدان المنطقة لأعداد مهمة من سكانها

نتيجة الحروب والمجاعات والبيع (خلال سنة 1521 مثلا)، في تقليص رقعة المناطق المستغلة.

كما يتجلى تراجع الانتاج بالمنطقة في افتقارها سنة بعد أخرى الى الحبوب.

لم تعد دكالة قبل بداية العشرينات من القرن السادس عشر قادرة على تصدير الحبوب. وقد يرد هذا الامر لاول وهلة الى مقاطعة المغاربة للثغور المحتلة، ولكن مشاكل المزارعين انفسهم تثبت هذه الوضعية الخطيرة التي اضحت دكالة تعاني منها، والتي تتجلى بكل وضوح في عجزها حتى عن ضمان عيش سكانها رغم تراجع اعدادهم!

ويتجلى عجز المزارع في ضمان انتاج يغطي حاجياته في عدم قدرته على اداء الضرائب من الحبوب، واضطراره الى دفع الاموال والمواشي مقابلها [58]، وفي التجائه الى الاسواق لشراء قوته. وحدث ذلك في بعض المرات مباشرة بعد الحصاد [59]. ونتج عن انعدام مدخرات بالمنطقة تفشي المجاعات خلال سنوات الجفاف مهما كانت قصيرة.وأصبحت خطورة المجاعات تزداد مع مرور السنوات. فاذا لم تشر الوثائق الى أي اثر لجفاف 1511 نظرا لكون مخلفات التوسع البرتغالي لم تظهر بعد، فانها اكدت كثيرا على مآسي القبائل خلال جفاف 1517. فلقد التجأ الدكاليون الى الشاوية لشراء الحبوب [60]. ولم يستطع الناصر الوطاسي الاقامة طويلا داخل دكالة [61]. واضطر يحيى أوتعفوفت الى الالتجاء الى الشياظمة حيث استطاع ادخار كميات مهمة من الحبوب [62]. وبرر تقرير برتغالي بعث إلى الملك التجاء يحَيى إلى الشياظمة بكون دكالة عاجزة عن ضمان عيش ولو ثلاثمائة فارس [63]. وأثرت هذه المجاعة على السنوات التالية، اذ استمرت المنطقة تشكو من نفس العجز خلال سنتي 1518 و 1519 وذلك مباشرة بعد الحصاد [64]. وهذا ما ارغم بعض فروع الشرقية على سرقة الحبوب المطمورة بالشاوية، وعلى المساهمة في الغارات البرتغالية التي اصبحت تستهدف هذه المنطقة التي لم تعرف الى ذلك التاريخ (بداية العشرينات) خرابا مثل الذي حل بدكالة [65]. وتتجلى قلة الحبوب وخطورة المجاعات من خلال ما عرفته

دكالة خلال مجاعة 1520 ، والوباء الذي تلاها. فرغم أن المجاعة عمت المغرب كله، لم تكن اية منطقة تعرف احتياجاً الى المواد الغذائية مثل احتياج دكالة. فلقد ارغمت الفاقة عددا كبيرا من الدكاليين على التنصر وبيع ذويهم أولا، ثم أنفسهم بعد ذلك لضمان رزقهم، ولم تتحسن احوال دكالة بعد ذلك، وتضررت كثيرا من جفاف 1541 (66) .

وبالاضافة الى الجفاف والمجاعات، كانت القلاقل والغارات البرتغالية والوطاسية والسعدية تحرم المنطقة مما كان متوفرا لديها من حبوب. فلقد عانت بعض القبائل من قلة الحبوب خلال 1514 بسبب دخول الناصر «الكديد» الى المنطقة. وكان تزايد اهتمام الوطاسيين بالمنطقة وراء تزايد مشاكلها الغذائية بعد جفاف 1517 نظرا للاضطرابات التي أحدثوها ولسياسة الارض المحروقة التي انتهجوها، ولارغامهم القبائل على تحمل مؤونتهم(67) .

والسؤال الذي يفرض نفسه على متتبع هذه النتائج الاقتصادية التي تولدت عن الغزو هو: هل كان بامكان المنطقة أن تنتعش بعد تحرير آسفي وأزمور؟ وهل استطاعت الرجوع على الاقل الى المستوى الذي كانت عليه قبل تحكم البرتغاليين فيها؟

لم يكن ذلك ممكنا لعدة أسباب أهمها أن التحرير لم يكن كاملا. لقد حال وجود البرتغاليين بمازيغن دون استغلال منطقة غنية ومهمة تمتد ما بين أزمور وتيط والمدينة الغربية(68) . وبقيت هذه المناطق فارغة الى عهد المنصور السعدي كما تشهد على ذلك رواية أحمد أفوكاي. واستمرت الوضعية هكذا خلال القرن السابع عشر كما تشهد على ذلك المصادر البرتغالية المتعلقة بمازيغن(69) . فلقد عرض برتغاليو هذه المدينة تلك المناطق لسلسلة متتالية من الغارات.

ومن جهة أخرى، أفقد الغزو المنطقة العناصر الضرورية لكل انتعاش. فلقد أفقدها قسما مهما من سكانها كما سنرى. ولم تستطع الدولة السعدية ضمان استقرار

القبائل وتوطيد الامن(70) لتوفير شروط استغلال حقيقي لامكانات المنطقة. ولهذا سيطر نمط الترحال في ظروف جد مضطربة(71). وهكذا لم تستطع المنطقة الحصول على انتاجات في مستوى ما كانت تحصل عليه قبل تعرضها للغزو، وعلى العكس من ذلك، اصبحت تشكو من تبعية خطيرة في ميدان الحبوب لمناطق كانت من قبل تعتمد على حبوب دكالة اعتمادا كبيرا. فلقد اصبحت مرغمة على جلب حبوب السوس والحوز والغرب لتغطية حاجيات من بقي بها من السكان كما حدث ذلك خلال مجاعة 1061 هـ «. . . وفي سنة احدى وستين والف كان الناس يجلبون الاقوات من مراكش بثمن له بال، ثم ازداد الامر حتى عدم القوت الا ما أغاث الله به الناس من زرع سوس. . . » وذكر نفس التقييد ان المجاعة ازدادت خطورة خلال السنة التالية اذ «. . . تفاحش الموت في الناس جوعا وعجز الناس عن الدفن. . . وفي شوال من السنة المذكورة (1062 هـ) اشتد الامر وغلت الاسعار واعتمد الناس على «تالكوهت» و «أيرني» حتى صار لا يوجد في الاسواق الا هو، وكان مأكلهم سنتين. . . وخلت البلاد وضاعت الاعراب وخلت القرى بأسرها، ولم يبق من فيه الروح أصلا . . . وكان الناس يكيلون الزرع من مراكش وحوزه. . . وارتحل الباقون يؤمون الحوز، اي حوز مراكش، ورحلوا للغرب، لثغر سلا، لكون الزرع فيه بثمن مرفوق(72) . . . »

وكان السلاطين احيانا سبب هذه المآسي، وذلك لتسريحهم لوسق الحبوب كلما كانت المحاصيل مهمة مما حال دون توفر المنطقة على مدّخرات. فلقد صدرت حبوب دكالة صيف سنة 1056 هـ (1646) وسنة 1058 هـ (1648)(73). وكانت المجاعة سنة (1060) هـ. ومعنى هذا أن فرص انتعاش المنطقة قد ازدادت تأخرا لما نتج عن هذه المآسي من هجرات ومن ضحايا بين السكان ومواشيهم. والملاحظ أن فترات المجاعة السابقة الذكر امتازت بتزايد الاضطرابات وعمليات السطو على املاك الغير مما زاد المجاعة خطورة(74).

(ب) وكما تراجع الانتاج الزراعي تقلصت اعداد المواشي بالمنطقة.

ونتج هذا التراجع عن القلاقل والفتن وكثرة الحركة الاضطرارية التي احدثتها الغارات البرتغالية ورد الفعل المغربي. ويتجلى هذا التقلص بكل وضوح من خلال الغنائم التي اصبح البرتغاليون يحصلون عليها بعد 1517 .

فلقد اسفرت غارة استهدفت قبيلة عبدة صيف 1517 عن بعض الحمير والبغال وتسعة خيول واثنين وأربعين جملا(75) . واسفرت اخرى نظمت ضد قبائل الشرقية خلال نفس السنة عن بعض البغال والحمير فقط(76) ! ونتج عن غارة نظمت سنة 1519 الاستيلاء على خمسة خيول وستة جمال(77) . . . ولا شك في أن هذه الغنائم جد قليلة بالنسبة لما كان يستولي عليه البرتغاليون في بداية توسعهم. ومن السهل الوقوف على اسباب هذا التراجع. فهو نتيجة لما عرفته المنطقة من قلاقل ازدادت بتزايد اهتمام البرتغاليين والوطاسيين بالمنطقة. ونتج عن هذا الاهتمام اضطرار القبائل الى الفرار تفاديا لهجمات هذا أو ذاك الفريق. وكان يؤدي ذلك الى حرمان المواشي من مراعيها. ولقد سبقت الاشارة الى تضرر مواشي عبدة من التجاء هذه القبيلة الى الشياظمة(78) . واضرت فترات الجفاف بدورها بالمواشي نظرا لاعتمادها في شربها على مياه النطافي. ولهذا اكدت التقارير البرتغالية على خطورة جفاف 1541 على دواب ومواشي دكالة(79) . وكانت اصعب فترة عانت منها هذه المواشي هي فترة جفاف ومجاعة ووباء 1519 - 1522 (80) .

وتحمل البرتغاليون مسؤولية كبرى في هذا التراجع، وذلك بالتجائهم الى القتل العمد كلما تعذر عليهم اصطحاب الغنائم الى المدن المحتلة(81) .

وهكذا يكون الغزو البرتغالي قد خرب دكالة وتركها على حالة لا تسمح لها بالانتعاش السريع. والغريب أن سياسة الملك البرتغالي كانت تعمل على تفادي هذه الوضعية، وذلك للاسباب التي سبق التأكيد عليها. ولا شك أن الوضعية الاقتصادية السيئة التي اصبحت تعيش عليها دكالة كانت لها نتائج على الاوضاع الاجتماعية. فما هي هذه النتائج وأين تجلت؟ وما مدى خطورتها؟ .

الهوامش والتعاليق

(1) H. Terrasse Histoire du Maroc. Op. Cité II, p. 146

(2) D. Lopés: Os. Portugueses...Op. Cité. TIV. p. 129.

J. Figanier. Portugais – Maroc: énnoncé de quelques problèmes. B. E. P. No 8. 1941 p. 39.

D. P. Lima História... Op. Cité p. 3

J. Goulven. Safi... Op. Cité. p. 104

(3) انظر قسما من الرحلة «بالاعلام بمن حل بمراكش واغمات»... مصدر سابق ج 2 ص 274

(4) F. Braudel: La mediterranée... Op. Cité p. 299

(4م) يشبهها المؤرخ البرتغالي بالجزر أو بالسفن الراسية قرب أمة معادية

P. A. Evin. L'architecture portuguaise au Maroc. B. E. P. T. IX 1924 p. 49

(5) Ibid pp. 55, 56

R. Ricard: Sur la chronologie des fortifications portugaises D'Azemmour Mazagàn et Safi – A. E. O. T. V. 1939. p. 113.

(6) P. A. Evin: L'architecture portugaise... art. Cité. p. 54

(7) عن جلب هذه المواد من البرتغال أو الاندلس راجع الايصالات المنشورة بالملحق، وعن بداية صنع الجير بأزمور وآسفي: S. I. H. M.Port.I, pp. 525, 530.

(8) H. Terrasse: Sur les contacts artistiques entre le Maroc et le Portugual aux XV et XVIe siécle. In. Mélanges

D. Lopes. P. Cenival. Paris 1945 p. 403

(9) نعني بالسجوف (Courtines) القسم من السور الذي يربط ما بين برجين.

(10) ما يعرف بـ Flanquement

(11) H. Terrasse. Sur les contacts artistiques... art. Cité pp. 403 – 404

(12) Ibid. p. 404

(13) Ibid. p. 405

(14) D. Lopés.. Os. Portugueses... Op. Cité IV p. 129

(15) H. Terrasse. Sur les contacts artistiques... art. Cité p. 408

(16) Ibid p. 410

(17) Ibid p. 413

(18) S. I. H. M. Port. I p. 459 ذكر القبطان (دجنبر 1513) أن سكانها المدنيين لا يتعدون أربعة يهود متنصرين وبعض الجنود الذين شاركوا في الحملة وغادروا الجندية بعد احتلال المدينة.

(19) Léon L'africain... Op. Cité I, p. 127

(20) رسالة مبعوث الشاوية الى الملك البرتغالي S. I. H. M. Port. I, p. 457

(21) Ibid I, p. 535

(22) Ibid II, p. 526

(23) R. Ricard: Sur la chronologie... art. Cité p. 109

(24) Ibid p. 109
S. I. H. M. Port. II, p. 37

(25) R. Ricard: Sur la chronologie... art. Cité p. 110

(26) Ibid p. 111

(26 م) Ibid II, p. 241 No 1

(27) Ibid p. 112

(28) J. Goulven: La place de Mazagan sous la domination portugaise: (1502 – 1769) Paris 1917 pp. 138 – 139

(29) Ibid p. 139

(30) R. Ricard: Sur la chronologie... Art. Cité p. 112

(31) J. Goulven: La place de Mazagan... Op. Cité pp. 140 – 42

(32) Ibid p. 142

(33) Ibid. Ibidem.

(34) J. Goulven: Safi... Op. Cité pp. 49 – 50 ويمكن مقارنته مع السور الاصلي الذي يتجلى من خلال تقرير بعث به الكنتدور (غاطو) نهاية 1510، وقت محاصرة القبائل لآسفي.

(35) S. I. H. M. Port.III, p. 262

(36) الناصري السلاوي . . . الاستقصاء ج 5 ص17 .

(37) نفسه، ونفس الصحيفة.

(38) S. I. H. M. France Iére série. III, p. 359

(39) P. Masson. Histoire des établissements et du commerce Français dans L'Afrique Barbaresque (1560 – 1793) 1903 p. 93

Ibid III, p. 359

(40) كان السكر يمثل السلعة الرئيسية . وكان السعديون يبيعون الشمع والجلود وملح البارود وغيره من المواد الخام.

S. I. H. M. Angleterre. Iére série I. (Introduction)

(41) كناشة للكانوني تحمل رقم 4 بخزانة الاستاذ المنوني، وكاتب التقييد من حفدة ابي محمد صالح كما ذكر ذلك، وهو معاصر للمجاعة المذكورة.

(42) De Marmol... Op. Cité II, p. 109

Carvalho. La domination Portugaise au Maroc (1415 – 1769) 1936. p. 56 No 1

(43) اليفرني . . . نزهة الحادي ص 19 (ط. باريس) الاستقصاء ج 5 ص20

(44) De Marmol... Op. Cité II, p. 109

(45) S. I. H. M. France Iére série III, p. 360

(46) Léon... Op. Cité I, pp. 121, 122, 123, 124

De Marmol... Op. Cité II, pp. 94, 108, 113, 115

(47) De Marmol... Op. Cité II, p. 114

(48) Ibid. Ibidem.

(49) S. I. H. M. Port.I, p. 490

Góis... Op. Cité p. 109

(50) S. I. H. M. Port.I, p. 751

(51) Ibid II, p. 24

(52) Ibid II, p. 196

(53) أفوكاي، كما أورده صاحب الاعلام: ج 2 ص 274

R. Ricard: Mazagan et le Maroc... Op. Cité pp. 91, 94, 99

J. Goulven – Mazagan... Op. Cité pp. 79 – 83

(54) S. I. H. M. Port I, p. 670

(55) عن اهتمام الدكاليين بهذه الاشاعات، انظر الفصل الثاني من الباب السابق هامش رقم: 52

(56) S. I. H. M. Port. II, p. 371

(57) Ibid III, p. 450

(58) انظر الفصل الاول من الباب الثالث هامش رقم 100، والايصال رقم 14 (الملاحق)

(59) أنظر أعلاه ص 225

(60) S. I. H. M. Port III, p. 133

(61) Ibid II, p. 144, 150

(62) Ibid II, 171

(63) Ibid II, p. 171 (شتنبر 1517)

(64) Ibid II, pp. 206, 244

(65) عن هذه الغارات راجع Góis... Op. Cité pp. 179, 184, 187, 189
De Sousa... Op. Cité p. 36

(66) S. I. H. M. Port III, 440 – 441

(67) Léon... Op. Cité I, p. 125
Ibid II, p. 142, 154

وكان الاعراب يبادرون ببيع محاصيلهم قبل وصول الوطاسي وذلك خوفا من ان يستولي عليها.

(68) De Marmol Op. Cité II, p. 111

(69) R. Ricard: Mazagan... Op. Cité pp. 92 – 94
Goulven – La place de Mazagan... Op. Cité pp. 77, 84 – 89, 91, 92...

(70) كناشة الكانوني السابقة الذكر.

(71) B. Rosenberger. C. R. In. Hesp. Tam. vol XII, 1971 p. 204

(72) كناشة الكانوني رقم 4 السابقة الذكر.

(73) نفسه

(74) جاء في نفس التقييد «. . . واشتغل اهل البادية بنهب القرى ومن خرج عن آسفي قاسى منهم» . . . الشيء الذي ارغم السلطان على التحرك نحو آسفي فعاقب آيت غياث.

(75) Góis... Op. Cité p. 175

(76) Ibid. Ibidem

(77) Ibid p. 203

(78) الفصل الاول من الباب الاول ص 63 والهامش المتعلق بهذه النقطة.

(79) راجع ص 56 من هذا البحث والهامش المتعلق بهذه النقطة (رقم 50)

De Sousa... Op. Cité p. 25 (80)

S. I. H. M. France Iére série I, p. 123 (81)

S. I. H. M. Pcrt II, p. 260

Góis... Op. Cité p. 203

De Sousa... Op. Cité p. 37

الفصل الثاني

النتائج الاجتماعية والثقافية للغزو البرتغالي

اذا كان الغزو البرتغالي قد سبب خراب المدن والقرى الدكالية، وسبب تراجعا خطيرا في انتاج المنطقة، فانه كان كذلك وراء تراجع أعداد سكانها، وكان من الاسباب الاساسية التي أدت الى احداث هزات عنيفة داخل المجتمع الدكالي - والمغربي - شملت معتقداته وتصوره للحياة وعلاقته مع اخوانه في الدين واليهود والنصارى. وهكذا كان المجتمع الدكالي يعاني من أزمة خانقة حين تحرير آسفي وأزمور. فما هي أهم مظاهر هذه الأزمة؟ وما هي خطورتها؟ وهل استطاعت المنطقة التغلب عليها بسرعة؟ وهل استفاد الدكاليون - والمغاربة عموماً - من تفوق البرتغاليين في بعض القطاعات؟

1 - هل استفاد الدكاليون من تفوق البرتغاليين في بعض القطاعات؟

تساءل المؤرخ البرتغالي (لوبش D. Lopes) في ختام دراسته(1) للغزو البرتغالي «. . . ما الذي قمنا به بالمغرب لفائدة سكانه؟ . . .» ويفرض علينا هذا التساؤل تساؤلا آخر جد مهم: هل كان بامكان البرتغاليين أن يقدموا شيئا للمغاربة يمكنهم

من تحسين اوضاعهم؟ وبعبارة اخرى هل كانت الحضارة البرتغالية تتوفر على وسائل وتقنيات متفوقة على ما كان بأيدينا؟ لم يكن البرتغاليون متفوقين على المغاربة في الميدان الزراعي، ولم يدخلوا أي جديد على وسائل الانتاج، وأخذوا عن المغاربة بعض المزروعات قبل أن يشرعوا في فلاحة الذرة الصفراء بضواحي بعض الثغور المحتلة[2]. ولم يأخذ المغاربة عن البرتغاليين أي شيء في الميدان الصناعي وذلك لاهتمام البرتغاليين أساسا بالانتاجات المحلية، وخصوصا الانسجة الصوفية.

وكان من الممكن أن يتأثر المغاربة بالبرتغاليين في ثلاثة ميادين تفوق فيها البرتغاليون خلال القرن السادس عشر.

- الملاحة (صنع السفن، طرق القيادة وتقنيات تحديد خطوط العرض والطول، ورسم الخرائط). ولكن البرتغاليين عملوا عن قصد على الحيلولة دون بقاء الملاحة الدكالية - والمغربية - ولو على الشكل المتدهور والهامشي الذي كانت عليه، وذلك خوفا من غزو اسلامي جديد للبرتغال، وللقضاء على التجارة المحلية والجهاد البحري. ولهذا كان الغزو يهدف قبل كل شيء الى ضرب حصار على الموانيء المغربية. وهكذا بقيت السفن وما يتعلق بها أمرا بعيدا عن الدكاليين، ولم تترك لهم فرصة الاطلاع على ما جَدّ في ميدان الملاحة والاقتداء به، ولم تقم للملاحة الدكالية قيامة بعد التحرير، ولم تصل ولو الى المستوى الذي كانت عليه قبل الغزو البرتغالي.

- وكان البرتغاليون متفوقين كذلك في ميدان الطب. ويشهد على ذلك التجاء كل من السلطان الوطاسي وعامليه المولى ابراهيم بن علي بن راشد والقائد العطار الى خبرة أطباء أصيلا وأزمور كلما استعصى العلاج على الأطباء المغاربة[3]. ووصلت خبرة أطباء أصيلا الى حد جد متقدم، وكان منهم من اعتبر من أحسن جراحي وقته[4]. وتمت على يديهم عمليات جراحية جد معقدة أجريت على مرضى كانوا يعانون من حالات جد خطيرة، وكللت بالنجاح في جل الاحيان[5]. والى جانب الأطباء، كان بأصيلا صيدلي كان يعوضهم في حالة غيابهم[6]. وذكر مصدر برتغالي

معاصر ما يدل على أن الأدوية المستعملة من طرف المغاربة كانت دون مستوى ما كان يعرضه الصيادلة البرتغاليون (7) .

ـ وتفوق البرتغاليون كذلك في ميدان الاسلحة وتقنيات الحرب وطريقة بناء الحصون. ولكن استفادة المغاربة كانت قليلة جدا، وتحملت الدولة كما سنرى مسؤولية هذه الوضعية الشاذة.

ومعنى هذا أن الدكاليين، والمغاربة عامة، لم يتأثروا بهذه الأنشطة المتقدمة. ورد المؤرخ (لوبش) سلبية التوسع البرتغالي الى جهل البرتغاليين آنذاك للمبادىء «السامية والتنويرية». التي اعتنقها الاستعمار الحديث(8) ! ولعل هذه السلبية راجعة اساسا الى سببين اثنين:

1 -، نوع العلاقات التي كانت تربط البرتغاليين بالسكان المحليين، والتي طغى عليها العداء والكراهية لاحتلال البرتغاليين للمدن المغربية، ولسياسة النهب والارض المحروقة التي انتهجوها. ولهذا كان تعامل الدكاليين ـ والمغاربة ـ معهم مخالفا حينما وصلوا لمجرد التبادل التجاري. وكان البرتغاليون يعملون عن قصد على اضعاف المغاربة ليضمنوا لانفسهم الراحة وللاحتفاظ بما بأيديهم.

2 -: ومن جهة اخرى، لم يتأثر المغاربة بالبرتغاليين لانعدام الدافع لديهم نظرا لمخلفات الغزو التي فشلت الدولة السعدية في التغلب عليها، ونظرا كذلك لعجزها عن خلق فرص الانتعاش. وعلى العكس من هذا، عملت الدولة على الحفاظ على هذه الوضعية المتدهورة وحالت دون انتشار تقنيات كانت ترى فيها خطرا على نفسها(9) . كما احتكرت الانشطة المربحة ووسائل انتاجها (الارض والماء على الخصوص لفلاحة قصب السكر)(10) ، مما عاق انتعاش البلاد.

ولكن احتكاك الدكاليين بالبرتغاليين لمدة طويلة جعل كل طرف يتأثر بالاخر في الميدان اللغوي. فلقد كثر الدكاليون القادرون على الكلام باللغة البرتغالية خصوصا خلال فترة ولاء آسفي وأزمور. ولم يؤد احتلال المدينتين الى اختفاء هذه الظاهرة، وكان من سكان البوادي من يحسن الكلام بالبرتغالية. وسمح هذا بظهور طريقة

جديدة لمكاتبة البلاط البرتغالي، اذ اصبحت الحروف عربية واللغة برتغالية (الرسائل الاعجمية)(11) وكان من البرتغاليين من يحسن العربية كـ (روديغو دو نورنيا) R. De Noranha مراقــب وصــديق يحيى أوتعفوفــت الــذي لقــب بالعربــي. "Aravia" . (12) وهكذا، لم يستفد الدكاليون من الغزو البرتغالي، وعلى العكس من ذلك، كانت الخسارة عظمى، خصوصا في الميدان الديموغرافي.

2 ـ النتائج الديموغرافية للغزو

سبقت الاشارة الى أن دكالة كانت قبل غزوها من طرف البرتغـاليين من أكثـر المناطق المغربية ازدحاما بالسكان. واصبحت غداة تحرير آسفي وأزمور شبه خالية. ويمكن ارجاع هذه الوضعية الجديدة الى الاسباب التالية:

(أ) الغارات البرتغالية المتتالية التي كانت تهـدف أولا وقبـل كل شيء الى الحصول على الاسرى. وإذا كان عدد هؤلاء الاسرى مهما في بداية التوسع، (كانوا يشحنون بالمئات)، فان الحصول عليهم يتطلب على الاقل نفس العدد من القتلى من بين الدكاليين. (13)

واستهدفت هذه الغارات المنطقة طوال مدة تحكم البرتغاليين في موانئها. وزادت الغارات الوطاسية المنطقة نزيفا.

ومن جهة اخرى، مات من الدكاليين عدد كبير خلال الغارات التي خاضوها الى جانب البرتغاليين الذين عملوا على جعلهم يتحملون اقصى ما يمكن من الضحايا.

(ب) وكان السبب الثاني في تراجع عدد السكان يتمثل في الهجرات المتتـالية التي عرفتها المنطقة ما بين 1513 و 1520 :

نتج عن احتلال أزمور فرار كل سكانها الذين التجأوا الى الشاوية ومنهـم من وصل الى مكناس وفاس. (14) ورحّل الوطاسي سكان جل قرى المنطقة زيادة على كل قبيلة بني ماكر وجل مشنزاية، (15) مما يشمل نسبة مهمة من السكان. وارغمت مجاعة 1520 عددا كبيرا على الهجرة الى البرتغال. وذكر المؤ رخ (كويش) أن اعداد هؤ لاء النازحين الدكاليين كانت مهمة بلشبونة. (16) وارغم الجوع آخرين اكثر منهم بكثير

على بيع نسائهم وذويهم قبل بيع أنفسهم لتجار الرقيق الابيريين. وكان المهاجرون الى ابيريا بهذه الطريقة أو تلك من الشباب، أي من القادرين على الانتاج وعلى تعويض من ماتوا من جراء المجاعة أو الوباء أو هاجروا. وأرجع الوزان تراجع أعداد سكان دكالة الى الغارات البرتغالية والوطاسية والى المجاعة السابقة الذكر. وكتب معلقا على ذلك مع مبالغة واضحة: «. . . ولهذا لم يبق منهم (الاعراب) ولو واحد بدكالة. . .»(17) وهذا ما يفسر فراغ مناطق شاسعة حول آسفي(18)، وانتشار عبدة بعد 1542 بالمناطق المجاورة للمدينة الغربية(19).

ويتجلى هذا التراجع كذلك من خلال اعداد دواوير عبدة والغربية التي اصبحت خمسا وخمسين فقط سنة 1541.(20).

(ج) كما يعود هذا التراجع الى المجاعات والى وباء 1521 الخطير. اصبحت دكالة مفتقرة باستمرار الى الحبوب بعد 1514 وعانت كثيرا من قلة هذه المادة خلال سنة 1517. ولكن مجاعة 1520 كانت أخطر ما عرفته دكالة. وزاد من خطورتها وباء الطاعون الذي تلاها والذي اختطف «. . . أولئك الذين استطاعوا الافلات من قساوة المجاعة نظرا لاحتياطهم أو لإدّخارهم للقمح. ويؤكد الكثيرون أن ذلك الوباء فتك فتكا كبيرا بالانسان والحيوانات(21) . . .» ويرى بعض المؤرخين أن الغزو البرتغالي أفقد المنطقة ما بين 34 و 44 ٪ من سكانها(22).

وسبب التراجع في الاعداد فراغا بشريا داخل دكالة سمح لعناصر اجنبية بالتسرب اليها والاستقرار بالاماكن الفارغة. وكانت بعض المجموعات مهمة كالزمامرة والحوزية وغياثة(23). ويكفي تصفح خرائط المنطقة للوقوف على دواوير من «الحياينة» و «شراكة». وحدث نفس الشيء بالضفة اليمنى لام الربيع حيث استدعيت قبيلة الحارث (الشياظمة) وهشتوكة و (السوس) للاستقرار هناك.

3 ـ نتائج الغزو والاوضاع الاقتصادية التي سببها على التشكيل الاجتماعي وعلاقة فئاته مع بعضها

(أ) تفكك الاسرة الدكالية لعدة أسباب:

بسبب الحروب التي نتجت عن التوسع البرتغالي ورد الفعل المغربي. فزيادة على قتلى الحروب أفقد البرتغاليون عددا كبيرا من الاسر بعض أفرادها، وذلك بأسرهم. وتمكن البرتغاليون أحيانا من أسر الأسرة بأجمعها كما حدث لاسرة بودومة، شيخ أولاد يعقوب[24]، وقد لا يفلت الا ربها. فلقد كانت كل أسرة «الكريمات»، أحد شيوخ «الشرقية»، في حالة اسر بأزمور، ومات وهم كذلك[25]. وكان ينتج عن بيع هؤلاء الاسرى بماديرا أو البرتغال فقدان كل أمل في عودتهم الى أسرهم.

ونتج عن احتلال كل من آسفي وأزمور، تسرب الفزع الى السكان، وفرارهم في كل اتجاه، مما كان يسمح للبرتغاليين بالاستيلاء على النساء والاطفال لبيعهم الى تجار الرقيق. وذكر كنتدور آسفي، (دوكاطو)، أن سكان المدينة خافوا على انفسهم بعد احتلال أزمور ففروا وبقيت لذلك النساء بدون حماية، مما مكن البرتغاليين من عدد كبير منهن. وذكر كذلك أن البرتغاليين حصّلوا بذلك على أموال مهمة[26]. وسبب البرتغاليون تفكك الاسرة الدكالية بطريقة أخرى. فلقد كانوا يرغمون أعيان القبائل والقرى التي كانت خاضعة لهم على تسليم ابنائهم كرهائن. وكان كبار شيوخ المنطقة يلزمون بترك كل اسرهم بآسفي وأزمور. وهكذا كان يعقوب بن الغربي يقيم صحبة نسائه وأبنائه بأزمور، في حين كانت نساء يحيى أوتعفوفت باستمرار بآسفي[27]. وكان عدد الرهائن مهما بالمدينتين كما تشهد على ذلك المبالغ التي تتطلبها مؤونتهم[28]، كما يتجلى ذلك من خلال سجل الضرائب البرتغالي الذي سبقت الاشارة اليه عدة مرات والذي أشار الى توصل آسفي بثلاثين رهينة. وبما أن سن الرهائن كان على العموم منخفضا، فانه كان يلزم الامهات والاقارب بالرحيل الى آسفي أو أزمور لرؤية ذويهم. وكان البرتغاليون يلزمونهم باعطاء معلومات عن قبائلهم مقابل السماح لهم بمقابلة من جاءوا لزيارته[29]. وكان عصيان الاعيان يؤدي الى تحويل الرهائن الى أسرى والى بيعهم. وعانى عدد من الاعيان من هذه الحالة[30]. وفرض الوطاسي بدوره على شيوخ القبائل تسليم ابنائهم، مما أفقدهم ابناء آخرين. وهكذا سلمت له عبدة وحدها خمسة أو ستة رهائن (1519)[31].

وكان التفكك الذي سببه الغزو بطريقة غير مباشرة اخطر، ولم يسبق أن عرفته دكالة. فلقد أرغمت مجاعة 1520 الدكالي على بيع زوجته وأبنائه مقابل ثمـن جد بخس. وذكر مؤ رخ أصيلا الذي اهتم هو أيضا بالشراء أن « . . . اعدادا كانت تباع على يد آبائهم واخوانهم كما سبق أن ذكرت(32) . . . »

(ب) **القبيلة الدكالية** فقدت وحدتها والتحامها اللـذين كانـا يكوّنـان قوتها. فلقد اصبحت نتيجة للغزو والفتن التي تولدت عنه متشتة بمناطق متباعدة. وقد يكون قسم في حالة عصيان والآخر في حالة خضوع كما حدث لعبـدة سنـة 1515 : فلقد اصبحت بعد مغـادرة السلطـان الوطـاسي للمنطقـة قسمـين: قسـم بالاراضي التابعة للشريف السعدي بجنوب التانسيفت، وآخـر شمالـه. وكان هذا القسم الاخير مجزءا الى ثلاثة اقسام: واحد حول قرية أكوز، لم يعلن عصيانـه، وآخرين عادا منذ مدة قصيرة، كان واحد منهما بين جبال بني ماكر وآسفي، بينما كان الآخر حول المالح(33) . وعرفت الغربية هذه الوضعية عدة مرات، وخصوصا سنة 1519 (34) . كما عرفتها الشرقية، اذ كان كل فرع يفر اما الى الشاوية أو الى الحوز أو الى الشياظمة أو الى هسكورة، في حين فـضّل بعض فروعها الخضوع(35) . ونظرا لهذه القلاقل وهذا التشتت الذي اصبحت تعاني منه القبائل، تلاشت الروابـط داخـل المجموعات الكبرى، واخطر من ذلك، داخل القبيلة الواحدة. فلقـد اصطدمـت فروع الشرقية احيانا مع بعضها(36) ، واختفى ذلك التحالف الذي كان يربط عبدة بالغربية(37) . واصبحت عناصر القبيلة الواحدة لا يربطها أي رابط. فلقد ترأس يحيى أو تعفوفت قسما من الغربية وطارد بواسطته القسم الآخر الذي فضل العصيان(38) ! .

وسمح تلاشي الروابط داخل القبيلة الواحدة لبعض العناصر الاجنبية بالتسرب داخلها والاندماج فيهـا دون أن يؤ دي ذلك الى تغيير اسـم القبيلـة. فاذا لم تشر المصادر البرتغالية الى عبدة إلا ككتلة متماسكة جداً، حتى أنه لم يرد ولو مرة واحدة ذكر فرع من فروعها، فان تقييدا يعود الى ما بعد تحرير آسفي (ق 10 هـ) ذكر وجود

«غيائة» حول هذه المدينة(39) . وتعددت الفروع بعد ذلك لتصبح ستة. وعرفت الغربية تطورا مخالفا. فلقد اصبحت بعد القرن السادس عشر مجرد فرع صغير من فروع قبيلة أولاد عمور الدكالية.

ومن جهة أخرى، سببت الفاقة التي عمت المنطقة نتيجة الغزو اضطرار القبائل الى العيش على حساب أخرى قد تكون هي أيضا دكالية. وتكونت جماعات من السراق اصبحت تجوب المنطقة، ولا تميز ما بين العدو والصديق، حسب تعبير الاخباري البرتغالي (كويش .Góis)(40) . وارغمت هذه الفاقة عناصر اخرى على العيش من أنشطة هامشية خلقها احتلال البرتغاليين للمدن الساحلية.

فبعد الهجوم الذي نظمه برتغاليو أزمور ضد تيط والمدينة الغربية والقرى المجاورة (1513) ، فقد السكان جل ما كان بأيديهم، ووجدوا في بداية ترميم أسوار أزمور، وتحصين مازيغن، وصنع الجير للورشين، موردا جديدا. وهكذا عمل بالورشين عدد كبير من الدكاليين قبل أن يرغمهم القبطان (منيزش Meneses) على مرافقته الى الحوز(41) ، وبذلك تتدخل الاوضاع الاقتصادية السيئة التي أصبح الدكاليون يعانون منها لترغم القبائل على مساعدة الغزاة على تحصين مكتسباتهم أولا، ثم نشر نفوذهم ثانيا.

وبعد تزايد النقص في الحبوب وتراجع الزراعة نظرا لكثرة الفتن، اضطر بعض الاعراب الى العيش من أنشطة جديدة. فلقد نصب عدد كبير منهم خيامهم بربض الخميس الذي لم يكن يسكنه الا البرابرة، وأصبحوا يعيشون من بيع الحطب والحشائش لبرتغاليي آسفي(42) .

(ج) **الشيوخ والقواد**: استفادوا كثيرا من تزايد القلاقل التي أعطتهم سلطة كبرى على القبائل التي أصبحت دمى تحركها أيديهم في الاتجاه الذي يريدونه. ومكنت هذه الوضعية هذه الفئة من امتيازات مالية مهمة. ولهذا كانت تبدو من خلال النصوص جد غنية، تعيش في الوفرة، في وقت أصبحت القبائل تجد فيه

صعوبة في الحصول على مجرد ضرورياتها[43] .

ولكن هذه الفئة سرعان ما تضررت من استمرار حالة الحرب داخل المنطقة، وخصوصا بعد تزايد اهتمام الوطاسيين بدكالة، اذ مات عدد منهم في الحروب التي خاضوها الى جانبهم أو من جراء مطاردتهم لهم[44] . ومات آخرون في الحروب التي أعلنوها على البرتغاليين على رأس قبائلهم[45] . وذهب عدد منهم ضحية الاغتيال أو الاسر[46] . والتجأ آخرون الى فاس خوفا من البرتغاليين[47] . وبذلك فقدت دكالة أشهر أعيانها، الشيء الذي أثر بكل تأكيد على وزنها السياسي بعد التحرير. وكان أعيان دكالة ببلاط السلطان أحمد الاعرج بمراكش سنة 1541 . وتدعي بعض التقارير البرتغالية أنه بدأ يشك فيهم[48] . ونتج عن صمود قبيلة أولاد عمران الطويل في وجه البرتغاليين، وتمكن شيخهم رحو بن شحموت من قتل أشهر قباطنة آسفي، ارتقاء هذا الشيخ الى مرتبة جد مهمة داخل الدولة الناشئة، انتهت به الى مصاهرة السلطان أحمد الاعرج[49] .

(د) الزوايا من خلال مثال زاوية أبي محمد صالح

حظيت الزوايا منذ ظهورها بالمغرب بتقدير الحكام الذين أغدقوها بالعطاءات والامتيازات. ولكن ما خصت به الدولة السعدية هذه الزوايا لم يسبق له مثيل. فزيادة على التقدير والاحترام والهبات واحتكار الخطابة ونظارة الاحباس التي استفادت منها زاوية أبي محمد صالح باستمرار، منحت لها اقطاعات شاسعة. فلقد أصبحت لها بعد تحرير آسفي مزارع كثيرة بأنكة (بني ماكر) وبأولاد سبيطة يستغلها عدد كبير من المزارعين[50] . ولم تفصح كل الظهائر المتعلقة بهذه الاراضي عن وضعيتها القانونية، وعما اذا كانت اقطاع استغلال أم اقطاع تمليك. ولكن اشارة وردت بأحد الظهائر تثبت أن الاقطاعات التي خص بها السلطان محمد الشيخ السعدي الزاوية، والتي جدد العمل بها باقي السلاطين السعديين كانت من النوع الثاني. فلقد ورد في ظهير سلمه محمد الشيخ المأمون (وهو ولي للعهد بفاس) « . . .

يجدد بحول الله وقوته للمرابط الخير الدين الفقيه أبي عبد الله محمد بن موسى حفيد الولي الصالح أبي محمد صالح حكم الارض المحتوية على أثر زوجين(51) المعروفة له بالمرجومة بكتب أسلافنا، المرتسمة له على كتاب مولانا الجد قدس الله **روحه من اقراره فيها تمليكا له**، واحترامه فيها من جميع المغارم والانزال وغيره واحترام أصحابه الحارثين بها له. . . »(52) .

وبذلك أصبحت الزاوية مالكة لتلك الارض ومعفية من آداء الضرائب. ولا شك أن هذا التمليك تم على حساب المستغلين السابقين مما يفسر امتناعهم عن التنازل عنها لفائدة الزاوية، وذلك رغم المدة التي تفصل ما بين تسلم ظهير المعتصم (986 هـ) والظهير السالف الذكر (1004 هـ)، ورغم الحاح السلاطين على القائد بتنفيذ أوامرهم(53) .

وبالاضافة الى هذه الاقطاعات، سمحت الدولة للزاوية باحتكار زكوات واعشار « . . . الحارثين ببلاده (حفيد أبي محمد صالح) وأراضيه حيث كانت، وأعشار أصحابه من أهل أنكا. . . وزكواتهم. . . »(54) .

وازدادت هذه الامتيازات لتشمل في بداية الدولة العلوية ضرائب حي الرباط حيث توجد الزاوية. وسمح لها المولى اسماعيل بوراثة من لا وارث له بهذا الحي، الشيء الذي سمح لها باضافة بساتين ودور الى أملاكها(55) .

وأصبحت الزاوية تحظى لدى السلاطين السعديين بمكانة كبرى، وكان وزنها السياسي داخل المدينة يضايق القائد. ورغم ذلك، كان السلاطين لا يترددون في توبيخ ممثلهم بالمدينة كلما اشتكى منه حفيد أبي محمد صالح(56) . ولا شك أن ذلك كان يقصد منه الحصول على رضى الزاوية، وربما اشراكها في الحفاظ على أمن المنطقة أو على الاقل اطلاع الدولة على ما يهدد الاستقرار. واذا لم نتوصل بأية اشارة تثبت تكليف السعديين زاوية أبي محمد صالح بهذه المهمة، فان تكليف الدولة هذه الفئة الاجتماعية في مناطق أخرى بهذه المهمة(57) يدفع الى الاعتقاد بأن الزاوية توصلت

بتلك الاقطاعات والامتيازات مقابل الدور السابق الذكر. وعلى كل حال، فقد كان من مهام زاوية أبي شعيب بأزمور على عهد المولى اسماعيل ابلاغ السلطان بكل ما يهدد أمن البلاد. وحذر السلطان الحفيد من عواقب تهاونه في ذلك(58).

واذا كانت الزوايا قد استفادت من هبات وعطاءات الدولة، فان رجراجة كانت أكبر مستفيد من اندحار البرتغاليين، اذ أرجعت العامة ذلك الى جهادها(59). ولهذا أصبحت تعتبر «قبيلة ولية»، وكثر الاولياء المنتمون اليها الذين شيدت لهم أضرحة بدكالة. ولقيت رواية هجرة سبعة رجال الى مكة والتقائهم بالنبي قبولا واسعا ازداد مع السنين مما أرغم المولى اسماعيل على اصدار فتوى لتكذيبها(60). ولعل تشجيعه لزيارة سبعة رجال مراكش كانت تهدف أولا وقبل كل شيء الى ابعاد العامة عن زيارة سبعة رجال رجراجة(61).

(هـ) **الوسطاء**: كان الوسطاء من سياسيين وتجاريين أكثر الفئات الاجتماعية استفادة من الغزو، اذ استفاد بعضهم في نفس الوقت من فوائد الوساطة السياسية والتجارية كما كان الشأن بالنسبة لأبناء (زميرو). ولم يكن هؤلاء يبحثون الا عن منافعهم الخاصة. والحق جشعهم الضرر بالدكاليين والبرتغاليين على حد سواء. فلقد سبقت الاشارة الى استغلال الوسطاء السياسيين لنفوذهم لسرقة القبائل، كما تم التأكيد على نتائج المضاربات على أوضاع سكان الثغور. وسبقت الاشارة كذلك الى الثروة الهائلة التي تركها يعقوب بن الغربي غداة التجائه الى مراكش، تلك الثروة التي جمعها من الغارات التي كان يتعاقد بشأنها مع البرتغاليين، ومن قنص الدكاليين وبيعهم لتجار الرقيق خلال مجاعة 1520 – 1521(62).

ولا شك في أن هذه الفئة تضررت من انهزام البرتغاليين الذي جعل حدا لانشطتها. ولكن تضررها كان مبكرا، وبدأ بتراجع النفوذ البرتغالي داخل المنطقة. واستطاعت بعض عناصر هذه الفئة أن تتكيف مع المعطيات الجديدة. فلقد تنبه يعقوب بن الغربي أن عامل الزمن يلعب لصالح السعديين، ولهذا التجأ اليهم

مضحيا من أجل ذلك بأمواله واسرته. وتتجلى حيرة هذه الفئة الاجتماعية وجريها وراء مصالحها الخاصة دون اعتبار المعسكر الذي توجد فيه، في مغامرة عبد الرحمان بن حدو القصيرة الى جانب البرتغاليين وندمه ثم فراره بعد ذلك الى فاس(63). وبعد دخول آسفي في مرحلة الركود التجاري بعد (1520) نقل اليهود وبعض النصارى عملياتهم التجارية الى مراكش، وعمل (أبرهم بن زميرو)، الذي كان أكبر عملاء البرتغال بدكالة، على التقرب الى السلطان أحمد الاعرج، ولو على حساب البرتغاليين (64)، وذلك لنقل عملياته التجارية الى العاصمة الحمراء. وتم له ذلك، وأعفيت سلعه من الضرائب(65). وتكيف (ليفي مايل)، أكبر الوسطاء في ميدان الانسجة الصوفية مع الظرفية السياسية والاقتصادية الجديدة، واحترف التجسس بعد ركود تجارة الحياك والحنابل(66).

(و)سيطرة الصراعات داخل المجتمع المغربي

أثرت القلاقل والفتن والمآسي التي سببها الغزو البرتغالي على موقف الدكالي من أخيه في الدين ومن النصارى واليهود. وتمكن اقوال عبد الرحمان المجذوب، ابن المنطقة والعصر، من تتبع هذه المواقف التي يمكن تتبعها كذلك اعتمادا على كل من الوزان ومارمول وغيرهما.

من الطبيعي أن يعرف المجتمع الدكالي - والمغربي - نتيجة تسلط الحكام ومساعديهم - كيفما كانت جنسيتهم، ونتيجة للمجاعات والاوبئة، هزات عنيفة، وأن يؤثر ذلك على موقفه ممن يعيش بجانبه. ومن الطبيعي كذلك أن يعمل الانسان المسحوق على اعطاء نفسه شعورا ولو كاذبا بالسلطة والجبروت، وذلك على حساب من هو أضعف منه ماديا ومعنويا. ولهذا كانت المرأة والاسود واليهودي ضحية مختارة. وهكذا عرف المجتمع المغربي صراعات حادة اتخذت طابعا دينيا وعنصريا واقليميا، وربما طبقيا.

أصبح الدكالي - والمغربي - يكن نتيجة لما عاناه من الغزو المسيحي العداء لليهود

والنصارى. ويتجلى موقف الدكاليين الجديد من خلال مقارنة ما أورده الوزان بما عاينه مارمول بعد اندحار البرتغاليين. فلقد ذكر هذا الأخير أن يهود (تادنيست) بالشياظمة، أصبحوا يؤدون الجزية وحرموا من حق الملكية[67]. وطبعا كان هذا العداء وليد تورط أعيان الجالية اليهودية مع البرتغاليين، وكان على العامة أن تؤدي ثمنه.

ويتجلى هذا العداء مبكرا لدى الشرفاء السعديين، ولكنه شمل على ما يبدو أسر المتعاملين مع البرتغاليين فقط وذلك لاعتمادهم هم كذلك على بعض اليهود[68]. وهكذا اتخذ احمد الاعرج بمراكش اجراءات ضدهم لا تخبر النصوص بنوعيتها. ولكنه سرعان ما اضطر الى التخلي عنها تحت ضغط قبطان آسفي[69].

وقد يتجلى كذلك هذا العداء من خلال رسالة بعث بها احد افراد أسرة ابن زميرو من (تيكورارين) الى احد اقاربه بأزمور، والذي ذكر فيها أن جواب جنود الاعرج على سؤال اليهود المتعلق بعدد يهود ممالك سلطانهم كان هو «. . . قَلُّلهمُ عَنْدْكُمْ شِي يْهُودْ، قَلُّلْهُمْ الفُرْسَنْ عَنْدْنَ كْثِيرْ مِنْ اليهِد لِلْغْرَمَ والدَّرْبْ (الضرب) والشْتِيمْ[70] . . .» ولهذا ردد كاتب الرسالة ثلاث مرات عبارة «الشريف الله يمح إسمه».

كما يتجلى الموقف الجديد من أهل الكتاب فيما كتبه قنصل فرنسا (شونيي L. Chenier) عن «تعصب» الآسفيين. فلقد ذكر أنهم اصبحوا يرغمون اليهود على دخول المدينة حفاة والنصارى على دخولها راجلين[71]. ولاحظ قبله مارمول عداء الازموريين للنصارى الذين لم يعودوا يجرؤون على مغادرة سفنهم التي كانوا يستعملونها لصيد الشابل بنهر أم الربيع[72].

وواضح أن هذا الموقف مخالف كثيرا لموقف سكان المدن الساحلية من التجار المسيحيين قبل الغزو البرتغالي، وانه وليد ما عاناه الدكالي من مآسي بسبب ذلك الغزو، وليس وليد تعصب ديني وعداء يكاد يكون فطريا للاجنبي كما يدعي ذلك

بعض المؤ رخين الاجانب[73] .

هذا عن موقف الدكاليين من اليهود والنصارى، فكيف اصبحت علاقاتهم مع بعضهم؟ يمكن تتبع تلك العلاقات اعتمادا على اقوال المجذوب رغم انها تنطبق على المغرب كله. ولقد اعتمدنا على ثلاث نسخ من ديوانه، اثنتان منهما مطبوعتان[74] . ومما يثير الانتباه وجود بعض المفردات التي كانت مجهولة في القرن السادس عشر (الزوفري الصويرة. . .)، مما يفهم منه ان بعض الاقوال نسبت في القرون اللاحقة للمجذوب. ومع ذلك، يمكن الاطمئنان الى ما ورد من احكام على عصره وعلى المرأة وانسان وقته عموما، لان ذلك كان سبب شهرته وتدْوين اقواله. وأول ما يثير انتباه متتبع كلام المجذوب هو نظرته المتشائمة الى الحياة، ويأسه منها، وتمنيه لظهور «صاحب الوقت» لاصلاح الاوضاع والمعايير التي يرى أنها قد انقلبت رأسا على عقب[75] .

وكان حكمه على معاصريه قاسيا. ولهذا نصح بالابتعاد عن الناس والاحتفاظ بالاسرار وبعدم الثقة في أحد. وجعل انسان عصره (غولا)[76] . وسلط سخطه على المرأة والصق بها كل التهم والرذائل: الغش والخيانة، قلة الاهتمام بالدين. . . وجعلها في مرتبة واحدة مع اليهودي فيما يخص الغش[77] . وعرض المجذوب السود والبرابرة وسكان الغرب لنفس الشتم[78] .

وجاء ضمن كلامه ما يعبر عن شعور مر تولد لديه نتيجة استغلاله كخماس من طرف مالك الارض[79] .

4 ـ النتائج الثقافية والدينية للغزو البرتغالي

أ -وكان من النتائج الخطيرة التي سببها الغزو تراجع المؤ سسات التعليمية التي كانت بالمنطقة. فلقد كان الفقهاء والعلماء أول من هاجر المنطقة بعد تعرضها للغزو. وكان منهم من وصل الى فاس. وبذلك قل القادرون بدكالة على القراءة والكتابة. ويتجلى هذا من خلال الرسائل المحررة بالعربية، والتي بعث بها اعيان المنطقة الى

البرتغال، والتي انخفض مستواها تدريجيا الى أن وصل الى مستوى جد منحط بعد توسع البرتغاليين داخل دكالة، وبداية رد الفعل الوطاسي. ولاعطاء فكرة عن هذا المستوى من الجهل الذي وصلته المنطقة نورد هذا القسم من الرسالة التي بعث بها يحيى أوتعفوفت الى الملك البرتغالي (15 غشت 1517) «. . . ومُولَيَ يَرْسَلْ لي بأن نْشُفُ في هَدَكْ الشّ وَهَدْ الشّ إيلَ السببين ياسرن وَحَدْ منهم الحرت قليل ولَـخُر حَصْدُه النَّسْ بالزَّرْبَ من الخوف من مُولْ الغَرْبْ وخزنوه فْلَخْلَ بالزرب، والَـخُر من سَقْ غْرَرُ لَسْفِ يْعَبُو منه الغَرَمَ ويكَبْرُ لَـهُمْ الكِيلْ الدِّي بَـشْ يْبِـعُ ويْعَمْلُ لهم الصُّومْ (السوم) الدِيّ يْحِبُّ هُمْ وبعد ما يْبِعُ الزرَعْ ويتخلصُ بالنصف من الدرهم والنصف من العصرَ[80] . . .»

ويبدو أن الغزو البرتغالي كانت له مخلفات بعيدة المدى في هذا الباب، وأنها شملت مناطق شاسعة. لقد كان كاتب السلطان احمد الاعرج نفسه دون مستوى منصبه، وكان أسلوبه ركيكا ومليئا بالاخطاء[81] .

(ب) ومن جهة أخرى، احدث الغزو البرتغالي بلبلة خطيرة في الافكار والمعتقدات وشعورا مريرا بالذنب لدى الدكالي - والمغربي - .

لم يستطع المغربي عموما مواجهة مشاكل العصر بثبات، لانها كانت فوق طاقته، وشملت كل مرافق الحياة. فلقد عاين سطوة النصارى وعجز المغاربة عن الرد على التحدي، بل أكثر من هذا، عانى من مساعدة بعض المغاربة للنصارى في حروبهم ضد اخوانهم في الدين، وأحيانا ضد اسرهم وقرا هم[82] . وعانى كثيرا من القلاقل والفتن والغارات والمجاعات والاوبئة وما نتج عنها من ردة وبيع الاهل للنصارى قبل بيع النفس. . . ولهذا حار كثيرا في أمره، واعتبر هذه المصائب علامة على قرب الساعة، ومبشرا بقرب ظهور المهدي، وكان هذا الاعتقاد وراء ايمان سكان القصر الكبير بشخص ادعى انه عيسى بن مريم[83] ، كما كان وراء ادعاء السعديين للمهدوية[84] . واصبح المغربي مرتبطا ارتباطا كبيرا بالاولياء الذين اصبح يرى فيهم

ضمانة معنوية (الدعاء، الكرمات. . .)،ومادية (ضد الحكام[85] وممثليهم وضد طغيان الطبيعة)[86]. ولهذا لم تعرف الزوايا انتشارا مثلما عرفته خلال هذه الحقبة المضطربة.

واصبح المغاربة يشعرون بالذنب، ويعتبرون أن ما حل بهم من مآسي هو عقاب من الله بسبب ابتعادهم عن تعاليم الدين، وأن الخلاص يكمن في احياء تلك التعاليم ومحاربة البدع. ويتجلى هذا الشعور في الفية الهبطي، واقوال المجذوب، وشعر ابن يجبش التازي[87].

ونظرا لحدة البلبلة التي تولدت عن هذه المآسي، اتخذت مجموعة من المواقف للتغلب عليها أو على الاقل للتقليل من حدتها. فلقد انكب بعض الفقهاء والمتصوفة على الوعظ والارشاد، والاخذ بيد العامي ومحاربة ما استحدثه من بدع وكان أشهر ممثلي هذه الفئة عبد الله الهبطي الذي لم يكتف بالتأليف ومكاتبة القبائل، بل اصبح يجوب المداشر والقرى للقيام بهذه المهمة. وقلده ابن خجو وغيره[88].

وكان من الناس من حاول أن يستفيد مما تبقى من الحياة وانكب على الملذات، واكثر من هذا، على المجون والفسق. ولعل احسن ممثل لهذه الطائفة هم العكاكزة ان صح ما تنسبه لهم المصادر المغربية من افعال وبرامج[89]. وكان احد الدكاليين، وهو من أمغاريي تيط، من اقطاب الطائفة الاندلسية[90].

وعملت طوائف اخرى على تناسي الواقع المر والمخجل بعدد من المواقف. فمنها من اعتكف بالجبال وانعزل عن العالم وزهد في الدنيا. ولقد سبقت الاشارة الى كثرة الزهاد بجبل الحديد وجبال بني ماكر والجبل الاخضر. وزهد المجاذيب فيها بطريقة مخالفة، وذلك بتجاهل الواقع والتنكر لمبادىء وقيم المجتمع[91]. وكان أشهر هذه الطائفة عبد الرحمان المجذوب، ابن دكالة والفترة، والذي لم يقطع كل الصلات بمنطقته، ولم يتجاهل ما كانت تعاني منه[92] وزداد عدد المجاذيب الحقيقيين أو الذين اصبحوا ينتحلون تلك الصفة، واصبح المولى (أبو الشتاء) مدرسة حقيقية

خرّجت على يدها عددا من المجاذيب والبهاليل(93) . وكانت طائفة «عيساوة» تتوخي من شطحاتها الهستيرية، ومن افتراسها للانعام الحية تناسي الواقع المر الذي كان يعاني منه المغربي «. . . وكثير منهم يمر بالاسواق فيخطفون الصابون وغيره فيأكلونه. . . ويدخلون بيوت النار ولا يتضررون ويشيرون بالهتك وبالبعج وغير ذلك(94) . . . »

وهكذا تكون نتائج الغزو جد وخيمة على دكالة. فزيادة على تخريب مدنها وتراجع مستوى انتاجها، عرفت انخفاضا خطيراً في عدد سكانها، وعانت من أزمة اجتماعية خانقة أثرت على التشكيل الاجتماعي وعلى علاقات الافراد فيما بينهم. وسببت بلبلة خطيرة في الافكار والمعتقدات. وعجزت الدولة السعدية عن التغلب عن هذه المشاكل التي بقيت قائمة الى أن حلت الدولة العلوية محلها.

الهوامش والتعاليق

(1) D. Lopes – Os. Portugueses... Op. Cité IV p. 129

(2) انظر اعلاه ص 283

(3) R. Ricard: Médecins et médecine à Arzila (1508 – 1539) Hesp. 1939, XXVI p. 172

وعن العطار S. I. H. M. Port.II, p. 526.

(4) Ibid p. 171

(5) Ibid p. 175

(6) Ibid p. 173

(7) Ibid p. 176

(8) D. Lopes. Os. Portugueses... Op. Cité IV p. 129

(9) A. Laroui. Histoire du Maghreb, Petite Maspero II, p. 38

A. Dzinbinski: L'armée... art. Cité p. 68

(10) كان أول ما قام به سكان الدير والسهل بالحوز بعد موت المنصور هو تحطيم المنشآت الخاصة بسقي أراضي الدولة المزروعة بقصب السكر.

(11) هذا ما يعرف بالرسائل الأعجمية والتي جمع المؤرخ لوبش (D. Lopes) عددا مهما منها في مؤلف خاص سبقت الاشارة اليه.

D. Lopes : Textos em Aljamia. Op. Cité

(12) S. I. H. M. Port.I, p. 339 No 2.

(13) B. Rosenberger: C. R. In. Hesp – Tam. XII 1971 p. 203

(14) التجأ جل السكان الى الشاوية كما يتجلى ذلك من خلال رسالة مبعوث هذه المنطقة (لود) لدى الملك البرتغالي S. I. H. M. Port.I, p. 457 وكان عدد النازحين الى سلاوفاس مهما حسب شهادة الوزان (ج 1 ص 127) وفرت اسرة عبد الرحمان المجذوب من تيط بعد احتلال أزمور.

واستقرت بمكناس : انظر ابتهاج القلوب مصدر سابق ورقة 8 ب.

(15) انظر أعلاه ص 381

(16) Góis... Op. Cité p. 228

(17) Léon. L'Africain... Op. Cité I, p. 41

(18) أنظر أعلاه ص 448

(19) De Marmol... Op. Cité II, p. 111

(20) S.I.H.M. 1ère série France I, p. 120

(21) J. L. De. Sousa... Op. Cité p. 25

(22) B. Rosenberger. C. R. Hesp. Tam XII 1971 p. 203

(23) ذكر تقييد يعود الى مجاعة (1062 هـ) التي اكدنا علينا في الفصل السابق وجود هذه القبيلة الاخيرة بضواحي آسفي. ولا ندري متى استقرت القبيلتان الأخرتان بدكالة.

(24) De Góis... Op. Cité p. 184
S. I. H. M. Part II, p. 260

(25) Corpo cronológico... Op. Cité p. 90
S. I. H. M. Port.I, p. 522, II, pp. 30, 248, 276.

(26) S. I. H. M. Port. I, p. 453

(27) عن يعقوب S. I. H. M. Port. II, p. 319
B. Rodriguês... Anais d'Arzila I, p. 327
S. I. H. M. Port. II, p. 313
عن يحيي انظر مثلا S. I. H. M. Port. II, p. 133

(28) S. I. H. M. Port. I, p. 366

(29) S. I. H. M. Port. I, p. 378

(30) Ibid II, p. 30, 248, 276

(31) Ibid II, pp. 214 et 147

(32) B. Rodriguês. Anais d'Arzila I, p. 327

(33) S. I. H. M. Port. I, p. 754

(34) De Góis... Op. Cité p. 198
S. I. H. M. Port. I, p. 754

(35) S. I. H. M. Port. I, pp. 577, 761, II, pp. 11, 22, N. 2, 132...etc
De Góis... Op. Cité p. 184

(36) S. I. H. M. Port. I, p. 755

(37) S. I. H. M.Port. II, pp. 100, 188, 195 etc

(38) De Góis... Op. Cité p. 228

(39) التقييد الذي اعتمدنا عليه في الفصل السابق، والمتعلق بمجاعة 1062 هـ .

(40) De Góis... Op. Cité 93

(41) S. I. H. M. Port.I, p. 522

(42) Ibid II, p. 221

(43) يتجلى غنى اسرة «بودومة» من خلال كثرة حلي زوجة ابن الشيخ التي دفعت احد النبلاء الى قطع يديها ورجليها كما ذكرنا. كما يتجلى غني هذا الشيخ في القيمة التي بيع بها بأزمور. ومعلوم أن المشتري كان يعطي ثمنا يناسب الوضعية الاجتماعية للاسير. ومعلوم كذلك أن يعقوب بن الغربي ترك بأزمور مبلغا يصل الى 16 مليون ريال بعد فراره الى مراكش.

(44) مات الى جانب قواد الناصر ببولعوان سبعة شيوخ، وقتل الناصر الكديد بالمدينة الغربية ثلاثة شيوخ Léon L'Africain Op. Cité I, p. 122

(45) De Góis... Op. Cité p. 90

(46) مات مع يحيي يوم اغتياله ثلاثة شيوخ De Góis... Op. Cité p. 224

(47) S. I. H. M. Port II, p. 219

(48) Ibid III, p. 406 وذكر صاحب التقرير انه سجن أبناءهم خوفا من تحالفهم مع البرتغاليين.

(49) S. I. H. M. Port.I, p. 628 No 2

(50) اعتمدنا على مجموعة من الظهائر توجد في حوزة حفيد ابي محمد صالح بآسفي

(51) عن مساحة الزوجين (20 هكتارا)

G. Lazarev: Les concessions foncières au Maroc. in. Etudes Sociologiques sur le Maroc. Publication du B. E. S. M. p. 67 No 54

(52) ظهير مؤرخ في جمادي الثانية 1004 هـ

(53) ظهير محمد الشيخ المامون (1004 هـ) «. . . كما نامر من يقف عليه من خدامنا كالقائد موسى بن ملوك وغيره من ولاة امرنا لمعاضدته على استخلاصها ممن هي بيده. . .» انظر كذلك ظهير المعتصم (986 هـ)

(54) ظهير لآخر ملوك الدولة السعدية مؤرخ في جمادي 1 عام 1055 هـ

(55) ظهير اسماعيلي مؤرخ في 1080 هـ «. . . وأنعمنا على السيد احمد المذكور (الحفيد) بالانتفاع بما في يده من البحائر برباط جده ومن البقاع التي لم يظهر لها وارث. . .».

(56) ظهير المتوكل (984 هـ؟) والمعتصم (986 هـ)

(57) بعث محمد الشيخ السعدي برسالة الى عبد الله الهبطي كلفه فيها بمراقبة مناطق الهبط.

فلقد جاء في الرسالة التي بعث بها للقبائل، والتي ارفقها بنسخة الرسالة السلطانية «. . . وقد جعل السلطان نصره الله الامر الينا والنظر كما سترون في نسخة كتابه. ونحن قد جعلنا امر كل قبيلة ببصائرها في القليل والكثير، فان لم تقوموا بذلك على أتم مراد، نعرف بكم حكام أوطانكم من العمال والقواد. وان لم يقع كمال المراد من حكام الاوطان فنعرف بذلك مولانا السلطان. وبعد يصرف ان شاء الله تعالى حكمه فيمن استهزأ بكتابه واستخف امره. . .» انظر ابن عرضون مقنع المحتاج في ادب الازواج. مخطوطة خ. ع. ك. 1026 . ص 127

(58) Villes et Tribus du Maroc, XI Azemmour p. 19

(59) اصبحت رجراجة تعرف بـ «برجراجة الاحرار» ونشير مرة أخرى الى اننا لم نقف على ما يثبت أن هذه القبيلة لعبت دورا أهم مما لعبته غيرها في مقاومة البرتغاليين.

(60) – C. De Castries: Les Sept patrons. Hesp 1924 pp. 252 – 258

(61) – E. Dermenghem: Le culte des Saints dans L'Islam maghrebin Gallimard 7ème édit p. 49

(62) عن اتفاقه مع البرتغاليين حول شروط توزيع الغنائم S. I. H. M. Port.II, p. 300 وعن قنص الرجال وبيعهم انظر B. Rodriguês – Anais... Op. Cité p. 327

(63) De Marmol... Op. Cité II, p. 116
De Góis... Op. Cité 281

(64) فضح الاسرى البرتغاليون مناورات الحاخام في رسالة الى الملك
S. I. H. M. Port.II, p. 323 – 324

(65) S. I. H. M. Port.II, p. 323

(66) Ibid III, p. 419

(68) S. I. H. M. Port.III, p. 417

(69) S. I. H. M. Port II, p. 359 – 60 وكان ما وصلنا عن هذه الاجراءات هو ما ورد في رسالة كاتب السلطان الى قبطان آسفي (شتنبر 1526) «. . . وكذلك جميع اليهود من أتا لمتاعه يأخذه، مولاي احمد نصره الله وعهده ما فيه تبديل ولا تغيير. وعن اسباب تراجع الاعرج امام ضغط القبطان انظر 392 من هذا البحث.

(70) توجد الوثيقة بدار الوثائق Torre do Tombo. doc. Arabes. M2, No 32 وعلق عليها (كولان S. G. Colin) في مقال عنوانه:
Des juifs nomades retrouvés dans le Sahara marocain au XVI Siècle In. Mélanges David Lopes. p. Cenival... Op. Cité pp. 54 – 64

(71) L. De Chênier... Op. Cité III, p. 37

(72) De Marmol... Op. Cité II, p. 109

(73) H. Terrasse. Histoire du Maroc II, p. 146

(74) اعتمدنا على مخطوطة سلمها لنا الأستاذ المنوني. اما المجموعتان المنشورتان فهما :

– De Castries: Les gnomes de Abderrahman Majdoub

– Scelles. Millie – Khalifa – Les quatrains de Sidi Abderrahman

(75)

أزمـــان يا عفريت المكسرنـــي من دراعي
هبطـــت من كان جيد أوطلعـــت من كان راعي
الفضـــة ولات نحاس والتـــوب اللي كان وافي عراني
اللفت ولات شحمة وتبـــاع بالســـوم الغالي
في القلـــوب ما بقـــات رحمة شوف حالي يالعالي

Scelles – Millie... Op. Cité p. 41

(76) السايلنـــي عن الغول الغـــول هو أبنا آدم
نوصيك يا وكل الراس في البـــير ترمـــي عظامه
الى تكون جالس مع الناس اعمـــل لفمـــك لجامه
الســـن يضحـــك للسن والقلـــب فيه الخديعا
هربـــت من دولـــة الرومي وجيت الى خوي المسلم
ضربنـــي وحقرني وزور علي بلا ما نظلم

De Castries... Gnomes... Op. Cité pp. 57, 58, 61, 66, 71

(77) حتـــى واحـــد ما غشاش كـــالمـــرأة والـــيهـــودي
بـــهـــت النســـا بـــهـــتـــين من بهتهـــم جيت هارب
يتحزمـــو باللفاع ويتخلـــو بالعقارب
سوق النســـا سوق مطيار يا داخـــل رد بالك
اوروك من الربـــح قنطار ويضيعـــو رأس مالك
بعينـــي شت لفقـــيره اتصلي وسبحتهـــا فوق الحصيرة
هي تخضـــع في راجلها وهـــو يقـــول مراة فقيرة

– De Castries... Les Gnomes... Op. Cité pp. 1, 5, 14

– Scelles – Millie... Op. Cité p. 41

(78) عن السود:

لا تمـن كحـل الرأس — عسى اللي كحـل كلو
الخـير ما يكن في الحر — احـرى من جده كناوى
الخ . . .

عن البرابرة:

الشلـح يا ورقـة الفت — يا قليل لوفـا في كلامه
تطبـخ من السبـت للسبت — ما تزول المرورة من طعامه
البرابـرة ما فيهـن معرفة — خلاطـين لحـم لغـزال معـا الجيفة
شهـادة الحـق يخبوها — وشهـادة الـزور يسلفوها

عن سكان الغرب:

الغـرب غدار — وينعـل ساكنيه
كيبيتـو الضـايف برا — ويخنـو له من عوينو

(79) بلغ السـلام لثونة — قل لها راني خماس وشابع برد الليالي
اربعـة لمول الزوجة — والخـامس راه عاد ديالي
يا محنتـي عد خماس — واتبـن عمـى عيوني

Scelles – Millie... Op. Cité p. 41

(80) S. I. H. M. Port. II p. 154

(81) Ibid II, p. 359 أرسل رسالة الى قبطان آسفي مؤ رخة في 17 شتنبر 1526 .

(82) De Sousa... Op. Cité p. 65

(83) ابن عسكر. . . دوحة الناشر. . . مصدر سابق ص ص 30 – 32

(84) B. Rosenberger... C. R. In. Hesp. Tam. 1971 p. 211 et n 4

(85) ابن عسكر. . . دوحة الناشر. . . مصدر سابق ص ص 77, 19

(86) عن وجود الاولياء في مقدمة الناس وقت الاستسقاء عد إلى ص 80 من المصدر السابق.

(87) عبد الله الهبطي. الالفية.

وعن ابن يجبش التازي: ابو بكر، البوخصيبي: اضواء على ابن يجبش التازي ـ البيضاء

1976 ص 123 وما بعدها.

(88) ابن عرضون: مقنع المحتاج في أدب الازواج... مصدر سابق ص ص 166,163 الخ.

(89) ابن عسكر... دوحة الناشر... مصدر سابق ص 125

ابن القاضي احمد... درة الحجال... مصدر سابق ج 1 ص ص 161,87

(90) ابن القاضي... درة الحجال... مصدر سابق ج 2 ص 398

ابن عسكر... الدوحة... مصدر سابق ص 79 «... كان هذا الشيخ (أبو الرواين) من عجائب الدهر على طريق الملامتية، يتكلم بكلام فاحش ويصبح غنيا ويمسي فقيرا لا يلوي على شيء...» وكتب عن علي بن أحمد الدوار الصنهاجي «... وكان بهلولا مجذوبا... تعتريه أحوال الجذب في كل حين، وليس له أهل ولا قرار يخبر بالمغيبات ويكاشف به من لقاه (كذا) - لا يلتفت الى مدح ولا ذم...»

(92) ذكر صاحب ابتهاج القلوب... مصدر سابق انه عاد الى دكالة وقت اندلاع مجاعة كبرى ليخدم على «أيتام هناك حتى جاوز بهم تلك المجاعة، فرجع الى عياله...» ورقة 10 ب.

(93) ممتع الاسماع... مصدر سابق ص 73

(94) ابتهاج القلوب... مصدر سابق ورقة 43 أ.

الخاتمة

تتبعت الدراسة مراحل ومظاهر تحكم البرتغاليين في دكالة، والوسائل التي سخروها لذلك، وأولينا خلال تحريرنا لفصول هذا البحث اهتماما كبيرا لثلاث نقط:

- غنى دكالة وتوفرها على مواد كانت حيوية بالنسبة للبرتغال.

- دور ذلك الغنى في توجيه السياسة البرتغالية ازاء المنطقة.

- مدى استفادة البرتغال من هذا التحكم وأثره على أوضاع المنطقة.

وتبين لنا من الفصول الاولى لهذا البحث غنى دكالة الناتج عن اتساع وخصوبة سهولها، وعن كثافة استغلالها. وتجلى ذلك الغنى في كثرة وتنوع منتجاتها، وفي رواج موانئها التجاري، وأخيرا في التحسن المهم الذي طرأ على مستوى معيشة سكانها.

وبينا كذلك أن ذلك الغنى تعزز خلال القرن الخامس عشر لكون دكالة كانت أكثر المناطق المغربية استفادة من الظرفية الاقتصادية التي خلقها الغزو البرتغالي للمغرب، ونزول البرتغاليين على طول سواحل غرب افريقيا. لقد أكد البحث كثيرا على استفادة موانيء دكالة من احتلال المدن الشمالية المغربية الذي حوّل نحو آسفي وأزمور جل الطرق التجارية الداخلية، وبين كذلك استفادتها الكبرى من تنظيم المبادلات التجارية بكل من أرغين ولامينا.

وانطلاقا من هذه الملاحظة، اكدنا على المكانة الجديدة التي أصبحت تحظى بها دكالة لدى الملك البرتغالي - أكبر تجار البرتغال، ومحتكر الانشطة التي تضمن أكبر

ربح - وذلك لكونها أصبحت مزودا مهما للبرتغال بمواد حيوية كانت الحبوب على رأسها، وأصبحت ضرورية لاستمرار الاستفادة من المبادلات التجارية بسواحل غرب افريقيا.

وأشرنا الى حرص الملك المبكر على التحكم في موانىء دكالة، وربطناه بالحاح البرتغاليين حين تفاوضهم مع الاسبان حَول توزيع مناطق النفوذ على ضم دكالة وأرغين داخل كتلة واحدة، وابعاد اسبانيا عنها.

واستخلصنا من دراسة مراحل غزو البرتغاليين لسواحل المغرب اختلاف المرحلة الشمالية عن الجنوبية من الناحية الزمنية، ومن ناحية الدوافع والوسائل المسخرة. فاذا طغى العامل الديني والاستراتيجي والعنف على المرحلة الشمالية، فاننا أكدنا على سيطرة العوامل الاقتصادية على المرحلة الجنوبية، وعلى حرص الملك، ومنذ البداية، على تفادي السياسة المتبعة بشمال المغرب، وعلى تفادي الاحتلال العسكري الذي كان يعلم أن نتيجته الحتمية ستكون هي القضاء على الرواج التجاري الذي كانت تعرفه موانيء دكالة، كبراها وصغراها، والذي كان البرتغال أكبر مستفيد منه. وبقي الملك ملتزما بهذه السياسة لمدة طويلة، وذلك رغم مرور البرتغاليين من مرحلتين مختلفتين مع دكالة.

فعن مرحلة ولاء آسفي وأزمور، أعطينا عدة أمثلة تؤكد تفادي الملك البرتغالي للاحتلال العسكري رغم أن أوضاع المدينتين كانت تسمح بذلك، وتؤكد امتناعه عن استغلال عدة فرص أتيحت له لاحتلال آسفي وأزمور. وبينا أنه اكتفى في الاولى بتوزيع الرشاوي، واغراء الاعيان، ثم بتنظيم انقلابات كلما حاول أحد القواد اعلان عصيانه، في حين اعتمد بأزمور في نهاية الامر على الامير زيان بعد تأكده من اصرار الازموريين على عدم العمل ببنود معاهدة 1486 .

وبين البحث كذلك أن قرار الملك القاضي باحتلال آسفي سنة 1508 ، لا يعبر عن تخلي الملك عن سياسته الاصلية بقدر ما يعبر عن حرصه على الاستمرار في تطبيقها والحيلولة دون فشلها. وتبين لنا كذلك أن محاولات البرتغاليين نشر نفوذهم على المناطق الداخلية لم تكن تهدف فقط الى الحصول على الاسرى والغنائم، بل كانت الغاية الاساسية هي احياء العلاقة التي كانت تربط آسفي بالبوادي الدكالية، وجعل حد لحالة الحصار التي ضربتها القبائل على المدينة، وأخيرا تمكين البرتغاليين من خيرات دكالة والمناطق المرتبطة بها.

ولم يكن الملك ينظر الى هذه العمليات العسكرية كغاية في حد ذاتها، بل كان يرى فيها مجرد وسيلة لارغام القبائل الدكالية على الرضوخ، وقبول ما عبر عنه «بالسلم البرتغالي»، أي تمكين البرتغال من طاقات المنطقة الانتاجية والاستهلاكية وذلك بأداء الضرائب وبالاقبال على سوق آسفي وأزمور. ولهذا كان الملك يعارض معارضة صارمة انتهاج سياسة الارض المحروقة واختطاف الرجال والانعام التي كان يحث على انتهاجها بالشمال وبالسوس. وأعطينا عدة أمثلة تؤكد تشبث الملك بهذه السياسة، وربطنا ذلك بحرصه على استغلال خيرات المنطقة، وتفادي كل ما يمكن ان يؤدي الى خرابها.

وهكذا لم يكن وجود مجموعة من العوامل التي سهلت كثيرا التوسع البرتغالي بالمناطق الداخلية بعد 1511 ، كالفراغ السياسي ووجود عدد من الاهالي اليهود والمسلمين هو ما املى على البرتغاليين نوع التنظيم المستحدث بالمنطقة، والسياسة التي عمل الملك البرتغالي على تطبيقها بدكالة، بل كان المخطط واضحا منذ بداية اهتمام المسؤولين البرتغاليين بالمنطقة. وهو الذي أوجد عملاء في مستوى يحيى أوتعفوفت.

ومن خلال تتبعنا للتنظيم الإداري الذي استحدثه البرتغاليون بالمنطقة، تبين لنا كذلك أن السماح للاعيان بسلط واسعة وباستفادة مادية مهمة كان يهدف الى اغرائهم

لدفع قبائلهم الى الاستمرار في خضوعها واقبالها على أسواق اسفي وأزمور، واداثها الضرائب للبرتغاليين.

واذا كان بعض المؤ رخين الاجانب قد تحدثوا عن حماية برتغالية على دكالة، وشبهوها بنظام الحماية الفرنسية على المغرب، فان البحث أشار الى أنهم ذهبوا مذهبا قصيا في ذلك.

وأكدنا كذلك على عدم تنفيذ القباطنة والعسكريين التعليمات الملكية التي بقيت حبرا على ورق، ولم تطبق الا في فترة جد قصيرة، وذلك بسبب تصرفات العسكريين المقيمين بالثغور الدكالية الذين كانوا يرون في تنفيذ السياسة الملكية مسا خطيرا بمصالحهم، وتقلصا مهما في مواردهم التي كانت الغنائم والاسرى أساسها. وهكذا نتج عن طيش تصرفات عسكريي الثغور تسرب الخراب الى دكالة بعد سنوات قليلة من تحكم البرتغاليين فيها.

وأوضحت هذه الدراسة كثرة اهتمام البرتغاليين بخيرات المنطقة ومحاولتهم استغلال كل ما يمكن أن يسد حاجة من حاجيات البرتغال، أو أن يسمح بربح ما. وكان استغلال خيرات دكالة يتم بطريقتين: الضرائب والشراء.

ففيما يخص الاولى أضاف البحث حقائق هامة عن التنظيم الجبائي البرتغالي بدكالة الى المعلومات التي أوردها المؤ رخ (كويش Góis)، والتي بينا عدم دقتها، وذلك اعتمادا على مصدر جديد عثرنا عليه بالارشيف البرتغالي، وقدر لهذا العمل أن يكون أول مستغل له.

وأوضحنا تنوع الضرائب وثقلها وافراط المكلفين بجبايتها في سرقة القبائل، كما بينا قلة استفادة البرتغاليين منها، الشيء الذي قد توحي المصادر البرتغالية بعكسه.

أما فيما يخص الشراء، فقد أورد البحث الكميات التي تم اقتناؤ ها. وبين أهمية دكالة كمزودة في ميدان الحبوب لكل الثغور المغربية المحتلة، وللبرتغال، ولمركز

أرغين التجاري، الذي كان البرتغاليون يعرضون به هذه المادة. وأولى البحث اهتماما خاصا للمبادلات التجارية التي كانت تعرفها موانيء الدكالية وقت احتلالها من طرف البرتغاليين، معتمدا في ذلك على مجموعة مهمة من الايصالات. واعتمادا على هذه الوثائق أكدنا على سيطرة المبادلات التي كانت تتم لفائدة الملك، وذلك رغم وجود عدد كبير من التجار الاحرار. وكان على رأس السلع المروجة بآسفي، الانسجة والمواد الخام الضرورية لانتاجها وصباغتها. وأكدنا كذلك على خسارة دكالة الكبرى من هذه المبادلات لكونها كانت مرغمة على تسليم مواد حيوية في كميات هائلة كالقمح والمواشي والاسرى مقابل توصلها بمواد كانت المنطقة كثيرة الانتاج لها كالانسجة، أو تافهة كالعقيق أو غير ضرورية كالتوابل.

وحاولنا تحديد فترات الرواج والركود التجاري خلال تحكم البرتغاليين في موانيء المنطقة. وأظهرت الايصالات أن استفادة البرتغاليين من تلك المبادلات لم تتعد بضع سنوات، وتم ذلك خلال فترتين قصيرتين، كانت الاولى قبل احتلال آسفي، وتمت الثانية بعد 1510 . ودخلت آسفي وأزمور بعد 1516 في فترة من الركود جد خانقة لم تعد تسمح بأدنى ربح، وأصبح على المدينتين أن تجلبا أقواتهما من البرتغال. وهكذا أكدنا على هذه الحقيقة المهمة، والمتجلية في قصر المدة التي استفاد البرتغاليون فيها من خيرات دكالة. وأرجع البحث قلة الاستفادة الى ثلاثة أسباب:

كان السبب الاول يكمن في نوع التحكم المفروض على المنطقة: لقد بينا أن وصول البرتغاليين الى مناطق جد بعيدة عن آسفي وأزمور لا يعني تحكمهم في المناطق التي تفصلها عن المدينتين، ذلك أن البرتغاليين لم يخوضوا حربا شاملة بالمنطقة بقصد التهدئة والسيطرة الترابية على المنطقة، بل كانوا يكتفون بغارات خاطفة كان أهم سلاح فيها هو عامل المفاجأة، وكان نجاحها رهينا بمشاركة القبائل «الحليفة» فيها. وكان تحكم البرتغاليين في تلك المناطق رهينا بالتزام القبائل بتعهداتها، لانهم كانوا عاجزين عن توزيع ثكنات عسكرية داخل تلك المناطق، وكانت الضمانة

الوحيدة التي يتوفرون عليها هي ارغام الاعيان على تسليم أبنائهم كرهائن. ولقد بين البحث أن ذلك لم يكن يمنعهم من اعلان عصيانهم.

وكان السبب الثاني يكمن في ردود الفعل التي سببها الغزو. وبخلاف ما ادعاه عدد كبير من المؤرخين الاجانب، بين البحث أن الدكاليين، أفرادا وجماعات، رفضوا، ومنذ البداية، الاستعمار البرتغالي؛ وواجهوه بعنف. وبين كذلك أن خضوعهم المؤقت، ومساهمة بعض القبائل في المجهود العسكري البرتغالي، كانا وليدي مجموعة من العوامل القاهرة، وأنه ما أن لاحت امكانية العصيان حتى بادرت القبائل الى ذلك.

وربط البحث هذا العصيان الجماعي بعد رضوخ مؤقت ببداية اهتمام الوطاسيين بالمنطقة منذ ربيع 1514 . ورغم الاخطاء السياسية التي ارتكبها الوطاسيون بالمنطقة، كان لهم الفضل في زعزعة المكتسبات البرتغالية، وتمكين القبائل من العصيان، وجعل حد بعد بداية العشرينات لما كان للبرتغاليين من نفوذ بالمنطقة.
وأعطى البحث أمثلة تعبر تعبيرا دقيقا عن مدى سرعة تقهقر النفوذ البرتغالي بدكالة بعد 1516 ، أي بعد خمس سنوات فقط من بداية نشر نفوذهم على دكالة. وبين البحث أنه لولا تصارع الوطاسيين والسعديين لتم التحرير قبل أكتوبر 1541 بعدة سنوات.

وكان السبب الثالث يكمن في تضارب مصالح الفئات المهتمة بالتوسع بدكالة، واختلاف تصورها للتحكم في المنطقة، ذلك التضارب الذي زاده حدة تحول الظرفية السياسية والاقتصادية داخل دكالة. وبما أن غاية الملك من التحكم في دكالة كانت تجارية فقط، فان تحول ثغورها الى مجرد ثكنات عسكرية لا تسمح بأي ربح جعل الملك يفكر مبكرا في التخلي عنها، وذلك منذ سنة 1529 . ولكن معارضة العسكريين أخرت تنفيذ القرار.

وحاول البحث تقويم نتائج الغزو البرتغالي، ذلك أن الدراسات كانت تكتفي بالاشارة الى «الخراب» الذي أحدثه ذلك الغزو. ولم نهتم فقط بالنتائج على المدى القصير، بل حاولنا تحديدها على المدى البعيد، والتأكيد على أثرها على تطور المنطقة اللاحق. وهكذا بينا مدى الخراب الذي ألحقه البرتغاليون بمدن وقرى المنطقة، وأكدنا على تراجع الانتاج الى مستوى جد خطير لم يعد يسمح ولو بسد حاجيات المزارع الذي أصبح منذ 1514 مرغما على شراء الحبوب، وكان يضطر الى ذلك أحيانا مباشرة بعد الحصاد. وبينا كذلك كيف أن حدة هذا النقص في الحبوب تزايدت مع مرور السنوات لتصل الى درجة جد خطيرة خلال مجاعة 1520 . وكان من أخطر نتائج الغزو تقلص أعداد سكان المنطقة بسبب الحروب والمجاعات والأوبئة (وباء الطاعون سنة 1521 مثلا) والهجرات اما الى مناطق مغربية أخرى، واما الى البرتغال. وكان لهذه الحروب والمجاعات، وما تولد عنها من مآسي، أثر على التشكيل الاجتماعي، وعلى عقلية الدكالي وعلاقته مع اخوانه في الدين، ومع اليهود والنصارى. كما كان لها أثر على مستواه الثقافي وعلى تصوره للحياة.

وألح البحث على حقيقة أخرى جد مهمة، وهي أن الغزو البرتغالي وما خلفه من نتائج ترك المنطقة على وضعية لم تعد تسمح لها بالانتعاش. ولهذا كانت آسفي وأزمور، والى نهاية الدولة السعدية، شبه فارغتين، وذلك رغم اهتمام هذه الدولة بهما. ولم تتحسن أحوال دكالة، وبقيت حبيسة الحلقة المفرغة التي أسقطها الغزو البرتغالي داخلها، ولم تستطع لا استرجاع طاقتها الانتاجية، ولا أعداد سكانها التي كانت متوفرة عليها قبل تعرضها للغزو البرتغالي. وعلى العكس من هذا، سقطت في تبعية خطيرة في ميدان الحبوب لمناطق كانت من قبل تستورد كميات مهمة من قمح دكالة. وربط البحث عجز المنطقة عن الانتعاش بعد مدة طويلة بفشل الدولة السعدية في ضمان الاستقرار السياسي الضروري لكل انتعاش اقتصادي وديموغرافي، وذلك لعجزها عن ضمان تعايش ما بينها وبين القبائل.

الملحق الأول :

سجل الضرائب البرتغالي :

fl 2. 1512 – 1510

To (Tributot) dos mouros de Oeres

Primeira ınte em tres dias de junho de bx annos vyeraom a esta cidade os mouros doers S. b. a e abedalla lacarye e buatulay moradores na dita aldea e fyzerom comcerto com Nuno frz capitaom e gouvernador em esta cidade de cafym por sasemta casas que avya no dito llugar e com os oficiaies de el rey noso sor os quaes peramte elle e com elles se obrigarom de dar quinhentos alqs de paom por este anno presente. S. trezenta alqs de paom por trygo e dozemtos de cevada q̀ vyeraom por casa a rezaom de cymquo alqs de trygo e tres alqs e quarta e hu terc̈o de c̈evada os quaes se obrigarom a pagar o dito paom por suas pagas e comecer llogo e tamto q̀ acabasem de debulhar acabassem de pagar e o dito nuno frs capitaom o segaron por ydas e vymdas e estadas em suas casas e elles prome terom de trazerem os nomes de todos os mouros do dito lugar das quaes casas se tornarom alevantar que no pagarom somete tremta e duas e saom estas q̀ se ao diamte seguem

(fl 2V, 30)

EN MARGE 113 – 14

clx alqs de to da

P. xbij alqs de c

fl 2v, fl 3) 32 noms

ضريبة مسلمي (قرية) ويرس

كان أول من اتى الى هذه المدينة مسلمو ويرس، (وذلك) يوم 3 يونيو 1510 : ب (كذا) وعبد الله العكاري و«بوعتولاي» الساكنين بالقرية المذكورة وعقدوا اتفاقية مع (ن. ف. دو. اتايد) القبطان والعامل على هذه المدينة، أسفي، وذلك باسم الستين (60) بيتا المكونين للمكان المذكور، وكذلك مع ضباط سيدنا الملك. وتعهدوا امامه وبمحضره بدفع خمسمائة (500) «الكير» من الحبوب عن هذه السنة: ثلاثمائة الكير من القمح ومائتين من الشعير مما يمثل بالنسبة لكل دار خمسة (5) الكير من القمح وثلاثة وربع وثلث من الشعير. وتعهدوا بدفع الحبوب المذكورة بانفسهم وبأن ينتهوا من ذلك في أقرب وقت يلي الحصاد، وصاحبوا القبطان ن.

فرنديش المذكور حين تحركاته ووقت اقامته بديارهم. كما تعهدوا بالاتيان باسماء كل مسلمي المكان المذكور. وامتنعت (بعض) هذه الدور عن الاداء (وادت) منها 32 فقط، وهي التالية:

- 32 اسما

بالهامش:

160 الكير من القمح

117 (؟) الكير من الشعير.

To de Mogrous.

Em cymquo dias de junho de qbx annos vyerom a esta čidade de čafim ahya tafu e amet obadella com outros premčipaes da quelles mouros em quamto fazeraom comčerto **cò nuno** frz de taide capitaom e gouvernador em esta čidade de cafim **cò** os oficiaes de el rey noso senhor os quaes mouros se obrigarom a pagar por este anno presete pr casa asy como pagarom os doers os quaes mouros fiquarom de fazer os paga memtos pr maneyra dos outros doers e asy fiquarom de trazerem os nomes de todos os mouradores e ho capitaom os segarom os segarom de vymdas e ydas e estadas em saus casas os quaes mouros q (–) com haya vyerom fa zer o comčerto saom estas .S. buadex e arox e mafomede analem e lačarym ogarmix e čaide mafomede

(–) mot rayé.

ضريبة «موكرس»

قدم الى مدينة آسفي هذه يوم 5 يونيو 1510 يحيى تفوفت (كذا) واحمد عبد الله صحبة اعيان آخرين من هؤلاء المسلمين لعقد اتفاقية مع (نونو. ف. دو. اتايد)، قبطان وعامل مدينة آسفي هذه وبحضور ضباط مولانا الملك. وتعهد هؤلاء المسلمون بأن يؤدوا عن هذه السنة الحالية وعن كل دار نفس ما يؤديه مسلمو (ويرس).كما قبل المسلمون المذكورون القيام بالاداء على نفس الشكل الذي يقوم به مسلمو (ويرس)، وقبلوا كذلك الاتيان باسماء كل السكان. ورافقوا القبطان اثناء

تحركاته واقامته بديارهم وكان هؤلاء المسلمون الذين صحبوا يحيى لعقد الاتفاقية هم الآتية اسماؤ هم: بعديش؟ عروش، محمد انليم (؟) ولا وسعيد محمد.

fl 4. **To do s moradores de çarnom.**

a casa de hayea tafu e ale seu filho
a abe de lazys seu filho cleimaom
seu cunhado macoude benaiça)).
bem navacra bazia me. j buyr bea azoum (')
hya çadeny o ganame.
liste de 77 noms.
fl4, 4V, 5, 5V, 6, 6V, 7.

دار يحيى تافو وعلي ابنه وعبد العزيز ابنه وسليمان صهره. لائحة تحتوي على 77 داراً.

fl 7v.

Comcerto de benjmagre

Em os treze dias de mayo de bxj annos fez comcerto nuno frz capitaom desta cidade semdo presemtes os oficiaes de el rey noso senhor mouros pmciaes de benymagre ssemdo presemtes .S. heyea otall e cidade mofamede azedor e quahuna haixar e arce com os sobre que esta anno presemte de bxj quatro cemtas quasas q̃ aom de pagar a ayto alqs de trigo por casa ou dezaseys de cevada por a medida de celeiro o quall pagameto faraom tamte

fl. 8

q acabarem de alevatar o paom das eirras os quaes se obrigarom por todos quatrolugares.S.porbencofre e ariga e etehemji e algamjze de o trazarem o deto pagamento demtro a ho celero e por sidade asenarom o deto comcerto

ضريبة بني ماكر

في يوم 13 ماي من سنة 511 (1511) عقد (نونو) (فرنديس) قبطان هذه المدينة، بحضور ضباط مولانا الملك مع اعيان بني ماكر المسلمين وبمحضر يحيى عطال (؟) وسيدي محمد ازدورو

واحسان (؟؟) حدوس وابراهيم ازيشر (؟)، وعقد مع المذكورين اتفاقية عن هذه السنة 511 الجارية بشأن اربعمائة منزل (400) اصبح عليها ان تدفع ثمانية (8) الكير من القمح عن كل منزل أو 16 من الشعير حسب مكيال مخزن الحبوب، على أن يدفعوا ذلك مباشرة بعد نهاية الدرس، وتعهد هؤلاء باسم الاماكن الاربعة كلها: بنوا سفر(؟) الريكا (؟) (انكا؟) وايت حمي والخميس، كما تعهدوا بحمل الاداء الى المخزن والمدينة وامضوا المعاهدة المذكورة.

fl 8

Tributo de tazarote:

Em trymta dias doitubro de bxj fezerom comčerto os mouros de tazarote presemte n. frz de taide semdo presemte n. gato contador e estevae dagujar feitor .S. fetah bulma abe deneby be celima e mafomede bena hačem e abedalla benecame axabuco e amar be hhacem be menj os quaes se obrygarom em cada hu anno a el rey noso sor por cada casa hum camelo de trigo o quall camello a de ser de cymcoemta xas maracoxis q saom vymte e cymquo alqs por a meda do debeiro e hum cavalo a com tetamete de capitaom e asy hu falcaom a quall pagua haom de fazer .S. a metade della da feitura desta quynze djas os quaes se obligarom loguo amadar as casas

e depois de terem este comčerto feito ouve amtre eles deferemča e ficou apartj do feto por quaremta casas e depois tornarom a comčertar e emtrar na paga do deto anno

as auaes casas saom estes

que se ao diamte segem

EN MARGE (1.18)

mjl alqs de trigo.

fl8v; 9v; 10. liste de 40 noms.

ضريبة تازروت

في يوم 30 اكتوبــر من سنـــة 510 عقــد مسلمــو تازروت اتفــاقية بمحضر (ن. ف. دو. أتايد) و(ن. دو. غطو) الكنتدورواستفاوودو اغياير، الفيطور. وتعهد فتاح بولة ، وعبد النبي بن سليان ومحمد بن الحسين وعبد الله بن حكم «أشابوكو» (؟) وعمار بن حسن بن منيع (؟) بان يدفعوا لمولانا الملك عن كل سنة وعن كل بيت حمل جمل من القمح الذي يجب أن يحتوي على خمسين (50) صاعا مراكشيا تعادل خمسة وعشرين (25) الكير حسب مكيال مخزن الحبوب، بالاضافة الى فرس يختاره القبطان وباز. ويجب أن يتـم نصف الاداء بعـد خمسـة عشر يومـا من عقـد هذه الاتفاقية. كما تعهدوا بعد ذلك بتسليم (قائمة) الدور. وبعد عقدهم لهذه الاتفاقية حدث بينهم خلاف فتنكر لها أربعون (40) بيتا عادوا بعد ذلك للتفـاوض بشـأن الاداء المتعلق بهذه السنة. وكانت الدور كالتالي: (لائحة تحتوي على أربعين اسما) بالهامش

1000 الكير من القمح.

40 اسما.

fl 11.

Tributo dazuz

nos vymte e oyto doituburo de bx anno presemte o capitaom No frz taide semdo presemtes o comtador e alvaro de taide e presemte... jorge da maya esprjvao dos comtos em a casa dos comtos os mouros daguz e dos castelleios e fezerom concerto com os sobre ditos tres castellos de darem em cada hum anno cem camelos

de paoms; oytemta de cevada e vymte de treguo e ysto avendo nos lugares cem casas e sobyemdo da deta copea pagarem soldo e ahura quamto se elhes mays montasse e se fossem menos pagarem soldo ahura menos e asy lhes prazia darem hum cavallo e hm falcaom a comtemtamemto do capitaom os quaes mouros que se obrj garom saom estes: abedalla ufete e ale bullfam e amar lcaros e hamete mouros moradores em aguz e nom deram arefeens

NB. en marge (1. 11 – 12 – 13)

ضريبة اكوز

في يوم 28 اكتوبر 1510 امضى مسلمو اكوز والحصون اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) وبمحضر الكنتدور، (أ. دو. أتايد) والمسؤ ول عن سجل الحسابات (جورج دمايا) وذلك «بدار الحسابات». (وتشمل الاتفاقية) الحصون الثلاثة السابقة الذكر التي ستدفع عن كل سنة مائة (100) حمل جمل من الحبوب ثمانين (80) منها من الشعير وعشرين (20) من القمح وذلك(1)

وقبلوا كذلك تسليم فرس وباز من اختيار القبطان. وكان المسلمون المتعاقدون هم عبد الله «الفيطو؟» وعلي بولفام؟ وعمار كروس؟ واحمد (وهم) المسلمون الساكنون بأكوز والذين لم يسلموا رهائن.

بالهامش

(13 – 12 – 2 – 1)

Tributo dayer edanamer

fl 12 ho **primeiro** dia de novembro de bx annos presemte o capitaom semdo presemte nuno gatto comtador e estevao da gujar feitor, jorge da maya escpivao dos comtos vyerom os mouros dayer e da namer .S. os de year se chamam xacoil ben barafa e alle ben mahamede e ben abedalla ziete os quaes se obrigarom de pagarem todos jumtamente deste anno de ben omze e diamte trymta alqueires de čevada por casa e mays de darem os ditos castellos mays e cada hum anno jumtamente hum cavallo e hum falcaom nebli pma ou saere (?) acomtemtameto do ca pitaom e este pagamemto sera tanto que recolherem esta novidade de paom somente a čevada como deto e por que o cavallo e falcaom há o capitaom por bem de lhe qujtar este anno de bxj por que dianamte lhe aom de pagar os quaes se obrygarom de fazer este pagamemte por ı estes lugares todos jumtos e cada hum por si

EN MARGE: (1. 21 – 22)

I iilx alqs

de cda

casas que se adiante se segueem.

43 noms. (fl 12, 12v, 13. 13v. 14.)

ضريبة ايرونامير

في يوم فاتح نونبر من سنة 510 أقبل مسلمو أيرونامير على القبطان بمحضر الكنتدور (نونو غاطو) والفيطور (أ. دو. اغيار) والمسؤ ول عن سجل الحسابات (غواغودا مايا) وكان مسلمو أيروهم: سيدي «رحمان» (شكوال؟) ابن ابراهيم وعلي بن محمد وابن عبد الزيات الذين تعهدوا جميعهم بأداء ابتداء من هذه السنة، 511، ثلاثين (30) الكير من الشعير عن كل بيت، بالاضافة الى اعطاء الحصون المذكورة وكذلك تسليم فرس وباز «نبلي» يختارهما القبطان كل سنة. وسيتم الاداء مباشرة بعد حصادهم لمحاصيل الموسم الحالي من الشعير فقطكما سبق ذكره (وذلك) لان القبطان تفضل باعفائهم هذه السنة من دفع الحصان والباز ولانه يجب عليهم بعد ذلك دفعهما. وتعهدوا بأداء القريتين معا وأن تؤدي كل واحدة ما عليها.

بالهامش

(22 - 21 - 1)

1210 الكير من الشعير

وهذه هي الدور: لائحة تحتوي على 29 اسما تتعلق بنامير 13 اسما آخر.

fl. 15.

Tributo dabyda

em xbiij djas do mês doituburo de bxi fezerom comcerto os principaes dabida com Nuno frz capitaom e governador desta cidade de cafim semdo presemte aya tafut com ho comtador e oficiaes os quaes saom estes que se ahi diamte segem

primeiramente acum e alle bezagater e abedera maon bem quetir e bem cerife e ganame bemalle e abraem bemnabu e xuarj alma galy e coleima bem nahaer e amar lagim boyda os quaes se obrijgarom de darem em cada hum anno de tributo a el rey noso sor sejs cemtos camelos de paom .S. quatro cemtos de triguo e dozemtos de cevada os quaes camelos aom de ser de cymquoemta ças maracoxis que saom vymte e cymquo alqueires a medita de celeiro e tres cavalos a co temtamemto do capitaom o qual triguo aom de pagar na ceifa com os

cavallos e pera ysto derom loguo seus fillros em arefens .S. o filho de acum que se chama se duyay e o filho de xuare al magaly que se chama murcu e o filho. de bem zarife que se chama ica e o filho de abederamao bem qujter que se chama maixor e o filho de boyda que se chama embareque e o filho de Zagater que se chama abu e o filho de... que se chama hya e o filho de amjr que se chama ma cor e o filho de araoo que se chama mafomede o qual comtrato foy feto em...
e esta em mao do comtador.
EN MARGE: (I. I7 – I8)
x alqs de triguo
b alqs de cevada

ضريبة عبدة

في يوم13 اكتوبر 511 عقد أعيان عبدة اتفاقية مع (ن. ف.)، قبطان وعامل مدينة آسفي هذه، بمحضر تافوفت والكنتدور والضباط. وكانوا (أي الاعيان) كالتالي:

حسون وعلي بن زغاتر؟ وعبد الرحمان بن كثير وبن الشريف وغانم بن علي وابراهيم بن عبو المغالي (؟) والشوارى (؟) وسليمان بن نهير (؟) وعمار الجيم بويد (؟) الذين تعهدوا بأن يدفعوا عن كل سنة ضريبة لمولانا الملك قيمتها(600) حمل جمل من الحبوب منها اربعمائة (400) من القمح ومائتين (200) من الشعير. ويجب أن يكون الحمل خمسين (50) صاعا مراكشيا تعادل 25 الكير حسب مكيال مخزن الحبوب، بالاضافة الى ثلاثة خيول يختارها القبطان ويجب دفع القمح مع الخيول بعد الحصاد. وسلموا بعد ذلك أبناءهم كرهائن: ابن حسون المسمى «دوياي» (؟) وابن الشوارى (؟) المغالي المسمى موسى وابن ابن الشريف المسمى عيسى وابن عبد الرحمان بن كثير المسمى ميسور وابن بيويد المسمى مبارك وابن زغاتر (؟) المسمى عبو وابن(1) المسمى يحيى وابن عامر المسمى منصور، وابن رحو المسمى محمد. تلك الاتفاقية التي تمت(2) والتي توجد بحوزة الكنتدور.

بالهامش:

(1–17–18–) 10 000 الكير من القمح، 5000 من الشعير.

(1) أسماء تصعب قراءتها

(2) فراغ

fl 16

Tributo dalmeĉuda

xb dias de dezemboro de bxj fezerom comçerto os dos castello dalmeçuda terra de xiatema com o capitaom semdo presentes haya tafut com o comtador e ofiçiaes com os premçipaes do deto castello; S; çide abraem e çide mafomede bem cimael e çide alle bulbaquar os quaes se obrygarom de pagarem em cada hum anno por casa xb alqueines de paom por medida de celeiro a metade de triguo e a metade de çevada os quaes derom por refens S; ale abu çaide seu filho c vymdo Mays casas mora das que ora escprivem se obrjigarom apa gar por a dita rezaom os moradores saom estes que segem.

(liste de 29 noms)

EN MARGE (I. III. 12, 13) iiij xxxb alqs

a metade triguo

a metade cevada

29 noms (fl 16, 16v, 17.)

ضريبة (حصن) «المصودة» (مزودة؟)

في يوم 15 دجنبر من 511 عقد (أعيان) حصن مزودة (؟) الموجودة بالشياظمة اتفاقية مع القبطان بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وعقد الاتفاقية) مع سيدي ابراهيم وسيدي محمد بن اسماعيل وسيدي علي بو بكر الـذين تعهـدوا بان يؤدوا عن كل بيت خمسة عشر (15) الكير من الحبوب سنويا حسب مكيال مخزن الحبوب، نصفها قمحا والنصف الثاني شعيرا. وأعطوا كرهائن علي بو سعيد ابنـه (كذا)، وتعهدوا بأداء نفس المقدار عن الدور المسكونة التي قد يظهر أنها لا توجد

ضمن القائمة. وكان السكان كالتالي: (لائحة تحتوي على 29 اسما)

الهامش 435 الكبير

نصفها من القمح والنصف الآخر من الشعير

ـ لائحة تضم 29 اسما.

fl. 18

Triburo dalcaraum

En xxbij dias de dezemboro de bxij fezerom comcerto os mouros dalcaraum com o capitaom Nuno frz de taide semdo presemte o comtador e haya tafut e ofeciaes com os prymc̈ipaes da dita vy lla .S. abraem bem c̈aide e danut bem namedalla e c̈aide benarbadaluc̈ar e abederamao bem c̈aide e embarque benale e alec̈em benahemede e muc̈a benamor e c̈aide benav̈er os quaes se obrjgarom de pager por casa xb alqueires de triguo ou trymta de c̈evada na c̈eifa e derom em arefens ale bemtaha gite filho arziz e que se mays casas viesem a morar que se pagarem por a dita rezaom e as casas que se abayxo seguem saom estas o quall contracto esta feito por mourisquo em mao de contador e asenado por elles

fl. 19v

EN MARGE I. 18. 19 :ix alqs deto liste de 41 noms (fl 18, 18v, 19, 19v.o

e mays entraom neste contrato dalcaum estas temdas dalarves que estaom de rador (?) do dito lugar que aom de pagar por a deta rezaom e a refem esta por temda (?) as quaes saom estes que se adiamte sege

19 noms. (fl 19v, 20, 20v)

ضريبة الكراون(؟)

في يوم 27 دجنبر من سنة 512 عقد مسلمو «الكراون» اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر الكنتدور ويحيى تافوفت والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان المدينة المذكورة: ابراهيم بن سعيد وداود بن عبد الله وسعيد بن (؟) وعبد الرحمان بن سعيد وامبارك بن علي والحسين بن أحمد وموسى بن عمور وسعيد بن ناصر الدين

(وتم ذلك) مع اعيان الحصن المذكور: ابراهيم بن منصور وابو زيد (؟) ابن موسى وحسن بن (؟) والحسن بن سعيد الذين تعهدوا بأن يؤ دوا ضريبة سنوية بعد الحصاد (مقدارها) خمسة عشر (15) الكيل من القمح عن كل دار أو ثلاثون من الشعير (30) واذا ما انضافت الى هذه الدور الآتي ذكرها دور أخرى تؤ دي نفس المقدار. والدور هي. وبقيت الاتفاقية المذكورة في حوزة الكنتدور بعد أن أمضوها وأعطوا كرهينة حسون بن عمار

لائحة تحتوى على 36 اسما

fl. 23.

Tributo dalguma dazonaga
tera de xiatima
que emtraom tres castelejos (?)

em iiij djas de yaneiro de bxiij fezerom comçerto os mouros dalguma com o capitaom nuno frz de taide presemte hya tafut e presemtes o comtador e oficiaes com os principaes da dita villa .S. caide de alu e embarque fode mafomede e alle filho de açem e abedehaque filho de queco e boadu filho de odardem (?) e açum filho boazy os quaes se obrjgarom de pa garem somariamente nove cemtos alqueires de tryguo ou mjll e oyto cemtos de çevada pagas na çeifa e derom em arefem a mafamode filho de embarque e as casas saom estas que se segem

Liste de 87 noms (23,23v, 24, 24v, 25, 25v, 26))

ضريبة الجمعة
بمنطقة الشياظمة التي تشمل ثلاثة حصون

في يوم 4 يناير من سنة 513 عقد مسلمو الجمعة مع القبطان (نونو. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان المدينة المذكورة وهم: سعيد أعلو وامبارك بن محمد وعلي بن حسن وعبد الحق ابن قسو(؟) وبو عدو (؟) ابن اوداردين و (؟) وحسن بن بوعزوز الذين تعهدوا بأن يؤ دوا ضريبة

تعهدوا بأن يدفعوا عن كل بيت خمسة عشر (15) الكير من القمح أو ثلاثين (30) من الشعير بعد الحصاد. وسلموا كرهينة علي ابن تحاجيت. واذا ما حدث ان ارتفع عدد الدور المسكونة فانها ستؤدي نفس المقدار. وكانت الدور كما يلي: وحررت هذه الاتفاقية الموجودة في حوزة الكنتدور بالعربية (؟) وامضوها

بالهامش (1-18-19)

900 الكير من القمح.

لائحة تحتوي على 41 اسما.

ومن جهة أخرى تشمل هذه الاتفاقية المتعلقة «بالكون» (كذا) تلك الخيام التابعة للعرب الموجودة حول المكان المذكور والتي يجب أن تؤدي نفس المقدار وأن تدفع رهينة عن كل خيمة (؟). وكانت كالتالي:

لائحة تحوي 19 اسما.

fl. 21.

Tributo de telemez e dartinama

a xxix djas de dezembre de bxij fezerom comčerto os mouros de tele mez e dartinana com ho capitaom Nuno frz de taide presemte aya tafut e presemte o comtador e oficiaes com os premcipaes do deto castello .S. abraem benančor e buzy be muča e ačem benäzigujim e alačem bemčajd os quaes se obrjgarom de pagarem de trebuto em cada hum anno na ceiffa a bx **alqueires** de triguo por casa ou **trynta** decevada e que se mays casas viersem que pagarjaom por a deta rezaom e as casas saom estas que se abaixo segem o quall comtrato fiqua em mao de comtador e asinado por elles e derom em arefem acum filho de amer

LISTE DE 36 NOMS (fl 21, 21V, 22, 22v)

ضريبة تلميس ورتنانة

وفي يوم 29 دجنبر 512 عقد مسلمو تلميس (تلميست؟) ورتنانة اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت وكذلك الكنتدور والضباط.

تصل في مجموعها الى (900) من القمح أو الف وثمانمائة (1800) من الشعير. (ويكون) الاداء بعد الحصاد. وأعطوا كرهينة عمار ل (؟) محمد بن امبارك. والدور هي التالية:

87 اسما.

FL. 27.

Tributo de tilimez de ayt cuty
S. tilimez eyfir ames

carazu atratoll os quaes lugares saom todos huma lynhajaem em xiatema em ho primeiro dia de janeiro de quinhentos e doze fezerom concerto os mouros de telmez e de ayt čutj entrando hy os detos lygares os a čima detos com o capitaom nuno frz de taide estamdo presemtes ayatafut e ho comtador e ofeči aes com hos primčipaes dos detos lugares S. yucefe filho de omar e ahaheya filho de mančor e muču filho de mahmede os quaes se obrigarem de trebuto em cada hum anno na ceifa mil e quinhentes alqueires de triguo ou tres mjll de čevada por a medida de čeleiro por estas cemto duas casas abaixo escprytas e derom em arefem ačaide filho de abedearaem os quaes cassas saom estes que segem.

Liste de 102 noms

(27, 27v? 28, 28v, 29, 29v, 30, 30v, 31)

ضريبة تاغميست من آيت سوطي (؟)

في يوم فاتح يناير 52 عقد مسلمو تلميس (؟) وآيت سوطي اتفاقية تشمل كذلك الاماكن المذكورة اعلاه، مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بحضر يحي تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع اعيان الاماكن المذكورة: يوسف بن عمر ويحي بن منصور وموسى بن محمد الذين تعهدوا بأداء ضريبة سنوية وقت الحصاد (مقدارها) الف وخمسمائة (1500) الكيل من القمح أو ثلاثة الآف (3000) من الشعير حسب مكيال المخزن (وذلك عن هذه المائة واثنين (102) من الدور المسجلة أسفله). كما أعطوا كرهينة سعيد ابن عبد الرحيم. وهذه الدور هي التالية:

102 اسم.

Trebuto de ĉuquuat de xiatima

en bj djas de mes de janeiro de bxij fezerom comĉerto os mouros de ĉuqujte com o capitom nuno frz de taide e estamdo presemtes aya tafut e o comtador e ofiĉiaes som os pricipaes do deto castelo S.. mafemede aĉem ora (?) e uuĉefe filho de azemede e azemede filho de yaya e buxima o fereiro os quaes se obrigarom de pagarem em cada hum anno na ĉeifa somariamente nove centos alqueires de triguo ou mill e eyto centos de ĉevada e derom em refem alle filho de boraz e as casas saem estes que se segem.

(65 noms: fl 32, 32v, 33, 33v, 34)

ضريبة سكياط بالشياظمة

في يوم 6 يناير من سنة 512 عقد مسلمو (سكياط) اتفاقية مع القبطان (ن ف. دو أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان الحصن المذكور: محمد حسن «أورا» (؟) ويوسف بن أحمد، وأحمد ابن يحيى وبوجمعة الحداد الذين تعهدوا بأن يؤدوا سنويا وقت الحصاد كمية تصل في مجموعها الى تسعمائة (900) الكيل من القمح أو ألف وثمانمائة (1800) الكيل من الشعير، وأعطوا كرهائن أبناء (أوابن) «بوكاس» (؟) والدور هي التالية:

لائحة تحوي 65 اسما.

fl. 35

Trebuto de Marcozo (sic) de xiatema

Em xdjas de mes de janeiro de bxij fezeram comĉerto. os mouros de lugar de **Marzoco** de xiatema com o capitaom Nuno frz de taide estamdo presemtes ya tafut e comtador e ofiĉiaes com os principaes de deto lugar S. abe dalla filho de azemede buaduz filho de laĉim e calle (?)

filho ycaa e lhacem filho de alle os quaes se obrigom de pagarem em cada hum anno de trebuto a el rej nosso senhor seis cemtos e cincoenta de triguo ou mjlle e trezemtos de cevada na ceifa e derom em arefem amafomede filho de hame o quall triguo pagaom somariamente por todos e as casas saom estes que se segem.

liste de 45 noms (35, 35v, 36, 36v)

ضريبة ماركوزو (كذا) بالشياظمة

في يوم 10 يناير من سنة 512 عقد مسلمو قرية ماركوزو الموجودة بالشياظمة اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان المكان المذكور: عبد الله بن أحمد، وبوعدوس (؟) بن لحسن وصالح (؟) بن عيسى والحسن بن علي الذين تعهدوا بأن يؤ دوا سنويا كضريبة لمولانا الملك ستمائة وخمسين (650) (الكيل) من القمح أو الف وثلاثمائة (1300) من الشعير، وذلك وقت الحصاد. واعطوا كرهينة محمد بن حام (؟). (ويجب أن يؤ دوا القمح المذكور جملة عنهم جميعا. والدور هي التالية:

45 اسما.

fl. 37

To de telete malule de wiatema
no rjo de maremer

Em doze djas do mes de janeiro de bxij fezerom comçerto os mouros de telete malula com o capitaom Nuno Frz de taide e com o cotador e ya tafut s. çaide filho de abedalla e azemede filho de, çaide e maçouda filho de azemede e leacam filho de mafomedeos quaesseobrigarom em cada hum. anno de darem de trebuto a el rej noso sor setecentos e cinquoenta alqueires de trigo ou mjll e quinhentos de çevada na çeifa e derom em arefem acom filho de amete e as casas estes que segem

liste de 51 noms (37, 37 v, 38, 38 v, 39,)

ضريبة ثلاثاء ملول بالشياظمة
على نهر مرامير

في يوم 12 يناير من سنة 512 عقد مسلمو ثلاثاء ملول اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو أتايد) ومع الكنتدور ويحيى تافوفت. (وتم ذلك) مع: سعيد بن عبد الله واحمد بن سعيد ومسعود بن احمد والحسن بن محمد الذين تعهدوا بدفع ضريبة سنوية لمولانا الملك (مقدارها) سبعمائة وخمسون (750) الكير من القمح أو الف وخمسمائة من الشعير (1500) ، (وذلك) وقت الحصاد. واعطوا كرهينة حسن بن احمد.
والدور هي التالية:

لائحة تحتوي على 51 اسما.

Fl.40

Trebuto dos aduares dazouaga
tera de xiatema

Em x djias de janeiro de bxij fizerom comcerto os alarves dazouaga tera de xiatema com o capitaom nuno frz de taide semdo presemte ayatafut e o comtador e ofeciaes S. amar filho de coleima e arazoco filho de ferez e coleimo filho de caide os quaes se obrjgaremna ceifa e cada hum anno por estes quatorze aduares abaixo **escriptos** a elrej noso sor cem camelos a metade de trigo a metade de cevada e derom e arefem amar filho de idade de treze annos os quaes aduares saom estes abaixo **escriptos**

14 'dours' (fl40,40v)

ضريبة دواوير زواغة والشياظمة

في يوم 10 يناير سنة 512 عقد عرب زواغة والشياظمة اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان الدواوير المذكورة: عماد بن سليمان، وززوق (؟) ابن فارس وسليمان بن عمر وناجي بن سالم وعلي بن سعيد الذين تعهدوا بأن يؤدوا سنوياً وقت الحصاد لمولانا الملك عن

تلك الاربعة عشر دواراً المسجلين أسفله مائة (100) حمل جمل نصفها من القمح والنصف الاخر من الشعير، وأعطوا كرهينة عمار بن علي البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة (13) والدواوير هي المسجلة أسفله.

14 ـ اسماً.

fl. 41

Trebuto das aduares de xialma albarahamia

Em xlx djas de fevereiro de bxij fezerom comčerto os mouros dos aduares de albaramja de xiatema com o capitaom nuno frz de taide semdo presemte ayatafut e ho comtador é ofeciaes com os principaes dos destos aduares S. mafamede filho de abedelmumen e yča filho de aytjmao e aydae filho de amer e čeide filho de alle filho de mafomede os quaes se obrjgarom de pagarem em cada hum anno na čeifa por estes cimquo adu ares abaixoescriptoscoremta ca mellos a metade de triguo a metsde de čevada e derem em arefem a mačoude filho de embarque e os adu ares saom estes que se segem.

5 douars. (fl. 41)

ضريبة دواوير(؟)

في يوم 19 فبراير من سنة 512 عقد مسلمو دواوير«البهرمية» (؟) بالشياظمة اتفاقية مع القبطان ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع أعيان الدواوير المذكورة: محمد بن عبد المومن وعيسى بن عثمان وحيضر بن عمار وسعيد بن علي وعلي بن محمد الذين تعهدوا بأن يؤ دوا سنوياً عند وقت الحصاد عن هذه الدواوير الخمسة المذكورة أسفله اربعين (40) (حمل) جمل نصفها قمحاً والنصف الاخر شعيراً. وأعطوا كرهينة مسعود بن امبارك والدواوير هي التالية: لائحة تحتوي على 5 دواوير.

fl 42.

Trebuto de xerquja alarves de duquella ule de ucefe

Em II dyas de fevereiro de bxij fezerom comcerto os mouros de ulede de ucefe com o capitaon nuno rez de tajde e haya tafyt e o contador e ofeciaes com os principaes dos ditos aduares .S. cide amjra e abedella filho de alle e aya beraem e mancor filho de omar e alle filho de mafomede e omar filho de brafome os quaes se obrjgarom de darem e pagarem em cada hum anno na ceifa dozemtos camellos de triguo majs hum cavallo a comtemtamento do capitaom e derom em **arefem** a ma fomede filho de haja benaer e amafomede e anacer filho de abedella e alle filho de biha (?) os aduares saom estes que se segem.

44 douars (42, 42v, 43, 43v)

item o aduar de çide amjra
item o aduar de amer filho de mezy
item o aduar de amar filho de caife
item o aduar de mafomede filho de buay
item o aduar de ale amfor
item o aduar dos filhos dal – faquara
item o aduar de abdella filho de alle
item o aduar de azemede filho de alle
item o aduar de durara
item o aduar de bjnjmaquar
item o aduar de bjnyhamer
item o aduar de ayiçe benaer
item o aduar de omar benaer
item o aduar de alle filho de çaide
item o aduar de iça filho de omar
item o aduar de llaçary
item o aduar de mafomede filho de brafome
item o aduar de corjama
item o aduar de çaide filho de brafome
item o aduar de lhaçem
item o aduar de alle filho de mafomede

item o aduar de mançor biga
item o aduar de bunjhamer
item o aduar de hane
item o aduar de çaide filho de omar
item o aduar dos fjlhos de çeleme
item o aduar de almenebiha
item o aduar dos fjlhos de iça
item o aduar dexoaviba com benjbaquar
item o aduar de byquaçeme e boma
item o aduar dos fjlhos dearanens (?)
item o aduar de çaide filho de alle
item o aduar de omar filho de alle
item o aduar de almarahja
item o aduar dos fjlhos de ganeme
item o aduar de yller
item o aduar de dos fjlhos de buanum
item o aduar de xoma
item o aduar de cabaz
item o aduar de iça filho de bubaquar
item o aduar de lanzer
item o aduar de çanum (?)
item o aduar de mafomede filho de omar
item o aduar de yça filho de alle com ellarabida

ضريبة (قبائل) الشرقية، عرب دكالة، (فرع) اولاد يوسف

في اليوم الثاني من فبراير من سنة 512 عقد مسلمو اولاد يوسف اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو أتايد) ويحيى تافوفت والكنتدور والضباط (وتم ذلك) مع اعيان الدواوير المذكورة: سيدي عميرة وعبد الله بن علي ويحيى بن ابراهيم ومنصور بن عمر وعلي بن محمد وعمر بن ابراهيم الذين تعهدوا بأن يدفعوا عن كل سنة في وقت الحصاد مائتي (200) (حمل) جمل من القمح بالاضافة الى فرس يختاره القبطان

واعطوا كرهائن محمد بن يحيي (؟)وبن ناصر (؟) ومحمد وناصر ابني عبد الله وعلي ابن بيها (؟) والدواوير هي التالية :

كذلك دوار سيدي عميرة

كذلك دوار عامر ابن مزى (؟)

كذلك دوار عمار ابن كيف (؟)

كذلك دوار محمد ابن بوزى (؟)

كذلك دوار علي انفور (؟)

كذلك دوار اولاد الفقرة

كذلك دوار عبد الله بن علي

كذلك دوار احمد (؟) بن علي

كذلك دوار دورارا (؟)

كذلك دوار بني ماكر (؟)

كذلك دوار بني عامر (؟)

كذلك دوار

كذلك دوار عمر ابن (؟)

كذلك دوار علي بن سعيد

كذلك دوار عيسى بن عمر

كذلك دوار لسارى (؟)

كذلك دوار محمد بن ابراهيم (؟)

كذلك دوار كورجاما (؟)

كذلك دوار سعيد بن ابراهيم (؟)

كذلك دوار لحسن

كذلك دوار علي بن محمد

كذلك دوار منصور بيغا (؟)

كذلك دوار بني حامر (؟)

كذلك دوار هاني (؟)

كذلك دوار سعيد بن عمر

كذلك دوار اولاد سلام

كذلك دوار المنابهة

كذلك دوار اولاد عيسى

كذلك دوار اولاد عيسى مع بني بكر

كذلك دوار بني قاسم وبوما (؟)

كذلك دوار اولاد (؟)

كذلك دوار سعيد ولد علي

كذلك دوار عمر بن علي

كذلك دوار المراهجة (؟)

كذلك دوار اولاد غانم

كذلك دوار يلر

كذلك دوار اولاد بوعنون (؟)

كذلك دوار شوما (؟)

كذلك دوار قباس (؟)

كذلك دوار عيسى بن بو بكر

كذلك دوار لنصر (؟)

كذلك دوار صانون (؟)

كذلك دوار محمد بن عمر

كذلك دوار عيسى بن علي مع العرابدة (؟)

Fl. 44

Tributo alhalez cabilda de ule zobet

Em xiiij djas de fevereiro debxij fezerom comčerto os mouros dalhalez cabilda de ule zobeta com o **capitao** nuno frz de taide estamdo presemte haya tafut e o comtador e ofeciaes com os principaes da deta cabillda .S. temj filho de amezede e abedalla filho de alle os quaes se obrjgarom de pagarem em cada hum anno na čeifa por estes sejs aduares abaixo nomeados trinta camelos de triguo e derom em refens amare filho de abe della os aduares saom estes que se seguem.

6 NOMS (fl 44)

ضريبة الهليز (؟) قبيلة اولاد سبيطة

في يوم 14 فبراير من سنة 512 عقد مسلمو «الهليز» فرع (من قبيلة) اولاد سبيطة اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع اعيان القبيلة المذكورة التهامي بن احمد وعبد الله بن علي اللذين تعهدا بأن يؤديا سنويا وقت الحصاد عن هذه الدواوير الستة (6) المذكورة اسفله ثلاثين (30) (حمل) جمل من القمح. واعطيا كرهينة عمار بن عبد الله. والدواوير هي التالية.

لائحة تحتوي على 6 أسماء

Fl 45

Trebuto da cabillda de čalali com celede duil, alarves da tera de tite

Em X djas de fevereiro de bxij annos fezerom comčerto os mouros da cabillda čalaj com ole duyl alarves da tera de tyte com o capitaom nuno frz taide estamdo presemtes haya tafut e ho contador e oficiaes com os precjpaes da dita cabillda mafomede filho de hačom e omar filho de učefe e bu mele e araall benate e omar filho de alle e llanj os quaes se obrjgarom de pagarem em cada anno de trebuto por estes vymte aduares a baixo nomeados čem camelos a metade de triguo a metade de čevada pagas na ceifas

19 dours (45, 45v.)

ضريبة قبيلة السلالي (؟)
مع أولاد دويل (كذا)، عرب منطقة تيط

في يوم 10 فبراير من سنة 512 عقد مسلمو قبيلة سلاليم وأولاد دويل من منطقة تيط اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط (وتم ذلك) مع أعيان القبيلة المذكورة محمد بن حسون وعمر بن يوسف وبومالي (؟) ورحال بن اتيم (؟) وعمر بن علي الهاني (؟) الذين تعهدوا بأن يؤدوا كضريبة سنوية عن هذه العشرين دوارا (20) المذكورة اسفله مائة (100) (حمل) جمل نصفها من القمح والآخر شعيرا (ويجب أن يكون) الاداء وقت الحصاد.
- 19 دوارا

fl. 46. To (1)

Em vymte djas de fevereiro de bxij annos fizeraom comcerto os mouros ulle de farazy e oley dabraem zobetos com ho capitaom no frz de taide sendo presemtes haya tafut e o comtador e oficaes com os prymcipaes na dita ca billda .S. ale bem faragj e ale bem tamj o torto e temj bem ferez e ahabraem filho dambraom e acob bem feriz os quaes se obrjgarom de pagarem em cada hum anno na ceifa de trebuto cem camelos de triguo e por este ano deram mays outros cem camelos por bem dos cativos que lhe deu o capitao e deram em arefens a ferez filho de alebentany de alebentany de ydade de dezasejs anos e azober bem ferez bem faragj de ydade de dezoito anos.

ضريبة اولاد فرج وأولاد ابراهيم (؟)،
فرع من أولاد سبيطة

في يوم 20 فبراير من سنة 512 عقد مسلمو أولاد فرجي (فرج) واولاد ابراهيم (؟) (فرع من) سبيطة اتفاقية بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط مع أعيان القبيلة المذكورة: علي ابن فرجي وعلي بن التهامي والتهامي بن فارس وابراهيم بن ابراهيم (؟) ويعقوب بن فارس الذين تعهدوا بأن يؤدوا كضريبة سنوية وقت الحصاد

مائة (100) (حمل) جمل من القمح عن هذه السنة وبأن يسلموا بالاضافة الى ذلك مائة (100) (حمل) جمل اخرى مقابل السجناء الذين ارجعهم القبطان اليهم. واعطوا كرهائن فارس بن علي بن التهامي البالغ من العمر ست عشرة سنة والزبير بن فارس بن فرجي البالغ من العمر ثماني عشرة سنة.

(1) عنوان لا يقرأ، ولكن الاتفاقية تفصح عن اسمي القبيلتين.

fl. 47.

Trebuto dole dambraom com os seus granes .S. garabja e xja e mle de haya e algarjz e bemtemj e asy os seus castellos S. tagaremte e aalzimaj e aljaberj e garamdo e tagarate dalfaquaja

Em o deradeiro dja de janeiro de bxij fjzerom comčerto os mouros doley dambraom da cabillda de hytallhalj com o capitaom nuno frz de taide semdo presemte haya tafut eho contador com os principaes da deta cabilldas S. alnar e dja e mačor bem nao ambrao e ame macullo e refuča e čalejma bem barao e bem mazo os quaes sobrjgarom de pagarem em cada hum anno de trebuto por os sobre detos castelos e alarves que e a (1) do com eles ačjma escriptos mjl e quatro centos camelos de paom .S. a mjl de triguo e qua tro centos de čevada e quatro cavalos a contentamento do capitaom .S. tres deles aom de dar os alarves e hum os barbaros e derom arefens a buiba (?) filho de dja e mafomede filho de raoo betudal e ayate filho de hagador filho de buadut e zoaraom filho de mačor filho de abraem e a mačouda filho de leačem bem zaguto

ضريبة اولاد عمران مع الغربية وشجعة واولاد يحيى والكريس (؟) وبن تمي (؟) وكذلك حصونها، تاكرانت وعلزيماي (؟) والجابري (؟) وكراندو وتاكرات.

في نهاية يناير من 512 عقد مسلمو اولاد ابراهيم من قبيلة «آيت علي» (أولاد

عمران الجنوبية) اتفاقية مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور. (وتم ذلك) مع اعيان القبيلة المذكورة: عنار (؟) و «ديا» ومنصور بن ابراهيم وعني مكولو (؟) ورفوس (؟) وسليمان بن ابراهيم وبن مازو (؟) الذين تعهدوا بأن يؤدوا ضريبة سنوية عن الحصون المذكورة اعلاه وعن العرب الذين ذكروا الى جانبهم أعلاه كذلك: الف واربعمائة (1400) (حمل) جمل من الحبوب منها الف (1000) من القمح واربعمائة (400) من الشعير واربعة خيول يختارها القبطان، ثلاثة منها يجب أن يدفعها العرب وواحد يدفعه البرابرة. واعطوا كرهائن: بوهيبة ابن «ديا» ومحمد بن سليمان بن مسعود وعلي بن رحو بتوداى (؟) وخياط (؟) ابن (؟) ابن بوعدوت (؟) وزعرون (؟) ابن منصور بن ابراهيم ومسعود بن لحسن ابن زكوطو.

Trebuto dalmedina da duquela

fl 48.

Em oyto dias do mes de marčo de quinhentos e doze fezerom comcerto os principaes mycemjayas da cidade dalmydina com o capitao nuno frz da tayde semdo presemtes hahya tafut e cotador e oficiaes .SS. os principaes mouros da dita cidade S. cide mafamede filho de abederrama e azmede filho de alhaehae e leacem amazot e mafamede filho de boamjda e ale zanzan e brafome filho de leacem e adux filho de boazii os quaes se obrjgarao de pagarem pola cidade e por tartel e por čayes o velho e por cayes o novo desta ceifa presemte de quinhentos e doze mjl camelos de pam duas partes de triguo e hua de cevada e dya diante se obrigarem de pagarem por casa hum teliz de cevada o qual teliz é meo camelo e o camelo ha de ser de cemquoenta čaâs maroquyčis e mays os direitos das portas – as quaes pagas se obrjgam de fazer baos estes que seguem – SS. cide mafamede ho omredo (?) e alezanzan e brafome filho de leacen e afmade filho de abedelaco e mafamede filho de abederama e filho de abederama e nacer filho de cayde benamor e cyde bolcačeme el hadary e abedla zogaram e ačem filho de brafem e voij e tayeb filho de brafem e ele abacal e ale amazoque (?) e mafamade

filho de boamjda e meyma amazdd filho amozod e cid mafamade filho de alheha e abedela e çayde filho de leacem ajana e hamede filho de abellazis e azmede filho de ale bem macoude filho de zarary e bulcaceme filho de e acem filho de ale e ale filho de omar e mamafamede (?) filho de sabeco (?) e abella filho de mafamede almazedare e muça valnar os quaes deram emarefem a abecerama filho de mafamede no omrado de ydade de vynte e oyto anos o qual era da cabilda de bennazir e da ca bilda de (sic) de benemelete deram a mafamede filho de azmede buyzy e dacabilda de benjtubaro deram o filho de meyma amazode de ydade desasejs anos e dacabilda de

ضريبة مدينة دكالة

في يوم 8 من شهر مارس من 1512 عقد اعيان مشنزاية الساكنين بالمدينـة مع القبطان (ن. ف. دو. أتايد) بمحضر يحيى تافوفت والكنتدور والضباط. (وتم ذلك) مع اعيان مسلمي المدينة المذكورة: سيدي محمد ابن عبد الرحمان واحمد بن يحيى ولحسن انجوت ومحمد بن بوحميدة وعلي زنان وابراهيم بن لحسن وحدوس بن بو عزيز، الذين تعهدوا بأن يؤدوا عن المدينة وعن (تارتير) وعن سايس القديم والجديد ابتداء من حصاد سنة 1512 الجارية: ألف (1000) حمل جمل من الحبوب قسمين منها قمحا والثالث شعيرا وتعهدوا بأداء «تليس» من الحبوب عن كل دار نصفه قمحا والآخر شعيرا. (ويجب أن يكون) «التليس» نصف «حمل» الجمل (وأن يكون) (حمل) الجمل خمسين (50) صاعا مراكشيا. وبالاضافة الى هذا (يجب أن) يدفعوا واجب المكوس. وتعهد الآتية اسماؤهم بأداء كل هذا: سيدي محمد الشريف وعلي زنزان وابراهيم بن لحسن وأحمد بن عبد الحق ومحمد بن عبد الرحمان و(1)

ابن عبد الرحمان وناصر ابن سعيد بن عمور وسيدي بن القاسم الحضري وعبد الله زكرام وحسن بن عبد الله وفوسيج (؟) والطيب بن ابراهيم وعلي البقال (؟) وعلي اعجوط (؟) ومحمد بن بو حيدة وميمون اعجوط ابن(1) اعجوط وسيدي محمد بن يحيى وعبد الله وسعيد ابن الحسن عجانة (؟) واحمد ابن عبد العزيز واحمد بن علي

بن مسعود ابن الجراري (؟) وبلقاسم بن[1] وحسن بن علي وعلي بن عمر ومحمد ابن الصديق (؟) وعبد الله بن محمد المزدار وموسى «فلنار» (؟) واعطوا كرهائن عبد الرحمان بن محمد الشريف البالغ من العمر ثمانية وعشرين سنة (28) وهو من قبيلة بناصر ومن قبيلة بني مليت (؟) (مالك) (؟) واعطوا محمد بن احمد بويزي من قبيلة بني توبارو (؟) واعطوا ابن ميمون امجوط البالغ من العمر ستة عشرة سنة ومن قبيلة بني حسان اعطوا سعيد ابن حدوس بن عزيز البالغ من العمر خمس عشرة سنة وبالاضافة الى ذلك اعطوا من القبيلة المذكورة ابن منصور امجوط المسمى محمد والبالغ من العمر اربع عشرة سنة ومن القبيلة المذكورة[1] ابن علي[1] البالغ من العمر خمس عشرة سنة.

(1) كتبت هذه الاسماء بشكل يحول دون ارجاعها الى اصلها.

Da pesquisa [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] de [illegible]

2 Diz [illegible] [illegible] de [illegible] de [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] de [illegible] [illegible] capitam [illegible] [illegible] [illegible] comendador e [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] e [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] e [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] e [illegible] [illegible] e [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] e [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] capitam e [illegible] e a [illegible]

2 o [illegible] de [illegible] [illegible]

1 o [illegible] de [illegible] [illegible]

1 o [illegible] de [illegible] [illegible]

2 o [illegible] de [illegible] [illegible]

1 o [illegible] de [illegible] [illegible]

2 o [illegible] de [illegible] [illegible]

الملحق الثاني:

الايصالات

الايصالات المتعلقة بآسفي: الايصال الاول. (1)

نعلن أننا كلفنا (رويس فرننديس R. Fernandes)، الفارس ببلاطنا، بفيطورية مدينة آسفي حيث خدمنا خمس سنوات ابتدأت في يوليوز من سنة 91 (2)، وانتهت في يونيو من سنة 95. وتبين من خلال سجلاته أنه توصل بالفيطورية بالأشياء التالية:

- من الاموال ما مجموعه 814250 ريال، ومن الدوبرات الآسفية 206794 و 6 «ثمن».
- من التبر: 1624 مثقال 2 ثمن.
- من الفضة: 1395 «مارك»، 5، 5 «ثمن». (3)
- من العبائن: 2455.
- من «الحياك»: 7477.
- من «الجلالب»: 12 220.
- من أثواب (أنطونا .Antona) (4): 105 ذراع.
- من أثواب لندن: 365 ذراع وربع.
- من الأثواب القرمزية: 51 ذراعاً وثلاثة أرباع.
- من الأثواب القرمزية: 29 ذراعاً وثلاثة أرباع.
- من «البردات»: 4316 قطعة.
- من (؟) Catin (5): 2 /1 24 ذراعاً.
- من الحرير المزخرف: 66 ذراعاً.
- من الأثواب الصوفية: 33 ذراعاً.
- Quartelhas de cores ؟ (6): 1498 ذراعاً.
- من أثواب (غالفي (7). Galvey) 928 لفيفة، 70 «فارا» ونصف.
- من الاثواب نصف هولندية: 66 «فارا»، 6 /5 «الفارا» (8).
- من أثواب بريطانيا: 9702 «فارا» وخمسة أسداس.

ـ من أثواب فرنسا: 1940 «فارا» وثلاثة أرباع.

ـ من الأثواب الخشنة المصنوعة من القنب: 2779 «فارا».

ـ من الزعفران: 60 رطلا 21 ليبرة 3 أواق.

ـ من الصمغ: 26 ق، 3 ربع، 33 رطلا.

ـ من القطن: 20 ق، 7 رطل.

ـ من القماش الخشن الفاتح اللون: 717 «فارا».

ـ من الزيت: 7 أطنان وقلة.

ـ صندوق.

ـ من القبعات: 538 «دزينة» وعشرة (6466)

ـ اناءان للحلاقة:
ـ موازين.

ـ من البسكويت: 14 ق.*

ـ قمصان من ثوب بريطاني: 50 .

ـ قبعة.

ـ دروع.

ـ اناء للعبادة.

ـ (؟) Casticaes : 2 .

ـ قدر معدني.

ـ صليب.

ـ حبات السبحة الزجاجية: 11 000 حبة.

ـ من الشمع: 58 ق* ،64 ليبرة.

ـ من الشعير: 5 مد.

ـ من الخيول: 27 .

ـ من النحاس: 28 ق، 90 ليبرة.

* ملاحظة: ق= قنطار

ـ من الكبريت: 328 ق، 2 ربع، 24 رطلا.
ـ من بسائط آسفي: 4 .
ـ من السماق: 2 /1 5 ربع.
ـ كتان للكنيسة.
ـ من التين المجفف: 197 قطعة وربعي المد.
ـ من حبات القرمز: 16 ق، 2 / 1 33 رطلا.
ـ قارورتي ماء للكنيسة.
ـ من gatos de algalea. : 1 .
ـ من القطران: 3 قلات.
ـ من بهار غينيا: 10 ق، 27 رطلا.
ـ من المكاييل الخشبية: 4 .
ـ من (؟) Obradera de Ostaes :1 .
ـ ومن حجر الشب: 27 ق، 1 ربع، 27 رطلا.
ـ ومن أواني الكنيسة: 1 .
ـ ببغاء.
ـ برنوس واحد.
ـ مجموعة أوزان فضية.
ـ ومن (؟) Panoss :1 .
ـ ومن الزبيب: 130 قطعة.
ـ كتان للحلاق.
ـ ومن البراميل الفارغة: 7 .
ـ ومن (؟) De retavolos pintados pera a capella; :1 .
ـ جرس صغير من الفضة.
ـ ومن الآلات المستعملة في نسج الحياك: 50 .

ـ ومن الطرطار: 23 ق، 1 ربع، 14 رطلا.

ـ ومن القمح: 49 مدا.

ـ ومن الخمر: 23 برميلا.

ـ ومن المكاييل التي تبلغ سعتها مدا واحدا: 18 .

ـ بذلة واحدة.

ـ انجيل واحد.

ـ ومن القضبان الحديدية: 16 ق، ربع واحد.

ـ ومن (؟) 400: Molhos de lirio في حزمة.

ـ ومن الصوف: 118 «تارسا»(9) .

ـ رمح ذهبي المقبض.

ـ ومن خشب البناء: 5 دزينة.

«وتوصل بكل هذه الاشياء والاموال السابقة الذكر من (دار لامينا) (. . .) » (تبرئة ذمته).

وحرر بلشبونة على يد (بيدرودا موطا .Pedro da Mota) يوم 4 فبراير 1502 .

---

(1) Arch. hist. port. V; PP325 — 26

(2) 1491 .

(3) عن قيمة هذه العملات والمكاييل والاوزان. أنظر ص ص293 - 295 من هذا البحث.

(4) كانت تجلب من ميناء Southampton الانجليزي. راجع ص 310 من هذا البحث.

(5) لم نستطع ترجمة هذه الكلمة رغم التجائنا الى عدد كبير من الذين يتكلمون البرتغالية.

(6) نفس الملاحظة.

(7) كانت هذه الاثواب ارلندية الصنع. راجع S. I. H. M. Port p 273 No 157

(8) من منطقة (بيكاردي .Picardie) الفرنسية: S.I.H.M. Port I P 45 n. 6 .

(9) عن وزن هذه الكمية راجع: ص 294 من هذا البحث.

الايصال الثاني (آسفي): 1 غشت 1495 / 15 فبراير 1498 .(1)

«العنوان (لوبو دا زفيدو L. D'Azevedo) الذي كان فيطور آسفي، ايصال.» دون امنويل. . . الخ. ليعلم كل من اطلع على هذه الرسالة أن (أفونصو دو فيفار Affonso de Vivar) المحاسب ببلاطنا، حاسب (لوبو دا زفيدو Lopo D'Azevedo) الفارس ببلاطنا، والذي كان فيطورنا بمدينتنا آسفي لمدة سنتين وسبعة أشهر ونصف، وذلك ما بين فاتح يوليوز من سنة 1495 و 15 فبراير عام 1498 . واعتمادا على سجل حساباته تبين أنه توصل ب:

- من الاموال: 97377 «دبلون»، 7 «ثمن» من عملة المدينة المذكورة.
- من القطن: 127 ق 3 ربع، 31 رطل.
- ومن اقمشة لندن وأنطونا: 51 .
- ومن العمائم الصوفية: 660 .
- ومن «العبائن» : 587 .
- ومن الحياك: 23 .
- ومن الحياك العادية: 7544 .
- مرساة (للسفن)
- ومن الحياك النصف ملونة: 44 .
- قلات القطران: 2 .
- ومن العبائن: 150
- ومن النيلة من النوع الجيد: 3 ق.
- ومن زرابي مراكش: 028 .
- ومن الكبار: قلتان.
- ومن البنادق مع الات لملئها بسرعة: 4 .
- ومن القضبان الحديدية: 3 .
- ومن الموازين: 6 ، منها خمسة نحاسية وواحدة خشبية.

ـ ومن الفؤ وس: 5 .

ـ وحبل طويل.

ـ ومن أثواب لندن الملونة: 125 ذراعاً.

ـ ومن الثوب القرمزي اللون: 33 ذراعاً.

ـ ومكيال خشبي من سعة: «الكير» .

ـ ومكيال خشبي من سعة نصف الكير .

ـ ومقياس طوله «فارا» واحدة وآخر طوله ذراع واحد.

ـ ومن الفضة: 213 مارك، 6 أواق و 6 «ثمن» للسكة.

ـ ومن البكارات: 4 .

ـ فؤ وس: 3 .

ـ قطع لوزن سبعة ربع ونصف، وأخرى لوزن 12 رطلاً حسب ما هو مستعمل بهذه الممالك (البرتغال): 10 .

ـ قطع للوزن مغربية من الحديد لوزن ستة ربع ونصف: 4 .

ـ مجموعة قطع للوزن وزنها 16 مارك.

ـ ومن عجلات العربات: 4 .

ـ وبريمتان.

ـ وصندوق توضع به الصدقات بالكنيسة.

ـ وغطاء للمعبد من صنع فرنسي طوله: 3 فارا.

ـ ومن Turcajemte (2) : 2 ق، ربع واحد

ـ ولباس.

ـ وقدور معدنية: 4 .

ـ ومن الاثواب (أنطونة Antona) : 201 ذراع وثلث.

ـ ومن الحنابل الحسنة المزركشة من المدينة(3) : 15 .

ـ ومن الحياك النصف ملونة: 505 .

ـ ونيلة أخرى: 9 ق، 3 ربع.

ـ ومن القبعات البربرية: 173 دزينة، 9 قبعة.

ـ وذراع للميزان من حديد.

ـ ومن الكبريت: 202 ق، أربع ونصف.

ـ ومن الأثواب القرمزية: 23 ذراعاً،ونصف.

ـ ومن الأثواب (برابنت .Brabant)(4): 725 فارا.

ـ ومن الاثواب الفرنسية: 722 فارا.

ـ ومن الاثواب نصف هولندية: 140 فارا.

ـ ومن الأمشاط البربرية: 2828 .

ـ ومن الأثواب التي لا تحمل اسما: 179ذراعاً،، وربع.

ـ ومن: Tarçall de presso : 3 ربع، 3 «أنزينة»(5)

ـ ومن الزعفران: 30 ليبرة، 5 أواق.

ـ ومن «الجلابيب»: 10460 .

ـ ومن مطارق الابواب: 6 .

ـ ومن قطع أثواب الحياك: 715 .

ـ ومن البردات: 4560 قطعة، 129 فارا.

ـ ومن القطع الصغيرة من الثوب المختلف الالوان: 588 .

ـ ومن علب العقيق الزجاجي: 20 تحوي كل واحدة ما يقرب من ألف حبة.

ـ ومن العقيق البلوري: 162400 .

ـ ومن قماش التلفيف: 67 فارا.

ـ ومن الثوب الحريري الأخضر: 22 ذراعاً.

ـ ومن ثوب (Damases) أخضر وأحمر: 15 ذراع.

ـ ومن حبات القرمز مع قشورها: 4 ق، 2 ربع، 6 رطل.

ـ ومن الصمغ: 2 ق، 1 ربع، 9 ليبرة، 5 أواق.

ـ ومن الكتان البريطانيّ: 23 فارا.

ـ ومن الرماح: 11 .

ـ ومن البهار الغيني: 8 ق، 1 ربع.

ـ رحى لشحذ السكاكين.

ـ ومن حجر الشب: 6 ق 2 1 1 ربع.

ـ منقر لنحت الحجارة.

ـ أثواب ارلندية: 843 لفيفة، 33 (Cana) (6)

ولقد أنفق بالفعل كل هذه القيمة: 377 97 دبلون و 7 ثمن، كما أنفق كل السلع السابقة الذكر، ولم يبق له ما ينفق. وأظهر قبل كل شيء أنه أحس التصرف، الشيء الذي تبين من مراجعة سجل حساباته بفيطوريتنا ثم بعد ذلك بمحضرنا. وزيادة على الأشياء السابقة الذكر تبين أنه أنفق بالاضافة لما بسجله السلع التالية:

ـ صندوق خشبي بمفتاحه.

ـ وتد حديدي كبير.

ـ 8 محاور حديدية للابواب.

ـ كأس فضية وزنها 2 مارك، أوقية، 4,5 ثمن.

ـ صليب نحاسي مذهب.

ـ شمعدان كبيران من النحاس.

ـ جرس نحاسي.

ـ رف خشبي.

ـ قماش يحمل بعض الصور يوضع بمقدمة المعبد.

ـ قارورتا خمر (للكنيسة) واناء للماء المقدس.

ـ 94 (Tareas) من الصوف(7) .

ـ كتاب

ـ مطرقة

ـ حجرة للمعبد.

ـ علبة صغيرة مع بعض الاوزان.

ـ قوس. . . الخ. (عبارات تبريء ذمته)

«وسلم بمدينتنا لشبونة في اليوم السابع من شهر ماي، سنة 1499 ، بعد مولد سيدنا المسيح، على يد (جوا دو بايروش).

---

(1) S. I. H. M. Port I, pp. 43 – 47

(2) لم نستطع تحديد نوعية هذه المادة.

(3) أي المدينة الغربية.

(4) راجع: S. I. H. M. Port I, p. 45 No 5.

(5) نفس ملاحظة الهامش الثاني.

(6) عن طول Cana راجع: S. I. H. M. Port I, p 46 No 9.

(7) عن هذه الكمية، راجع Ibid p. 47 No 1

الايصال الثالث: (آسفي) مؤرخ في سنة 1501 (1)

أمرنا اليوم بمراجعة حسابات (نونو فرننديش .N. Fernandes) . الفارس ببلاطنا، وفيطورنا بآسفي سابقا بشأن كل الاموال والفضة، والسلع والأشياء التي توصل بها وأنفقها حينما كان مكلفا بمهمة الفيطور. وحسب سجل حساباته تبين أن (نونو فرننديش) المذكور توصل بالأشياء التالية:

ـ من الاموال: 000 212 1 ريال كالتالي:

: 000 692 ريال من (ف. لورنسو F. Lourenço)، أمين صندوق وفيطور (دار لامينا).

: 000 520 ريال من (ل. منديش .L. Mendez) ، القابض سابقا بالفيطورة المذكورة.

: و 1734 كروزادو توصل بها كذلك من (ف. لورنسو.).

ـ ومن الفضة المسكوكة: 947 مارك، 7 أواق، وثمن وذلك كالتالي:

: 16 مارك، 5 أواق من (ج. انش .G. Annes) ، الفيطور سابقا بدار لامينا المذكورة.

: 838 مارك، أوقيتان، وثمن من (ف. لورنسو) المذكور.

: 52 مارك من (ل. منديس) المذكور.

: 41 مارك توصل بها بالشراء من نفس الشخص.

ـ ومن الصمغ: 34 ق، 3 ربع، 17 رطلا.

ـ ومن الأثواب الفرنسية: 367 15 فارا.

ـ ومن البردات: 616 .

ـ ومن الزيت: 20 طنا ونصف.

ـ ومن الخمر: 27 . برميلا.

ـ ومن الأثواب الملونة: 1198 قطعة، 709 فارا.

ـ ومن اثواب غالفي: 1361 لفيفة.

ـ ومن الورق: رزمتين.

ـ ومن فواكه «الغرب»: 1038 قطعة.

ـ ومن اثواب لندن: 2 /1 619 ذراعاً.

ـ ومن القماش القرمزي: 102 ذراع وثلثي الذراع.

ـ ومن العفصة (gualha)، 6 ق، 1 ربع، 20 ليبرة.

ـ ومن سماق الصباغين: قنطار.

ـ ومن القبعات: 1037 دزينة و 8 قبعات.

ـ ومن الاثواب المحلية: 629 فارا.

ـ ومن الابر: 440 18.

ـ ومن أثواب «أنطونا» (Antona) وبريستول (Bristol): 639 ذراعاً.

ـ ومن الحبال: 1270.

ـ ومن أثواب ابريطانيا: 379 16 فارا.

ـ ومن الحرير: 71 أوقية.

ـ ومن حجر الشب: 9 ق، 30 رطلا.

ـ ومن الطرطار: 17 ق، 2 ربع.

ـ 2 péças e mea de vésuatia.

ـ ومن أمقاص الخياطة: 4.

ـ ومن الفول والحمص: 20 الكير.

ـ ومن القطن: 83 ربع 18 رطلا.

ـ ومن Folha de linho canano.: 5 ق، 6 ربع.

ـ ومن الحياك الكبيرة(2): 632 7.

ـ ومن الحياك المتوسطة: 875.

ـ ومن الحياك الصغيرة: 274 1.

ـ ومن البرنوس: 19.

ـ ومن parees : 32 .

ـ ومن حنابل آسفي الجيدة: 17 .

ـ ومن حنابل وهران: 16 .

ـ ومن الصمغ: 70 ق.

ـ ومن الخيول: 4 .

ـ ومن النحاس: 1 344 ق، 2 ربع، 20 ليبرة.

ـ ومن النيلة: 14 ق.

ـ ومن السيوف: 7 .

ـ ومن الآلات المستعملة في النسيج (نول): 39 .

ـ ومن «الكرزيات»: 50 (3) .

ـ ومن الجلود المدبوغة: 145 .

ـ ومن جلود البقر: 16 .

ـ ومن الحديد: 133 ق.

ـ ومن أثواب فلورنسا: 73 ذراعاً.

ـ ومن القصدير: 2 ربع.

ـ ومن الأثواب الهولندية: 395 فارا.

ـ ومن أثواب (بربانت Barbante): 82 فارا وثلاثة أرباع الفارا.

ـ ومن الرصاص: 1 ق، 3 رطل.

ـ ومن Almixia : 1 .

ـ ومن ramal de alanbres : 1 .

ـ خيمة... (...تبرئة ذمته) وحرر بلشبونة يوم 26 غشت من سنة 1501

على يد (ألفارو. دا مايا. Alvaro da Maia)

---

(1) Arch. Hist. Port. IV p. 476.

(2) كتب خطأ بالوثيقة «الكيل»

(3) الكرزية: حزام من الصوف.

الايصال الرابع . **آسفي** : 15 فبراير 1498 نهاية شتنبر 1500 [1] .

«« أمرنا اليوم بمراجعة حسابات (نونو دو فريتاش .Nuno De Freitas) ، الفارس بلاطنا بشأن كل ما توصل به وأنفقه من 15 من شهر فبراير من سنة 98 .[2] الى نهاية شتنبر من سنة 500 ، حيث كان فيطورنا بمدينتنا آسفي. وظهر أنه توصل بالأشياء التالية :

ـ من الحنابل (.De Mazona) :854 منها 200 بها ثقوب (.Buracos)

ـ من الزرابي (De cores) :10 .

ـ من الحياك المحلوجة والملونة بالصمغ: 365 .

ـ من الحياك المحلوجة العادية : 119 .

ـ ومن الكسي (الحياك) : 1200 .

ـ ومن الكسي (الحياك) : 1096 .

ـ ومن الحياك : 822 .

ـ ومن «العبائن ـ الكسي .» : 6461 .

ـ ومن «الجلابيب: 3232 .

ـ ومن النيلة : 1 ق، 22,5 ليبرة.

ـ ومن القبعات : 11 دزينة.

ـ ومن الصوف : 30 (تاروا Taroas)

ـ ومن قطع (كوريش Cores) : 887 **قطعة و** 7 فارا.

ـ ومن رزمات حب القرمز: 1 ق.

ـ ومن الكبريت: 182 ق، 3 ربع.

ـ ومن البهار الغيني: 7 ق،1 ربع ، 24 رطلا.

ـ ومن حبات السبحة الزجاجية والبلورية: 170 000 .

ـ ومن حجر الشب: قنطار واحد، والجزء الحادي عشر من القنطار.

ــ ومن القطن غير المنظف: 127 ق، 3 ربع، 31 رطلا.
ــ ومن الكتان المستعمل للتلفيف: 8,5 فارا.
ــ ومن «الكرزيات» الصوفية: beas 2,5
ــ ومن أثواب (أنطونا .Antona) : 65 ذراعاً وثلثين.
ــ ومن أثواب لندن المتنوعة: 604 ذراع، 11 "Dozaaos"
ــ ومن ثوب «الستان» الأخضر: 12 ذراعاً وثلاثة أرباع الذراع.
ــ ومن البردات: 3731 قطعة.
ــ ومن لفائف (غالفي .Galvey) 310 قطعة.
ــ ومن أثواب (بربانت Barbante) :107 فارا وثلاثة أرباع الفارا.
ــ ومن الاثواب الفرنسية، ومن فرنسا (كذا): 669 فارا.
ــ ومن الصمغ: 19 ق، 3 ربع، 19 رطلا.
ــ ومن مجلدات كتب: 50 .
ــ ومن الفضة المسكوكة: 40 مارك.
ــ ومن قطع (.Ostodylhas) : 7 .
ــ رزمتين من الورق.
ــ Sevo – coado o pisado : 28 ق، 3 ربع وثلاثة أرباع الربع.
ــ ومن الاثواب (Zyochees) : 826 ذراع.
ــ ومن .Abafor em pao : 7,5 قنطار.
ــ ومن الكسي ألاخرى المساة (.Re joames) :6 قطع.
ــ ومن القدور النحاسية: 4 .
ــ موازين كبيرة من الخشب مع أذرعها الحديدية.
ــ ومن القطع الحديدية للوزن مستعملة بهذه الممالك وبمدينة آسفي: 10 .
ــ ومن قطع الوزن الاسلامية: 06
ــ كفتي ميزان معدنيتين مع ذراع حديدية.

ـ ثلاثة قضبان حديدية.

ـ ومن الفؤوس والمعاول: 8 .

ـ بريمتان.

ـ حبل غليظ ومستعمل (لرفع الصارية) من الكتان

ـ ثلاثة موازين صغيرة.

ـ مجموعة قطع حديدية تزن: 16 مارك.

ـ أربعة قاذفات نبال فولاذية مع آلتين لملئها بسرعة.

ـ ومن الرماح: 6 .

ـ وجدع خشب مع أربعة كراسي.

ـ وكأس فضية مذهبة من الداخل والخارج مع طبقه يزن 2 مارك وأوقية و 4 ثمن.

ـ ولباسان واحد أسود مصنوع من الصوف أو الحرير أو الصوف، والآخر من ستان أزرق.

ـ ومن 1: Retavollo pentado de images .

ـ وحجرة توضع داخل الكنيسة.

ـ وصليب من حديد مذهب.

ـ ومنديلان للكنيسة من نسيج فرنسي به صور.

ـ وكتاب القداس مجلد.

ـ ومن القطارات: 2 .

ـ ومن الشمعدان: 2 . من القصدير.

ـ وجرس صغير.

ـ و: 1: Porta paz de latam .

ـ وقدرة معدنية لتسخين الماء المقدس.

ـ ستار من الكتان حواشيه صوفية للكنيسة.

الايصال الخامس (آسفي).[1]

««نأمر الآن (براش لويش .Bras Luis) «كنتدور بلاطنا بمراجعة حسابات (روي فرنديس دي الميدا .Ruy .F. De Almada) المتعلقة بكل ما توصل به وأنفقه خلال المدة التي قضاها كفيطور بآسفي. وبعد مراجعة السجل المذكور، تبين أنه توصل من (فرنام لورنصو . F. Lourenço) أمين صندوق «وفيطور غينيا والهند، وكذلك من (بيرو منديس .P. Mendez) الذي كان «فيطور آسفي بما يلي:

ـ من الصمغ: 140 ق، 3 ربع.

ـ ومن .2: Majam ق، 2,5 ربع.

ـ ومن قطع .36: Cardoes .

ـ ومن حبات السبحة الزجاجية: 977 000 .

ـ ومن الكتان: 2470,5 «فارا».

ـ ومن القرفة: 3 ربع.

ـ ومن الزنجبيل: 1 قنطار.

ـ ومن البهار: 1 . ق.

ـ ومن أثواب لندن: 237,5 ذراعاً.

ـ ومن النسيج الحريري الصقيل: 285 ذراعاً وثلث.

ـ ومن الحنابل: 101 .

ـ ومن الاساور: 10 ق.

ـ ومن الاموال: 871 716 ريال تمثل مبيعات السلع المذكورة ومداخيل أخرى. (. . . تبرئة ذمته) وحرر بلشبونة على يد(ألفارو دامايا .A. DA. Maia)يوم 27 يونيو من سنة 1504 .

---

(1) Arch. Hist. Port. V. p. 326

ـ صندوق تجمع به أدوات الكنيسة الصغيرة.

ـ مرساة حديدية كبيرة.

ـ ومن الزعفران ثاني (كذا) : 28 ليبرة، 2,5 ليبرة.

ـ ومن الاموال: 886 79 دوبرة وثمنين من عملة مدينة آسفي المذكورة.

وكذلك أشياء أخرى كثيرة سجلت بكل تفصيل بسجله المذكور. . . (تبرئه ذمته. . .) وحرر بلشبونة يوم 15 دجنبر من سنة 1501 ، على يد (ج. دو. باروش (G.De. Barros

---

(1): Arch. Hist. Port IV. p. 477.

(2): 1498 و 1500 .

الايصال السادس (آسفي): 1508 / 1510 (1) .

نأمر الآن بمراجعة حسابات (إ. غونسلفيس E. Gonçalvés) ، فيطور آسفي سابقا لمدة سبعة عشر شهرا أشرف خلالها على الفيطورية المذكورة، والمدة كالتالي: من غشت من سنة 508 (2) الى يناير 510 . وتبين من خلال مراجعة سجلاته أنه توصل:

- من الاموال خلال المدة المذكورة: 654 490 5 ريال.
- ومن الصمغ: 96 ق، 1 ربع، 9 رطل وثلاثة أرباع الرطل.
- ومن العقيق: 4 ق، 20 رطلا.
- ومن الجواهر: 3 مارك، 6 أواق، 3 ثمن.
- ومن القرنفل: 5 ربع، 29,5 رطلا، 3 أواق.
- ومن النحاس: 54 ق، 1 رطل.
- ومن الفضة: 217 مارك، 2 / 1 أوقية، 18 حبة.
- ومن البهار: 4 ق، 1,5 رطل.
- ومن حجر الشب: 71,5 ق، 29 رطلا، وثلاثة أرباع الرطل.
- ومن أثواب (كنتادو .Cantado) 1076 ذراع، 11 (.dozavos)
- ومن أثواب (غالفي .Galvey): 117 لفيفة.
- ومن نفس الثوب: 226 «فارا».
- ومن بهار غينيا: 4 ق، 22,5 رطلا.
- ومن الكتان: 700 فارا.

ولقد أنفق 654 490 5 ريال كلها، ولم يبق بحوزته شيء من السلع السابقة الذكر، وذلك بتسليمها (لغيره من الوكلاء التجاريين) من تلقاء نفسه أو بعد أمر صادر عنا.

وحرر بلشبونة يوم 13 يناير من سنة 1512 ، على يد (جورج دياز .J. Diaz)

الايصال السابع (آسفي) 1508 - 1514 [1] .

نأمر الآن بمحاسبة (باستيان لوبش B. Lopez) ، الفارس ببلاطنا ، «والمشرف» سابقا على المؤونة والمخازن بمدينتنا آسفي بشأن ما توصل به من الأموال والأشياء وما أنفقه ما بين سنة 508 (كذا) الى سنة 514 . وهي كالتالي كما تبين من سجله :

- من الأموال: 786 530 ريال.
- ومن الأرز: 75 ق.
- ومن الزيت :5 قلات.
- ومن الجراب: 30 .
- ومن البسكويت: 4949 ق، 10 رطل.
- ومن الحبال: 2 368 لفيفة مستديرة على شكل عجلة.
- ومن البغال والخيول: 2 .
- ومن الأبقار: 44 .
- ومن القبعات المستديرة: 144 .
- ومن الدروع :76 .
- ومن الرصاص :8 ق.
- ومن الرماح القصيرة :66 .
- ومن لحم البقر:600 ربع، 13 رطلا.
- ومنه كذلك: 10 أرباع.
- ومن لحم الغنم: 8 ربع.
- ومن أماكن وضع المتفجرات بالمدافع: 241 .
- ومن القبعات: 15 .
- ومن الشعير: 700 مد، 13 الكير .
- ومن جلود البقر: 118 .
- ومن الكبريت: 6 ق.

ـ ومن البنادق: 50 .

ـ ومن التين: 326 «قطعة».

ـ ومن الرماح: 2337 .

ـ ومن الصوف: 31 (طارسا . Tarças ،) .

ـ ومن البراميل الفارغة: 48 وربع (كذا) .

ـ ومن البارود: 23 ق، 2 ربع، 31 رطلا .

ـ ومنه كذلك: 33 برميلا ونصف .

ـ ومن الرماح القصيرة: 196 .

ـ ومن 148: Piastroes .

ـ ومن المطارق: 19 .

ـ ومن 3472: Pilouros de tiros .

ـ ومن السردين: 22 برميل، «بوطة؟» واحدة .

ـ ومن ملح البارود المصفى: 10 ق،

ـ ومن الأكياس: 364 .

ـ ومن السهام: 18 456 .

ـ ومن قاذفات المدافع المتنوعة: 86 .

ـ ومن القمح: 1539 ق، 31 الكير .

ـ ومن الخمر 62 برميلا

ـ ومن حجارة المدافع: 13 .(Pedras de bombardas)

ـ ومن المدافع: 2 .

وأشياء أخرى كثيرة ومختلفة لم نذكرها هنا . . . (تبرئة ذمته .) وحرر يوم 30 يوليوز من سنة 1513 ، على يد (أندري رودريغيس . A. Rodriguez) وتوصل ب 786 530 ريال على الشكل التالي :

ـ 240 383 حصل عليها بنفسه ببيع بعض الأشياء .

ـ 290 783 ريال (الصواب: 290 753) حصل عليها خلال المدة من

الأشخاص الآتية أسماؤهم:

: (من جورج دا مايا .J. da Maya) 30 000 ريال.

: ومن (أ. أغيار .E. de Aguiar) 58000 ريال.

: ومن (إ. غونسلفيس E. Gonçelvés) 665290 ريال.

وتوصل بـ 700 مد 31 الكير من الشعير المذكور من هؤلاء الأشخاص، وذلك كالتالي:

ـ من (رودريغو مركيش R. Marquez)، الساكن بماديرا، 146 مد.

ـ ومن (أ. فاس A. Vaz)، فيطور «دار سبتة»(2) 28 مدا.(3)

ـ ومن المسلمين (الدكاليين) كضرائب: 86 مدا، 58 الكير.

ـ ومن القمح: 1 539 مد، 31 الكير، وذلك كالتالي:

ـ من (أ. سالغادو A. Salgado) 50 مدا.

ـ ومن (ج. لوبيش .J. Lopez)18 مدا، 32 الكير.

ـ ومن (ج. م. كوريا .J. M. Correa) 32 مدا، 58 الكير.

ـ ومن نفس الشخص: 5 مد، 56 الكير.

ـ ومن المشرف على خزائن الحبوب (بالبرتغال) (د. دياس .D. Diaz) 34 مدا، 44 الكير.

ـ ومن اسحاق بن زميرو التاجر اليهودي: 38 مدا، 8 الكير.

ـ ومن (غ. دو سكيرا G. de Sequèira) أمين صندوق «دار سبتة» 160 مدا.

ـ ومن (أ. فاس A. Vaz) كذلك: 658 مدا، 52 الكير.

ـ ومن (أ. أليفيرا .A. Olvèira) فيطور شؤ ون افريقيا: 150 مد.

ـ ومن (أ. دو أغوار E. de Aguiar)354 مدا، 23 الكير.

ـ ومن نفس الشخص: مد واحد، 50 الكير.

ـ ومن (ل. منديس L. Mendez) 6 مد، 29 الكير.

ـ ومن (أ. تنوكو A. Tinoco) 12 مدا، 57 الكير.

ـ ومن (ج. دو لشبونة J. De Lixboa) : 12 مدا، 16 الكير.

ـ ومن نفس الشخص : 3 مد، 26 الكير، وهو ما دفعه المسلمون.

---

(1) Arch. Hist Port. V. pp 473 - 474.

(2) مصلحة مختصة في تموين الثغور بالحبوب والزاد.

(3) لاحظ الناشر أنه وقع تخطي بعض الارقام هنا.

الايصال الثامن (آسفي) يونيو -1510 - يوليوز 1512 .(1)

«نأمر الآن بمحاسبة (إستيفم دو أغيار غوريزو .E. de Aguiar Gorizo) الفارس ببلاطنا بشأن كل ما توصل به بفيطوريتنا وجمارك مدينتنا آسفي، التي كلفناه بها لمدة سنتين وشهرين ابتدأت من فاتح يونيو 510 (كذا)، وانتهت آخر يوليوز من سنة 512 . وتبين أنه توصل خلال المدة المذكورة بما يلي:

ـ من الأموال: 660 856 14 ريال وذلك كالتالي:

: 896 505 . ريال من (د. ف. دوكابـــرال .D. M. Cabral) راُهب كنيستنا.

: 000 800 ريال من (ر. غوميس .R. Gomès) أمـين صنـدوق «دار لامينا»

: 000 730 2 ريال من (أ. فاس .A. Vaz) المحصل بدار سبتة.

: 500 19 ريال من (ا. غونصلفيس E. Gonçalvés) المرشد الديني لاحدى السفن.

: 574 85 ريال من ورثة (ج. دولشبونة .Lixboa) المشرف على المؤونة والمخازن سابقا.

: 416 568 واجب الجمارك بالمدينة المذكورة، خلال المدة المذكورة.

: 075 200 9 ريال، ثمن بيع بعض السلع، وتحويل الفضة الى عملة.

: 000 11 ريال نصيب جنديين من غنائم غارة توفيا خلالها.

ـ ومن الصمغ: 272 ق، 1 ربع، 1 رطل وثلاثة أرباع الرطل.

الاسود منه: 167 ق، 1 ربع، 19 رطلا، وثلاثة أرباع الرطل.

الأحمر منه: 107 ق، 2 ربع، 14 رطلا.

وتسليم هذه المقادير كالتالي:

: 18 ق، 1 ربع، 17 رطلا من (ر. غوميس .R. Gomès) السابق الذكر.

: 9 ق، 2 ربع، 22 رطلا من (أ. غونسلفيس E. Gonçalvés) فيطورها

السابق.

: 35 ق، 16 رطلا ونصف من (أ. سالغادو .Salgado) أمين توابل «دار الهند»

: 209 ق، 10 رطلا من (ج. دوسا .De Sa) أمين توابل «دار الهند»

ـ ومن البهار الهندي: 6 ق، 1 ربع، 22 رطلا ونصف وذلك كالتالي:

: 1 ربع، 22 رطلا ونصف من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر.

: 6 ق، من (أ. سالغادو .Salgado) السابق الذكر.

ـ ومن البهار الغيني: 4 ق، 1 ربع، 20 رطلا من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر

ـ ومن القرنفل: 7 ق، 1 ربع، 5,5 رطل، وذلك كالتالي:

: 1 ق، 1 ربع، 8,5 رطل من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر.

: 5 ق، 3 ربع، 29 رطلا من (أ. سالغادو) السابق الذكر.

ـ ومن العقيق 16 ق، 22 رطلا وذلك كالتالي:

: 13 ربع، 14,5 رطلا من (ر. غوميس) السابق الذكر.

: 3 ق، 3 ربع، 18,5 رطلا من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر.

1 ق، 2 ربع من (أ. سالغادو) السابق الذكر.

: 9 ق، 3 ربع، 21 رطلا ونصف من (ج. دوسا)

ـ ومن النحاس: 58 ق، 29 رطلا ونصف على شكل صفائح من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر.

ـ ومن الحنابل الجيدة: 2 من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر.

ومن الجواهر: 14 مارك، 6 أواق، 7,5 ثمن منها:

: 7 أواق وثمن ونصف من (أ. غونسلفيس) السابق الذكر:

: 14 مارك، 7 أواق، 6 ثمن من (أ. دو سالغادو) السابق الذكر.

: ومن القرفة: 2 ربع.

ـ ومن الزنجبيل: 2 ق، 1 ربع من (أ. دو سالغادو).

ـ ومن القماش القطني المصنوع بالهند: 20 .

ـ ومن البردات العادية: 237 6 قطعة منها 26 25 جيدة (كذا) وتوصل بها على الشكل التالي:

5 236: قطعة من (ن. ربيرو N. Ribièro) ، فيطورنا بالاندلس.

1 000: قطعة من (ر. غوميس .R. Gomés) .

ـ ومن 9000: balandres de Londres من (ر . غوميس) السابق الذكر.

ـ ومن الثوب: 2 279 فارا وثلثين من (ر. غوميس. Gomés) السابق الذكر.

ـ ومن حجر الشب: 76 ق، 14 رطلا من (ر. غوميس) السابق الذكر .

ـ ومن حدوات الخيول مع مساميرها: 375 دزينة، 6000 مسمار اضافية.

ـ ومن القطع المطاطية: 474 من نفس الشخص.

ـ ومن الخشب المتنوع: 159 عربة وثلث.

ـ ومن ألواح القسطل: 31 دزينة من (أ. فاس) السابق الذكر.

ـ ومن أثواب لندن: 5 446 ذراع، 3 sesmas

ـ ومن الاثواب الفرنسية: 5 664 ونصف فارا من (ر. غوميس)السابق الذكر.

ـ ومن الفضة المسكوكة: 748 مارك، 2 أوقية، 4 ثمن وثلثين، توصل بها على الشكل التالي:

: 80 مارك، 5 أواق، ثمن وثلثين من (ر. غوميس) السابق الذكر.

: 667 مارك، 5 أواق، 3 ثمن من (أ. فاس) السابق الذكر

ـ كأسان فضيتان واحدة مذهبة والاخرى بيضاء وكان وزنها 4 مارك، أوقيتان و 32 حبة.

ـ ومن الألبسة: 5 منها 2 حريرية.

ـ ومن أغطية واجهة المعبد: 3 .

ـ وظهر أنه توصل كذلك بالسلع والأشياء الآتي ذكرها والتي باعها بالمدينة المذكورة. وكانت كالتالي:

ــ ومن الخيول: 8 .

ــ ومن الحجر (انثى الفرس): 5 مع2 من صغارها.

ــ ومن المعدن لصنع المدافع: 11 ق، 1,5 ربع.

ــ ومن الحياك 146: Alquices: tarentes .

ــ ومن الحياك 147 Alquices meo tarentes .

ــ ومن 68: Cordoes; .

ــ ومن القبعات: 5 .

ــ ومن العبائن: 970 .

ــ ومن أكياس الصوف: 30 .

ــ ومن البنادق: 2 .

ــ ومهد حديدي.

ــ ومن الاثواب التي لا تعرف باسم: 340 (كذا) منها 40 توصل بها كواجب جمركي.

ــ ومن خشب القسطل: 14 دزينة، 7 قطع منها 7 قطع كواجب جمركي.

ــ ومن القمح: 762 مدا، 34 الكير ونصف.

ــ ومن الشعير: 230 مدا، 35 الكير وثمن.

ــ ومن القبعات البربرية: 934 توصل بها كواجب جمركي.

ــ ومن البردات: 79,5 قطعة توصل بها كواجب جمركي.

كما تبين أنه توصل حين تسلمه للفيطورية بأشياء مختلفة وكثيرة من (أ. غونسلفيس E. Gonçalvés) السابق الذكر، وكذلك بجباية الجمارك، تلك الأشياء الكثيرة والمتنوعة التي لم نفصل بشأنها تفاديا للاطناب (تبرئة ذمته. - . وحرر بلشبونة يوم 4 يوليوز من سنة 1513 على يد (إ. E. Gonçalvés). وحين تعرضنا لذكر 14 856 660 ريال نسينا الاشارة الى 8000 ريال توصل بها من (إ. نونش E. Nunés) أمين التوابل يوم 15 مارس من سنة 512 . (كذا).

(1) Arch. Hist. Port. II pp. 74 – 75.

الايصال التاسع (آسفي): 3 مارس 1515 / فبراير 1516 (1) .

«نأمر الآن بمراجعة حسابات (ألفرو دو توجال .Alvaro de Tojal)، الفـارس بلاطنا، وفيطور آسفي سابقا لمدة احدى عشر شهرا، وستة وعشرين يوما، وذلك من 3 مارس 515 الى آخر فبراير من سنة 516 . (كما نأمر) بمراجعة ما اشتراه من قمح وشعير خلال الفترة المذكورة. وتبين أنه توصل بما يلي:

ـ من الاموال: 176 870 10 ريال على الشكل التالي:

: 1200000 ريال من (ب. دو. فارغا B. de Vargas) أمين صندوق (دار لامينا) سابقا.

: 800 000 ريال من (أ. ف. كرغيرا .A. V. Coregèiro)

: 2400 000 ريال من (أ. دوسلفيرا .A. da. Silvèira)

: 176 370 6 ريال من نفس الشـخص لبيعـه لسلـع خلال الفتـرة المذكورة.

: 100 000 ريال من (ا. غونسليفس E. Gonçalvez)، فيطور آسفي كسلع قدر قيمتها بنفسه.

ــ ومن الصمغ الاحمر: 184 ق، قلة، 24 رطلا.

ــ ومن الصمغ الاسود: 184 ق، قلة، 11,5 رطلا.

ــ ومن العقيق: 6 ق، 6,5 رطل.طل.

ــ ومن البردات الجيدة: 1 125 .

ــ ومن البردات العادية: 6 860 .

ــ ومن .bèijoim : 2 ق.

ــ ومن الشعير: 120 مداً، 12 الكير .

ــ ومن النحاس: 54 ق، 2 ربع، 21,5 رطلا

ـ ومن القرفة: 4 ق، 1 ربع، 18 رطلا.

ـ ومن المحاور (للابواب): 200 .

ـ ومن الاثواب التي تغطي الاسرّة: 290 فارا.

ـ ومن الخشب: 2 988 حمولة

ـ ومن الحنابل: 228 .

ـ ومن المعدن: 1 ق، 11 رطلا.

ـ ومن الثوب المستعمل كأشرعة: 2262,5 فارا.

ـ ومن أثواب (برابنت .Brabant): 9996,5 فارا.

ـ ومن النسيج المستعمل للتلفيف: 5 267 فارا.

ـ ومن نسيج مدينة روان (.Rouen) : 186 ذراعاً.

ـ ومن نسيج مدينة لندن: 424,5 ذراعاً.

ـ ومن Pesetas de anceres :1001 فارا.

ـ ومن البهار: 30 ق.

ـ ومن المسامير: 30 (للسقف).

ـ ومن المسامير: 10 000 . (للسفن)

ـ ومن حجر الشب: 58 ق.

ـ ومن الاكياس: 995 .

ـ ومن القمح: 1 636 مدا، 12 الكير.

ـ ومن السكاكين الكبيرة أو الخناجر: 20 عربة.

ـ ومن خشب القسطل: 20 دزينة.

ـ ومن السكاكين الكبيرة أو الخناجر: 40 عربة.

ومن الخمر: 20 قلة.

وأشياء أخرى كثيرة وغير مهمة (. . . تبرئة ذمته). وحرر بمدينة (يابرة Evora) يوم 3 يوليوز من سنة 1520 على يد (ر. غوميس .R. Gomès). وهذا المقدار المالي: 176 370 6 المذكور أعلاه، حصل عليه الشخص نفسه (الفيطور) من بيع

السلع على الشكل التالي:

4 122 719 ريال ببيع بعض السلع كما ذكر أعلاه، وتوصل بـ 444 247 2 من مصلحة الجمارك، ومن بعض الافراد المذكورين بسجله.

---

(1) Arch. Hist. port. I. p 248.

(2) 1515 و 1516 .

الايصال العاشر (آسفي) أكتوبر 1513 يونيو 1519 .[1]

«نأمر الآن بمحاسبة (باستيان لوبش .B. Lopes)، الفارس ببلاطنا «والمشرف» بآسفي لمدة خمس سنوات وتسعة أشهر ابتدأت من أكتوبر 513. (كذا)، وانتهت آخر يونيو 519 .[2] وتبين أنه توصل خلال المدة المذكورة:

ــ من الأموال: 199 317 9 ريال، وذلك كالتالي:

: 560 307 3 ريال من (إ. غونسلفيس E. Gonçelvés)، فيطور المدينة المذكورة.

: 233815: ريال من (أ. دو توجال .A. de. Tojal).

: 640 43 ريال من (نونو غاطو .Nuno Gato).

: 090 368 2 ريال من (أ. دو سلفيرا A. de Sylveira).

: 946 457 ريال من (د. فرننديس. D. Fernandez) مكتري جمارك المدينة المذكورة.. لسنة 518، والذي سلم المقدار ل (إ. غونسلفيس) المذكور.

: 800 422 1 ريال من أمين صندوق (دار الهند) (غ. بيسوا .G. Pisoa)

: 540 876 ريال من (ف. الفريس F. Alvarès) أمين صندوق قصورنا.

: 000 165 ريال من (ي. رودرغيس E. Rodrigues) مكتري الجمارك لسنة 520.

421 11 ريال من (ج. مشادو .J. Machado) فيطور المدينة المذكورة سابقا.

:000 103 ريال من (ل. غونسلفيش) القابض «بالمشرفية» بآسفي.

: 065 127 ريال توصل بها بنفسه من بيع بعض خيولنا ومواشينا.

: 320 200 ريال من يهود المدينة.

ــ ومن القمح: 201 6 مد، 14 الكيل.

ــ ومن الرماح الطويلة التي توجد بمقدمتها قطعة حديدية على شكل شاقور: 25

ــ ومن الرايات: 29 .

ـ ومن الثيران : 36 .

ـ ومن البسكويت: 1753 ق، 1 ربع، 19 رطلا.

ـ ومن الحبال: 2150 دائرة (rodas;) .

ـ ومن المدافع: 10 .

ـ ومن الاسرة: 99 .

ـ ومن قاذفات السهام: 31 .

ـ ومن الشعير: 4991 مد، 15 الكير .

ـ ومن الجير: 34 مدا.

ـ ومن الرصاص: 26 ق، 3 ربع.

ـ ومن القبعات: 626 .

ـ ومن الدروع الخفيفة: 200 .

ـ ومن الرماح القصيرة: 29 .

ـ ومن الدروع: 122 .

ـ ومن القبعات: 39 .

ـ ومدفع من النوع المعروف بالجمل.

ـ ومن مساند المدافع: 252 .(3)

ـ ومن قطع المدفعية من نوع Quartaos :2 .

ـ ومن جلود الأبقار: 13 .

ـ ومن الخيول: 46 .

ـ ومن الثوب المستعمل للتلفيف: 950 «فارا»

ـ ومن الكبريت: 4,5 ق.

ـ ومن المعاول: 57 .

ـ ومن مساند المقاعد: 42 .

ـ ومن الحديد: 17 ق، 3 ربع، 4 رطل.

ـ ومن حدوات الخيل: 200 دزينة.

ـ ومن المدافع الحديدية التي تعرف بالصقر: 14 .

ـ ومن الرماح: 3 119 .

ـ ومن الركائز: 45 .

ـ ومن الرماح القصيرة: 365 .

ـ ومن بارود البنادق: 6 ق، نصف ليبرة.

ـ ومنه كذلك: 14 برميل.

ـ ومن بارود المدافع: 52 ق، 2 ربع، 27 ليبرة.

ـ ومنه كذلك: 64 برميلا.

ـ ومن 4015: Pilouros de toda sorte de artelharia.

ـ ومن 602: pystromes .

ـ ومن 113: peitos.

ـ ومن الأكياس: 1 695 .

ـ ومن السهام: 25794 .

ـ وناقوسين.

ـ ومن ملح البارود: 12 ق.

وأشياء أخرى كثيرة ومتنوعة. . . (تبرئة ذمته من كل هذه الأموال والأشياء، وكذلك من بعض الأسلحة التي ضاعت في غيبته (كان بالبرتغال) لما بلغ السكان خبر قتل القبطان أتايد وعصيان القبائل. . .)

وحرر بمدينة (يابرة .EVORA) يوم 16 من شهر نونبر، سنة 1520 ، على يد (ر غوميس ;R. Gomès)

---

(1) Arch. Hist. Port. V. pp. 474 – 475.

(2) 1513 . و 1519 .

(3) berços Camaras de وبالفرنسية: Affût

الايصال الحادي عشر (آسفي) يوليوز 1516 / غشت 1519[1] .

نأمر الآن بمحاسبة (إ. غونسلفيس .E. Gonçalvéz)، الفارس ببلاطنا، وفيطور مدينتنا آسفي بشأن كل ما توصل به وأنفقه خلال ثلاث سنوات وشهرين ابتدأت في فاتح يوليوز من سنة 516 (كذا)، وانتهت آخر غشت من 519 . وتبين أنه توصل:

ـ من الأموال: 494 381 17 ريال، وذلك كالتالي:

: 962 147 12 ريال لبيعه بعض السلع.

: 532 233 5 ريال من هؤلاء الأشخاص:

: 000 200 ريال من (أ. نونش Nunez) أمين دار الهند سابقا.

:088 62 ريال من (أ. لوبش .A. Lopez) أمين صندوق «الكروزادا»[2]

: 000 160 ريال من اليهودي مايل.

: 539 517 ريال من (أ. دو. توجال .A. De Tojal)

: 700 4 ريال من اليهودي مايل المذكور.

: 875 317 من (غ. فاش .G. Vaz) المسؤول عن قصورنا.

: 000 32 أيضا من (أ. دو. سيلفيرا) المذكور

: 000 27 ريال من (د. ف. كبرال .D. F. Cabral)

: 300 24 ريال من نفس الشخص.

: 717 096 2 ريال، مردود جمارك المدينة المذكورة، وهو قسم من 000 650 2 ريال، حصيلة الجمارك المذكورة لثلاث سنوات 516، 17، 18 ، توصل بها كذلك فيطور المدينة المذكورة (أ. دو. توجال) و 500 26 ريال كواجب 1 ٪ عن مبلغ المدخول المذكور 000 650 2 ريال.

: 713 564 ريال ونصف توصل بها كذلك من الجمارك المذكورة عن

سنة 519 من 11 فبراير الى 23 غشت من السنة المذكورة.

ـ وتبين أنه توصل كذلك من الصمغ. :

: الأسود منه: 377 ق، 2 ربع، 23,5 رطلا.

: الأحمر منه: 197 ق، 2 ربع، 29,5 رطلا.

ـ ومن الثوب: 816 ذراعا.

ـ ومن الجلابيب: 104 .

ـ ومن الثوب biconte :156 ذراعاً.

ـ ومن («بدن» .bedens)(3) : 10 .

ـ ومن القرنفل: 7 ق، 21 رطلا.

ـ ومن Quartilhas de Ingraterra : 530 قطعة.

ـ ومن الشمع: 20 ربع.

ـ وكأسان فضيتان.

ـ وبعض الستائر.

ـ وصليب.

ـ واناءان لتسخين الماء المقدس.

ـ من الشمعدان: 6 .

ـ ودثار بقبعة يرتديه الرهبان.

ـ ومن .Escprava : 1 .

ـ ومن واجهات المعبد: 4 .

ـ ومن الحنابل: 137 .

ـ ومن الرماح: 200 .

ـ ومن البهار الغيني: 3 ق، 1 ربع، 20 رطلا.

ـ ومن حجر الشب: 193 ق، 1 ربع، 3 رطل.

ـ ومن البهار: 39 ق، 2 ربع، 26 رطلا.

ـ ومن المسامير: 18 000 .

ـ وثوب حريري.

ـ وقطعتين من نسيج صوفي.

ـ وناقوسان.

ـ ومن الحياك الملونة: 453 (4) .

ـ ومن الخشب: 2,5 دزينة.

وأشياء أخرى كثيرة ومتنوعة يصعب ذكرها بايصاله لكثرتها. (. . . تبرئة ذمته)

وحرر بمدينة (يابرة .Evora) يوم ? أكتوبر 1520 على يد (روي غوميس R. Goméz). وتبين أنه توصل بالانسانة الى ما ذكر:

ـ من العقيق: 17 ق، 2 ربع، 26,5 رطلا.

ـ ومن الحياك: 967 19 .

ـ ومن البردات: 10.419 . قطعة.

ـ ومن الحياك المزركشة بنقط: 290 قطعة.

ـ ومن ثوب (كوندادو(5) .Condado) 1344,5 ذراعا.

ـ ومن النحاس: 55 ق، 1 ربع، 141,5 رطلا.

ـ ومن كتان لندن: 341 ذراعا.

ـ ومن الحياك نصف مزركشة: 220 6 .

ـ ومن الكتان: 10276,5 فارا.

ـ ومن الطرطار: 64 ق، 27 رطلا.

ـ ومن القرفة: 5 ق، 3 ربع، 16 رطلا.

وكان تقييده لهذه السلع والأشياء التي توصل بها كذلك مضبوطاً وسليماً من الخطأ.

---

(1) Arch. Hist. Port. III PP I57 - I58.

(2) المؤسسة التي تشرف على الحرب الصليبية وتمولها.

(3) عن هذا النوع من اللباس الصوفي المغربي الصنع أنظر ص 111 من هذا البحث.

(4) Trescontes عوض Tascontes . راجع S.I.H.M. Port I PP 44, 45

(5) كندادو: ثوب كان يجلب من ميناء (أنفيرس .Anvers) البلجيكي: راجع S.I.H.M. Port. I.

P n. 4

الايصال الثاني عشر (آسفي): الشهور الأربعة الأخيرة من 1517 والثمانية الأولى من 1518 [1].

«أمرنا الآن بمراجعة (ج. لوبش دو ميكا .J. Lopes de Mequa) الفارس ببلاطنا بشأن كل الاموال والأشياء التي توصل بها وأنفقها بفيطوريتنا بكل من آسفي وآزمور و (كستيلو ريال .Castelo Réal) [2] وذلك خلال السنوات خمسمائة وسبعة عشر، ثمانية عشر وتسعة عشر، تسعة وعشرة (كذا) [3]، وحسب سجلاته توصل خلال خدمته لنا بالفيطوريات المذكورة، وخلال المدة المذكورة ب: 806 036 2 ريال وذلك على الشكل التالي: بالنسبة لفيطورة مدينتنا آسفي حيث كان فيطورا خلال الأشهر الأربعة الأخيرة من سنة 517، والأشهر الثمانية الأولى من سنة 518: 684 848 1 من الأشخاص الآتية أسماؤهم:

ـ 000 300 ريال من (ف. دو. باستانا .F. Péstana) أمين صندوق مخزن توابل دار الهند

ـ 000 300 ريال كذلك من (ر. دو. كستنهيدا) قابض المال المذكور.

ـ 000 350 ريال من (ج.م. كوريا .J.M. correa) وكيل أساطيل الصيد «بالغرب»

ـ 5060 ريال توصل بها كفوائد عن الاموال التي بقيت كسلف في السجلات المذكورة المتعلقة بالشهور الاربعة الاخيرة من سنة 517.

ـ 832 3 سجلت كمدخول بالسجلات المتعلقة بالشهور الثمانية من السنة المذكورة، سجلها (ج. دو. ريفوندا) محاسبنا الذي راجع له حسابات الفيطورية المذكورة.

ـ 992 880 ريال قيمة بيع السلع المذكورة أعلاه:

ـ 303 141 ريال حصل عليها من بيع البسكويت.

ـ 164987,5 ريال حصل عليها من بيع القمح.

ـ 460 54 للاسطول.

ــ 25 932 ريال حصل عليها من بيع القرنفل والبهار.
ــ 125 096 ريال حصل عليها من بيع العقيق.
ــ 199 896 ريال حصل عليها من بيع أثواب من بلنسية.
ــ 37432,5 ريال حصل عليها من بيع أثواب من بلنسية.
ــ 15 296 ريال حصل عليها من بيع القبعات.
ــ 97 880 ريال حصل عليها من بيع العقيق.
ــ 67 398 ريال حصل عليها من بيع بعض أنواع الأثواب.

وتم هذا البيع في كميات السلع التي سلمت له، والتي سامها بنفسه، كما يدل على ذلك سجل حساباته حيث سجل بكل تفصيل كل ما توصل به، وان لم تذكر فانها به أكثر تفصيلا ووضوحا.

وكذلك الشأن بالنسبة لفيطورية أزمور (أنظر الايصال الاول المتعلق بهذه المدينة.)(4)

---

(1) Arch. Hist. Port. III p. 398.

(2) مغدور أو الصويرة الحالية.

(3) 1518, 1517 .

الايصال الثالث عشر: غشت 1517 مارس 1521 (1) .

«« نأمر الآن بمحاسبة (ج. مشادو .J. Machado) ، الفارس ببلاطنا ومفتش سابق لأعمال البناء، والمكلف بأداء نفقاتها لمدة ثلاث سنوات وسبعة أشهر، وثلاثة أيام، والتي ابتدأت يوم 12 غشت من سنة 517 وانتهت يوم 12 غشت من سنة 521 .(2) وظهر أنه توصل خلال المدة المذكورة: 207 288 10 ريال ونصف وذلك كالتالي:

ــ 480 000 من (أ. ب. دو فيريا .Faria) الذي كان مفتش هذه الاعمال قبله.

ــ 4 900 000 ريال من (أ. دا. سلفيرا .Sylveira)أمين صندوق (دار الهند).

ــ 1 800 000 ريال من (ج. دو. غواغو .Guaguo) أمين صندوق (دار لامينا).

ــ 282 100 ريال من (ج. ألفريس Allvarez) خادم Baram'

ــ 35 135 ريال من (أ. لوبش .A. Lopes) أمين صندوق الكروزادا (cruzada) .

ــ 36 400 ريال من (د. رودرغيس .Rodriguez) مكتري حق استغلال جزر الأسور.

ــ 36 000 ريال من (م. فرنديس Fernandez) الساكن بآسفي لبيعه بيتين.

ــ 112 000 ريال من (غ. رودريغيس) (ومايل ليفي) مكتريي الجمارك.

ــ 1 200 000 ريال من (ف. ع. دو كالفوش Vincente. Calvos) أمين صندوق دار لامينا.

ــ 1 365 495 ريال من (ف. ألفريش Allvarez) قابض جبايات المملكة.

ــ 41077,5 ريال من نفس الشخص لبيعه بعض الأشياء.

ــ ومن العربات: 81 .

ــ ومن ركائز البناء: 10 .

ـ ومن القفات المصنوعة من الحلفا : 690 .

ـ ومن المعاول: 79 .

ـ ومن .Allfeires: 173

ـ ومن الفوانيس: 9 .

ـ ومن الفولاذ: 1 ق، 2 ربع، 4,5 رطل.

ـ ومن الافرشة المستعملة: 3 .

ـ ومن الزيت: برميل واحد.

ـ وصندوقان.

ـ ومن القضبان: 7

ـ وميزان للخبز.

ـ ومن السلال المصنوعة من السوحر: 611 .

ـ ومن قفات الحلفا: 1336 .

ـ ومن أكياس الفحم: 1195 .

ـ ومن الصفائح لصنع المدافع: 82 .

ـ ومن الاجزاء المستعملة لربط هذه الصفائح: 12 .

ـ ومن الركائز الحديدية: 62 .

ـ ومن القدور النحاسية: 3 .

ـ ومن Quamartèis :22 .

ـ وجرس.

ـ ومن Cabo de paos: 695 .

ـ وصندوق حديدي.

ـ ومن المحاور: 653 .

ـ ومن القدور الحديدية: 4 .

ـ وصندوق.

ــ ومن النحاس: 2,5 ربع.

ــ ومبذلتان ذات غطاء للرأس للرهبان.

ــ ومن الرصاص: 1 ق، 21 رطلا.

ــ ومن جلود البقر: 5 .

ــ ومن الجير: 129 مدًا اشتراها.

ــ ومن الاقمصة: 16 بعثتها مصلحة (Miséricorde.) .

ــ ومن الفؤوس والمعاول: 272 .

ــ ومن السلاليم: 20 .

ــ ومن: Estrem :1 .

ــ ومن المناجل: 15 .

ــ ومن الحديد: 52 ق، 3 ربع، 2 رطل.

ــ ومن الاقفال: 24 .

ــ ومن المذرات الحديدية: 6 .

ــ وحبلان كبيران لجر وتوجيه السفن.

ــ وجزء منهما.

ــ ومن Lavancas :15 .

ــ ومن الرماح: 31 .

ــ وشبكة حديدية.

ــ ومن الكتب: 8 .

ــ ومن العربات: 79 .

ــ ومن .couroes 12 قطعة.

ــ ومن العربات: 61 .

ــ 1: peça de meio pomtos

ــ ومن المعاول المستعملة لتنظيف الاعشاب: 16

ـ ومن المطارق الكبيرة: 38 .

ـ ومن الفؤوس: 4 .

ـ ومن عربات... (3) : 197 .

ـ ومن المسامير المتنوعة: 102 460 .

ـ ومن الارائك: 811 .

ـ ومن البكارات: 11 .

ـ ومن المجارف: 167. (pelles)

ـ ومن .paos :192 .

ـ ومن الاواني النحاسية: 21 .

ـ ومن الاخشاب: 23 .

ـ ومن المحامل: (للاموات): 71 .

ـ ومن العجلات الحديدية: 15 .

ـ ومن الالواح: 140 دزينة.

ـ ومن المناشير: 2 .

ـ ومن الاكياس: 79 .

ـ ومن خشب القسطل: 298 دزينة، 8 خشبات.

ـ ومن خشب الصنوبر: 115 دزينة، 10 خشبات.

ـ ومن الخناجر: 150 عربة.

ـ ومن الآجور أو القرمد: 36 100 .

ـ وكوخ حديدي مع مستلزماته.

ـ ومن الخناجر: 20 عربة.

ـ ومن آجور البناء: 2640 .

ـ ومن الركائز: 196 .

ـ ولباسين.

ــ ومن .1: Zavera .

(. . . تبرئة ذمته) وحرر بلشبونة يوم 19 يوليوز من سنة 1522 ، على يد (د. رودرغيس)

---

(1) Arch. Hist. Port. TVIII p. 399.

(2) 1521, 1517 .

(3) 197 caros de pomtoes de 4 em caro...

الايصال الرابع عشر: (آسفي) شتنبر 1519 / يوليوز 1522 (1) .

«أمرنا بمحاسبة (ل.غونسالفيش.L.Gonĉalvez) ، الفارس ببلاطنا والفيطور والقابض بمدينة آسفي لمدة سنتين وعشرة أشهر، من 15 شتنبر 519 الى 16 يوليوز من سنة 522 (2) . ومن مراجعة سجلاته تبين أنه توصل من:

ــ الأموال: 143 689 5 ريال حصل عليها كما يلي:

: 000 395 ريال من (أ. غونسلفيش Gonçalvez) فيطور «ومشرف» مدينة آسفي المذكورة.

: 519 574 1 ريال من (ج. مشـــادو .J. Machado) ، «المشرف» في الجمارك المذكورة.

: 777 017 3 ريال من (ف. ألفـريس F. Allvarez) الأمـين العــام «لخزينة» المملكة.

: 082 18 ريال من (د. طفيرا .Taveira) قبطان حصن (مشكرنياش)

: 000 400 ريال من (ب. كردوسو .Cardoso) فيطور أساطيل صيد مملكة الغرب.

: 360 278 ريال قيمة ما دفعه المسلمون القاطنون قرب آسفي عوض الشعير الذي كانوا يفتقرون اليه.

: 5400 ريال ثمن بيع فرسين.

وظهر أنه توصل:

ــ من القمح: 2639 مداً، 34 الكير.

ــ ومن الشعير: 759 مدا، 56,5 الكير.

ــ ومن الذرة: 78 مدا، 12 الكير.

ــ ومن البسكويت: 834 ق، 2 ربع، 5 رطل.

ــ ومن المدافع التي تقذف الحجارة: 3 .

ــ ومن الأسرة الحديدية: 28 .

ـ ومن الخناجر الفضية: 10 .

ـ كرتان تقذف بهما المدافع .

ـ ومن prastoees com suas espalldas : 585 .

ـ ومن بارود المدافع: 87 ق.

وكذلك أشياء أخرى كثيرة تم ذكرها حين مراجعة حساباته وتم احصاء وتسجيل كل هذه الاموال، والقمح والشعير والذرة والبسكويت والمدافع، ولم يبق مدينا بشيء، ولهذا ابرئت ذمته. وقام بهذا العمل (أ. ميراندا .Afomso de Miranda) المحاسب (وذلك) بمدينة (يابرة .Evora) يوم 18 مارس من سنة 1525 .

---

(1) Arch. Hist. part. IX. pp 452 – 453.

(2) 1519 و 1522 .

الايصال الخامس عشر: (آسفي)(1)

«أمرت بمحاسبة (يهودا بن زميروJudas Bem Zamero) اليهودي المكلف سابقا بشراء أثواب أرغين، وبذلك ظهر أنه توصل ب: 608 888 5 ريال من الشخصين الآتية أسماؤهما:

ــ 228 847 2 ريال من (ج. مشادو .J. Machado) فيطور آسفي سابقا.

ــ 148 581 1 ريال حصل عليها مقابل:

: 044 5 قطعة من «البردات» العادية، ثمن الواحدة: 167 ريالا.

: 000 960 ريال من 60 ق من الصمغ، بثمن 40 كروزادو للقنطار.

: 080 36 ريال مقابل 88 «بردة» جيدة بثمن 410 ريال للواحدة.

ــ 380 033 3 من (إ. غونسلفيش E. Gončalvez) فيطور المدينة المذكورة سابقا.

ــ وذلك كالتالي:

: 125 121 1 ريال قيمة 68 ق، 3 ربع، 9 رطل من الصمغ بالثمن المذكور: 40 كروزادو للقنطار.

: 255 932 1 ريال قيمة 5265 قطعة من «البردات» العادية بالثمن المذكور: 367 ريال للقطعة.

هذه السلع التي سلمت له على يد «الفياطرة» المذكورين بالثمن المذكور تبعا للعقدة التي أمضاها مع أبي ومولاي الملك. وذكر أنه توصل بـ 8000 في عهد (ج. مشادو .Machado) دفعها لأمين صندوق «دار الهند» ككراء للسفينة التي نقلت بعض (كذا) البردات. (. . . تبرئة ذمته) وحرر (يابرة EVORA) يوم 26 يونيو من سنة 1524 على يد (ف. أفونسو .F. Affonso). / .

---

(1) Arch. Hist. Port. VIII. pp. 412 – 13.

الايصال السادس عشر: (آسفي): 1508 / يناير 1513 [1] .

«نأمر الآن بمراجعة حسابات (نونو غاطو .N. Gato)، الفارس ببلاطنا «وكنتدور» آسفي، بشأن كل الاموال والأشياء التي توصل بها لمدة أربع سنوات وسبعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، التي ابتدأت يوم 20 مارس من سنة 508 وانتهت يوم 15 يناير من سنة 513 [2] . وظهر أنه توصل خلال تلك المدة المذكورة ما مجموعه من الاموال:

ـ 364 084 5 ريال وذلك كالتالي:

ـ 000 365 ريال من (ر. دا. كشتنييدا .Castanheda) القابض بدار الهند سابقا. وذلك سنة 513 .

ـ 216 095 2 ريال من (إ. غونسلفيش E. Gonçalvez) فيطور مدينة آسفي، وذلك خلال كل المدة المذكورة.

ـ 078 512 2 ريال من (إ. أغيار .Aguiar) فيطور مدينة آسفي.

ـ 600 11 ريال من الحاخام ابرهم، حاخام المدينة المذكورة، كجزء من 25000 ريال كان على خدامنا الألف المكونين لمجموع يهود المدينة المذكورة أداؤها كمساهمة في الأشغال المذكورة (تبرئة ذمته من كل هذه الاموال والأشياء وكذلك من كل ما توصل به من عدد من الاشخاص دون تحديد ما سلموه له. . .) وحرر بلشبونة يوم 25 مارس من سنة 1513 على يد (ب. فرننديس Pero Fernandez) [3]

---

(1) Arch. Hist. Port. IV p 478. S. I. H. M. port I pp 300 – 301

(2) 1513, 1508 .

(3) ولم نحترم تاريخ تحرير هذا الايصال كما فعلنا مع غيره لكونه لا يهتم مثلها بأوضاع المدينة التجارية. ولهذا جاء في آخر الايصالات المتعلقة بآسفي.

أزمور: الايصال الأول: يوليوز 1486 / فبراير 1501 (1) .

نخبر أننا كلفنا (م. رينيل M. Reynel) ، الفارس ببلاطنا بفيطورية أزمور حيث بعثناه لخدمتنا وذلك لمدة خمس عشرة سنة، والتي ابتدأت في نهاية يوليوز من سنة 86 ، وانتهت في فبراير من سنة 501 (2) . وتبين أنه توصل خلال هذه المدة من فيطوريتنا بدار لامينا بالسلع والأشياء التالية :

ـ من الأثواب العريضة المجلوبة من لندن و (أنطونة .Antona)(3) و (بريسطوس Bristol) : 26 قطعة.

ـ ومن نفس الثوب: 130 ذراعاً.

ـ ومن الثوب الملون بالاحمر الفاقع: 4 قطع.

ـ ومن الأثواب الانجليزية: 618 قطعة.

ـ ومن الأمشاط: 9800 .

ـ ومن ثوب (غالفي Galvey) : 551 لفيفة.

ـ ومن القبعات: 200 دزينة.

ـ ومن فواكه «الغرب» : 130 قطعة.

ـ ومن الفضة: 105 مارك، 3 أواق، 6 ثمن.

ـ ومن البردات: 628 قطعة.

ـ ومن الشابل: 150 000 .

ـ ومن ركائز البناء: 246 .

ـ ومن خشب الصنوبر: 35 دزينة.

ـ ومن الأثواب الفرنسية والبريطانية: 517,5 فارا.

ـ ومن الأثواب نصف هولندية: 100 فارا(4) .

ـ ومن الحياك: 115 فارا.

ـ ومن الشمع: 981 ربع، 14 ليبرة.

ـ ومن العبائن: 20 . (الحنابل)

ـ ومن البهار الغيني: 1 ربع.

ـ ومن القطن: 70 ق.

ـ ومن حبات السبحة البلورية: 20 كيسا.

ـ ومن النيلة: 919 ق، 2 ربع، 9 ليبرة وربع.

ـ ومن الخمر: برميل.

ـ ومن الصوف: 470 ق.

ـ وخيمتان.

ـ ومن الاموال: 920 89 «دوبرة» بقيمة 32 ريال لكل واحدة. (... تبرئة ذمته...) وحرر بلشبونة يوم 10 دجنبر من سنة 1501 ، على يد (ج. داموطا Joham da Mota.).

---

(1) Arch. Hist. Port. IV. pp. 446 – 447.

(2) 1481 ، 1501 .

(3) عن مكان صنع هذه الأثواب (أنطونا غالفي، البردات...) أنظر الايصال الأول المتعلق بآسفي.

(4) الهامش 8 ، الايصال 1 المتعلق بآسفي.

أزمور : الايصال الثاني: 1509 / 1510 [1] . وهو ملحق بالايصال العاشر المتعلق بآسفي:

نأمر الآن بمراجعة حسابات (ج .لوبش دو ميكا J. Lopéz de Mequa) ، الفارس ببلاطنا بشأن كل السلع والأموال والأشياء التي توصل بها وأنفقهابفيطوريتنابكل من آسفي وأزمور و (كستيلو) ، وذلك خلال السنوات خمسمائة وسبعة عشر، وثمانية عشر، وتسعة عشر[2] (كذا) ، والتي كان خلالها فيطورا . . . وحسب سجلاته توصل من أجل خدمتنا بالفيطوريات المذكورة ، وفي الوقت المذكور ب: 806 .036 2 ريال وذلك على الشكل التالي :

ــ فيطورية آسفي . . . . الخ (أنظر الايصال الثاني عشر المتعلق بها .) وكذلك الشأن بالنسبة لفيطورية مدينتنا أزمور التي كان بها فيطورا مدة عشرة أشهر وعشرين يوما ، وذلك من 22 دجنبر من سنة 509 الى 12 نونبر من سنة 510 . (وتوصل خلال المدة المذكورة ب) 924 101 ريال على الشكل التالي :

ــ 000 100 ريال من (ر. غوميش R. Gomèz) ، أمين صندوق «دار الهند» سابقا.

ــ 924 1 ريال ثمن بيع بعض أنسجة مدينة (روان Rouen) . . .

وكذلك الشأن بالنسبة (لكستيلو ريال) حيث كان فيطورا خلال الاربعة أشهر الاولى من سنة 7 [3] ,9698 ريال توصل بها من الجبائي التابع لنا كبعض الأعشار المؤداة عن الأشياء التي اقتناها لفائدتنا .

وتوصل كذلك لمرتين بالأموال لخدمتنا ، وذلك بالاضافة الى ما توصل به بالفيطوريات : 500 76 ريال على الشكل التالي :

ــ 500 19 ريال مقابل خمسين (50) «كروزادو» من (إ. منديش E. Mendez) ، أمين أموال مخزن التوابل سابقا.

ــ 000 57 ريال من (د. ف. كبرال D. F. Cabral.) ، قابض واجب 1 ٪ والأرباع ببلاطنا . ويمثل بالضبط ما توصل به في المرات الأربع :

ــ 806 036 2 ريال تدخل ضمنها 716 891 ريال قيمة سلع الفيطوريات كما

سبق ذكره.

وتوصل كذلك ب:

ـ78 برميلاً من الخمر.

ـ برميل من الزيت.

ـ قمح، بسكويت، ومن ضباطنا (د. غوميش Gomèz) و(أ. منتيرو (Monteiro.

ـ «المشرف» على الأراضي وعلى الحرث.

ـ دائرة حديدية.

ـ وما استخدم منها: 5 قطع.

ـ ومن القطع الصغيرة التي استخرجت منها واستعملت في تركيب المدافع: 32

ـ ومن البارود: 34 برميلاً.

ـ ومن الدروع: 58 .

وتسلم كل هذا من (ج. دو. ألفيرا) أمين المخزن، وكذلك أشياء أخرى من المخازن، وأخرى من (ف. اسبينوزا .F. Espenosa)، وأشياء لتزيين الكنائس الصغيرة، وأخرى للاسرّة توصل بها من (ر. ليت)، وأشياء أخرى لا نذكرها هنا لأنها موصوفة ومحصية بالسجلات التي حررها المحاسبون التابعون لنا، وراجعها المسؤولون عن خزينتنا، وبذلك يكون (ج. ل. دو. ميكا .J. Lopez de Mèqua) قد سلم الينا بالفعل كل الأموال المذكورة كاملة، وكذلك السلع والأشياء المذكورة. (... تبرئة ذمته...) وحرر بلشبونة على يد (ج. دو. بورتو .Joam de Porto) يوم 3 يناير من سنة 1518 . وبخلاف ما ادعاه لم يتوصل ب 57 000 ريال من (د. ف. دو كبرال .D. F. De Cabral) ولكن من (ب. دو لوموس Pero De Lemos) الذي أضيفت الى سجله.(4) .

(1) Arch. Hist. PartIII p 398

(2) 1517 ، 1518 (آسفي) 1509 و 1510 (أزمور).

(3) 1507

(4) ترجم هذا الايصال الأستاذ Deaudè ، كلية الآداب، فاس.

الايصال الثالث (أزمور) يناير 1514 ـ مارس 1517 .(1)

«أصدرنـا الآن أوامرنـا بمحاسبـة (لورنسـو دو فريطاس .L. de Freitas) ، الفارس ببلاطنا وفيطور مدينتنا أزمور بشأن كل الاموال والسلع والأشياء التي توصل بها وأنفقها بأمر منا بالمدينة المذكورة والفيطورية خلال الثلاث سنوات والخمسة أشهر التي ابتدأت يوم فاتح يناير من سنة 514 ، وانتهت في آخر مارس من هذه السنـة الحالية، 517 (2) ، والتي توصل خلالها بما يلي:

ـ من الأموال: 734 931 11 ريال كالتالي:

: 6827100,5 ريال، قيمة سلع باعها بعد توصله بها من ضباطنا، وبأمر منا، وضمنها 116 426 ريال توصل بها من (يهودا بـن زميروا) من السلع المذكورة.

: 265 108 ريال من الضرائب وبيع الشابل. . (كذا)

: 151 422 ريال حصيلة المكوس المفروضة على السلـع الداخلـة الى المدينة أو التي تخرج منها.

: 1 175 700 ريال، حصيلة الواجبات الجمركية.

: 3 512 403 ونصف ريال من الأشخاص الآتية أسماؤهم:

: 1 400 000 ريال من (ب. دو. فرغاس .B. de. Vargas)، أمـين صندوق (دار لامينا)

: 400 000 ريال من (أ. فاس A. VAZ) أمين أموال مخزن توابل (دار الهند)

: 500 000 ريال من (ر. ليط .Leite) .

: 100 000 ريال من (أ. د. كدفال .A. de. Cadaval).

: 500 000 ريال من (د. ف. كبرال .D.F. Cabral)

: 22 000 ريال من (نونو غاطو .Nuno Gato) .

: 23 300 . ريال من (أ. دو توجال .A. do Tojal) .

: 44 600 . ريال من ضباط (.Sta Gruzada) المدينة المذكورة

: 18 260 ريال من بيع عدد من الخيول التي سلمت كضريبة وبيعت ل(ب. دو. سيشاش P. de. Sexas) وشركائه.

: 46 903 ريال كجزء من الأموال التي كان البعض يدين بها لنا.

: 132440,5 . ريال كان يدين بهـا بعض السـكان ل(غ. فاس A. Vaz)، الفارس ببلاطنا...

: 280 000 ريال من القمـح الـذي توصـل به من (بـرام Baram)، المشرف على أملاكنا العقارية.

ويعطي مجموع هذه الأمـوال بالسجـل المذكور المبلـغ المذكور: 734 931 11 ريال، الذي حصل عليه من الأموال المذكورة ومن بيع السلع كما ذكر. وهكذا يكون قد توصل بالفعل بهذه الأشياء المذكورة بهذا الايصال، كما توصـل بأخـرى كثيرة ذكرها بسجل الحسابـات المذكورة، والتـي تم السـكوت عنهـا هنـا... وتوصـل كذلك:

ـ من الشابل: 14476 «قطعة»

ـ ومن البهار: 73 ق، 1 ربع، 30 رطلا.

ـ ومن الصمغ الأحمر: 227 ق، 1 ربع 20 رطلا.

ـ ومن الصمغ الأسود: 40 ق، 4 ربع، 15 رطلا.

ـ ومن البردات: 6 526 قطعة.

ـ ومن الأثواب البريطانية: 17 248 فارا.

ـ ومن الكسي (الحياك) : 190 قطعة.

ـ ومن الحياك: 240 قطعة.

ـ ومن الأثواب الملونة بخشب البرازيل: 7209 ذراع. وأشياء أخـرى كثيرة ومتنوعة... (... تبرئة ذمته). وحرر بلشبونة يوم 3 دجنبر من سنة 1517 على يد (ج. دو. بوتو. Johan de Porto)

---

(1) Arch. hist. Port. IV. pp239 – 240

(2) 1517, 1514 .

أزمور: الايصال الرابع. أكتوبر 1515 / 1517 (1).

أمرنا اللحظة بمراجعة حسابات (منويل لوبش .Manuel Lopes)، حاجبنا «والمشرف» على أشغال البناء التي عرفتها مدينتنا أزمور لمدة سنتين وخمسة عشر يوما قام خلالها بمهمة «المشرف» على الأشغال المذكورة، والتي ابتدأت في اليوم الخامس عشر من أكتوبر من سنة 515 ، وانتهت في اليوم الثلاثين من أكتوبر من سنة 517 .

. . . وتوصل خلال المدة المذكورة:

ـ من الاموال: 947 416 5 ريال وذلك كالتالي:

: 947 023 1 ريال من (أ. دو. كدفال .Cadavall)، المشرف بالمدينة المذكورة.

: 000 800 ريال من (ب. فارغاش Varguas)، القابض سابقا بدار لامينا.

: 000 40 ريال من (أ. دو. فريطاش Frèitas)، القابض السابق بفيطورية المدينة المذكورة.

: 000 925 ريال من (ل. دو. فريطاش L; de Freitas) فيطور المدينة المذكورة.

: 000 200 1 ريال من (ر. ليط Leite) أمين صندوق(«الكروزادا» (Sta Cruzada.

: 000 800 ريال من (أ. لوبش Lopes)، القابض بالمؤسسة المذكورة.

: 000 400 ريال من (أ. دو. سلفيرا ;Sylvèira) قابض أموال التوابل سابقا.

: 000 000 1 ريال من (د. ف. كبرال .Cabral) القابض سابقاً لواجب 1 ٪ الذي كان معمولا به سابقا.

ــ ومن الفولاذ: 3 ق.

ــ ومن ركائز البناء: 86 عربة حمولة الواحدة 12 .

ــ ومن الركائز الحديدية المستعملة وقت اقتلاع الحجارة: 9 .

ــ ومن Quarmates : 179 قطعة.

ــ ومن المحاور: 9 . قطعة.

ــ ومن القطع (؟ كذا): 1 822 .

ــ ومن الجرات النحاسية: 18 .

ــ ومن الجير: 59 مركبا، 165 مداً.

ــ ومن الرصاص: 6 ق.

ــ ومن القطع الحديدية: 626 .

ــ ومن القطع الحديدية: 626 .

ــ ومن «الكير» (كذا) Allquèires : 50 .

ــ ومن الرافعات الحديدية: 14 قطعة.

ــ ومن المطارق الكبيرة: 23 قطعة.

ــ ومـن المعــاول المستعملــة لتنــظيف الأعشــاب ;rateau) : 18 قطعة.

ــ ومن molhos pomtos. : 106 عربة ونصف.

ــ ومن de mouroes (de) 18 pěčas em caro. : 244 عربة، 7 قطع.

ــ ومركب.

ــ ومن Taforéas : 1 قطعة.

ــ ومن الفؤ وس: 296 .

ــ ومن الجفان (الاناء الذي تخلط فيه المواد المستعملة في البناء): 331 قطعة.

ــ ومن pas de feradas : 29 .

ــ ومن de pomtoes de 3 em caro. : 25 عربة ونصف.

ــ ومن de pomtoes que nomda sorte : 43 عربة ونصف.

ــ ومن de pomtoes de 4 em caro. : 289 عربة.

ــ ومن de pomtoes de 8 em caro. : 149 عربة ونصف.

ــ ومن الشرائح الخشبية: 947 دزينة ونصف.

ــ ومن Trazados de 6 em caro : 420 عربة، 104 قطعة.

ــ ومن الواح الصنوبر: 5 دزينة، 3 قطع.

ــ ومن Trazados de 3 em 2 caros : 168 عربة.

ــ ومن الواح القسطل: 582 دزينة، 3 قطع.

ــ ومن الركائز: 56 قطعة.

(. . . تبرئة ذمته. . . .) وحرر بلشبونة يوم 21 يوليوز من سنة 1522 ، على يد (أ. فياليو Affomso Fyalho.) . / .

---

(1) : Arch. Hist.Port. VIII. pp 398 - 99

(2) 1515 ,1517 .

آزمور: **الايصال الخامس**: مؤ رخ في يوليوز 1517 (1) .

أمرنا بمراجعة حسابات (م. ديارتي Mastre Duarte)، الكاتب المسؤ ول عن أمراكنا وعن حسابات «مملكة الغرب»(2) ، بشأن الأموال التي توصل بها لتهييء أسطول لارساله الى بربريا ولشراء 727 (كذا) مداً من الجير لارساله الى أزمور، ولاداء مصاريف المساعدة (العسكرية)(3) التي أرسلت الى هناك، وكذلك رواتب الرجال الذين بأزمور. وحسب سجلاته توصل خلال المدة المذكورة:

— من الأموال: 3723 437,5: ريال على الشكل التالي:

: 2.113 500 ريال لتجهيز الأرمدا «ضد» «بربيريا» وذلك كالتالي:

: 1 397 000 ريال من(أ. رودريغيش Rodriguèz) في ثلاث دفعات، الاولى: 80 000 ريال سلمها ل (أ. بيريش .Pirès)، بحارة قاطن (بفيلانوفا Villanova.)، 1197000 ريال ل (ف. مونتيرو .Montèiro و 120 000 ريال ل (ب. سواريش Soares) بواسطة (أ. رودرغيش) المذكور.

: 299 000 ريال من(. . دو. فرغاش Vargas) . . .

: 417 500 ريال من (أ. دو سلفير Sylveira) . . .

:1100 927,5 ريال لشراء 8 727 مداً من الجيروكراء المراكب وشحنه وكان ذلك كالتالي: 300 000 ريال من (ب. دو فارغاش) تسلمها من (أ. دا. فونسيكا Fonseca.) .

: 250000 ريال (آ. رودرغيش Rodiguèz) المذكور سلمها ل (. . .

: 105000 ريال من(ج. ر. دو. البوين J. Rodriguèz de Alpoem

: 399 500 ريال من (ر. ليط Leite) كبير أمناء صندوق«الكروزادا Cruzada. وذلك في دفعتين: 200000 ريال من (ب. منتروي .Montarroyo)، و 199 500 ريال من (ف. دو أروجو Araujo) الذي توصل بها من (ر. ليط) المذكور.

: 46 437 ريال من(م. ديرتي) المذكور.

: 510 000 ريال لاداء مصاريف المساعدة العسكرية التي أرسلت الى هناك. ورواتب الجنود الذين كانوا بأزمور، والتي توصل بها كذلك من (ر. ليط) بواسطة (د. فاش). ومجموع كل هذا هو: 427 723 3 ريال ونصف. . . (تبرئة ذمته.) وحرر بلشبونة يوم 11 يوليوز من سنة 1517 على يد (ل. فاس Vaz.) / . . .

Arch. Hist. Port. II pp 37 – 38. (1)

(2) أي جنوب البرتغال (.Algarve) .

(3) كتب خطأ 727 مد من الجير عوض 727 8 التي ذكرت بعد ذلك.

أزمور: الايصال السادس: أكتوبر 1517 / شتنبر 1519 .(1)

«أمرنا اللحظة بمراجعة حسابات (أ. فرنديش Antonio Fernandez)، الفارس بيلاطنا ومفتش أعمال البناء «والمشرف» على مخازن مدينتنا آسفي، لمدة 23 شهراً وعشرة أيام ابتدأت يوم 19 من شهر أكتوبر من سنة 517 ، وانتهت يوم 29 من شهر شتنبر من سنة 519 . (2) وبمراجعة سجله ظهر أنه توصل:

ـ من الأموال: 898 907 1 ريال.

ـ ومن قطع المدفعية المختلفة: 108 مع 215 من القطع التي توضع بها المتفجرات.

ـ ومن الجير: 1372 مداً، 15 lRh' الكبير.

ـ ومن المحاور: 294 قطعة.

ـ ومن الرصاص: 28 ق، وثمن 28 رطلا.

ـ ومن القبعات: 125 .

ـ ومن الأخشاب المختلفة: 147 عربة.

ـ ومن البارود: 110 برميل، 247 قدر. وأسلحة وأشياء أخرى كثيرة. . .

(تبرئة ذمته.) وحرر بلشبونة يوم فاتح يونيو سنة 1521 على يد (ل. فاش Luis Vaz).

---

(1) Arcn. Hist. Port. I. p. 328.

(2) 1519, 1517 .

شراء الحبوب بمازيغن(1) .

أمرنا (ج . رفيرودا) ، محاسبنا (كنتدورنا) بمراجعة حسابات (غ . فيليو Gonçalo Velho) ، الفارس ببلاطنا بشأن كل ما توصل به لشراء القمح الذي طلبنا اقتناءه بمازيغن ، وبمراجعة تلك الحسابات ظهر أنه توصل :

ـ من الفضة : 651 مارك أوقية وثمن وثلاثة أرباع الثمن(2) وذلك كالتالي :

: 271 ماك و 3 ثمن وربع من (أ . دو فغير Anrique de Figuere) القابض سابقاً «بدار لامينا . »

: 434 مارك ، 6 ثمن ونصف من (ج . بشيكو .J. Pacheco)

ـ ومن القمح : 976 مداً ، 36 الكير ، سعة كل مد ، 60 الكير (3) ، توصل بها من نفس الشخص لشراء الفضة المذكورة . . . (تبرئة ذمته . . .)

وحـــرر بلشبونـــة يوم 22 فبـــراير من سنـــة 1504 على يد (ج . مونيي .J Moniz.) .

---

(1) Arch. Hist. Part. III. pp 155 – 156.

(2) عن هذه المقادير راجع فقرة خاصة بهذا البحث

(3) عن هذه المكاييل راجع فقرة خاصة بهذا البحث

اقتناء القمح بافريقيا

أمرنا اليوم بمراجعة حسابات (ج. كوريشما J. Coresma.)، الفارس ببلاطنا بشأن كل الأموال والقمح والشعير الذي توصل به طيلة حكم مولاي. . وظهر من سجل حساباته أنه توصل بـ:

ـ من الأموال: 1 386 000 ريال على الشكل التالي:

: 1 180 000 ريال من (أ. دو. فغيرادو A. Fegueiredo)، المسؤول عن ملابس المولى المذكور، وذلك في دفعات مختلفة.

: 5 000 ريال من (ف. لورنسو F. Lourenço)، أمين صندوق وفيطور دارنا (لامينا).

: 156 000 ريال من (ر. لوبش R. Lopès) الساكن (بباجة . Bèja)

وهكذا ظهر من خلال السجل المذكور أنه انفق كل هذه المبالغ في شراء القمح والشعير اللذين سلما لمدن ما وراء البحر التابعة لنا، وكذلك في مصاريف النقل. . . (تبرئة ذمته. . .) وحرر بلشبونة يوم 29 مارس 1503 . . .

Arch. Hist. Port. III. pp 478 – 479. (1)

ملحق رقم: 3 .

وثيقة تتعلق بقنص الرجال بدكالة

تؤكد هذه الوثيقة حقيقتين: تهافت البرتغاليين على الاسرى والوسائل المستعملة للحصول عليهم، وعدم معاقبة القباطنة لمرتكبي جرائم كبرى، الشيء الذي تؤكده الحادثة التي رواهـا المؤرخ (كويش) (ص (184 – 185)

«حدثت بهذه المدينة حادثة تعود الى فقر وكثرة ديون السكان، الشيء الـذي دفعهم الى أكل بعضهم البعض. قرر أربعة اشخاص اختطاف مسلـم، وزوجتيه وابنه البالغ من العمر ست او سبع سنوات كانوا يعيشون خارج المدينة، على بعد نصف مرحلة منها. وكان هذا المسلم يصنع الأواني الخزفية منذ عدة سنوات وكان محترماً من طرف الجميع، وجد مفيد بعمله بالنسبة لكل هذه المدينة. وصلت (الى آسفي) قافلة يهود من مراكش. وبما انني خشيت ان يكونوا مرضى، فانني طردتهم من المدينة. والتجأ يهوديان ويهوديتان الى دار الصانع المسلم. وعندما لاحظ أولئك الرجال انه لن يمكنهم اختطاف الرجل نظراً لوجود اليهود، وبما ان المركب الذي كان سيحملهم كان سيغادر الميناء يوم المعراج، استغل الرجال الاربعة استعراضي للجنود لمغادرة المدينة.

كبلوا المسلم من يديه ورجليه، وأهملوا ربط الصبي نظراً لصغر سنه. تركوهم مكبلين تحت حراسة واحد منهم وأخذ الثلاثة الآخرون اليهود الاربعـة بعيداً عن البيت وقتلوهم جميعاً. وعادوا بعد ذلك لأخذ المسلمين.

وراقب الذي بقي لحراسة المسلمين الصبي الذي كان بجانبه، والذي سرعان ما اختفى. يقال انه شاهد شخصين يرتديان البسة بيضاء كانا يتجهان نحوه، فخاف ان يحررا المسلمين وأن يكتشف هؤلاء موت اليهود. وهكذا قتل الثلاثة معاً. وحينما عاد الآخرون ووجـدوا المسلمـين مغتالـين، كادوا ان يقتلـوا صاحبهـم. وفتشـوا عن الصبي، واستحال عليهم العثور عليه نظراً لوجوده آنذاك بالسهل.

ولو تمكنوا من قتله لما فضح امرهم، ولكن الاله لم يرد ذلك، وفضل ان يكتشف هذا الخبث بأعجوبة. حينما وصل الصبي الى المدينـة كانـت الأبـواب، كما صرح بذلك، مغلقة. ونام هناك، وفي الصباح سئل عما يريد وعما يفعله هناك، ولكنـه امتنع عن الاجابة. وبما أنه طلب توجيهه امام القبطان الذي سيخبره بكل ما يريد قوله، فانه سيق الي، وقص علي كل شيء كما ولو فعله ابوه.

سألته عن الظروف التي تم فيها الحادث. ولكنه حينما طلب منه ذلك خاف ان يقتل قبل ان يصل الي لانه سيفضح افعالا قام بها النصارى، وذلك لان صغر سنه لا يسمح له بالتأكد من وجود عدالة بهذا العالم وبوجود قباطنة.

وبما انني بدأت التحقيق، وقفت فوراً على ادلة لالقاء القبض على احدهم. وبما أنني اعلنت ان كفاءة مالية ستخصص لمن عثر عليه، وأن العفو سيضمن له اذا ما كان مدينا، خاف كل واحد من الآخر، وقرر الثلاثة الفرار الى أزمور.

وبما ان ذلك كان صعباً بالنسبة اليهم نظراً لكون الأبواب مغلقة، فانهم فاتحوا عدداً من الاشخاص في موضوعهم، وطلبوا منهم مساعدتهم على الفرار. وكسر الابواب اول الفارين منهم على فرس. وأعلنت حالة الاستنفار، وطاردتهم مسافة مرحلتين، وأمرت بالاستمرار في ذلك حتى مازيغن. ولكن تقدمهم بمسافة مهمة جعل من المستحيل الالتحاق بهم. وفلت الثلاثة. وبعد عودتي أمرت بمحاصرة الدار التي التجأ اليها الذي بقي منهم، والقيت عليه القبض. وحكم عليه القاضي بالاعدام لان واجبنا هنا هو اعطاء المثال على ما يترتب على مثل تلك الخيانة وتلك الوحشية لان الملك تعهد بحماية المسلمين واليهود اكثر من النصارى كما تدل على ذلك رسائله. وكان تنفيذ الحكم ممكناً ولو كان بالامكان النظر في هذه القضية كباقي القضايا، خصوصاً وأن المتهم زوج لامرأة فقدت زوجها سابقاً، هذا بالاضافة الى ان القضاة لا يمكنهم اصدار حكم بالاعدام، وبما ان ذلك ممكناً بالنسبة لقضاة البرتغال، وبما انني لا أتوفر هنا على اية صلاحية للمصادقة على العقوبات، قررت نظراً لكل هذه الأشياء التي تلح على ضميري ارساله الى البرتغال!

أتمنى أن يحفظ ربنا صحة سموكم
اقبل الأيدي الملكية لسموكم
وعلى ظهر الرسالة:
الى الملك مولانا
من بين خدامه
من غونسلو منديس سكوطو، بشأن هذه الاغتيالات التي تمت بآسفي.

بعض التبليغات
التي توصلت بها محكمة التفتيش البرتغالية
المتعلقة ببعض يهود ومسلمي ومسيحيي أزمور.

المحضر الاول(1)

في يوم 10 يناير 1537 ، بمدينة يابرة (Evora) ، وفي غياب أسقف سبتة، المفتش الكبير، وبمحضر Joâo de Mello الذي ناب عنه، وكذلك بمحضر القاضي G. De Pinheiro ، نائب ومستشار محكمة التفتيش المقدسة، وبمحضر D. Lopes ، الذي كان يقوم بنفس المهمة، مثل (أمام المحكمة) F. Farzaô ، النبيل، وقاضي الايتام بأزمور الذي بلّغ بالاشخاص الآتية أسماؤ هم : « J. Alvares do Avelhar » كاهن أزمور لكونه قال: «ان القيام بالاحسان خطيئة كبرى لان ذلك يبين أن الفقراء وصلوا الى حد من التكبر يحول دون دخولهم الجنة(2) ». و (بلّغ) بالقبطان « D. Alvaro de Abranches ». لكونه قال بشأن الصلوات على الاموات « . . . انه يكره كل الاغتصابات وكل السرقات التي تقوم بها الكهان في هذه المناسبة. . . » و (بلّغ) بـ B. Rodrigués لكونه امتنع عن العمل يوم السبت كما يفعل اليهود. وعن الاسئلة الروتينية أجاب أنه يكره الاشخاص الثلاثة المعنيين بالامر «كلهم على حد سواء» كما بلّغ كذلك بـ A. Léite. قبطان مازيغن سابقا، وقبطان أزمور حاليا الذي سمح لعدد كبير من المسيحيين بمغادرة المدينة وباعتناق الاسلام، وبالعودة الى أزمور تحت هذه الصفة.

---

(1) In. S. I. H. M. port. V. p. 120

(2) ‘ Que era pecado ruortall favorecer os pobres, porque elle mostraria que eram tam soberbos que se nam podiam sallvar...

المحضر الثاني(1)

في يوم 15 من نفس الشهر (يناير)، ومن نفس السنة (1537) ، وبنفس المكان (مدينة «يابرة»)، وبمحضر نفس المفتش الكبير، و (A. Rodrigues) رئيس دير (Mousants) ، و (Ruy Lopes de Carvalho) والقاضي (غونصالو بينيرو (Pinheiro Goučalo ، حضر G. Affouso Agudo الساكن بمدينة تفيرا Tavira ، الذي بلّغ «بموسى الديب» اليهودي المتنصر الذي عاد الى دينه الاول، وبخادمة اسلمت هي وصهرة (A. Vaz codelha) ، التي تنكرت لدينها واعتنقت الديانة اليهودية.

(1) Arch. Histórico port. T6 p. 82

المحضر الثالث(1)

وفي يوم 16 من نفس الشهر (يناير)، ونفس السنة (1537) ، وبمحضر نفس المفتش الكبير، وبمحضر A. Rodrigues ، ومحضر مستشاري ونواب محكمة التفتيش المقدسة حضر Joaô Nunes Velho ، الفارس ببلاط الملك الذي سبق له أن أقام بأزمور حيث تعرّف على يهودي يسمى موسى الديب، والذي كان نصرانيا (بطفيرا)، وذكر كذلك أن صهرة « Codelha » كانت يهودية مع أنه سبق لها أن كانت مسيحية وأن أم (Joaô Rodrigues) لا تعمل يوم السبت مع أنها نصرانية. وفي نفس اليوم سئل « Domingos Nunes » الذي بلّغ بـ A. Fernandès de Alvalade الكبير، المقيم بلشبونة وبزوجتيه واللذين كانا يهوديين سابقا، واللذين لا يعملان يوم السبت ويعملان يوم الاحد.

(1) Arch. Hist. part. T6 p. 82

المحضر الرابع(1)

وفي يوم 18 من نفس الشهر والسنة، مثل أمام القاضي (Afonso Vaz) الذي ذكر أنه بينما كان بمازيغن في سنة جفف كبير 1531 تقريبا، تنصر عدد كبير من المسلمين ثم عادوا بعد ذلك الى بلاد الاسلام اما قرب مازيغن أو قرب أزمور، وذلك بموافقة « António Leite » قبطان هذه المدينة، الذي تسلم منهم - حسب اشاعات تداولها الجميع - مبالغ مالية. وذكر كذلك أنه يعرف بأزمور عددا من الاشخاص كانوا مسيحيين من قبل وأصبحوا الآن يهودا: صهرته، موسى الديب، اسحاق كبيصا، بنجمين رفاعي ويعقوب دودينا.

(1) Arch. Hist. port. T6 p. 82

المحضر الخامس(1)

وفي يوم 22 مثل (أمام القاضي)(2) وبلغ بـ Joaô Rodrigues Estaço الساكن بأزمور الذي تنكر للمسيحية واعتنق الديانة الاسلامية.

(1) Arch. Hist. port. T6 p. 83

(2) لم يحدد المحضر هوية الشخص المبلغ.

المحضر السادس(1)

وفي نفس اليوم (31 ماي 1542) مثل (أمام محكمة التفتيش) Vincente Rodrigues Evangelho Moveira ، الفارس بالبلاط الملكي، والذي سبقت له الاقامة بأزمور، وقال أن Catarina Vaz ، اليهودية المتنصرة التي سكنت بأزمور سابقا، والتي تقيم حاليا بلغوس، كانت حين وفاة ابنها وتوصّله بالمسحة الاخيرة (o filho estava para morer e foi undigo.) كانت تلحس جسده بين الفينة والاخرى لازالة الزيت منه، وصرح انه رآها تفعل ذلك بعينه.

(1) Arch. Hist. Port. T6 pp. 107 – 8

المحضر السابع(1)

وفي يوم 10 ينـــاير (1543) استنطـــق القـــاضي Antonio de Liao, Violente de Goes زوج Christovao Farzao الذي قال بأنه يعيش بأزمـــور Manoel Rodrigues وزوجته Filippa Rodrigues وابنتـاه، احـداهما مزوجـة مع Fernao Pinheiro اليهودي المتنصر، والاخرى مع Gabriel Pinheiro ، وكانت تأتي الى بيتهم لتـأكل يهـودية السيدة Camaha واليهـوديان يعقـوب الـديب، ومـوسى الديب، ورأى عائلة Rodrigues تذهب لحضور كل حفلات وكل أعياد الفصـح ببيت اليهودية المذكورة، واضاف انه سمعه يعترف بذلك للكاهـن (الـذي يتقبـل الاعترافات) الذي نصحه بالاعتراف بذلك لمحكمة التفتيش المقدسة.

(1) Arch. Hist. Port. T6. p. 111

الخرائط المعتمدة في البحث.

1 ـ تضاريس دكالة ووحداتها الطبغرافية 51
2 ـ القبائل الدكالية قبل دخول القبائل العربية الى المنطقة 60
3 ـ القبائل الدكالية في بداية القرن 16 78
4 ـ مراحل تحكم البرتغاليين في دكالة 228
5 ـ الاوضاع الاقتصادية لدكالة والمناطق المرتبطة بها (حوالي 1515) 306
6 ـ رسم لاسوار مازيغن (الجديدة) البرتغالية 375

الرسوم البيانية.

1 ـ تطور اثمان القمح بدكالة (بالريال البرتغالي) 289
2 ـ الاموال التي كانت بحوزة المسؤولين التجاريين والماليين البرتغاليين بآسفي، ونسبة المبيعات فيها 298

الجداول الواردة في البحث.

1 ـ جدول متعلق بقباطنة آسفي 250
2 ـ جدول متعلق بقباطنة أزمور 251
3 ـ جدول متعلق بقباطنة مزغان 252
4 ـ جداول تتعلق بالعمليات العسكرية التي خاضها البرتغاليون بدكالة والمناطق المجاورة .... 224 - 229
5 ـ جدول متعلق بكميات القمح التي دخلت «فيطورية» (متجر) آسفي 285
6 ـ جدول متعلق بكميات الشعير التي دخلت «فيطورية» (متجر) آسفي 287

7 ـ جدول يبين كميات «البسكويت» التي جلبت الى آسفي 288
8 ـ جدول يبين المبالغ المالية التي كانت في حوزة المسؤولين التجاريين والماليين البرتغاليين بآسفي .... 296 - 297
9 ـ جدول يبين المبالغ المالية التي كانت في حوزة المسؤولين التجاريين والماليين البرتغاليين بأزمور 299
10 ـ جدول يبين الكميات من الانسجة الصوفية المحلية التي اشتراها البرتغاليون بآسفي 308
11 ـ جدول خاص بنسيج «البردات» المذكور بايصالات آسفي 309
12 ـ مواد النسيج الخامة والعقاقير ومواد الصباغة الواردة بايصالات آسفي 313
13 ـ التوابل التي دخلت متجر آسفي 314
14 ـ جدول خاص باعداد ووزن العقيق الذي دخل متجر آسفي 315

مصادر ومراجع البحث

1 ـ المصادر.

(أ) المصادر العربية

ـ ابن الخطيب. . . : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. تحقيق محمد كمال شبانة الرباط 1977

ـ ابن الخطيب. . . : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تحقيق احمد مختار العبادي. ط مصر (بدون تاريخ)

ـ ابن خلدون. . . عبد الرحمان: «كتاب العبر. . .» ط. لبنان 1961 مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

ـ ابن الزيات يوسف بن يحيى. . . التادلي: التشوف الى رجال التصوف تحقيق ونشر (أدولف فور) الرباط 1958

ـ ابن عبد العظيم الازموري، محمد بن عبد العظيم: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين، ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال امغار الصالحين مخطوط خ. ع. 1343

ـ ابن عذارى. . . : البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب القسم الثالث ط. تطوان 1960 .

- ابن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من أهل القرن العاشر نشر محمد حجي. الرباط 1976 .

- ابن القاضي. . . احمد بن محمد: جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس دار المنصور 1973

- ابن القاضي. . . احمد بن محمد: درة الحجال في اسماء الرجال، أو غرة الحجال في اسماء الرجال طـ. تونس 1973

- ابن القاضي. . . احمد بن محمد: لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد نشر محمد حجي. الرباط 1976

- ابن قنفد احمد بن الخطيب القسنطيني: انس الفقير وعز الحقير تحقيق ونشر محمد الفاسي وأدولف فور الرباط 1965

- احمد بابا السوداني: نيل الانتهاج بتطوير الديباج طـ. مصر 1329 هـ

- احمد بن ابراهيم الماجري: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح. طـ. مصر 1933

- احمد بن محمد بن ابراهيم الدكالي: سلسلة الذهب المنقود في ذكر اعلام من الاسلاف والجدود. مخطوطة خ. م. ز. 3822 مج.

- احمد بن عرضون: مقنع المحتاج في أدب الازواج مخطوطة خ. ع. ك. 1026

- البيدق. . ابو بكر بن علي الصنهاجي: «اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين. . .» دار المنصور 1971

- الحموي. . . ياقوت: معجم البلدان طـ. بيروت 1956

- الزياني. . . ابو القاسم: الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور برا وبحرا تحقيق عبد الكريم الفلالي فضالة 1967

ـ الكانوني محمد بن احمد العبدى: تقاييد تاريخية مختلفة جمعها في عدد من الكنانيش يملك الاستاذ المنوني سبعة منها.

ـ نفسه:جواهر الكمال في تراجم الرجال مخطوطة الاستاذ المنوني التي تبدأ عند عبد الرحمان. وطبع قسم صغير. يحتوي على اسماء الاعلام المسماة احمد

ـ الكتاني . . . محمد بن جعفر: سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس. حجرية.

ـ المجذوب عبد الرحمان الفرجي الدكالي: ديوان عبد الرحمان مخطوطة الاستاذ المنوني.

ـ المهدي بن احمد الفاسي: ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع. طـ. حجرية.

ـ عبد الله الهبطي: الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الاسلامية. مخطوطة.

ـ عبد الرحمان الفاسي: ابتهاج القلوب بخبر الشيخ ابي المحاسن وشيخه المجذوب. مخطوطة خ. م. 1222

ـ العربي بن ابي المحاسن الفاسي: مرآة المحاسن في اخبار الشيخ ابي المحاسن طـ. حجرية

ـ القادري محمد الطيب: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر. . . تحقيق هاشم العلمي. خزانة كلية الاداب الرباط

ـ ظهائر سعدية لفائدة زاوية أبي محمد صالح.

- (ب) المصادر باللغات الاجنبية

– Alguns Documentos do Archivo **nacional** do Torré do Tombo publication de l'Academie des sciences Lisbonne 1892.

- Baião. A. Documentos do corpo chronológico relativos à Marrocos (1488 - 1514) Coimbra. 1925

- Braamcamp Freire - cartas de quitaĉão de D. Manuel. Archivo histórico português - 11 vol.

- L. Chênier - Recherches historiques sur les Maures; Paris; 1788; 3. vol.

- Castries (Comte de) Description du Maroc sous le règne de moulay Ahmed Mansour d'après un manuscrit de la bibliothèque nationale. Paris 1909

- Castries:sources Inédites de l'histoire du Maroc. France 1ère série, TI et Espagne, 1ère **série** TI

- Cenival, Pierre (traducteur) la chronique anonyme de Santa Cruz de Cap de Guè. Paris 1934.

- Cenival, th. Monod (traducteurs) description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandez (1506 - 1507) Paris 1938.

- Cenival, S.I.H.M. Port. (T.I.2)

- De Marmol - (L. Carvajal) De L'Afrique - trad. Franĉ. de N.P. d'Ablancourt Paris 1867. 3 vol.

- Imquisiĉao em portugal: IN. Arch. histórico portug. T.VI. et S.I.H.M. Port. V. pp. 119 - 120

- Léon l'Africain: Description de l'Afrique. trad. Epaulard maisonneuve. 1956. 2 vol.

- Livro de tributos reas com os Mouros e alarves da cicade de Almedina, toda aduqella e terra de xiatima con seus castellos contribuyam aos reys deste reyno, os quaes com começaram a pagar nos annos de 1510 — 1512. manuscrit des archives de torrè do tombo lisboa, N.A. n. 89

- Ricard (R) (traduct) un document portugais sur la place de mazagan au début du XVII e siècle. Paris 1932.

- Ricard (R))traduct) mazagan et le Maroc sous le règne du Sultan Moulay Zidane (1608 - 1627) d'après le "discurso" de gonĉalo coutinho,gouverneur

de mazagan (1629) Paris 1956.
- Ricard (R))traduct) les portugais au Maroc de Damiâo de Góis **extraits** de la "crónica do felicissimo Rei D. Manuel" Rabat 1937.
- Ricard (R) (traduct) les portugais et l'Afrique du Nord - extraits des "Annales de jean III" de Fr. J. de **sousa** Paris 1940.
- A. Ricard (R) (traduct) **les portugais** et l'Afrique du Nord sous le règne de jean **III. d'après la chronique de Francisco de Andrade. Hesp** XXIV. 4è trin pp. 259 - 315.

2 ـ المراجع.

(أ) المراجع بالعربية

ـ ابن ابراهيم عباس المراكشي: الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ط. ملكية

ـ بنشريفة محمد: امثال العوام بالاندلس

ـ ابو بكر البوخصيبي: أضواء على ابن يجبش التازي. البيضاء 1976 .

ـ احمد التوفيق: جوانب من تاريخ المغرب الاجتماعي في القرن التاسع عشر، انولتان من 1850 الى 1912 مكتبة كلية الاذاب الرباط

ـ التقي العلوى: أصول المغاربة، القسم البربري مجلة البحث العلمي عدد 1972, 19

ـ الجمل، شوقي عطا الله: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها القاهرة 1971 .

ـ حجي محمد: القومية المغربية، دعوة الحق، يونيو - يوليوز 1967 .

ـ الكانوني محمد بن أحمد العبدي: آسفي وما اليه قديما وحديثا ط. مصر 1353 هـ

- الكانوني محمد بن أحمد: علائق آسفي ونواحيه بملوك المغرب، أدرجنا فيه لب سيرة ملوك المغرب والحالة الاجتماعية. مخطوطة السيد أحمد بن الشيخ، حفيد ابي محمد صالح

- محمود اسماعيل عبد الرزاق: «مغربيات» ابريل 1977 .

- المنوني محمد: صناعة الاسلحة بالمغرب، دعوة الحق، عدد 8 شتنبر 1970

- المنوني محمد: القومية المغربية دعوة الحق، يوليوز 1970

- الناصري السلاوي. :. أحمد بن خالد: الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى الجزء الخامس، البيضاء 1956

- عبد العزيز عبد الله : الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب: البينة غشت، اكتوبر، نونبر 1962

- السوسي، المختار: المعسول. ج. 9

(ب) الدراسات باللغات الاجنبية

– Antona: La région des Abda. Rabat 1931.

– M. Barradas de Carvalho. L'idéologie religieuse dans la "Crónica de Guiné" Bulletin des etudes portugaises T. 18, 1955 – 56.

– D. Is. Abou: Musulmans andalous et Judéo – Espagnols (Casa 1953)

– H. Basset (Henri) et H. Terrasse Sanctuaires et forteresses almohades : le Ribat de Tit Hesp. 1927, T. VII, 2e trim. pp. 117 – 171.

– Bellaire, Micheaux Azemmour in villes et tribus du Maroc. vol. XI. Paris 19

– Bellaire, Micheaux: conférences. Arch. Maroc. XXVII, 1927

– Bellaire, Micheaux: les Doukkala in villes et tribus du Maroc vol. X, Paris 1932.

– Bellaire, Micheaux: Essai sur les confréries. hesp. 1921 TT. 1, 2é. Tri. pp. 141 – 159.

– Boutruche. R.: Seigneurie et féodalité. Paris 1959.

– J. Bouquerelle: Le port de Safi de l'antiquité aux temps modernes; Rev. de la chambre de commerce, n. 35 Janvier 1969.

– Braudel: La mediterranée et le monde mediterraneen à l'époque de philippe II. Paris 1966.

– Brignon et Coll: Histoire du Maroc. Hatier. 1967

– Carvalho (Vasco De): La domination portugaise au Maroc (1415 – 1769) 1936

– Castries (Comte de) Chevaliers d'Europe et les guerres au Maroc, René de Chateaubriand, compte de Guazana au Royaume de Fès en 1493. Hesp. 1934, XIX, fas. 1, 2, pp. 27 – 29.

– Castries: Les gnomes de Abderrahmane Mejdoub.

– Castries: les sept patrons de Marrakech. hesp. 1924, TIV, 3e, trim. pp. 245 – 303.

– Cènival (Pierre) la cathédrale de Safi. hesp. vol. IX, 1929, pp. 1 – 29.

– Cenival Les emirs Hintata, "rois" de Marrakech. Hesp. XXIV, 1937, pp. 245 – 259.

– P. Chaunu: l'Expansion européenne du XIII au XIVe siécle. P.U.F. Paris 1969.

– P. Chaunu: conquête et exploitation des nouveaux mondes. P.U.F. Paris.

– Colin. (S. G.): Des juifs nomades retrouvés dans le Sahara marocain au XVI e siècle. In. Mélanges d'etudes luso – marocaines offertes à D. lopes et P. Cenival. Paris 1945.

- Dermenghem (E): Le Culte des Saints dans l'islam maghrebin Gallimard 1974 (7e èdit).

- Deverdun (G.): Marrakech, des origines à 1912. Rabat 1955.

- Desmazieres: Un martyr franciscain à Fès au XVI siècle. Paris. 1939.

- Doutté (Edmont): Mission au Maroc: en tribu, Paris 1914.
Marrakech. Paris 1905.
Notes sur l'Islam maghrebin: Les marabouts, Paris. 1900.

- Dufourcq (Ch): L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIV siècle. P. U. F. Paris 1966.

- Dzinbinsk (Andrezej) L'armée et la flotte de guerre marocaines á L'époque des Sultans de la dynastie Saâdienne hesp. Tam. Vol. XII, 1972 pp. 61 - 94.

- Sanceau (Elaine) et R. Ricard: Un projet de remise de Têtouan aux portugais en 1502. Hesp. 1957, Ie 2e trìm. pp. 21 - 25.

- Evin (P. A.) L'architecture portugaise au Maroc B. E. P. T IX. 1942.

- Ferrè (M.) et J. Ruhaid: Ressources en eau au Maroc TII. Plaines et bassins du Maroc atlantiques - èdit du Service géolgique Rabat. 1975.

- Figanier (J): Portugais Maroc, ènnoncé de quelques problèmes. B. E. P. T. 8. 1941.

- Godinho (Vitorino - Magalhaes): Crises et changements géographiques et structuraux au XVIe siècle. (Economia) (lisbonne) XI. Mars 1958.

- Godinho (Vitorino - Magalhaes): L'èconomie de L'empire portugais aux XVe et XVIe siècle. Paris 1969

- Godinho (Vitorino - Magalhaes): les finances publiques et la structure de

L'Etat portugais au XVIe siècle. (Economia), XIV, Juin 1962
pp. 105 – 15

- Godinho (Vitorino – Magalhaes) Les grandes découvertes B.
E. P. T. XVI, 1952, pp. 3 – 54.

- Godinho (Vitorino – Magalhaes): Les incidences de la course sur L'économie maritime portugaise au XVI e siècle. (Economia) Dec 1960 pp. 143 – 155.

- Godinho (Vitorino – Magalahes): Le Tournant mondial de 1917 – 1924 et L'empire portugais – Studia I. (lisbonne) 1958. pp. 184 – 199.

- Goulven (J): Le cercle des Doukkala du point de vue économique. Paris 1917.

- Goulven (J): La place de Mazagan sous la domination portugaise Paris 1917.

- Goulven (J): La politique indigène du RoiD. Emmanuel I. dans le Sud du Maroc, in Congresso do Mundo português Vol III, TI, pp. 131 – 144.

- Goulven (J): Safi au vieux temps des portugais Lisboa, 1938.

- Gounard (R): La conquête portugaise, découvreurs et économistes. 1947.

- Heers (J): Gênes au XVIe siècle. Flammarion, 1961.
édit lib. de Médicis

- Heers (J): L'occident aux XIV et XVe siècle, aspects économiques et sociaux. P. U. F. Paris 1963.

- Julien (C. A.): Les voyages de découvertes et les premiers établissements (XVe S – XVIes) P. U. F. Paris 1948.

- Lannoy – Vander: L'expansion coloniale des peuples européens. TI. (Espagne et Portugal) Bruxelles 1907.

- Laroui (A.): Histoire du Maghreb. Maspéro. 1977.

- Laroui (A.): Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain.

Maspero 1977.

- Lazarev (G.): Les concessions foncières au Maroc. in Etudessociologiques sur le Maroc. Publications du B. E. S. M.

- Le Tourneau (R.) Notes sur lettres latines de Nicolas Clenard relatant son séjour dans royaume de Fès (1940 - 45) Hesp. XIX e fasc 1,2 pp. 39 - 52.

- Lima (D. Pires): Azamour, os precedentes da conquista a expediçao de Duque Dom Jaime. Lisboa, 1930, 54 p.

- Lima (D. Pires): história dadominaçao portuguesa em cafim. Lisboa 1930.

- lopes (D.): Os portugueses em Marrocos. In. Damião Pires, III, 1931. -pp. 385 - 544, T.IV, 1932, pp, 78 - 121.

- lopes (D.): Les portugais au Maroc. rev. d'histoire moderne. T.XIV. n. 39 Août Sept. 1939.

- Lopes (D.): textos em aljamia portuguesa" 2ème édit. Lisbonne 1940.

- Marçais (G.): Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècle. Constantine. Paris, 1913.

- Mauro (F.): Le XVIe siècle, Aspects économiques. P.U.F. Paris 1966.

- Massignon(Louis): LeMaroc dans les1ères annéesdu XVIe siècle. Alger 1906.

- Masson (P.): histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque (1560 - 1793) 1903.

- Mezzine (Larbi): Un aspect de l'islam au XVe siècle. l'enseignement confrérique D'Al jazouli (Mémoire de maitrise).

- Montagne (R.): Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc. Paris 1930.

- Noin (D.): La population rurale du Maroc. Paris 1970 2 vol.

- Paritié (A.): Aperçu historique de l'occupation portugaise au Maroc Rev. du monde musulman. T. XII. 1910.

- Provençal (L.): Historiens des Chorfas. 1922.

- Repertoire alphabétique des confèderations des tribus et fractions de tribus et des agglomérations de la zone française de l'empire Chérifien.

Rabat. 1939.
- Ricard (Robert): Le commerce de berberie et l'empire portugais. A.I.E.D. Alger, T.II, 1936.
- Ricard (Robert): La côte atlantique du Maroc au début du XVIe siècle :d'après des instructions nautiques portugaises. Hesp. 1927,
T.VII, 2e trim. pp. 229 - 258.
- Ricard (Robert): Dernières remarques sur l'histoire des portugais au Maroc. IN.S.I.H.M.Port.V.pp. XI- XVI. (introduction).
- Ricard (Robert): Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et du Portugal. Louvain. 1930.
- Ricard (Robert): Etudes sur l'histoire des portugais au Maroc. Coimbra 1955.
- Ricard (Robert): l'évêché de Safi. In. S.I.H.M.Port.VIII pp. 75 - 82.
- Ricard (Robert): La factorerie portugaise d'oran. A.I.E.O.V. 1939.
- Ricard (Robert): Médecin et Médecins à Arzila (1508 - 1539) Hesp. XXVIe 1939 pp. 171 - 178.
- Ricard (Robert): Notes sur la tactiques miltaire dans les places portugaises du Maroc. Bulletin Hispanique 1933.
- Ricard (R.): Le problème de l'occupation restreinte dans l'Afrique du Nord (XVe - XVIII) A.E.S. Sept. 1936.

- Ricard (R.): Recherches sur les relations des îles canaries et de la Berberie au XVIe siècle. In. Les Espagnols sur la côte d' .frique au XVe
XVIe siècle. Paris 1939.
- Ricard (R.): Sur le chronologie des fortifications portugaises d'Azemmour Mazagan et Safi. In. Congresso do Mundo portugués. vol III TI. Lisbounne 1940 pp. 105 - 117.
- Rosenberger (B) H. Triki: Famines et épidemies au Maroc. Hesp. Tam. XIV. fasc unique 1973 pp. 109 - 175.
- Rosenberger (R.): Notes sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'o. Tensift. Hesp. Tam. Vol. 1967pp.
- Rosenberger (R.): Travaux sur l'histoire du Maroc au XVe s. et XVIe S.

publiés en Pologne. Hesp. Tam. Vol. XII. Fasc. unique. pp. 193– 218.

– Slouche: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc. Arch. Maroc. Vol. VI. 1906.
– Terrasse (H.): Histoire du Maroc. Casablanca 1950.
– Terrasse (H.): Sur les contacts artistiques entre le Maroc et le Portugal aux XVe et XVIe Siècle. in. Melanges d'Etudes lusomarocaines offertes à P. Cenival – D.Lopès. Paris 1945.
– Verlinden (Ch): l'esclavage dans l'Europe médiévale TI. (Espagnes, Portugal à l'époque des grandes découvertes pp. (615 – 632) Bruges 1955.
– Witte (Ch. M.): Les Bulles poutificales et l'expansion portugaise au XVe Siècle. Rev. d'histoire ècclesiastique n. XLVIII (1953) XIIX (1954), LI (1956), LIII (1958).
– Zurara (G.E.): Chronique de Guinée. Trad. L. Boudan, Dakar 1960.
– Zafrani (H.): Les Juifs au Maroc, vie sociale, économique et religieuse. Paris 1972.

1 - فهرس الاعلام

- أ -

ابن ابراهيم المشترائي ، أسرة : 131
ابراهيم بن علي بن راشد : 290 ، 304 ، 311 ، 312 ، 355 ، 390 ، 391
ابراهيم بن زميرو : 137 ، 196 ، 215 ، 230 ، 253 ، 255 ، 256 ، 306 ، 318 ، 337 ، 356 ، 359 ، 470
اتايد ، نونو فرنانديش ، قبطان آسفي : 20 ، 39 ، 195 ، 196 ، 197 ، 213 ، 214 ، 215 ، 216 ، 219 ، 220 ، 221 ، 222 ، 232 ، 233 ، 234 ، 236 ، 243 ، 249 ، 250 ، 253 ، 257 ، 258 ، 260 ، 265 ، 270 ، 283 ، 286 ، 321 ، 353 ، 354 ، 355 ، 359 ، 360 ، 367 ، 385 ، 406 ، 447 .
أحمد بابا السوداني : 124
أحمد بن ابراهيم الدكالي : 70 ، 72
أحمد المختار العبادي : 30
أحمد المنصور السعدي : 33 ، 437 ، 450
أحمد الأعرج : 20 ، 21 ، 54 ، 55 ، 220 ، 221 ، 231 ، 232 ، 236 ، 250 ، 256 ، 257 ، 283 ، 338 ، 341 ، 342 ، 356 ، 383 ، 384 ، 385 ، 389 ، 391 ، 392 ، 393 ، 394 ، 405 ، 406 ، 417 ، 422 ، 423 ، 467 ، 470 ، 471 ، 473
أحمد العطار : 21 ، 256 ، 290 ،

ملاحظة : اعتمدت على الألفبائية المغربية التي ترتب على الشكل التالي : أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، ط ، ظ ، ك ، ل ، م ، ن ، ص ، ض ، ع ، غ ، ف ، ق ، س ، ش ، هـ ، و ، ي .

303 ، 308 ، 311 ، 323 ، 355 ، 389 ، 390 ، 460

أحمد بن علي ، قائد آسفي : 174 ، 175 ، 178 ، 179 ، 184 ، 186 ، 187 ، 188 ، 191

أحمد بن علي الازموري ، عالم : 131

أحمد بن قنفذ : 31 ، 46 ، 47 ، 50 ، 61 ، 84 ، 87 ، 106 ، 107 ، 109 ، 122 ، 124 ، 130

أحمد أفُوكاي : 437 ، 450

أحمد الوطاسي : 288 ، 311 ، 391

ادريس الهنتاتي : 220 ، 371 ، 382

الادريسي ، الشريف : 46

إدوارد ، ملك البرتغال : 149 ، 150

أزفيدو ، بيدرو ، قبطان : 249 ، 250

إمنويل ، ملك البرتغال : 9 ، 27 ، 40 ، 137 ، 182 ، 185 ، 190 ، 206 ، 261 ، 295 ، 336 ، 337 ، 341 ، 352 ، 354 ، 388 ، 406 ، 422

أمغار ، أبو عبد الله : 52 ، 125 ، 127 ، 134

أمغاريون : 46 ، 47 ، 62 ، 72 ، 91 ، 125 ، 127 ، 134

الفارودو أبرانش ، قبطان أزمور : 351

أنطونا : 361

أفونصو الخامس : 9 ، 114 ، 149 ، 150 ، 151 ، 162 ، 174 ، 177 ، 295 ، 317 ، 422

أفيش ، أسرة حاكمة البرتغال : 156 ، 161

اسحاق بن أبي الحسن الأمغاري : 52 ، 134

إسحاق بن زميرو : 255 ، 296 ، 305 ، 311 ، 337

إسماعيل العلوي ، سلطان : 468 ، 469

اسماعيل بن زميرو : 255

– ب –

البابا : 149 ، 150 ، 151 ، 152 ، 181 ، 186 ، 206 ، 308 ، 312 ، 334 ، 335 ، 336 ، 395 ، 417 ، 424 ، 425

باريطو ، قبطان : 251 ، 253
باريغا ، لوبو : 209 ، 231 ، 406
براغانصا ، دوق : 91 ، 196 ، 206 ، 258 ، 416
بروديل ، مؤرخ : 59 ، 208
البكري ، أبو عبيد الله : 46
بوجمعة ،شيخ الشياظمة : 232 ، 257 ، 258 ، 378
بوحسون ، الوطاسي : 357
بودبيرة ، قائد : 54 ، 389
بودومة ، أنظر الناصر
بوشنتوف ، أنظر الناصر
بياوُو ، مؤرخ : 27 ، 70
بيدرو ، أمير برتغالي : 157 ، 158
بيريرا ، باشيكو ، ملاح برتغالي : 33 ، 91
بلير ، ميشو : 70 ، 361

- ت -

التهامي الكلاوي : 261

- ج -

جراو لوبش ، قبطان : 250
جرمود ، عبد الله : 131
الجزولي محمد بن سليمان : 128 ، 135 ، 174
جوا الأول (يوحنا) ملك برتغالي : 157
جوا الثاني (يوحنا) ملك برتغالي : 9 ، 129 ، 156 ، 162 ، 177 ، 190
جوا الثالث (يوحنا) : 29 ، 288 ، 295 ، 296 ، 391 ، 395 ، 415 ، 422
جيان ، قائد عسكري : 389

- ح -

أبو الحسن المريني : 112
حسن بن علي ، أحد أعيان عبدة : 387
الحسن الوزان (راجع ليون الإفريقي)
حسون شيخ عبدة : 214 ، 216 ، 220

- خ -

ابن خجو : 474
ابن الخطيب ، لسان الدين : 30 ، 58 ، 76 ، 84 ، 88 ، 89 ، 91 ، 92 ، 93 ، 106 ، 111 ، 112 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 127 ، 132 ، 134 ، 135 ، 175 ، 301
ابن خلدون ، عبد الرحمن : 46 .

47 ، 71 ، 73 ، 76
خوارج ، بالمغرب : 125

— د —

دارديرو ، موسَى ، يهودي : 215 ، 255 ، 352
الدليل ، منصب عسكري : 209 ، 363 ، 406
دوتي ، ادمون ، كاتب : 92
ديوغ و دو أزنبوجا (قبطان) : 39 ، 189 ، 190 ، 194 ، 196 ، 206 ، 249 ، 250 ، 253 ، 404
ديا ، شيخ أولاد عمران : 215 ، 258
الديب ، ابن (أسرة يهودية) : 215 ، 256
ديبغودو طريش ، اخباري اسباني : 29 ، 30 ، 36

— ر —

بنو راشد ، قواد الشاون : 222 ، 233 ، 255 ، 467
رحو بن شحموت ، شيخ أولاد عمران : 255 ، 296 ، 104 ، 106 ، 308 ، 323
الرشيد ، الموحدي : 75 ، 76 ، 132
رودريغش ، برناردو ، اخباري برتغالي : 29 ، 36
روط ، يهودي : 391
ريكار ، روبير (مؤرخ) : 8 ، 17 ، 20 ، 21 ، 22 ، 28 ، 29 ، 33 ، 38 ، 254 ، 339 ، 343 ، 425 ، 426

— ز —

زورارا ، إخباري برتغالي : 148 ، 153
زيان الوطاسي ، حاكم أزمور : 9 ، 20 ، 192 ، 193 ، 195 ، 196 ، 397
الزياني ، أبو القاسم : 73 ، 87

— ط —

طيراس ، هنري ، مؤرخ : 352 ، 437 ، 440

— ك —

كاليست الثالث ، بابا : 150 ، 151
الكانوني ، العبدي ، مؤرخ : 34 ، 61 ، 360
كاستر ، هنري ، مؤرخ : 33
كاشترو ، قبطان : 251 ، 386 ، 406 ، 445
كرفاليو ، مؤرخة : 153

كريمات ، شيخ دكالي : 354 ، 464

كودينيو ، مؤرخ برتغالي : 158 ، 159

كورتيزاو ، جيم ، مؤرخ برتغالي : 153

كوريا ، سياو ، قبطان : 251 ، 386 ، 406 ، 442

كولفن ، مؤرخ : 8 ، 39 ، 40 ، 261 ، 262 ، 425

كويش ، اخباري برتغالي : 17 ، 23 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 32 ، 36 ، 38 ، 39 ، 48 ، 61 ، 77 ، 80 ، 83 ، 84 ، 94 ، 95 ، 108 ، 123 ، 184 ، 191 ، 209 ، 216 ، 220 ، 221 ، 225 ، 230 ، 232 ، 249 ، 258 ، 266 ، 267 ، 268 ، 270 ، 294 ، 339 ، 341 ، 353 ، 355 ، 362 ، 363 ، 364 ، 365 ، 382 ، 385 ، 406 ، 462 ، 467 ، 486

– ل –

لوبش ، دافيد ، مؤرخ برتغالي : 17 ، 20 ، 36 ، 37 ، 217 ، 261 ، 269 ، 365 ، 427 ، 459 ، 461

لود ، أحد أعيان الشاوية : 322

لوريرو ، قبطان : 250 ، 252 ، 406

ليط أنطونيو ، قبطان : 248 ، 250 ، 251 ، 252 ، 254 ، 256 ، 264 ، 304 ، 342 ، 354 ، 359 ، 406

ليما ، دورفال ، مؤرخ برتغالي : 17 ، 35 ، 36 ، 39

ليفي (راجع مايل)

ليون الافريقي (الحسن الوزان) : 11 ، 27 ، 32 ، 48 ، 50 ، 57 ، 76 ، 82 ، 84 ، 87 ، 88 ، 90 ، 91 ، 92 ، 93 ، 103 ، 104 ، 106 ، 107 ، 109 ، 115 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 127 ، 132 ، 136 ، 138 ، 173 ، 174 ، 176 ، 188 ، 190 ، 195 ، 196 218 ، 353 ، 358 ، 385 ، 438 ، 463 ، 469 ، 471

ليوطي : 261

– م –

مارمول كربخال : 30 ، 32 ، 39

48 ؛ 50 ؛ 54 ؛ 57 ؛ 63 ؛
76 ؛ 79 ؛ 80 ؛ 81 ؛ 90 ؛
103 ؛ 104 ؛ 107 ؛ 135 ؛
175 ؛ 191 ؛ 362 ؛ 363 ؛
414 ؛ 438 ؛ 447 ؛ 470
ماكريون ، طائفة صوفية : 47 ؛ 125 ؛ 127 ؛ 134
مايل ليفي ، يهودي : 255 ؛ 296 ؛ 304 ؛ 306 ؛ 308 ؛ 322 ؛ 470
المتصل (Almotacel) (المحتسب) : 302
المجذوب ، عبد الرحمن : 470 ؛ 472 ؛ 474
المجهول ، مؤلف برتغالي : 33 ؛ 48 ؛ 50 ؛ 53 ؛ 54 ؛ 55 ؛ 57 ؛ 58
أبو مدين ، دفين العباد : 127
محمد البرتغالي : 32 ؛ 57 ؛ 192 ؛ 354 ؛ 378 ؛ 381 ؛ 382 ؛ 385 ؛ 386 ؛ 387 ؛ 390 ؛ 447 ؛ 449
محمد كمال شبانه : 31
محمد بن محمد ، شيخ الشرقية : 215 ؛ 258 ؛ 354 ؛ 379
محمد صالح (أبو) : 47 ؛ 71 ؛ 89 ؛ 111 ؛ 125 ؛ 126 ؛ 127 ؛ 128 ؛ 130 ؛ 133 ؛ 134 ؛ 467 ؛ 468
محمد بن سعيد ، انقشابو ، عالم دكالي : 131
محمد الشيخ السعدي : 384 ؛ 385 ؛ 445 ؛ 467
محمد الشيخ الوطاسي : 162
محمد الشيخ المامون : 467
المرتضى الموحدي : 131
منطاني ، روبير : 129 ؛ 177
المنظري ، مجاهد : 153 ؛ 222
المعتصم عبد الملك : 468
المقدم ، رتبة عسكرية : 209 ؛ 210 ؛ 213
المشرف ، منصب مالي : 302 ؛ 320 ؛ 410
مسكرنياش ، نونو ، قبطان : 219 ؛ 233 ؛ 236 ؛ 248 ؛ 250 ؛ 251 ؛ 257 ؛ 262 ؛ 270 ؛ 272 ؛ 356 ؛ 358 ؛ 359 ؛ 386
مول البركي ، ولي مجاهد : 361
موسى بن الديب ، يهودي : 343
مويت ، اخباري فرنسي : 123
ميلو ، مرتين أفونصو ، قبطان : 252 ؛ 442
ميلو ، غريسا ، قبطان : 248 .

250 ، 392

منيزش جوا : 251 ، 252 ، 253 ، 406

ميمون ، شيخ المدينة : 214 ، 216 ، 265

— ن —

الناصر بودومة ، شيخ دكالي : 257 ، 355 ، 407 ، 464

الناصر الكديد ، وزير وأخ السلطان محمد البرتغالي : 32 ، 61 ، 63 ، 80 ، 192 ، 208 ، 214 ، 219 ، 232 ، 233 ، 260 ، 270 ، 286 ، 374 ، 381 ، 382 ، 354 ، 366 ، 367 ، 383 ، 449 ، 450

الناصر الموحدي : 134

الناصر بوشنتوف ، الهنتاتي : 218 ، 220 ، 255 ، 352 ، 354 ، 377 ، 378 ، 380 ، 382 ، 383 ، 388

نورنيا أنطونيو ، قبطان : 251

نورنيا ، جوا ، قبطان : 248 ، 250

نورنيا ، رودريغو «العربي» : 218 ، 249 ، 262 ، 364 ، 462

نورنيا غارسيا ، قبطان : 248 ، 250

نورنيا فرناندو ، قبطان : 251 ، 412

— ص —

الصبيحيون ، عمال أزمور : 132

— ع —

عبد الرحمن ، مساعد يحيى أوتعفوفت : 265

عبد الرحمن ، قائد آسفي : 94 ، 138 ، 182 ، 184 ، 185 ، 186 ، 187 ، 188 ، 189 ، 191 ، 193 ، 214 ، 321

عبد الرحمن بن حدو : 257 ، 258 ، 259 ، 355 ، 366 ، 378 ، 470

عبد الله الهبطي : 474

عبد المولى بن غانم ، شيخ عبدي : 387

ابن عبد العظيم الأزموري : 31 ، 47 ، 52 ، 62 ، 91 ، 125

ابن عذاري : 132

ابن عربي ، متصوف : 127

العكاكزة ، طائفة : 474

علي حرزهم : 127

علي بن راشد ، قائد الشاون : 355

علي مومن ، شيخ الشاوية : 257 ، 259 ، 355

علي بن سعيد : 196 ، 379

علي بن وشمان ، قائد آسفي : 138 . 187 ، 189 ، 190 ، 194
أبو عنان المريني : 86 ، 87 ، 173
ابن عوف : 127
عيساوة ، طائفة : 475
عيسَى بن أبي بكر ، شيخ الغربية : 258 ، 353 ، 364

– غـ –

الغالب ، عبد الله (سلطان) : 440
غانم بن علي ، عبدي : 216 ، 220 ، 387
الغزالي أبو حامد : 126 ، 127

– ف –

دوفارو (جوا) ، قبطان : 250
فرحون ، بنو ، أسيرة حاكمة بآسفي : 174
دون فرناندو ، أمير برتغالي : 158 . 162
فلنتين فرنانديش ، بحار الماني : 32 ، 19 ، 192
فرير روي ، قبطان : 250
فريطاش لنسروط : 251
فليب الرابع : 29
فيت ، شارل ، مؤرخ : 40
فييكش ، جوا ، قبطان : 251 . 264 ، 412

– ق –

القائم بأمر الله : 231

– س –

سالم بن عمر ، من أعيان الشرقية : 194 ، 353
سكوطو ، قبطان : 248 ، 250 ، 251 ، 292 ، 296 ، 338 ، 339 ، 351 ، 407 ، 412 ، 416 ، 422
سند امنويل ، قبطان : 252
سبعة رجال : 469
سعيد ، ابن أخ يحيَى أوتعفوفت : 221 ، 236
سوزا ، جوا ، قبطان : 251
سوزا ، لويش اخباري : 17 ، 27 . 29 ، 36 ، 39 ، 61 ، 62 ، 64 ، 222
سنيفال ، بيير ، مؤرخ : 17 ، 20 ، 23 ، 24 ، 27 ، 28 ، 183 ، 261

– ش –

شارل الخامس ، امبراطور : 395 ، 417 ، 424 ، 425

أبو الشتاء دفين فشتالة : 474

أبو شعيب ، دفين أزمور : 125 ، 126 ، 127 ، 469

شوني ، بيير ، مؤرخ : 154 ، 156 ، 159

شوني ، لويس : 49 ، 196 ، 471

– هـ –

هنري الملاح : 114 ، 149 ، 153 ، 156 ، 160 ، 317

– و –

الوزان : راجع ليون الافريقي .

– ي –

ابن يجبش التازي : 474

يحَيى أوتعفوفت : 19 ، 20 ، 22 ، 23 ، 28 ، 37 ، 38 ، 39 ، 59 ، 61 ، 95 ، 133 ، 138 ، 187 ، 188 ، 189 ، 190 ، 206 ، 211 ، 215 . 216 ، 217 ، 218 ، 219 . 220 ، 221 ، 223 ، 231 ، 232 ، 233 ، 235 ، 250 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 260 ، 261 ، 262 ، 265 ، 266 ، 267 ، 270 ، 271 ، 272 ، 299 ، 318 ، 350 ، 351 ، 352 ، 355 ، 356 ، 357 ، 358 ، 360 ، 364 ، 365 ، 367 ، 381 ، 382 ، 383 ، 385 ، 386 ، 447 ، 449 ، 464 ، 466 ، 473 ، 485

يحَيى الديب ، يهودي : 255 ، 314

يحَيى الزيات : 178 ، 180 ، 186 ، 188 ، 189 ، 190 ، 193

يعقوب بن الغربي : 256 ، 260 ، 271 ، 319 ، 464

يَشُو : 354

يوسف بن الديب : 337 ، 356 . 360

2 - أسماء القبائل والشعوب

- أ -

أتراك : 151 ، 384 ، 395 ، 424

الأثبج : 76

أولاد أحمد ، قبيلة بالحوز : 218 ، 231 ، 266

أحمر ، قبيلة : 83

الاطلول : 71

انجليز : 112 ، 384 ، 406 ، 446

إسبان : 113 ، 177 ، 187 ، 188 ، 211 ، 303 ، 304 ، 317 ، 383 ، 384 ، 404 ، 409 ، 414 ، 420 ، 425

ايطاليون : 113 ، 155 ، 159

- ب -

برابرة دكالة : 69

برغواطة : 46 ، 72 ، 73 ، 125

بوعزيز ، أولاد : 77 ، 79 ، 85 ، 266

بوسبع ، أولاد : 82

- ت -

تميم ، أولاد ، بالحوز : 83 ، 230 ، 382

- ج -

جنويون : 112 ، 113 ، 158 ، 159 ، 304 ، 319

- ح -

حارث ، أو الحرث : 54 ، 74 ، 76 ، 82 ، 85 ، 260 ، 271 ، 463

حوزية ، قبيلة : 463

حياينة ، قبيلة : 76 ، 463

- خ -

الخلط بدكالة : 74 ، 75 ، 76 ، 83 ، 87 ، 131 ، 132

– د –

دغوغ ، بنو : 72 ، 73 ، 75

دوي (دويب ؟) قبيلة بضواحي تيط : 79 ، 258 ، 268 ، 269

داود ، أولاد : 79

– ر –

رتنانة : 47 ، 93

رحال ، أولاد : 80

رجراجة (ركراكة) : 47 ، 48 ، 54 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73 ، 75 ، 82 ، 90 ، 93 ، 128 ، 360 ، 469

رحامنة ، قبائل : 83

رومان : 46

– ز –

زمامرة : 463

زيد ، أولاد : 77

– ك –

كطليون : 113 ، 155 ، 158 . 319

– م –

ماكر بنو : 23 ، 30 ، 36 ، 71 . 72 ، 73 ، 75 ، 82 ، 110 . 122 ، 189 ، 194 ، 195 . 230 ، 266 ، 267 ، 323 . 462

مرابطون : 73 ، 124

مرينيون : 77 ، 132 ، 162 . 173

مطاع ، أولاد : 54 ، 74 ، 76 ، 82 ، 232 ، 259 ، 260 ، 265 ، 366 ، 382

مصمودة السهل : 23 ، 46 ، 47 ، 48 ، 71 ، 73

مسعود ، أولاد : 79

مشتراية : 72 ، 82 ، 85 ، 86

مشنزاية : 23 ، 46 ، 54 ، 57 ، 70 ، 72 ، 73 ، 75 ، 79 ، 81 ، 82 ، 86 ، 123 ، 131 ، 230 ، 253 ، 266 ، 363 ، 381 ، 462

موحدون : 69 ، 73 ، 131 ، 132 ، 134

– ص –

صنهاجة تصغرت : 46 ، 47 . 49 ، 62 ، 71 ، 72 ، 75 ، 79 ، 131 ، 134

– ع –

عامر ، بنو : 83

عبدة : 37 ، 45 ، 46 . 47 .
49 ، 61 ، 63 ، 76 ، 81 .
84 ، 85 ، 93 ، 133 .
215 ، 216 ، 217 ، 219 ،
220 ، 230 ، 233 ، 234 ،
235 ، 257 ، 258 ، 265 ،
266 ، 267 ، 362 ، 364 ،
366 ، 378 ، 380 ، 385 ،
386 ، 389 ، 451 ، 463 ،
464 ، 465

عرب دكالة : 47 ، 54 ، 74 ،
75 ، 76 ، 92 ، 93 ، 104 ،
106 ، 109 ، 268

علوج : 384 ، 395

عمران إلسكاون : 73 ، 77 ، 80 ،
81 ، 84 ، 85 ، 218 ،
266 ، 268 ، 363

(أولاد) عمران ، ايت علي ،
الجنوبية : 79 ، 85 ، 214 ،
215 ، 216 ، 230 ، 233 .
235 ، 253 ، 257 ، 258 .
266 ، 267 ، 269 ، 270 .
317 ، 355 ، 363 ، 378 ،
467

(أولاد) عمور : 466

(أولاد) عيسَى : 79

– غ –

غربية : 37 ، 47 ، 49 ، 54 .
76 ، 77 ، 80 ، 81 ، 84 ،
85 ، 133 ، 215 ، 216 ،
219 ، 220 ، 230 ، 233 ،
235 ، 236 ، 258 ، 265 ،
266 ، 267 ، 362 ، 378 ،
381 ، 385 ، 388 ، 463 ،
465 ، 466

غياثة : 463 ، 465

– ف –

(أولاد) فرج : 47 ، 77 ، 85 ،
268 ، 269 ، 363

فرنسيون : 112 ، 303 ، 304 .
319 ، 406 ، 414

– ق –

قريش : 71

– س –

(أولاد) سبيطة : 47 ، 77 ، 79 ،
80 ، 81 ، 84 ، 85 ، 230 ،
268 ، 269 ، 363 ، 467

سعديون : 10 ، 15 ، 19 ، 20 ،
21 ، 28 ، 30 ، 35 ، 160 ،
212 ، 216 ، 217 ، 218 ،
219 ، 220 ، 231 ، 232 ،
234 ، 235 ، 238 ، 250 ،
255 ، 256 ، 271 ، 283 ،

287 ، 304 ، 355 ، 356 .
366 ، 368 ، 377 ، 380 ،
381 ، 382 ، 384 ، 385 ،
386 ، 388 ، 389 ، 390 ،
392 ، 393 ، 394 ، 396 ،
403 ، 405 ، 407 ، 415 ،
417 ، 418 ، 437 ، 441 ،
446 ، 451 ، 461 ، 465 ،
467 ، 468 ، 469 ، 488 ،
489

سفيان (بدكالة) : 74 ، 75 ، 76 ،
82 ، 83 ، 87 ، 131

سوالم : 230 ، 268 ، 369

– ش –

شجعة : 76 ، 81 ، 216 ، 230 .
266 ، 267

شرقية : 47 ، 49 ، 54 ، 56 .
76 ، 132 ، 133 ، 194 ،
197 ، 216 ، 230 ، 235 ،
253 ، 255 ، 257 ، 259 ،
263 ، 265 ، 268 ، 269 ،
271 ، 286 ، 362 ، 364 ،
366 ، 367 ، 381 ، 448 ،
449 ، 452 ، 465

شراكة : 463

– هـ –

هزميرة : 48 ، 72 ، 73

هلاليون : 87

هنا ، بنو : 79 ، 174 ، 182

هنتاتيون : 10 ، 15 ، 19 ، 28 ،
35 ، 184 ، 222 ، 233 ،
366 ، 367 ، 377 ، 379 ،
380 ، 382 ، 388 ، 437

هسكورة : 48 ، 83 ، 103 ، 104

هشتوكة : 463

– و –

وطاسيون : 10 ، 14 ، 15 ، 18 .
19 ، 21 ، 28 ، 30 ، 35 .
84 ، 162 ، 184 ، 208 .
217 ، 222 ، 231 ، 232 ،
233 ، 265 ، 354 ، 357 ،
360 ، 366 ، 367 ، 377 ،
380 ، 381 ، 382 ، 385 ،
387 ، 389 ، 391 ، 394 ،
395 ، 396 ، 403 ، 437 ،
460 ، 465 ، 467 ، 488

– ي –

(أولاد) يعقوب : 79 ، 80 ، 84 ،
85 ، 266

يونسيون : 174

(أولاد) يوسف : 230 ، 268 ،
269

بنويفرن : 125

3 - الأماكن

- أ -

الأبيض المتوسط : 57 ، 135 ، 149 ، 159 ، 183 ، 312
أحد أولاد فرج : 53
أحد بخاتي : 92
أخضر ، الوادي : 61
أرغين ، مركز تجاري : 38 ، 114 ، 152 ، 154 ، 157 ، 175 ، 182 ، 187 ، 281 ، 286 ، 306 ، 307 ، 308 ، 319 ، 323 ، 414 ، 483 ، 484 .
أزمور : 7 ، 9 ، 10 ، 12 ، 15 ، 16 ، 18 ، 19 ، 20 ، 21 ، 22 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 47 ، 48 ، 52 ، 58 ، 72 . 75 ، 77 ، 79 ، 80 ، 82 . 84 ، 86 ، 87 ، 88 ، 90 . 91 ، 94 ، 104 ، 105 ، 106 ، 108 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 ، 113 ، 115 ، 120 ، 121 ، 123 ، 127 ، 130 ، 131 ، 132 ، 135 ، 136 ، 137 ، 138 ، 156 ، 157 ، 160 ، 161 ، 163 ، 174 ، 175 ، 176 ، 177 ، 178 ، 179 ، 181 ، 182 ، 183 ، 185 ، 186 ، 187 ، 188 ، 192 ، 193 ، 196 ، 197 ، 205 ، 206 ، 207 ، 208 ، 210 ، 212 ، 214 ، 215 ، 216 ، 219 ، 223 . 232 ، 235 ، 237 ، 248 .

251 ، 252 ، 253 ، 255 ، 256 ، 262 ، 264 ، 265 ، 271 ، 272 ، 282 ، 284 ، 286 ، 287 ، 290 ، 292 ، 293 ، 299 ، 301 ، 302 ، 303 ، 305 ، 306 ، 308 ، 309 ، 310 ، 312 ، 317 ، 319 ، 323 ، 328 ، 337 ، 338 ، 339 ، 341 ، 347 ، 349 ، 350 ، 351 ، 366 ، 377 ، 378 ، 381 ، 383 ، 385 ، 386 ، 389 ، 390 ، 392 ، 393 ، 403 ، 404 ، 406 ، 407 ، 408 ، 409 ، 410 ، 411 ، 412 ، 417 ، 418 ، 420 ، 422 ، 423 ، 426 ، 428 ، 437 ، 438 ، 440 ، 441 ، 442 ، 444 ، 445 ، 446 ، 447 ، 460 ، 461 ، 462 ، 464 ، 467 ، 483 ، 484 ، 487 ، 489

أسوار أزمور : 438 ، 439 ، 441

سكان أزمور : 88 ، 441 ، 444

ضريبة أزمور : 180 ، 181 ، 196 ، 304

أطلس كبير : 76 ، 82 ، 108 ، 221 ، 232

أكدير : 60 ، 94 ، 164 ، 193 ، 211 ، 217 ، 254 ، 295 ، 301 ، 310 ، 335 ، 337 ، 381 ، 383 ، 384 ، 385 ، 391 ، 394 ، 395 ، 408 ، 410 ، 417 ، 420 ، 423 ، 424 ، 427 ، 428

أكلاكل : 232

أكوز : 22 ، 23 ، 71 ، 73 ، 81 ، 89 ، 90 ، 109 ، 218 ، 231 ، 235 ، 248 ، 266 ، 301 ، 335 ، 349 ، 351 ، 381 ، 387 ، 389 ، 465

ألمانيا : 155 ، 413

السكاون : 57 ، 73 ، 77 ، 87

أم الربيع : 7 ، 33 ، 45 ، 48 ، 49 ، 56 ، 57 ، 71 ، 72 ، 73 ، 75 ، 76 ، 77 ، 88 ، 92 ، 93 ، 108 ، 164 ، 174 ، 222 ، 223 ، 253 ، 292 ، 350 ، 353 ، 367 ، 382 ، 391 ، 471

شابل أم الربيع : 105 ، 112 ، 113 ، 180 ، 183 ، 188 ، 192 ، 214 ، 292 ، 319 ، 350 ، 471

أميركا : 292 ، 414 ، 425 ، 427
أمغور : 212 ، 232 ، 367
انجلترا : 310
أندلس : 21 ، 71 ، 107 ، 112 ، 154 ، 286 ، 410
أنكا : 467 ، 468
أنماي : 258 ، 364 ، 378
أنفا : 88 ، 91 ، 151 ، 281 ، 355
أصيلا : 29 ، 50 ، 113 ، 154 ، 160 ، 161 ، 162 ، 164 ، 185 ، 222 ، 247 ، 317 ، 340 ، 363 ، 390 ، 426 ، 460
أغمات : 90 ، 134 ، 301 ، 356 ، 360
افريقيا : 12 ، 29 ، 32 ، 38 ، 41 ، 63 ، 90 ، 102 ، 113 ، 137 ، 147 ، 148 ، 154 ، 157 ، 160 ، 232 ، 281 ، 292 ، 306 ، 319 ، 320 ، 413 ، 420 ، 425
أفوغال : 128
اسبانيا (قشتالة) : 29 ، 112 ، 113 ، 137 ، 150 ، 154 ، 157 ، 159 ، 184 ، 186 ، 210 ، 212 ، 213 ، 214 ، 223 ، 318 ، 359 ، 395 ، 400 ، 413 ، 414 ، 415 ، 424 ، 425 ، 484
آسفي : 7 ، 9 ، 10 ، 12 ، 14 ، 15 ، 16 ، 18 ، 19 ، 20 ، 21 ، 22 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 46 ، 48 ، 49 ، 50 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 58 ، 61 ، 62 ، 64 ، 73 ، 76 ، 80 ، 81 ، 82 ، 84 ، 86 ، 87 ، 89 ، 90 ، 92 ، 93 ، 94 ، 95 ، 104 ، 105 ، 106 ، 108 ، 110 ، 111 ، 112 ، 114 ، 115 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 127 ، 128 ، 130 ، 132 ، 134 ، 135 ، 136 ، 138 ، 154 ، 160 ، 161 ، 163 ، 173 ، 174 ، 175 ، 177 ، 178 ، 180 ، 182 ، 183 ، 184 ، 185 ، 186 ، 187 ، 188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 194 ، 195 ، 196 ، 205 ، 206 ، 207 ، 208 ، 209 ، 210 ، 212 ، 213 ، 214 ،

215 ، 217 ، 218 ، 219 ،
220 ، 222 ، 223 ، 230 ،
232 ، 235 ، 236 ، 237 ،
248 ، 252 ، 253 ، 256 ،
262 ، 264 ، 270 ، 272 ،
282 ، 283 ، 284 ، 285 ،
286 ، 288 ، 290 ، 292 ،
293 ، 295 ، 299 ، 300 ،
301 ، 302 ، 303 ، 306 ،
308 ، 309 ، 310 ، 315 ،
317 ، 318 ، 319 ، 320 ،
321 ، 323 ، 334 ، 336 ،
339 ، 341 ، 349 ، 350 ،
351 ، 352 ، 354 ، 355 ،
356 ، 360 ، 361 ، 365 ،
366 ، 377 ، 378 ، 379 ،
380 ، 383 ، 385 ، 386 ،
389 ، 391 ، 393 ، 403 ،
404 ، 405 ، 406 ، 408 ،
411 ، 412 ، 417 ، 418 ،
420 ، 422 ، 428 ، 437 ،
438 ، 440 ، 441 ، 444 ،
445 ، 446 ، 448 ، 461 ،
462 ، 463 ، 464 ، 465 ،
470 ، 483 ، 484 ، 485 ،
486 ، 487 ، 489

أسوار آسفي : 338 ، 438 ، 439 ، 440 ، 444 ، 445

أبواب آسفي : 89

سكان آسفي : 441 ، 445 ، 446

ربض آسفي : 257 ، 337 ، 392 ، 441 ، 466

ضريبة آسفي : 180 ، 181

جمارك آسفي : 181 ، 304 ، 305

عملة آسفي : 294

المناصب المالية والتجارية (آسفي) : 302

آسفي ، السلع المروجة :

الأنسجة الصوفية : 105 ، 112 ، 114 ، 183 ، 306

الحبوب : 88 ، 105 ، 106 ، 108 ، 112 ، 113 ، 114 ، 115 ، 154 ، 155 ، 163 ، 283 ، 284 ، 285 ، 287 ، 304

العقاقير : 113 ، 290 ، 311 ، 313 ، 314 ، 321 ، 322

التوابل : 113 ، 114 ، 312

الأنسجة الأوروبية : 309 ، 310 ، 311

الاسكندرية : 127

الآسور ، جزر : 148

آسيا : 318 ، 427

اشبيلية : 159 ، 290

أوروبا : 113 ، 124 ، 149 ، 154 ، 155 ، 156 ، 351 ، 413 ، 414 ، 438
إيبيريا : 137 ، 139 ، 154 ، 155 ، 286 ، 341 ، 358 ، 463
ايطاليا : 32 ، 159
أيير : 23 ، 46 ، 52 ، 57 ، 72 ، 90 ، 92 ، 223 ، 266 ، 267

– ب –

بادس : 153 ، 355
بجاية : 114
بدوزة (رأس) : 91
البريجة (الجديدة الحالية) : 437 ، 438 ، 442 ، 443 ، 444 ، 446 ، 447
البرازيل : 34 ، 154 ، 256 ، 422 ، 426 ، 427
بنكيز : 77 ، 93 ، 323 ، 366
بنور ، سيدي : 53 ، 55 ، 73 ، 77 ، 84 ، 106
بوجدور : 159
بورغوس ، مدينة اسبانية : 383
بوزيد (سيدي) : 89
بولعوان : 92 ، 93 ، 174

– ت –

تادنيست : 31 ، 121 ، 136 ، 176 ، 218 ، 221 ، 232 ، 358 ، 382
تادلة : 21 ، 70 ، 93 ، 103 ، 104 ، 136 ، 301 ، 303 ، 355 ، 389 ، 394
تارتير : 82 ، 92 ، 230 ، 236 ، 243 ، 301
تارغة : 92 ، 93 ، 381 ، 447
تازروت : 79 ، 80 ، 81 ، 92 ، 223 ، 230 ، 266 ، 267 ، 269 ، 301 ، 380 ، 392 ، 393
تامسنا : 46 ، 48 ، 49 ، 70 ، 74 ، 76 ، 104 ، 208 ، 212 ، 232
تانسيفت : 7 ، 45 ، 48 ، 49 . 57 ، 62 ، 71 ، 72 ، 74 . 76 ، 81 ، 82 ، 90 ، 93 ، 174 ، 216 ، 217 ، 218 ، 220 ، 223 ، 232 ، 235 ، 236 ، 301 ، 335 ، 378 ، 465
تافيلالت : 394

تافزة : 136

تافوف : 77 ، 93 ، 232 ، 366

تركيا : 355

تركوكو : 220 ، 383 ، 390 ، 391

تطوان : 153 ، 161 ، 162 ، 222

تكاوست : 87

تكرانت : 23 ، 79 ، 80 ، 92 ، 230

تمركشت : 48 ، 87

تلمسان : 114

تنبوكتو : 395

تفطنا : 102 ، 176 ، 232 ، 390 ، 391

تقُليعت : 121 ، 176

تونس : 38 ، 114

تيدسي : 87

تيط : 26 ، 31 ، 33 ، 46 ، 47 ، 52 ، 57 ، 58 ، 62 ، 64 ، 72 ، 87 ، 91 ، 93 ، 109 ، 113 ، 120 ، 121 ، 124 ، 125 ، 127 ، 131 ، 206 ، 268 ، 284 ، 301 ، 335 ، 349 ، 381 ، 437 ، 444 ، 447 ، 450 ، 466 ، 484

تيكورارين : 469

- جـ -

جبل الحديد : 54 ، 55 ، 57 ، 62 ، 63 ، 82 ، 84 ، 128 ، 323 ، 424 ، 449

الجبل الأخضر : 48 ، 54 ، 57 ، 63 ، 64 ، 73 ، 77 ، 80 ، 82 ، 93 ، 128 ، 222 ، 381 ، 473

جبل الخروب : 162

جبل طارق : 154

جبل بني ماكر : 29 ، 48 ، 54 ، 58 ، 63 ، 82 ، 84 ، 93 ، 106 ، 122 ، 174 ، 190 ، 218 ، 228 ، 230 ، 231 ، 283 ، 301 ، 323 ، 381 ، 389 ، 392 ، 383 ، 427 ، 447 ، 465 ، 474

جرف الأصفر : 50 ، 52 ، 79 ، 82

جرف اليهودي : 50 ، 52

الجزائر : 76

الجمعة ، قرية : 221 ، 236

حاحة : 10 ، 28 ، 71 ، 89 ، 93 ، 103 ، 104 ، 113 ، 121 ، 124 ، 136 ، 160 ،

176 ، 209 ، 222 ، 232 ،
236 ، 378 ، 383 ، 384 ،
390

الحبشة : 89

الحوز : 10 ، 22 ، 23 ، 28 ،
76 ، 82 ، 93 ، 109 ،
211 ، 215 ، 217 ، 218 ،
223 ، 229 ، 231 ، 235 ،
236 ، 301 ، 303 ، 308 ،
355

- خ -

الخليج العربي : 27 ، 416

خميس الزمامرة : 55

- د -

دار لامينا : 300

دار الفارس : 33 ، 52 ، 82 ،
91 ، 105 ، 193 ، 230 ،
284 ، 285

دار القائد التونسي : 50

دار الهند : 300

درعة : 312

- ر -

الرأس الأخضر ، جزر : 149 ، 426

رأس القصب : 50 ، 52 ، 57

الرباط : 10 ، 28 ، 55 ، 236

رباط شاكر : 125

الرحامنة ، منطقة : 49 ، 53

- ز -

زاوية سايس : 48 ، 50 ، 82 ،
92 ، 132 ، 253

- ط -

طنجة : 148 ، 151 ، 154 ،
156 ، 158 ، 160 ، 161 ،
162 ، 164 ، 185 ، 316 ،
335

طُرّي دُوطُونْبو أرشيف : 16 ، 23 ،
28 ، 36

- ك -

كطلونيا : 112

كراندو : 23 ، 230

كليز : 351

كناري ، جزر : 186 ، 303 ، 353

كنتور ، نجد : 7 ، 23 ، 54 ،
80 ، 83 ، 92 ، 93 ، 230 ،
355

كوا (الهند) : 417 ، 423

كونتي : 50 ، 52 ، 57 ، 91 ،
114 ، 156 ، 217 ، 230 ،

231 ، 387
كوشين (بالشرق الأقصى) : 417

- ل -

لامينا : 38 ، 114 ، 154 ، 156 ، 159 ، 187 ، 281 ، 306 ، 414 ، 483
لكوش (Lagos) (بجنوب البرتغال) : 162
لشبونة : 17 ، 22 ، 27 ، 35 ، 133 ، 151 ، 159 ، 189 ، 192 ، 217 ، 264 ، 282 . 290 ، 294 ، 295 ، 306 . 341 ، 342 ، 357 ، 379 ، 390 ، 391 ، 425 ، 462

- م -

مائة بئر وبئر : 81 ، 87 ، 92 ، 103 ، 136
ماديرا ، جزيرة : 22 ، 148 ، 149 ، 159 ، 223 ، 286 ، 290 ، 291 ، 317 ، 320 ، 406 ، 422 ، 463
مازيغن : 10 ، 19 ، 22 ، 24 ، 26 ، 33 ، 37 ، 39 ، 50 ، 53 ، 88 ، 91 ، 113 . 160 ، 164 ، 175 ، 193 . 194 ، 197 ، 229 ، 236 ، 251 ، 254 ، 258 ، 264 ، 271 ، 283 ، 284 ، 285 ، 286 ، 296 ، 335 ، 338 ، 354 ، 365 ، 385 ، 389 ، 393 ، 406 ، 411 ، 413 ، 423 ، 424 ، 438 ، 442 ، 450 ، 466
مالقة : 112
ماسة : 135 ، 184 ، 185 ، 262 ، 264 ، 302 ، 310 ، 339 ، 343 ، 404
المحيط الهندي : 416
مخازن ، وادي (معركة) : 7 ، 8 ، 162
المدينة الغربية : 9 ، 22 ، 48 ، 58 ، 61 ، 73 ، 77 ، 79 ، 81 ، 82 ، 86 ، 90 ، 120 ، 130 ، 138 ، 174 ، 175 ، 176 ، 184 ، 193 ، 206 ، 223 ، 230 ، 231 ، 236 ، 264 ، 268 ، 269 ، 301 ، 318 ، 351 ، 353 ، 381 ، 385 ، 386 ، 446 ، 447 ، 448 ، 460 ، 463 ، 464 ، 466
مراكش : 9 ، 10 ، 19 ، 20

51 ، 73 ، 76 ، 79 ، 92 .
93 ، 108 ، 131 ، 134 .
174 ، 205 ، 206 ، 207 ،
208 ، 209 ، 211 ، 231 ،
235 ، 308 ، 323 ، 336 .
359 ، 361 ، 362 ، 364 ،
377 ، 378 ، 385 ، 388 ،
390 ، 392 ، 394 ، 405 ،
410 ، 418 ، 419 ، 423 .
424 ، 447 ، 451 ، 467 .
470 ، 471

مرامير : 48 ، 87 ، 93 ، 174

مرسيليا : 112

مكناس : 232 ، 420 ، 462

المليحة ، قرية : 162 ، 422

مليلية : 50 ، 153

المعمورة ، حصن : 18 ، 19 ،
135 ، 160 ، 205 ، 208 ،
234 ، 290 ، 343 ، 386 ،
420 ، 422

مغدور : 19 ، 160 ، 164 .
189 ، 223 ، 230 ، 249 .
422

موريطانيا : 114 ، 156

موكرس : 53 ، 58 ، 77 ، 267 ،
271

موسى ، سيدي (خليج) : 50

– ن –

نامير : 23 ، 92 ، 266 ، 267

– ع –

العبيد وادي : 48 ، 384

العرائش : 154 ، 160 ، 162 ،
290

– غ –

غساسة : 153

الغرب : 61 ، 351 ، 379 ،
382 ، 451

غينيا : 160 ، 184 ، 316

– ف –

فارو : 154

فاس : 21 ، 72 ، 92 ، 103 ،
105 ، 206 ، 256 ، 257 ،
288 ، 290 ، 312 ، 340 ،
367 ، 377 ، 379 ، 381 ،
386 ، 388 ، 390 ، 391 ،
393 ، 394 ، 408 ، 415 ،
419 ، 420 ، 441

فلندرا : 112 ، 310 ، 312 .
413 ، 462 ، 467 ، 470

– ق –

قادس : 159 ، 290

القصر الكبير : 162 ، 222 ، 340 ، 361

القصر الصغير : 151 ، 161 ، 162 ، 164 ، 195 ، 317

– س –

ساوطومي جزيرة : 426

سايس : 47 ، 61 ، 82 ، 92 ، 132 ، 252 ، 381

سبتة : 50 ، 113 ، 148 ، 149 ، 150 ، 151 ، 152 ، 153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 157 ، 158 ، 160 ، 161 ، 162 ، 163 ، 164 ، 185 ، 247 ، 317 ، 319 ، 363

سبو : 206 ، 208 ، 386

سُبيت : 77 ، 79 ، 92 ، 93 ، 445

سجلماسة : 312

سحيم : 53 ، 54 ، 73 ، 84 ، 92 ، 106

سرنو : 58 ، 81 ، 84 ، 87 ، 92 ، 109 ، 219 ، 220 ، 261 ، 381

سكياط : 221 ، 236

سنترا (معاهدة) : 19

سلا : 135 ، 160 ، 208 ، 256 ، 290 ، 301 ، 303 ، 338 ، 343 ، 349 ، 351 ، 379 ، 420 ، 441 ، 451

السودان (الغربي) : 94 ، 103 ، 105 ، 114 ، 155 ، 157

سور جديد ، قرية : 69 ، 387

سور قديم (قرية) : 86

سور موسَى : 86

سومترا : 414

سوس : 87 ، 103 ، 121 ، 127 ، 157 ، 217 ، 218 ، 222 ، 231 ، 300 ، 301 ، 315 ، 384 ، 390 ، 423 ، 446 ، 451 ، 463

– ش –

الشاون : 162 ، 222 ، 304

الشاوية : 80 ، 87 ، 88 ، 92 ، 108 ، 208 ، 231 ، 235 ، 236 ، 251 ، 257 ، 259 ، 265 ، 266 ، 281 ، 299 ، 349 ، 366 ، 379 ، 386 ، 449 ، 462

الشرق الأقصَى : 27 ، 264 .
413 ، 415 ، 416 ، 417
الشياظمة : 10 ، 22 ، 23 ، 28 ،
30 ، 48 ، 82 ، 89 ، 93 ،
108 ، 215 ، 217 ، 218 ،
221 ، 223 ، 230 ، 231 ،
232 ، 234 ، 235 ، 236 ،
255 ، 257 ، 258 ، 265 ،
266 ، 288 ، 291 ، 292 ،
301 ، 349 ، 357 ، 363 ،
364 ، 365 ، 376 ، 377 ،
388 ، 449 ، 452 ، 465
شيشاوة : 73

– هـ –

الهبط : 50 ، 61 ، 103 ، 147 ،
361
الهند : 34 ، 90 ، 147 ، 152 .
154 ، 157 ، 158 ، 160 .
254 ، 311 ، 320 ، 413 .
414 ، 418 ، 427
هولندا : 446
هسكورة (المنطقة) : 48 ، 49 ،
77 ، 103 ، 104 ، 122 ،
136 ، 177 ، 231 ، 235 ،
303 ، 465

– و –

ورارة ، بحيرة : 57 ، 77 ، 381
ورزازات : 127
وليدية : 50 ، 55 ، 90 ، 92
وهران : 38 ، 114
ويرس : 267 ، 269

– ي –

يابرة : 150 ، 342

فهرست

المقدمة، موضوع الدراسة، منهجه ومصادره........................ 7 ـ 41

الباب الاول
أوضاع دكالة قبل تعرضها للغزو البرتغالي

الفصل الاول: خصائص دكالة الطبيعية.......................... 45

1 ـ تطور استعمال اسم المنطقة وحدودها.......................... 46

2 ـ التضاريس.......................... 50

3 ـ المناخ.......................... 55

4 ـ مشكل الماء بدكالة الى حدود القرن 57

5 ـ الغطاء النباتي.......................... 61

الفصل الثاني: تعمير دكالة وتطورها الديموغرافي.......................... 69

1 ـ عناصر السكان.......................... 71

(أ) الفترة البربرية.......................... 71

(ب) دخول القبائل العربية الى دكالة.......................... 74

2 ـ توزيع العناصر السكانية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية

عشر.......................... 75

(أ) انتشار القبائل العربية.......................... 76

ـ قبائل الشرقية.......................... 77

ـ قبيلة الغربية........................ 80
ـ قبيلة عبدة........................ 81
(ب) انتشار القبائل البربرية........................ 81
ـ مشنزاية........................ 81
ـ بني ماكر........................ 82
ـ رجراجة........................ 82
3 ـ تقدير عدد سكان دكالة في بداية القرن السادس عشر........ 83
4 ـ نمط عيش السكان........................ 85
(أ) الاستقرار والترحال........................ 85
(ب) نسبة التمدن وأهم المدن والقرى........................ 87
5 ـ علاقة المدن بالبوادي في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر. 93

الفصل الثالث: أوضاع دكالة الاقتصادية قبل احتلالها........... 103
1 ـ الفلاحة........................ 105
ـ الزراعة........................ 106
ـ تربية المواشي........................ 109
2 ـ الصناعات الدكالية........................ 109
3 ـ التجارة........................ 111

الفصل الرابع: المجتمع الدكالي وتطوره لى حدود القرن السادس عشر. 119
1 ـ تحسن مستوى معيشة السكان من حضريين وقرويين.......... 120
2 ـ عقلية الدكالي ومكانة رجال الزوايا لديه.............. 124
3 ـ الفئات الاجتماعية وموقفها السياسي من الفتن ووصول التجار الايبريين 131
(أ) تقوية نفوذ شيوخ القبائل........................ 131
(ب) رجال الزوايا........................ 133

(ج) التجار 135
(د) الجالية اليهودية الدكالية 136
(هـ) العامة 137

الباب الثاني

مراحل ومظاهر تحكم البرتغاليين في دكالة

الفصل الاول: الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، نتائج المرحلة الشمالية على تعامل البرتغاليين مع مدن دكالة 147
1 ـ العوامل والوسائل 148
(أ) العوامل 148
ـ العامل الديني .... 148 - 153
ـ العامل الاستراتيجي ومحاربة الجهاد البحري الاسلامي 153
ـ العوامل الاقتصادية : القمح،الذهب،العبيد،التجارة 154
ـ العوامل الاجتماعية 157
(ب) الوسائل 158
2 ـ المراحل 159
(أ) المرحلة الشمالية ونتائجها 161
(ب) المرحلة الجنوبية وخصائصها العامة 164

الفصل الثاني: التجربة السياسية البرتغالية مع حاضرتي دكالة : من الولاء الى الاحتلال.
1 ـ فترة ولاء آسفي وأزمور: تحليل المعاهدتين 173
(أ) استقلال الحاضرتين واختياراتهما السياسية 174

(ب) دخولهما تحت حماية التاج البرتغالي وامضاء المعاهدتين. 177
(ج) مقارنة المعاهدتين. 182
(د) هل كان امضاؤهما ضروريا، وأمرا لا مفر منه؟. 183
2 ـ تدخل البرتغاليين في سياسة آسفي وأزمور: فترة الانقلابات والمؤامرات 186
(أ) أسباب تحول السياسة البرتغالية. 186
(ب) انقلابات آسفي. 188
(ج) التآمر على بعض المدن والقرى اعتمادا على بعض الاعيان: أزمور اعتمادا على زيان، مشاريع يحيى الزيات بشأن المدينة الغربية ومراكش، مشروع سالم بن عمر بشأن مازيغن........................ 191
3 – التدخل العسكري واحتلال آسفي وأزمور................ 194
(ا) مشروع تحصين مازيغن.......................... 194
(ب) احتلال آسفي.................................. 194
(ج) احتلال أزمور................................. 196

الفصل الثالث: محاولات التوسع بدكالة والمناطق المجاورة. الوسائل والمراحل. . . . .
1 ـ هل يمكن الكلام عن سياسة برتغالية جديدة اصبحت تعمل على التحكم في «مملكة مراكش». 205
2 ـ الوسائل المسخرة. 209
(أ) الجيش. 209
(ب) السلاح. 211
(ج) التنظيم العسكري. 213
(د) التجسس والرشاوي. 214
(هـ) دور الشيوخ والاعيان في اخضاع القبائل. 215
(و) دور الفراغ السياسي وانبساط التضاريس. 221

3 ـ مراحل التوسع 222

الباب الثالث
التنظيمات التي استحدثها البرتغاليون بدكالة

الفصل الاول: التنظيم الاداري والجبائي 247
1 ـ التنظيم الاداري 248
(أ) سلطة القبطان 248
(ب) مساعدوه 254
ـ من البرتغاليين: الكنتدور (المحاسب)، الكاتب، الفكاك .. 254
ـ من اليهود: المهمات التي كانوا يكلفون بها 255
ـ من المسلمين: الشيوخ والقواد 256
(ج) نوع النظام المفروض على المنطقة؟ 262
2 ـ التقسيم الاداري بدكالة على عهد الاحتلال البرتغالي 264
3 ـ التنظيم الجبائي وأنواع الضرائب المفروضة على المنطقة 266

الفصل الثاني: تنظيم استغلال طاقات دكالة الانتاجية والاستهلاكية ... 281
1 ـ البرتغاليون وموارد المنطقة الفلاحية والزراعية 282
ـ الزراعة: اهتمام البرتغاليين بالانتاج والشراء 282
ـ البرتغاليون واهتمامهم بمواشي المنطقة 291
ـ الصيد بنهر أم الربيع 292
2 ـ تنظيم المبادلات التجارية بموانىء دكالة 293
(أ) الوسائل 293
ـ وسائل القياس والطول والمكاييل ....

ـ العملات 294
ـ الطرق التجارية 301
(ب) المسؤ ولون التجاريون والمناصب التجارية والمالية 302
ـ مختلف المناصب التجارية والمالية 302
ـ ـ من هم التجار؟ 303
ـ الاطار الذي كانت تتم فيه المبادلات 304
3 ـ أهم السلع المتبادلة 306
(أ) الانسجة ....
ـ انواع وكميات الانسجة المحلية 306
ـ اهم الانسجة المستوردة 308
(ب) العقاقير ومستلزمات النسيج 310
(ج) التوابل 312
(د) معادن أو مواد معدنية 314
(هـ) العقيق 315
(و) الرقيق 316
4 ـ ملاحظات عامة حول هذه المبادلات ومكانة دكالة داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية 318
الفصل الثالث: التنظيم الديني وأوضاع اليهود والمسلمين 333
1 ـ انشاء اسقفية آسفي وتنظيمها 333
2 ـ أوضاع اليهود والمسلمين 336
(أ) أوضاع اليهود 336
(ب) أوضاع المسلمين 337
3 ـ مشكل الردة 338
(أ) الردة لدى المسلمين وأسبابها الرئيسية 339

(ب) الردة لدى اليهود.................. 341
(ج) مدى صدق المرتدين.................. 341

الباب الرابع
ردود الفعل التي سببها الغزو البرتغالي بدكالة

الفصل الاول: موقف الفئات الاجتماعية الدكالية من الاستعمار البرتغالي. 349
1 ـ خصائص ردود الفعل الشعبية.................. 349
2 ـ موقف الشيوخ والاعيان من الاستعمار البرتغالي.......... 352
3 ـ موقف الجالية اليهودية الحقيقي من الاستعمار البرتغالي.......... 358
4 ـ موقف الفقهاء ورجال الدين من التوسع البرتغالي بدكالة....... 360
5 ـ موقف التجار.................. 361
6 ـ موقف القبائل الدكالية الحقيقي.................. 362

الفصل الثاني: المقاومة الرسمية.................. 377
1 ـ لماذا تأخر رد فعل المسؤ ولين المغاربة؟.................. 377
2 ـ أوقات الحركات والغاية منها.................. 379
3 ـ الوسائل المسخرة والنتائج المحصل عليها.......... 382
(أ) الوسائل.................. 382
(ب) النتائج.................. 387
4 ـ نتائج الصراع الوطاسي السعدي على الجهاد بدكالة.......... 389

الفصل الثالث: تأزم اوضاع البرتغاليين داخل الثغور الدكالية واجلاؤهم عن آسفي وأزمور.................. 403
1 ـ تضارب مصالح الفئات البرتغالية المهتمة بالغزو.......... 404

(أ) سياسة الملك البرتغالي وتصوره للتحكم في دكالة........ 404
(ب) تصور التجار للغزو.................... 404
(ج) تصور النبلاء والفرسان والمرتزقة للغزو............ 405
(د) تصور الجنود للغزو واوضاعهم داخل الثغور......... 408
2 ـ الظرفية الاقتصادية الجديدة بدكالة وأثرها ـ على موقف المسؤولين من المنطقة.......................... 410
ـ الاوضاع الجديدة داخل الثغور الدكالية............. 411
ـ تزايد مشاكل البرتغال داخل امبراطوريته التجارية......... 413
3 ـ التفكير في الجلاء عن آسفي وأزمور............... 416
(أ) اطروحة الملك والادارة المركزية................ 417
(ب) موقف النبلاء من الاقتراح الملكي والقرار المتخذ بعد ذلك.. 419
4 ـ الجلاء عن آسفي وأزمور والاحتفاظ بمزغان............ 423
(أ) تاريخ الحادث......................... 424
(ب) موقف المؤرخين من فشل الغزو البرتغالي.......... 425

الباب الخامس

النتائج العامة للغزو

الفصل الاول: نتائج الغزو على مدن وقرى واوضاع دكالة الاقتصادية.. 437
1 ـ النتائج على المدن والقرى الدكالية................ 438
(أ) تقلص رقعة المدن المحتلة وتحويلها الى قلاع لا يربطها اي رابط بما يحيط بها........................... 438
(ب) خراب جل القرى الدكالية................ 446
2 ـ النتائج الاقتصادية للغزو.................... 447
(أ) تراجع الانتاج كما تجلى في:

– تقلص الرقعة المزروعة 448
– افتقار المنطقة إلى الحبوب بصفة دائمة بعد 1514 . 449
- هل كان بامكان المنطقة أن تنتعش بسرعة بعد تحرير آسفي وأزمور؟ 450
(ب) تراجع اعداد المواشي بدكالة 452

الفصل الثاني النتائج الاجتماعية والثقافية للغزو 459
1 - هل استفاد الدكاليون - والمغاربة عموما - من تفوق البرتغاليين عليهم في بعض القطاعات 459
2 - النتائج الديموغرافية للغزو 462
3 - نتائج الغزو والاوضاع الاقتصادية التي سببها على التشكيل الاجتماعي وعلى علاقة فئاته مع بعضها ....
(أ) تفكك الاسرة الدكالية 463
(ب) أوضاع القبيلة الدكالية الجديدة 465
(ج) على مكانة الشيوخ والقواد 466
(د) على الزوايا من خلال مثال زاوية ابي محمد صالح 467
(هـ) على الوسطاء السياسيين والتجاريين 469
(و) سيطرة الصراعات داخل المجتمع المغربي 470
4 - النتائج الثقافية والدينية للغزو 472
(ا) تراجع المؤسسات العلمية 472
(ب) احدث الغزو بلبلة خطيرة في الافكار والمعتقدات 473
الخاتمة 483
الملاحق :
1 - سجل الضرائب البرتغالي 491
2 - الايصالات : 522

(أ) الايصالات المتعلقة بآسفي 523
(ب) الايصالات المتعلقة بازمور 569
(ج) ايصال متعلق بمزغان 581
(د) ايصال بشراء القمح بالمغرب 582
3 ـ وثيقة تتعلق بقنص الرجال بدكالة 585
4 ـ بعض محاضر محكمة التفتيش المتعلقة بازمور ومزغان 591
5 ـ الفهارس :
(أ) الخرائط والرسوم البيانية 595
(ب) الجداول 596-595
(ج) فهرست المواد 609

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

صدر عن

دار الثقافة
34.32 شارع فكتور هيكو
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (03) المغرب
الهاتف: 30.76.44 - 30.23.75

* المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين
للدكتور نجيب محمد البهبيتي

* المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ
للدكتور نجيب محمد البهبيتي

* تاريخ الشعر العربي حتَّى آخر القرن الثالث الهجري
للدكتور نجيب محمد البهبيتي

* المعلقات سيرة وتاريخاً
للدكتور نجيب محمد البهبيتي

* الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث
للدكتور محمد الكتاني

* الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي
للأستاذ لحميداني حميد

* فصول في النقد العربي وقضاياه
للأستاذ محمد خير شيخ موسَى

* الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث
للأستاذين أبا عوص محمد والفاربي عبد اللطيف

* زهر الأكم في الأمثال والحكم
حققه الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر

* رسائل أبي علي الحسن ابن مسعود اليوسي
للأستاذة فاطمة خليل القبلي.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 11 – 1984

الثمن: 60،00 درهما